

التاريخ السري لإخلاء الجبلtram مصر

ألفه

مستر الفريد سكاون بلنت

وَأَجَمَّةٌ وَالْقَوْمُ مَا فِيهِ

الشيخ محمد عبده

تمهيد

عبد القادر حمزة

ذيل الكتاب يحتوي على :

- ١ - تاريخ عرابي بضمه وبعض حوادث سنة ١٨٨٢م بضمه أيضا .
- ٢ - وتقريرين عن بعض هذه الحوادث بضم الشيخ محمد عبده .
- ٣ - وثقائير أخرى من جبرون نينه - فنيو عرابي ومن بعض المصريين الذين اشتبكوا في تلك الحوادث
- ٤ - وبرتالي الحزب الوطني وعظما بات من مستر فعدريستون .
- ٥ - والبرستور المصري سنة ١٨٨٢م



42 Opera Square • Cairo Tel: (202) 2390868

مكتبة الأديب

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت ٢٣٩٠٨٦٨

السياح السرى

لأجل لال انجمل لال مصر

الفهامة الفرد سكاون لبننت
واربعة ووافق على ما في الشينج محم عبد

تمت بقاء عبد القادر حمزة

ذيل الكتاب بحوى على تاريخ لال لال بقلية وبعض جوارث ١٨٨٤
بقلية ايضا. وتغير بين بعض هذه الجوارث بقلية الشينج محم عبد.
وتقارير اخرى من جون ندينه رفيق لال ومن بعض المصيرين الذين
اشتركوا في لال الجوارث. وبنانج لال الوطنى وخطابات
من ستر غلادستون. والديسوز لال ١٨٨٢

مكتبة الأكارب



مكتبة الأَدَابِ
علي حسن

عناقة شهوية

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة للدار الكتب والوثائق القومية

ادارة الشؤون الفنية

بلت ، الفريد مكارون.

التاريخ الري لاحتلال المجلدات مصر/

الفه ألفريد سكاون بلنت :

وأحمد محمد عبد : تمهيد عبد القادر حمزة . -

القاهرة: مكتبة الأناضول، ٢٠٠٨.

Y E T O A Y

٩٧٧ ٧٤٦ ٩٤٩ ١ تدمك

١ - مصر - تاريخ - العصر الحديث - الاحتلال

البريطاني (1882-1906)

۱- محمد عبده، محمد عبده بن حسن عمر الله، ۱۸۵۰-۱۹۰۵ (مراجع)

ب - حمزة ، عبدالقادر (تمهيد)

جيد - العثوان

477.41

مكتبة الآداب

علی حسن

١٧ ميداني (١٩٧٠) - القاهرة

— (1997) 1997, 1998, 1999, 2000, 2001, 2002, 2003, 2004, 2005, 2006, 2007, 2008, 2009, 2010, 2011, 2012, 2013, 2014, 2015, 2016, 2017, 2018, 2019, 2020, 2021, 2022, 2023, 2024, 2025, 2026, 2027, 2028, 2029, 2030, 2031, 2032, 2033, 2034, 2035, 2036, 2037, 2038, 2039, 2040, 2041, 2042, 2043, 2044, 2045, 2046, 2047, 2048, 2049, 2050, 2051, 2052, 2053, 2054, 2055, 2056, 2057, 2058, 2059, 2060, 2061, 2062, 2063, 2064, 2065, 2066, 2067, 2068, 2069, 2070, 2071, 2072, 2073, 2074, 2075, 2076, 2077, 2078, 2079, 2080, 2081, 2082, 2083, 2084, 2085, 2086, 2087, 2088, 2089, 2090, 2091, 2092, 2093, 2094, 2095, 2096, 2097, 2098, 2099, 2100, 2101, 2102, 2103, 2104, 2105, 2106, 2107, 2108, 2109, 2110, 2111, 2112, 2113, 2114, 2115, 2116, 2117, 2118, 2119, 2120, 2121, 2122, 2123, 2124, 2125, 2126, 2127, 2128, 2129, 2130, 2131, 2132, 2133, 2134, 2135, 2136, 2137, 2138, 2139, 2140, 2141, 2142, 2143, 2144, 2145, 2146, 2147, 2148, 2149, 2150, 2151, 2152, 2153, 2154, 2155, 2156, 2157, 2158, 2159, 2160, 2161, 2162, 2163, 2164, 2165, 2166, 2167, 2168, 2169, 2170, 2171, 2172, 2173, 2174, 2175, 2176, 2177, 2178, 2179, 2180, 2181, 2182, 2183, 2184, 2185, 2186, 2187, 2188, 2189, 2190, 2191, 2192, 2193, 2194, 2195, 2196, 2197, 2198, 2199, 2200, 2201, 2202, 2203, 2204, 2205, 2206, 2207, 2208, 2209, 2210, 2211, 2212, 2213, 2214, 2215, 2216, 2217, 2218, 2219, 2220, 2221, 2222, 2223, 2224, 2225, 2226, 2227, 2228, 2229, 2230, 2231, 2232, 2233, 2234, 2235, 2236, 2237, 2238, 2239, 2240, 2241, 2242, 2243, 2244, 2245, 2246, 2247, 2248, 2249, 2250, 2251, 2252, 2253, 2254, 2255, 2256, 2257, 2258, 2259, 2260, 2261, 2262, 2263, 2264, 2265, 2266, 2267, 2268, 2269, 2270, 2271, 2272, 2273, 2274, 2275, 2276, 2277, 2278, 2279, 2280, 2281, 2282, 2283, 2284, 2285, 2286, 2287, 2288, 2289, 2290, 2291, 2292, 2293, 2294, 2295, 2296, 2297, 2298, 2299, 2300, 2301, 2302, 2303, 2304, 2305, 2306, 2307, 2308, 2309, 2310, 2311, 2312, 2313, 2314, 2315, 2316, 2317, 2318, 2319, 2320, 2321, 2322, 2323, 2324, 2325, 2326, 2327, 2328, 2329, 2330, 2331, 2332, 2333, 2334, 2335, 2336, 2337, 2338, 2339, 2340, 2341, 2342, 2343, 2344, 2345, 2346, 2347, 2348, 2349, 2350, 2351, 2352, 2353, 2354, 2355, 2356, 2357, 2358, 2359, 2360, 2361, 2362, 2363, 2364, 2365, 2366, 2367, 2368, 2369, 2370, 2371, 2372, 2373, 2374, 2375, 2376, 2377, 2378, 2379, 2380, 2381, 2382, 2383, 2384, 2385, 2386, 2387, 2388, 2389, 2390, 2391, 2392, 2393, 2394, 2395, 2396, 2397, 2398, 2399, 2400, 2401, 2402, 2403, 2404, 2405, 2406, 2407, 2408, 2409, 2410, 2411, 2412, 2413, 2414, 2415, 2416, 2417, 2418, 2419, 2420, 2421, 2422, 2423, 2424, 2425, 2426, 2427, 2428, 2429, 2430, 2431, 2432, 2433, 2434, 2435, 2436, 2437, 2438, 2439, 2440, 2441, 2442, 2443, 2444, 2445, 2446, 2447, 2448, 2449, 2450, 2451, 2452, 2453, 2454, 2455, 2456, 2457, 2458, 2459, 2460, 2461, 2462, 2463, 2464, 2465, 2466, 2467, 2468, 2469, 2470, 2471, 2472, 2473, 2474, 2475, 2476, 2477, 2478, 2479, 2480, 2481, 2482, 2483, 2484, 2485, 2486, 2487, 2488, 2489, 2490, 2491, 2492, 2493, 2494, 2495, 2496, 2497, 2498, 2499, 2500, 2501, 2502, 2503, 2504, 2505, 2506, 2507, 2508, 2509, 2510, 2511, 2512, 2513, 2514, 2515, 2516, 2517, 2518, 2519, 2520, 2521, 2522, 2523, 2524, 2525, 2526, 2527, 2528, 2529, 2530, 2531, 2532, 2533, 2534, 2535, 2536, 2537, 2538, 2539, 2540, 2541, 2542, 2543, 2544, 2545, 2546, 2547, 2548, 2549, 2550, 2551, 2552, 2553, 2554, 2555, 2556, 2557, 2558, 2559, 2560, 2561, 2562, 2563, 2564, 2565, 2566, 2567, 2568, 2569, 2570, 2571, 2572, 2573, 2574, 2575, 2576, 2577, 2578, 2579, 2580, 2581, 2582, 2583, 2584, 2585, 2586, 2587, 2588, 2589, 2590, 2591, 2592, 2593, 2594, 2595, 2596, 2597, 2598, 2599, 2600, 2601, 2602, 2603, 2604, 2605, 2606, 2607, 2608, 2609, 2610, 2611, 2612, 2613, 2614, 2615, 2616, 2617, 2618, 2619, 2620, 2621, 2622, 2623, 2624, 2625, 2626, 2627, 2628, 2629, 2630, 2631, 2632, 2633, 2634, 2635, 2636, 2637, 2638, 2639, 2640, 2641, 2642, 2643, 2644, 2645, 2646, 2647, 2648, 2649, 2650, 2651, 2652, 2653, 2654, 2655, 2656, 2657, 2658, 2659, 2660, 2661, 2662, 2663, 2664, 2665, 2666, 2667, 2668, 2669, 2670, 2671, 2672, 2673, 2674, 2675, 2676, 2677,

e-mail: adabook@hotmail.com

عنوان الكتاب: التاريخ الصوري لاحتلال إنجلترا مصر

تأليف: مستر الأزهد عثمان بيوت

وقد الإلهام: ١١٤٧ لسنة ١٩٧٧م

التزقيم الدولي: I.S.B.N. 977 - 241 - 949 - 1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على نبينا الكريم

تمهيد

نحن وقار نخنا الحديث

كل مانعاه مصر الآن من جراء الاحتلال البريطاني، وكل مانعاه من في سبعة وأربعين عاما مضت، وكل مانعاه من الى أن تحصل على استقلالها التام، مرتبط بالحوادث التي كانت مصر مسرحا لها من عهد الخديو اسماعيل باشا الى أن احتل الانجليز القاهرة في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢. وذلك أن هذه الحوادث كانت مقدمات أو عللا والحالة التي نحن فيها الآن نتائج لها أو معلولات، وقد كان هذا داعيا لأن نعرف تلك الحوادث معرفة بحث ودراسة لتعرف كيف ومن أين ابتدأنا ولكننا مع الأسف لا نعرف منها الا صورة مبهمه يذهب مرور الأيام بها في أذهاننا من الاثر. فليس فينا الآن من درسها ووضع فيها كتابا باللغة العربية مع أن الأوربيين وضعوا فيها عشرات من الكتب ذات القيمة فرنسية وانجليزية وألمانية وإيطالية. وحتى هذه الكتب التي وصفا الأوربيون، والتي لا ريب في أن بعضا منها كتبه رجال اشتركوا بأنفسهم في تلك الحوادث فكتابهم تعتبر مستندا يقابل بغيره من المستندات لاستخراج الحقائق التاريخية كما أن بعضا آخر كتبه رجال لم يشتركوا بأنفسهم في الحوادث ولكنهم استطاعوا أن يصلوا الى المستندات الرسمية الخاصة بها في وزارات الدول فكتابهم تعتبر مستندا آخر، هذه الكتب لم ينقل منها الى اللغة العربية على ما نعلم الا كتاب وضعه اللورد كرومر بعد خروجه من مصر وكتاب آخر وضعه فستر تيودور ووثستين ونشرته في سنة ١٩٢٣ لجنة التأليف والترجمة والنشر.

وقد يكون السبب في قلة اهتمامنا بدراسة تلك الحوادث وبتعريب ما كتبه الاوربيون فيها ان اشخاصاً من الذين ساهموا فيها بتصيب كبير كانوا أحياء الى زمن قريب ، وبعض هؤلاء الاشخاص لم تكن لهم سلطة تخشى جانبها كمرابي ومحمود سامي ورياض ولكن شخصاً آخر هو الحديدي توفيق باشا كانت له ولايته عباس باشا من بعده سلطة تخشى وهو محمود دارت حوله الحوادث في سنتي ١٨٨١ و ١٨٨٢ فكان من الصعب على الباحث المصري أن يجتنبه أو يجتنب الحكم على مواقفه . وهو اذا كتب هذا الحكم إما أن يكتبه كما يوحيه اليه ضميره . وجبئذ قد يكون ضد توفيق باشا فيستهدف لغضب ذوي السلطة وأما أن يكتبه مصوغاً بصيغة المداواة واذن يكون بحثه غير برى . ويقعد قيمته .

وهذا الذي يقال في التأليف يقال في التعريب لأن كل الذين قرأوا المؤلفات الاوربية التي وضعت في هذا الموضوع يعلمون أن أصحاب هذه المؤلفات اختلفت آراؤهم في مواقف توفيق باشا فكان منهم من يبررها ومنهم من خطأها ولكنهم جميعاً لم تخل كتبهم عنه من غمز جارح . ولعل كتاب اللورد كرومر « مصر الحديثة » وكتاب اللورد ملتر « إنجلترا في مصر » هما وحدهما اللذان خلاوا من مثل هذا الغمز . ولكن هذا السبب ليس عذراً صحيحاً ، وهو ان صح لا يكون الا لوقت ، وفي رأيي ان هذا الوقت اقتضى وان الاوان قد آن لان يدرس الباحثون منا تلك الحوادث التي كانت مصدر مانحن فيه الآن من المتاعب . ولهذا اخترت « اللبلاغ » أن يهد سبيل هذا البحث بأن يعرب بعض المؤلفات الاوربية التي تعتبر مستندات فعرّب مترجموه كتاب « التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر » :

Secret history of the english occupation of Egypt

ومؤلفه مستر ألفريد سكاون بلنت الذي شهد بنفسه حوادث سنتي ١٨٨١ و ١٨٨٢ وكان فيها متصلاً بعراقي وجرى شطر كبير منها على يده . وكتاب « المسألة المصرية » — Question Egyptienne — ومؤلفه مسيو دي فريسييه الذي

كان رئيساً لوزارة فرنسا حينما ضرب الانجليز الاسكندرية واحتلوا القاهرة . وكتاب « النار والسيوف في السودان » Fire and Sword in the Sudan ومؤلفه سلاطين باشا الذي بقي في أسر المهدي الى أن أعيد فتح السودان في سنة ١٨٩٧ .

وقد نشرت هذه الكتب متوالية في «البلاغ» ورأيت اليوم أن أجمعها في كتاب
يتيسر اقتناؤها وحفظها . وهذا كتاب «التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر»
ولها وسيله الآخران .

مستتر أ. س . بلنت

نشأ مستر بلنت مؤلف «التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر» في أسرة عربية
في القنى والجاء وبدأ حياته السياسية وهو لا يزال قنيا فعين في الثامنة عشرة من
عمره ملحقا بالوكالة الانجليزية في أثينا ثم بقي يتنقل في المناصب بعد ذلك اثنتي عشرة
سنة في الوكالات والسفارات الانجليزية في طول اوربا وعرضها الى أن اعتزل خدمة
الحكومة في سنة ١٨٥٩ . وكان قد تزوج حفيدة الشاعر المعروف الموردي بيرون
فشرع يطوف معها في البلاد الشرقية فطاف في تركيا سنة ١٨٧٣ وفي الجزائر
سنة ١٨٧٤ وزار مصر أول مرة سنة ١٨٧٥ . وفي هذه الزيارات رأى الفلاحين وجال
بينهم جولة أrote ما كانوا فيه من البؤس والبلاء ^(١) بسبب الديون التي كان الحادبو
اسماعيل باشا قد أوقع البلاد فيها والضرائب الباهظة العديدة التي كانت تجبي منهم
بالكرباج لسداد تلك الديون .

وغادر مستر بلنت القاهرة في ربيع سنة ١٨٧٦ فزار بلاد العرب وانشأ علاقات
بينه وبين بعض القبائل فيها ثم عاد في السنة نفسها الى إنجلترا . وفي صيف سنة
١٨٧٧ رجع يطوف في الشرق فزار حلب وانحدر في الفرات الى بغداد وعقد في
رحلته هذه علاقات مودة مع القبائل التي مر بها في طريقه . وفي سنة ١٨٧٨ ذهب
الى دمشق وعرف فيها السير ادوار ماليت وكان اذ ذاك سكرتيرا للسفارة الانجليزية
في الاستانة وكان يطوف مثله في سوريا . والسير ماليت هذا هو الذي كان قنصلا
عائنا لثولته في القاهرة في سني ١٨٨١ و١٨٨٢ فهو الذي جرت علي يديه كل حادثة
هابت السنتين في مصر .

ثم انتقل مستر بلنت الى نجد ثم الهند ثم كر راجعا الى عدن وفيها علم بمنزل

(١) صفحات ١٣ و ١٧ و ١٩ من كتابه هذا

الحديو اسماعيل في سنة ١٨٧٩ ثم واصل رحلته فصار الى السويس ومنها الى الاسكندرية
ثم عاد الى بلاده

عاد وقد أخذت تساوره أفكار كثيرة عن الشرق والشرقيين وتعلكته فكرة
استقلال العرب فصار يعمل لها ويحدث فيها رجال السياسة في بلاده . وكانت هذه
الفكرة تبعث فيه الشوق الى الشرق كلما استقر في إنجلترا فلم يكده يستقر فيها عاما
بعد رحلته تلك حتى أبحر في ٤ نوفمبر سنة ١٨٨٠ الى مصر فلما وصل الى القاهرة
عرف فيها بعض شبوخ الازهر وتلذذ لواحد منهم هو الشيخ محمد خليل كي يدرس
عليه اللغة العربية واتصل بمريدي السيد جمال الدين الافغاني وزار الشيخ محمد عبده
في حي الازهر يوم ٢٨ يناير سنة ١٨٨١ فالتقت بينهما من ذلك اليوم أوامر صداقة
استمرت ربع قرن وذكر مستر بلنت هذا اليوم في كتابه فقال : « يجب ان أميزه
على سائر الايام لأنه فتح لي باب صداقة بقيت الآن ربع قرن مع رجل من أحسن
وأحكم الرجال العظام » . وبعد أن اقام في القاهرة زمنا ذهب الى جدة فأقام فيها
أياماً ثم عاد منها الى مصر فسوريا

وفي شتاء سنة ١٨٨١ أي في الوقت الذي كانت فيه نار الحركة العرابية قد
اشتعلت عاد مستر بلنت الى مصر فالتقى بعرايي وبكل مؤيديه من الضباط والنواب
وبغيرهم من الوزراء ورجال السياسة المصريين . وكان السير مالت فنصلاً عاملاً بالإنجلترا
في القاهرة فلما عرف صداقته للعرايين طلب منه أن يفتهم بان « مذكرة الدولتين (١) »
لا ترمي الى سوء قبل مستر بلنت أن يقوم بهذه المهمة . وهو يقول انه أداها كلرها
لأنه لم يكن مقتنعاً بما كان يحاول أن يفتحه غيره ويقول أيضاً انه لم ينجح في وساطته .
واستمر يعاون « الحزب الوطني » الذي كان مؤلفاً اذ ذاك برئاسة عرايي فشر
برناجه في جريدة التيس ثم لما رأى ان الحوادث أخذت في مصر دوراً خطيراً

(١) مذكرة فرنسا وإنجلترا للحديو توفيق باشا في ٧ يناير سنة ١٨٨٢ وقد
ارسلتها على اثر اجتماع مجلس النواب المصري وقالوا فيها انهما تؤيدان سلطة
الحديو ولا تريان سلاطناً مصر الا بتأييد هذه السلطة . وكان العرض منها تحدى
مجلس النواب . وسيأتي الكلام عنها

وأن السير ماليت يستخدم الكذب والنشوية في محاربة الوطنيين المصريين سافروا
 اختلوا ليطلع مستر غلادستون رئيس الحكومة البريطانية ورجال السياسة البريطانيين
 والرأي العام البريطاني على الحقيقة وليحاول ردّهم عن سياسة العداء . وكان له
 سكرتير شرقي اسمه صايونجى فأرسله الى مصر ليؤا فيه بأخبارها . فبقي بلنت بسى
 فى لندن فخطب مستر غلادستون ونشر كتابات كثيرة فى الصحف البريطانية
 وحامة فى التيمس وكان مما نشرته له التيمس فى يونيو سنة ١٨٨٢ خطابات حارب
 فيها السياسة التى يجرى عليها السير ماليت والسير أوكلند . كوفن (العضو الانجليزى
 فى المراقبة الثانية التى كانت مضروبة على مالية الحكومة المصرية اذ ذاك) وفضح
 ما تحتوى عليه هذه السياسة من تعدد النشوية وفساد الجو السياسى وذكر أنها
 استعانة به حينما كان يحسن الظن بهما فتوسط لهما عند الوطنيين المصريين غير مرة
 ولكنه وقف بعد ذلك على دسائسها فاشتمأ واضطر ان يتفصل منها . فما كادت
 التيمس تظهر بهذه الخطابات حتى ثارت ضجة حولها فى مجلس اللوردات فى جلسة
 ٢٣ يونيو^(١) واضطر السير اوكلند وكوفن أن يصرح فى اول يوليو بأنه لم يكاف
 السير بلنت البتة « بمفاوضات رسمية » مع عرابى . وما كان بلنت يقول انه كاف
 « بمفاوضات رسمية » وانما كان يقول انه توسط بنا . على طلب ماليت وكوفن وسانلة
 غير رسمية .

واستمر بلنت يجاهد فتارة يحيل اليه أنه ناجح وتارة يرى الفشل بارزا امام
 عينيه الى أن ضربت الاسكندرية وانتهت معركة التل الكبير وسلم عرابى وزملاؤه
 أنفسهم للجيش البريطانى فأخذ يهتم بالدفاع عنهم أمام قضائهم وعين لهم محامين
 بريطانيين على نفقته ونفقة جماعة من أصدقائه اكتبوا لهذا الغرض . وبلغ مادفعه
 للمحامين قريبا من ثلاثة آلاف جنيه .

(١) كتاب « الحالة الدولية لمصر والسودان » —

La Situation Internationale de l'Egypte et du Soudan مؤلفه جول كوشيرى

Jules Cochery صفحة ١٤٦

وبعد بضع سنين أوى مستر بلنت الى مصر وأقام في ضيعة كانت له في المطرية
— بضواحي القاهرة — اسمها « الشيخ عبيد » وكان جاره فيها الشيخ محمد عبده
فأطلعه في سنة ١٩٠٤ على «سودات» التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر» فراجعها
الشيخ وصحح ما رآه فيها مستحقاً للتصحيح .

وكان الشيخ محمد عبده يلح على مستر بلنت في طبع كتابه هذا بالانجليزية
وكان ينوي أن ينقله هو الى العربية لولا ان المنية عاجلك في سنة ١٩٠٥ . فلما توفي
حزن عليه مستر بلنت حزن الصديق على الصديق ثم طبع كتابه بالانجليزية فبقي
كذلك الى أن تولى قلم الترجمة في « البلاغ » نقله الى العربية .

وفي سنة ١٩١٠ عقد الحزب الوطني المصري تحت رئاسة محمد فريد بك مؤتمراً
في بروكسل للاحتجاج على الاحتلال وكان مستر بلنت قد انتقل الى إنجلترا فأرسل
اليه في ١٣ سبتمبر خطاباً أتى فيه بأشد الاوم على بقاء الاحتلال وعلى السياسة التي
تتبعها إنجلترا في مصر وحذر المصريين من هذه السياسة فقال كلمات نقلها هنا
لأنها تشهد له بالصراحة والاخلاص .

قال مخاطباً المصريين ^(١) : «احذروا منا فاننا لا نريد لكم شيئاً من الخير . ان تناولوا
منا الدستور ولا حرية الصحافة ولا حرية التعليم ولا الحرية الشخصية . وما دما في
مصر فالغرض الذي نسعي اليه من البقاء فيها هو أن نستغلها لمصلحة صناعتنا القطنية
في منشتر ، وأن نستخدم أموالكم لتسمية مملكتنا الافريقية في السودان » .

ثم قال : « لم يبق لكم غدر اذا أنتم اتخذتم في نيائنا بعد أن وضع الأرم فيها
وضوحاً تاماً . فاحذروا أن تنساقوا الى الرضى باستعباد بلادكم ودمارها »

ثم أخذ ينصح لوطنين المصريين فقال : « ثابروا على أن تعارضونا معارضة
جهرية جريئة كل يوم . اطلبوا بلسان واحد وفي كل فرصة أن يوضع حد لما تتألمون
منه وأن تعودنكم الى حظيرة القانون وأن نسحب جنودنا من بلادكم وأن نكف
عن التدخل في شؤونكم : اطلبوا ذلك فانكم بطلبه لا تخسرون شيئاً اذ نحن غربا

(١) مجموعة المؤتمر الوطني للمصري Congress National Eg. صفحة ٨٧ وصفحة

عنكم ومن حقكم أن تطالبونا بترككم. ذكرونا دائماً، وبكل وسائل الاعلان،
بلاحق لانجلترا في أن تصرف عندكم تصرف السيد وانكم لا تريدونا حامليكم
ولا مستشارين ولا منظمين لاداراتكم. ولا تركوا لنا علماً نعتذر به لتدعي
لاصنا شيئاً من ذلك.

« أظهروا معاداتكم لنا بصراحة، ولكن لا تظهروها بوارث ساقية الأوان
لا تخدكم شيئاً، بل تلك الوسائل التي تستطيعها كل الشعوب التي تسمى بالاجنبي
لثبت له استيادها وهي مقاطعة في معاملاته التجارية والسمية وفي علاقات الافراد
مهم بعض

« لديكم جالية أجنبية كبيرة غير انجليزية فوثقوا روابطكم بها واجتهدوا في
أن تقضوا أشغالكم معها بدل أن تقضوها معنا

« سلموا كل الناس واسكن لا تحاولوا أن تسالونا لان كل محاولة من هذا النوع
معنا تذهب عبثاً ولأن كل نداء توجهونه الى شعور العدل فينا وشعور الشرف
والانسانية يكون بعد اليوم موجبا لسخرية وليس له عندنا غير جواب واحد هو
الاحتقار.

« لا. لم يبق لكم الا وسيلة واحدة لاقناعنا وهي أن تثبتوا لنا أن احتلالنا
بلادكم مصدر تمب لنا يندو دائماً ومصدر خطر عظيم علينا اذا شئت المغرب. أقنعونا
بذلك إذ في اليوم الذي يفهم فيه ذهن جمهورنا الثقيل أن الفائدة من احتلال بلادكم
لا توازي المتاعب والاحطار التي يسببها لنا، نرى انكم محقون ونترك بلادكم. وتقوا
بأننا لن نترك بلادكم قبل ذلك بلحظة واحدة »

تلك هي نصائحه التي وجهها الى الوطنيين المصريين ولا ريب في ان الانجليز
الذين يقولون مثلها قليلون

وقد تردد ذكر مصر بلنت في أكثر الكتب التي ألفت للآن عن حوادث
سنتي ١٨٨١ و١٨٨٢، قال عنه جول كوشيري صاحب كتاب «الحالة الدولية لمصر
والسودان» (١) ان مساعيه وكتابه والانتقادات الحارة التي وجهها الي انجلترا

دلت على أنه من أولئك الانجليز الذين يحرمون العالم وفي رأسهم فكرة أو قضية يبادون بها ويدافعون عنها بكل ما في الخلق الانجليزى من الصلابة وما في الايمان من العقيدة المقدسة. وروى أشيل بيوفيس Achille Bievès في كتابه «العربيون والانجليز في مصر» (١) انه لما حصل مستر بلنت من العرايين على برنامج الخبز الوطنى وراحته مع الشيخ محمد عبده علم ببحره السير ماليت فرغب الى مستر بلنت في تعديل بعض فقراته قبل نشره في التيمس فلم يتمكن من ذلك إلا بعد عدة أيام كان فيها مستر بلنت سفيراً بيه وبين العرايين وحيد كسالى السير ماليت الى لندن يثى على مستر بلنت ويقول انه «مدبر له بكثير من الفضل وانه قد يعتمد عليه في المستقبل في مهام جديدة» (٢). وقال اللورد ملتر ان مستر بلنت كان في مصر الاوقات ينزل في فندق شرد فكل كلما ذهب الى المحطة للسير أو جاء منها ركب جلا. وقال غيرهم أشياء أخرى لا محل للافاصة فيها ونوى مستر بلنت في عام ١٩٢٤ بعد أن طبع مذكرات له في ثلاثة مجلدات ضخمة فيها حزه عبر قليل عن حوادث مصر قبل الاحتلال وبعده. وقد نشر «البلاغ» تعريب هذا الحز، وربما جمع في كتاب على حدة.

•••

عهد اسماعيل باشا

نظرة سريعة

ليس كتاب «التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر» تاريخاً بالمعنى المعروف من كلمة «التاريخ» وإنما هو قصة شخصية قص صاحبها رحلاته في سوريا والعراق والمند ونجد وحدة ومصر، ثم اذ استقر في القاهرة في آخر سنة ١٨٨١ فص الحوادث التي حرت على يديه فيها، ثم اذ غادرها بعد ذلك الى لندن قص صاعيه السياسة فيها من جانب والاخبار التي كان سكرتيره صابونجي يرسلها اليه من مصر

(١) Français et Anglais en Egypte صفحة ٤٣

(٢) الواقع ان السير ماليت كتب تلغرافين بهذه الالفاظ الى اللورد جرشيل الذي سار، اذ ذلك وزيراً لخارجية انجلترا في ٢٦ و ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨١

من جانب آخر . فهو لم يكتب كتابه هذا ليحفظه تاريخا ككل التواريخ وإنما كتب
 يكون قصة الحوادث رأيا بعبه وكن له ضلع فيها . ولا مثال هذه القصص التي يرونها
 شهود الرؤية قيمة كبيرة في تحديد الحقائق وتسجيلها في صفحات التاريخ ولكنها
 يست التاريخ في ذاته ولهذا رأينا أن نضع أمام نظر القارىء ، قبل أن يقرأ القصة
 موجزاً سريعاً للحوادث من عهد الخديو اسماعيل باشا الى أن دخل الانجليز القاهرة
 كي تكون هذه الحوادث ماثلة في ذهنه أثناء قراءته القصة .

مأساة الفوضى

لا يسع كل من يقرأ تاريخ مصر من عهد اسماعيل باشا الى اليوم الا أن يحكم
 من هذا العهد كل بد ، السكيات التي نالت على هذه البلاد بعد ذلك حتى رمت بها
 بين برائن الاحتلال . فان قصة الديون التي اندفع فيها اسماعيل باشا بطيش لا مثيل
 له كانت مأساة قتلت البلاد من الرخا ، وراحة الدال الى الحراب ثم الي الوقوع في
 شاك الفوضى الاحي ثم الى الثورة ثم الاحتلال . ومهما بقل القائلون في الاصلاحات
 التي أنشأها اسماعيل باشا فان مأساة ديونه تذهب بكل قول لانها باقياها البلاد في الحراب
 قصت على جميع الاصلاحات ثم لانها زادت بعد ذلك فقصت على استقلال البلاد .

وقد وصف الورد ملتر ^(١) لهمايل باشا فقال انه « المثل الكامل للتنذير ،
 وأعظم من عرف في التاريخ بالسفه مع عنم الاكتواث بالعواقب » ثم قال انه « لم
 تكن له مبادي ، يصدر عنها بل كانت له أعمال جنوبه تمتاز بانها نشبه في ضخامتها
 ضخامة الاهرامات أو معبد الكرنك » . ثم استمر فقال ان « الاستبداد كان خلقا
 فيه ولكنه مع ذلك نزل حتى صار مستعظما وأسيراً » . تلك هي الاوصاف التي
 وصفها به الورد ملتر ، والورد ملتر سياسي انجليزى يعرف أن ديون اسماعيل كانت
 أول عامل في الحوادث التي استغلها انجليز حتى وضعت يدها على مصر فليس من
 السهل ان ينهم بالسكرامية له والحقد عليه .

ونع الآن مرور السهم بقصة هذه الديون فنقول انه لما تولى اسماعيل العرش في

سنة ١٨٦٣ كان كل الدين الذي على مصر ٣٠٠٠٠٠٠ ٣٢٩٢ جنيه انجليزي^(١) وكانت ضريبة العدان ٤٠ قرشا وكانت الملاك ورجالها ظاهر فشرع بنى القصور وقيم المعاملات وبنشئ المشروعات الصحمة بغير روية ولا حساب كأنما كانت كل فكرته أن يعلن عن نفسه لا أن يصلح^(٢). فأنشأ طرقا ومباني وورثا وصاعات كانت كلها صحمة ولكسها لم تكند توجد حتي أهملت وصار كثير منها مأوى للوحوش^(٣). واندفع في حب الظهور فادهش ملوك أوروبا بما كانوا يسمونه كرمًا شرقيًا وهاهو الاسراف القاتل. وقد بقيت حفلاته التي أقامها للملك أوروبا وملكانه، وأمراتها وأميراتها في فتح قناة السويس مثلا يتحدث به الأوروبيون الى اليوم في كل ما يكتبونه عنه. وكان ندهيا أن ميراثية مصر لا تتحمل هذه الديقات فكل من الضروري لاسماعيل أن يستدين فاندفع بما فيه من عدم المبالاة بالعواقب فأزال حتى قهي على نفسه وعلى مصر معه

بدأ فقد أول قرص في سنة ١٨٦٤ بمائة ٧ في المئة عبر الاستهلاك. وعقد في سنة ١٨٦٥ قرضا ثانياً. ثم مضت سنة ١٨٦٦ بغير أن يعقد قرضا ولكن لما جاءت سنة ١٨٦٧ حدث به الحاجة الى فرض ثالث وكان قد برع في التمهيد للاقتراض وفي الظاهر بالدخ استحللوا لأرباب الاموال فجعل لمصر جاسا في معرض عام ففتح في تلك السنة في «ريس» ثم جاء نفسه اليه وأحد يظهر

(١) يقول مسيو دي فريسييه في كتابه « المسألة المصرية » ان اسماعيل باشا لما تولى العرش اصدر بيانا بالدين الذي تركه والده سعيد باشا ادخل فيه ثمن الـ ١٧٦ الف سهم التي كانت حصصة مصر في شركة قناة السويس والتي كانت على مصر ان تدفع قيمتها ، فكان هذا البيان ٣٦٧ مليون فرنك اي نحو ١٤ مليون جنيه ونصف مليون. وكان ثمن الاسهم مقدرا في هذا المجموع بمبلغ ٨٨ مليون فرنك وهو لا يصح ان يعتبر ديناً.

على اننا لم نجد لهذا التقدير الذي اصدره اسماعيل باشا مسنداً صحيحاً ووجدنا كل مصادر التاريخ تقول ان دين مصر في ذلك الوقت لم يكن يتجاوز ثلاثة ملايين جنيه

(٢) انظر كتاب Croquis Egyptiens صفحة ٨٥ اوله de Khonshy

(٣) انظر رسائل كتبها ادناك منام Lee Chaur تحت عنوان Impressions

de voyage

من ضروب الاسراف ما لفت اليه الانظار ، ولم يرح ماريس حتى عقد مع محل مالي
بها قرضا ببلغ ٢٩٦ مليون فربك أى قريبا من ١٢ مليون جنيه^(١)

وفي العام التالي ١٨٦٧ عقد قرضا رائعا فبلغ مجموع ما اقترضه ٢٥٠٠٠٠٠٠
مراوح فائدتها الاسمية بين ٧ وفي السنة اسافا فائدها الحقيقية فنراوح بين ١٢ و ٢٦ الى الك^(٢) .
وحينئذ قلقت الحكومة العناية لما قد يكون من تأثير هذه الديون على مصر فخطرت
على اسماعيل ان يستدين ، ولكنه بالرغم من هذا الخطر عقد في سنة ١٨٧٠ قرضا مع
لبنك الفرنسي للمصرى ببلغ ١٧٥ مليون فربك ومعاينة ١٣ في المئورره في بعض
أملكه وأملك أسرته . وهذا القرض هو الذي كان يسمى قرض الدائرة السنية .
وحينئذ كتب الباب العالي الى الحكومة الانجليزية باعتار اسمها ممثلة لمعظم دائتي
اسماعيل « يخرج مقدا على كل اتفاق مالي بمس دخل مصر بالذات او بالواسطة ولا
يكون جلالة السلطان قد أقره »^(٣)

وهل تظن ان شهوة الاقتراض في اسماعيل وقفت عنده هذا الحد أو أنه شعر
بالملاوية التي تحفرها هذه القروض تحت اقدام مصر فكبح جماح نفسه ؟
كلا ، ولم تزد الشهوة فيه الا استعكما ولم يبق له شاعل يشغله الا ابتكار الخيل
لا اجتذاب المرائين وعقد القروض معهم . ولكن سنة ١٨٧٠ كانت سنة الحرب بين
المانيا وفرنسا وكانت هذه الحرب قد أفضت أسواق أوروبا فإذا يفعل ؟ انه اذن
يأجأ الى حيلة غريبة يبيع بها الاموال من كل ذى مال بين المصريين ، وهي ان
يصدر ما يسمى « قانون المقابلة » وفيه تمهد الحكومة لكل من يدفع مقدما ضرائب
ست سنوات على أطيانه باعفائه من نصف الضرائب على هذه الاطيان الي الا بد .
وبهذه الحيلة يحصل اسماعيل على خمسة ملايين حنيه ينفقها الى أن تفتح امامه أسواق
المرائين في فرنسا وانجلترا .

(١) كتاب « المسألة المصرية » لسبوى قريشيه ص ١٤٨ و ١٤٩

(٢) تميز بمئة كيف صفحة ١ وسياق ذكره

(٣) الصحيفة البرلمانية البريطانية (١٠٠) ١٧٨٠ ص ١ (عن كتاب المسألة

المصرية لستر جودور وتستين وتريب الاستاذين عبد الحميد البادي ومحمد دران)

وكانت ديون اسماعيل الى هذه الساعة شخصية تقع عنها على أملاكه وأملاك أسرته المرهونة ثم على دخل الحكومة في عهده بمقتضى ماله من سلطة التصرف في هذا الدخل ولكنها لا تقع على دخل الحكومة بعد عهده . وكان اسماعيل قد وضع يده بالسياب مختلفة على أطيان واسعة من أملاك الملايين لأن المرائين ذكروه بأن جميع أطيان القطر المصرى كانت ملكا لوالى في عهد جده محمد على باشا وأن سعيد باشا هو الذى خالف هذه القاعدة ونزل عن ملكيتها للأهالى . وكان قصد المرائين من ذلك أن يحصلوا على أعظم صيان ممكن لأموالهم وأطاعهم . ولكن قهرا الديون شخصية كان من شأنه أن يضع حدا للاقتراض فلما بلغ اسماعيل هذا الحد ورأى أن الباب العالى « يحتاج مقدما على كل اتفاق مالى يسد دخل مصر بالدات اوبالواسطة » فكر في أن يزيل هذه العقبة من وجهه وإن يحصل من الباب العالى على السلطة التى تبيح له أن يرهن دخل الحكومة كي يحول ديونه الشخصية الى ديون على الحكومة وكى يتسح الحال امامه الى قروض جديدة . وفعل ما سعى له هذه الغاية في الاستانة وأرسل اليها نوبار باشا فما زال ينز فيها الذهب حتى حصل على فرمان سنة ١٨٧٣ وبه نال اسماعيل لقب « خديو » وحصل عرش مصر إرثا لاساته بعد أن كان للأرشد في أسرة محمد على وحصل من حق اسماعيل أن « يتصرف التصرف التام المطلق في شؤون البلاد المالية » ، فحول كل ديونه السابقة الى ديون على الحكومة رهن فيها جزاء كبيراً من الدخل ثم شرع يترك أبواب المالىين فى انجلترا وفرنسا لتقرض لم يكن يرضى في هذه المرة الا أن يكون ٨٠٠ مليون فرنك أى نحو ٣٧ مليون جنيه

ورهن اسماعيل في هذا القرض دخل السكك الحديدية ودخل ميناء الاسكندرية وكل دخل مرهون من قبل يصبح حراً بعد سداد ما عليه . وكان اسماعيل ونوبار قد بذلا كل الحيل وكل الجهود كي ينجح هذا القرض ولكن لما فتح الاكتتاب

فيه في باريس ولندن لم يقط خسرت أسهمه الربع من ثمنها في أيام قليلة أي حماية ملايين جيه .

وحادث بعد ذلك سنة ١٨٧٤ وكان لاندلاسماعيل من أن يقترض لان الاقتراض صار عادة له سنوية ثم لان قروضه السانفة بلغت حداً صارت ارادات الحكومة المصرية عاجزة معه عن أن تدفوا ثمنها السنوية فكان الاقتراض ضروريا لداد هذه الفوائد وإلا أفلس اسماعيل ولم يبق في استطاعته بعد ذلك أن يلعب بالاموال . ولما كانت تجربة القرض السابق قد دلت على أن أسواق أوروبا لم تعد تعطيه فوق ما أعطته لوتد الى الامة المصرية كما ارتد إليها في اشائه قانون المقابلة وتدفع ماساء « الرديئة » وحمله موعا من انواع صاديق الايداع وطلب من المصريين ان يودعوا فيه اموالهم ليأخذوا بدلا منها مرتبات دائمة تختلف باختلاف ما يودعه كل منهم على ان يكون كل مال يودع ملكا للحكومة من ساعة ايداعه لا يحق اصاحبه ان يسترده . فلم يقبل المصريون على هذا النوع من الايداع لانهم كانوا قد جربوا اسماعيل وعرفوا قيمة تعهداته فاستخدم سلطته في اكرامهم على الايداع حتى حصل بذلك على بضعة ملايين من الجنيهات . ثم لم يكن هذا فأصدر في الوقت نفسه سندات ، او بعبارة أخرى اوراقا مالية ، على الخزينة المصرية ثمانية ملايين جيه بقائده من ١٠ الى ١٥ في المئة واكره المصريين على ان يشتروها

وفي سنة ١٨٧٥ توقفت الحكومة التركية عن دفع ديونها وأعلن إفلاسها فأثر ذلك في أسهم القروض المصرية فانزعج اسماعيل اذ رأى انه صار من الافلاس قاب قوسين أو أدنى ، ولم يكن في استطاعته ان يقترض ولأنه يتزما لان المصريين بحيلة من الحيل يبحث في مخزائنه فوجد ان أسهم مصر في شركة قناة السويس وعددها ١٧٦ ر ٩٠٢ لا تزال باقية ففرض على الحكومة الفرنسية أن تشتريها بأربعة ملايين جيه فلم تعطه الجواب بسرعة ، ولكن الحكومة البريطانية علمت بهذا العرض فتقدمت له بالمال الذي يطلبه على تخيل فباعها الاسهم بواسطة بيت روتشيد في ٢٥ نوفمبر من

والى ها ملقت ديون اسماعيل التمة ووقعت البلاد من جراتها على شاة
المأونة . وقد حصرت هذه الديون سد ذلك بتليل اى حيا صدر « قانون التسمية »
فكانت كما يأتي : —

الدين المتأثر	٨٠٠ ٦٨٩ ٢٢٢ جنيه انجليزى
الدين الموحد	٥٨٠ ٤٠٣ ٣٢٦ « «
قرض الدائرة السنبة	٩٨٠ ١٨٨ ٠٤ « «
قرض القومين	٨٥٠ ٠٠٠ ٠٠ « «
المجموع	٩٨٧ ٤٨٩ ٩٣٠

فاذا نحن استعدنا من ذلك الثلاثة الملايين التى اقترضها سلفه سعيد باشا كان
مجموع ما اقترضه اسماعيل من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧٥ أى فى ثلاث عشرة سنة
قريبا من ٩٩ مليوناً . وهذا عدا حصة ملايين اخذها فى « قانون المقابلة » وحصة
ملايين اخرى اخذها فى « الرريانة » وثمانية ملايين اخذها فى السندات التى أصدرها
على الخزينة وأربعة ملايين من أسهم شركة قناة السويس وملايين أخرى استولى عليها
من كبار التجار وكبار المزارعين لم نحصر ولم نقيّد فى حساب

(١) يؤخذ من كتاب وضعه مسيو شارل رو أحد النواب الفرنسيين تحت عنوان
« برزخ وقناة السويس » — L'isthme et le Canal de Suez — فى سنة ١٩٠١ أن
الحكومة البريطانية قبضت عن هذه الاسهم من سنة ١٨٧٠ الى سنة ١٨٩٤ قائدة
قدرها ٥ ملايين فراك فى السنة أى ١٢٠ مليوناً . ثم قبضت من سنة ١٨٩٥ الى
سنة ١٩٠٠ حصة كانت تتراوح كل سنة بين ١٧ و ١٦ مليوناً أى ٨٥ مليوناً . فيكون
مجموع ما قبضته من الرخ لغاية سنة ١٩٠٠ — ٢٠٥ ملايين أى ضعف الثمن الذى
اشترت به من اسماعيل . وهذا غير الرخ الذى قبضته من سنة ١٩٠٠ الى اليوم
(وصفحة ٣٥ — جزء ثان من الكتاب المذكور)

اما ثمن هذه الاسهم الان فيقرب من ٩٠٠ مليون فراك ذهباً

في أعماق الزاوية

ولأية حكومة جمع اسماعيل هذه الديون ؟

الحكومة مصر التي كان كل دخلها في عهد سعيد باشا لا يزيد على خمسة ملايين جنيه، وكان في عهد هو، بعد أن ردت ضرائب الاطيان من ٤٠ الى ١٦٠ قرشاً وبعد أن أزهق أهلها عشرات من الضرائب، لا يزيد على تسعة ملايين ونصف مليون. وبأية فائدة كان اسماعيل يقترض هذه الديون ؟

بفائدة اسمية بين ٧ و١٢ و١٣ في المئة وفائدة حقيقية بين ١٣ و٢٦ في المئة كما ثبت ذلك مسر « كيب » الذي سيأتي أن الحكومة البريطانية أرسلته في ديسمبر سنة ١٨٧٥ ليفحص حالة المالية المصرية (١)

على أن مبالغ هذه الديون لم تصل كاملة الى يد اسماعيل بل كان مقرضوه من المراهين يكتبون القرض كاملاً ثم يقدمون له حساباً طويلاً بالسمرة والفوائد التي يحجزونها مقدماً على أساس ٢٦ في المئة كي يكون الباقي منها ٧ في المئة كما هو مذكور في العقد ثم تغير ذلك من المصروفات والأتعاب والهبات « البقشيش ». وكان اسماعيل يقبل منهم هذه الحسابات بسهولة ولهذا دل التحقيق على أنه لم يستلم من القرض كبير الذي عنده في سنة ١٨٧٣ بمبلغ ٣٢ مليون جنيه عبر ٢٠٠٠ ٧٠٠ ٢٠٠ جنيه (٢) ولم يستلم من القرض الذي عنده في سنة ١٨٧٠ بمبلغ ٧ ملايين جنيه غير ٥ ملايين ثم لما احتج الدب العالي على ذلك وشا اسماعيل الصدر الأعظم فأسدل الستار وعاد كل شيء الى السكوت (٣). وأخيراً أن كل الذين لحصوا مالية مصر في تلك الاوقات

(١) صفحة ٧ من تقرير كيب

(٢) كتاب « الحالة الدولية لمصر والسودان » الذي تقدم ذكره ص ٧٠

(٣) كتاب Croquis Egyptiens الذي تقدم ذكره ص ٩٥ - وكتاب « الحالة

الدولية لمصر والسودان » ص ٧٠

يجمعون على أن اسماعيل لم يستلم سوى ما يقرب من ٥٤ مليون جنيه من كل اقروض
التي عقدتها والتي تقدم اليها بلغت حوالي ٩٦ مليوناً (١)

ونظر كيف كان تأثير هذه الديون في ميزانية الحكومة، حصرتها الميزانية في
سنة ١٨٧٧ وكان مجموع الإيرادات ٩٥٤٣٠٠٠ جنيه ثم كان ما حصر منها للديون
بين فوائد واستهلاك ٧٤٧٣٠٠٠ ر. ٧٤٧٣٠٠٠ جنيه يضاف اليها الوبركو المحصن للباب العالي
وما كان على الحكومة أن تدفعه لشركة قناة السويس في تلك السنة يكون الباقي من
الإيرادات ١٠٧٠٠٠ ر. ١٠٧٠٠٠ جنيه. فهذا المليون الواحد والسبعين ألفاً كان على الحكومة
أن تنفق على جميع شئون البلاد: على موظفيها وعلى الجيش والبوليس والري والاعمال
والحاكم والصحة العمومية وغير ذلك من كل ما يجب أن تقوم به الحكومة

ولم تكن مصروفات الحكومة، في ذلك الوقت عادية بل كان فيها عصر مجف
هو المصروفات المحصنة للموظفين الاحاب والتعويضات الفاحشة التي كانت تدفع
في كل وقت للأفقيين من الاجانب، وذلك ان اسماعيل رغب منذ توليته العرش
في ان يجعل مصر قطعة من أوروبا، وبما ان العكرة كانت تتحول عنده بسرعة الى
دعونة فإن أنه مستطيع ذلك بالاكثر من الموظفين الاوربيين وبعاطيهم المرتبات
الضخمة واعدائهم الهدايا والعم ليشوا عليه وعلى حكره. ثم لما وقع في الدين
امهالت عليه من الدائنين ومن الحكومات الاجنبية سيول من مستعطي الوظائف فلم
يجسر أن يرد أحداً، حتى اذا جاءت سنة ١٨٧٧ التي مر ذكرها كانت مرتبات
الموظفين الاجانب ٣٧٣٠٠٠ ر. ٣٧٣٠٠٠ جنيه فاذا هي خصمت من المليون والسبعين ألفاً التي
تقدم ذكرها لم يبق للحكومة ولجميع شئون البلاد غير ٧٠٠٠ ر. ٧٠٠٠ جنيه.

اما التعويضات للأفقيين فان اكثر عشرين اسماعيل في السنين الاخيرة كانوا
قوما كل مهم ان يستثيروا شهوات نفسه وان يقضوا هذه الشهوات ليقتصروا
من ورائها كل ما يمكن اقتناصه من المغانم. فتقدموا له بطلبات امتيازات
لانشاء معامل والبحث عن معادن ولجلب صناعات اوربية وتغير ذلك من الاعمال.
ولم تكن طلباتهم هذه جديدة ولم يكن قصدهم منها ان يعملوا وانما كان كل قصد

(١) كتاب « التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر » ص ١٩ من الترجمة

فقد حصلوا على الامتيازات ثم أن يعملوا بأية علة من الملل كي يلقوا مسئولية تسليم على الحكومة وكى يطالبوها بتعويض . وكان اسماعيل -هلا فى دفع هذا التعويض حين كانت أبواب القروض لا تزال مفتوحة فى وجهه وحين كانت يده تفتح هذه القروض بينما وشالا فكان ذلك يشجعهم ويجهلهم حوله جيشا حارلرا . ولكن لما سدت أبواب الاقتراض فى وجهه لجأوا الى الحائكم لثقلته معتقدين انها لا د آخذة باصرهم ضده . وكانت هذه الحائكم قد أنشئت فى سنة ١٨٧٦ فأحصيت التعويضات المطلوبة من الحكومة المصرية أمامها فى تلك السنة وحدها فكانت ٤٠ مليون جنيه ^(١) . وبروى فى هذا ان اسماعيل استقبل ذات يوم واحدا من أولئك الأفاقيين أصحاب الامتيازات وكانت نافذة الفرقة مفتوحة فتلقى مولانا من موطنى قصره وقال له : « أعلق بالله هذه البادلة لئلا يصاب السيد (مشبرا الى زائره) يرد فيكلفتى ذلك عشرة آلاف جنيه » ^(٢)

تأثير الربو فى حالة الشعب

وفى أثناء ذلك كانت حالة الشعب أسوأ حالات ، ففرائث الاطيان زيدت كما قلنا من ٤٠ الى ١٦٠ قرشا والضرائب الأخرى لم تكن تعد لأن اسماعيل كان كلما وقع فى الحاجة اقترح ضريبة جديدة وجمل الكرياج وسبكه الى تحصيلها . ثم لما ذكره المرابون كما تقدم بان جميع الاراضى كانت ملكا للوالى وأن جده محمد على بقى الى عدة سنوات صاحب الامتياز فى تجارة مصر الخارجية عول على أحياء هذه الحقوق فى شخصه ^(٣) فأخذ يرهق المزارعين حتى تصبح الاراضى عالة عليهم فيضطروا الى بيعها بأثمان بخسة او الى تركها والفرار منها فيضع يده عليها . وبهذه الطرق استولى على خمس الاراضى الزراعية فى القطر ولما يحض على حكمه بضع

(١) كتاب « الحالة الدولية لمصر والسودان » القدى تقدم ذكره صفحة ٧١

(٢) المصدر السابق والصفحة نفسها

(٣) كتاب « التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر » صفحة ١٧ من الترجمة

سنتين^(١) وحسب ان نقلها ما كنه مستر نلت وصالحا الملاحين وقد وآم
اذ ذاك بعينه ، قال :

« كان من الامور المألوفة في تلك الايام ان يرى الانسان شخصا في الحقول
وعلى رأسه عمامة او على ظهره شئ ، اكثر من قميص . وحتى في ضواحي القاهرة ،
وبالاكثر في العيوم انتي بما يحورها شطرها بمجرد حصولها على الجمال ، يمكنتي
ان اقول ان الحالة كانت كذلك . وكان بين مشايخ انقري قليلون يملكون عبادة .
وايضا ذهنا كانت الحال كذلك . وغصت مدن الارياف في ايام الاسواق بالنساء
اللاتي اتبن لبيع ملابسهن وحملهن انفسية للرايين الاروام لان حامى انصرائب
كانوا في قراهن والكرباج مشهر في ايدهن . فاشتا مصوغاتهن الزهيدة واصفينا الى
قصصهن واشترى كما معن في استنزال القدرات على الحكومة التي حملهن عرايا »

فهذا الوصف يدل علي مقدار ما وصل اليه سوء الحال في ذلك الوقت . وقد
شكل هذا سوء جميع الطبقات وجميع الميئات ومن بينها هيئة الصايط في الجيش ،
وكان أحمد عرابي أحد هؤلاء الضباط فآب جماعة من زعمائه عصبة سرية تلحق
اسماعيل^(٢) ، ولكن هذه العصبة لم تفعل شيئا . وكان السيد جمال الدين الانصاني
اذ ذاك في مصر فاقترح علي الشيخ محمد عبده ، وكان احد تلاميذه ، أن يقتل اسماعيل
علي جسر قصر النيل^(٣) وهذا ما يقوله الشيخ محمد عبده في ذلك : « كان الشيخ جمال
الدين موافقا علي الخلع واقترح عليّ أنا أن اقتل اسماعيل وكان ير في مركبته كل يوم
علي جسر قصر النيل . ولكن كل هذا كان كلاما تنهاسه فيما بيننا . وكنت
أنا موافقا الموافقة كلها علي قتل اسماعيل ولكن كان ينقصنا من يقودنا في هذه
الحركة » .

(١) كتاب « التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر » صفحة ١٧

(٢) انظر « تاريخ احمد عرابي بقلمه » في ذيل هذا الكتاب صفحة ٣٤٧

(٣) انظر المصدر السابق في الصفحة نفسها - وانظر ايضا « رأى الشيخ محمد
عبده في تاريخ عرابي » المنشور في ذيل هذا الكتاب صفحة ٣٥٤

تجربة العربون في مائة اليوم السياسية

هذا كان تأثير الديون في شؤون البلاد المادية فنظر بعد ذلك في تأثيرها في الشؤون السياسية وسفرى أنها كانت البلب الذى نسرّب منه النفوذ الاحيى الى سلطة الحكومة المصرية ودخلت منه إنجلترا حتى وصعت يدها على مصر

عد أن اقبلت الاسواق المالية كلها في وجه اسماعيل في سنة ١٨٧٥ وبينما كان يسكر في بيع سهوم مصر في قبة السويس كان يرى أن تمن هذه السهوم لا يكتفيه وأن لابد له من قروض جديدة ، غير أنه كان يعلم أن اسواق أوروبا لن تعود تفتح أبوابها له الا اذا قام لديها يرهان على أن مصر قادرة على الدفع وأن مالىتها تتحمل قروضا تغرى ، فهذا التفكير الى أن يكون هذا اليرهان شهادة يأخذها من مندوب تتدبه لدى الحكومات لفحص حالة مصر المالية . ولم يكن أمامه لهذا الغرض غير احدى حكومتين هما إنجلترا وفرنسا لان ديونه كلها كانت في بلادهما ، ولكن فرنسا كانت لا تزال مرتبكة بعد حرب سنة ١٨٧٠ فلم تكن أوضاعها مستعدة لان تعرضه فالتجه الى الحكومة البريطانية وخاطب قنصلها العام في مصر الخرنرال استاتن في أنه « محتاج الى موظف عليم بالظلم التابعة في مائة الحكومة البريطانية ليعاون ناظر المالية المصرية على سد الخلل الذى يعترف به سموه في هذه النظارة »^(١) وكانت الحكومة المصرية في ذلك الوقت سليمة من كل تدخل للحكومات الاجنبية فكان هذا الطلب أول دعوة لانشاء هذا التدخل^(٢)

وكتب الخرنرال استاتن الى اورد دوبي وزير خارجية الحكومة البريطانية بما طلبه منه اسماعيل فاعز اورد بان يكون الطلب كتابية وأن يكون موضوعه « استعارة موظفين بشر فان على التدخل والخرج ويكونان خاضعين لارشاد ناظر المالية وأمره »

-
- (١) كتاب « المسألة المصرية » لنيودور روستين ص ١٠ من الترجمة
(٢) كان اسماعيل قد استعار قبل ذلك من الحكومة البريطانية موظفين هما مستر بيل ومسترا كتي للعمل في مصلحة التجارة ولكن طبيعة عملهما لم تكن تجعل لهما صفة سياسة فكانا كثيرهما من الموظفين الاجانب اما وجود مندوب من الحكومة البريطانية يعاون وزير المالية فهو امر لا تخفى صبغته السياسية

فرضي اسماعيل وكتب ما أملى عليه . وفي أثناء ذلك ، وقبل أن يجيب الورد دربي على هذا الطلب ، اشترت الحكومة البريطانية سهوم مصر في قناة السويس في ٢٥ نوفمبر ، وبعد هذا الشراء ، يوم واحد كتبت جريدة التيمس تقول : « ان الجمهور في هذا البلد وغيره سينظر الى هذا العمل الخطير الذي قامت به الحكومة الانجليزية من بواجبه السياسية لامن نواحيه التجارية . سيعده مظهرة وشيئاً أكثر من مظهرة . سيعده اعلاناً لنيانسا وشروعا في العمل على تحقيقها . ان من المستحيل أن نفكر في شراء أسهم قناة السويس معصلاً عن علاقة إنجلترا المستقلة بمصر » . وبعد ذلك يوم واحد أيضاً أي في ٢٧ نوفمبر كتب الورد دربي الى الخرنال استانتون يقول رداً على طلب اسماعيل « ان الحكومة البريطانية ترى أن ترسل الى مصر اربعة خاصة تنظر هي والخديو فيما يساله من الصبح في الشؤون المالية » وبذلك حولت الحكومة البريطانية طلب اسماعيل موظفين الى « بعثة » وحملت مهمة هذه البعثة « النصح » ، والصبح في لغة السياسيين معناه الوصاية

وقبل اسماعيل رأى الحكومة البريطانية بحكم حاجته الى المال فألقت البعثة من نخبة من موظفي الحكومة البريطانية تحت رئاسة مستر كيت وقدمت الى مصر في النصف الثاني من ديسمبر وشرعت تفحص حالة المالية المصرية . وفي ٢٩ يناير سنة ١٨٧٦ كتبت جريدة التيمس تقول : « لاشئ أضمن لسلامة مصر من القيام بتغيير أساسى في الحكومة المصرية وماليتها . ولا شك في أنه لو كانت الثقة بمصر فيما مضى أشد من الثقة بها اليوم لاستطاعت أن تتفق مع دائيتها على خير من الشروط التي اتفقت معهم عليها . فالسألة اذن هي كيف تحوز مصر هذه الثقة ؟ الظاهر ان كل ما يقال في هذا الموضوع قائم على الاعتقاد بان الخديو سيحضع بطريقة من الطرق صاغراً للإرشاد الانجليزي وأنه سيعهد الى إنجلترا بإدارة مالية مصر ، وبذلك يتحول الى مصر بعض من ثقة الجمهور بإنجلترا فتتمكن من تحويل ديونها وانقاص أقساطها السنوية قصصاً كبيراً » . اذن كلان الانجليز يريدون من بعثة « كيف » أن تؤدي الى اخضاع اسماعيل للإرشاد الانجليزي ثم أن يتولوا ادارة المالية المصرية . وكان معولهم

في ذلك على ما يعرفونه في اسماعيل من الرغبة في قروض جديدة ثم على ما يعرفونه
في حبه من الاشراف على الافلاس

وكلن اسماعيل حينما فكر في طلب مندوب من الحكومة البريطانية يعرض
عليه ويعطيه شهادة عما يعتمد أولا على استطاعته خدع هذا المندوب واحياء الميوب
عن حبه وثانيا على مظاهر التودد والاكرام يحيط بها ومظاهر القتي والبذخ
يتظاهر بها امامه . وهذا وذلك اعتقد اسماعيل انه مستطيع ان يأخذ من رتبة « كيف »
تبريرا يرضيه فلا يكون عليه بعد ذلك الا ان ينشره لثمود الاسواق الماية فتفتح له
تجول الاقراض .

ولله لم يتساهل مع الحكومة البريطانية في تحويلها طلبه مسدودا الى رتبة وفي
حسابه هذه الرتبة « التصح » إلا توهمه انه بذلك يستدرجها الى معاونته
عن قصده . ولكنه نسي في هذا الحساب أولا ان كثر دائنيه كانوا من
الانجليز الذين تسأل الحكومة البريطانية عن رعاية مصالحهم وثانيا ان هذه الحكومة
كانت ترى مصالحها في التجميل بخراجه وشهد الخاق عليه لانها بذلك توقعه . في
ليس ونستدله فتستطيع أن نسخره لتحقيق مطامعها السياسية . ولهذا لم تصح رتبة
« كيف » التقرير الذي كان اسماعيل يرجوه بل وضعت تقريرا لا يسره فلما رأى ذلك
لسنا . ولم قبل البرنامج الذي اقترحه عليه والقى كلن مؤداه أن يخضع « التصح »
« بريطاني » ، ولكنه مع ذلك لم يفلت من مخالب الحكومة البريطانية لانه قبل أن يمد
بموظف من عندها هو السير رفرز ولسن يتخذ من مستشارا ماليا يعاون وزير المالية
وكانت الحكومة الفرنسية تراقب من قرب مساعي الحكومة البريطانية في مصر
فما علمت أنها سترسل السير رفرز ولسن مستشارا ماليا لاسماعيل رأته أن تعجب على
هذه الحركة بحركة مثلها فأرسلت علي الفور أحد موظفيها ، وهو مسيو فيليه ، ليسانس
اسماعيل على تنظيم ماليته . فتضايقت الحكومة البريطانية من هذه المقاومة وأرسل
الورد دربي الى اسماعيل يطلب منه ألا يتسرع في اتخاذ أي قرار وأن ينتظر وصول
السير ولسن

ووصل السير ولسن فرأى أن مسيو فيليه عرض على اسماعيل مشروعا لتنظيم

المالية المصرية (ليس هنا مكان يانه لانا تقتصر في مانكتنه على الوجهة السياسية) فلم يقبله ولم يقبله معه حكومته ، ولكن اسماعيل قبله وأظهر الرغبة في الاحد به ، فلم يكن من الحكومة البريطانية الا أن أحابت على ذلك بأن صرت اسماعيل ضربه أليمة كانت سنا في المعجل غمراه . وذلك أنها كانت قد اتفقت معه على عدم نشر التقرير الذي وضعته بعثة « كيف » فلما رآته ميالا للاحد ، شروع ميسويل في لوجحت له بأنها ستشر التقرير فكتب إليها بحتج على نيتها هذه ويقول أن المعلومات التي قدمت لبعثة « كيف » سرية محضة . فتظاهرت بالاصفاء واحتجاجه ولكنها أوعرت الى أحد الدواب البريطانيين بأن بسألها في البرلمان متى ينشر التقرير ، فلما طرح عليها السؤال لم تحب بأن التقرير وضع على أن يكون سرياً لا يشر بل أحاب مستر دزرائيلي بأنه لا يباع في شره . ولكن الحديو هو الذي يمارض في ذلك أشد الممارضة ^(١) . فكان هذا الجواب أسوأ من التقرير نفسه وكان من تأثيره أن تدهورت في الحال أسعار السندات المصرية تدهوراً شديداً ، وحينئذ لم ير اسماعيل الا أن يعود فيسمح بنشر التقرير . وشر في ٣ ابريل أي بعد عشرة أيام فقط من نصريح اللورد دزرائيلي . وشعر اسماعيل بأن هذه الضررة فقال وهو يكاد يبكي : « لقد حفروا لي القبر » ^(٢) —

Ils ont creuse ma fosse

وكن علي اسماعيل أن يدفع قسطاً من الفوائد — Coupon — في أول ابريل ، ومع أنه كان قد قضى من الحكومة البريطانية قبل ذلك بأربعة أشهر أي في ٢٥ نوفمبر أربعة ملايين جنيه في اسهم قناة السويس لم يكن لديه شيء يدفع منه هذا القسط ، فلما أعلن اللورد دزرائيلي تصريحه المار ذكره وهوت أسعار السندات المصرية لم يجد اسماعيل بداً عند اليه بقرض جديد يدفع منه . فكتب في ٢٨ مارس أي قبل ميعاد الاستحقاق بثلاثة أيام الى الحكومتين الفرنسية والانجليزية بسألها في تذلل وحموع أن تأتيا لمعوت والا حل به الدمار ^(٣) . فاحاست الحكومة البريطانية بالرخص اما الحكومة الفرنسية

(١) « تيودور روستين ص ٢٠ و ٢١ من الترجمة — و « المناقشات البرلمانية »

لهنسارد مجلد ٢٣٩ سنة ١٨٧٩ ص ٦٣٩

(٢) المصدران السابقان

(٣) كتاب « الحالة الدولية لمصر والسودان » ص ٥٧

مرت لن تمت فرصة سانحة لاحتداب اسماعيل انها فاجابت بالقول ودبرت المال على
عجى مرسل الى لندن في الساعة الاحيرة من مساء ٣١ مارس واحتب اسماعيل بذلك
لحق اعلانه

واقترحت الحكومة الفرنسية حينئذ على اسماعيل أن يشي، ادارة خاصة تسمى
« صندوق الدين العمومي » تتولى، تحت اشراف مندوبين عن الدولة، تحصيل حزم
حين من ايرادات الحكومة المصرية ودفع الاقساط منه . فتردد اسماعيل في قبول
هذا للتشروع لما رآه فيه من تفيد سلطته ورفضت الحكومة البريطانية أن توافق
عليه لانها لم ترض عن شروطه . وعلى أثر هذا الرفض كتبت التيمس في يوم ٧ ابريل
تحت : « لا بد من احد أمرين إما أن تقوم حكومة والية للحدود فتد اليه يد مساعدتها
حررة نظير قبوله لسلطتها الحالية والافيتقدم الحدود بمشروع من عنده » فكل هذا حلياً
في بن اجاترا كانت تسي من ذلك الحين لا كراه اسماعيل على قبول حاجتها ،
وكن مسلكتها جابياً وانها تجعل وسيلتها الى ذلك شرك الديون الذي أوقع اسماعيل
مصر فيه والحراب الذي جره على ماليها

ولم يستفد اسماعيل من التوسط الذي دفعته عنه الحكومة الفرنسية (فقط أول
بريل) أكثر من أن يتنفس أسبوعاً واحداً ، لأن الداء كان عضالاً لا يعيد فيه ذلك
تسكن الوقتي . فبعد هذا الأسبوع الواحد عاد الداء . فظهر أشد مما كان ولم يجد اسماعيل
مسلماً من أن يخضع في هذه المرة لاعلان اعلانه فطلعت الحكومة المصرية في صباح
٨ ابريل في بورصة الاسكندرية اعلاناً بأنها عازمة عن دفع القسطين المستحقين في
بريل ومايو في ميادهما وستدفعهما بعد ثلاثة أشهر . فكان هذا اعلاناً للتوقف عن
الدفع أى للأفلاس .

وما كاد هذا الاعلان ينشر حتي انتلأت السوق المصرية وعباً فذعر اسماعيل
وسارع الى ابلاغ الحكومة الفرنسية انه يقبل انشاء صندوق الدين الذي اقترحته
عليه فلما انه بذلك يتخذ موقفه . وأمضى قهلاً في ٢ و ٧ مايو سنة ١٨٧٦ أمرين بانشاء
هذا الصندوق الذي لا تزال قائماً الى اليوم وحصل له ايراد مديريات الغربية
والموقية والبحيرة وأسيوط ، و ايراد الدخولية في القاهرة والاسكندرية ، و ايراد

جمارك الاسكندرية والسويس وبور سعيد ورشيد ودمياط والعريش ، وإيراد
السكك الحديدية ، وإيراد رسوم الدخان، وإيراد احتكرك الملح، وإيراد المطرية (دقهلية)
وإيراد رسوم السكرى والمراكب ، وإيراد كبرى قصر النيل ، وأخيراً إيراد
أطيان الدائرة السفية .

وفي المادة الثانية من الامر الصادر باشاء هذا الصندوق ان على الموظفين الذين
يتولون تحصيل الإيرادات المار ذكرها أن يوردوا ما يحصلونه للصندوق لالوزارة
المالية . وفي المادة الرابعة منه ان جميع المارعات التي تقوم بين الصندوق وإدارات
الحكومة المصرية ترفع الي المحاكم المختلطة . وفي المادة الثامنة ان الحكومة ممنوعة من
أن تعدل ضريبة من ضرائب هذه الإيرادات تعديلاً يكون من شأنه انقاص الوارد
منها الا بموافقة أغلبية المندوبين الذين يديرون الصندوق . وفي ديباجة الامر ان الذين
يديرون الصندوق مسؤولون بجانب تنفيذهم الدول ويعينهم الخديو بناء على هذا
الائتداب . ومن هذه المواد يتضح أن انشاء هذا الصندوق كان انشاء لسلطة أجنبية
بجانب سلطة الحكومة وقد قال مسيو دي فريسنييه انه كما « أول اعتداء على سلطة
الخديو لانه مكن الدائنين من أن يكونوا سلطة في الحكومة »^(١)

وقد ردت هذه الإيرادات المخصصة للصندوق فكان مجموعها ١١٤٠٤٠٦٧٤٠٠ جنيهاً^(٢)
من دخل يراوح بين ٩ و٩ ملايين ونصف مليون جنيه

المراقبة الثانية

تلك كانت المرحلة الاولى من مراحل التدخل الاجنبي في شؤون الحكومة المصرية
بسبب ديون اسماعيل ، ويقول مثل أوربي ان الخطوة الاولى هي العريضة فسنرى في
ما يلي ان اسماعيل بعد ان خطا هذه الخطوة سار بعبداً وبسرعة حتى نزل لانجلترا
وفرسا عن كل سلطة الحكومة ، ثم اذ خطر له بعد ذلك ان يسترد سلطته لم
يستطع وعوقب بالعزل والابعاد

رأينا ان الحكومة البريطانية لم ترض عن النظام المالي الذي أنشئ على أساسه

(١) كتاب « المسألة المصرية » لمسيو دي فريسنييه ص ١٥٩

(٢) كتاب « الحالة الدولية لمصر والسودان » ص ٧٧

صندوق الدين لانها كانت ترى فيه مصلحة لحلة السندات من الفرنسيين فثار على
 هذه حتى يمكن ان يمنحها منه حلة السندات من الانجليز . فلما أنشئ الصندوق
 تحت قراواتها وايضا لمتدوبها فيه وامنتعت انجلترا عن ان تعين مندوبا لها (١)
 وجرى سير دمروراس مصر عائدا الى أوروبا معلماً ان بقاءه في مصر صار مستحيلاً (٢)
 وروت الحكومة البريطانية بعد ذلك أن احتلالها مع فرنسا لا يحقق اعراضها
 صحت الى الاتفاق معها ولكن من وراء ستار فسافر الى باريس مستر غوشن ،
 ويكنز عضواً في البرلمان وشرىكا في مصرف فرلنج الذي أقرض اسماعيل ديوه
 لاوتى ، وهناك اجتمع بحملة السندات من الفرنسيين فما زال بهم حتى اتفق معهم
 على نظام مالي جديد لصندوق الدين (ليس هنا مكان البحث في هذا النظام لاسا كما
 قد من قبل تنظر الى الحوادث من وجهتها السياسية) أساسه أن يطلب الدائنون من
 اسماعيل تعيين مراقبين أوروبيين يراقب أحدهما دخل الحكومة ويراقب الثاني خرجها
 يضمن الدائنون بذلك حصول صندوق الدين على الإيرادات المخصصة له .

ثم سافر مستر غوشن مندوبا عن الدائنين الانجليز ومندوبا عن
 الدائنين الفرنسيين الى مصر وشرعا بها جان اسماعيل ليحمله على الرضى بتعيين
 مراقبين . فقامت في البلاد ضجة استنكار وكان اسماعيل صديق باشا المشهور بالفتش
 بظراً للمالية فأيد هذه الضجة ونصح للحدود اسماعيل بالرفض والمقاومة . ثم حدث
 أن قتل صديق باشا غيلة فكتب مراسل التيمس في الاسكندرية الى حريدته يقول : « ان
 نتخلص من الفتش بعد خاتمة نظام عتيق لقد كان الفتش زعيم حرب يقاوم
 تنفيذ الاوربي وكل تقدم للدينية » الى أن قال : « ان سقوط صديق باشا الذي
 قيل انه كان قد أعد مشروعا معارضاً - (أى معارضاً لمشروع غوشن وحوير) -
 نبعث من أقوى دواعي النجاح » . وبعد ذلك بأيام أعلن اسماعيل أنه قبل مشروع
 غوشن وحوير وأصدر في ١٨ نوفمبر أمراً عالياً بضرب المراقبة على المالية المصرية

(١) عينت انجلترا مندوبا لها بعد سنة وهو السير افلن بطارخ الذي صار فيما بعد
 الموردر كرومر

(٢) التيمس في ٥ يونيو سنة ١٨٧٦

وتنفي المادة التاسعة من هذا الامر بان يمن مراقبان عاملان أحدهما راقب إيرادات الحكومة والثاني يراقب مصروفاتها والاعمال الحسابية الخاصة بالدين وتنفي المادة الثامنة بان يكون جميع الموظفين الذين يتولون تحصيل الإيرادات تحت إدارة مراقب الإيرادات وأن يكون هو الذي يقترح على الخديو تعيينهم بواسطة وزير المالية . وله الحق في دفعهم عن وظائفهم وعزلهم وتنفي المادة التاسعة بان يكون مراقب المصروفات مستشارا لوزير المالية وأن يكون هو الذي يراقب حسابات الحكومة ويسهر على تنفيذ القوائم الخاصة بالدين . ولا يكون أمر بالصرف صحيحا الا اذا أمضاء ولو كان صادرا من وزير المالية . وتنفي المادة العاشرة بان يشترك المراقبان في وضع المبراة العمومية وتنفي المادتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة بان يكون أحد هذين المراقبين انجليزيا والثاني فرنسيا وأن يختارهما حكومتا المختارتا وفرنسا فيعينهما الخديو بناء على هذا الاختيار .

وبهذا الامر انتهت سلطة الحكومة كلها تقريبا الى هذين المراقبين الاحدنيين وصار اسماعيل المسند العظيم أسيرا وصارت مصر في قبضة السياسة الاجنبية تدفع بها الى ما تريد وحيثما تريد .

النظارة المصرية

أخذ هذا النظام الجديد الذي سمي نظام « المراقبة الثنائية » في العمل فاختارت الحكومة البريطانية مستر دومين مراقبا انجليزيا واختارت الحكومة الفرنسية البارون دي مالاريت مراقبا فرنسيا صفائي هذان المراقبان الصماب لانهما لم يجدا حسابا منظاما ولا قوانين ولا لوائح تضبط الإيراد أو الدخل بل لم يجدا أوامر مكتوبة مع أن هذه الاوامر كانت تنفذ بالكراج فكتب اثنان من أعضاء « اللجنة التحقيق » التي عينت بعد ذلك سنة والتي سيأتي ذكرها يصفان هذه الحالة فقالا في تقرير قدماء الى تلك اللجنة وقدمته لاحقا الى الدول ^(١) : « كل ما كان هلاك من النظام هو أن شيخ البلد ينفذ

(١) هذا التقرير كتبه « م . ي . بيريج » و « ا . دي كزيمر » وهو منشور في القسم الخاص « بمسألة مصر » من مجموعة « السفندات السياسية التي اصدرتها » الحكومة الفرنسية في سنة ١٨٨٠

والامر التي تصدر اليه من المدير . والمدير يعيد ما يصدر اليه من المفتش العام .
 والمفتش يتلقى الامر من الدائرة العليا (اى من الخديو) . وهذا الامر هو القانون الذى
 يجب أن يتفذه موظفو الحكومة ولو كان شفويا دون أن يباح لاحد من الموظفين أن
 يتفتش في وجوده أو في مؤداه . وهذا كانت تدار الاكلة الحكومية في عهد اسماعيل
 وخاصة في ايامه الاخيرة حينما اختلط الخامل بالنابل ولم يكن لاسماعيل هم الا ابتذاع
 قواع جديدة من الضرائب والمفارم كل يوم للاستيلاء على الاموال والمحصلات
 واهم المراقبين ان يدفعوا الاقساط (او الكيونات) في مواعيدها ليتنابدلوا
 كفالتها وكفاءة النظام الذى يمثله فخبسا عن اسماعيل ونسائه وقصوره ومطابخه
 وتبائعه جميع نفقات البدخ وخبسا عن طائفة من الموظفين المصريين مرتباتهم وأمر
 بقرع فريق من رجال الجيش، وبهذه الوسائل وأمنائها استطاع ان يمسك المال
 اللازم لقسط يناير قبل ميغاده فتباها بذلك وقدماء لارباب الديون رهانا على
 كفالتها ونفع النظام الجديد . ولكن المصين أخذ ينصب في الشهور التالية فاستولي
 عليها الانزعاج وارسلوا الحجة يمجون الضرائب بالكرباج^(١) وتفضا في يوم الامتيازات
 لشركات^(٢) ومع هذا قرب الموعد الذى يدفع فيه قسط يوليو ولم يكن ليهما ما
 يعرضن منه فلما رأيا ذلك وضعا ايديهما على محمولات فلاحى الافاليم المحصنة لاداء
 الدين وباعاه صفقة واحدة لشركة آل هوذورث بنصف مليون جنيه^(٣) .

وعلى أثر ذلك كتب قنصل إنجلترا العام الى حكومته تقريرا قال فيه : لقد
 استطاعت مصر أن تؤدى في ثمانية أشهر ما يقرب من ٦ ملايين جنيه . وهذا كله
 يدل على كفاية المراقبة الجديدة غير أنى أخشى أن تكون هذه النتائج لم تتم الا بما فيه
 حلاك الفلاحين بحملهم على بيع محمولاتهم قبل حصادها وجباية الضرائب قبل

(١) كتاب « المسألة المصرية » لمستر تيودور روستين ص ٤٥ من الترجمة

(٢) التيمس في ٣ مارس و ٢ ديسمبر سنة ١٨٧٧

(٣) رسالة من الاسكندرية الى التيمس في ٢٧ يونيو سنة ١٨٧٧ وكتاب

« المسألة المصرية » لمستر تيودور روستين ص ٤٦

مواعيدها . أما الموظفون الوطنيون الذين يقتضى صلاح الادارة اطراد دفع مرتباتهم فقد ذهبوا ضحية الكوبونات وأصبحوا ولهم متأخرات حسنة »

وحينئذ روى أن السفينة لا تبحر وأن دولاب العمل في مصر وقف فانهم الدائنون اسماعيل بانه يخفي عن المراقبين بعض الابراد وهددوا بمقاصدة ناظر المالية أمام المحكمة المختطة وأنخبراً طلبوا تعيين لجنة للتحقيق . فحاول اسماعيل أن يصم أذنيه فازدادوا ضجيجاً ولوحوا له باسم الامير حليم مطالباً بعرش مصر . وكانت نفسية اسماعيل قد اقلت الاذعان فاذعن في هذه المرة أيضاً وأصدر في ٢٧ يناير سنة ١٨٧٨ أمراً بتعيين اللجنة ، ولكنه قصر اختصاصها على موارد الدخل فاحتج الدائنون وكتب ممثلهم مستر غوشن في التيس في ٣١ يناير يقول « سوف لا أحجم عن بذل ما أوتيت من جهد ونفوذ لتنصل على ما تحاوله الحكومة المصرية من حصر دائرة التحقيق » . فارد اسماعيل أن يجتمعي في سلطان تركيا قائلاً انه « السلطة الوحيدة التي يخضع لها » (١) فلم تنسل اعلمتروا فرنسا فاضطر ان يصدر في ٣٠ مارس سنة ١٨٧٨ أمراً بعد اختصاص اللجنة الي الدخل والمخرج وجميع الشؤون المالية .

وألفت اللجنة من فردينان دلبس مشي ، قاة السويس رئيساً ورفرز ولن وكيلاً ودي بلير ويار افلى ويبرنج ودي كريم ورياض باشا أعضاء . ولكن داسس كان كثير الغياب في باريس فكان رفرز واسن الرئيس المعلي

وأخذت هذه اللجنة في عماها فانضح في الحال أن السير فرز واسن لا يرضى عن هذا العمل الا اذا انتهى الى تنسجة معينة هي أن تتولى هيئة أجنبية ، أو بعبارة أخرى انجليزنية ، ادارة الامور في مصر . وكتب قنصل فرنسا العام اذ ذاك البارون دي ميشل الى حكومته تقرراً أظهر فيه قلقه من هذه الخطة وأشار الى أن هلاك اشاعة «بان السير رفرز واسن سيكون وزيراً لاسماعيل فكأنه يهيئ السبل لتحقيق هذه الاشاعة» (٢) . وأتمت اللجنة تقريرها النهائي وقدمته الى اسماعيل في ١٣ اغسطس

(١) الحالة الدولية لمصر والسودان ص ٧٨

(٢) دي فريسنيه ص ١٦٦ و ١٦٧

سنة ١٨٧٨ وكان السير دفرز ولسن هو الذى انفرد تقريبا بكتاشته (١) وفيهم اسماعيل بأنه مسئول عن عجز في الإيرادات قدره عشرة ملايين جنيه وطلب منه في مقابل ذلك أن ينزل عن أطماعه للدائنين . فتردد اسماعيل في قبول هذه النجدة ولكنه بعد أن ذل حتى صار أسيراً في أيدي انجليترا وفرنسا لم يمهلهما أن يصدر في ٢٤ أغسطس أمراً بالموافقة على ما في التقرير وتنفيذه وقاله اذ ذاك السير دفرز ولسن وقال له ان الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها أن يصلح ماله وأن يسترد الثقة به هي أن يدخل تعديلاً جوهرياً على طريقة الحكم . فرد عليه اسماعيل بالكلمة التي اشتهرت عنه وهي قوله : « ان بلادي ليست الآن في أفريقيا . اما الآن حزم من أوروبا في الطبيعي ان تترك فيه الماضي وان تتبع نظاماً مطابقاً لحالتنا الاجتماعية » (٢) . وكان هذا التعديل الذي طلبه من السير دفرز ولسن ان ينزل عن سلطة الحكم لمجلس نظاره كي يكون هذا المجلس مسؤولاً عن أعمال الحكومة . وكانت هذه هي الوسيلة التي رى السير دفرز ولسن أن يدخل بها الوزارة . وفعلاً أصدر اسماعيل أمراً الى نوبار باشا في ٢٨ أغسطس قال فيه انه يريد من الآن فصاعداً ان يحكم « مع مجلس نظاره وبواسطته » . (٣) ودارت حلوزات طويلة بينه وبين انجليترا وفرنسا بشأن تأليف هذا المجلس كانت تبيجنها أن أصدر أمراً في ١٤ أكتوبر بتعيين السير دفرز ولسن ناظرًا للمالية ومسيو دي بليير ناظرًا للاشغال . ولذلك قُبت هذه التطورة التي كان نوبار باشا يتولى رئيسها بانتظاره الأوروبية

وهكذا صار ناظران اوريان احدهما اختارته الحكومة الانجليزية والثاني لفتلته الحكومة الفرنسية هما الاذان يحكمان مصر . اما اسماعيل ، اسماعيل العظيم

(١) دى فرسبينه ص ١٦٩

(٢) الحالة الدولية لمصر والسودان ص ٧٩ وهذا هو النص بالفرنسية :

Mon pays n'est plus en Afrique ; nous faisons partie de l'Europe actuellement. Il est donc naturel que nous abandonnions des arrangements anciens pour adopter un système conforme à notre état social.

(٣) هذا الامر هو الأساس الذي اعتبر دستوراً لمجلس الوزراء من ذلك الوقت

الذي كان هذا الدستور المصري في سنة ١٩٢٤

المستبد الفخور قد نحي الى زاوية من روايا الاحمال . وليس اسمايل وسلطه
عما اللدان بعياننا في هذا وانما استقلال الحكومة المصرية هو الذي يعيناه والذى
هدم الى آخر حجر منه بتأليف هذه النظارة

رهب مضمم

ولتأخر بين الدول حين تأليف هذه النظارة الاوربية قصة طريفة هي انه لما
قل اسمايل أن ينزل عن سلطة الحكم لمجلس نظاره كان من المتفق عليه بينه وبين
الحكومة البريطانية أن يعين السير فرزولسن ناظرًا للمالية وأن يستغنى بذلك عن
المراقبين الانجليزى والفرنسي فلما علمت الحكومة الفرنسية بهذا حاجت وطلت أن
تعطى نظارة مفاوضة المفاوضات في ذلك بين لندن وباريس الى أن تم الاتفاق بينها
على ان تأخذ فرنسا نظارة الاشغال . وهذا هو السبب في ان الناظرين الاوربيين
لم يعبأ الا في ١٤ أكتوبر مسم ان الامر صدر لتوليا باشا بتأليف نظارته في
٢٨ أغسطس

ولما علمت ايطاليا والنمسا بان انجلترا وفرنسا اقتسما الفتيحة على هذا المنوال
تقدمت كل واحدة منهما تطلب لنفسها نظارة فطلبت ايطاليا نظارة الحفاية وطلبت
النمسا نظارة المعارف (١) فاسترضيتا بان عين ايطالى مراقبا عاما للحسابات ومسوى
مساعدنا لناظر المالية

اذن كان اعتقاد الدول ان الحكومة المصرية لم تفقد استقلالها فقط
بل فقدت وجودها أيضاً وصارت تركتها لها مقبلاً بفور بالفتحة الكبرى
منه ذوالقوة الجور

مودة الضباط

وكان اول ما فعلته النظارة الاوربية أن دهن السير فرزولسن الاطيان التي نزل
عنها اسمايل وأمرته (وهي ٢٥٧٢٩ فدانا) ليت روتشيلد وعقد قرضاً جامع
٨٠٠٠٠٠ ر. ٨٠٠ جنيه، وهو الذى كان يسمى قرض الدومين ، قدفع منه بعض الاقساط

(١) التيمس في ١٤ أكتوبر سنة ١٨٧٨ - وكتاب « المسألة المصرية »
ليودور روتشتين ص ٩٥ من الترجمة

هاتين وكان من المتفق عليه أن تدفع من المراتب الناهرة للوظفين فلم تدفع م لم
تحتسب سنة ١٨٧٩ حتى كل قد ذاب كما يذوب الثلج تحت حرارة الشمس وصار هم الوزارة
أن تجبي الاموال لتدفعها للدائنين بحيث رأى كل ذي عينين أنها إنما تحكم مصر لمصلحتهم
لا لمصلحة المصريين . واشتد الكرب بالناس من جراء هذا النوع من الحكم حتي
التعرف به مكاتب التيمس في الاسكندرية فكتب في ٢٣ يناير سنة ١٨٧٩ يقول :
« لست مبالغا اذا قلت ان في القاهرة الآن مئات من المشايخ يمثل كل منهم قرية
من القرى حاصوا عمروضاتهم يسألون فيها تخفيف الضرائب وكل منهم يعلن أنه
لا يمكن بقاؤها على ما هي عليه . انهم جموع مخشدة امام أبواب الطارات يمترضون
الظفر في عذوم ورواحهم ومعروضاتهم غلا أقلام المصالح » . وبعد ذلك بشهر
وتصف شهر أي في ٣٩ مارس كتب هذا المراسل نفسه يقول : « يؤكد أهل الدلتا أن
الرمح الثالث من ضرائب هذا العام يجبي بنفس الطرق التي كانت تجبي بها الضرائب
قيا مضى . قد يعجب الناس من وقوع ذلك بإزاء ما يسمعون من أن المصريين يموتون
على قولوع الطرق وأن أراضي شاسعة تركت بورا لثقل الاعباء المالية المفروضة عليها وأن
الفلانين يباعوا وادابهم وأن النساء يسن حليهن وأن أقلام الرهون غاصة بالرايين يحملون
ويعتصمون وأن المحاكم لا تعمل لها سوى النظر في قضايا غلق الرهون اجابة لطلب هؤلاء .
الرايين »

وبينا الحال كذلك والناس يضجون بالشكوى في كل مكان جاء قسط مايو
وليس في الخزينة ما يكفي لدفعه فأمرت الوزارة بتسريح ٢٥٠٠ ضابط من ضباط الجيش
وحقت القسط مما اقتصدته من مرتباتهم . وكانت لهؤلاء الضباط مرتبات متأخرة
تدفعها عشر شهرا فلما فصلوا بغير أن تدفع لهم متأخراتهم هاجوا وماحوا . وكان
لحقت قد ملأ النفوس استمدادا للثورة فلم يترددوا في أن يكونوا أول من يضرم
لجراها وأخذوا نوبار باشا والسرديفر ولسن وهما خارجان من ديوانيهما يوم ١٨
يناير سنة ١٨٧٩ هاجوهما ولكوهما وشدوا شاريهما^(١) وسجنوهما في نظارة

المالية^(١) وعلم بالخبر اسماعيل فركب الى نظارة المالية محاطا بحرسه وأمر الضباط
بالانصراف فلم ينصرفوا فامر فاند حرسه بالطلاق الرصاص فاطلقت في الهواء فتعرف
المجتمعون واستطاع اسماعيل بذلك أن يخرج نوبار ورفيقته من سجنهما^(٢)

وعلى أثر ذلك أعلن اسماعيل أنه لا يكون مشغولا عن الأمن العام اذا لم يستقل
نوبار فاستقال . وكان اسماعيل تواقا الى أن يسترد ولو بعض ما كان له من السلطة

(١) رواية عراقى المنشورة فى ص ٣٤٦ من هذا الكتاب تقول ان الضباط
هاجموا نوبار باشا واهابوه وحده . أما رواية مسيو جول كوشرى (ص ٨٠) فتقول
انهم هاجموا نوبار باشا والسير ريفرز ولسن واهابوهم وسجنوهم . وكذلك رواية
مستر تيودور روستين (ص ٦٨ من الترجمة) . وهذه الرواية الاخيرة هى الصحيحة
لأنها تطابق ما نشرى « الوقائع المصرية » اذ ذاك . وقد نشر فى « الوقائع »
أيضا أن الحكومة اعتذرت من ذلك اعتذارا راجعا للسير ريفرز ولسن عن الالهة
التي لحقت به

(٢) اشتد البسط بالسير ريفرز ولسن من هذا الحادث فانهم اسماعيل بابه هو الذى
دبره ليخلص من النظارة الاوربية وسرى هذا الاتهام الى كثير من الناس ومنهم
مستر بلنت فى كتابه هذا . ولكن يحسن أن ننقل هنا ملاحظة كتبها فى ذلك مستر
تيودور روستين وهى :

« يذكر مستر بلنت تأييدا للرواية السير ريفرز ولسن شهادة عراقى باشا والشيخ
محمد عبده . ولكن عراقى كما يقول هو نفسه كان وقت حدوث الفتنه غائبا فى الاقاليم .
وكل ما يقوله الشيخ محمد عبده مجرد تصديق لقول عراقى . ويلب على الظن أن
كلا الرجلين اما كان يردد الاشاعات التي ترددت فيما بعد وصدها فى غير تمحيص
بنضا منه لاسماعيل . اما اللورد كرومر الذى لا يمكن أن يتهم بشدة الاقتصاد فى
الظمن على اسماعيل فانه يعترف « بان كل ما يقال من ان اسماعيل كان على علم بالفتنة
ليس الا من قبيل الحدس والتخمين » . وغاية ما يستطيع اللورد أن يرمى به اسماعيل
هو اشتراكه الاذنى فى الفتنه »

تلك هى ملاحظة مستر تيودور روستين ونضيف نحن إليها أن مستر فيان
الذى كان قنصلا عاما لا محلزا فى ذلك الوقت كتب تقريرا للحكومة برأ فيه اسماعيل
من هذه التهمة وقال ان الفتنه كانت نتيجة استياء عام أضيف اليه استياء الضباط

وكان يرى في تقعر الشعب من النظارة الاوربية فرصة صالحة لهذا التمرص فلم يمين خفيا نوبار وتولى هو رئاسة مجلس الطار . ولكنه لم يكذب يفعل حتى أبلغته انحطرا وقرضا أن توليه رئاسة النظارة يخالف للأمر الصادر منه في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ والذي نزل به عن السلطة للطار . وأبلغه مستر فيفيان قنصل إنجلترا يعلم أن الحكومة البريطانية تعتبر استقالة نوبار باشا عملا شخصيا وأنها لذلك لا تقبل أن يترب عليها تغيير في سير الأمور . وبعد معاوضات لم تدم أكثر من أيام اضطر اسماعيل أن يعلن يوم ٩ مارس ان الاتفاق تم على ما يأتي :

أولا — لاجتياز التجديب مداوات مجلس الطار في أي حال من الاحوال

ثانياً — يتولى الامير توفيق باشا رئاسة المجلس

ثالثاً — للعصوين الاوربيين الادين في النظارة حق المعارضة المطلقة : —

« Veto absolu » — في كل مالا يوافقان عليه . وكل أمر يعارضان فيه لا ينفذ . ولكن لكي تكون معارضتهما صحيحة يجب أن تصدر منهما معا^(١)

وهناك شرط رابع يصيغه مسيو جول كوشيري وهو أن يستشير اسماعيل حكومتى انحطرا وفرنسا في اختيار نظاره الجدد^(٢)

وهكذا جرب اسماعيل ف عرف أنه اذ شد وثاق البلاد بالديون شد بهذه الديون ضيقا وثاق نفسه، وأنه اذ عالج أن يخفف ضغط هذا الوثاق باء بالهشل وازداد وثاقه شدة على شدة . وهكذا أيضاً رأى المصريون رأي العين أن حكومتهم لم تبق لهم وأن استقلالهم الذاتي الذي اشتروه بمئاتهم في حروب عديدة والذي سجلته الفرمانات وأبدته المعاهدات الدولية في سنتي ١٨٤٠ و ١٨٤١ صارت ديون اسماعيل حبراً على ورق

وثيقة من اسماعيل للسير واد سلطنة

وكان المصريون ينظرون الى هذه الحال متألمين ، وكانت الشدائد التي قاسوها طول حكم اسماعيل قد ملأت صدورهم مرارة ، وكان المتألمون قد عرفوا من المثل

(١) فرى فرمينيه ص ١٧٣

(٢) الحالة الدولية لمصر والسودان ص ٨١

الذي ضربه لهم الصباط في مهاجرتهم نوبار ماشا والسير ولسن أن الأثم لا يفيد ما لم يصبح عمل وانه ان أراد الشعب أن يسترد استقلاله الذاتي وأنت يصع جداً لاستقلاله لمصلحة اسماعيل تارة ولمصلحة الدانين الاجانب تارة أخرى فطبعاً أن يعمل لهذه الغاية . وذلك ما صم عليه أعيان المصريين فاحذوا يعقدون الاجتماعات يوحدون بها الكلمة ويرسمون الخطة حتى اذا تم لهم ذلك كتبوا العرائض وجعلوا يرسلونها تارة الى الطائفة وتارة الى اسماعيل يطلبون فيها أن تكون الحكومة وطنية وأن تكون للأمة رقابة عليها^(١)

ولا حدال في أن اسماعيل نظر الى هذه الحركة عين الرضى لأنه كان يرى فيها وسيلة للحلاص من نير السطة الاجبية على المصوم والطائفة الاوربية على الخصوص، ولكن لا حدال أبصاً في أنها كانت ضده كما كانت ضد النفوذ الاجنبي، وقد رأينا في ما تقدم أنه كان من بعض اعراضها التفكير في قتله وسرى في ما يلي أنه لما أراد أن يختمها لاهوائه بعد أن تخلص بها من الطائفة الاوربية أبت ووقعت في وجهه تطلب أن تكون رقابتها على سلطته فطبعاً^(٢)

وأجاب السير ريفرز ولسن على هذه الحركة بان أعلن بصفته ناظراً للمالية تأجيل « كوربون » ابريل شهراً فكان هذا بمثابة إعلان لافلاس الحكومة المصرية وكان من الضروري أن يتبعه قيود جديدة وأعمال مالية جديدة . وكان السير ريفرز ولسن يظن أنه بذلك يضرب اسماعيل والحركة الوطنية ضربة تمحمد أنفاسها فلم يصح حسابه وازداد بالعكس هياج الافكار وكتب الاعيان مذكرة وقعا منهم سبعون من العلماء فيهم شيخ الاسلام وبطربرك الاقباط وحاخام اليهود وستون من الباشوات وستون من البكوات وأربعون من الاعيان وعدد عظيم من ضباط الجيش طلبوا فيها عزل

(١) التيمس في ٣١ مارس سنة ١٨٧٩ — وكتاب تيودور روثستن ص ٨٤
ن الترجمة

(٢) يذهب كثير من المؤرخين الاوربيين الى أن اسماعيل هو الذي خلق هذه الحركة وأن المصريين كانوا فيها آلات مسخرة في يده ولكن الحوادث أثبتت فساد هذا الزعم

السير ريفرز ولين وتآليف وزارة وطنية وإيجاد مجلس نواب تكون له سلطة المراقبة على أعمال الحكومة وتكون الوزارة مسئولة أمامه^(١).

وفي مساء ٧ أبريل استدعى اسماعيل فاضل الدول وطلب منهم أن يبلغوا حكوماتهم أنه لم يبق في وسعهم أمام هياج الرأي العام في مصر إلا أن يحكم بنظارة وطنية مسئولة أمام مجلس نواب وأن ابنه توفيق باشا استقال وأن شريف باشا عين خفصاً له في رئاسة مجلس الظلار . وقدم التماس في الوقت نفسه مشروعا مائياً جديداً بتسديد الديون في ٦٥ عاماً وتخفيض الفائدة الى ٥ في المئة وتخصيص ٤ ملايين جنيه من دخل الحكومة لشؤون الادارية . وأعلن أن المراقبة الثابتة التي كانت قائمة قبل تأليف الوزارة الاوربية تعود الى ما كانت عليه

ولاعلم الوزيران الاوربيان بذلك احتجاجا على اسماعيل وأسماء بانه هو الذي جبر هذه الحركة ليخلص من تهديداته . ثم استقالت لجنة التحقيق بعد ثلاثة أيام قبيل اسماعيل استقالته في ١٣ أبريل وأصدر في ٢٢ أبريل امراً عالياً بتنفيذ المشروع الذي قدمه فاضل

عزل اسماعيل

هنا أخذت الحوادث تجري سراعاً فتم اسماعيل أنه اذ ألقى بالبلاد في هاوية العمى ألقى بنفسه في أيدي الأجانب وأنه اذ أضاع استقلال حكومته بالمراقبة الثابتة ثم بالنظرة الاوربية أضاع عرشه وأضاع نفسه، وذلك هي دائماً عاقبة من لا يكثرث المراقب

تألفت الوزارة الوطنية برئاسة شريف باشا كما تقدم وأعلن اسماعيل في الامر الذي قصده بتشكيلها أنه يريد لها مسئولة أمام النواب ثم أراد أن يرد نظام المراقبة الثابتة الى ما كان عليه فطلب من السير ارنلج بارنج (الورد كرومر) العضو الانجليزي في صندوق الدين ومن زميله العضو الفرنسي أن يتوليا المراقبة فرفضا وأضرب جميع

(١) جريدة الوطن عدد ٧٤ في ١٢ أبريل سنة ١٨٧٩ — التيمس في ١٩

أبريل سنة ١٨٧٩

الموظفين الاوربيين عن العمل^(١) في مصالح الحكومة . وأراد شريف باشا أن يدعم كرون مايو باعتار العائلة ٥ في المائة مرفوض صندوق الدين أن يتسلم شيئاً . وارسل وزير فرنسا مسيو واديمتوني الى قنصل فرنسا العام في القاهرة يطلب منه أن يبلغ اسماعيل أنه يستمر عمله « قصصاً متعسدا في الرعاية الواجبة لفرنسا وانجلترا » . أرسل في ٢٥ ابريل تلغرافاً آخر كان فيه أوضح منه في تلغرافه الاول فقال^(٢) : « اذا استمر الحدوي علي الامتناع عن الرضى بتعاونه الساطرين الاوربيين لحكومته لا يبقى أمام فرنسا وانجلترا الا أن تحتفظا بحريتهما التامة في تقدير الحالة وفي العمل لحاية مصالح رعائهما ثم في الحث عن أفضل الوسائل التي تضمن لمصر حكومة صالحة » . وكان هذا تهديداً صريحاً ولكن اسماعيل كان قد تحمل من دل الاذعان ما لم يوق معه مزيد وكان في وقت ثورة ثارتها نفسه على هذا القتل عاجب في ٤ مايو^(٣) : « بان الحالة التي صار اليها الرأي العام المصري لاتسمح بصودة الساطرين الاوربيين الى النظارة » . وحيث تعاوضت فرنسا وانجلترا في ما فعلانه وطلبتا من الدول الاخرى أن تؤازرها فيما عازمتان عليه . وكل رأى بترك هو الذي يههما أكثر من غيره . ففى السير ريفرز ولسن حتى حصل عليه وأرسلت المانيا والنمسا في ١٨ مايو نحنجان على الامر الذي أصدره اسماعيل في ٢٢ ابريل خاصاً بنسوة الديون وتخفيض فائدته ثم تنهما روسيا وايطاليا . وبعد ذلك أى في ١١ يونيو قدمت انجلترا وفرنسا لعمل فارسلتا احتجاجاً قالتا فيه انهما « لا يقران الامر ٢٢ ابريل باية قيمة قانونية » . واذ ذلك شعر اسماعيل بان العاصفة تهب وتنبه فاخته الرعب وحاول أن يثقيها بان كتب شريف باشا في ١٥ يونيو^(٤) الى الدول يلغها على عجل أن الامر ألتمى ، ولكن العاصفة كانت أقوى من أن يردّها هذا العلاج ، وغضب انجلترا وفرنسا عما كانت تعتبرانه ثورة عليهما من اسماعيل كانت أشد من أن يسكنه هذا الاذعان المتأخر ، فأرسلت الحكومة الفرنسية الى قنصلها العام في القاهرة

(١) كتاب « مصر الحديثة » للورد كرومر — الجزء الاول ص ٣٠١

(٢) دي فريسينيه ص ٥٧١ الحالة الدولية لمصر والسودان ص ٨٢

(٣) دي فريسينيه ص ١٧٦

(٤) تلغراف من روتر شر في التيمس في ١٦ يونيو سنة ١٨٧٩

يوم ١٨ يونيو تلغرافاً قالت فيه ^(١) : « اننا متفقون اليوم مع الحكومة البريطانية على أن ننصح بالحدوث بأن ينزل عن عرشه وأن يغادر مصر . فان أطاع هذا الصبح حصل معاً الترتيب معاش له ولبقاء وراثته العرش لابه توفيق » . وأرسلت يوم ٢٠ تلغرافاً آخر قالت فيه ^(٢) : « إذا رفض الخديو أن يصفي لصحبا فلن نتردد في الاتجاه الى الدولة صاحبة السيادة على مصر لطلب من «سلطان عرب هذا الأمير الذي أنكر واجابه اسكراً خطيراً وتعيين خلف له » . وفي الوقت نفسه تولت الحكومة البريطانية الى فتحها العام في القاهرة مثل هذه الاوامر . وتردد اسماعيل أباسا، وعلم الباب العالي أن إنجلترا وفرنسا لا يجتنان اليه لطلباً منه عزله وأنه سوف لا يرضى طلبهما ففضل ان يسبقهما اليه ليظهر بمظهر صاحب سلطة ^(٣) فأرسل في ٢٥ يونيو قبل ان تطلب الدولتان منه شيئاً تلغرافاً الى اسماعيل حوله وأرسل في ٢٦ يونيو تلغرافاً الى توفيق بتوليته مكلن أبيه ^(٤) . وفي ٣٠ يونيو ودع اسماعيل ابنه باكياً وهو يقول له : « كن أسمع حالاً من أهلك » ^(٥)

وعاش اسماعيل بقية حياته في إيطاليا ثم في الاستانة الى أن توفي في ٣ مارس سنة ١٨٩٥ فنلت جثته الى مصر فوصلت الى قصر رأس التين مساء يوم ١١ مارس . وفي هذا المساء نفسه كانت فرقة أوردية تمثل في مسرح الأوبرا بالقاهرة ، أى في مسرح القدي بناء أيام مجده وملاذاته ليسر به ملوك أوربا وملكانها وهو يستقبلهم في عاصمة ملكه ، كانت فرقة تمثل نفس الرواية التي أوصى بها فوضعت ومثلت خصيصاً في نفس المسرح : لا أولئك الملوك والملكات : أوبرا « عابدة » . فيها ملكة سحرية القدر جاتته على يد الاوربيين الذين أعطاهم كل مافي مصر من مل وحكومة لا على يد المصريين القدين أشقام وأشق معهم مصر الى زمان طويل

(١) دي فريسيته ص ١٧٨

(٢) المصدر السابق

(٣) المصدر السابق

(٤) يقول هناسترنيودورونستين ان اسماعيل نزل عن العرش بحضور

من أعيان مصر ولكن هذا غير صحيح

(٥) كتاب مصر للمصريين جزء ٤ ص ٩

الحياة النيابية في مصر

ليس من فحصى كما قلت أن أكتب تاريخاً وإنما كل قصدي أن أمهد لكتاب مستر بلت بنطرة سريعة يستعين بها القارئ، على استحضار الحوادث التي تناولها هذا الكتاب أثناء تلاته . وهذه الحوادث سائلة واحدة عمدت حلقاتها الأولى في عهد اسماعيل وحلفائها الثانية في عهد ابيه توفيق ، وقد مررنا بالحلقات الأولى مرأيا فيها اسماعيل يتسلم زمام مصر في سنة ١٨٦٣ وليس عليها من الدين الا ثلاثة ملايين وحكومتها مستقلة لا سيطرة عليها لنير الوالي ولا يد فيها لتبر أهلها فما أخرج عنها في سنة ١٨٧٩ حتى كان ديها قريبا من ٩٩ مليوناً وكانت السيطرة على حكومتها لانهلترأ وفرنسا من دون حديوبها وكانت اليد العاملة فيها للادوربيين من دون المصريين . والآن نصل الى الحلقات الثانية حلقات الحوادث في سنتي ١٨٨١ و ١٨٨٢ وفيها ومن أجلها وضع هذا الكتاب فلتترك مستر بلت ينكلم ليقول لنا ما عرفة وما جرى على يديه منها

ولكننا وقد رأينا أنه كان الحياة النيابية في آخر أيام اسماعيل شأن مذكور نرى أن نلم هنا بطرف منها ثم بطرف آخر منها في عهد توفيق ليعرف من لم يعرف أن لهذه الحياة عروفا ذاهبة الى الاعماق في أرض مصر وأن المصريين الذين نادوا بسلطة الامة في سنة ١٨٧٩ ، ثم في سنة ١٨٨٢ ، لا يمكن ان ينصرفوا عنها في سنة ١٩٢٨

من نابليون الى اسماعيل

يمكن أن يقال ان النواة الأولى للحياة النيابية في تاريخ مصر الحديث كانت هي التي وضعها نابليون بونابرت في يوم الخميس ٢٧ يولييه سنة ١٧٩٨ اذ طلب من العلماء والاعيان ورؤساء الفرق أن ينتخبوا من بينهم عشرة يتألف منهم « ديوان اللطرفي الامور الداخلية والمصل في الدعاوى » فوق اختيارهم على عشرة كان منهم الشيخ عبد الرحمن الشرفاوي والشيخ خليل البك ، والشيخ مصطفى الصاوي والشيخ محمد المهدي .

كان هذا الديوان ظاهرة أولى ضئيلة من ظواهر سلطة الأمة ثم جاءت الظاهرة الثانية قوية يوم كره المصريون واليهام خورشيد باشا وسبوا مطالبه فصار علماءهم ومشايعهم ورؤسا جنودهم الى محمد علي، وكان ذلك في ٦ مايو سنة ١٨٠٥، وقالوا له لا نريد هذا الباشا حاكما علينا فقال ومن يريدون اذن - قالوا لا رضى الا بك ١١ ثم سمع بك من حب العدل والخير . قيل فتمنع محمد علي ثم رضى فاحضروا له كرعا وعليه قنطان وقام اليه السيد عمر والشيخ الشرقاوى فالبسه ثم بعثوا الى خورشيد باشا فلك قال انى مولى من قبل السلطان فلا أعزل بأمر الملاحين ولا أنزل من القلعة الا بأمر من السلطنة . فحاصروه فى القلعة وكتبوا الى الباب العالي يطلبون نصيب محمد على وما زالوا حتى صدر البرلمان بذلك ووصل الى القاهرة يوم ٩ يولية سنة ١٨٠٥ وبعد أن استتب الامر لمحمد على وشرع ينظم حكومته أنشأ مجلسا كان يسمى «مجلس المشورة» فما كان يقرأ أمراً إلا بعد عرضه عليه . وها هو ذا ما نشرته فى ذلك «الوقائع المصرية» فى عددها رقم ٤٩ الصادر فى يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٨ :

« بيان كيفية ترتيب المجلس »

« ان حضرة افنديا ولى النعم الا كرم منحه الشفقة والمراحم ما برح متفكرا فى عمار تلك والملة وفى راحة أهالى الامصار والبلاد ورقاية الرعايا والعباد ولا يزال يتصور تحصيل أسباب الامور الخيرية ساعيا ويحتد في استخراج أسبابها من القوة الى قسول ولاجل ذلك أوصى حضرة افنديا ابراهيم باشا ولى النعم قبل أن أرسله من الاسكندرية الى مصر بان يجمع ما مودى الاقاليم المصرية العظام ومشايخ البلاد فحكام وينتقد مجلس للمشورة كل يوم ويدي كل منهم ما فى باله ويقولون مرادم من غير تعصب وعناد أي لا يمارون بما يرون بل يقولون على وجه الحق والانصاف ليضج منها القضية الخيرية فيحصل رضاه السنى . وأمر ايضا بان يجتمع فى ذلك المجلس اشراف العلماء المصرية لكي لا يبدو انحراف عن تلك الاصول المستحسنة التى براد تأسيها على جادة الشريعة المطهرة فاجتهد سعادة المشاور اليه بصحيل رضا سعادته بما كان مقطورا عليه من حسن للسعى والاجتهاد حيث جمع المذكورين كلهم الى قصره بعد مضي يومين من وقت نشره مصر وأوضح لهم ما سمع من آية الأكرم من الوصايا والنصائح فلذلك انعقد المجلس فى القصر السالى فى اليوم الثالث من شهر ربيع الاول بعد العصر وسئل كل منهم عما لاح فى ضميرهم وتقرر ان يضبط الوقائع حال ما جرى ويجرى فى ذلك المجلس »

ونقبت الحياة النيابية واقعة عند حد هذا المجلس الى أن تولى اسماعيل فاشا في آخر سنة ١٨٩٦ « مجلس شورى النواب » ووضع له « لائحة أساسية » و« نظامنامه » عرفنا بلائحة ٢١ رجب سنة ١٢٨٣ (١)

(١) هذه « اللائحة » تشتمل كما قلنا على قانونين أحدهما « اللائحة الأساسية » والثاني قانون المجلس وكان يسمى « النظامنامه » ونحن نورد هنا بينهما :

اللائحة الأساسية لمجلس شورى النواب

(١) تأسس هذا المجلس مبنى على امدادولة في المنافع الداخلية . والتصورات التي تراها الحكومة انها من خصائص المجلس بصير المذاكرة واعطاء الراى عنها وعرض جميع ذلك للحضرة المجدوية

(٢) يجوز اصحاب من بلغ عمره ٢٥ سنة وما فوق ذلك شرط أن يكون موصوفا بالرشد والكمال وأن يكون من الاشخاص المعلومين عند الحكومة بأنه من الاهالى الطاهين لها ومن اولاد الوطن

(٣) يحرم من صلاحية الانتخاب الاشخاص الذين حكم على أموالهم وأملأهم بأحكام الافلاس وتلفت بهم حقوق الغير الا اذا أعيدت تلك الحقوق التي حرموا منها وايضا الفقراء والمحتاجون والاشخاص الذين أعينوا على حالهم قبل الانتخاب بسنة والاشخاص الذين صار مجازاتهم باللبان والطرء بحكم

(٤) ان الاشخاص الذين انتخبون النواب يلزم أن يكونوا من الذين لم يحكم على أموالهم وأملأهم بأحكام الافلاس وتلفت بهم حقوق الغير الا اذا أعيدت تلك الحقوق اليهم وأن لا يكون سبق مجازاتهم باللبان والطرء بحكم وأن لا يكونوا من الاشخاص الداخلين سلك العسكرية تحت السلاح

(٥) المستخدمون في الخدمات الميرية والمستخدمون في الجهات الخارجية عن الميري سواء كانوا من العمد والوجوه أو غيرهم وكذا الداخلون سلك العسكرية سواء كانوا تحت السلاح أو امداديين لا يجوز انتدابهم ليكونوا من أعضاء المجلس وأما من رفقوا من المستخدمين بلا جنتة حسب الايجاب أو انقضت مدتهم من الامداديين فيجوز الانتخاب منهم ان كانوا حازرين الاوصاف المعتبرة المذكورة

مجلس شورى النواب

فتح هذا المجلس في ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٦٦ والتي فيه اساميل خطاب الافتتاح
من النواب أن يساعدوا الحكومة على تنفيذ الاشغال العمومية وتحديد
معايير سنوية لحياة الاموال وغير ذلك مما تريد الحكومة أن تشيرون فيه . وكان

(٦) ان انتخاب الاعضاء من الاقاليم يلزم أن يكون على حسب التعداد فقد ارم
انتخاب واحد أو اثنين من كل قسم من أقسام المديرية بحسب كبر القسم وصغره
وسمى انتخاب ثلاثة من مصر واثنين من اسكندرية وواحد من دمياط

(٧) حيث ان كل بلد على مناح معينون برغبة الاهالى وبالطبع هم المنتخبون من
حرف أهالى ذلك البلد والباقيون عنهم لا انتخاب العضو المطلوب انتخابه من القسم
ولما كان اولئك المشايخ حائزين الاوصاف المعتبرة المذكورة فهؤلاء المشايخ يحضرون
في المديرية ويكتب كل أحد منهم اسم من ينتخبه من القسم في ورقة مخصوصة
ويضعها مغفولة بالصندوق المعد لتقسمة بالمديرية

(٨) بعد ما يتم وضع الاوراق بالصناديق تفتح على يد المدير والوكيل وتناظر قلم
للمحامي وقاضي المديرية فيطرا اذا كانت أكثر الآراء متفقة على انتخاب واحد
من القسم فيصير هو نائباً عن القسم وان تساوت الآراء في انتخاب اثنين أو ثلاثة
فيقرع بينهم بمصorum والذي تصيبه الفرقة يصير نائباً عن القسم وفي كلا الحالتين
يؤخذ من المشايخ الحاضرين بالمديرية من البلاد ورقة باختيارهم بالاستقرار عليه الحال
في انتخاب أولئك النواب واما الانتخاب في مصر واسكندرية ودمياط فيصير
بإتفاق أو أكثرية آراء وجوه واعيان تلك المدن

(٩) يصير تجديد انتخاب الاعضاء في كل ثلاث سنين حسباً هو موضح بالبند

فصل الثامن

(١٠) اعضاء المجلس لا يزيدون عن خمسة وسبعين شخصاً
(١١) لا يقد المجلس اذا غاب من اعضائه أكثر من الثلث وان كان أحد اعضاءه
له عذر ضروري فيلزم عرض عذره على رئيس المجلس قبل انقضاءه بشهر فان قبل
عذره بالمجلس فيها والا فان لم يحضر بعد اعلان عدم قبول عذره فيصير انتخاب غيره
بدله من قسمه وجهته حسب اللائحة

(١٢) لا يسوغ التوكيل عن أحد الاعضاء بل هو يحضر المجلس بنفسه

اختصاص هذا المجلس ، كما يرى في المادة الاولى من لائحته الاساسية ، مقتصر على
المدولة في « التصورات التي تراها الحكومة أنها من خصائص المجلس » وتبينة
المدولة في هذه « التصورات » تعرض على الحديو دون أن يكون مفيداً شئ . منها .
وهذا معناه أولاً أن اختصاص المجلس بالنظر في مسألة من المسائل كان منروكا للحكومة

(١٣) يصير تحقيق حال كل عضو من أعضاء المجلس حين اجتماعهم معرفة قزميون
فان وجد مستكمل الشروط المتبرة المحررة في البنود السابعة بقبل والا قلنى نيابته
و ينتخب غيره من قسمه وجهته

(١٤) سد ما يصير تحقيق احوال النواب المنتخبين بالقومسيون ويوجدون حائزين
الاوصاف المذكورة في البنود السابعة فيعطى قرار عهم بالقومسيون ويمرض منه
الى رئيس المجلس ومنه ايضا الى الاعتاب الحديوية ليعطى كل واحد منهم بورلدى
يتضمن كونه منتخباً في ظرف ثلاث سنين في شورى النواب

(١٥) حيث من العلوم ان كل مجلس من المجالس الماثلة لهذا له حدود ونظامامة
فبالطبع حدود ونظامامة هذا المجلس ستعطى له

(١٦) ان عقد المجلس سيكون في هذا العام من ١٠ هاتور لغاية ١٠ طوبه واما
في السنين الاتية فيصير انعقاده من ١٥ كيهك لغاية ١٥ امشير

(١٧) لولى الامر جمع المجلس او تاخيره او تحديد مدته او تبديل اعضائه وانتخاب
غيرهم في مدة معلومة حسبما هو موضح بهذه اللائحة
(١٨) لا يجوز قبول عرض حالات من احد ما بالمجلس

حدود ونظامامة مجلس شورى النواب

(١) مجلس الشورى يكون بمجروسة مصر

(٢) مجلس الشورى وظيفته المدولة في المنافع الداخلية . والتصورات التي تراها
الحكومة اياها من خصائصه تصير المذاكرة فيها واعطاء الراى عنها كما هو مذكور
في السند الاول من اللائحة الاساسية لما تحصل المدولة فيه بمجلس الشورى فيما
يتعلق بالمنافع الداخلية يرسل من طرف الرئيس الى المجلس المخصوص ويحرى
المذاكرة عنه بالاقلام والقومسيونات بمجلس الشورى حسبما يأتي بعده بما يتعلق

فن شأت سمحت به وان شأت منعته وثانياً أن رأيه الذي يديه في ما تعرضه
الحكومة عليه استشاري محض

وقد أذاع بعض الاوربيين عن هذا المجلس خرافة من الخرافات التي ألغوا أن
يحقوها بالمصريين فزعم مسيو ملك كون في كتابه « مصر كما هي » — ص ١١٨ —

بخصوصات من البند ١٦ الى البند ٢٠ والبند ٢٣ من هذه اللائحة و قد إعطاء
تقرير عنها فنظر بمجلس الشورى ايضا كما في البند ٢١ و ٢٢ وبإتمام للمذاكرة
وإعطاء الرأى يمرض جميع ذلك للحضرة الخديوية

(٣) رئيس مجلس شورى النواب ووكيله بنصبان من طرف الحضرة الخديوية
(٤) افتتاح مجلس شورى النواب اما ان يكون بذات الحضرة الخديوية او من
يكلّفك بالأرادة السنية وتقرأ فيه مقالة فان كان افتتاحه بالحضرة الخديوية فقرأه
بالتنطق الخديوى أو من يوكل من قراءتها متعلق بالأرادة العلية وان انتحه
هوكل فلما ان تكون المقالة من الحضرة الخديوية ويقرأها الموكل بالافتتاح او انها
تكون من الموكل بالافتتاح وهو الذى يقرأها بموجب الامر

(٥) بعد افتتاح مجلس شورى النواب وقراءة المقالة يكون لاربابه الحق في ان
يستمعوا جوابا عنها في مدة يومين وهذا الجواب لم يكن الا من قبيل الرسوم بحيث
لا يطلع فيه بشئ عن امر من الامور المفتضى نظرها بمجلس الشورى

(٦) اذا كانت المقالة من الحضرة الخديوية فيعد تحرير جوابها في مجلس الشورى
يجب تقديمه للاعتاب الكريمة بواسطة رئيس مجلس الشورى ويكون معه من كل
فم اثنان من الاعضاء بالملابس الرسمية بعد تسمينهم بمعرفة جميع الاعضاء

(٧) حيث تقرر في البند ٢ و ٣ و ٥ من اللائحة الاساسية الاوصاف اللازمة في
حق من يحصل انتخابه لوظيفة المضوية فن حال الانتخاب بالمديرية اذا كان المجوز
لهم انتخاب النواب يمينون أشخاصا من التمر جائز تسمينهم لذلك فيا طيعة بحسب
الوضع بالبند ١٣ من اللائحة الاساسية يصير الايضاح من المديرية الى مفتش الموم
حتى كفيهم ومن طرفه يجرى تبين ذلك بالكشف الذى يرسل لرئيس مجلس
الشورى باسماء النواب الذين يمينون لاجل اجراء منطوق البند المشار اليه

(٨) من بعد افتتاح مجلس الشورى وقراءة المقالة يصير تقسيم الاعضاء الى خمسة
الاقلام باختيار نفس الاعضاء بعضهم بعضا ورؤساء الاقلام يكون انتخابهم بمعرفة

ان شريف باشا أراد يوما ان يوضح لاعضائه النظام الذى ينغى أن يتبعوه في حلوسهم فقال انت العادة جرت في البرلمانات الاوربية بان مجلس مؤيدو الحكومة في مقاعد البين ومعارضوها في مقاعد الشئال فما كان من الاعضاء جميعا الا ان اتوا الى مقاعد البين وقالوا « نحن عبيد اهدينا » . وزعم كتاب اوريون آخرون

الاعضاء ايضا وفي الافلام المذكورة يجرى التفحص عن المنتخبين حسب المدون بالبند ١٣ من اللائحة الاساسية بمعنى ان كل قلم يتفحص عن احوال المنتخبين الذين هم بقلم آخر واعضاء القلم الجارى فيه التفحص المذكور يصير التفحص عنهم بمعرفة قلم من الافلام الاخرى وبعد اعطاء القرارات اللازمة عن ذلك يصير اعطاءهم الى رئيس مجلس الشورى لعرضهم للحضرة المحمدية كما في البند ١٤ من اللائحة الاساسية .

(٩) متى تم تحقيق صحة الاصحاب لزم رئيس مجلس شورى النواب ان يرضى للحضرة المحمدية بذلك ولا ينتظر صدور الحكم بخصوص الانتخابات الموقوفة او المنازاع فيها متى كان الدين صحيح اصحابهم يجوز اسفاد مجلس الشورى بهم كالموضح بالبند ١١ من اللائحة الاساسية

(١٠) ترتيب اشغال مجلس الشورى يكون بالنظر بحسب ما يراه رئيسه ويكون لذلك دفتر واضح ببيان تلك الاشغال مادة مادة بنابة الاختصار وتواريخ ورودها والنظر الى وضعت عليها بالنسبة لترتيب رؤيتها وملحوظ يتاخر فيه عما يجرى فيها (١١) من يؤمر من الذوات من طرف الحكومة بالمباحثة في شان تصور من التصورات المروضة للذاكرة بمجلس شورى النواب متى طلب أن يتكلم لزم الاذن بذلك ولا يقتضي الزامه بالانتظار للنوبة حسب المفيد بدفتر النوبة

(١٢) مجلس شورى النواب له ان يجبر على الحضور بالشورى كل من لم يمنه مانع صحيح معتبر وذلك بواسطة ترتيب عقوبات على من لم يحضر بمجلس الشورى وكل رئيس قلم من الافلام يعطى الى رئيس مجلس الشورى قائمة كل يوم صباحا بمن حضر من الاعضاء ومن لم يحضر

(١٣) اذا كان عند مجلس الشورى في يوم من الايام أقل من القدر للمواضع عنه بالبند ١١ من اللائحة الاساسية لزم تأخير عقده الى اليوم الذي يليه وهكذا في كل

من الخديو اسماعيل ، وليس شريف باشا ، هو الذي حدثت معه هذه الحادثة .
ولكن لا ريب في أن هذه الرواية مكذوبة لأنها لا تستند الا الى دعاوى أولئك
الاجانب الذين سرق من الآل مبلغ ما يدعونه علينا من الكسب ، وهم يكذبون
علينا بأزعم من معرفتهم ان اتصالا عالم المدنية وثيق وان كذبهم لا يكاد يظهر

يوم . في انقضاء الحال على هذا الوجه يجب على الرئيس أن يؤخره الى اليوم
الذي يليه

(١٤) اذا كان عدد مجلس الشورى في يوم من الايام أقل من النذر الموضح عنه
البند ١١ من اللائحة الأساسية لكن تقس الاقلام يوجد منهم مستوفيا بقدر
الثلثين بالنسبة لاصل اعضائهم فالقلم الذي يكون بهذه الصيغة لا يصير تعطيله بل
ينظر في الاشغال المحولة عليه

(١٥) الذي يامر بافتتاح كل جلسة من جلسات مجلس شورى النواب وقفلها
هو الرئيس ويقضي في كل آخر جلسة ان يمين الرئيس من بدال السؤاى من الاعضاء
ساعة افتتاح الجلسة التي تليها وترتيب الاشغال بالاوقات المتفضية ويعلق الترتيب
الذكوري في محل مجلس الشورى وترسل صورة الترتيب في الحال الى كاتب الدewan
الخديوي ويقضي ان يجرى الرئيس ما يلزم من طرفه بوصول الاخباريات والتبليغات
اللزامة اليه باوقاتها للمتفضية

(١٦) التصورات التي تراها الحكومة تمثل صورتها بمجلس شورى النواب بمعرفة
من يتوب لهذه للمأمورية من طرف الحكومة

(١٧) بعد قراءة التصورات المذكورة في البند ١٦ يصير طبيها وتوزيها على
الاقلام للنظر فيها باوقاتها فتبحث فيها وتعين الاقلام من مجموعها قومسيون مركبا
من خمسة أعضاء يصير انتظامهم بطريقة اعطاء الراى عنهم بالصندوق سرا
وباقومسيون المذكور ينظر في تلك التصورات ويصحر التقرير اللازم عنها

(١٨) اذا صدر رأى من واحد او جماعة من الاعضاء الغير داخلين بالقومسيون
الذكور في البند ١٧ من اللائحة بخصوص مادة من المواد المتدرجة بالتصورات
المرسلة من طرف الحكومة ولم يكن ذلك من الملحوظات المذكور عنها بالبند ٢٣ من
هذه اللائحة يقضى ان يصير تسليم ذلك الراى الرئيس مجلس الشورى وهو بوصله
لا ، لقومسيون التحص بالنظر في ذلك ولا يجوز قبول أى رأى كان فيها يتعلق بمادة

حتى يفصح فكيف هم في سنة ١٨٦٦ والصلة بين مصر وعالم المديّة مقطوعة وقد كان للمصريين في هذا العالم أعداء طبعيون هم المراءون والافاقيون الذين كل منهم أن نداع عن الامة المصرية كل النفاض ليعاونوا اسماعيل على صفتها بيديه فيبقى لهم الخير الذي ندره عليهم أصابعه . وسنرى في ما يلي ان هذا

من ذلك متى تقدم التقرير في شأنها من ذلك القومسيون الى مجلس الشورى وانما عند تلاوة ذلك التقرير بمجلس الشورى يجري ما يلزم له من المذاكرة وأخذ الآراء حسب الوارد بنود اللائحة من البند ٢٠ الى البند ٢٢

(١٩) كل من أورد رأيا بخصوص مادة من المواد المدرجة تلك التصورات كما ذكر في البند ١٨ من هذه اللائحة كان له حق التكلم في هذا الخصوص بالقومسيون المختص بالنظر في ذلك

(٢٠) متى تقدم التقرير الصادر من القومسيون بخصوص صورة مادة لزم ان يتلى بمجلس الشورى ويطلع ويوزع على اعضاء مجلس الشورى قبل المذاكرة بأربع وعشرين ساعة على الأقل

(٢١) تفتح المذاكرة بخصوص التقرير المذكور عنه في البند ٢٠ من هذه اللائحة في الوقت المعين له في ترتيب اشغال مجلس الشورى ويقتضى افتتاح المذاكرة أولا فيها يعلق بكل فام أو باب منها خاصة

(٢٢) من بعد أخذ الآراء عن كل مادة خاصة من المواد المتكرب منها التصورات المذكورة يجب أخذ الآراء أيضا بخصوص مجموع تلك التصورات على وجه العموم (٢٣) اذا تراءى للقومسيون المختص بالنظر في احدى التصورات المرحلة من طرف الحكومة ملحوظات فيها يعلق بذلك تتقدم الى رئيس مجلس الشورى وقبل تلاوتها بمجلس الشورى تبحث من طرفه للحكومة

(٢٤) المسائل التي يلزم التداول فيها بمجلس شورى النواب بواقع ترتيب اشغاله بحسب ما يستقر عليه الحال في آخر كل جلسة كما ذكر بالبند ١٥ من هذه اللائحة يلزم في الجلسة الثانية ان كل مسألة منها قبل وضعها في ديوان المداولة يؤخذ رأي مجلس الشورى عن لزوم او عدم لزوم المداولة فيها وعلى واقع ما يفتى عليه الحال في ذلك يجري العمل

(٢٥) الا اذا المتعلقة بالمنافع الداخلية التي يلزم التداول فيها بمجلس الشورى بواقع

القبلى فنه آثار ووجه الحكومة عاصمة من المعارضة ونادى ، على الرغم من ضيق
تصلحه ، بأن سلطة الامة تمثل فيه وأن من حقه أن منحصر الظاهر لمراتبه

ويتلخص تاريخ هذا المجلس من سنة ١٨٦٦ الى نهاية سنة ١٨٧٨ في انه كان
للحكومة نعم المرشد في كثير من المشروعات الزراعية والصناعية وأعمال الري كما

يجب أشغاله كما في البند ١٥ من هذه اللائحة يلزم ان كل مسألة منها قس وضمعه
ميدان المذاكرة يؤخذ رأى من مجلس الشورى عن لزوم المذاكرة فيها وقتئذ
وتأخيرها لوقت آخر أو نحو ذلك

(٢٩) اذا طلب الكلام اثنان أو ثلاثة من اعضاء مجلس الشورى في آن واحد
يؤم أعمال القرعة المقتضية في تقديم أحدهم على الآخرين بمعرفة رئيس مجلس الشورى
(٣٠) في حالة المكالمة بمجلس الشورى في مسألة لا يجوز اقتراح المسألة في
مسألة أخرى

(٣١) في حالة المكالمة اذا تكلم احد الاعضاء فيها هو التكلم جار من اجله
لا يحكم غيره قبل اتمام كلامه

(٣٢) لا يجوز لاحد ان يتكلم في كل مسألة بمجلس الشورى الا مرة واحدة
لا يجوز تقصير الحال على بعض الاعضاء بالتكلم غير مرة اذا احتاج الامر الى اعطاء
الملاحظات أو اعطاء جواب مرة ثانية بناء على طلب عضو آخر ولما في القومسيونات
التي تشكل بمجلس الشورى فلكل عضو من اعضائها حق التكلم متى شاء
(٣٣) لا يجوز لاحد ان يتكلم الا اذا طلب الكلام وانذ له الرئيس بذلك
ولا يحكم الا وهو في موضعه

(٣٤) اذا اراد الرئيس ان يتكلم بنفسه وجب الاصغاء اليه

(٣٥) يجب ان يكون اخذ الاراء بالمستدق في الجهر وبطريق الاكثرية المطلقة

(٣٦) تحرير مستدق الاراء يكون بمعرفة كاتب السر

(٣٧) لا تكون عملية اخذ الاراء صحيحة معتمدة الا اذا كان الحاضر بمجلس
الشورى كما في البند ١٩ من اللائحة الاساسية

(٣٨) يجب على مجلس الشورى احترام حق العدد الاقل وفي ضمن المذكرات
يجب الاصغاء للعدد الاقل وان تسمع الملحوظات الصادرة منهم

كان في كثير من الاحيان يردد صدى الشكاوى الجمة التي كان الاهالي يشكونها من فسادة الضرائب وعدم الطام في جبايتها . ثم لما كثرت ديون اسماعيل واربتكتها الحكومة وأخذت الغوز الاخني يسيطر على البلاد كلت النواب أول المتذمرين ، وفيهم وفي الضباط وفي جماعة من الاعيان والعلماء وجدت جيداً فكرة

(٣٦) اذا كان عدد الاعضاء المأخوذ رأيهم هو الاقل واما الاكثر لم يعطوا رأياً في المادة المروضة لزم الرئيس ان يسأل باقي الاعضاء عن رأيهم

(٣٧) رئيس مجلس شورى النواب هو الذي يؤدي وظيفة الرئاسة عليه فقط ان يسأل ارباب مجلس الشورى عن رأيهم وليس له رأى مطلقاً الا في صورة انقسام الآراء الى طرفين متساويين وأما فيما عدا ذلك من الاحوال فلا يدخل بنفسه في رأى من جملة الآراء بمجلس الشورى وليس له أب يتدخل في مذكرات مطلقاً

(٣٨) متى صار التصديق على صورة مادة بمجلس الشورى لزم ان تكون نسخة الاصلية مقيمة في دفتر مخصوص لذلك ويختم عليها الرئيس والاعضاء وتصدر نسخة اخرى عليها علامة كاتب السر وختم الرئيس وتقدم للحضرة المحذوية

(٣٩) الحجب الى مجلس الشورى يومياً والذهاب منه يكون بحسب ما يراه رئيسه باستنساب المجلس

(٤٠) اعضاء مجلس الشورى يحضرون الى المجلس بملابئ الحشمة اللائقة وجلوهم فيه يكون بجهة الادب

(٤١) لا يجوز لاحد من اعضاء مجلس شورى النواب ان يغيب بدون اذن بصدر اليه منه وتعتبره تذكرة رخصته من طرف الرئيس ولا يجوز له ان يحرر تذكرة رخصة الا من بعد صدور الاذن من مجلس الشورى ما لم تقض الضرورة الشديدة بتحرير التذكرة على وجه العجلة وبعد تحريرها على هذه الكيفية يغير الرئيس مجلس الشورى بذلك

(٤٢) المحاضر التي تتحرر لانات وقائع مجلس شورى النواب تكون شتملة على أسماء الاعضاء الذين تكلموا بالشورى ورأى كل منهم بالاختصار

(٤٣) المحاضر المذكورة في البند ٤٢ تقيد بدفتر مخصوص لذلك ويقرأها كاتب

تجفيف الحزب الوطني، ومن ههضم الفت جمعيات سرية، وعلى السنة هذه الجمعيات
وهؤلاء المنتمين حرت لأول مرة في تاريخ مصر الحديث كله: «مصر للمصريين».
وكل هذا كان كما قلنا الى ما قبل سنة ١٨٧٩، أما في هذه السنة فلجلس شورى
تتولب شأن آخر

جلس في أول مجلس الشورى المنعقد في اليوم الذي يلي يومها ويضع الرئيس امضاءه
على ذات الدفتر في كل يوم

(٤٤) الاوامر التي تصدر من الحضرة المدبوبة فيما يتعلق بأحدى الخصوصيات
الذكورة بالبند ١٧ من اللائحة الاساسية تنلى بمجلس الشورى في الحال ويمرر
الفصل على مقتضاها

(٤٥) التنبيه بالرجوع ما يخرج عما يابق بحسب الاصول انما هو من وظائف
الرئيس وحده

(٤٦) اذا خرج المتكلم في مادة من المواد عن المسألة المفتضى الكلام فيها لزم
الرئيس أن ينبه عليه بالرجوع اليها وعدم الخروج عنها ولا يجوز للرئيس أن يادن
بالكلام فيما يتعلق باباب الرجوع الى المسألة المفتضى الكلام فيها

(٤٧) يؤذن بالكلام لمن خرج عن الاصول وتنبيه عليه بالرجوع اليها فرجع
وطلب الكلام ليمتد ولا يؤذن بالكلام للخارج عن الاصول في غير الصورة المذكورة
(٤٨) اذا خرج المتكلم عن الاصول وتنبيه عليه بالرجوع اليها مرتين في مسألة
واحدة وطلب للكلام للاعتذار يلزم الرئيس أن يسأل أرباب مجلس الشورى عن
لزوم منعه من الكلام في بقية الجلسة فيما يتعلق بالمسألة ويقتضى أن يحكم مجلس
شورى في هذا الامر بالاغلبية

(٤٩) اذا خرج للمتكلم عن المسألة المفتضى الكلام فيها وصار يرجاعها اليها مرتين
في مسألة واحدة ثم لم بالخروج عنها مرة ثالثة لزم الرئيس أن يسأل أرباب المجلس
عن لزوم منعه من الكلام في باقى الجلسة بخصوص المسألة المتكلم فيها وبقتضى
أن يحكم مجلس الشورى في هذا الامر بالاغلبية

(٥٠) اذا اقتضت الحال الى التنبيه على أحد من الاعضاء بالسكوت لكونه
تكلم في غير محله وقطع الكلام على غيره فيقتضى أن لا يؤذن له بالكلام في بقية الجلسة

مجلس شورى النواب في سنة ١٨٧٩

انتهت سنة ١٨٧٨ ومجلس شورى النواب في عطلة فصدر أمر عال بدعوته
للاجتماع هذا نصه :

« نحن خديو مصر
يتناه على ما عرض علينا من مجلس وزرائنا فأمر :

(٥١) لا يسوغ لاحد بمجلس الشورى أن يصدر منه مسبة لاحد ولا اشارة
بالاقرار أو بعدمه علي قول احد بمجلس الشورى

(٥٢) اذا حصل من أحد الأعضاء أمر يحل باضطراب حال مجلس الشورى لزم
أن ينبه عليه بالرجوع عن ذلك بالاسم من طرف الرئيس فان أصر على ذلك ولم
يرجع لزم الرئيس ان يامر بقيد التنبيه عليه في ضمن المحضر الذي يتحرر بما يقع
في مجلس الشورى في ذلك اليوم وفي صورة ما اذا أصر على عدم الرجوع عن الامر
المحل باضطراب مجلس الشورى يلزم المجلس بناء على طلب الرئيس ان يتحكم من غير
مذاكرة باخراجه من محل مجلس الشورى بمدة لا يقتضي ان تزيد على خمسة ايام
فقط ولا باس ان يامر أيضا باعلان صورة المذكور بالجهة التي يكون ادعائها النائب
المحكوم عليه بذلك من طرفها

(٥٣) في مدة افتتاح مجلس الشورى في الايام المحددة له لا تعمل دعوى على
احد من اعضائه بوجه من الوجوه الا ان كان لا سمح الله حصل من احد منهم
مادة قتل فطبعاً لا يعدم من اعضاء مجلس الشورى ويتمين بدله حسبما هو مدون في
البند ١١ من اللائحة الاساسية

(٥٤) لا يجوز لاحد من اعضاء مجلس الشورى ان يطبع وينشر المقالة التي قالها
بمجلس الشورى او المذاكرات التي حصلت بها من غير ترخيص رئيس المجلس
بذلك له فان طبع ونشر بدون ترخيص يترتب عليه الجزاء اللازم بقرار من قومسيون
يتمين من القلم الذي هو من اعضائه

(٥٥) في مدة المضيوية اذا حصل من احد الاعضاء ما يمنع لياقة وجوده فعوض
بمجلس شورى النواب بما هو واضح بالبند ٢ و ٣ و ٥ من اللائحة الاساسية
يسقط حق من المضيوية ويتمين بدله كما في البند ١٣ من اللائحة الاساسية

(٥٦) في مدة دوام افتتاح مجلس الشورى في الايام المحددة له لا يقبل الاستعفاء

تولا بالنظام مجلس شورى النواب في يوم ٢٩ ديسمبر الجاري
بينا جميعين احمد رشيد باشا رئيسا على هذا المجلس . ونكلف فاطر داخلينا
تقديم امرنا هذا

تحريرا بمحروسة مصر في ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٧٨ اسماعيل
يأمر الخديو : رئيس مجلس النظار — تولا

من أحد من الاعضاء وفي اوقات تعطيله اذا اراد احد منهم ان يستغنى لزم ان
يقيم الاستغفاء الى رئيس المجلس ويوصله الى يد الرئيس قبل انعقاد المجلس ثلاثين
يوما في الأقل وجبئذ تجري المكاتبة لجهته لاجل تسمية غيره كما في البند ١٣ من
اللائحة الاساسية

(٥٧) رئيس مجلس شورى النواب هو المنوط بالضبط اللازم في أثناء الجلسات
الحققة وفيما يتعلق بداخل المحل المد لاقامة المجلس

(٥٨) اذا تراءى لرئيس مجلس الشورى تاخير عقد المجلس في يوم واحد من
الايام الى اليوم الذي يليه ولو كان عدد الاعضاء مستوفيا كما كان في البند ١١ من
اللائحة الاساسية فلا مانع من تاخير عنده في ذلك اليوم فقط وبمرض الرئيس
مسترة الخديوية عن ذلك في الحال

(٥٩) يرسل القدر اللازم من الخفراء لجهة مجلس النواب من طرف الحكومة
(٦٠) لا يدخل جهة مجلس شورى النواب الا الاعضاء المنتخبون والاشخاص
المتفقون بمجلس الشورى ومن يرسل من طرف الحكومة بامورية تختص
باحتلال الشورى وهذا يقع اجراءه لحدا ما يصد الامر من الحضرة الخديوية
بجواز دخول من يصرح له بذلك بموجب التناكرا التي تعطى لهم حين ذاك من
طرف رئيس مجلس الشورى

(٦١) بحيث ذكر في البند ٢ و ٣ و ٤ و ٥ من اللائحة الاساسية الاوصاف
اللائحة في حق من يحصل انتخابهم بوظيفة العضوية بمجلس شورى النواب ومن
يجوز لهم انتخاب النواب في الانتخاب السابع يقتضي ان الذين يحصل انتخابهم
العضوية يكون لهم دراية بالقراءة والكتابة زيادة على الاوصاف المقررة في حقهم
وقد الانتخاب الحادى عشر يحتاج ان الذين يجوز لهم انتخاب النواب يكون لهم
اهل بالقراءة والكتابة علاوة على الاوصاف المنصوصة في شأنهم أيضا

ولكن لما جاء يوم ٢٩ ديسمبر لم يتيسر لعدد كبير من النواب أن يحضروا
فتأخر فتح المجلس الى ٢ يناير سنة ١٨٧٩ . ووصفت « الوقائع المصرية » هذا الفتح
في عددها الصادر في ٢٩ يناير بقالت :

« صار افتتاح مجلس شورى النواب الساعة ٥ ونصف عربى
بحضور سعادة الخديو الاكرم وبني يديه دولتو افتدتم محمد توفيق باشا ولى عهده
ودولتو افتدتم حسن باشا ثالث انجاله ودولتو نوبار باشا ناظر مجلس النظار وناظر
الخارجية والحفانية وجناب المسيو ريفرز ولسن ناظر المالية وسعادة محمد راتب باشا
ناظر الجهادية وسعادة مصطفى رياض باشا ناظر الداخلية وسعادة على مبارك باشا
ناظر الاوقاف والمعارف وجناب مسيو دولتيير ناظر الاشغال العمومية وسعادة
احمد خيرى باشا مهردار الحضرة الخديوية توليت مقالة النطق الكريم وصورتها اذناه:
« أبدى لكم ممنونى من اجتماعكم بهذا المجلس واخبركم بان سبب اجتماعكم هو ان
طار حكومتى سينتدكرون معكم في بعض مسائل مالية واشغال داخلية فترجو من
المولى الكريم ان تم المذاكرة في ذلك على احسن حال والله الموفق للصواب »

وكان الرأى العام يعلق آمالا كبيرة على هذا المجلس وكان يريد منه أن يخرج
عن الطوق الضيق الذى حدد فيه اختصاصه فيكتب جريدة الوطن في عددها الصادر
في ٤ يناير يقول : « ان الآمال جميعها متعلقة بان المجلس المذكور يحذو في هذه
المررة حذو مجالس أوروبا في استعمال حرية الافكار في جميع مناظراته ومداولاته فان
ذلك هو السبب الاقوى للممران الشاهد في عموم أوروبا اليان »

وفي يوم الافتتاح ألقى المجلس لجة منه لرد على « مقالة » الخديو ثم وضعت
اللجنة الرد ووافق المجلس عليه وقدمه وقد الخديو يوم ٦ يناير في قصر عابدين
بحضور جمع من الابرار والنظار والكبراء . وفي هذا الرد جهر المجلس بأن « النواب
هم وكلاء الامة والمدافعون عن حقوقها » ثم جهر بمعنى آخر كل يتبر جريئاً في ذلك
الوقت وهو أن مجلس النظار مسئول أمام الامة وتمتم لمجلس النواب . وها هو الرد
تنقله بنصه عن جريدة الوطن الصادرة في ١١ يناير سنة ١٨٧٩ :

« نحن نواب الامة المصرية ووكلائها المدافعون عن حقوقها الطالبون لمصلحتها التي هي في نفس الامر مصلحة الحكومة نرفع الى مقام الحضرة الخديوية العظيمة الشكر الجليل حيث عينت بتشكيل مجلس شورى النواب الذي هو اساس المدنية والنظام وعليه مدار العمران وهو السبب الموجب لتوال الحرية التي هي منبع التقدم والرفق وهو الباعث الحقيقي على بث المساواة في الحقوق التي هي جوهر العدل وروح الانصاف .

« ونكرر الشكر لهذه الحضرة الجليلة حيث شكلت مجلس وزراء جعلته مسؤولاً كلياً أمام الامة تايداً لمجلس النواب وتحميلاً له . ولذلك حينما خلقت ارادتها السامية لين يطر الوزراء في أمور المالية والاشغال الداخلية دعت نواب الامة ليتداولوا معهم في ذلك حفظاً لحقوق الرعية ومصلحة الحكومة »

ثم استمر الرد فذكر ان ما جاء في « مقالة » الخديو من أن المقصود باحياى المجلس هو المداواة مع النظار في المسائل المتعلقة بالمالية والاشغال والداخلية بحث في النواب « روح العصر الجديد وأحياى آمال الامة »

وهذا كله يدل على أن المجلس كان يستغل في تلك السنة وحقاوة في البلاد على روح الالم بما وصلت اليه الحال على يد اسماعيل والرغبة في أن تتولى الامة أمرها معها لتدبر الخطر عن نفسها . فلتنظر ماذا فعل بعد ذلك وكيف كان مسلكه بآراء الحكومة

كان الوقت وقت النظارة الاوردية ، ونحب أن يلاحظ القاري أن الوقت كان أيضاً وقت رضا اسماعيل بالنظارة الاوردية لانه لم يثر عليها الا في ابريل ونحن الآن في يناير ، فلما عقد المجلس جلساته الاولى بدأ فأخذ على النظار أنهم لا يحضرون اجتماعاته ولا يقدمون اليه المسائل ذات الاهمية . وعلم النظار بهذا الانتقاد فخصع له تلتزم الاشغال مسبو دي بليير فجا ، وتناقش مع المجلس وسمع ملاحظاته أكثر من مرة . واقترح بما سمعه من جوابه . أما رئيس النظار نوبار باشا وناظر المالية السير ديفرذ ولسن فقد كان لكل منهما موقف يستحق أن يذكر على حدة .

ونبدأ بناظر المالية فنقول إنه كتب الى المجلس يطلب منه أن ينتخب بعض اعضاءه

ليذهبوا اليه في وزارة المالية (١) ويتداولوا معه في بعض المسائل فرفض المجلس وقال ان رأيه لا ينحصر في فريق منه ولكنه قبل مع ذلك أن يندب حصة أو ستة منه على شرط أن تكون كل منهم سماع ما يريد الناظر بلبثهم إياه وان يعودوا الى المجلس ليعرضوا عليه ما سمعوه . ولا ريب في أن هذا كان خطأ من المجلس لار اسواب ليسواسفة يريدولان على كل ناظر أن يقدم بنفسه بما لديه ، ولكن لعل المجلس ظن أنه بذلك يبعد عن نفسه تهمة التعصب على النظارة الاوربية والناظر الاوربي وقد كانت هذه التهمة دائرة في ذلك الوقت على لسان كل طاعن في المصريين

على أن ناظر المالية استمر بعد هذا ممتنعا عن أن يقدم شيئا فاستعجله المجلس

(١) ننقل هنا من محضر جلسة المجلس في يوم ١٦ محرم سنة ١٢٩٦ — ٩ يناير سنة ١٨٧٩ ما يأتي بنصه :

« سادة رئيس المجلس اخبر بانه وردت افادة من ناظر المالية صورتها : « من حيث اننا نريد المكالمة مع ارباب شورى للنواب في مسائل مهمة تتعلق بامور مالية الحكومة والاسترشاد من معلوماتهم وتجاربهم المحلية فمتصور انه اذا امكن المداولة مع بعض من حضرات الاعضاء الذين يصير انتخابهم بمعرفة المجلس ويحضرون للمالية يكون ذلك مناسبا لطروف الاحوال ويتأتى منه تسيلات لأمورنا. فالرجاء تبليغ ذلك للمجلس والترجي منه بالقبول حسب ما يقتضيه الحال »

« ومحمود بك الططار قال المجلس لا ينحصر رأيه في بعض الاعضاء بل لا بد من المذاكرة بحضور جميع الاعضاء . وانما من حيث ان سعادة ناظر المالية طالب بعض ارباب المجلس للاسترشاد فلا بأس من تعيين قدر خمسة او ستة منهم بحيث ان لا يكون لهم رأى ولا قول في اي مسألة كانت وانما ما هو لازم الاستفهام عنه يصير تبليغه لهم ويحضر منهم مكتابة للمجلس بالكيفية وعندها ينظر ويعطى القول اللازم

« استقر رأى المجلس على ذلك وان الذين يتوجهون م..... الخ »

فلم يرد عليه فاضطر المجلس أن يحجر بذلك في جلسته ١٩ يناير^(١) وأن يعود فيكتب استعجالاً ثانياً . ثم مضت ثلاثة أيام أخرى وناظر المالية لا تزال ساكناً فلما انعقد المجلس في ٢٢ يناير شكوا أعضاءه بـ « إصرار من هذا السكوت »^(٢) ثم لم يجدوا إلا أن يبدوا ما لديهم من الملاحظات على الشؤون المالية

وهل تظن أن المتعطلين ويفررون وأن أصفى بعد ذلك لهذه الشكوى ؟ كلا لم يصغ إليها وكأنه لم يشعر بها ولا بوجود المجلس . ولو أنه كان موظفاً مصرياً لايستد في منصبه إلا إلى سلطة الحكومة المصرية ما استطاع أن ينكر المجلس هذا الانكار

(١) ننقل هنا من محضر الجلسة في يوم ٢٩ محرم سنة ١٢٩٦ — ١٩ يناير سنة ١٨٧٩ ما يأتي بنصه :

« عبد السلام بك المولى — قال حيث افتتح المجلس كان أصل مساء كما هو من مقتضى المقالة الحمد والية الطر في مسائل مالية وأشغال داخلية وتقدم تقرير بالمجلس عن لزوم حضور ذلك وقد حضرت إعادة من الداخلة عن مسائل لأشغال وحصل الوعد عن حضور مسائل المالية . ولما لم يحضر بحرر استعجال وللآن لم تأت والمجلس لم يزل في الانتظار . وقبل افتتاح المجلس معلوم عند سعادة ناظر المالية أهمية المسائل المتضمنة لتقديمها للمجلس وما هو لحد الآن ما ورد منها شيء فأت وافق بكون استعجال حضورها — استقر الرأي على ذلك »

(٢) ننقل من محضر جلسة ٢٩ محرم — ٢٢ يناير ما يأتي بنصه :

« تقدم انتهاء من حنا أفندي يوسف والشيخ عثمان الهرمبل والسيد أحمد الرسمي وبخوم أفندي لطيف الله وأحمد أغا عبد الصادق والشيخ فضل الزمر ويوسف أفندي رزق وعبد الشهي . أفندي بطرس والشيخ خضر إبراهيم والشيخ حسن عبد الله والشيخ أحمد جاد الله والشيخ محمود عبد الله والشيخ إبراهيم الجبار والسيد اللوزي والسيد سليمان القرني والشيخ محمد فرج ومحمود بك العطار . صار تلاوته وصورته أدناه :

« منى افتتاح المجلس إنما هو عن رؤية مسائل مالية وأشغال داخلية حسب المنصوص في المقالة الحمد والية التي نليت يوم الافتتاح وقد صار الاقطار لورود مسائل المالية ومع تحرير الاستعجالات عنها المرة بعد المرة ما كانت ترد . وقد مضى على المجلس من يوم افتتاحه لحد تاريخه نحو العشرين يوماً وقد سبق القول بالمجلس أن بعض حضرات الأعضاء عند عدم ملحوظات يرغبون إبداءها لكن مدتورون وورود تلك المسائل وحيث أنها ما وردت فقد ألجأت الضرورة لأن نوضح ما عندنا من الملحوظات الخ »

ولكنه كان موطأاً لمجلزياً يستند في منصبه الى انتداب حكومته من جهة وإلى السلطة التي كان الدائنون قد كسبوها في داخل الحكومة المصرية من جهة أخرى فكان سهلاً عليه أن يحقر المصريين مادام مستطيعاً أن ينز مناهم الاموال بقوة الكراخ للدائنين ومن هاهنا عهم انه حينما طلب من اسماعيل أن ينزل عن السلطة لمجلس نظاره لم يكن يريد ايجاد حكومة مثولة واما كان يريد ايجاد حكومة يمكن أن يدخلها ويكون صاحب السلطة المطلقة فيها

وقيت الحال كذلك عدة أيام وكان المجلس قد بحث بالملاحظات التي أبدتها بعض أعضائه على الشؤون المالية إلى الحكومة كي يرد عليها بآظر المالية فاقصت أسابيع ولم يرد الباطر ثم اجتمع المجلس في ٩ مارس فقدم ٢٩ عسواً من اعصانه احتجاجاً على الباطر^(١) ينوا فيه ملك العت الذي يسلكه وشرحو الضك الذي

(١) نقل من محضر جلسة ١٦ ربيع الاول - ٩ مارس ما ياتي :

« تقدم انباء من تسعة واربعين من الاعضاء وصار تلاونه وصورة اداءه :
 « لا يحى انت معنى افتتاح مجلس النواب في هذا العام كان من اجل النظر في مسائل مالية واشغال داخلية لما ان ذلك من مقتضى المقالة الكريمة التي تليت يوم افتتاحه وقد حضرت للمجلس مسائل تتعلق بالمليات ونظر فيها ونجرت للمحفوظات اللازمة عنها وبشت للداخلية واما المسائل المالية فع ظلها مراراً وعدم حضورها ومعلوماتنا بما هو حاصل للاهالي من الضك والمشفقة وعدم امكان القيام بواء المربوط فتقدم البيان عن التضرا الحاصل من اقلام الارادات والمجلس الخمس حضور سعادة ناظر المالية للمذاكرة معه في هذا الخصوص ولما لم يحضر كتبت للمحفوظات المقتضية وارسلت للداخلية وما كان يرد عنها بجوابه للآن . وبما ان حقيقة حال الاهالي وما هم عليه من درجات الصبر والمشفقة معلوم عندنا كما يجب ويلزمنا ايضاح ما هو مراء لنا في خصوصها بالنسبة لكوننا نوابا عنهم ولا شك في ان نقل الاحمال التي كلفوا بها هو الذي صيرهم الى عدم امكان الوفاء تلك المطالبات..... وحيث قد مضى من وقت افتتاح المجلس لحد تاريخه زيادة عن سبعين يوماً اي اكثر من المدة المقررة للائحة وما كانت نحضر المسائل المالية اللازم النظر فيها ولا الجوابه عن المحفوظات التي تقدمت من المجلس..... فقد التزمنا ايضاح الكيفية بالتفصيل وبيننا ما هم عليه الاهالي كما هو من واجبات وطائنا حتى لا يبق علينا ادنى ملامة في المستقبل - المجلس وافق على هذا الانهاء وقرر ارساله الى نظارة الداخلية »

صاته البلاد وأشهدوا الامة على أنهم فعلوا واجبه فلم تبق عليهم ملامة . وعند هذا
لقد من النزاع وقف مؤقتاً لننتقل الى النزاع الثاني الذي قام بين المجلس وروبار باشا
وسرى بعد ذلك كيف انتهى النزاعان

لاحظ اثنان من النواب هما محمود بك المطار وعبد السلام بك المويلحي أن
أمراً عالياً صدر في ٦ يناير — أى بعد افتتاح المجلس بأربعة أيام — ونشر في عدد
١٦ فبراير من الوقائع المصرية وفيه أن اللجنة التحقيقية التي عينت لفحص مالية مصر
ولمجلس النظار أن يضطلعوا بوضع لوائح وقوانين يصدق عليها الخديو وبصدرها بغير أن
تعرض على مجلس شورى النواب فاحتجوا على ذلك أمام المجلس فأقر المجلس
استجابهما وطلب حضور روبر باشا ليستجوبه في هذا الموضوع . وكانت وقفة
المجلس في ذلك اليوم ، يوم أول فبراير وقبل أن يفكر اسماعيل في الثورة على النظارة
الاورية بأكثر من شهرين ، وقفة تذكر في تاريخه وتاريخ الحياة النيابية في مصر
ولهذا نقل من محضر اجتماعه ما يأتي بنصه :

« قال الرئيس تقدم انهاء من حضرتي محمود بك المطار وعبد السلام بك وصار
تلاوته وصورته أدناه :

رأينا في العدد ٧٩٣ من الوقائع المصرية ذكر يتو مبنى على ما عرضه رئيس مجلس
النظار على الحضرة الخديوية ونصه :

بناء على التقرير الذي عرض علينا من رئيس مجلس النظار وبناء على رأى
مجلس النظار الموافق ذلك التقرير أصدرنا أمراً هذا .

أولاً أن قومسيون التحقيق الاعلى مكلف بوضع لوائح وقوانين لجميع الوادائي
اشتغل فيها وبعد نظرها في مجلس النظار واستصوابها يرفعها اليها للتصديق عليها
ان دعت الحاجة الى ذلك

ثانياً انه من اهداء التاريخ الذى بينه لا يصح تحصيل أموال ولا اجراء
أى أمر يختص بمسوم الادارة الا بعد صدور قانون من مجلس نظارنا مصدق عليه
منا ومنشور في الصحيفة الرسمية . وقد وكلنا رئيس مجلس النظار بتنفيذ هذا الذكر .
حرر في ٦ يناير سنة ١٨٨٧

ولم ير مجلس النواب في هذا الذكر جواسماً ولا خبيراً مع أن سائر ما يختص
بالادارة السومية من تحصيل أموال وضرب ضرائب ووضع لوائح أو قوانين

لذلك وما كان من هذا القبيل إنما يقصد به الاهالى لاعتد وكل ما يقصد به الاهالى لا بد أولا من عرضه عليهم ورضام به عن طيب خاطر منهم قبل وضعه وتكليفهم به. وحيث اهم اباؤنا عن أنفسهم نوابا منهم منوطين بالدفاع عنهم والحماية عن حقوقهم والنظر في شئونهم سين المصلحة فمن الواجب أن يعرض جميع ما يتعلق بهؤلاء الاهالى على نوابهم لينظروا فيه ويتدبروه . وذلك لا يخفى على دولة رئيس مجلس النظار . وكيف يخفى عليه ان للامة المصرية نوابا وهو يعلم دعوتهم للاتسام وقد شهد يوم اجتماع المجلس وحضر افتتاحه وسمع تلاوة الخطاب التديبى في أعضائه وحضر يوم اجابة الاعضاء على ذلك الخطاب ووقف على مضمون كل من الخطابات وجوابه وعلم ما فوض اليهم أمر المذاكرة فيه . ومن ثم قد أخذنا المعجب وذهب منا الاسف كل مذهب ولا شك في أنكم مشر للنواب قد أخذكم من العجب والاسف ما أخذنا وكيف لا وان مثل دولة رئيس مجلس النظار لا يحفل حقوق مجلس النواب ومقدار احترامها كما لا ينكر ان موضوع الذكر يتوهمك عنه ، هو من حقوق ذلك المجلس المقدسة التي لا يصح انتهاكها ولذلك كانت الحضرة الخديوية من عهد تشكيل مجلس النواب لا ترم غالب الامور المهمة التي تكون من هذا القبيل الا بعد أن تعرض على أعضائه ولا يقضى فيها الا بعد اقرارهم على وضعها مع أن تلك الحضرة هي التي منعت الامة تشكيل هذا المجلس . واذا كانت حقوقه محفوظة في الجملة حيث لم تكن ثم ودارة قائمة على دعائم الحرية مكلفة بأمر الاصلاح ومسئولة عنه فكيف تضيع تلك الحقوق في عهد تؤمل الامة فيه نوال نوابها بحال حريتهم وغاية حقوقهم علما بأن تلك الوزلة أدري بشئون البرلمنتو وأعرف بمقداره - اهـ

قرر المجلس المداولة في ذلك وارسال صورة منه الى رئيس مجلس النظار ومطالبة رئيس النظار بالحضور لكي تكون المداولة بحضوره .

فنظن ان كل مطلع على هذا الحضر يوافقنا على أن قول المجلس ان « كل ما يقصد به الاهالى لا بد أولا من عرضه عليهم ورضام به عن طيب خاطر منهم قبل وضعه وتكليفهم به » وقوله ان « من الواجب أن يعرض جميع ما يتعلق بهؤلاء الاهالى على نوابهم لينظروا فيه ويتدبروه » كانا تعبيرا صحيحا عن المطالبة بسلطة الامة وحق نوابها في التشريع .

وفي ٤ فبراير اجتمع المجلس وحضر نوبار باشا فابتدأ بأن قال انه « يقدم المجلس للاحترامات الفاتكة » مقابل المجلس هذه الاحترامات بالشكر ثم تلى تقرير محمود بك بطار وعد السلام بك الموليحي وطلب من نوبار باشا أن يجيب عليه فقال ما نقله هنا عن المحضر بنصه وهو :

« المسألة التي قالوا عنها انما هي مسألة أساسية ولو كانت من خصائص الداخلية او المالية او الحفابة او الاشغال كان من الممكن ان اجاب عنها انا ورفقائي لكن لوجوب قبول عذري في عدم المجاورة عنها الآن وهذا بالطر لكونها مسألة اساسية نحتاج للمذاكرة والمشاورة فيها بمجلس النظار والعرض عنها للاعتاب السية »

فرد عبدالسلام بك ومحمود بك المطار بأنهما يوافقان رئيس النظار على ان المسألة اساسية وليكهما يقولان ان هذه الاساسية نفسها هي الموجب لان يكون النظر فيها من حقوق المجلس . ثم قالوا وقال المجلس معها « ان كل مملكة وكل حكومة تقدمت كلن اساسها اشترائك الواب في امثال ذلك » وان « المرجو هو استحصال المجلس على حقوقه » . فلم يجيب نوبار باشا بغير أن كرر قوله السابق ثم لحأ بسرعة الى احدى حيله التي اشتهر بها فطلب من النواب أن يشتركوا معه في اختيار « الموظفين المستقيس السير » لاصلاح الادارة المصرية ١٢ ورحا منهم ان يأتوا اليه في ديوانه لهذا الغرض ١١

ولم يعد نوبار بعد ذلك الى المجلس بالجواب الذي وعد به ولكن مجلس النظار اجتمع في النصف الاخير من مارس وقرر قض المجلس بدعوى ان مدته انتهت واستصدر من الحديبو أمراً هذا نصه :

« بناء على ما حواه البند التاسع من مجلس شوري النواب من ان مدة توكيلهم عن الاهالي تكون ثلاث سنوات وما عرض علينا من مجلس النظار من ان المدة قد انقضت أصدرنا أمراً بانفضاض المجلس وكلفتنا ناظر داخلينا بتنفيذ ذلك في ٢٩ مارس سنة ١٨٧٩ »

فكان هذا الامر جواب النظارة على النزاعين اللذين قاما بين رئيسها وناظر ماليتها من جانب والمجلس من جانب آخر، كما كان دليلا على ان النظارة الاوربية كانت تريد ان تخلص بهذه الطريقة من مراقبة المجلس ومن الروح القوية التي كانت تراها فيه . ولكنها لم تخلص وما كن الامر الذي استصدرته بفض المجلس

الاصبيا لا زدياد السخط في البلاد واذ ذاك شعر المجلس بان من حوله قوة كبيرة من
الرأى العام تؤيده وتطلب منه المقاومة قاوم وكان لذلك يوم جليل مشهود

يوم كيوم مبرابو

ذهب رياض باشا ، وكان وزيرا لداخلية ، الى المجلس وفي يده أمر الفاض
فتلاه على الاعضاء وهو معتقد أنهم جميعا سيقابلونه بالسمع والطاعة وأنهم قد يتذرون
ولكنهم سيكظمون تذرهم في أعماق قلوبهم وسينصرفون . كان هذا هو الذي
يعتقده ، فلشد ما دهش اذ رأى صد الفراغ من التلاوة ، أن الاعضاء ما زالوا في
أما كنهم وأن واحدا منهم هو عبد السلام المويلحي بك وقف وقال في قوة وغضب
ان ما تقوله الحكومة من ان مدة توكيل المجلس قد انتهت غير صحيح لان المدة لم
تنته بعد ولهذا سيبقى المجلس في مكانه وسيوالي اجتماعاته حتى يؤدي واجبه نحو
الامة . وقام عضو آخر ^(١) وقال ان هذا رأينا جميعا فاحاب كل الاعضاء بالاجاب .
وخرج رياض باشا كما جاء فلم يحمل الى النظارة خبر انقضاء المجلس وأما حمل خبر
عسكته بمجته وثورته عليها . ويحسن هنا أن نترك الكلام لحريدة « الوطن » ^(٢) فقد
قالت في عددها الصادر في ٥ ابريل سنة ١٨٧٩ :

« بعد أن تكلمنا مرارا كثيرة عن مجلس النواب وأصل وضعه وحقوقه
وواجبات الامة نحوه وذلك في وقت اعتاد مجلس شورى النواب المصرى شغلنا
عن ذكر ما تراه شواغل الايام والآن نقول ان حضرة عطوفتو رياض باشا حضر
أمام المجلس وأخبرهم بلسان حضرة الخديو بانقضاؤه وان الحكومة متشكرة لهم
على ما أبدوه من الساعى اى النظر في الاحوال والدعاوى فقام حضرة من اشهر

(١) لم نثر مع الاسف الشديد على محضر اجتماع هذه الجلسة ولكننا عثرنا على
ما كتبتة عنها جريدتنا الوطن والتمس في ذلك المهد . ولم نجد في الجريدتين اسم
هذا العضو ولكن حضرة يوسف بك المويلحي اطلعنا على مذكرات عنده تقول
انه حسن بك عبد الرزاق

(٢) كان مدير جريدة الوطن ورئيس تحريرها في ذلك الوقت مبخائيل افندى
عد السيد وكان يؤيد الحركة الوطنية تأييدا صادقا

المصاحبة والبلاغة والمدافعة عن حقوق ابناء وطنه عزقو عبد السلام بك المولى يحيى
 ربح بسببه المصعب وبيانه المذهب بانه لا معنى لشكرات الحكومة فانهم لم يبدوا
 سرورة تشر ولم يغفلوا شيئا مطلقا يذكر وان المجلس يستمر على انقضاؤه. فقام عضو
 آخر وقال ان هذا الحكم هو اعراب عن افكارنا ومطابق لمطابقة تامة لانظارنا
 يغيب جميع الاعضاء بالانجاب وقالوا له بصوت واحد ان هذا هو الصواب فان
 لارتباكات المسألة والمشاكل السياسية تستلزم استشارة امثالهم كما هو حاصل في
 تلك الثانوية والاولية فانه اذا وقعت أية دولة في ارتباكات ومشاكل وعقد مدهمة
 وشواغل استعانت باستشارة نواب الامة. فاستغرب سعادة ناظر الداخلية من هذه
 التهمة والمهمة وتطلبهم لحرقهم المهمة وأخبرهم بانه سيرض هذه النفسية على
 الحضرة الخديوية وعلى مجلس الوزراء. فاجتمع النواب وحرروا خطابا لناظر الداخلية
 يتناول فيه بعض الاسباب الموجبة لعدم انعقاد المجلس فذكروا انهم لعامة الآن
 لم يعرفوا ما استقر عليه مجلس الوزراء من جهة الترتيبات وغيرها مع ان وظيفتهم
 تستلزم الاطلاع على هذه الامور وتقتضي بذل السعي المبرور لهم الشمت وضم المنثور
 وهذا الامر مناسب جداً فانهم لم يأوا شيئا إذا وإلا اذا سافروا الى نواحيهم وسألهم
 بعض متخبيهم عما فعلوه فبأى شيء يخبونهم. ألا يتندرونهم قائلين قد رجعت بخفي
 حين بل انتم السبب في تجريمتنا كاس الحين

ثم ختموا جوابهم باقامة الحجة على منع حرية للطبوعات الاهلية. ويقال انه
 قد اجتمعت جمعية من العلماء واذابت واحدا منهم ليحير مجلس النواب بانهم مؤيدونهم
 في مطلوبهم مساعدتهم على مرغوبهم وانه يجب على كل منهم ان يكتب لاهل
 ناحيته لتسكين خاطرهم واعتماد جاشهم الذي جاش عند بلوغهم باقضاء المجلس .
 فهذه هي احوال مجلس النواب في الوقت الحاضر . ويستفاد من خطابهم الذي
 حرروه انهم لم يشغلوا لغاية الان الا بأمور جزئية وانهم لم يميلوا بعد التمام عن
 الامور الكلية فلم ينظروا في الميزانية مع انكشافها للبعض ولم يطلعوا بعد على
 التقرير الذي حرره ناظر المالية وارسله لجميع القناصل وبلاد أوروبا ولم يعرفوا
 لغير الرب وغيرها . وبالاختصار انهم لم يطلعوا على الترتيبات الجديدة والنظامات
 الجديدة ومعلوماتهم بهذه الامور لم تخرج عن حد الحدس والتخمين . وزد على ذلك
 انهم لم يسئوا لاقسامهم قانونا ليكون المجلس آلة قوية في الاصلاح كما حصل في
 امارة البعلاء

ونشرت التيسر لارسالها في القاهرة في ١٦ أبريل مايلي :

« ان أعضاء مجلس شورى النواب اظهروا ادلة كثيرة على حياتهم واستقلالهم ، وايس آخر هذه الادلة اقلها شأنا فقد ذهب رياض باشا ناظر الداخلية منذ أيام الى المجلس ليعلم رسميا انتهاء دور انعقاده فخطب النواب خطبة لطيفة رقيقة نوه فيها بنقد ماتم وإشارالى انتهاء واجباتهم كلها . ولكن رياض لم يحد حذو اوليعر كرومويل وأبى المجلس ان يرفض وقام أحد النواب خطيبا فرفض تحية رياض الختامية وصرح بالنيابة عن بقية النواب بان النواب على عكس مقال رياض باشا لم يفعلوا شيئا وان أمامهم عملا كبيرا هو مراقبة الوزراء وانهم من أجل ذلك يابون الارفضاض . وأيد الخطيب زملاؤه كلهم كما أبد الاعيان في منصب التنس نرساي فخطيبهم ميرابو في احد المواقف المشهورة . وعلى ذلك لا يزال مجلس شورى النواب المصرى يعتقد اجتماعاته وهو الآن يتشدد في وجوب خضوع النظار الاجانب والمصريين لارادته وصيورتهم مسئولين أمامه عن تصرفهم في أعمالهم . فالنواب في الواقع ينوون تحويل الحكومة المسئولة اسما الى حكومة مسئولة فعلا »

موجئجلس تسأل الوزارة أمام

لم يكذب خبر هذا الموقف الذى وقفه مجلس شورى النواب يصل الى الجمهور حتى تحركت في النفوس كوا من الآلام والآمل وانتعشت بان وجدت قائدا يقودها وصوتا ينادى بما يخلج فيها . وكانت فكرة « مصر للصريين » قد انتشرت وكانت جمعيات سرية وغير سرية قد ألفت ، ثم كانت الفكرة الوطنية قد نمت حتى شملت كما تقدم اسماعيل صديق باشا قبل قلة ، وكانت دروس السيد جمال الدين الافغانى قد أبيت في شيوخ الازهر روحا تتردد على الفساد وتنادى بالاصلاح ، فالتأم كل ذلك مع ثورة المجلس على نظام الارهاق فكان أن اخذت البلاد كلها تغلى بثورة فكرية هي ثورة المفيد المذهب يريد أن يكسر قيده ليخلص من عذابه

ومامن شك في أن الحديو اسماعيل باشا كلن ينظر الى هذه الحركة بعين الارتياح لانه رأى فيها بابا لاستعادة سلطته والخلص من اغلال الظلمة الادورية . ويطلب على الظن انه وقد قوي في نفسه هذا الامل وصحت عزيمته على تحقيقه أراد أن

يوجه الحركة الى الطريق التي يريدناها وعزالي بعض الوزراء السابقين بان يدعموا فيها ويتولوا قيادتها . فكان ان عقد اجتماع^(١) في أوائل ابريل في بيت اسماعيل واغلب بينا حضره شريف باننا وشاهين باشا وحسن راسم باشا وجعفر باشا وخيري باشا والسيد البكري والشيخ الخلفاوي والشيخ العدوي واتفقوا على كتابة عريضة يطلبون فيها أن تكون النظارة وطنية وأن يعاد نظام المراقبة الثابتة وأن تكون الوزارة مسئولة أمام مجلس النواب . فكتب العريضة ووقعها الحاضرون جميعا ووقعها معهم بطريرك الاقباط وساخام الاسرائيليين وسبعون من العلماء وستون من الباشوات وستون من البكوات وأربعون من الاعيان وعدد عظيم من ضباط الجيش . وقد تقدم ذكر هذه العريضة كما تقدم أن الخديو اسماعيل باشا اعتمد عليها في استدعائه قناصل الدول مساء ٧ ابريل وأبلغهم انه كلف شريف باشا تأليف وزارة وطنية مسئولة أمام مجلس النواب .

المبس في وزارة شريف باشا

وفي الواقع ان الخديوي كان قد أصدر الى شريف باشا في اليوم نفسه وقيل أن يستدعي القناصل أمرا تذكره هنا بنصه لاهيته وهو :

« اي بصفة كونى رئيس الحكومة ومصر يا أرى من الواجب على ان اتبع رأى الامة وأقوم بإدائها ما يليق بها من جميع الالوجه الشرعية لكنى لما نظرت السير الذى كانت عليه النظارة السابقة حصل لى غاية الاسف من ان ذلك السير كان على غير رضا اللة والاهالى حتى نشأ عنه اضطراب وخور مرى فى جميع القلوب وحركها وكانت قبل ذلك فى غاية الهدوء والكون . وطالما اخبرت النظر وكلاء الدول ونهتهم على تلك الملعوظات فلم يفتظوا لها ولم يلتفتوا اليها . وزيادة على ذلك فان النتيجة التى حررها ناظر المالية واظهر بها ان القطر فى حالة المدم (٢) واجل العمل بمقتضى القوانين المتبعة وتجارى فيها على الحقوق الناجبة كانت سببا لتغيير قلوب

(١) جريدة الوطن بتاريخ ١٢ ابريل سنة ١٨٧٨

(٢) تقدم ان السير رفرزولسن اعلن تأجيل كوبون شهر ابريل فكان هذا بمثابة اعلان لافلاس الحكومة المصرية

الامة ونفورها من هيئة الطائفة كل النور . وحقق في ذلك المحضر الذي تقدم لي في هذا الخصوص (٧) . فاجابة لما عرض على بذلك بالنظر لثبوته عندى قدوكتكم تشكيل هيئة الطائفة بناء على الارادة المبادرة في ٢٨ اغسطس سنة ١٨٧٨ وان تكون تلك الطائفة مشكلة من اعضاء اهلين مصريين بقبولهم في سبيل الطرق المنصوص على في الادارة المذكورة وان يحفظوا على مآمورياتهم كل التحفظ اذ أنهم مكلفون بالمسئولة لدى مجلس الامة الذى سيجرى انتخابه وتعيين مآمورياته بوجه كاف للقيام شاذية مايلزم للحالة الداخلية ومرغوب الامة نفسها »

هذا هو الامر الذى أصدره اسماعيل الى شريف باشا ومن السهل أن يري فيه كل انسان ان اسماعيل يعتمد ان ياتي المسئولية في جميع المصائب التى حلت بالبلاد في عهده على الطائفة الاوربية ليكتسب ميل الامة . وكل من يقرأ تاريخ تلك الايام يري أنه كان يحضر اجتماعات وحفلات تقام في بيت البكري وغيره ثم يقف فيها بين الناس فيدعو بالخير للامة ويقرأ الفوائح لاولياء الله كأنه زعيم وطني ورئيس ديني، ولكنا نمر بهذا لاننا لا ننتظر فيه بل في شيء آخر هو الحياة السياسية . ولهم لدينا الآن ان هذا الامر يصح على تأليف وزارة يكون اعضاءها « مكلفين بالمسئولية لدى مجلس الامة الذى سيجرى انتخابه » ، وتلك هي اول مرة ألفت فيها وزارة على هذا الاساس .

وبعد اربعة ايام من تأليف وزارة شريف باشا في ١٠ ابريل سنة ١٨٧٩ (١٨ ربيع آخر سنة ١٢٩٦) اجتمع مجلس شوري النواب فثلا عليه رئيسه خطابا جاءه من وزارة الداخلية هذا نصه (٢) :

« ولوانه كان تقرر بمجلس النظار السابق عن اقتضاى مجلس شوري النواب لاقضاء مدته حسب ما تقرر لساتنكم في ربيع آخر سنة ١٢٩٦ نمرة ٣١ لكن حيث ان مقتضيات الاحوال مستلزمة لإبقاء للمذاكرة والمفاوضة معه في بعض مواد مهمة قد تقرر بمجلس النظار الذى تشكل الآن استمراره واقتضى تمريره لساتنكم للاحاطة بذلك وتمهيد حضرات اعضاءه بدم الانصراف »

(١) يريد المريضة التى سبق ذكرها

(٢) الوقائع المصرية في ٢١ ربيع الآخر سنة ١٢٩٦

وفي جلسة ١٧ مايو حصر شريف باشا وقال ^(١) : « انه يقدم للمجلس اللامتناهين
 لمختارين بأسامر المجلس وبالاتحاد . وقد أحصر معه اللائحة الاساسية ^(٢) . اما لائحة
 لاتحاد فهي تحت التديض والبطر في مجلس النظار »
 وفي اليوم التالي الف المجلس لجنة من بعض أعضائه للنظر في « اللائحة » التي
 قدمها اليه شريف باشا . وفي ١٥ يونيو قدمت هذه اللجنة تقريرها وتبلى في المجلس .
 وفي ٢٥ و ٢٦ يونيو عزل اسماعيل وولي توفيق . وفي ٥ يوليو كان عزل اسماعيل عنوة
 قد أثر في النفوس فمقد مجلس شورى النواب آخر جلساته وذلك ان نظارة الداخلية
 بطلت انها لا تستطيع أن تقدم اليه لوائح ولا قوانين الا بعد زمن طويل فرأى
 أعضاؤه أن يقضوا هذا الزمن في مهامهم الخصوصية وانصرفوا ثم لم يجتمعوا بعد ذلك
 الا في ديسمبر سنة ١٨٨١ .

- (١) الوقائع المصرية في ٢٧ جمادى الاولى سنة ١٢٩٦
 (٢) لم تصدر هذه اللائحة ولذلك لا ترى حاجة لنشرها غير اننا نلخص هنا
 أهم ما كانت تشتمل عليه وهو : مدة النيابة ثلاث سنين . المسائل التي تقدم من
 النظار للنواب تصير المذاكرة فيها بمجلس النواب وإذا تراءى فيها ملحوظات تجري
 المناظرة عنها مع مجلس النظار وأما يكون ذلك مقررونا ببيان الأوجه والاسباب .
 اذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس النظار وأصر كل على رأيه بعد تكرار
 المناظرة وبيان الاسباب ولم تستعف النظارة للحضرة الخديوية ان تأمر بفض مجلس
 النواب وتجديد انتخاب أعضائه على شرط ألا تتجاوز مدة الانتخاب اربعة أشهر
 من يوم اغضاؤه الى يوم اجتماعه . اذا أيد مجلس النواب بعد تجديد انتخابه رأي
 المجلس السابق وجب تنفيذه ويجوز للامة ان تنتخب نفس النواب السابقين او
 بعضهم . رئيس المجلس ووكلاءه وكتيبته يكون تعيينهم بمعرفة نفس المجلس . مذكرات
 النواب ومداولاتهم في الجلسات العمومية تكون علنية . وضع القوانين واللوائح
 يكون ابتداء بمجلس النظار ثم تعرض على مجلس النواب للنظر فيها وتنقيحها بحيث
 لا يكون القانون مستعراً دستوراً للعمل ما لم يجل بمجلس النواب بتدأ فبتدأ ويعط
 عنه القرار ويجري التصديق عليه من الحضرة الخديوية . لائحة ادارة مجلس النواب
 الداخلية تعمل بمعرفة . اعضاء مجلس النواب لا يزيدون على ١٢٠ بما فيهم نواب
 السودان حسب البيانات التي توضح بلائحة الانتخاب . النظار مسئولون أمام مجلس
 النواب عن كانه الاحوال والاعمال المختصة بإدارتهم وبناء على ذلك يجب على مجلس

شهادات ذات قيمة

والآن وقد فرغنا من هذا الدور من ادوار مجلس شورى النواب بحسن ان
ثبت هنا الشهادات الآتية :

شرت التيسر لمراسلها بالاسكندرية في ١٥ ابريل سنة ١٨٧٩ كلمة عن المجلس
قال فيها : « اظهر مجلس شورى النواب المصر فائدة عظيمة في مناقشة مشروعات
الاصلاح الزراعى وتوسيع نطاق الاعمال العامة »

وقال مسبو ملك كون فى كتابه « مصر كما هى » فى هامش صفحة ١١٨ : « ان
النواب عامل مفيد فى سياسة مصر الداخلية »

النظار المادة الى وضع قانون لحاكة الطار عند الاقتضاء وعرضه على مجلس النواب.
لا يجرى العمل بأمر صادر من الحكومة ما لم يكن ممضي من الناظر المختص ومطابقا
لقانون معتبر . اذا تراءى للنواب التكلم فى بعض مواد خلاف ما يتقدم لهم من
النظار فتحرى الداوله فيها ويرسل اخطار بذلك لمجلس الطار ومدت ثمانية ايام من
تاريخ إرسال ذلك الاخطار ان لم يرد من مجلس النواب اوجه تمنع من المداكرة فيها
ويقر النواب قبول تلك الاوجه فلم ان يتمموا مداولتهم ويصدروا قرارهم فيها .
الطار ملزمون بالحاوۃ عن كل ما يسألون فيه من مجلس النواب اما بان يتوجهوا
باعتسهم او بان يتقدموا أحد كبار متوظفى دوائرم للعتجابه بالنيابة عنهم . من حقوق
النواب ان يلاحظوا المصاريف العمومية بالدقة التامة وان يقررا مقدارها ويجب
عليهم ان يبينوا كبة الواردات وكيفيتها وضرب الضرائب والجبايات وطريقة توزيعها
وأوقات تحصيلها فلا يجوز ضرب ضريبة من أى نوع كانت ولا توزيعها وتحصيلها
ولا تمكليف الاهالى بشي . ما الا بعد اقرار مجلس النواب عليها كما لا يجوز صرف
شيء من متحصلات الضرائب زيادة عما يقر عليه مجلس النواب . للنواب ان
يطلبوا عقب افتتاح المجلس للميزانية العمومية الجارية للواردات والمصروفات لينظروا
فيها ومتى قرروا عليها بمد البحث التام لا يعمل بها الا فى تلك السنة ويلزم فى
السنة التالية تحرير ميزانية ثانية وعرضها على مجلس النواب كما تقدم وهكذا سنويا .
لكل نائب من النواب حق اذا رأى أى قصور من أى مأمور وفى أى ادارة من
ادارات الحكومة ان يكتب بذلك للناظر المختصة به الادارة وهذا فقط فى
الواد العمومية

وقالت التيمس في مقال افتتاحي في ١٦ أبريل سنة ١٨٧٨ : « ربما كان كثير من الاعضاء صناع للخديو ولكنهما تكن طريقة انتخاب هيئة نيابية فلا يدان فحصل هذه الهيئة على شيء من الاستقلال عندما تعمل بمجموعة . ويظهر ان مجلس نواب مصر لا يشذ عن هذه القاعدة »

وقد تقدم ما كتبه مراسل التيمس في القاهرة ونشرته هذه الجريدة في ١٦ أبريل سنة ١٨٧٨ عن جلسة مجلس شورى النواب التي رفض الاعضاء فيها ان ينفذوا وان يقبلوا الامر الذي تلاه عليهم رياض باشا

هذه كلها شهادات تدل على ان روح مجلس شورى النواب كانت مستقلة تعمل لمصر لا لاسماعيل . واليك شهادة اخرى تدل على ان المجلس كان محاطا بحركة وطنية منبعثة من الشعب وان هذه الحركة كانت حقيقية لا صورية .

كتبت التيمس في ٣ مارس سنة ١٨٧٨ تصف ثورة الشعب الفكرية على أثر قبة الضباط التي وقعت في ١٨ فبراير قالت :

« لقد وقعت الفتنة في حرمهم بالسخط والتذمر فكانت مثل شعلة متقدة انتشرت في مستودع بارود فلا نسل عما ابتغته من اضمار سخط المصريين انفجروا تحتل في مظاهرات واحتجاجات للشايخ والاعيان والطهاة وأقرت استعجال القضاء للنظام (اى نظام الحكم القدي كان موجوداً اذ ذاك) وخرجت منها وفود الى الخديو تهدد المعونة في نزاعه مع سادته الاوربيين وتطلب أن تكون للأمة يد في حكومة البلاد »

وكتب السير فرنك لاسل القدي كلن قصصا عاما لانجلترا في القاهرة في ذلك الوقت الى وزارة خارجية حكومته تقريراً في ٢٩ أبريل سنة ١٨٧٨ وصف فيه الاحتيا العام القدي كلن بشمل الشعب المصري ثم قال :

« ويؤكدون ان هذا الاسيا عينه من الحال الحاضرة منتشر انتشاراً كبيراً في الجيش وانه ولد شعور عدا للخدو ليس فقط بين أفراد العسكرية للتخمين الى طغاة الامة المرحقة بل بين الضباط أنفسهم . ويؤكدون لي أيضاً ان هؤلاء وان كرهوا كل الكراخه أى تدخل أوربي يعتبرون الخديو مسئولاً عن اللصائب التي أصابت البلاد »

ادن كان السخط على التدخل الاوربي وعلى اسماعيل شاملا للشعب والحيش معا.
وى التفارير التى يراها القراء فى ذيل هذا الكتاب قلم احمد عرابي ما يؤيد هذه
الحقيقة . وبدعى انه لولا ان يكون السخط قد شمل الحيش لما نشئت قنة الصراط .
ولدينا بعد ذلك شهادة قوية أحيرة هى التى كتبها مستر تيودور رونسبين فى
كتابه « المسألة المصرية » صفحة ٨١ من الترجمة وهى قوله :

« ان مايفعله المؤرخون الرسميون من تصوير الاعيان والعلماء وغيرهم من
الطبقات المصرية الراقبة فى ذلك الوقت فى صورة آلات فى يد اسماعيل مسخرة
لامره ماقدة الاستقلال الحائلي والفكري لمن قيل « اجبت بالمخافى التاريخية ونسبها .
قد يكون النواب بحكم الظروف مستعدين للاقياد لاسماعيل ومساعدته فى رفع النبر
الاوربي عن بلادهم ولكنهم مع ذلك كانوا يمتقنون له لانه كان علة شقايمهم وبلائهم وقد
بلغ هم الامر بعد الانقلاب السياسى (اى بعد اقالة النظارة الاوربية وتصين نظارة
شريف باشا) ان فكروا فى عزله . وما يسل حقيقة على مبلغ كره المصريين له انه لما
عزل وأخرج من البلاد لم يرتفع صوت واحد بالدفاع عنه »

عبر توفيق باشا

اتبعى عهد اسماعيل وجاء عهد ابنه توفيق فلمنا لانجد أبلغ من هذا الابن
وصفا لما خلفه أبوه من الشقاء وايضا لما كان على البلاد ان تعانيه من صده وبسبه
من المتاعب . فقد كتب هذا الابن غداة توليه العرش الى شريف باشا يكلفه ان
ؤلف النظارة فقال :

« يا وزيرى العزيز »

لقد استمعت الوزارة فاكلك بتشكيل وزارة جديدة ولا أزيدك بحقيقة
الحال علما

« ولما قضت العناية الإلهية بحولتى أمر بلادى جعلت على واجبات ليس من
همى الا النهوض بها بامانة وشهامة على علمى بمقدار صعوبتها وجسامتها . المطالبين
للزراعة على مع الارتباك والفترة للآلية التى انزعجت منها المواطن اذ وقفت حركة
التجارة وأوجدت فترة فى البلاد لم تقع فى مصر من قبل . على انى عظيم المبل الى
بلادى شديد الرغبة فى تحقيق آمال الامة التى اظهرت السرور بولايتى وفى اخراجها

من هذه الحال السيئة . ومع هذه المواقف فاني عازما عزم أكيدا على بذل الجهد
وصرف الهممة الى التماس احسن الوسائل لازالة هذا الاختلال المنقصد لكثير من
المصالح الخ »

هذا هو ما خلمه اسماعيل : مطالبات متراكمة ، وارتباك ، وحالة مالية ازعجت
منها الخواطر ووقعت حركة التجارة ، وفترة لم تقع مصر في مثلها من قبل ، واختلال
مفسد لكثير من المصالح . والذي يقول هذا هو انه توفيق ، وفي نفس اليوم
الذي عاد فيه من توديع والده يكسف الدمع حزنا على هذا الوالد ورناء لما اصابه .
لا جرم كانت البلاد مقبلة على خطر وكان المصريون يشعرون بهذا الخطر ويعرفون
انهم لم يستندفوا له الا لان حكم الفرد عث بمصالحهم في سبيل شهواته فلا
منحة لهم الا بان يتولوا امرهم بأنفسهم وان يقيموا الحكومة البابية .
ولقد كانت صيحات مجلس شوري النواب باسم الامة لا تزال ماثلة في الادهان ،
ثم كانت الامر الذي أصدره اسماعيل لشريف باشا في ١٧ ابريل سنة ١٨٧٩
بتأليف وزارة مسئولة أمام النواب قد اعتبر خطوة غرت بها الامة بعض حقها ،
كما كان مشروع القانون الاساسي الذي قدمه شريف باشا لمجلس شوري النواب قد
اعتبر متما لهذا الخطوة ، كلن كل ذلك فكانت النفوس منشعة بالرغبة في الحكم
البابي متألة من انها وقد دنت منه حتى أوشكت أن تقبض يدها عليه جاءت حوادث
فصلها عنه الى حين .

تلك هي الحالة النفسية التي كانت عليها البلاد حينما تول توفيق العرش . ويجب
ان نعتمد انها كانت قوية لان توفيقا اضطر ان يردد صداها في « أمر كريم » أصدره
في ٣ يوليو سنة ١٨٧٩ الى وزارة شريف باشا بعد تأليفها وقد أراد منه ان يكون
برامجا يأخذه على نفسه أمام الامة ، وإليك ما قاله فيه :

« ان العناية الالهية سلمت زمام الحكومة المصرية الى يدا فضلا منه ولحسانا
فقد تشرفنا بأمر شريف بذلك من متبوعى الانظم وسلطانى الاعظم بصره الله
..... ولعلنى ان الحكومة الخديوية يلزم ان تكون شورى ونظارها
مشولين فاني اتخذت هذه القاعدة للحكومة مسلكا لا أحول عنه . فليتنا تاييد
شوري النواب وتوسيع قوانينها لكي يكون لها الاقتدار في تنقيح القوانين وتصحيح
الوازين وغيرها من الامور المتعلقة بها الخ »

ففي هذا البرنامح قرر توفيق جرياً مع الحالة العسبة التي كانت عليها البلاد أولاً ان الحكم يجب ان يكون نيابياً، وثانياً ان الطارح يجب ان يكونوا مسئولين. نعم انه لم يمين ها المهمة التي يسأل الطارح أمامها فهي مجلس النواب أم الحديو ولكننا لا نظن ان كلمة « مسئولين » كانت تلقي في ذهن الرأى العام في ذلك الوقت شيئاً غير المسئولية التي ذكرها اسماعيل في أمره الصادر في أبريل ، وخاصة لان توفيقاً يتحدث بعد ذلك عن « تأييد مجلس شورى النواب » و « توسيع قوانينه » كأنه يشير بذلك الى المشروع الذي كان شريف باشا قد قدمه .

ولكن توفيقاً بعد ان ارتبط أمام البلاد بهذا العهد الطوى في ٣ يوليو ترك مجلس شورى النواب ينفص في ٥ يوليو ، ثم عصت شعور وشهور دون ان يدعو للاجتماع مصنياً في ذلك لتصائح المراقبين الاجنبيين الذين كانوا يستمعان بالسلطة المطلقة في مالية الحكومة فكانوا يكرهان ان يوجد بجانبها مجلس نواب يمارعها هذه السلطة . ومصنياً أيضاً لتصائح قنصلي انجلترا وفرنسا الذين كان نفوذهما قد تعلقل في جميع دوائر الحكومة حتى صاروا السيدين للطلعين من الحديو والنظارة فلم يكن يسرها ان يأتي مجلس النواب بعد ذلك فيأخذ منها هذا النفوذ .

ولم تعش نظارة شريف باشا الا أياماً ثم استقالت فتولى توفيق رئاسة مجلس النظار بنفسه ثم ارسل فاستدعى رياض باشا من اوريا فلما جاء اصدر اليه في ٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٩ أمراً بتأليف النظارة فلم يذكر فيه شيئاً لا عن الحكومة التي يجب ان تكون شوربة ، ولا عن مجلس شورى النواب الذي يجب توسيع اختصاصه ، ولا عن النظار الذين يجب ان يكونوا مسئولين . والى رياض باشا نظارته ورفع بتأليفها كتاباً الى توفيق فلم يذكر فيه هو أيضاً شيئاً عن الشورى ولا عن المجلس ولا عن مسئولية النظار .

ومضت بعد هذا سبعة عشر شهراً من سبتمبر سنة ١٨٧٩ الى فبراير سنة ١٨٨١ بغير ان يدعي مجلس شورى النواب للاجتماع وبغير ان يدعو على توفيق رغبتى الوفاء بعهده فاشند التذمر منه ومن ودارة رياض باشا وكان هذا التذمر واحداً من الاسباب العميقة التي حركت عوامل الاضطراب . نعم ان لهذا الاضطراب الذى ظهرت

يوالده في حادثة قصر النيل ثم في طلب عرابي وزملائه عزل عثمان رفقي باشا ناظر
 للحمادة عوامل أخرى كان أظهرها استياء الضباط المصريين من اختصاص رملاتهم
 الشراكية بكل صاحب الجيش العالي، غير أن الحق الذي لا يستطيع أحد إنكاره
 هو أن هذا الاستياء وحده ما كلل كافيا لأن يحدث اضطرابا ولا لأن يؤدي إلى ثورة
 هو أن الأمر اقتصر عليه وحاج الضباط من أجله لبقى هياهم محليا ولو وجدت
 الحكومة من سند الامة ما يساعدها على اطفاء الفتنة بانصاف المستأجرين أو مساقبة
 هذين، ولكنها لم تجد هذا السند بل وجدت الامة بالمعكس مؤيدة للمفسدين عليها
 متحفزة للثوب أمامهم الى الثورة فانكشت مدها وطالت يد الضباط. ولا أحب
 هنا أن احادل كثيرا في هل الفكرة الاولى التي صدر عنها هؤلاء الضباط حينها حقا
 وطلوا عزل رفقي باشا واصرموا بذلك أول شرارة في نار الثورة العرابية كانت
 فكرة المناصب وحدها أو كانت المناصب والحكم النيابي (وباب الجدل في هذا
 مفتوح لان عرابيا يؤكد انهم طلبوا في عريصهم التي قدموها لعزل رفقي باشا
 إيظمة الحكم النيابي ^(١) بينما الشيخ محمد عبده ينكر ذلك ^(٢)) ولكني أقول انما اذا
 سلنا بأن الفكرة كانت فكرة المناصب وحدها فيجب أن نسلم أيضا بانها لم تكن
 كذلك الا في نظر الضباط وحدهم أما الشعب فانه رأى في انتفاضهم على الحكومة
 انتفاضا على هيئة كل يعتبرها مصدر الآلهة وكان ينهم رئيسها الاعلى بانه حرمة من
 لمه المشتبه بعد اذ دنا منه ونكث في ذلك بعهد على يمينه الكذب. ولهذا
 السبب وحده، ولهذا المعنى لا تعبده، يد الضباط. فان نحن قلنا ان المسألة كانت في
 نظرم مسألة صاحب فيجب أن نقول انها كانت في نظر الشعب غير ذلك، ثم
 يجب أن نقول ان الضباط شعروا بهذا وعرفوا قوته فاضطروا على عجل أن يلبسوا
 حركتهم ثوب المطالبة بالحياة النيابية، لان حادثة قصر النيل لم تكف تنتهي حتى أخذ
 عرابي يوزع على العلماء والاعيان وعمد البلاد ومشايج العربان منشورا هذا نصه
 بعد التدبيرة ^(٣) :

-
- (١) انظر « تاريخ أحمد عرابي بقلمه » ص ٣٤٩ من هذا الكتاب
 (٢) انظر « رأي الشيخ محمد عبده في تاريخ عرابي » ص ٣٥٥ من هذا الكتاب
 (٣) مصر للمصريين جزء ٤ ص ٩٠

« ان الوزارة الرياضية قد ركبت متن الشلطة وعدلت عن الصراط المستقيم ولم يكن مقصدها مؤديا الا الى اضمحلال البلاد وتلاشيها بما هو جار من مبيع أراض كثيرة للجانب ووجود كثير منهم في ادارات الحكومة ومصالحها بالرواتب الفاحشة والسعي في رفع الاسعار الطبيعية الموجودة في بوعاز الاسكدرية . وانت سكوتنا واضرابنا عن ذلك يعد من المجز والجبن والتفريط في وطننا ومقر نشأتنا . فاعلموا يا معاشر الوطنيين ان أولادكم المنتظمين في سلك الجهادية قد انكروا على الباري سبحانه وتعالى وعزموا على منع كل ما من شأنه الاغاث بمقوقكم . وذلك لا يتم الا بسقوط وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس النواب ليحصل الوطن على الحرية المتفتاة . فالمطلوب منكم ان توقعوا على الكتابة للرسلة اليكم في ضمن هذه النشرة والكتابة المقصود بها ان اكون نائبا عنكم في كل ما يتعلق باحوال البلاد »

ويقول هنا صاحب كتاب « مصر للمصريين » ان عرايا « تحصل بهذه الوسيلة على أختام الجميع ماعدا سلطان باشا فانه ابى وقال ان هذه الطلبات لا تعلق لها بالمسكرة » . فقول نحن ان تحصل عرايا بهذه الوسيلة على أختام الجميع هو البرهان الذي لا يدق على ان الجميع كانوا يتمطشون الى الحياة السياسية ويتألمون لحرمان البلاد منها ويؤيدون كل من يتقدمهم للمطالبة بها .

مظاهرة الجيش في عابدين

نحن لانتابع حوادث الثورة العرابية وانما نتابع موضوعا معنا هو الحياة النيابية ولهذا ننقل دفعة واحدة من حادثة قصر النيل (في ٤ فبراير سنة ١٨٨١) الى مظاهرة الجيش في عابدين (في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١) ولا نأخذ من هذه المظاهرة الا الجانب الذي يمس ما نحن فيه .

رأينا فيما تقدم أن الحركة العرابية لبست بعد حادثة قصر النيل ثوب المطالبة بال دستور وأن عرايا زعيم هذه الحركة شرع يأخذ من العلماء والاعيان والعمد وشايخ العربان توكيلا للمطالبة بعزل وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس النواب . فها تقول ان الاشهر التي اقتصت ما بين فبراير وسبتمبر من تلك السنة كانت كلها اشهر تردد لكلات الحرية ، وسيادة الامة ، والحكم الياني ، والهد الذي أعطاه

توفيق على نفسه في كتابه الى شريف باشا بجعل الحكومة شورية وتوسيع اختصاص مجلس شورى النواب ثم تناسيه هذا العهد وعمله بصدده . فلما جاء شهر سبتمبر وعاد توفيق من الاسكندرية الى القاهرة كان الحزب العراقي قد أعد عدته للتظاهر في ساحة عابدين ، ففي اليوم التاسع من هذا الشهر (الجمعة ١٥ شوال سنة ١٢٩٨) اجتمع الجيش في هذه الساحة وأمر عراقي بإقامة الحراس على ابواب عابدين لمنع الدخول اليه والخروج منه ، ثم ظهر توفيق واستدعى عرايا فجاءه راكبا حواده سالا سيفه ومن حوله ضباط الخيالة ، فأمره توفيق بالترحل وانغماد سيفه وابعاد الضباط عنه ففعل ثم دار بين الاثنين حديث تقتصر منه على ما يأتي .

قال توفيق ماهي اسباب حضورك الى هنا بالجيش

فاجاب عراقي للحصول على طلبات عادية

فسأل توفيق وما هي هذه الطلبات

فاجاب عراقي هي اسقاط النظارة وعقد مجلس النواب وزيادة عدد الجيش والتصديق على قانون العسكرية الجديد وعزل شيخ الاسلام

وبعد مفاوضات دارت داخل القصر بين توفيق وقاصلي الدول استقر الرأي على اجابة هذه الطلبات تدريجيا والبلغ عراقي ذلك فرضى ولكنه اشترط عزل الوزارة قبل انصرافه فعزلت فطلب تعيين شريف باشا فاستدعى وعرض عليه الامر فقبل ان يشكل الوزارة على شرط ان يتعهد رؤساء الحزب العسكري بالطاعة وأمره وان يقدم أعيان البلاد وعمدها ضمانا على هذه الطاعة

معرضة الشعب بطلب الحياة النيابية

وفي اليوم التالي تقدم لشريف باشا كل من سلطان باشا وسلمان أبانته باشا وشريفي باشا ومنشاي بك وأمين الشمسي بك والشيخ علي البني وعبد السلام اللولعي بك والشيخ الصباحي والشيخ احمد محمود وابراهيم التركيل افندي ومعهم قهربران احدهما وقعه فريق من العلماء والعمد والاعيان ضمانا لرؤساء الحزب العسكري والثاني وقعه الف وستائة من الكبراء والعلماء والعمد بطلب تشكيل المجلس النيابي .

وهذا التقرير الثاني هو الذى يهنا فى موضوعنا ولذلك ثبت نصه وهو :

« لما كان لا ينتظم نظام العالم ، ولا يقوم قوام الهيئة الاجتماعية ، الا بالعدل والحرية ، حتى يكون كل انسان آمنا على نفسه وماله ، حراً فى أفكاره وأعماله ، بما فيه سعاده وحسن مآله . وهذا لا يتأتى الا بإيجاد حكومة شورية عادلة لا تشوبها شوائب الاستبداد ، ولا تنطرق اليها طوارق الفساد ، انخذت الممالك المتعددة العادلة مجالس ملبة من نباه أممها ، يتوبون عنها فى حفظ حقوقها ، نجاه هيئة حكوماتها ، ويكونون الواسطة فى تنفيذ ما تصدره الحكومات من الاحكام العادلة . وعلى هذه القواعد ، ولاجل هذه المقاصد ، كان قد انخذ لحكومتنا مجلس نواب فى المهد السابق . وبما ان مقاصد خديوتنا المعظم جميعها خيرية وبيانه سليمة فطالبنا لحفظ بلادنا من بوائق الدهر نحاسرنا بمرض هذا راجين من المراحم الدائرية صدور الامر الكريم بتشكيل مجلس نواب لامتنا يكون له ما لمجلس الامم الاوربية للمتعددة من الحقوق الشرعية ازاء هيئة الحكومة وذلك تكون الحضرة الفخيمة الخديوية قد خولتنا نعمة لا تعادها نم وتصبح حكومتها العادلة أنموذجاً شريفاً يروهن على حسن نتائج العدل والحرية امام العالم . وانا على يقين من قبول التماسنا هذا وفقاً لارادة ولى النعم ادام الله إجلاله »

ولا بد لنا هنا من ملاحظة وهي ان تاريخ هذه العريضة ١٤ شوال (٨ سبتمبر) فى حين ان مظاهرة الجيش فى ساحة عابدين وقعت فى ١٥ شوال (٩ سبتمبر) فلا تفسير لذلك فى نظرنا غير ان العريضة كتبت قبل المظاهرة وان عرايا وزملاء كانوا يعرفونها . ولعلمهم كانوا قد انتظروها قبل ان يتحركوا ليكونوا على بينة من ان الامة تشد عضدهم وليستطيعوا ان يقولوا انهم باسمها يتحركون وبلسانها ينطقون . ويكون المعنى حينئذ ان طلب الامة الحكم النيابي سابق للمظاهرة فهو اصل والمظاهرة فرع وليس العكس . اما تقديم العريضة لشريف باشا فى يوم ١٦ شوال فليس دليلاً على انها كتبت فى ذلك اليوم ، ونظن ان كل انسان يوافقنا على انه كان من المنعقد جمع الب وسنائه توقيع من أعيان القاهرة والاسكندرية وطسطا والمنصورة والميا وبني سويف وأسيوط فى اربع وعشرين ساعة

خطبته لعرابي

وطلب شريف باشا من عرابي ان يسافر بالايه الى رأس الوادي فاطاع واجتمع خلق كثير لتوديعه في محطة القاهرة ساعة سفره وخطب بعضهم فرد عرابي بخطبة قال فيها :

« بكم ولكم قنا وطلبنا حرية البلاد وقلعنا عرش الاستبداد ولا ننثني عن عزمنا حتى نحيا البلاد وأهلها . وما قصدنا بسعينا افسادا ولا تدميرا ولكن لما رأينا اننا نبتا في اذلال واستعباد ولا يجمع في بلادنا الا للتراب حركتنا الفيرة الوطنية والحمية العربية الى حفظ البلاد ونحررها والمطالبة بحقوق الامة وقد ساعدتنا العناية الالهية ومنحنا مولاة وأميرا الخديو ماطلبناه من سقوط وزارة المستبد علينا السائر منا في تحير طريق الوطنية ونمتعنا بمجلس الشورى لتنظر الامة في شؤونها وتمرف حقوقها كباقي الامم المتمدة في العالم »

ولما وصل الي الزقازيق التي خطبة أخرى مثل هذه وفي مصاها

عادة مجلس شورى النواب

وفي ١٤ أكتوبر سنة ١٨٨٦ كان شريف باشا قد أمم البحث في انشاء مجلس نيابي ذي سلطة فرأى يهيدا لذلك ان يعاد مجلس شورى النواب ليكون هو الذي يقرر مشروع القانون المنشئ ، لمجلس النواب المحدد لسلطته واختصاصه وخالفه في ذلك عرابي وطلب منه انتخاب مجلس النواب دفعة واحدة بتنفيذ مشروعه الذي كان قد قدمه لمجلس شورى النواب في سنة ١٨٧٩ فلم يقبل شريف باشا ورفع الي الخديوي تقريراً هذا نصه :

« لقد أظهرت التجارب في عدة مرار خلل الحالة الموجودة عليها البلاد الآن ولهذا فالاصلاحات التي سنشرع فيها في ظل الساحة الملية تكون متعلقة بام صوامح الديار المصرية لانه يترتب على اجرائها تغيير الحالة المذكورة واصلاحها شيئا فشيئا وتوطيد الادارة العمومية على أساسات قوية وثابتة

« وانما الاشتغال بمسائل مهمة كهذه والنظر فيها يلزم لاجراجها من حيز التصور للعمل لايتأتى حصولة باقتراد هيئة النظار فقط بل المتراثي لهم ان تبادل الافكار فيها ماشتراك الرجال الذين يؤهلهم استعدادهم وخبرتهم بالاشغال واستقامتهم ومررتهم

لحيازة ثقة ورضاء اخوانهم بهم ولا صخابهم للنيابة عنهم هو الواسطة الوحيدة للحصول على الفائدة المقصودة من تلك الاصلاحات. وقد طاق رأى عمدا الاهاالى بالنيابة عن عمومهم هذا رأى الذى رآته هيئة النظار ولذلك رى انه من الواجب علينا ان نطلب من المراحم الخديوية نلية الناس أهالى البلاد وجميع أعيان ووجوه القطر لاخذ رأيهم بخصوص احتياجات الاقاليم وعرض الخلال الحاصل فى الادارة عليهم واجراء الاصلاحات اللازمة بمساعدتهم

« ولوصول لهذا المرض لا يوجد الآن شىء سوى اتناع لائحة مجلس شورى النواب الصادرة فى سنة ١٢٨٣ . نعم ان تلك اللائحة ليست مستوفاة ولا ملائمة لا فكار الاهاالى ومقاصدم وكانت قد عمات جملة مشروعات وتقدمت عن هذا الخصوص لكن هيئة النظار باحداها مع مجلس شورى النواب سنشغل فى البحث عما يلزم اجراؤه من التفتيحات والتعديلات فى قانون النواب مع مراعاة حقوق الحاضرة الخديوية وحالة القطر

« هذا ومن الجلى التنى عن اليان ان المهود والترتيبات التى شات عن الحالة المالية وارتبطت بها الحكومة وكذلك القوانين والوامر العلية المشتعلة على تلك المهود والترتيبات لا تدخل ضمن المسائل الجائز نظرها والبحث فيها بمجلس النواب لانها موضوع عقد حصل مع الدول ولا يجوز تعديلها او تغيير شىء منها الا برضاء الدول التى عقدت معها

« وعلى ذلك لمجلس النواب سيؤدى مامورته بدون تعرض للمصالح الواجب احترامها وسيكون عضد الحكومة لذاتكم العلية فى اجراء الاصلاحات المشروع فيها وعونا على تامين المصريين تامينا كافيا على النفس والمرضى والمال

« ولهذا وانابا لمادة ١٦ من لائحة مجلس الشورى المؤرخة ٢١ رجب سنة ١٢٨٣ أنشرف بابن أقدم للاعتاب السنية مشروع امر عال بانتخاب النواب وافتتاح المجلس فى ١٥ كيهك سنة ١٥٩٨ الموافق غرة صفر سنة ١٢٩٩ و٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨١ « وفى اليوم نفسه صدر الامر العالى بانتخاب النواب « بالصفة والشرط الموضحة فى لائحة ٢١ رجب سنة ١٢٨٣ « وبأن يكون افتتاح المجلس فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨١ . وفى ١٨ ديسمبر صدر أمر بتعيين محمد سلطان باشا رئيسا للمجلس وسليان ابانله باشا وكلا

ولم يتيسر ان يفتح المجلس فى الميعاد المحدد له ففتح فى ٢٦ ديسمبر وجاء

الخديو نجس على مقعد اعدله في قاعة الاجتماع ثم مثل بين يديه سلطان باشا وقال
ان النواب مستعدون لسماع خطابه فوق وأخذ يمتدح عن نكته بهذه فقال :

« ابدى لخضرات النواب ضروري من اجتماعهم لاجل ان ينوبوا عن
الاهالي في الامور العائدة عليهم بالنفع . وفي علم الجميع ان من وقت ما استلمت
زمام الحكومة عازمت بنية خالصة على فتح مجلس النواب ولكن تأخر للان بسبب
المشكلات التي كانت محيطة بالحكومة فاما الان فحمد الله تعالى على ما يسر لنا من
دفع المشكلات المالية بمساعدة الدول المتحابة ومن تخفيف أحمال الاهالي على قدر
الامكان فلم يبق ماع من المبادرة الى ما انا منشوف لحصوله وهو مجلس النواب الذي
اما فأنعمه في هذا اليوم باجتماعكم »

ثم تكلم عن رغبته في رفاهية الاهالي وتعميم التعليم وأشار الى قرارات لجنة
التصنيف وتعهدات الحكومة للدول وقال :

« قالوا يجب علينا الاعتدال والثاني وحسن التبصر وان نكون يدا او واحدة في
امام الاعمال النافعة متوسلين بناية الله تعالى وامداد رسوله الكرم ومتمسكين بقوة
ارتباطنا بالحضرة الشاهاية والدولة العلية ادامها الله ونسال الله النجاح انه ولي
التوفيق »

ولم تكن الجلسة عليه لان لانه ٢١ رجب سنة ١٢٨٣ تقضى كما تقدم بان
تكون جلسات مجلس شورى النواب سرية ولكن الحراس لم يستطيعوا منع الجمهور
من الدخول فكانت الجلسة علنية في الواقع

وعين المجلس بعد ذلك عشرة من اعضائه لتقديم الرد على خطاب الافتتاح
فقدموه في ٢٩ ديسمبر وبه قال المجلس انه يشكر الخديو فتحه اياه « اجابة لرغبة
الامة ونظرا للمصلحة العامة » .

واقام الناس حفلات عدة فرحا بمودة المجلس فخص بالذكر منها حفلة اقيمت
بأمر بطريرك الاقباط في الكنيسة البطريركية حضرها رجال الاكثريوس

انجلترا وفرنسا تخمسانه بالمجلس

ها يقوم البرلمان المادي على ان انجلترا وفرنسا ما كانتا تنظران الى وجود المجلس ولا الى هو الروح الوطنية بعين الاطمئنان لانهما وقد ألتا بفصل اسماعيل وقروضه ان تسيطر على الحكومة المصرية كانتا تكرر هان أن يشرذم المصريون على هذه السيطرة وأن يوجد مجلس نواب يطالب بحقه الشرعي في مراقبة أعمال الحكومة . وقد درج كثير من الكتاب الادبيين ، الذين كانوا يشايون انجلترا وفرنسا في غرضهما هذا وبشايون الدائين في أر تنق مصر قرة لهم حلوما ، على أن يحتقروا الوطنية المصرية في ذلك الوقت ويهونوا من شأنها ولكن غيرهم من الناصحين اعترفوا بها وقالوا انها كانت جذيرة بكل عطف واحترام . ولا يجب ان تذكر في هذا غير شهادتين لرجلين رسميين أحدهما دي فريسينيه وقد كلن رئيساً لوزارة فرنسا في معتمتع سنة ١٨٨١ ثم في الشهور الاولى من سنة ١٨٨٢ وبقي في منصبه الي ان ضرب الانجليز الاسكندرية وجرت معركة التل الكبير . والثاني بارنلي سانت هيلير وقد كان وزيراً لخارجية فرنسا في وزارة جول فيري في بعض من سنة ١٨٨١

فقد صرح دي فريسينيه في كتابه « للسألة المصرية » (من ١٩٤) بأنه كلن من الحكمة في ذلك الوقت أن يوسع اختصاص مجلس شوري النواب ثم قال :

« ان كتاب ذلك العصر اجتهدوا في ان يسخروا من طلب الذين كانوا يطلبون توسيع اختصاص المجلس حتى ليخيل الى الذي يقرأ خطابات بعض الخطباء ان الوطنية المصرية كانت في ذلك الوقت تلقياً وان وادي النيل لم يكن يمتوى الاعلى قلاحي نحي المصا ظهورهم . فكل ما نرد به على هؤلاء الكتاب والخطباء هو أن آباءنا كانوا اقل من هذا امتناء للوطنية المصرية في عهدهم ، وذلك أن نوابنا في سنة ١٨٤٠ لم يرددوا في ان يتكلموا في خطبهم عن الرابة الواجبة للوطنية المصرية الناشئة . فقد كانت هناك اذن وطنية مصرية ناشئة تستحق الرابة في سنة ١٨٤٠ . ولست في هذا مبالغوا لانا ممن يحبون المبالغة ولكن لا ريب في انه كانت توجد في قلوب

للمصريين من اربعين سنة مضت مطامح كان من الممكن ان تراعى في حدود مستدلة. تلك حقيقة لا تحتمل جدلا ، غير أن الذين كانوا يقبضون على حط مصر لم يكونوا يرون في المصريين غير قوم مدنيين فلم يكونوا يعرفون في معاملتهم الامصلحة واحدة هي مصلحة الدائمين الاوربيين التي يجب ان تقدم على ما عداها . وبذلك لم ينتهوا الى ان منابرتهم على اعتبار مصر رهنا ومدخلهم في شؤونها مداخلة دت بحكومتها الى ان نصير في ايدي الاجانب ، كانوا قد انتهوا على طول الايام بان تجر حاشود الشعب للصري الذي هو شعب حي مهمل يقل القانون في نموده الطاعة والخضوع من اجيال »

أما مارتنى سات هيلر فقد كتب الى فصل فرسا العام في مصر في ١٧ اكتوبر سنة ١٨٨١ بيانا بما كانت تراء وزارة خارجية فرسا جيداك في المسألة للصربية فاشار في آخره الى الوطنية المصرية فقال (١) :

« ليس من السهل علينا ان نقدر من هنا (أى من باريس) قوة هذه المطامح الشرعية (يريد مطامح الوطنية المصرية) ولا كيف يمكن ارضاؤها . ولكن هذه للمطامح حقيقة الى أعظم حد، ومبررة من بعض الوجوه الى أعظم حد أيضا ، فلا يمكن اتمامها ولا يمكن على الخصوص للتفكير في خفنها »

هاتان شهادتان من رئيسين لوزارة فرسا في ذلك العهد هما صريحتان في أن حركة وطنية شريفة كانت نهز مصر في ذلك الوقت وأن مجلس شورى النواب كان وليد هذه الحركة ، فلا يبق بعد هذا الا أن يعرف القراء ان انجلترا وفرنسا أعطتا للحرب على هذا المجلس لينضج انها ما كانتا تحاربان شقيا ولا عصيانا عسكريا بل كانتا تحاربان حركة وطنية فكانتا بذلك قدفان الى الشعب وتوجهان بار الثورة ففي ١٤ نوفمبر سنة ١٨٨١ سقطت في باريس وزارة جول فيرى وخلفتها وزارة غلبتا . وتولى غلبتا مع رئاسة الوزارة وزارة الخارجية وكان رجلا جريئا واسع

(١) دى فريسييه ص ٢٠١

هذا نص عبارة باللغة الفرنسية :

Il ne nous serait pas aisé de juger d'ici quelle est au juste la puissance de ces aspirations légitimes ni comment on pourrait les satisfaire. Mais ces aspirations sont trop réelles, et à certains égards trop justifiées, pour qu'on puisse les négliger, ni surtout songer à les étouffer

المنطمع وكانت مصر تدخل في دائرة مطامحه فلم ير أن يترك الحوادث تسير سيرها العادى البلي، ولا أن يترك للحكومة البريطانية قيادة دفتها فكتب في ١٤ ديسمبر يسأل الحكومة البريطانية ألا ترى أن الوقت قد حان لان تمام الدولتان في عمل تصلانه في مصر وهل توافق على أن تكون الخطوة الاولى من هذا العمل أن تعلن الدولتان انهما تؤيدان توفيقاً وأن نوحيا اليه بأن يثق بهما ثقة مطلقة وأن يعتمد على معونتهما دون غيرها؟^(١) وكانت السياسة التي نحري عليها انجلترا في ذلك الوقت أن تفرد بالعمل في مصر فكانت كلما دعها فرنسا الى الاشتراك معها في عمل تأت واعتبرت تارة بأن العمل من حق سلطان تركيا وطوراً بأن وقته لم يحن، ولكنها كانت كلما رأت من فرنسا اعراضاً عن العمل تقدمت هي وعملت. فلما جاءها هذه الدعوة من غامبتا سككت خمسة عشر يوماً ثم أجاب وزير خارجيتها اللورد جرنفيل في ٣٠ ديسمبر بأنه يخشى أن يكون ذلك مصحلاً للثورة^(٢). فرد غامبتا، وهذا تطهير التبة جليلة في محاربة مجلس شورى النواب، بأن من الخطر أن نسكت الدولتان حتى تقاجنهما الحوادث وأن المصلحة صارت قاضية « بشل عناصر الاضطراب المتولدة من عقد مجلس شورى النواب »^(٣) فرضي اللورد جرنفيل أخيراً وطلب من غامبتا ان يضع مشروع المذكرة التي ترسلها الدولتان فوضعها ووافقت الحكومة البريطانية عليها فكانت مذكرة ٧ يناير، وهذا نصها :

« حضرة القنصل العام

« كلفناكم غير مرة ان تخبروا الجناب الخديوى وحكومته عن رغبة حكومتى فرنسا وانجلترا في مساعدته ومساعدة حكومته للتغلب على المصاعب المتنوعة التي تزيد الارتباك والقلق في القطر المصري فان الدولتين على وفاق وطيد واتحاد تام فيما يتعلق بمصر لاسيما بعد حدوث الحوادث الاخيرة وأخصها صدور الامر الخديوى

(١) آشيل بيوفيس ص ٤٨ — ودى غريسليه ص ٢٠٧ و ٢٠٨

(٢) مجموعة التفرقات التي تبودلت بين فرنسا وانجلترا في سنتي ١٨٨١ بشأن مصر

(٣) آشيل بيوفيس ص ٤٩ — ومجموعة التفرقات التي مر ذكرها

يجمع مجلس شورى النواب مما أوجب المخافة بين الدولتين وإعادة النظر في شؤون
اتفاقهما المذكور

« وبناء على ذلك نرجوكم ان تصرحوا الآن للجناب الخديوي بان حكومتى
فرنسا وانجلترا تريان وجوب تأييده في الخديوية وفقا للاحكام المقررة في الممرات
السلطانية التى قبلتها الدولتان قبولاً رسمياً على اعتبار انها وحدها تكفل الآن وبعد
الآن استمرار السلم والسكون ونوجب توسيع نطاق التزوة والعمران في البلاد
المصرية مما فيه مصلحة الحكومتين المذكورتين المتفتحتين على الاشتراك في السعى
الى دفع كل ما من شأنه ان يحدث في مصر ارتباكاً او يعجل بنظامها واحوالها سواء
اكان هذا الخلل وهذا الارتباك ناشين من اسباب خارجية ام من اسباب داخلية
« ولا ريب عندنا في ان هذا التصريح العلني المبين لمقاصد الحكومتين يمنع
حدوث ما عساه ان يطرأ على حكومة الخديوي من الاخطار وان حدثت فالحكومتان
لا ترددان في دفعه ولا تمحجان عن صده

« وفي أمل الدولتين ان يستمد الخديوي من هذا التصريح الثقة والقوة اللتين
هو محتاج اليهما لادارة أمور الشعب المصري والبلاد المصرية »

وبينا كانت هذه المفاوضات تدور بين الدولتين كانت مصر هادئة مستقبلة
بوزارة شريف باشا وباجتماع مجلس النواب ثم بالامل في تحويل هذا المجلس
الى مجلس نواب ذى سلطة . وكان الامن شاملاً والنظام تاماً وقد تمهدت وزارة
شريف باشا باحترام المراقبة الثنائية وقانون التعصية وقبل المجلس هذا التمهيد فلم
يكن أحد يفكر في المساس بمصلحة اللدائنين أو للإجاب . فلما وصلت مذكرة
الدولتين الى الخديوي كانت كالتقبلة ألقيت فجأة في جو هادئ . بقصد تعكيره ،
ورأى فيها كل انسان نحرشاً بمجلس شورى النواب لم يكن سبب من الاسباب
يقتضيه . ولم ينف على المصريين أن الدولتين يخرسان بذلك توفيقاً على مقاومة
المركة الوطنية وقولان له انهما من أجل ذلك تبسطان حمايتهما عليه وتريدان منه أن
يستند على هذه الحماية .

وقد كان من واجب توفيق ان يرد على هذه المذكرة وكان على شريف باشا
خاصة أن يشجع على هذا الرد حفظاً لسمعة سلطانه . ويقال انه أعد رداً يرفض

به توفيق حاية انجلترا وفرنسا ويقول : « ان اليوم الذى تؤيدني فيه الدولتان ضد ارادة بلادى هو اليوم الذى تخيب فيه الساعة الاخيرة . ومتى فصلت الرأس من الجسم لم يبق سبيل الا الى الموت . فأتانا أن آكون خديوى المصريين أو لا أكون شيئا » (١) غير أن حكومة فرنسا علت بالعزم على الدفء عند توفيق وشريف كي يعدلا عن عزمهما ويلتزموا بالسكوت فأطاعا وسكتا ولكن تركيا لم تسكت بل احتجت بمذكرة ارسلتها الى الدولتين في ١٤ يناير فكان مما قالته فيها :

« ان مصر جزء من ممالك الحضرة السلطانية ، والسلطة المعطاة للحدود هي لحفظ الراحة العمومية عند الزوم وللحفاظة على سعادة البلاد وادارتها على محور حسن ، فتأيد هذه السلطة من حقوق الباب العالي وحده ومن اختصاصاته دون سواء . ولهذا كان من الواجب عندما انضج ان الحالة تدعو الى ارسال تلك المذكرة ان يؤخذ قبل كل شيء رأى الدولة العلية ، وبواسطتها وحدها ترسل التصريحات ، وبواسطتها ايضا يكون الحصول على التأكيدات المطلوبة »

وبسبب مذكرة ٧ يناير هذه وقع خلاف طويل القبول بين انجلترا وفرنسا في تحديد ما ارتبطت به كل واحدة منهما فقالت الحكومة البريطانية ، جريا على سنتها في مراوغة فرنسا حينما تدعوها الى الاقدام ، انها لم تربط بعمل معين بل لم تربط حتى بالعزم على العمل . وقالت الحكومة الفرنسية ان المذكرة تعقد حينئذ قيمتها وتصبح عبئا . ونحن ندع هذا الخلاف جانبا لانه من تلويح المسألة السياسية لامن تلويح الحياة الياية ، غير اننا نقول ان النية التي كان غامتا يبيتها من وراء تلك المذكرة انفضضت حينما أرسل مكاتب التيمس في ٣ فبراير (اي بعد ارسال المذكرة بأقل من شهر) الى جريدته يقول ان وزارة غامتا كانت تعد سرا في جنوب فرنسا حملة حربية ترسلها الى مصر (٢)

(١) روى هذه الرواية بمخبراتها مراسل جريدة الطان الباريسية في القاهرة اذ ذاك ونشرتها الجريدة في عددها الصادر في اول مارس سنة ١٨٨١

(٢) فوجئت الحكومة الفرنسية بإذاعة هذا الخبر فحاولت ان تقضي عليه ما عذرت الى جريدتي البال مال غازيت والديلي نيوز بتكذيبه فرد مكاتب التيمس على هذا التكذيب بتأكيد الخبر وبيان الاسلحة والوحدات الحربية التي اعدتها وزارة غامتا لهذا الغرض ثم ذكر القائد الذي عينه لقيادة هذه القوات - (آشيل يوفيس ص ٥١ و ٥٢)

وأينا أن شريف بابا اخذ على نفسه، في كتابه الذي استصدر به في ١٤ أكتوبر ١٨٨١ أمرا بمجلس شورى النواب، ان يقدم لهذا المجلس مشروع «لائحة قسسية» لانشاء مجلس نواب ذي سلطة، ففي يوم ٢ يناير توجه الى مجلس شورى النواب وقدم له «اللائحة» التي وعد بها والتي خطابا نذكر هنا بعض فقراته وهي:

«لما كانت لائحة النواب التي اجتمعتم على مقتضاها لانتظام أمكارنا جميعاً كما اوضحت ذلك من منذ ثلاث سنوات وكررتة بالعروض الذي وقعته أخيراً للسلطة الخديوية عن طلب اجتماع مجلسكم هذا فاشتلت مع رفقا ئي بصضير لائحة موافقة لمقاصد العموم وقد تمت وها أما الان أقدمها لفضرائكم للنظر فيها»

«ومع كون هذه أول مرة اجتمع فيها مجلس نواب حر كان يلزم أن السلطة التي تحلى له لا تكون مطلقة بالكلية حتى يحكم المستقبل باطلاقها بالتدرج شيئا فشيئا ولكن حيث ان مقصدا جميعا واحد وهو خير البلاد والحكومة معتقدة بكفاءة النواب وعملهم بحقوقهم واجباتهم وعيهم للوطن فقد أعطت لكم الحرية التامة في ابداء آرائكم وحق للرقابة على افعال مأموري الحكومة من أي درجة وأى صنف كانوا وتصرح لكم بنظر الموازن العمومية وايداء رأيكم فيها وبطرق كافة للقوانين واللوائح. وقد التزمت الحكومة بدم وضع أى ضريبة ولا شر أى قانون أو لائحة ما لم يكن بصديق واقرار منكم. وكذلك تمهدت بأن تجعل النظار مسئولين لديكم عن كل أمر يرتب عليه اخلال بحقوقهم والغاية منه لم يحجر عليكم في شيء ما ولم يخرج أمرهم عن حد فنظركم ومراقبتكم»

«وأما لا يتفاجكم الحالة المالية التي كانت عليها مصر مما أوجب عدم ثقة الحكومات الاجنبية بها ونشأ عن ذلك تكليفها بترتيب مصالح وتبعدها بالالتزامات ليست خافية عليكم بعضها بفقد خصوصية والقبض بقانون التصفية فهل يتيسر للحكومة أن تجعل هذه الامور موضعا لنظرها أو نظر النواب؟ حاشا لانه يجب علينا قبل كل شيء القيام بمصداقنا وعدم خدشها بشيء ما حتى نصلح خلقتنا وتزداد ثقة العموم بنا ونكتسب امنية الحكومات الاجنبية. ومتى رأت من تلك الحكومات

الكفاءة لتنفيذ تعهداتنا بحسن اخلاص بدون مساعدتها فتتخلص شيئا فشيئا مما نحن فيه الخ »

أما « اللائحة » نفسها فلا داعي لاساتها هنا بمخاضها لايها لم تصدر ولكنها شئت منها مادار الخلاف حوله فكان سببا في سقوط وزارة شريف وهو :

« المادة ٣٠ — ميزانية مصروفات وإيرادات الحكومة السنوية تقدم لمجلس النواب سنويا لغاية الخامس من شهر نوفمبر بالاكتر

« المادة ٣١ — تقدم للمجلس ميزانية عموم الإيرادات مع كشوفات عن كل نوع من أنواعها

« المادة ٣٢ — تنقسم ميزانية المصروفات الى أقسام متعددة يختص كل قسم منها بنظارة ثم يشتمل كل قسم على أبواب وفصول بقدر عدد جهات الإدارة العمومية تلك النظارة

« المادة ٣٣ — لمجلس النواب أن ينظر في الميزانية ويبحث فيها ويتخذ بمقتضى إقراره عليها . وعلى رئيس المجلس أن يبلغ ذلك الى ناظر المالية لغاية اليوم العشرين من شهر ديسمبر بالاكتر

« المادة ٣٤ — لا يجوز للمجلس أن ينظر في دفعيات الوريكو المقرر للاستانة أو للدين العمومي أو فيما التزمت به الحكومة في أمر الدين بناء على لائحة التصفية أو المصادقات التي حصلت بينها وبين الحكومات الاجنبية » (١)

ومن هذه المواد يتضح أن شريف باشا أخرج من اختصاص المجلس وبركو الاستانة والدين العمومي وكل ما التزمت به الحكومة بناء على قانون التصفية أو بناء

(١) نذكر هنا مواد أخرى من مشروع اللائحة لا نخلو من أهمية وهي :

١٨ — اذا قرّر قرار النواب على أن يستدعى للحضور بمجلسهم أحد النظار للاستيضاح منه عن مادة قبل الناظر أن يذهب الى المجلس بنفسه أو يستنوب عنه أحد كبار الموظفين بدوانه لجيب عما يسأل عنه وله أن يؤخر الجواب لاول مدة الافتتاح الثاني لا أكثر وعليه بيان الاسباب ومسئولية التأخير

١٩ — للنواب حق المراقبة على موظفي الحكومة جميعا قلمهم بواسطة رئيس المجلس أن يشمروا كلا من النظار بما يرون لزوم الاخبار عنه من تعد أو خلل أو قصور نسب لاحد موظفي الحكومة التابعين لنظارته

على معاهدات عقدت بينها وبين الحكومات الأجنبية ولم يترك المجلس من الميزانية إلا ما دون ذلك أى ما لا عس بحال أية مصلحة للدول أو للدائنين . وكان المخصص لعمرى العمومى ووركو الاستانة في ذلك الوقت وسعد قانون التصفية يعادل نصف ميزانية الحكومة أو يزيد عنه قليلا فكان المجلس كان محروما من الطر في أكثر من نصف الميزانية .

وقد قبل المجلس هذا الاختصاص المتواضع منذ أن تلى عليه رغبة منه في أن

٢٠ - الطار متكافلون في المسئولية أمام مجلس النواب عن كل ما يقرر بمجلس

الطار

٢١ - اذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس الطار واصر كل على رأيه بعد تكرار المخاربة وبان الاسباب ولم تستعف البطارة فلحضره الخديوات يأمر بقض مجلس النواب وتجديد الانتخاب على شرط ان لا تتجاوز الفترة ثلاثة اشهر من تاريخ يوم الانقضاء الى يوم الاجتماع ويجوز لارباب الانتخاب ان ينتخبوا خمس النواب الساتين او بعضهم

٢٢ - اذا صدق المجلس الثاني على رأى المجلس الاول الذى ترتب الخلاف عليه فينفذ الرأى المذكور قطليا

٢٣ - مشروعات اللوائح والقوانين تشمل بمعرفة الحكومة ويقدمها الطار لمجلس النواب لنظرها والبحث فيها واعطاء القرار اللازم عنها ولا يكون المشروع قانونا معتبرا دستورالعمل مالم يتل في مجلس النواب بندا فبندا ويقرر حكما لحكما ثم يجرى التصديق عليه من طرف الحضرة الخديوية واذا تراهى المجلس لزوم سن قانون وطلبه من مجلس النظار بواسطة الرئيس فيجيب الى ذلك

٢٤ - لا يجوز ربط أموال جديدة أو رسوم أو عوائد على منقولات أو عقارات أو يركو في الحكومة المصرية الا بمقتضى قانون مصدق عليه من مجلس النواب وعلى ذلك لا يجوز بأى وجه كان وبأية صفة كانت تحصيل عوائد جديدة وكل جهة من جهات الحكومة امرت بتحصيل شيء من ذلك وكل مستخدم سحر كشوفات او تعريفات عنها وكل شخص باشر تحصيلها بدون قانون مصدق عليه من مجلس النواب يحاكم كخلس وترد الحقوق لاربابها

يطعن الدائنون وتطعن الحكومات الاجنبية الى أنه ، وهو يعرف أن شرطاً كبيراً من قروض اسماعيل لم يدفع وأن تمسك الدائنين به وفوائده الباهظة ليس سوى سرقة ، يحترم هذه القروض ولا يتعرض لمصلحة مالية من مصالح الاجانب والحكومات الاجنبية بسوء . ولكن انجلترا وفرنسا لم ترضيا حتى بهذا الاعتدال وشرعنا في الحال نهاجان المجلس لانها كانتا تريدان أن تقضيا على نزعة ونزعة الحركة الوطنية على العموم الى اتخاذ الحكومة من سيطرتها واتخاذ البلاد من هياوي الضيع .

في مبرراته التفضل

ولم تتردد انجلترا وفرنسا في أن تعلما الحرب على المجلس عملا عدة ٧ يناير فاضمتا شريف باشا اتهمتا لا توافقان على المادة الثالثة والثلاثين من مشروعه لانها تمنع المجلس حق « تقرير » حرية من الميرانية فابلق شريف باشا المجلس ان الطارة من أجل ذلك تعدل المادة الثالثة والثلاثين بما يحمل الرأي الذي بيده المجلس النواب في الميزانية استشاريا .

وكان المجلس قد الف لجنة من ستة عشر عضواً من أعضائه برئاسة سلطان باشا لدرس المشروع وتقديم تقرير عنه فبدأ في الحال أن هذه اللجنة والنواب جميعا يتشبثون بان يكون لهم الحق المطلق في تقرير الميزانية فباخلا ما استنته المادة الرابعة والثلاثون من المشروع ، فما كلفت بينهم هذه تعرف حتى كتب المراقبان الاجنبيان في ١٢ يناير محتجان عليها فقالا (١) :

« يظهر ان مجلس شوري النواب يتبها لأن يطلب حق تقرير الميزانية ، ولهذا نرى من واجبنا ان نقول ان اعطاء النواب هذا الحق ، ولو اقتصر على الادارات والمصالح التي لم تخصص ايراداتها للدين ، يفسد العتبات المعطاة للدائنين ، لانه سيكون من نتائج الضرورية أن تنتقل ادارة البلاد من يد مجلس النظار الى يد مجلس النواب »

٤٣ - كل قرار يترتب عليه مسؤولية للنظار لا يحوز صدوره الا بالاغلبية المتفرقة منها ثلاثة أرباع النواب الحاضرين بالجلسة

(١) دي فريسييه ص ٢٢٤

وبهذا أعلن المراقبان أن النظرية التي تمسك بها إنجلترا وفرنسا هي أن تبقى إدارة البلاد في يد مجلس النظار لكي يمكن أن تبقى خاضعة لسيطرتها ، فما كاد النواب يعرفون ذلك حتى اشتد بهم الاستياء وصعدوا على أن يثبتوا في الدفاع عن حقهم . وقد يحسن أن نقل هنا رددم على احتجاج المراقبين فقد روى عنهم دى فريسينيه ^(١) « أنهم لم يقبلوا أن تكون بلادهم متاعا مرهونا في يد الدائنين وإن يكون عليهم ، لآلة كل شاعل يساور هؤلاء الدائنين ، أن يقبلوا الحرمان من الحقوق الأولية التي تملكها كل أمة مستدينة . وكان مما لاحظوه في ذلك أن هناك حكومات توزع تحت ديوبها أكثر مما توزع الحكومة المصرية بل هناك حكومات مزقت تعهداتها ورفضت أن تدفع ما عليها ولكنها كلها لم تحرم مع ذلك من حقا في أن تحكم نفسها بنفسها . أمامهم ، ودائئوم لا يجدون محلا للشكوى منهم ، فأنهم يمنعون من أن يدخلوا على قوانينهم ، بالاتفاق مع خديوبهم ، إصلاحات يعترف الكل بفائدتها للحكومات والشعوب »

ونقل أيضاً ما كتبه في مثل ذلك ميو سينكوكيز قنصل فرنسا العام من تقرير أرسله إلى حكومته في ١٥ يناير وهو ^(٢) : « يصدر مجلس شورى النواب في مطالته بأن يكون صاحب الرأي النافذ في تقرير الميزانية عن اعتقاده بأن له الحق في أن يراقب باسم الأمة سير الإدارة في مجموعها والطرق التي تستخدم بها موارد البلاد . ويقول المجلس أنه يحترم كل الاتفاقات الدولية ، بل يحترم حتى بقاء الموظفين الأجانب في وظائفهم ، غير أنه يحفظ لنفسه الحق في الاقتصاد ليعجل بسداد الدين العمومي » ونعود بعد ذلك إلى سرد الحوادث فنقول أن لجنة المجلس فرغت في أيام قليلة من النظر في مشروع شريف باشا ، وكانت قد أخذت من المجلس تمويضا في أن تتفاوض مع البطارية رأسا تقدمت لشريف باشا يوم ١٥ يناير التمهيدات التي رأت أن تدخلها على المشروع ومنها بقاء المادتين الثالثة والثلاثين والرابعة والثلاثين على أصلها ، أي أن يكون للمجلس حق تقرير الميزانية فيما خلا البريكو والدين العمومي

(١) ص ٢٢٤

(٢) دى فريسينيه ص ٢٢٣

وما ألزمت به الحكومة في قانون التصفية أو في المعاهدات الدولية، فلم يقبل شريف باشا هذه التعديلات . وفي هذا اليوم نفسه أرسل غامبتا الى قنصل فرنسا العام للتفراف الآتي (١) :

« اطلعت على المذكرة التي سلمها اليك المراقبان وأنا أوافق عليها وعلى النصائح التي تبذلها لشريف باشا . فتأبر على اتخاذ هذا الحزم »

وأرسل اللورد جرنفل الى قنصل إنجلترا العام السير مالت مثل هذه التعليمات. ثم اقترح مالت على النواب أن يكون رأيهم استشاريا الى ثلاث سنوات وأن يتحول بعد ذلك الى رأي قطعي ، وكلف متر بلس أن يقنعهم بقبول هذا الحل ، فكتب قنصل فرنسا الى غامبتا يسأله رأيه فيه فجاءه الجواب بالرفض ، وفي الوقت نفسه عاد متر بلس الى مالت يخبره بأن اقتراحه لم يلق من النواب وزعماء الحركة الوطنية غير الرضى واليك ما كتبه في ذلك (٢) :

« بعد ان تناولت مع الشيخ محمد عبده الذي كان كدأه من الميل الى التبصر والمسألة اتفقنا على اننا التقي في منزله بوقد منهم لا ناقشهم وأريهم النتائج المحتملة للمقاومة أى التدخل للسلاح . ومن ثم قيدت وجهة نظر المراقبين الماليين مع كلفن (هو المراقب الانجليزي) ووضعت مع مالت قواعد المناقشة التي عولت على استعدادها وكانت تعليماتي تنحصر في ان أذكر لاعضاء الوفد ان اجراءات الميزانية الحاضرة انما هي مسألة دولية لا يستطيع شريف باشا ولا البرلمان ان يحسها بغير موافقة الحكومتين الرقيتين . وكان على ان أقص تاريخ انشاء المراقبة المالية وأريهم مذكرة خاصة وضعها مالت وفونج قنصل فرنسا الجنرال وارفقها بالمشور الذي نص على انشاء المراقبة في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٩ وان أطلب اليهم ان يتدبروا هل مع ذلك تكون مسألة تغيير اجراءات اصدار الميزانية مسألة دولية او ليست كذلك . وهل اننا كانت كذلك ألا تكون خارج دائرة اختصاصهم بعد ان اعرفوا بان المسائل الدولية يجب ان لا تمس . وخول لي كلفن ان اقول انه هو شخصيا لا يمانع في تعديل الاجراءات الحاضرة تمديلا طفيفا بحيث يعطى للجلس

(١) دي فريسينيه ص ٢٢٥

(٢) ص ١٤٢ من هذا الكتاب

حق استشاري قد يتحول فيما بعد الى حق اقتراع . فانا قبلوا ذلك عرض مالت
 المسألة على حكومته بصورة حسنة وان كان لا يستطيع ان يطمئن على قبولها من
 جانب إنجلترا او فرنسا . اما سائر خلاقاتهم مع شريف فعليهم ان يسووها معه بانفسهم .
 « على هذه القاعدة وبمساعدة صابونيى والاساذ الشيخ محمد عبده باقشتم طويلا
 في المسألة ولم أكف عن المناقشة الا حين اقتنعت بانهم لا بدعون . نعم انهم وافقوا
 على تعديل ثلاث او اربع مواد كانت محل معارضة المراقبين الاساسية وادمجوا
 التعديلات التي اقترحتها عليهم فيها يختص بها في اللامعة ولكنهم تشبهوا برأيهم في
 مسألة الميزانية على الرغم من مساعدة الاساذ محمد عبده لى ولم يقبلوا ان يشيروا سطرأ
 من المادة الخاصة بها . فعدت مطأطىء الرأس لا يبلغ مالت حكاية فشلى »

ثم قال مستر بلنت بعد ذلك :

« ومع انى بذلت كل جهدي لاجل الاعيان (يريد النواب) على الاذمان
 تحت تأثير اعتقادي بانهم مهددون بالتدخل الاوربي لم يسمنى مع ذلك الا الاعتراف
 بانهم على حق في طلبهم السلطة على نصف الميزانية انا كان الحكم البرلماني سيكون
 حقيقة لا تنموها »

وقال بعد ذلك أيضا :

« وتدل لتفراقات مالت في ذلك الحين على ان الاعيان (اى النواب) كانوا
 بدأ واحدة في هذا الصدد حتى ان سلطان باشا الذى كان بطبعه رجلا ضعيفا يسهل
 لرواه اعلن بصريح العبارة ان دستور شريف باشا كالتبلة تحدث صوتا عاليا
 ولكنها فارغة »

ذلك ما كتبه مستر بلنت عن وسائله وهو ناطق بأن قنصلي فرنسا وإنجلترا
 لم يجدا سببا صحيحا يهاجمان به موقف الحق والاعتدال الذى وقفه النواب ، وانهما
 تلك حاولا أن يدخلوا عليهم ان النظر في الميزانية مسألة دولية فلم يفلحان النواب
 كانوا من سلامة الفهم بحيث لا تجوز عليهم هذه الخدعة . وها هو ذا مستر بلنت
 يتصرف بأنه وان كان قد جادلهم واجتهد فى اقناعهم إلا أنه كان يشعر فى داخلية نفسه
 بانهم على الحق وان ما يريد اقناعهم به هو الباطل . وهم ما ثبتوا فى موقفهم هذا الثبات
 ولا تشبوهه هذا التثبت الا لانهم كانوا قد ذاقوا الآلام من جراء

الحكم المطلق ورأوا الخطر داهما على استقلال البلاد فكانوا من أحل ذلك يريدون الحكم البرلماني ، كما يقول مسر بلت ، حقيقة لا تخفى .

نواضع آخر في طلبات النواب

ولكن الروتين يرفضه

فيقتصر النواب ويستقبل شريف باشا

واقترحت الحكومة بعد ذلك على النواب أن يقر رأي المجلس استشاريا ولكن تعدل المادة الثانية والثلاثون بما يحمل ميزانية المصروفات مقسمة الى أبواب أكثر فرفض النواب قائلين ان قسمة الميزانية الى أبواب أكثر أو أقل لا تعيد شيئا ما دام المجلس لا يملك حق التبرير . وأخيراً رأوا أن يقدموا برهانا حديداً على أنهم يذهبون في مسألتهم ونواضع طلباتهم الى أدنى حد ممكن فاجتمعت لجلسهم يوم ٢٠ يناير وقررت أن تفرج على شريف باشا حاشا لاختلاف أن يعين المجلس عدداً من أعضائه مماثلاً لعدد البطار فيكون هؤلاء . وأولئك هم الذين يقررون الميزانية ويكون لرئيس البطار صوت مرجح عند الاختلاف وتساوى الاصوات في الفريقين . وحل سلطان باشا هذا الاقتراح في اليوم التالي الى شريف باشا فرفضه هذا على قصلي انجلترا وفرنسا^(١) فقالا انهما سيرفعانه الى حكومتهما . وفي ٢٣ يناير جاء جواب غامبيا بالرفض القاطع ثم جواب اللورد حرنفيل بالرفض أيضا واسكن مع التلويح باحتمال الاتفاق في مسائل أخرى جزئية^(٢)

ومضى بعد هذا أسبوع وضع شريف باشا في أثنائه مشروع لائحة جديد حذف منه المادة الخاصة بالميزانية وأدخل على مواد أخرى شيئا من التعديل ثم أرسله الى المجلس في ٣١ يناير وأرسل معه كتابا بهذا نصه :

« ان جناب قصلي فرنسا وانجلترا المنزولين قدما للحكومة مذكرة تتضمن ثلاثة أمور وهي أولا ان حكومتى فرنسا وانجلترا ترى ان الاتفاقات الدولية المتعلقة

(١) دى فرسينيه ص ٢٢٦

(٢) المصدر السابق

بالامور المالية لا نسمح للحكومة المصرية بان تمنح مجلس النواب حق تقرير
الميزانية تقريراً قطعياً. ثانياً ان الاتصال الموالي اليهما مستمدان لفتح محادثات للاتفاق
على هذه المسألة. ثالثاً ان فتح المحادثات بناء على طلب الحكومة لا يكون الا بعد
تمام الاتفاق قطعياً بين الطارة ومجلس النواب

« وحيث قد علم من القومسيون المذكور (يريد اللجنة التي عينها المجلس للنظر
في مشروع اللائحة) ان النواب يريدون الاشتراك في تقرير الميزانية ومن الواجب
حينئذ ان يحصل الاتفاق على سائر نود اللائحة ما عدا ما يتعلق بالميزانية فمستكرار
المداكرة بين الطارة وبين القومسيون المذكور قبلت الحكومة مشروع اللائحة
المرفقة مع هذا. فارجو من سماهتكم التصديق عليه من المجلس شرط ان قبول
المجلس به لا يعد قطعياً ولا يترتب عليه تنفيذ تلك اللائحة الا بعد الاتفاق على
مسألة الميزانية ودرجتها. اما ما يختص بهذه المسألة فان الحكومة مستعدة للمخاطرة
انما يلزم ان يكون طلبها صريحاً مستوفياً ولهذا قال ان مجلس النواب يصرح بافكاره
في هذه المسألة كتابة ويمل عنها البنود المترائي له اعمالها حتى تكون اساساً للمخاطرة»

فقابل النواب هذا الكتاب بالامتناع لانهم رأوا فيه ان شريف باشا يدخل
انجلترا وفرنسا في مسألة هي من حبة أساسية في نظام الحكم ومن جهة اخرى داخلية
تمس لها أن يدخل فيها. وكانوا قد امتنعوا منه قبل ذلك لسكوته على مذكرة
٢٠ يناير كما امتنعوا منه لعدوله عما وضعه بيده في مشروعه الاول خاصاً بلطة المجلس
في الميزانية ولا نضمه الى الدولتين في وقوفها في وجه المجلس وحيلولها دون أن
يقبذ الحكومة من السيطرة الاجنبية. فاجتمع فريق كبير منهم في اليوم نفسه في بيت
سلطان باشا وتداولوا في ذلك طويلاً، ثم اجتمع المجلس في اليوم التالي (١٢ ربيع
الاول سنة ١٢٩٩ - اول فبراير سنة ١٨٨٢) اجتماعاً غير عادي فبدأ الرئيس فقال :
« اعيدت من جانب مجلس النظار لائحة مجلسنا الاساسية التي نظرت في اللجنة
للعينة لذلك مشفوعة باقادة رئاسة مجلس النظار المشار اليه تتعلق باللائحة عموماً
ويبدو النظر في الميزانية خصوصاً فقدت هذه الجلسة لمرض ذلك على هيئة المجلس
مع تقرير اجمالي من اللجنة المذكورة »

ثم تلى تقرير اللجنة وهذا نصه :

« ان اللجنة التي احدثتموها للطرف في مشروع لائحة المجلس الاساسية المرسلة
من جانب الحكومة قد نهضت بهذه المهمة وعقدت لها جلستها الاولى في يوم

الثلاثاء ١٣ صفر سنة ١٢٩٩ بوجود عزتو بطرس بك غالى كاتب امرار مجلس
الطار (سابقا) (١) مندوما عن الحكومة فقرأت وعدلت وقررت بحو نصيب
اللائحة بحضور المندوب المشار اليه ثم توالت جلساتها بغير وجوده حتى انتهت على
آخر الواجب معنا وتمديلا واستكلت وضع اللائحة الاساسية على الصورة التي
حسبتها موافقة للاحوال حافظه لحقوق المجلس مع الرعاية لجميع العهود والمواثيق المرعية
« وبعد أن فرغت من ذلك ارسلت صورة اللائحة على حسب ما انتهت اليه
في تعديلها الى جانب مجلس الطار لتتصرف فيه . ثم جرت بينها وبين المجلس المشار
اليه مخاضات ومعاوضات شبيهة بالرسمة على عدة بنود من اللائحة فاقامت الادلة
على أحقية ما عدلته وما وضعته مقولا معظم بنودها ومغيراً بعضها ومعدوفا منها
بند الظرف في المزاينة لتقريرها في مجلس النواب . فاما البنود المنيرة فان المقاربة بين
الاصل والمرسل من اللجنة والنسخة الواردة من مجلس الطاريتين لحضراتكم ما حصل
فيها من التغيير ومكان ذلك من الاهمية أو عدم الاهمية وعمله من القبول والرفض
واما بند المزاينة فقد كان السبب في حذفه ما يفهم من منطوق الافادة الواردة من
رياسة مجلس الطار .

« وقد رأت اللجنة ان واجباتها وحقوقها تقف عند هذا الحد من المخاطرة ولذلك
فهي تعرض لحضراتكم نص اللائحة الاصلية الواردة اولا من جانب الحكومة ،
ثم نص تلك اللائحة بعد تعديلها في اللجنة ، ثم صورتها الواردة بالامس من جانب
مجلس الطار بالتيسير والحذف السابق ذكرها ، مع الافادة المنوّه عنها ليعلم بذلك
ما اجرته اللجنة وما آل الامر اليه . فاما ان يفوض اليها من لديكم حق وحدود
جديدة في القبول او الرفض او تميم المخاطرة واما ان يتولى المجلس هذا الامر بنفسه
والله ولي الامور »

ثم جرت المناقشة فقرر أولا أن يتمتع لجنة المجلس لتتصرف فيما بالتغييرات الاخيرة
التي أحدها مجلس النظار في مشروع اللائحة وفي الكتاب الوارد مع هذه التغييرات
من رياسة مجلس النظار لان اللجنة « ادري باطراف المسألة واعرف بأصولها وفروعها ».

(١) كلمة (سابقا) هذه موجودة في صلب تقرير اللجنة وذلك لان بطرس بك
عالى كان سكرتيراً لمجلس النظار حينما بدأت اللجنة تنظر في المشروع ثم نقل انسابه
نظرها فيه الى منصب آخر

وتحيا ان يكون اجتماع اللجنة لهذا الغرض في اليوم نفسه وان تقدم تقريرها طهر
اليوم التالي . وثالثا أن يجتمع المجلس طهر اليوم التالي ليصل في الموضوع كله
بقرار حاسم .

وفي الحال اجتمعت اللجنة فبحثت وتناقشت ثم عادت الى الاجتماع صباح اليوم
التالي فوضعت تقريرها ورفعت الى المجلس وهو :

« عقدت هذه اللجنة امس الاربعاء الساعة ٩ وربع فاعدت النظر في مشروع
اللائحة الاساسية المعاد الى المجلس من جانب مجلس المطار وجرى مبادلة الراي
بينها وبين اعضاء اللجنة الذين كلفوا بمذاكرة المطار في بعض اوجه التسوية .
وبعد للمفاوضة والمداولة قبلت ما احدثه مجلس المطار من التغيير في اللائحة وردت
البعض الآخر الى اصله باعتقاد انه اوفى بالمصلحة ووقع في يابه . ثم وضعت للسطر
في الميزانية والاشتراك في تقريرها ثلاثة بنود واثبتت هذه البنود في الساحة المروضة
الآن لديكم .

« وقد تلي فيها رقم دولة رئيس المطار فوقع لديها موقع الاستتباب لملها بان
للساكنة التي بين الحكومة ومجلس النواب داخلية محضة لا تقتضي ازواج اى خاطر
بالداخل والوساطة ولا سيما بعد تساهل النواب الى حد الرضا بالمشاركة في تقرير
الميزانية ليس غير .

« على انها لم ترد ان تعد لذلك الرقم جوابا لسببين الاول انها رأت من الاهمية
بحيث ينبغي له راي الهيئة بجمليتها والثاني انها تؤثر على مطال الرسالة سرعة المشافهة
بمضى انها ترى من الملالم حسم الامر بوجه السرعة اجتنابا للمخاطرة وتصريحا بكون
المجلس يرى ان تقرير الميزانية من حقوق الحكومة دون سواها وانها قادرة على
اعطاء هذا الحق لمجلس النواب ارضاء للرأى العمومى وعملا بما تقتضيه المصلحة
الوطنية وحسبا للخلاف

« فاذا حسن لدى الهيئة هذا الرأى فليعد على سمعها نص اللائحة ببيان ما احدثته
الحكومة فيها من التغيير وما قبلته اللجنة من ذلك وما ردت به الى الاصل ولها في امر
تعيين الوفد او رقم الجواب على رقم رئاسة المطار رايها العالي موقفا للصواب ان
شاء الله تعالى »

أما البود التي جاء في هذا التقرير أن اللجنة وضعتها للنظر في الميزانية والاشتراك في تقريرها فهي :

« تعرض الميزانية على مجلس النواب فينظر ويبحث فيها ويسن من أعضائه لجنة مساوية لمجلس النواب عدداً وراياً لقرروها جميعاً بالاتفاق أو الغالبية فان وقع بينهم خلاف وكان العدد متساوياً من الجانبين وجب إعادة الميزانية للنواب فاما ان يؤيدوا رأى النظار واما ان يؤيدوا رأى لجنة النواب فان كان الاول وجب تنفيذ الميزانية وان كان الثاني ولم يمكن حصول الوفاق كان الحكم في ذلك حكم بند الخلاف وهو انه عند وقوع الخلاف بين النظار والنواب على امر ما فاما ان يفض مجلس النواب واما ان يستفي النظار وفي هذه الحال اى اذا ايد النواب رأى اللجنة وغالخوا رأى النظار نفذ الميزانية في الملم الضرورى منها لادارة المصالح وعدم احجر الاشغال تنفيذاً مؤقتاً ويبقى الباقي من أمر الميزانية الى مابعد تسوية المسألة بأى طريقة ووسيلة »

ومعنى هذا ان اللجنة نزلت ، كما قالت هي ، عن المطالبة بحق تقرير الميزانية واكتفت بطلب المشاركة فيه

ثم عقد المجلس فسل على عليه تقرير اللجنة والتعديل الذى وضعت له المادة الخاصة بالميزانية ثم جرت المناقشة كما يأتى (١) :

« محمد بك الشوارى - لا بأس في تشكيل لجنة تسمى الى الجانب الجديد طالباً من حضرته السيد اقرار اللائحة التي استقرت عليها آراء النواب فذلك ادنى للنتيجة واولى من الرسالة خصوصاً بعد ظهور المسألة بالمطهر الجديد المنوء عنه في رقيم مجلس النظار »
« ابراهيم افندى الوكيل - اوافق على رأى حضرة محمد بك الشوارى في ارسال اللجنة . ولكن ارى ان تسم اولاً الى دولة رئيس مجلس النظار فتذكر له سوء تأثير رقيه في المجلس وتطلب منه التصديق على اللائحة بلا غفارة ولا تأجيل . فان ابى فاللجنة تقصد الجانب العالى ومساله التصديق على قبول اللائحة سريعاً »
« احمد افندى عبد المنار - ارى ان يكتب مع ذلك رد الرقيم بانكار ما فيه لكي لا يحسب السكوت عنه اعترافاً به وقبولاً

« احمد افندى محمود - ان سمر اللجنة على الوجه السابق المذكور كاف في رد

(١) هذه المناقشة منقولة حرفاً بحرف من محضر الجلسة

الرقم وحاسم الامر بلا مراة . ومع هذا فان تقرير اللجنة الذي تلى الان علينا
وقيل مضمونه بالاتفاق رد لا مشاحة فيه بقيت في سجل المجلس وينشر فيعلم لدى
الرأى العمومى

« بعض النواب — احسنت

« الرئيس — يحسن اخذ الاراء على قبول تعيين اللجنة برفع الايدى علامة القبول
« قبول عمومى

« احمد افندى عبد النصار — ان وافق فليكن عدد اعضاء اللجنة عشرة

« محمد بك الشواربى — بل خمسة عشر

« الجميع — فى عمله »

واختار المجلس فى الحال خمسة عشر عضواً من أعضائه يسيرون الى شريف
يشاء الى الحديو وكلفهم ان يؤدوا مهمتهم قبل أن يتقضي النهار ، فساروا الى
شريف باشا فى نظارة الداخلية وقدموا اليه التعديل الاخير الذى أقره المجلس لمادة
الميزانية وقالوا ^(١) :

« ان تأخير تنفيذ اللائحة جالب للفشل ولهذا عقدنا الية على ألا تترك هذا
اليوم بمضي بغير قبولها او رفضها »

فجعل يلاطفهم وقال : « تعلمون انى منذ أحدثتم فى تنظيم لائحتكم هذه لم اتعرض
لشئ من امتيازاتكم سوى ما تطلبونه من رؤية ميزانية الخزينة وابداء رأيكم فيها
على انى ما زلت لا اتحول عن هذا الرأى فذلك لم أصادق على ما رأيتوه من أمر
الميزانية الا بعد رضا الدول ذوات الشأن »

فقالوا : « ان هذا من خصائصك ولا دخل للدول فيه فلن سألنا لا نتمس ما لهم
من الحقوق ولا نقرر لهم مصلحة »

فقال : « لا سبيل الى ذلك البتة »

فقال جماعة منهم : « انا نأسف جدا ان يصادق لنا على اللائحة غيرك » .
يريدون بذلك اهم سيطلون من الحديو اسقاط وزارته .

(١) انظر « الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث » لميخائيل شاروبيم بك

جزء ٤ ص ٢٧٣ و ٢٧٤

ثم خرجوا متجهين الى قصر عابدين وفيه قالوا الخديو وقالوا : « انا جازمون
 بمحبة مولانا الوطن وميله الى اصلاحه ولهذا الغاية مسح الامة المصرية حقوق الشورى
 وفتح مجلسها فخطمنا له هذه اللائحة وتعنناها وطلنا الي الوزير محمد شريف باشا ان
 يوقعها فلم يقبل حالة كوننا لم نتعرض لشيء مما في العقود الدولية »
 فقال الخديو : « ادا كانت الوزارة قد آتت التصديق على اللائحة فاذا يطلبون »
 فقالوا : « نطلب ان تمرل فنشكل وزارة اخرى لا نأبى التصديق والعمل
 معنا »

فألهم ^(١) : « وبأى حق يطلبون هذا »

فاجابوا ^(٢) : « تلك هي إرادة الامة »

فوعدهم بالحواف غداً، فاصرفوا وأرسل فاستدعى شريف باشا وقضى انجلترا
 وفرنسا فيعد أن تداول معهم ساعة استقر رأيهم على أن يستقبل شريف باشا وان
 يترك الخديو لادواب اختيار الوزارة الجديدة ^(٣) . وحيث لم ينتظر الخديو الى غدا بل أرسل
 في المساء الى الحصة عشر نائباً فلما جاءوا أخبرهم باستقالة شريف باشا وأسلمهم بمن
 تؤلف الوزارة التي تخلف وزارته . فقالوا ان اختيار الوزراء من حق الخديو . فاصرف
 فاصرفوا ثم أيضاً على الامتناع ، وأخيراً عادوا في الصباح (الجمعة ٣ فبراير) فابلقوه أنهم
 يشيرون محمود سامي لرياسة الوزارة على شرط أن يصدق على اللائحة ، فكان
 ما أرادوا

انجلترا وفرنسا هما المعترضان

هنا نقف لحظة لقول ان انجلترا وفرنسا هما القتان خلفتا بحرهما وسوء نيتهما
 هذه الامة لانهما بارسالهما مذكورة ٧ يابج لغير ما سبب بحرشتا بالمجلس وادراته
 بالمدون وحاولتا أن تمرلا الخديو ، أو بعبارة أخرى الحكومة ، من الامة . ثم لانهما
 أرادتا بعد ذلك أن عمما النواب من أن تكون لهم سلطة على الميزانية حتى في الجزء الذي

(١) و (٢) أشبل يوفيس ص ٦٥

(٣) المصدر السابق

لاساس له منها بالدول ولا بالدائنين . وما كان المجلس في كل أدوار الازمة الا واقعاً موقف الدفاع ضد هجمات الدولتين ، وقد تواضع في طلبانه حتى ذهب الى طلب الاشتراك في تقرير الميزانية ، لا الافراد بتقريرها ، فاصرت الدولتان على الرض فكانتا معتديتين أولاً وأخيراً وكان اعتداؤهما حلقة من خطة سياسة أريد منها أن تؤدي في النهاية الى التدخل المسلح . وكل من يقرأ الرسائل والمذكرات التي كانتا تتبادلانها في تلك الايام يرى سهولة أن ية التدخل والاستيلاء على مصر كانت جلية عندهما على السواء . ولكن شيئاً واحداً كان يفصلهما وهو أن انجلترا كانت تريد هذا التدخل لها وحدها ، أما فرنسا فكانت تعرف هذا القصد من زميلتها وكانت تخشى أن يتم فكان وزيرها غامبتا يدفع الحوادث دفعا لكي تتدخل الدولتان معاً ثم لما استتمل غامبتا في ٢٩ يناير سنة ١٨٨٢ وخلفه دي فريسييه في رئاسة الوزارة لم تتغير هذه الخطة وأما تغيرت الوسيلة اليها وصارت فرنسا لا تدفع الحوادث توصلا الى التدخل بل تجبر أوروبا للاشتراك مع الدولتين عسى أن يحول ذلك دون الغرض الذي تعمل له الحكومة البريطانية .

فالدولتان كانتا في شهرى يناير وفبراير تحاربان المجلس والحركة الوطنية كلها عملاً بسياسة الاعتداء التي أعلنتها في مذكرة ٧ يناير . ولنا قول هذا وحدها وأما بقوله مما فصل فرنسا العام اذ ذاك مسيو سينكوبير فقد كتب في ٢٩ يناير سنة ١٨٨٢ الى حكومته تقريراً قال فيه (١) :

« ان الرغبة البادية على مجلس النواب من جانب في ان يصير برلماناً ، والخطة القوية التي رأت الدولتان من جانب آخر ان تختارها والتي كانت مذكرة ٧ يناير تعبيراً عنها ، هما السببان الجوهريان اللذان اصطلح كل منهما ، بالآخر فوجدنا الموقف الحالي

« وفي الواقع انني كلت ان أقدم تلك المذكرة بالاتفاق مع السيد ادوارد ماليت للخبير في الوقت الذي بدى فيه بالتكلم جدياً في اعظم مسألة تشغل الافكار في الوقت الحاضر وهي مسألة الميزانية . ولهذا المذكرة أهمية عظيمة لانها ترسم خطة الدولتين ربما جلبا صرحاً مؤكداً أن من الضروري ان يبقى النظام الحالي على ما هو عليه

ولا تعير وجود الحرب الوطني أدنى التفات ولقد أدركت الدولتان حق الإدراك ما كان مقدراً لارادتهما هذه ان تجده من معارضة الحزب الوطني ومعارضة غيره في خارج مصر مصرحتا بأنهما مسعدتان لمقاومة الارتياكات الداخلية والخارجية التي يمكن ان تهدد النظام الحالي »

وكتب الى حكومته يوم ٦ فبراير يقول (١) :

« يمكن ان يقال ان الاغلاب الذي أحدثه مجلس النواب المصري جواب منه على مذكرة ٧ يناير . فلقد أعلننا في هذه المذكرة اننا نحفظ النظام الحالي ضد الجميع فاجاب المجلس على ذلك بان غير هذا النظام تغييراً جوهرياً . وبذلك وضعنا أنفسنا في موضع صارت الضرورة قاضية علينا فيه ان نتدخل او نعدل سياستنا » (٢)
وهذا اعتراف جلي بان الدولتين هما اللتان تمعدنا سياسة تؤدي بهما الى التدخل المسلح

وكتبت جريدة التيس في ٨ يناير سنة ١٨٨٢ قول :

« ان السير ادوارد ماليت كتب في ٩ يناير الى رئيسه يقول ان مذكرة ٧ يناير أبدت عنا كل ثقة . لقد كان كل شيء يسير سيراً حسناً وكان ينظر الى انجلترا كما ينظر الى دولة بارة مخلصه لمصر اما الآن فالعربون يتقدون ان انجلترا ألقت بنفسها في احضان فرنسا وان فرنسا تحملها أسباب خاصة بحربها التونسية على التدخل هنا »

المجلس في وزارة محمود سامي

صدر الامر لمحمود سامي في ٤ فبراير بان يؤلف الوزارة فالتفتها ورفع الى الحديو كتاباً طمأن فيه الاجانب على احترام التعهدات الناشئة من قانون التصفية والادارات الخاصة بالدين العمومي ثم قال :

« وقد كان أبداً في خلدي عظمكم ان لا بد من مساعدة مجلس شوري لانعام الاصلاحات الداخلية بحكمة ووثوق . وبناء على ذلك تشكل مجلس النواب الحالي

(١) آشيل يوفيس ص ٦٦

(٢) ثبت هنا نص هذه الجملة الاخيرة باللغة الفرنسية وهو :

Nous nous sommes places ainsi dans la nécessité d'intervenir ou de modifier notre politique

والوزارة أيضا من هذا الراي وهي ستوجه همتها وعنايتها الى اصلاح الحاكم والمحاسب
وانتظام الادارة واجراء التحسين اللزم في أمر المعارف العمومية مساعدة للملاد
على السير في سبيل المدنية والتنتاج . وستنظر في اتخاذ الوسائل الآتية الى اتساع
دائرة الزراعة والتجارة والصناعة وتصرف عنايتها الى سائر المشروعات الإصلاحية
التي كانت موضوع امانى عظمتمكم . ولكنها قبل كل شيء ترى من الواجب ان
تعين اختصاصات مجلس النواب ليتسّر له ان يأتى الحكومة بما تنتظر منه من
المساعدة وان يحقق آمال البلاد المحصورة فيه . ولذلك قال شيء تشريع فيه الوزارة
هو وضع نظام اساسى للمجلس الموالياه ويكون من احكام هذا النظام احترام
جميع الحقوق الممتازة والجهود الدولية وكل التعميدات المتعلقة بالدين العمومى وما
توجب هذه التعميدات درجه في برنامج الحكومة وتحديد التبعة التي تلحق الوزارة
امام المجلس وكيفية المخازنة والمباحثة في أمر القوانين ووضعها وتنظيمها . وسيكون
هذا النظام الاساسى محتويا على جميع الشروط اللازمة لتأكيد مصالح العموم «يبداً
من ان يكون سببا لقلق البال »
فرد عليه الحديبو بكتلب قل فيه :

« . . . ونوافق على رأيكم التضمن انه يجب على حكومتنا اتخاذ الوسائل
اللازمة لاتمام الإصلاحات القضائية والادارية وشرقا تون اساسى لمجلس النواب
ينطبق على الآراء التي أبدىتموها في لائحتمكم »

وفي ٦ فبراير نظر مجلس النظار في مشروع اللائحة الاساسية فوضعه في الصيغة
التي ترضى مجلس شورى النواب . وفي ٧ فبراير عقد المجلس وجاءه ناظر المعارف
عدائه فكرى باشا وناظر الاوقاف حسن الشريعى باشا وقدمتا اليه المشروع في
صيغته الجديدة فصادق عليه النواب بالاجماع ^(١) وهذه هي المراد الخاصة فيه بسلطة
المجلس على الميزانية :

« ٣٤ — لا يجوز للمجلس ان ينظر في دفعيات الوبركو المقرر للاستانة او
الدين العمومى اوقيا التزمت به الحكومة في امر الدين بناء على لائحة التصفية او
المعاهدات التي حصلت بينها وبين الحكومات الاجنبية

« ٣٥ — ترسل الميزانية الى مجلس النواب فينظرها ويبحث فيها (بمراعاة البند
السابق) وحين لها لجنة من اعضائه مساوية بالعدد والرأى لاعضاء مجلس النظار
ورئيسه لينظروا جميعا في الميزانية ويقرروها بالاتفاق أو بالاكثرية

(١) نص هذه اللائحة منشور في ذيل هذا الكتاب من ص ٤٤٨ الى ص ٤٥٤

٣٦ - إذا وقع الخلاف بين لجنة النواب ومجلس النظار وتساوى العدد فيه فالميزانية تعود الى مجلس النواب فان أيد رأى مجلس النظار وجب تنفيذه وإن أئمت رأى لجنته فيكون المعدل بمقتضى المادة ٢٣ و ٢٤ من هذه اللائحة . وأما ما حصل فيه الخلاف من الميرانية فإذا كان مقررا في ميزانية السنة السابقة ولم يكن مخصوصا لأعمال جديدة مثل أشغال عمومية وغيرها فينفذ موقتا الى أن يعقد المجلس الثاني بمقتضى المادة ٢٣

٣٧ - إذا أيد المجلس الثاني رأى المجلس الاول في أمر الميزانية وجب تنفيذ الرأى المذكور قطعيا كما في المادة ٢٣ «

أما المادتان ٢٣ و ٢٤ أشر اليهما في هذه المواد فهما :

« ٢٣ - إذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس النظار وأصر كل على رأيه بعد تكرار المخاربة وبيان الاسباب ولم تستعف النظارة فللحاضرة الحديوية أن تأمر برفض مجلس النواب وتجديد الانتخاب على شرط أن لا تتجاوز الفترة ثلاثة أشهر من تاريخ يوم الانقضاء الى يوم الاجتماع . ويجوز لأرباب الانتخاب أن ينتخبوا قس النواب السالفين أو مضمهم
٢٤ - إذا صدق المجلس الثاني على رأى المجلس الاول الذى ترتب الخلاف عليه ينفذ الرأى المذكور قطعيا «

وفي يوم ٨ فبراير كان مجلس النواب مجتمعاً فجاء محمود سامي ومعه اللائحة وقد صادق عليها الحديو والنظار فقدمها وألقى الخطاب الآتي :

« أيها السادة النواب

أحسب نفسى سعيد الطالع بحضورى بينكم حاملا الى حضراتكم القانون الاساسى الذي سيكون ان شاء الله قاعدة لجميع أعمالكم ويسرنى كل السرور اننى لم اعمله اليكم الا بعد تيقنى انه خير أساس يمكنكم ان ترفعوا عليه من الاعمال ما يبرز شأن البلاد ويعمى ثروتها ويقوى اصول المداة فيها

وهذه نعمة من الله سبقت الينا على حين احتياجنا اليها والحمد لله قد وصلنا الى المرغوب مع احترامنا شرائع الحكمة ونواميس للسكينة ولم يكن شئ من الوسائل يفيدنا لو لم تكن عناية جناب خديويتنا الاعظم هى سندنا في جميع أعمالنا ومقاصده السامية هى - مرشدنا في سبيل سيرة فهو الكريم الذى اجريت هذه النعمة على يديه دورل واجب علينا جميعا ان نقوم لحضرته العلية بفروض الشكر وواجب الثناء

إلا اننى اعلم كما تعلمون ان مجرد وضع القانون على اصول الحرية وقواعد العدالة لا يكتفى في وصولنا الى الغاية المقصودة من اجتماع حضراتكم بل لابد ان يضم الى ذلك خلوص اللية من كل واحد منكم في المحافظة على حدود هذا القانون ودقة الطر في الوقوف عندها بحيث تكون جميع الاعمال والامكار منحصرة في دوائرها وقد قال عقلاء السياسيين ان الوصول الى هذا النوع من الكمال اعنى حصر جزئيات الاعمال وكلياتها في دائرة القانون انما ينال ببدالناء وطول التصارب لكن لا اعد هذا صعبا عليكم فان العناية الالهية ساعدت سعد البلاد بموقع الانتخاب على حضراتكم واتم على اكل درجات العقل والفضيلة ولا عناء في اتباع القانون الا على العاجزين

« وفي املى انكم ستحققون ما يطن احباء البلاد فيكم عندما يتبدلون في الاعمال المهمة التي تهتمم الان لمباشرتها بان تستملوا صادق النظر للوقوف على ما فيه خير بلادكم وتوجهوا الى ذلك ماضى المهم حتى لا يصبح الزمن الطويل في الحصول على فائدة قليلة وهذا لا يكون الا بتحليص الامكار وتخصيص الطولاي من شوائب النزعات الشخصية بان نجعل الاعمال وقفا على المصالح العمومية التي تقعها في الحقيقة عائد عليكم وعلى ابناءكم

« ان الثقات النظر الى الخصوصيات يمت في القلوب محاسدات وماظرات تحصل على الخلاف الدائم (نعوذ بالله) وانكم تعلمون ان الذين رفقوا الى ذروة العز واولج الشرف لم ينالوا ذلك الا باخلاصهم في طلب النفع العام فاعترف العالم بفضلهم وأجلتهم القلوب فاحلثهم اعلى للنازل ففتبتوا في مكاتهم ماداموا بحيلة الاخلاص

« واني اهنيء قسى بوقوف بين عقلاء البلاد العارفين بمقوق بلادهم عليهم العالمين بان شرفهم مفقود بشرف اوطانهم الموقنين بانهم لن يكونوا نوابا حقيقيين الا انا اقاموا على صدقهم براهمين من العمل وحججا من العقبات في خطة الاعتدال حتى يقتنع بها البعيد كما عرفها القريب

« وفي علم حضراتكم ايها السادة اننى عند استلاى رياسة النطار رفعت الى جناب خديوينا الاعظم تقريرا امنت فيه مبادئ الهيئة الحاضرة واظنكم قرأتموه وتعلمتم ما يه وقد تكرم على الجناب الخديوى بقبوله واني مؤمل فيكم ان تكونوا عضدا لنا وساعدا قويا على تنميم ما قصدنا ليعتقر امر النظام وتتوفر لدينا اسباب القوة والرقابة ونحفظ الحقوق التي لنا ونؤدى الواجبات التي علينا ونوقى بجميع جهودنا لمن ماهدناه ونكون بذلك قد ارضينا سلطانا الاعظم الذى يسره نجاحنا

وتقدمنا واراضينا جميع الدول المتقدمة التي نحب ان ترانا حائزين لشرافا حافطين لحقوقنا
قائمين بهودنا

« وآخر ما نتواصى به ان لا نجعل للنصب الشرعي دخلا في الاعمال الوطنية
التي كلفتمكم البلاد ان تقوموا بادائها وان تكون الوطنية الحقة هي الباعث القوي
على كل فكر والمابة القصوى من كل قول وعمل
« نسأل الله ان يوفقنا جميعا لما فيه رغبة أوطاننا وتقدم بلادنا وان يجمع البلاد بقاءه
حضرة خديويتنا المعظم أيده الله »

فرد عليه سلطان باشا شكراً للوزارة انها اجابت طلب النواب. ثم توجه النواب
الى الخديوي وشكروا له تأليف الوزارة التي لبث طلب الامة. وأقيمت لذلك احتفالات
في كثير من انحاء البلاد

وفي ٢ فبراير صدر أمر عال بان نيابة اعضاء مجلس النواب المجتمع اذ ذاك تمتد
الى خمس سنوات ابتداء من يوم عقده وبذلك صار مجلس شورى النواب هو نفسه
مجلس النواب الذي نص عليه في اللائحة الاساسية

وصدر مع هذا الامر أمر ثان بان يبقى سلطان باشا في رئاسة مجلس النواب
خمس سنوات .

وأمر ثالث بان انتهاء اجتماع المجلس في هذه السنة يكون في ٢٦ مارس
سنة ١٨٨٢

وعقد المجلس بعد ذلك أكثر من عشرين جلسة ما بين ٦ فبراير و ٢٦ مارس
فنظر في جملة غير قليلة من شؤون الزراعة والتعليم والرى والصحة وغيرها. وقدمت
له الوزارة مشروعاً لقانون الانتخاب الذي ينتخب على أساسه مجلس النواب فبحثه
وعدله فيه ما عدله ثم صدر قانونا في ٢٥ مارس وهذا أهم ما يشتمل عليه :

« بحق الانتخاب لكل مصري من رعايا الحكومة المحلية سواء كان مولوداً
في مصر او متوطناً أقام فيها مدة لا تنقص عن عشر سنوات على شرط ان يكون
بالعاقبة العمر احدى وعشرين سنة كاملة وان يدفع للحكومة من مال الضرائب
او الرسوم المقررة أيا كانت ما يبلغ خمسمائة قرش اميري في السنة — (مادة ١)

ثبتت حق الانتخاب لمن يأتي ذكرهم ولولم يكن عليهم المبلغ المقرر وم أولاً
العلماء الحائزون رتبة التدريس او المشهورون بصفة العالمية . ثانياً القسس وسائر

الرؤساء الرومانيين من المسيحيين . ثالثا حاضرات الاسرائيليين . رابعا المدرسون في المدارس المصرية والمكاتب الاهلية والحائزون للشهادات من المدارس المالية . خامسا ارباب الوظائف الملكية سواء كانوا في الوظائف او متقاعدين ، سادسا ضباط العسكرية سواء كانوا في الخدمة او مستودعين او متقاعدين ، سابعا وكلاء المرافعات (الافوكاتية) المقبولون في المجالس النظامية . ثامنا الاجزالية والاطباء والمهندسون .

(المادة ٣)

يكون لمصر مائة وخمسة وعشرون نائبا (المادة ٦)
ينتخب الذين لهم حق الانتخاب في كل دائرة واحدا من كل مائة منهم على شرط ان يكون بالغا من العمر محمسا وعشرين سنة بالاقل والذين يقع عليهم الانتخاب على هذه الصورة هم الذين ينتخبون النواب (المادة ٣٣)
يصح انتخاب كل شخص بلغ من العمر محمسا وعشرين سنة فا فوق ايا كان محل توطنه في مصر على شرط ان تجتمع فيه الصفات المطلوبة في حق الانتخاب ويكون ساريا عليه احكام قوانين البلاد بما فيها القرعة العسكرية ويكون عارفا بالقراءة والكتابة معرفة كافية - (المادة ٦٧) - «

احتياج المراقبين

وكان من الجلي الا يرضى المراقبان الاجنبيان عن هذا النظام الجديد لان خضوع النظار للمسئولية امام مجلس النواب واعطاء هذا المجلس حق المشاركة في تحرير الميزانية ينتهكان الحكومة المصرية من بعض السيطرة التي كانت للمدرك المراقبين وبمقدان لها سبيل الاستقلال . ولهذا ما كاد المراقبان يعلمان ان اللائحة الاساسية صدرت حتى احتجا عليها في خطاب طويل رفعاه الى الحديو^(١) وعما فيه ان هذا التفسير القوي حدث بانتقال السلطة من الحديو ونظاره الى مجلس النواب غير ملائم لحالة البلاد السياسية والاجتماعية . ثم اراد ان يحرض الحديو على المجلس قائلا انه قضى على سلطته وحملها كما مهلا وانت النواب صاروا يمزقون الوزراء ويمسئونهم . الى ان قالا :

« ولقد كن المصدر الوحيد لتأييد قواا الادية شخص الحديو والوزراء أما

الآن فلا بد أن نصير هذه القوة وهمية مع الوزراء الذين انتقام نواب البلاد
ورؤساء الجيش »

ثم ادعى ان قبول وزارة محمود سامي ما قبلته « انهالك الحرمة نفوذ انجلترا
وقرنا ». وأخيراً اندرا بأن استقلال الحكومة المصرية عن سيطرتها سيذهب
بالاصلاحات كلها صد أن نوطدت أركانها في السنتين الماضيتين

اذن كان هذا الاستقلال كل ما ينضب المراقبين وحكومتينهما ، ولكنه كان
أيضا كل ماسى اليه مجلس النواب بعد ان رأى الخطر محيما . وليس في الدنيا عقل
سليم كان يطلب من المجلس أن يفرط في استقلال بلاده ليحجب هذا الغضب
ولم تصح حكومة محمود سامي لهذا الاحتجاج بأكثر من أنها ردت عليه وأكدت
لقتضي الدولتين ان حقوق الدائنين ستبقى مصونة وأن نظام المراقبة سيبقى محترما

انتهاء دورة المجلس

وفي ٢٦ مارس تقدم محمود سامي الى المجلس ومعه الامر العالي بإنتهاء دورة
المجلس فالتى كلمة قال فيها :

« ان المدة القصيرة التي اجتمعوها والاعمال الكثيرة التي باشرتموها تدل على شدة
ميلكم الى النجاح ورغبتكم في تقدم البلاد . وحيث ان هذا اليوم هو اليوم المميز
لانقضاء المجلس بمقتضى لائحكم الاساسية قد أتيت بالاصالة عن نفسي واليابة
عن اخواني لا أقدم لكم الشكر على مساعيكم المحمودودة وأرغب اليكم ان تشغلوا
أفكاركم في مدة الاستراحة بالمنافع العامة والمشروعات التي ستوضع في العام القابل
موضع النظر ليسهل تقريرها بالسرعة اللازمة . وهذا هو الامر العالي الكريم الناطق
بانقضاء المجلس على مقتضى القانون أقدمه لديكم والله المستول في توفيقنا جميعا »

ثم تلا الامر وبعد الفراغ من تلاوته تكلم رئيس المجلس فشكر الوزارة ودعا
الله أن يوفق النواب الى الخير والاتحاد . وانقض المجلس فلم يجتمع بعد ذلك لان
الانجليز احتلوا القاهرة فكان أول ما فعلوه بعد الاحتلال أن قسوا على الحكم النيابي
فبقى ممطلا الى أن اسنردته الامة في سنة ١٩٢٤

شهادات ذات قيمة

والآن ماذا فعل المجلس في دورته هذه ؟ وكيف كان تأثير وجوده في الحكومة
وقى البلاد ؟

انه اجتمع في ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ وانفض في ٢٦ مارس سنة ١٨٨٢ فالمدة
كلها ثلاثة أشهر انقضى منها شهر ونصف في انتزاع الدستور ونحويل الحكم المطلق
الى حكم نيابي . فالشهر والنصف الباقيان هما وحدهما الاذان كان فيهما صاحب سلطة
تحتسب عليه وهما الاذان انصرف فيهما الى أعمال الإصلاح . فاذا نحن سألنا كيف
كان تأثير وجوده في الحكومة وفي البلاد فيجب أن يكون مفهومنا أن وجوده وعمله لم
يتعدى هذه المدة القصيرة

كانت مدته قصيرة ومع ذلك اسمع ما يشهد به له الكتاب المنصفون والرجال
للشؤون . كتب ستر نيودور دوشتين (ص ١٥٦ من الترجمة) يذكر أعماله
قال :

« لم يكن ينتظر أن يعمل المجلس في خلال هذه المدة القصيرة عملا يذكر من
الوجهة التشريعية اللهم الا ازالة بعض فضائح الماضي الطاهرة لكل ذى عينين .
ومع ذلك كانت التطارات المختلفة اثناء هذه المدة تكسح في تهيئة مشروعات
الإصلاح لعرضها على المجلس في دور انعقاده القادم فكانت تعد قانونا جديدا
للاختصاص (١) وقانونا لمع السخرة ومشروع إصلاح المحاكم المختلطة التي آذت
الفلاحين فيما مضى أذى بليغا وآخر لانشاء مصرف زراعي وما الى ذلك من الأعمال
..... اما المجلس نفسه فكان اثناء ذلك مكابلا على فحص الماخذات والمعاقدات
للحامة والخاصة الميرمة بين الحكومة المصرية والحكومات الاجنبية ورعاياها وفي
مناقشة البطاري المساوي . المختلفة التي وصلت الى علمه وأهمها المساوي الخاصة بمسح
الاراضي الذي كان قد تم منذ ثلاث سنين تحت اشراف موظفين من الانجليز ولم يكن
له اثر ظاهر غير النفقات الباهظة التي ذهبت في شكل مربيات واجور وثققات انتقال
وغير ذلك . وقد اتهمى الامر في هذا الصدد بأن ألف المجلس لجنة خاصة لفحص هذا
الموضوع فازعج ذلك المساحين الذين قاموا بهذا العمل »

(١) تقدم ان المجلس بحثه وصادق عليه وانه صدر في ٢٥ مارس سنة ١٨٨٣

وكتب وزير فرنسا ميسودي فريسينيه في كتابه « المسألة المصرية » (ص ٢٤٩) يذكر المدة التي وجد فيها مجلس النواب وتولت الحكم وزارة محمود سامي تحت مراقبة هذا المجلس فقال :

« كانت ادارة محمود سامي صالحة نافعة الى حد لا بأس به واتقني شهر فبراير ومارس في راحة وهدوء. كذبا التنبؤات التي كان المراقبان الالمان قد توقعها (١) » وللهذه الشهادة الاخيرة من فريسينيه قيمة كبيرة لان صاحبها كان في ذلك الوقت رئيسا لحكومة فرنسا فكان واقفا على حوادث مصر وأعمال حكومتها ومجلسها النيابي يوما بيوم مطلقا على المخابرات السياسية التي كانت تدور حينذاك بين فرنسا وانجلترا ثم بينهما وبين دول اوروبا في موضوع المسألة المصرية ، فشهادته هذه للحكم النيابي وللحكومة الدستورية في سنة ١٨٨٢ لاتعد لها شهادة

فلو أن انجلترا تركت مصر وشأنها لتركها فيها هذا البات الطيب ولعاشت به في رغد وراحة بال، ولكنهما لم تتركها لان غامبتا كان قد استقال وخلفه دي فريسينيه ، وكاتب هذا عدوا اللوثين في مصر (٢) فرأت انجلترا أن الجور خلا أمامها وأن الفرصة التي كانت تنتظرها سحبت فضت تدس الدسائس وتصب الخيائل في مصر واوروبا حتي صربت الاسكندرية في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ ثم احتلت القاهرة في ١٤ سبتمبر من السنة نفسها. وقد تقدم انه لما اربكت مصر يد يون اسماعيل كتبت التيمس في ٢٩ يناير سنة ١٨٨٦ تطلب بسط الحماية البريطانية عليها . وتقدم أيضا ان عامبتا ما كان يريد بمذكرة ٧ يناير سنة ١٨٨٢ غير احتلال مصر وانه كان يعد القوة اللازمة لذلك بينما كان يكتب تلك المذكرة . فضيف الى هذا وذاك ان قهرل

(١) هذا هو نص عبارة دي فريسينيه بالفرنسية :

L'administration de Mahmoud fut assez bienfaisante , les mois de février et de mars s'écoulèrent dans une tranquillité qui donnait un démenti aux prévisions des contrôleurs généraux.

(١) كان فريق كبير من نواب فرنسا يرون في ذلك الوقت أنه لا يزال على بلادهم ان تضمد جراحها التي خرجت بها من حربها مع ألمانيا في سنة ١٨٧٠ وأن اشترى كما مع انجلترا في عمل مسلح في مصر يخلق بينها وبين انجلترا نائفا لعداوة وأن ذلك يضرها في موقفها أمام ألمانيا وهذه هي السياسة التي جرى عليها دي فريسينيه

قرنا العام مسيو سينكويكز كان بين ديسمبر سنة ١٨٨١ ومارس سنة ١٨٨٢ بكتب الى حكومته فيذكر التدخل المسلح ويقدر القوة اللازمة له بأربعين ألف رجل^(١)، ووقن للتفاوضات السياسية التي كانت تدور بين الدول في سنتي ١٨٨١ و١٨٨٢ بشأن **مسألة المصرية** وكانت تتردد فيها كلها تقريباً كلمة « العمل في مصر » وكيف يكون ومن يمكن يكون . فالعزم على هذا « العمل » كان قديماً ظهرت بوادره من اليوم الذي اُرتبكت فيه المالمية المصرية وتجمست اعراضه في المراقبة الشاية وفي النظارة الادوية . وما كانت انجلترا تنتظر أن يوجد مجلس النواب للعمل وإنما كانت تنتظر أن تخطي لها فرنسا الطريق

ومن ذا الذي يرى تمتع الامير السيمور في خلق الاعذار لضرب الاسكندرية ولا يحكم بان هذا الضرب لم يكن لانه كان في مصر مجلس نواب ولا لانه كانت فيها حركة وطنية بل لان الاحتلال كان غرضاً مقصوداً

والله

هذا هو تاريخ الحياة النيابية في مصر الى سنة ١٨٨٢ أى الى الوقت الذي يقف عنده كتاب مسر بلنت . وقد لا يجاوز هذا الحد كثيراً اذا نحن أضفنا اليه أن الحكومة البريطانية أرسلت اللورد دوغرين الى القاهرة في نوفمبر سنة ١٨٨٢ ليضع للحكومة المصرية النظام الذي يتفق مع وحود الاحتلال فجاء وكتب تقريراً أشار فيه بالتاء دستور ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ وانشأ هيئتين هما الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين تعين الحكومة قريفاً غير قليل من اعضائهما ويكون رأيهما مع ذلك استشارياً فانشئت هاتان الهيئتان ورجعت مصر بذلك الى أسوأ مما كانت عليه حينما أنشئ مجلس شورى النواب في سنة ١٨٦٦ لان اعضاء هذا المجلس كانوا على الاقل متخفين . وخيل الى انجلترا أن الروح الوطنية ماتت بعد الاحتلال وان مصر الضعيفة لن تستطيع حراً كما تحت ضغطها الشديد تخاف ظلتها هذا وهبت مصر بعد قليل لا لتطلب الدستور وحده بل لتطلب الدستور والاستقلال . طلبتهما على لسان

مجلس الشورى والجمعية العمومية غير مرة ، وعلى لسان صحافتها دائما ، وعلى لسان
 احرابها السياسية جميعا ، فعدل نظام محاسن المدرجات في سنة ١٩٠٩ ثم أنشئت الجمعية
 التشريعية بدل مجلس الشورى والجمعية العمومية سعيا الى استرضاء ذلك الطلب .
 ولكن هذا لم يكن الاستقلال ولا الدستور فبقى الطلب على حاله ونقى غضب النفوس
 بزداد ويتجمع الى ان انفجر في سنة ١٩١٩ فكان ثورة لم تعرف مصر أعنف منها
 من قرون وقرون . واشتدت انجلترا الى البطش فاشتدت مصر في المقاومة الى ان
 انجلت الحركة في اول سنة ١٩٢٤ ، وبعد خمس سنوات من تضحيات لانحصى في
 الارواح والانس والاموال ، عن الدستور نظاما للحكم ، فلم تأخذ مصر به جديداً
 وانما استردت ما كان لها في سنة ١٨٨٢ وما طلبته فأوشكت أن تناله في سنة ١٨٧٩
 وعطلت انجلترا الحكم النيابي مرة أخرى في سنة ١٩٢٥ وسلطت على مصر
 كل قوى الارهاب والكيد عسى ان تصرفها عن الدستور ، فصبرت مصر للصلال
 عاما ونصف عام ثم خرجت طاغرة بالدستور .

واليوم ها هو الدستور قد عطل مرة ثالثة في ١٩ يولييه سنة ١٩٢٨ فمن ظن انه
 مستطيع ان يحجوه من قلب مصر أو أن مصر تعبر طويلا على تعطيله فهو متعام عن
 ماضيها هذا الطويل في طلبه

٢٤ ديسمبر سنة ١٩٢٨

عبد القادر حمزة



مقدمة للمؤلف

عن نشر الكتاب في سنة ١٩٠٧

مذ ان وضعت المقدمة الموجزة السالمة الذكرك حدثت أمور نذل علي ما يظهر على أن الساعة التي تكهنت بها قد حانت أخيراً فأصبح من مصلحة الجمهور وبدون أى خطر يشأ عن عدم التحفظ حيال الافراد أن تعلن الحقيقة بنهما أمام العالم .

ففي عام ١٩٠٤ روجعت مسودات الكتاب الاصلية مراجعة تامة وصيغ القسم الخاص منها بمصر من حديدى طرودف نزيد كثير من أهميته التاريخية . وذلك ان صديقي القديم الشيخ محمد عبده الذى ذكر اسمه كثيراً فى هذا القسم اتخذ له داراً خلوية بالقرب من ضيقتي المسماة « الشيخ عبيد » بالمطرية واذ ذاك رأييتي مشتبكا بمحادثته فى كل يوم وهي فرصة نادرة لم أضيعها سدى . فهذا الفيلسوف العظيم — الذى نجعنا الدهر بوفاته فى الاسكندرية فى ١١ يولية سنة ١٩٠٥ وهو يوم الذكرى الثالثة والعشرين لضرب هذه المدينة بالقنابل — بعد أن عيس له الزمان طويلا بلمع فى سنة ١٨٩٩ مرتبة رفيعة بان صار مفتياً للديار المصرية فخطر له وقد أصبح حاصل على ذلك النفوذ الكبير بين مواطنيه أن يروى لهم قصة حقيقية عن الحوادث التي وقعت فى عصره ، تلك الحوادث التي أصبحوا يسيئون فهمها والتي أحاط بها من الحرافات والاباطيل ما يبعد عن الحقيقة بعد السماء عن الارض

ولطالما حادثني فى ذلك الصدد وأسف لعدم وجود فراغ من الوقت لاتمام ذلك العمل التاريخي . فلما أخبرته بمذكراتي الخ علي فى نشرها وقال إذا لم يتيسر النشر بالانجليزية فلننشر على الأقل بالعربية بمساعدته . ثم تعهد بمراجعتها معي ليتأكد أن القسم الخاص بالحوادث التي يعرفها قد روى بدقة تامة . وقد لبثنا منذ أول زيارة لى لمصر صديقين حميمين وجليعين سياسيين ولما كانت حديثه ملاصقة لحديثي كان من السهل أن تتناول ذكرياتنا الرجال والحوادث التي عرفناها . وهذه الطريقة أخذت أريج الحقة التي أهم كلاما شكله الختائى . وقد

أسعدنى الماظر بأعلامه والموصول منه على الترخيص بطبعه قبل أن يقضي موته الفجائي على المسع الوحيد للمعلومات عن الحركة السياسية التي أدت الى ثورة سنة ١٨٨١ وعن الدساتير التي عاقمتها في السنة التالية

وقد كانت وفاته حسارة جسيمة بالنسبة الى أيضاً، وأحرقت الى أنحل عبر مسمي نشر هذا الكتاب باللغة العربية . لا بل ان ما وقع من المواقف الى هذا العام جعل الوقت غير ملائم من الوحة السياسية لنشر الكتاب باللغة الانجليزية . بيد أن حوادث سنة ١٩٠٦ وانسحاب اللورد كرومر من المسرح المصري غيرا الموقف تغييراً كلياً حتى صرت أرى أنه لا ينبغي لي التردد أكثر من ذلك . ان واحي نحو مواطلي على الاقل يقضي بالمبادرة . ونحن معاشر الانجليز نجد أنفسنا اليوم — من حيث معاملتنا مع مصر — إزاء نفس المشكلة التي أخطأنا فيها وحلطنا فيها ذلك الخلط الفاحش منذ حيل ، فإذا كلن المسئولون عن تسيير دفة أمورنا العمومية يريدون — كما قلت في المقدمة الاولى — « أن يعيدوا النظر من جديد في مركزهم السياسي والادبي في وادي النيل » بأمانة ولقائفة المجموع فينبغي قبل كل شيء أن توضع أمامهم المواقف الهامة على حقيقتها لا كما صورتها لهم طول هذه المدة الوثائق الباطلة الواردة في الكتب الرسمية الزرقاء . ولا اظن اني مبالغ اذا قلت أن المواقف التي وقعت في مصر منذ خمسة وعشرين عاماً لا يعرفها بالدقة اللورد كرومر نفسه ولا السير ادوارد غراي بل ولا السير الدون غورست خليفة اللورد كرومر . وهذا بالرغم من اعتراف اللورد كرومر اعترافاً متأخراً بأن حركة سنة ١٨٨١ كانت حركة اصلاح وبالرغم من ثنائه المتكرر على الشيخ محمد عبده كما هو مذكور في تقريره السنوي الاخير . ويجب أن نذكر هنا أن اللورد كرومر لم يكن في مصر في خلال أى دور من أدوار الثورة العرابية وانه كل الى عهد قريب يظن أن « الحقيقة الرسمية » هي وحدها الحقيقة الواقعة

لهذا السبب عولت نهائياً على نشر هذا الكتاب وأثمت فيه نصوص مذكرة اني بالصيغة التي أتممتها بها في عام سنة ١٩٠٥ . وقد أقرها صديقي الاستاذ فيما عدا بصع فقرات موحزة يستحسن عدم نشرها لانها ماسة لشخصية أفراد

لا يزالون على قيد الحياة . وهي فقرات يمكن الاستغناء عنها دون أن تؤثر في قيمة الكتاب التاريخية . وبممكن أن أقول باخلاص اني جعلت نصب عيني في كل ما كتبه ما كشف الحقائق كما عرفها مبتعياً بذلك اصلاح الاباطيل التاريخية

وإذا كان ثمة سبب آخر يحملني على النشر فهو راجع الي وعد قديم أعطيته علناً في « مجلة القرن التاسع عشر » في عددها الصادر في سبتمبر سنة ١٨٨٢ وتعدت فيه بأن أتمم يوماً ما دفاعي الشخصي عن الحوادث المعاصرة لي ، وذلك أني في سبتمبر سنة ١٨٨٢ راعيت حاطر المسر علاستون وأملت أن يصلح حتى في تلك اللحظة المتأخرة الخطأ الذي ارتكبه ضد الحرية في مصر . فأمسكت — في وجه مطاع عديدة لا طفر لها — عن تهرئة نفسي وإراحة السار عن الامور الخفية التي كانت تهرز أعمالي . لأنه لم يكن في الاستطاعة أن أبرى . نفسي تماماً دون أن أديم حقائق تعتبر سرية من الوحية العية ولذلك آثرت السكوت .

يبد أن هناك حدوداً لأوجب الصبب الذي يلزمه الانسان حيال مسلك الرجال الصوميين في الامور العمومية . واني لوائق من ان احجائي نحو ريع قرن سيكون شعبي لدي المصنفين ادا هم رأوني الآن ألماً الى الطريقة الوحيدة الممكنة في سبيل الدفاع عن نفسي وهي كشف الستار بالتفصيل عن رواية الدسيسة المألية والصعب السياسي كما مثلت أمامي وقتئذ مع تقريرها بالوثائق المعاصرة التي ما زالت في جدارتي . فاذا مست نصري بأن هذه بعض ذوي الحيليات فجوابي هو أن عدم صراحتهم هو الذي حثني على التكلم ، اذ في خلال هذه السنين الطويلة لم يتقدم للدفاع عني ولو بكلمة واحدة شخص ممن عرفوا الحقائق معرفة تامة



الفصل الاول

مصر في عهد اسماعيل

كانت زيارتي الاولى لمصر في شتاء سنة ١٨٧٥ — ١٨٧٦ حيث قضيت بضعة أشهر منتقلاً في جهات النيل الادني . وقبل أن أشرح هواحيي في هذه المرة الاولى التي تعرفت فيها بالمصريين بحسن ، خدمة لهم وخدمة للقراء الاحاب على وجه الصوم ، أن أقول كلمتين عن حياتي السابقة من حيث علاقتها بالشؤون العامة . وبذلك يستطيعون أن يعرفوا موقفي بين أداء وطني بالضغط فيساعدكم ذلك على أن يفهموا كيف اني بعد ان كنت مجرد مشاهد لما يحدث في بلادهم أصبحت تدريجياً أهم بلادهم سياسياً الى ان كل لي في النهاية صلح كبير في الثورة التي حدثت في مصر بعد مرور ستة أعوام على تلك الزيارة . ومع اتني وقت هذه الزيارة لم أكن أتحاوز الحصة والثلاثين ربيعاً قاسي كنت قد رأيت الشيء الكثير سواء فيما يختص بالرجال أو بالشؤون العامة .

بدأت مبكراً في الحيساة ، ونظراً لانتسابي لاحدى الاسر ذوات الصياع في جنوبي انجلترا وذوات التقاليد المحافظة الشديدة ، ثم نظراً لانني كنت على اتصال بزعماء المحافظين في ذلك العهد ، أدخلت في سن الثامنة عشرة في الخدمة السياسية أولاً بصفة ملحق بالوكالة الانجليزية في أثينا حيث كان « الملك أوتو » لا يزال على عرش اليونان وظللت فيما بعد — لمدة اثني عشر عاماً — منتقلاً بين الوكالات والسفارات الانجليزية في طول اوربا وعرضها فتعلمت بعض الشيء مما يختص بعمتي وقضيت الوقت في اللهو وانحساذ الاصدقاء . وهكذا أقمت فيما بين عامي ١٨٥٩ و ١٨٦٩ بضعة أسابيع في الاساتنة على عهد « السلطان عبد المجيد » ثم لبثت عامين في ألمانيا أيام كانت لا تزال مجموعة من ولايات منفردة ثم عاماً في اسبانيا أثناء حكم « الملكة ايزابيل » و عاماً آخر في باريس أيام بلغ « الامبراطور نابوليون الثالث »

قوة المجد والعظمة كما أمنت ربحاً قصيراً من الرمن في سويسرا وفي أميركا
الحوية وفي البرتغال . وقد كراتى السياسة عن هذه اللاد لذينة ولكن ليس لها
أمية خاصة فصلا عن أنها حالة من كل أهمية سياسية

وفي السوات التى أعقبت حرب القرم كانت سياستنا الأنجليزية التى أعصت
اليالين ما الى المحازقات الاجبية على العكس مما أصعت عليه بعد
ذلك . فقد كان قوامها السلام ونجى العدوان والترفع عن المكروا الخث اللدن
أحرر لها شهرة الذلهام والفته على حساب الشرف والامانة . ولتحسن الرسمي
لم يكن مرغوا فيه فى الخدم العمومية فصلا عن ان فصيحة أى سبامى حديث
السن فى بطر وراة الخارجية كانت لأمتاح الى أكثر من توحى سؤال جديد
بشكل يتطلب الجواب العلى . وقد أهمتنا وراة الخارجية ذلك بمن معاشر
الملحقين وصفار السكرتيرين بصراحه تامة كما أنها حظرت علينا التدخل فى سياسة
أى بلاط أرسلنا لتمثيل بلادنا فيه . بل لمدطلب اليا أن نجعل أنفسنا مرضياً عامن
الوجهة الاجتماعية وأن تقضى الوقت فى اللهو — باحتشام اذا أمكن — ولكن شكل
غير جدى على كل حال . ولا أكون مبالفا اذا قلت اننى فى طول الاثنى عشر عاماً
التي سلختها فى الحياة السياسية لم يطلب الى مرة تأدية أى واجب دى قيمة سياسية
ولو طفيفة . فهذا النظام المشبط للمزام زهدنى — أثناء وجودى فى الخدمة — و
السياسة ، فلم أشتغل بها ولم أهم بها اهتماماً جدياً الا بعد ذلك بفترة طويلة وفى
ظروف مختلفة جاءت كلها عن طريق الاتفاق . وكانت أعمالى بصفتى ملحقاً
منحصرة فى اللهو والاختلاط الاحتماعى والادب . فنظمت اتصائد وكتبت الرسائل
وساعدت سياسياً فى احدى الروايات الجديدة التى حدثت فى أوربا وقتئذ
ولكننى فعلت ذلك بصفتى مشاهداً لا بصفتى ممثلاً ، أى كرجل ممن لا يسمح لهم
بالاطلاع على ما ورله السار . وعند اقترافى فى سنة ١٨٦٩ الذى أعقبته وفاة
شقيق الابرو وصبرورتنى الوارث الوحيد لاملاك الاسرة فى مقاطعة مسكس ،
اعتزلت الخدمة العمومية عبر آسف والتفت الى بعض المسائل الخصوصية التى كانت
أهميتها عندى تفوق كل شىء آخر

ومع ذلك ظلت علاقتي المبكرة بورادة الخارجية — ولو انها لم تكن لتحدد مرة أخرى بعضه رسمية — قائمة علي أنس من الصداقة . وحسبك انها علاقة رحل اعزل الخدمة بشرف . وقد أفادني فيما بعد هذه العلاقة مضاعفا اليها تجاربي في البلاط الانجليزي والعواصم الاجبية فائدة لا تقدر عند ما رأيت نفسي مرة أخرى مدفوعا بطريق الاتفاق في تيار الشؤون الدولية . فبواسطتها حصلت علي معرفة أداة السياسة الخارجية معرفة دقيقة . وأصبحت علي اتصال بالاشخاص الذين كانوا يديرون هذه الاداة . وكان لي أصدقاء عديدين بين هؤلاء الاشخاص وبذلك رأيتني في مبدأ حياتي العامة تجمعني الصداقة الرسمية « بالورد كرى » الذي ظل عدة أعوام يدير دفة السياسة في وزارة الخارجية و « بالسير هيرى درموند وولف » و « بالسير فرانك لاسل » و « بالسير ادوارد ماليت » و « بالورد دوفرين » و « بالورد فيفان » و « بالسير ريفر دلسون » وكلهم كان لهم صلح في تكوير التاريخ المصري فيما بعد . و « بالورد ليتون » الذي صار حاكما عاما للهند في الصين الى سبقت أزمة سنة ١٨٨١ مباشرة . كما ارتبطت الصداقة بيني وبين بعض الساسة الاجانب ومهم « المسيو بيلدوف » سفير روسيا في الاستانة و « البارون هبرلي » رئيس وزراء النمسا المتوفى و « المسيو دي ستال » سفير روسيا في لندن لمدة ٢٠ سنة . قبل زيارتي الاولى لمصر بزمان طويل كانت صداقتي مع جميع هؤلاء الرجال صداقة متينة . فاذا تكلمت عنهم وحكمت عليهم فأنما أتكلم عن دراية تامة بأخلاقهم الشخصية جميعا . ونظراً لانني كنت كأني أحد رجال الكهنوت لم يحز علي بسرعة الرياء ، والتفاق اللذان كانا من السلع التجارية المضادة في سوق السياسة ولم انخدع في عمل من الاعمال فأحسبه سياسة عمومية وهو في أغلب الاحايين سياسة شخصية . ولا يخفى ان الاعتقاد السائد بين الذين ليس لهم تجارب فردية بأعمال السياسة (دبلوماسيكا) هو ان الاوارث العظيم في تاريخ العالم نتيجة التنظيم السياسي المتقن وليست ، كما هو الواقع فعلا في كثير من الاحوال ، مرتبة علي مصائدات غير متطرة وعلي شجاعة أو ضعف — وأحيانا علي ميل شخصي — لدي الاعوان الموهوب منهم القيام بعمل من الاعمال

ففي خلال السنوات الاولى التي أعقبت اغترالى الخدمة شملت نفسي
 يتخوف الداخلية. ولم يكن الا على طريق الاتفاق - كما قدمت ابنى بدأت أهتم
 بالسيلة . واذا رأيت سبي في سنة ١٨٧٣ مهوك القوي ، وفراراً من تحمل
 فصل الربيع الذي بدأ متأخراً في انجلترا ، قررت أن أقوم أنا وقرينتي بأول
 سيلة مشتركة لنا في البلاد الشرقية . فذهبنا على طريق بلغراد والدانوب الى
 الاسنانة حيث وجدنا (السير هري اليوت) في السفارة . وهالك جددنا تعارفنا
 بالاصداق. الآخرين المتصلين بها ومن بينهم (الدكتور ديكسون) الذي سألتكم
 عنه فيما بعد بمسألة مصرع السلطان عبد العزيز والذي عالمي بشققة تامة في نوبة
 شديدة من نوبات دات الرقة والذي أصبحت أشعر نحوه بميل كبير . وكانت
 الامبراطورية العثمانية تتمتع وقتئذ بفترة هدوء نسبي قبل العاصفة التي قدر أن تهب
 عليها بعد ذلك فلم أحفل كثيراً بتاعها الداخلية ولكن عواطفى كانت في ذلك الوقت ،
 ككل عواطف عالية الانجليز وقتئذ ، مع الانراك لامع المسيحيين العثمانيين . وبعد
 البلالي من المرض ابتعت ستة براذين في سوق الخيول بسلامبول ثم عبرنا معها الى
 السكودار حيث قضينا ستة أسابيع لذيذة من فصل الصيف متقلين بين التلال وبحقول
 المشحاش الاناضولية بعيداً بقدر الامكن عن الطرق المطروقة . ورأينا في ذلك
 الوقت من حياة الزيف التركية بقدر ماسمح به حملنا التام بلعة البلاد . ولاحظنا
 - كما لاحظ جميع السياح - طيبة الاهال وأمانتهم وسوء حكومتهم . والذي
 جعلنا نلاحظ ذلك سلوك رجال الضبطية الموكلين بحراسنا نحو الاهالي فانهم كانوا
 يعاملونهم كما لو كانوا جنوداً أجنبية أعارت على البلاد .

ومع ذلك تبينا ان تركيا الريفية كانت بالرغم من كل هذا الارهاق المالي
 تتمتع بفسط كبير من الحرية الشخصية كالحرية الموحودة في انجلترا المسكنة
 بشرطتها وأموريتها . والمثيقة ان الشبكة الادارية أياها ذهبت في الشرق وجدتها
 واسعة الثقوب كثيرة الخروق بحيث نستطيع صفار الاسماك الافلات منها ولا يسمع
 الانسان في الاوقات العادية باصطهاد الفقراء والمعوذين . واني لاذكر حكاية
 قصصتها على الفلاحين الذين حاولوا يشكون الى بواسطة الترجان الارمني بالمجدونه

من تشدد الحكومة في معاملتهم . فقد أجبرتهم ان تمة بلاداً أسوأ حالاً من بلادهم
 بحيث اذا روى أحد الافراد في تلك البلاد ليلاً في منخرج إحدى الطرقات بجمع قليلا من
 الاحطاب لطهي طعامه عرض نفسه لخطر الوقوف امام القاضي في اليوم التالي بل للدهاب
 الي السجن . واني لا ذكراً جيداً ان سامي أبوا أن يصدقوا وجود مثل هذا الاستناد
 في أي بلد من بلاد العالم وكان الاستنتاج الذي وصلت اليه من هذا الامادة البسيط
 أول خاطر سياسي اتذكروه بالنسبة للاشياء الشرقية

أما الشتاء التالي — أي الأشهر الأولى من سنة ١٨٢٤ — فقد قصصناه في بلاد
 الجزائر . وها اشتراكنا في منظر آخر حولنا فرصة للتفكير ، وهو منظر استناد
 شعب شرقي استعباداً عيباً بواسطة شعب غربي . فان الحرب السبعية التي حررت
 منها فرنسا أغتبتها ثورة عربية في بلاد الجزائر امتدت ألسنتها حتى بلغت
 أطراف العاصمة نفسها وعدت تبدأ الاهالي المملون بحروب عن وسائل القمع
 المسيحية . وقد ظهر هذا القمع باشع مظاهره في الخهات التي امتدت الثورة اليها
 أي في المستعمرة ا قيقية حيث انتهزت الادارة الملكية فرصة اشتعال الثورة لمصادرة
 أملاك الاهالي والتجيز للمستعمرين الاحاب على حساب أصحاب البلاد . وبالرغم
 من حبي الشديد لفرنسا (وقد كنت مقبياً في باريس خلال الحرب السبعية وكنت
 شديد التحمس في الدفاع عنها أثناء الحصار) رأيت عواطي كلها في صف
 العرب . أما في الصحراء — فيما وراء حلال الاطلس — حيث ساد الحكم العسكري
 فقد كانت الاحوال أحسن نوعاً لان الضباط الفرنسيين هناك كانوا على العموم
 أكثر تقديرأ لصفات العرب النبيلة وأشد احترامأ للحنالة المختلطة الاوربية —
 الاسبانية والايطالية والمالطية والفرنسية — التي تتكون منها « الجالية » . كذلك
 كانت القسائل الكبرى في الصحراء في حالة رخاء مادي ومحفظة بقسط كبير من
 غفر الاستقلال القديم مما لم يبع القادة العسكريين سوى احترامه . وقد احتلنا
 الطرات لأولئك الاعراب وهم في « جبل عمور » وأصرنا طريقهم القوية في
 الحياة فسرنا كل ما رأيناه منهم . ثم أضعنا الى أعانيهم في استداح بطلمهم
 الراحل « عبد القادر » ، ومع أننا لم نعلمها نظراً لحملنا لهم فقد أعجبناهم

وأشققنا عليهم . ولم تقتنا ملاحظة العارق الكبير بين حياتهم الدينية
 تصحبهم جهالم وجيادهم ، وهي حياة تقاليد عالية مملوءة بدكرى أعمال البطولة
 وبين الأعطاش الاخلاقي الذي، للمستعمرين الفرنسيين وحاربهم ودور الحرة .
 كما أنار فينا ذلك المطر عاطفة العصب لصدم التأسق بين هؤلاء الاخبرين
 سادة البلاد وأولئك الذين يعتبرون خدماء لهم . وكان هذا بمثابة درس سياسي
 جديداً أثر في أشد تأثير ولو أنى طلعت اعتبره أمراً لاعلاقة له بشخصي بحال
 من الاحوال .

ذلك كل التدريب التحصيري في حياتي السياسية وتلك كانت طروفة
 الاساسية عند ما ورت مصر أول مرة كما قلت في شتاء سنة ١٨٧٥ - ١٨٧٦ .
 والمسألة الوحيدة الاخرى التي قد نستحق شيئاً من التفسير والايضاح وخصوصاً
 لغير الانجليز ، وهي مسألة ستقدها أوربا قدرها ، هي أن قرينتي «اللادى آن
 يلنت » التي صحبتني في سائر هذه الرحلات كانت حفيذة شاعرنا الوطني الطائر
 الصبت (اللورد بيرون) وبهذا ورثت عنه شيئاً من العطف علي قضية الحرية في
 الشرق وهو عطف ترك أثره في أعمالنا اللاحقة قد بدا لنا في أثناء وقوع حوادث
 سنة ١٨٨١ - ١٨٨٢ . ان مؤازرة الحركة العراية يعتبر عملاً مجيداً كالذي مات
 في سبيله بيرون في سنة ١٨٢٧ . ولم يدرب بخلد أحد منا نحن الاثنين حتى الآن —
 أى في سنة ١٨٧٥ — ان زيارتنا لمصر ستكون شيئاً غير مجرد رحلة للزيارة أخرى
 في بلاد الشرق . وكانت خطتنا عند مفادرة انجلترا أن ندخل مصر من الجنوب
 عن طريق سواكن وكسلا والتيل الادرق ثم نسافر شمالاً الى القاهرة فندخلها في
 الربيع . ولكن هذه الخطة لم تتحقق — نظراً لسير الحملة الحشية الذي كان وقتئذ
 لغير مصلحة مصر — ولم يتحقق سوى جزء واحد من الخطة الاصلية . فبدلاً من
 النزول في الاسكندرية كما كانت العادة المتبعة حينئذ دهننا من طريق القنال الى
 السويس حيث وطئت أقدامنا الاراضي المصرية أول مرة

وكل ما أتذكره وقتذاك عن مصر هو اختراقنا لبحيرة المنزلة في آخر يوم في
 سنة ١٨٧٥ — وكانت وقتئذ وطناً آمناً لطبور لا حصر لها — وهو منظر عجيب حقيقة

للحياة الطبيعية المسرية في طريقنا إلى نقطة واقعة على القارة شمالي الاسماعيلية . الله ما كان أنجح ذلك المنظر ! ان بحيرة المذلة كانت وقتذاك ان تكون منطقة غدرا . وقد دقت أسراب البشروش والبط والجمع وأي فردان التي غطتها كل ما يتصوره العقل عن كثرتها . بل ان المياه أيضا ، مياه البحيرات ومياه القناة نفسها ، كانت غاصة بالاسماك ذوات الحجم الكبير حتي أن سفيتنا اصطدمت بالعكبر منها أثناء احتيازاها البحيرة بينما كانت من جهة أخرى عرصة للزراة والاغربة التي كانت واقعة على العوامات والساربات تربصا بمرسئها . وأحسب أن انسياب مياه البحر أول مرة على أراض لم تكن من قبل مغطاة بالماء ممكن السمك من التمتع بترية ذات خصوبة شاذة وهذه مرية فات أوانها منذ ذلك المين ولكن الشيء الثابت هو أن السمك والطير أخذوا في التلاشي بعد ذلك بسرعة حتي أنه لا يجهل على ما يظهر أن تمتع أعين السياح ثابئة بالمطر البديع الذي شهدناه في ذلك الشتاء .

ثم زلنا في السويس في الايام الاولى من عام ١٨٧٥ فكلنا أول ما قابلنا بنا الانهزام الشنيع الذي نزل بالجيش المصرى في بلاد الحبشة . ولم تكن تفاصيل الهزيمة قد عرفت بعد ولكن بطهر أن سبع اورط أو فرق من جنود الحديد قد أيديت على بكرة أبيها وتناقلت الاسن اشاعة فخواها أن ابن الحديد - الامير حينما وقع في الاسر وان العدو شوهه تشويها . وهذه اشاعة ظهر كذبها فيما بعد لان الامير ، وكان صبيبا في ذلك المين ، خطف فقط من ساحة القتال في جهة (قور) في طليعة النهار قبل الانهزام كما حدث لنفس راتب باشا قائد الجيش المصرى الذى كان الامير في عهده . وقد (لورنج باشا) القائد الامريكى حياته فعلا مع بضعة آلاف من الجنود . وهذه الهزيمة أنهت أحلام الحديد واسماعيل في إنشاء امبراطورية شاسعة الاطراف على ضفاف النيل . وأمرت هذه الهزيمة في خطتنا الصغيرة فجعلت سفرنا بطريق كسلا ضربا من المستحيل علينا وقصت بان نساقر عن طريق آخر أقل خطورة ألا وهو طريق الوجه البحرى وكنا شديدى الرغبة في رؤية مصر باقل كلفة مما براها به السائح العادى .

ونظر لأنه كانت لدينا الخيام اللزومة للرحلة الطويلة استأجرنا جبالاً في اسويس وقصدنا القاهرة عن طريق القوافل القديم . وليس من الضروري أن أقول شيئاً كبيراً عن رحلتنا في الصحراء . فالأيام الأربعة التي قضيناها فيها مع الجمالين البدو كانت أول درس علي لنا في اللغة العربية — لاننا في بلاد الحجاز كما نحت رحمة المرحوم — كما أنها وضعت أساس علاقاتنا مع القبائل في صحراء بلاد العرب ، وهي علاقات أصبحت فيما بعد لذيذة وممتعة . ثم وصلا إلى القاهرة في صبيحة اليوم الخامس

فندو وصولنا إلى العباسية حينئذ رصاصات الخنود المصرية وهي في أثناء التفرس لاننا ضربنا الخيام في الطلام وبدون علم منا وراء أهدافهم مباشرة . وكانت رماية الخنود غير محكمة فلم تحدث إصابة . ولم يخطر ببالنا وقتئذ أننا قد نهم يوماً ما بأفعال أولئك الخنود بصفتهم حينئذ أو أن تتجه اليهم يوماً ما عواطفنا في حرب طاحنة ضد مواطنينا . وكنت وقتئذ ممن يؤمنون ولكن في غير تحمس بالعتيلة الانجليزية الشائعة ألا وهي أن لانجلترا في الشرق مهمة مساوية وأن حروبنا هناك لم تكن الا من أجل أعراض تزيهة صالحة . ولم يكن شيء أبعد عن ظني من أن نكون نحن معاصر الانجليز مجرمين مانهلك حرمة العدالة بالسلاح لحرد أهواننا ومصالحنا الانانية

كما لا ينبغي أن أقول شيئاً بالتفصيل عن القاهرة التي اجتزناها ذلك اليوم دون أن نمكث فيها غير بضع دقائق للسؤال عن بريدنا في دار القنصلية . وكلن غرضنا أن نري الجهات الريفية لا أن نضيع الوقت في مدينة هي أودية في طريقة حياتها . وقد ظننا أننا سنجد فيما وراء النيل مباشرة أرضاً مواتقة فنضرب خيامنا فيها ولذلك واصلنا المسير ولم نهم بوصول الجمالين إلينا كي نخط الرحال ونذهبهم وجالهم يعودون إلى بلادهم كما لم ندرك أننا كنا نسيء اليهم بمحملهم علي تقص العادات المتبعة عند القبائل التي يحيط عليهم بصفهم من بدو الصحراء الشرقية نخطيها إلى الصحراء الغربية . وبالرغم من إلحاحهم واصلنا المسير عن طريق كوبرى قصر النيل ومن ثم

الى طريق الحبرة . وحينئذ لحنا الازهارات عن بعد فأمعنا نحوها بتلف واشتياق ولم ينعنا من ادراكها الا لاختفاء الضياء الذى خيم علينا وقت غروب الشمس بالقرب من قرية « الطلية » الصغيرة التى ليس بينها وبين الازهارات الا قرية أخرى . وهالك حططا الرجال أول مرة على تربة النيل السوداء . ولم تكن قد جفت بعد من فيضان الحريف . فابلنا أعالي « الطلية » الاجواد بكل اكرام كما هي عادتهم . ومع أنهم يعيشون فى طريق السائحين إلى الازهارات وقد اعتادوا أن يعاملوا السائحين الفرنسيين كما لو كانوا فريسة لهم فان نزولنا فى قريتهم قضاء سواد الليل أعطانا صفة الضيوف . ولم يحدث قط أن وقف بمنزلهم شخص واحد من جميع الاوربيين الذين مروا بقرتهم طول السنين الخالية . ولذلك كانت علاقتنا معهم ودية من بداية الامر . وقد خدمتنا هذه الصدقة فى تعريفنا إلى قرويين آخرين عند ما استأنفنا المسير من جديد بعد قضاء بضعة أيام بين هؤلاء . ولم يكن أماننا فى ذلك الوقت إلا للملك حيث كنا لابل الجالين رفضوا بنا ان مراقبتنا خطوة أخرى فدفعنا لم أجودهم قفولوا راجعين إلى ديارهم تصحبهم جملهم فعين علينا استنصار جمال أخرى . وعلى ذلك قضى القدر بأن أقصى الاسوع الاول فى مصر باحثا متنبأ عن الجمال فى أسواق القرى المجاورة ثم اشترى السروج والقربوساثر المعدات اللازمة لمواصلة الرحلة

وكن الفلاحون فى ذلك الوقت فى أشد حالات الضنك . وكان هذا هو العام الاول من الثلاثة الاعوام الاخيرة المروعة فى حكم الخديو اسماعيل . وكان المنقش اسماعيل صديق المشهور لا يزال فى أوج عزه وحمة القراطيس الاحانب بمجأرون مطالبين بدفع الاتساق « السكوبون » والمجاعة على أبواب الفلاحين . وكان من الامور البادرة فى تلك الايام أن يرى الانسان شخصا فى الحقول وعلى رأسه حمامة أو على ظهره شيء . أكثر من قبص . وحتى فى ضواحي القاهرة وبالأكثر فى الفيوم التى يمسها بوجوهنا شطرها بمجرد حصولنا على الجمال ، يمكنني أن أقول ان الحالة كانت كذلك . وكان بين مشايخ القرى قليلون يملكون عبادة . وأينا ذهب كانت

للألم كذلك . وعصت مدن الأرياف في أيام الأسواق بالنساء اللاتي أنس لبيع طلابهن وحلبهن النفية للرايين الأروام لان جامعي الضرائب كانوا في قراهن والكرباج مشهر في أيديهم . فابتعنا مصوعاتهن الزهيدة وأضغينا الى قصصهن ولشتركنا معهن في استئزال الثمات علي الحكومة التي جعلهن عرابا . ولم يكن هننا وقتئذ — أكثر مما فهمه القرويون أنفسهم — ذلك الصفط المالي الآتي من أوروبا والذي كلن السب الحقيقي في هذا الضيق . وعلى ذلك حاريناهم في لقاء اللوم كله علي اسماعيل باشا واسماعيل صديق دون أن يحارمنا شك في أن الانجليز أيضاً يقع عليهم جانب من اللوم

وكان القرويون في متحي الصراحة . وكان الانجليز وقتئذ محبوسين في سائر البلاد الاسلامية لان الناس كانوا يطوهم بعيد عن الدسائس السياسية المعروفة عن الفرنسيين وكانوا يعتبرونهم أكثر من هؤلاء أمانة وزاهة في معاملاتهم التجارية . وفي الواقع أن الانجليز كانوا في مصر علي النقيض مما كان المخاطرون من حثالة الام الواقعة علي شواطئ البحر الابيض المتوسط كسلفي النقود الطليان والأروام والمالطيين الذين كانوا يمتصون دماء الحياة من الفلاحين المسلمين . وكانت ثمة إشاعة بلفت القرية عن احتمال تدخل من جهة أوروبا وكانت فكرة التدخل غير مكروهة علي شرط أن تكون انجلترا هي التي تفعلها . وكانت الحالة مما لا يمكن احتمالها ولذلك كل الاهالي الجائعون ينظرون بعين الانبهاج لاي تغيير أملاني أن يكون فيه خلاصهم . وقد ظهرت انجلترا في نظر الفلاحين وهم في حالة تسول فعلي وبصد أن جردوا من أمصتهم وضربوا حتى كادوا يموتون جوعاً بمظهر الصابة المحنة والصدقة الفنية البعيدة عن الاغراض المنصعة للمطلوبين والصدقة للقبورين فكانت في نظرم صورة طبق الاصل مما كان عليه معظم السالحين الانجليز الذين كانوا يروحون ويضدون وقتئذ وأيديهم ووجوههم طالفة بعلامات العطف . وهكذا لم يحارمهم الشك في الاطاع التجارية الهائلة التي دفعتنا — كأمة الى اعلان العدوان علي الشعوب المستصعة في سائر انحاء العالم

وفي عام ١٨٧٦ كتأ أباً أيضاً كما قدمت — ممن يؤمنون بانجلترا كما

كنت أدبى بالعقيدة الدائمة وقتئذ عن حكمها في الشرق وكان حل ما آمنه
 لمصر أن تشترك مع الهند - التي لم أكن رأيها بعد - في التمتع بجماينا .
 وقد كتبت وقتئذ في مدكراتي مانصه : « إن المصريين شعب طيب أمين ككل
 شعب حر في العالم . نعم كل المصريين أي الذين لا يربعون في الوظائف العالية
 لأنني لا أعرف شيئاً عن هؤلاء . فكل المصريين القرويين لديهم كل الفضائل
 اللازمة لحمل الجماعة سعيدة ناعمة البال فهم عاملون مبنحون طائعون للقوانين ثم هم
 فوق كل شيء مستقيمون لا فيما يختص بالشروط الكحولية فقط بل في كل
 الملا التي تجمع إليها الطبيعة البشرية . فهم ليسوا مقامرين ولا مشاعين ولا محبين
 للدعارة والتهتك . وهم يحبون بيوتهم وزوجاتهم وأطفالهم . وهم آباء وأبناء صالمون
 كثيرو السمعة على العجاوات والزمي والمفلس والمفتوهين . وهم خلوا من كل
 تعصب جنسي وقد يكونون خلوا من التعصب الديني أيضاً . وغلظتهم الكبرى
 هي حب المال ولكنها غلظة يستطيع دهاقة الاقتصاد السياسي التسامح فيها . وقد
 يصعب أن يعثر الإنسان في أي جهة على شعب أكثر استعداداً من المصريين
 لإدراك الغاية الاقتصادية لا كبر سعادة تشمل أكبر عدد . فكل مطامعهم هي أن
 يعيشوا وبدعوا غيرهم يعيش وأن يسمح لهم بالعمل والاحتفاظ بنتائج أعمالهم وأن
 يبيعوا ويشترى بدون تدخل وأن يفلتوا من الضرائب . ولقد أسيتت معاملتهم
 وذاقوا الأمر من منذ قرون عديدة دون أن تتغير طيبة قلوبهم . وهم ليسوا
 بالتحسين في الوطنية ولا بالتصميم ولا بالانسياق إلى درجة الخيالات .
 ثم أنهم خالون من المعايير الشائنة فكل رجل منهم يعمل لنفسه أو لأسرته
 على الأكثر أما فكرة التصحية الشخصية للصحة العامة فغير مفهومة لديهم
 ولكنهم بريئون من الدسائس لاستبعاد أقرانهم . وبالرغم من الاضطهاد
 الفظيع الذين هم ضحيته لم نسمع كلمة ثورية وليس ذلك ناشئاً عن أنهم
 يقدسون حكمهم تقدسياً خرافياً بل لأن الثورة ليست في طبائعهم أكثر
 مما هي في طبائع قطع من الفم . وأنهم ليحبون ملكة احتلوا أو البابا أو ملك

صاتي بلهف منساو لو أن هؤلاء حاءوم نعمة تخفيض عبء الضرائب وبمقدار
قرش في الخفيه

تلك كانت خواطرى الاولى عن معر في بد. عام ١٨٧٦ وهي صحيحة في
مجموعها غير أنني كنت بعيداً عن نمو الافكار السياسية في المدن فلم أعرفه . كما
أتى لم أفهم تأثير المسألة الاوردية في المشاق التي كان الفلاحون يشكون منها . ومع
ذلك رأيت عند عودتنا الى القاهرة في شهر مارس شيئاً مما يجري وراء الستار .
لأن لجنة « المستركيف » كانت قد وصلت الى ايان قفينا وحطت رحالها في
لحد القصور الواقعة في شارع شبرا . وقد عرفت من أحد أعضائها « فيكتور
بكلي » الموظف بوزارة الخارجية والذي كان صديقاً قديماً لي ومن « الكولونيل
ستاونتون » قنصلنا العام شيئاً عن الشؤون المالية . وانضم الى أعضاء اللجنة المالية
فيما بعد صديق آخر هو « السير ريفر ولسون » الذي قدر أن يلعب دوراً مهماً
في الشؤون المصرية . ولست بحاجة لأن أثبت هنا تفصيلاً التقرير الذي وضعوه عن
حالة مصر . وقد يساعد على فهم الحالة أن أذكر بالاجمال كيف تألفت هذه اللجنة
التي هي الاولى من نوعها

فقد بدأ حكم الخديو اسماعيل في وقت بلغ فيه رخاء مصر المادي درجة
عالية . وكان سلفه سعيد رجلاً متنبهاً قدم للفلاحين كل ضروب التشجيع
في المسائل الزراعية . وكان قد تنازل عن دعوى الخديو في أن يكون وحده
مالك الاراضي في وادي النيل واعترف بحقوق الملكية للأهالي وقضي بان
تكون ضريبة الاراضي زهيدة أي ٤٠ قرشاً عن الفدان . فأدى ذلك الى رخاء
الاهالي بصفة عامة وأصبح الملاحون في كل جهة بعد تحريرهم من حالة العبودية
التقدمية التي وضعهم فيها باشوات الجراكية يدخرون الاموال . أي أن مصر في
نهاية حكم سعيد لم تكن فقط أسعد ولايات الامبراطورية العثمانية بل كانت من
الوجهة الزراعية في طليعة الام الباهضة في الشرق . وكان ابرادها كل أقل مما هو
الآن — لا يزيد على أربعة ملايين من الحيهات — وكان يجمع بمتهي السهولة

ثم كانت صفات الادارة زهيدة جداً وكان الدين الاهلي لا يتجاوز ثلاثة ملايين من احبيات . ثم أن سعيداً في أواخر حكمه منح امتيازات غير قليلة لبعض الأفاقيين الاحاب شروط أصبحت تدريجاً حلاً ثقيلًا علي عاتق الدولة ولكن الرخاء العام في البلاد كان كبيراً الي حد أن هذه الشروط مما يحتمله نظام الضرائب الخفيف حتى أن الخديو كان لديه بعد دفع سائر الصفات السنوية ما لا يقل عن نحو مليوني جنيه لمصروفاته الحرة . وفي الواقع لم تشهد مصر في جميع أطوارها مثل ذلك العصر الذي بلغ فيه الاهالي ذلك الحد من الرخاء المادي حتي أن الفلاحين أصبحوا يسمونه « العصر الذهبي » فكان اسماعيل عند تبوئه العرش في عام ١٨٦٠ أوسع الامراء المسلمين ثروة وحكماً في بلد يعتبر في مقدمة البلاد الاسلامية رخاء ويسراً

وكانت أخلاق اسماعيل قبل أن يتبوأ العرش أخلاق رجل واسع الثروة يقع في ادارة ضياعه الشاسعة في الوجه القبلي أحدث الانظمة الزراعية . وكان موضع اعجاب السائحين الاحاب بسبب الآلات الزراعية التي أدخلها والمصروفات التي جعلها تعود بالفوائد . ومما لا ريب فيه أن اسماعيل له أكثر من الصيب العادي من الذكا الطيعي والاستعداد التجارى اللذين اشتهرت بهما أسرة محمد علي . وكان اعتلاؤه العرش موضع دهشة له لأنه لم يكن ولي العهد المباشر الي ما قبل وفاة سعيد ببضعة أشهر وكانت آماله آمال رجل من . وربما كانت نفحة القدر هذه نفحة غير متظرة في أول حكمه هي التي دفعت الي الاسراف . واد كان مبالا بطبيعته الي المصاربة وشديد الشره في جمع الاموال فقد حسب -- علي ما يظهر -- أن ميراثه هذا وتمتعه الفجائي بهذا السلطان انطلق ليسا الا وسيلة لتكديس ثروته . وفي الوقت نفسه كان شديد العجب ولماً بالله فصاع صوابه بهذا المركز السامي والفرصة التي أصبحت سانحة له كي يظهر أمام العالم بمظهر الامير الواسع الثروة . وفي أال أحاط به الملقون على اختلاف أنواعهم من وطيس وأحان فوعده أن يحلوه من جهة أعبي المائيس ومن جهة أخرى أعظم الحكم الشرقيين شأنًا .

رحانه ذكائه ومهارته التجارية في اصفائه لهؤلاء الماصحين الذين جعلوه آله في
أبدتهم . وكلت قبل نبوته العرش قد حنق مهة جمع الاموال بالطريقة التي كانت
الاموال تجمع بها وقتئذ في مصر ثم انه كل قد تربى تربية أوربية — وهي من
نوع التربية التي يجرها الشرقيون في شوارع باريس — أي تربية سطحية فيما يختص
بالمورد المادية فكانت هذه التربية كافية لاقتناعه بمقدرته على مقاومة أشرار البورصة
بنفس سلاحهم . ولكنه لسوء الحظ ضل السبيل في كلا الجانبين .

وكانت مناورته الاولى بسيطة وناحضة في آن واحد . وذلك أنه وجد الاراد
المتجمع من ضريبة الاراضى قليلا فرأى أن يزيده برفع الضريبة بين آن وآخر فرفعها
من ٤٠ قرشاً على العدان — وهو المقدار الذي كان معمولاً به عند تبوئه العرش —
الى ١٦٠ قرشاً ولا تزال كذلك إلى الآن . وكانت البلاد في أوائل حكمه في
وحاء واتعاش واستطاعت في البداية أن تحمل ذلك العبء الإضافي أي أن الناس
كلوا يدفعون هذه الزيادة من الاموال التي زادت عن حاجتهم وقد استمروا على
ذلك بضم سنين دون أن يشعروا بفضاضة ما . بيد أن رفع الضرائب لم يكن سوى
جزء من برنامج اسماعيل الخشن . وقد ذكره مملقوه الوطنيون بان الاراضى برمتها
كانت في عهده ملكاً خاصاً للوالي وأن محمد علي طل إلى عدة سوات صاحب
الامتياز في نحرارة مصر الخارجية فحول على احياء هذه الحقوق في شخصه .
ومع أنه لم ينجح — في مواجهة الاحاب — على مصادرة الاراضى مصادرة
علنية فانه أدرك غايته من طريق آخر وبسرعة مذهلة حتي أن خسر الاراضى
الزراعية في القطر المصرى أصبح ملكاً له ولما بمض على حكمه سوى بضع
سنوات . وكان طريقه في ذلك الارهاب والضغط الى أن تبصع الاراضى
التي يريد اغتصابها عالة علي أصحابها ونضيق في وجوههم المسالك فيصطروا الى
التخلص منها بأيمان زهيدة . وقد حصل بهذه الوسيلة كما قدمت على أراض
شاسعة وظن أنها ستكون مصدر ثروة عظيمة له . ولكن حشمة هذا كان سبباً
في افلاسه فقد ظهر من الوجهة العملية أن أطباء لما كان من صفار الملاك كانت

ندار ادارة حسنة وعادت عليه ربح كبير يعكس هذه الاملاك الواسعة التي فتحت عليه أبواب الحسارة من عدة طرق . فعبثاً أنفق الاموال الطائلة في شراء الآلات الزراعية . وعثاً فرض علي قرى وحقات بأسرها إمداده بعالم السحرة . وعثاً أنشأ المصانع في أراضيه وحلب لها المدبرين الاحانب بمرتبات فادحة . وقد منه أعوانه في كل جهة الى حد أن المال الذي جمعه من هذه الاراضى كان أقل بكثير مما كان يحصه منها من الصرية عند ما كانت ملكاً للأهالى . وكانت هذه ما كورة متاعبه المالية لأنها صادفت هبوط أسعار المحصولات وخصوصاً أسعار القطن لحادث ضيقاً علي ائالة كما أنها كانت ما كورة افلاس الملاحين الذين أثقلهم بمختلف الضرائب عبر المظلة لسد عمره . وكان اسماعيل صديق المنش المشهور ساعده الايمن في هذه السياسة الخرقاء

ولم يرض غير قليل حتي أوقع اسماعيل نفسه في أيد أشد فتكاً ووعول في مشروعات أبعد خطر آمن مشروعاته السابقة . فانا اذا تركنا جانباً الاموال الهائلة التي بددها يميناً وشمالاً كأنها المياه علي ملاذه الشخصية، وحقاقتي بناء القصور ، وطيشه مع النساء الاوريات ، وخرقه في إقامة المفلات الملوكية ، اذاركنا كل ذلك حاسباً فانه كانت توحده الى جانب مشروعات أخرى عطية تكفي لاستئراف خزانه أية مملكة في العالم . فليس يعرف أحد بالدقة كم أنفق اسماعيل من الملايين في الاستانة للحصول علي لقب الخديوية ولتغيير نظام الوراثة لمصلحة ولده ، ولكن يحتمل أن يكون قد دفع مبالغ طائلة . وهذا عدا الاموال الجسيمة الاخرى التي أنفقها في مصاريف خرقاء وى تعهدات قطعها علي نفسه مع بعض الشركات الاجبية . وأخيراً كانت هناك حملة النيل الأعلى ومحاولته فتح مملكة الحبشة . فليكننا نجد الاموال الكافية لكل هذه المشروعات النجا إلى الاقتراض أولاً بمقياس صغير من أصحاب المصارف المحلية أى من أروام الاسكندرية ثم فيما بعد ، بشكل أشد طيشاً، من البورصات الاوروية وكان نوبار باشا صديق السوء في مشروعاته هذه . ونوبار هذا بمول أرمي — أصبح بفصل حبل طقة معينة من المصريين بالتاريخ يلقب « بالمصري الوطني » في حين أنه الوحيد الذي يتحمل بعد اسماعيل أكبر مسئولية عن خراب

مصر المالي فقد أرسله سيده للبحث عن الأموال بأى سعر للاتفاق على حاجاته الباهظة . فقد له فى أوروبا القرض تلو القرض بشروط جعلته لا يسلم أكثر من ٦٠ فى المائة من المبالغ التي استدانها بينما استولى لوبار على عدة من ملايين الخيصات باسم السمرة . فقد ثبت أن اسماعيل لم يسلم سوى ٥٤ مليون جنيه تقريباً من الدينون التي بلغت ٩٦ مليوناً

وفى الوقت الذى كنت أكتب فيه ذلك لم يكن اسماعيل قد عقد انعاقاته الكثيرة بيد أن فوائد الدين بلغت أربعة ملايين من الخيصات سواءً بالحصول على إيراد كاف لتسيير دفة الادارة وتحويل الحرب الخشية أصبحت أموال الملاحين تنهب منهم تحت ضغط الكرباج . فالذين يتكلمون الآن بحجة فيصمون اسماعيل بأنه لم يكن محرماً بل كان أميراً يستحق بعض الرحمة والعطف ليعه البلاد مالياً إلى الممولين الاحاب انما يحملون الحقائق ولا يدركون تمام الادراك مبلغ الخراب الذى آثرته حماقته وأنانيته برعيته الملاحين . فلقد ثبت بصفة قاطعة أن حكم اسماعيل كلف مصر نحو ٤٠٠ مليون جنيه . وعندى أنه ليس ثمة مبالغة فى هذا التقدير لانه يشمل كل ما ادخره الملاحون فى سني الرخاء العديدة وجميع دوابهم تقريباً وهذا عدا الدين العام . وفضلا عن ذلك خلف اسماعيل الفلاحين مديونين شخصياً لمرابى الاروام وغيرهم بما يقرب من عشرين مليوناً من الخيصات

تلك كانت أسباب تماعة مصر كما وقعت عليها فى القاهرة فى ربيع عام ١٨٧٦ أما فيما يخص باصل تدخلنا المالى فهو يرجع بلا نزاع الى حماقة اسماعيل فى ذلك العهد لا الى أى دافع سيلسي — على ما أعلم — من جهة إنجلترا . فقد طلب فى خريف سنة ١٨٧٥ بواسطة « الكولونيل ستاوتون » أن تساعد الحكومة الانجليزية ماليا وبشكل لا ماص معه من أن تتخذ تلك المساعدة صفة سياسية . والسبب الذى دعاه الى تفضيل إنجلترا على فرنسا واثباتها على سره هو أنها كانت أقدر من فرنسا على مساعدته ، لأن الحكومة الفرنسية كانت لا تزال تن من نفقات الحرب السبينية فكانت عاجزة عن مساعدته بأية طريقة عملية . أضف الى ذلك —

كما قدمت — أن الصداقة القديمة بين إنجلترا وتركيا واستماع الانجليز الى ذلك
الحين عن الدلائل التجارية في مصر ربما أضعافه هو وغيره من مسلمي الشرق بأن
إنجلترا دولة بعيدة عن المطامع والغايات بها يختص بالامبراطورية العثمانية .
وبما أن خطة الحكومة الفرنسية في مسألة قناة السويس وجه خاص كانت موضع
الشك فقد كان من الطبيعي عند ما وطد عزمه علي بيع حصته في أسهم القناة أن
يعرض ذلك علي إنجلترا الاعلي فرنسا . وان لا ذكر جيداً الأمر الذي أحدثته هذه
الصفقة وإنجلترا وقد اكفانها لم تقابل بالرضا العام بل أن كثيرين لاموا
« دزرائيلي » أشد اللوم على توريطه الحكومة في مسألة كان من المهم أن تكون لها
نتائج سياسية . والأمر غير المعروف في مصر — على ما أظن — هو أن قرار
شراء حصة الحديد بمبلغ أوبصة ملايين جنيه لم يصدر بإجماع رجال الحكومة
الانجليزية — لان « اللورد دربي » كان معارضاً فيه - وإنما صدر علي مسئولية
رئيس الوزراء وحده وهو الذي اتفق — بدون استشارة أحد من زملائه المتعيينين عن
لندن سوي اللورد دربي — مع بيت روثشيلد علي تقديم هذا المبلغ . ولا أعرف
ماذا كان يحول في خاطر « دزرائيلي » من الوجهة السياسية في صدد هذا الشراء
ولكن الأمر الذي أعرفه تمام المعرفة هو أن « اللورد دربي » الذي كان وقتئذ
وزيراً للخارجية لم يدر بخلفه أية فكرة سياسية عدوانية بصدد الصفقة . فقد كان
رأى « اللورد دربي » من وجهة السياسة الخارجية عدم التدخل بتاتا كما أن « دزرائيلي »
لم يكن قد نجح بعد في تلقيع حزبه بأرائه الاستعمارية . وعلي كل حال فقد كانت
الصفقة تدبر الشرب بالنسبة لمصر وخصوصاً بسبب الدور الذي لعبه فيها بيت روثشيلد .
وسيفظهر فيما بعد أن العلاقة المالية بين هذا البيت اليهودي الواسع النفوذ وبين مصر
هي السبب الرئيسي في التدخل العسكري الانجليزي بعد مرور ست سنوات (١)
وكانت لجنة « المستر كيب » التي ذهبت إلى مصر بعد صفقة الاسهم مباشرة

(١) ظهرت منذ كتابة ذلك معلومات رسمية جديدة فيما يتعلق بشراء أسهم
قناة السويس تغير السياق المذكور ها بعض التغير . أما الحقائق الاساسية الخاصة
بعلاقة بيت روثشيلد ودزرائيلي فلا تزال كما أثبتناها ها

من عمل اسماعيل بلا جدال . وكان القرض الذى جال فى خاطره عند طلبه هذه اللجنة أن يستمر استخدام المنجم الحديد الذى اكتشفه ، معجم المساعدة السياسية الانجليزية ، لمقد قروض أخرى . وتحقيقاً لهذه الفكرة أراد الحصول على شهادة رسمية ، فى شكل تقرير ينشر على الملأ ، بأن حالته المالية لا تزال بصينة عن الارتباك وأنه ما برح قادراً على تسديد ديونه لتفتح البورصات الاجبية أبوابها له من جديد . فمن أجل هذا طلب اسماعيل للكونلونيل ستاونتون ارسال لجنة تحقيق انجليزية

وقد أصابت ساورته قسطاً كبيراً من الحاح . وكان « المستر كيف » الذى عينته الحكومة الانجليزية لرئاسة اللجنة رجلاً مستقيماً ونزيهاً على ما أعتقد ولكنه نظراً لقلة خبرته بشؤون الشرق كان من السهل أن يخدع . ثم انه كانت تقصصه الشجاعة اللازمة لمعالجة جميع الحقائق بالحرارة التى يتطلبها الموقف . وكان اسماعيل كسائر المبذرين حريصاً على إخفاء بعض حساباته عند ماحاء دور الخوض فيها ، فبمساعدة اسماعيل صديق قدم للسركيف ميزانية خيالية لم يتردد هذا الأخير فى قبولها . وزاد على ذلك أن ذر فى عينه الرماد فيما يتعلق بحالة الضنك التى كان المخلصون يروحون تحتها . وكان من خطته أن يحيط كبار الزوار المالىين الذين يريد اجتماعهم فى شراكه معظمو الأثراء والبذخ . ولذلك قبلت اللجنة بكل حفاوة وطاق بها مندوبوه الى حيث وضعت المعدات اللازمة من قبل وحيل بكل الوسائل بينها وبين رؤية عراء الارض . وعلى ذلك كان تقرير كيف عند نشره بمثابة وصف لبعض الحقائق لغسب

وأظن انه كان فى استطاعة كيف لو ان خلقه كان أقوى مما هو أن يشتبث بالحقيقة التى كانت فى قرار كل صعوبات مصر المالية ألا وهي أن ديون اسماعيل كانت شخصية لاعمومية فى عرف العدل بل فى عرف القانون وأنها يجب أن تحمل على هذا الاعتبار . وكان ضعف كيف فى هذه القطة بداية التدخل السياسى لمصلحة حملة الاسهم فكان تقريره حينئذ أداة لاعتبار ديون اسماعيل ديونا

عمومية . ومع أن السير وفرد ولس الذي تلاه كلن أقدر منه فقد كان مثله غير
مدرب ولا مجرب وكان اتحائه في ذلك الوقت راحماً على ما أعتقد إلى معرفته
اللغة الفرنسية . وقد عرفته حق المعرفة وعرفت كيف ولكن ليس إلى هذا
الحد . ونقبت المراسلات منصلة بيني وبين الأول عدة أعوام فوقت على كل
أعماله في مصر

وآخر ما أذكره من حوادث ذلك الشتاء في القاهرة مادة أدها الخديو وكيف
وأعضاء لحته دعيت لها اتفاقاً . وقد أدبت في الكشك الخديوي القائم على سفع
الاهرام وكانت من المآدب الشائقة التي تعود اسماعيل أن يهر بها عيون
الأوربيين فلم يكن يعودها شيء مما يدل على البؤس الشاسع بين غنى صاحبها و فقر
أولئك الذين أقيمت المآدبة في الحقيقة على حسابهم . ومد لنا السباط على مرأى
جمهور من العلاحين الذين يكادون يموتون جوعاً والذين جاء المستر كيف لاقائهم
من الخراب ، ومع ذلك لم يظهر على أحدنا أنه تظن إلى هذا التناقض فأكلنا كما
شئنا وشربنا أحر الشبانيا ومصفي كل ما في وجهته . ولم أستطع إلى الآن وبعد
الاحاطة بكل ما هنالك أن أدرك حقيقة الحال وما فيها من الشقاء



الفصل الثاني

لجنة السير دفرز ولسن

لما عادوا القاهرة في ربيع سنة ١٨٧٦ زورنا حدود بلاد العرب أول مرة .
وكان السباح الاوربيون يرمون يدهون من مصر الى سوديا بطريق الصحراء اكثر
نما يعملون الآب . ومن ثم عدنا الى الجمال وحياة الخيام والبدو الذين حرسونا
من السويس وعبرنا القناة وقنا بياحة طويلة في شبه جزيرة سيناء الى العقبة ومن
هذه الى القدس . ولما كنا غرباء عن البلاد التي احترناها ولم تكن لنا معرفة باللمة
مربية ولم يكن معنا مترجم وقعت لنا حوادث خطيرة تسرنا الآن ذكرها
ولم لم تسرنا يوم حدوثها . منها حادثة أحب أنها تستحق الذكر وهي
حادثة غريبة تلخص في أننا كنا نسير على شاطئ خليج العقبة المحلى في بعض
مواقع بصخور المرجان فوقنا فقمنا بفحص ما هنالك من الالوان المختلفة بين أرجوانى
ودهبى وقرمزى ونصب بهامى والاسلاك الصغيرة التي لا نحصى والتي تسكن تلك
الصخور . فينا كنت واقفاً على حافة البحر ممكاً يندقيتى التي لم تكن تفارقي
أب اضطراباً عظيماً في الماء على كسب مني . وقبل أن أدرك سبب هذا الاضطراب
أب كلب بحر هائلاً يترك زملاءه ويأتى على غرة مني الى حيث وقعت فصار على
مع بلادات مني قل أن أدرك أي نوع من السمك هو أو أنظن الى اني أنا المقصود
هجومه . ولم أكد أمسك من رف بندقيتي حتى انقلب على جبى — كدأب هذا النوع
من السمك — وأخرج نصفه من الماء ليمتص علي . وكان قد صار قريباً مني فقلته
أطلق الذي سدده نحوه ولم تبق حاجة لطلق آخر يجهز عليه . ثم استقلنا
تساعداً حرارة أن نسبح الى الشاطئ . وكان طوله يبلغ عشرة أقدام تقريباً . ولا
تنت عدى في انه كان يجري من الصخرة الى البحر لو أني نهاوت في شأنه . وقد

ذكرني هذا الحادث بالخطر الذي طالما استهدف له فلاحو مصر من الباسيح في النيل الاعلى . وقد صرت شديد الخوف فيما يختص بالاستحمام في البحر من ذلك الحين واتقت لسا مصاعب أخرى مع بعض الاعراب في طريقنا لا شيء . غير جهلنا بأحوال الصحراء وعاداتها . فلما ضربنا الخيام في ظاهر العقبة زارنا ابن جاد شيخ العلوين المعروف وهم فرع من عرب الحوايلت . وكان له حق حراسة السباح الى بطره فقادنا الجمل الى إسا . فكلت النتيجة أن قبا بلا حرم ولا دليل وليس معنا من أهل هذه المنطقة الاعلاميين عربيين نعاننا من جبل سيناء ولم يعرفا شيئاً عن المنطقة الشمالية . فمع هذين الفلاميين حازفنا بالسفر شمالا الى فلسطين ومن ثم نفد منا الماء . وقد وحدنا الآمار التي هداها اليها حسن الحظ جافة . وبعد معاناة أشد الصعوبات تحت شمس محرقة بلفنا حلة عربية وقد ساءت أحوالنا في احدي الياالى الى حد أن قررنا أن نترك أمتعتنا ونهيم على أحسن جهائنا لننتقد حياتنا بالوصول الى البقاع المأهولة اذا نحن لم نضرب على ماء حتى ظهر اليوم التالى . ولكن لم يبق حمار أنيانا باننا على مقربة من حلة قبل الموعد المضروب ساعة واحدة . ثم بطرنا طلعاً عربياً جاثياً على كتيب من الرمل فقلعنا منه بالاكراه والتهديد مكان التبع الذى يستقون منه

وكان هذا السبع محمى بديعاً من ماء المطر يجرى في تحويف الصخور . وهنا لبنا طويلاً فزورنا غلماناً وملأنا قربنا . ولكن عرب العززية أصحاب المكان ببسبب عنه لحسن الحظ والا فاني أشك كثيراً في أنهم كانوا يسمعون لنا بان تأخذ ما شئت من هذه « البعة الالهية » لانهم كانوا أصحاب المكان وقد زرعوا الى جانب الماء حقلاً من الشعير كما يفعل البدو في أكثر الاحيان على حدود سوريا معتمدين على نزول المطر . أما هذا الماء فقد أعدوه للاستسقاء على أن ينضج شعيرهم . وقد غضبوا بحق حينما عادوا فاصطرونا أن تقضي الليل ساهرين ترقب خوف هجومهم علينا . ولكنهم لم يظهروا الا الى الصباح وقد ظهروا صارحين مهددين . على أننا كنا قد حملنا الجمال وكنا مسلحين تسليحاً جيداً فخذنا السير ولم يحفل بهم ، بيد أبى بعد أن عرفت البدو حيراً مما كنت أعرضهم فلت

حك في أنه كان في استطاعتنا أن نجتنب التماسح معهم بقليل من التناغم وندفع
عن اعتدائنا على حقوقهم ، اذن لاحسنوا استقبالنا ولم يحدث مكدر ، أما الحال
كما كانت فقد كما على قيد آمنة من شر جدى . ويجب أن محمد الله على وصولنا
في اليوم التالي الى الاراضى الخضراء ، الواقعة بين غيران وعزة حيث أحسن العرب
تعالون هناك لقاءنا وحيث أنسنا عداقتهم الخطر الذى كان قد أوشك أن يحل
بنا . وكان هذا آخر سيلحتنا في ذلك العام فمدنا في أوائل الصيف بطريق البحر
الى إنجلترا .

على أنما لم نلبث أن عدنا للشرق في صيف سنة ١٨٧٧ — ١٨٧٨ ببرنامج
لرسم فزرا حلب ثم لمحمدونا في الفرات الى بغداد وعقدنا علاقات المودة أثناء
عودتنا مع القبائل العربية العظيمة البازلة في صحراء سوريا والعراق . وكما قد بدأنا
تصرف قليلا من اللغة العربية ونعهم عادات العرب ولم نعد تقع في مثل الخطأ الذي
نرتبه آنفا . ويعود قط كبير من الفضل في هذا الى الصالح الحكيمة التي زودنا
بها المستر سكين فصول بريطانيا في حلب يومئذ وقد كان واسع العلم بأساليب العرب
فهمنا كيف نتقرب اليهم من نواحيهم البسيطة تاركين كل خوف من الركون اليهم
كلمة . وقد وفقت زوجتي هذه السيلحة المهمة الناجحة حقها من الوصف في كتابها
« قبائل البدو على الفرات » وهو كتاب وضعناه معا ويمكن أن يرى فيه من يعنون
بالامر آرائنا الاولى فيما يخص بحرية العرب . ولم يكن عطفي على العرب في حروبهم
للزمنة مع الاتراك نتيجة أية فكرة اعتنقتها قبل ذلك ولا هو نتيجة أية خطة سياسية
ولكنه كان نتيجة ما رأيت من سوء معاملة الموظفين الاتراك للعرب المقيمين في
حك البقاع وما رأيت من دهاية القبائل المستقلة .

وكان ذلك الوقت وقت اضطرابات محلية وكانت الحرب الروسية التركية في
مرحلتها الاخيرة في القرم وبلغنا . ومع أن أفضل تمنياتنا كانت للجيش الاسلامي
وخد الفرقة الروسية فان مطر نساء السوريين والعراقيين اد بجمدون وبساقون
في الاعلال الى شاطئ البحر آثار عصبا على الحكومة التركية وهو غضب قواه
ما كل يظهره العرب كل يوم من نفص الاتراك . ولم يكن في طاقة أى انسان يقدر

الحرية إلا أن يستنصر مثل هذا المصعب أدبرى سوء حكم الأتراك لولاياتهم العربية
وهما وصف المسير بلسن أحوال الولايات العربية تحت الحكم العرفي ثم قال :
ولما عدت الى إنجلترا في مايو سنة ١٨٧٨ أحدى اس عي « فيليب كلاري » الذي
كان سكرتير لورد سلبري الخاص وأحد كبار الموطنين ذوي النفوذ في وزارة
الخارجية الى اللورد سلبري ، وكان هذا قد نسل مقابله ودارة الخارجية حديثا
وكان يوشك أن يوقع المعاهدة السرية التي عقدها مع سلطان تركيا (وهي الشهيرة
باسم معاهدة قبرص) ولم يكن لي علم شيء من هذا في ذلك الحين . فأنارت سياحتي
في قلب الولايات العربية اهتمام اللورد وأراد أن يعرف مي شيئا عن حقيقتها . وقد
أنجبت على أسئلته فأدليت اليه بكل آرائي بصراحة تامة وأذكر الآن بصفة خاصة
ماقلته له عن احتمال استقلال سوريا ذات يوم وأنها قد تتعالم مع مصر ضد ظلم
الحكومة التركية . فلم يجب علي هذه الأقوال سوى قوله لا توجد رابطة سياسية
بين هاتين الولايتين التركيتين وأن لكل منهما أحوالا ونظاما خاصا . وقد طهر عليه
التأثر بكلامي حين طعنت في مشروع السكة الحديدية في وادي الفرات وكنت
أرى في هذا المشروع خطراً جديداً علي استقلال الولايات العربية . وقد علمت
فيما بعد أنه اقتنع كثيراً بما أدليت به من الحجج في هذا الصدد وأن ورائه لم
تؤد ذلك المشروع بعد حديثي معه فلم ينفذ الى اليوم .

على أن حديثي مع اللورد سلبري في هذه المرة أقمي من ناحية أخرى
بسبب اطلاعه في الشؤون الشرقية . ومع أن آراءه لم تسكن تمنع مع آرائي في هذا
العدد فأنني كنت واثقا من كفايته الشخصية وقد توثقت بيني وبينه بعد ذلك
أواصر صداقة هي وان تسكن غير صميمية إلا أنها كانت ودية . وقد سمح لي أن
أكتب له في هذه الشؤون الى النهاية ، ومع أنه لم يوافق علي آرائي الا نادراً فقد
كان دائما يرد علي خطائاتي بلطف أكثر مما تقتضيه التقاليد الرسمية .
علي أن الحطة التي انتهجها اللورد سلبري صيغ ذلك العام من لين لم تلبث

أن مدد كل ما عقدته من الآمال علي اقناعه بأدائي فيما يختص بالعرب بعد أعلى
 يومئذ أنه يصم للسلطان سلامة كل ممتلكاته الاسيوية . ولما كانت مداولات
 مؤتمر برلين السرية قد أثرت في أحوال مصر تأثيراً عربياً مهما في الوقت نفسه فليس
 أحد مدوحة من أن أروي حكايتها ها وقد عرفت حوادثها عقب وقوعها مباشرة
 ويدكر اقراء أن شاء سنة ١٨٧٨ — ١٨٧٧ المطيع شهد آخر مراحل الحرب
 بين روسيا وتركيا وان ربيع العام التالي رأى حيوش القيصر على أبواب الاسنانة . وقد
 كان هذا العهد عهد شقاء عظيم في مصر . وكانت لجنة كيف التي شهدت وصولها
 الي القاهرة قد تبعتها لجان مالية أقل منها نزاهة وطهارة دمة . وقد انتهت ذلك كله
 بالاتفاق المعروف باتفاق « عوشن وجوير » الذي سويت علي مقتضاه ديون
 الخديو ، وفي الحق أنها نسوية جبارة وضعت سبعة ملايين حية علي عاتق الإيرادات
 المصرية . ولم يكن الحصول علي هذا المبلغ المسبب من العلاحين المعلنين ممكناً الا
 باكراههم تحت الكرماج علي ادنيهاث أراضيمهم للرئيس اليونانيين الذين كانوا
 يرافقون حبة الضرائب في كل مكان أثناء مرورهم في القرى . وكان الفيضان في
 السنين الاخيرة قد جاء شديد أهدأ وأصيبت البلاد بالقمح فيما بين البحر واسوان
 وقد قصي كثير من أهل القرى رحالا وساء وأطفالا — جوعا في شتاء ذلك
 العام الذي لم يجر مثيل له من أول القرن .

وكان واضحاً والحالة هذه أنه إما أن يعلس الخديو أو يخفض فوائد ديونه بعد
 اذا أهملت نسوية « عوشن وجوير » ، وقد كان الحل الاول أعديل المدين وأفضلها لخير
 البلاد ولكنه أهمل كرامة المصلحة حملة الاسهم الاجانب . وقام هؤلاء بمجد نهائي
 نجح في هذه المرة لحل الدول العظمي علي التدخل السياسي للوصول الي نسوية
 أخرى بين اساميل ودائنه ، وكانت الفرصة ملائة فيما يخص التمهلات بالاتفاق حدودها
 في الوقت الذي عقد فيه الانجليز بينهم بارشاد دررائلي علي القيام بلعبة سياسية
 حربية تمثل دوراً هاماً في شؤون الامبراطورية التركية ، وكان لورد دري قد تحلف
 عن رئيسه بعد أن قطع معه وعلى الرغم من شوطاً في سياسته الاستعمارية الجديدة
 وقد استقال لورد دري فعلا من وزارة الخارجية وخلفه فيها لورد سلمي كمار

بك . وقد كان ذلك دليلاً على تقدم سياسي عام غير حال من التحدى والتهديد وقد أدخل الاسطول البريطاني الى بحر حرمة فرع الحيش الروسي ومع من دخول الاستانة ووضعت الحرب أوزارها على عقد معاهدة بين السلطان والقيصر تحت ضغط هذه المظاهرة الانجليزية وهي معاهدة « سان استافو » أما من حيث مصر فقد التفت في الوقت نفسه لجنة تحقيق دولية بالاسم والنجارية في ا- قبقة وعين فيها صديق السبر رفرز ولسن ممثلاً لانجلترا وأحس ان أمر تعيينه هو أول أمر وقع لورد سلسبري عند استلامه مقاليد وزارة الخارجية في دوسنبريت

ولا ينبغي عن الدائرة أيضاً انه لم يمض شهران على ذلك حتي عقدت معاهدة سرية في الاستانة ، عقدها السبر هري لايلرد وهو رجل عظيم الكفاية والدرابة بالشرق وكان قد أحرر رقة السلطان الشاب عبد الحميد . وقصت هذه المعاهدة بتأجير جزيرة قبرص لانجلترا وأعطيت ضامن للسلطان بسلامة ممتلكاته الاسيوية في مقابل وعده باصلاحات تدخل في آسيا الصغرى لوجود فاصل بريطاني متقلبن وهم صباط يقدمون المصائح ويقدمون التقارير بالتقصيرات والشكاوي .

وكانت فكرة معاهدة قبرص في اعتبار دررائيل وسلسبري اللذين وقعها ولايارد الذي هو منشئها الحقيقي ترمي لتأسيس حماية بريطانية على آسيا الصغرى وهي وان تكن غير رسمية إلا أنها لاتقل في مفعولها عن الحماية الرسمية . وكان ا- حصول علي قبرص في نظرم أقل أجزاء الصفقة . وكانت هذه الحزيرة قليلة الاهمية في الحقيقة بالنسبة لبريطانيا . كركر عسكري . ولم يكن اختيار هذه الحزيرة يرجع الى صلاحيتها من الوجهة العسكرية بل الى لومة من لوات دررائيل أنارها تقرير دوري عن ثروتها أرسله اليه فحصل بريطاني ذو مصلحة في الحزيرة . وكان دررائيل قد وضع في سياسته قبل ذلك بضع سنوات رواية « تاكرد » التي عرض فيها مازحا فكرة انشاء امبراطورية اسيوية تحت حكم البريطاني وعي بادماح قبرص فيها بصفة خاصة معيداً بهذه الحقيقة التاريخ فان الملك الانجليزي رتشارد قلب الاسد كان يوماً من الايام ملكاً على هذه الحزيرة . وقد كانت المألة فكاهة سياسية ولكن دررائيل كان يحب أن يقلب فكاهاته سياسية الى حقائق ويقع أنصاره

الإنجاز الذي كان يحترم كيهودي بعداد أعماله الخرافية وإحكامها . وكان غرض لايلارد الحقيقي من عقد المعاهدة هو التحكم في آسيا الصغرى من الوجهة العسكرية وهو الغرض الذي طن ادراكه سبلا بواسطة القنصل البريطانيين المتقبلين والواقع أن هذا الغرض يمكن عزوه الي لايلارد أكثر من عزوه الي سلسرى الذي كان حديداً في وزارة الخارجية والذي أ كسبه نجاحيه في العام السابق في الاستانة عطقاً على الأتراك . وكان على هؤلاء القناصل أن يشرفوا على الادارة المدنية في الولايات ويتأكدوا من أن جياة الضرائب لا يسهون الفلاحين وأن ميادين تدريب الحيوش التركية ليست مزدهجة بسبب سوء الادارة .

ومن ثم طن بأن زحف روسيا على البحر الابيض قد يقف عند آسيا الصغرى كما وقف زحفها في أوروبا عند سان ستافانو .

وإذا نحن آمننا نظرتنا اليوم في الموقف ولاسيا بعد العلم بما تلا ذلك من الحوادث والوقوف علي طبائهم السلطان عبدالحيدقليس في وسعنا الا الدهش من أن يوقع السلطان عبد الحيد معاهدة كهذه لو نفذت لوضعت تركية آسيا في الايدي العسكرية البريطانية كما هي حال مصر اليوم . كذلك يدعش المرء من توقع وزارة الخارجية البريطانية نجاح تلك المعاهدة ويلوح له ان القلب الذي أطلقه عليها غلادستون « بأنها معاهدة مجنونة » كان في محله لي أنه لا يجوز لنا أن نسي أن السلطان عبد الحيد لم يكن غيراً مع وجود الجيش الروسي على أبواب عاصمته فقد كان مضطراً لقبول التحالف البريطاني ولو كان معناه الوصاية وقد كانت احتلرا إلى ذلك الجيش أقامت المحجة على أنها صديق نزيه يعتمد عليه . وكان لايلارد على بيعة من قوة نفوذه في القصر كما أنه كان يعرف ما لاسم بريطانيا من الهيبة في الولايات الاسيوية . وكان للقنصل البريطاني في تلك الايام نفوذ تام علي ولاية الأتراك وسائر الموظفين مهم وكان له أن يعتقد أن نفوذه لن يكون له آخر .

والواقع أن الشرف البريطاني كان يومئذ عطيما في نظر الأتراك وكانت السياسة البريطانية مشعة بالعطف على المسلمين حتي أنه لم يمتلح في صدورهم أي شبهة في أن لا يحتلرا معاصداً أمانية . وكان لايلارد بعسه حسن الطن بالأتراك وربما كانت له

آمال في أن يلعب في قصر يلندز اللورد الذي لعبه لورد كرومر في عابدين . وعدى
أنهم المدهش أن يفهم البريطانيون في أحلام كنده أو أن يتق المسلمون بزاهة بريطانيا
وأخيراً يجب أن نذكر أنه بعد توقيع المعاهدة السرية بشهر واحد اجتمع
المؤتمر الاوربي العظيم في برلين . وقد اجتمع بناء على رغبة دررائيلي وكل المفهوم
أن يكون أعظم اجتماع أوربي منذ مؤتمر باريس . وكان عرض هذا المؤتمر كغرض
سابقه تقرير مصير تركية أوروبا ورعاياها المسيحيين وتعديل معاهدة سان استفانو .
وقد علق دررائيلي نجاحه كرجل سياسي على نجاح المؤتمر في ذلك . فقد تداخلت
انجلترا بدافع سام كأفضل صديق لتركيا مرهه عن الغرض على قول دررائيلي
وأصبح مقامه السياسي في انجلترا وفي الخارج معلقاً على مصادقة الدول على مزاعمه
في هذا الصدد . وكان نجاح المؤتمر ضرورياً لدررائيلي الى حد أن ذهب اليه بنفسه
كرئيس للمفوضية البريطانية وأخذ سلسبرى الذي كل الى ذلك الحين حديث
عهد بالسياسة بينما مثل روسيا « غورثا كوف » ومثل فرنسا وادنجتون وإيطاليا
السكونت كورني وقولى البرنس سمارك رأسه هذه الهيئة الفخمة وقد رافق كورى
لورد سلسبرى كما رافق بروتون دررائيلي .

ولا حاجة بي لوصف اجراءات المؤتمر العامة فهي معروفة للجميع ولكن الذى
لم يذع قط من قبل هو هذا الحادث العظيم الذى عرفته — كما سيأتى — بعد
حدوثه بزمان قصير .

اجتمع المؤتمر يوم ١٣ يونيو وكانت الامور المطروحة على بساط البحث على
أعظم جانب من الاهمية . ولم يكن ثمة بين المفوضين الا قليل من الشبه فيما يتعلق
بإمكان تقسيم تركيا فاقترح بعضهم من أول الامر أن يعلم كل مفوض بادى ذى
بده أنه حضر الى المؤتمر غير مقيد بتعهدات سابقة فيما يختص بالمسائل المعروضة
للبحث . وقد فوجئ دررائيلي وسلسبرى بهذا الاقتراح ولم يكونا على استعداد
للافصاء باعمالهما السرية مع سلطان تركيا عبر أنها لم يكن لهما من حضور النهن
ما يقويهما على رفضه قبله كغيرهما بصفة رسمية . وقد كان كلاهما حديثي عهد
بالسياسة كما أسلفنا . ومن هنا يمكننا أن نصور حساسة الدهش وفداحة العضيعة

الذين ثارا بعد بضعة أسابيع في برلين حين نشرت إحدى صحف النساء في لندن يوم ٩ يونيو نصوص المعاهدة السرية . وكان كوردي قد استخدم وجلا يدعي « مارفن » تعود السياحة في الشرق وعرف لعانه في ترجمة النص التركي . ولم يكن مارفن هذا موظفاً في وزارة الخارجية فكان من وراء الطيش في استخدامه أن باع السربيل كير الى حريدة « حلوب » فانقض نشر المعاهدة انقضاض الساعة على المفوضين البريطانيين في برلين ومع أن سلطات لندن نفت صحة النص المنشور فقد كان فوق الطاقة كتمان حقيقة طويلاني في برلين . وأصبح معوضونا في برلين أمام حقيقة لا يمكن تأويلها وهي أنهم حاثوا عهد زملائهم الاوربيين خيانة حسيمة وآثموا بكذب صريح مكتوب ومسجل عليهم . وقد هدد ظهور السر مؤتمر برلين بالاخفاق بل بالامضاء للعادل . وقد أعلن الرئيس غورتشا كوف أنه أهين وشاركه في عضته وادخلتونه وتهدد كلاهما بالانحجاب من المؤتمر وأخذوا دامتون يحزم أمتعتهم استعداداً للسفر من برلين . وكان الموقف حرجاً ولم تقده الاحداث بشارك المشوبة بالنهم . وكل قد أعجب بدرائيلي وعطف عليه لمشابهة بينهما في خلقي الهكم والحراة واستطاع كوسيط أمين أن يوفق بين معوضي فرنسا وانجلترا على القواعد الآتية :

- ١ - أن يسمح لفرنسا بعد أول فرصة وبغير معارضة من جانب بريطانيا أن تحتل تونس كعويض عن حصول بريطانيا على قبرص .
- ٢ - أن يكون حظ فرنسا كحظ انجلترا في التسويات المالية التي تم في مصر
- ٣ - أن تعترف انجلترا بزعم فرنسا القديم في أن لها حق حماية المسيحيين اللاتينيين في سوريا وعلي قاعدة تسليم دزرائيلي في هذه النقط الثلاث . وقل وادخلتونه المقام في برلين والاشراك مع سائر المفوضين في تسوية مسائل البلقان التي تمت على قواعد الاقتراحات البريطانية قهرياً - ومن الغريب أن الثمن الذي دفعه دزرائيلي الى فرنسا وهو ولاية من ولايات حليفه السلطان مكة من أن يعود بعد قليل الى لندن ويدعي الغور والانتصار مفجراً بأنه عاد يحمل « الشرف والسلام » وعدى أن هذا الحادث العجيب يجب أن يعتبر

مدأ بد بريطانيا تقالدها السياسة المحيدة في الشرق واتباعها سياسة نهب وخيانة
والى دسيسة قبرص هذه يرجع مباشرة أو غير مباشرة نضم الحرائم التي ارتكبت
ضد حرية الشرق وشمال أفريقيا وهي الحرائم التي شهدناها جيلنا الحاضر . وهي التي
أُلقت في روع النفا فكرة ضم البوسنة في الحال . وهي التي ساعدت علي اخفاق
نسوية صحبحة في مقدونيا . وهي التي وصعت تونس تحت أقدام فرنسا وبدأت
عهد تقسيم أفريقيا بين الدول الاوربية وما ينفع ذلك من شتى المخاوف والنكبات
التي حاقت بالوطنيين من يبرزتا الى بحيرة تشاد ومن الصومال الى الكونغو وفوق
هذا كله أفلدت بريطانيا سمعها الى الابد في الامر الطورية العثمانية وغيرت قلوب
المسلمين عليها في عامي ١٨٨١ و ١٨٨٢ وكانت عاملا مهما في الحوادث العنيفة التي
حدثت في مصر في تلك الاوقات المضطربة كما سأتيس بعد . ثم انها هزمت نفس
الغرض الذي رمت اليه في تركية آسيا ان كان ذلك الغرض المعاونة حقاً علي
ادخال الاصلاح.

وقد لفت عمال المؤتمر بطر السلطان الى الخطر الذي يمكن في المعاونة
البريطانية وغبروا قلبه فاتبع سياسة ماقصة للصالحات البريطانية وقد نجح في سياسته
هذه نجاحا تاما ووقع دعاة الحرية والحكومة الذاتية يبر دعاياه والى هذا السبب تعزى
المطالم التي سكبها الاحرار في الاسنانة وليس من المبالغة في شئ أن نعزى له
النكبات التي حاقت بالارمن بعد ما أثار فيهم المفوضون البريطانيون في برلين آمالا
كبيرا وأوهوم بأنهم تحقق بمساعدة بريطانيا الادبية — تلك المساعدة التي لم
تكن أحوال السياسة البريطانية غير الادبية تسمح لبريطانيا بتقديمها .

أما النتيجة المباشرة للاتفاق مع وادنجتون فيما يختص بمصر فكانت ارسال
تلغراف من برلين الى ولس في الاسكندرية يتضمن أمراً شديداً أخرنه وأدهشه
وهو أن يكون حظ مرسا كحظ انجلترا تماما في جميع التعيينات المالية ذات العلاقة
بتحقيقه الرسمي .

ومع أن ولس لم يعرف الحقيقة في ذلك الحين فقد كان هذا سبب المراقبة

الخاتمة (١) — الإنجليزية الفرنسية — التي وضعت على المسألة المصرية — بعد مرور عام على هذه الحوادث كانت الاحوال سائرة على هذا الموال حين وحدث نفسي في خريف السنة دأبها — سنة ١٨٧٨ على طريق الشرق . وكانت سياحتي في الشتاء السابق إلى بغداد . والعاج الذي أدركته كلن في مسألة أهم لدى كثير أ من السياسة ، وهي شراء الخيول العربية التي كونت نواة اسطبل المعروف اليوم جيداً في « كرايت » — والذي أثار الفصول والتعجب في إنجلترا . ومن ثم قضيت الصيف في اعداد جريدة اراي وتقديمها للطبعة .

وكنا علي كل حال قاعين بهذا وقد عقدنا ائية على سياحة أشد مجازفة مما حاولنا في الماضي وقصدنا دمشق التي رسمنا الابتداء منها واختراق الصحراء العربية الوسطي وريارة نحمد وطن الحياذ العربية

(١) رويت حكاية ماحدث مع وادنجتون كما سمعها من لورد ليتون في سلا في مايو سنة ١٨٧٩ . وكانت التفصيلات مدونة في خطاب أطلعي عليه . وقد كتب اليه من برلين حين كان المؤتمر يعقد جلساته . أما الذي كنه له فزميل سياسي وقد تأكدت صحة هذه الحوادث من أكثر من مصدر وان لم تتفق جميع المصادر على تفصيلاتها بالذقة . أما فيما يختص بالنقطة الجوهرية في الاتفاق وهي الخاصة بتونس فقد وفتني على تفصيلاتها الكونت كورني في سنة ١٨٨٤ وكلت ممثل ايطاليا في المؤتمر . ويؤخذ مما قاله لي أن دهش دزرائيل الناجم من نشر نص المعاهدة السرية كان من الشدة بحيث مرض وزم غرفته ولم يظهر في جلسات المؤتمر أربعة أيام متوالية تاركاً لورد سلسبرى يؤول المسألة علي أحسن ما يستطيع . وقال لي ان المفاوضات لم تقطع بصراحة بين دزرائيلي ووادنجتون وأن هذا عرض المسألة علي زملائه الفرنسيين الذين اتفقوا علي أن المسألة من المسائل التي لا يتنازع فيها علما وقالوا « اما الحرب أو السكوت » وحرى الاتفاق شفويا بين وادنجتون وسلسبرى ولكنه سجل في تلغراف كتبه سفر فرنسا في لندن إلي لورد سلسبرى وذكره فيه بالمحادثات التي دارت في برلين وبذلك صحت الاعتراف بهذه المحادثات ككتابة

وكانت سياحتنا الحرة من مرسيليا تمر باعلى الاسكندرية وافترق أن وجدت على طهر الناحرة في مرسيليا صديق السير رفرز ولسن الذي عين حديثاً وريراً للمالية المصرية وقصيت السياحة في صحته . وقد استظمت في خلال أيام السياحة الستة أن أقف مه علي كل ما حدث في القاهرة أثناء العامين الفارطين وكانت الحكاية التي رواها لي رهبة جداً . ومن بين الحوادث التي رواها حادثة وفاة اسماعيل صديق المفتش وما غرسته في القلوب من الفور

كل اسماعيل صديق حزانري المولد وقد جاء مصر في شبابه الاول وارفع بمواهبه وكفاءته في الخدمة المصرية . وكانت أول علاقة له بالبلاط على ما اعتقد في عهد عباس الأول كبير للركائب . وشغل في عهد عباس واسماعيل وظائف كثيرة حتى انتهى أمره كما رأينا بأن صار « شيطان اسماعيل » في انجاز مال الملاحين . وقد استطاع أن يحتط بحسن السمعة في القاهرة على الرغم مما ارتكبه من أعمال التمسوة — وقد أظهر براعة لا تنصب في ابتكار طرق النهب — وكان محوى ما سمعته في القاهرة أنه عربي متمتع بفضيلة تقليدية في الكرم والسخاء في افاق الثروة العطية التي جمعها . ومن ثم لم يكن مكروها في مصر وقد شغل منصب ورير المالية في السنوات الاخيرة من حياته فبرهن دائماً علي أنه خادم اسماعيل المخلص الأمين . واسكن انظر حاته قبل بضعة أشهر من الوقت الذي أكتب فيه عنه .

وهنا روى المسر بلنت حكاية وفاة اسماعيل باشا المفتش كما سمعها من السير رفرز ولسن ثم قال وقد خضت أنا ولسن في هذه الاحاديث يوما بعد يوم علي الباخرة ودارت بصفة خاصة حول مهمته الخطيرة قد كان مزماً أن يخلع اسماعيل باشا المفتش في وزارة المالية . وكانت آماله في نجاح ادارته عظيمة في ذلك الحين وقد أعرب عن فهم تام للمهمة الخطيرة التي أخذها على عاتقه وهي إعادة مالية مصر سيرتها الاولى من الرقاية وانقاذ الملاحين من أضدادهم المالية ولكنه كان كذلك على علم تام بما يواجهه من الصعوبات . وكان قد تعلم بهم أخلاق الخديو وأساليبه كما كان مستعداً لان يمجده فيه خصاً

هنا جريتنا ولكنه كان يعتمد علي براعته في التودد وسعة علمه بأمور الدنيا مؤملا
 أن يستطيع استنباط العلاقات الودية مع اسماعيل وأن يتجنب كل الاخطار الشخصية
 حتى قد تعرض له . وكان يعتمد في تحقيق هذا الغرض علي زبينة العريسية فقد
 كانت سكناه في باريس الى الحد الذي جعله يثق بقدرته علي الاحتفاظ بسلامة
 القزلة الفرنسية الانجليزية التي كان عصواً فيها ثم انه كان يعتمد كثيراً علي نوبار
 يثا ويشق به ثمة لاحد لها معتقداً انه سياسي شرقي مخلص للمصالح البريطانية .
 ولكن يعتمد كذلك أن وزارة الخارجية البريطانية تؤيده كل التأييد بل وهناك تأييد
 آخر ربما كان أقوى في أوروبا من تأييد وزارة الخارجية وهو تأييد مصر وروثشلد .
 ولكن يعرف أنه يستطيع أن يعتمد علي هذا التأييد بعد نجاحه أثناء مروره
 بباريس في اقناع ولاء أمور ذلك المصرف باصدار قرض بتسعة ملايين جنيه بضمانة
 للسكك الحديدية وقد كان من شأن هذا الغرض أن يكسب تأييد أصحاب
 المصرف لحلة الاسهم في مطالبهم بالتدخل الاوربي متى اقتضت الحال . وقد حيل
 لي — أنا الذي أعرف ولس حق المعرفة ومع اني عطفيت أشد العطف علي آماله
 الانسانية وأمانيه الشخصية — أن في مركزه عناصر معينة من الشك ليس من
 شأنها أن تساعد علي نجاحه

وقد افرقنا في الاسكندرية ونحن نرحي أن نستقيم له الامور في مهمة تدور
 حول يأس حكومة معلقة عملاً صدورنا بالشكوك . بيد أننا توقعنا أن يقوم في سبيله
 كثير من الصعوبات الشديدة . ومع اني كنت واثقاً من جرأة قلبه وحنه ذهنه
 قد خشيت عليه وحقت الايام اني كنت علي حق في التشاؤم وحدث هذا في
 وقت أقصر مما ظننا

وقد كان لاختناق السير وفرز ولسن في إدارته المالية الصغيرة عدة أسباب .
 منها شؤم ذلك القرض الباهظ الذي يشق علي المرء أن يدرك في أي غرض جدي
 استخدمت أمواله . ومنها حدوث اخطاء في الادارة أوقعت مطالماً فادحة بالاهلين
 ومهدت السبيل — كما سنرى بعد — الى شيوع الاستياء والتدمر . علي أي لست
 بحاجة الي الدخول في تفصيلات هذه الاخطاء فهي مشهورة وفي طاقة كل انسان أن

يحدثها في الكتب . أما عند ولسن فيها فهو أنه اعتمد اعتماداً لا حد له على إرشادات نوبار في جميع شؤون السياسة الداخلية وفي محاوره الهند في تقدير كفاية نوبار علي نصريها . ولو كان ولسن سياسياً أكثر مما كان مالياً لما سقط سقطته في المصاعب السياسية التي كان يسهل تجنبها لو كان حبيراً بأساليب الحكومة

ولم يكن نوبار الانتكاسة مرضوعة ولم يكن يشق على داهية كلسايل أن يشير صده الشعور الاسلامي كسيحي وأحيي . واذ كان ولسن يشكر في إيجاد التوازن المالي فقد خفض مرتبات جماعة من الموظفين المصريين وهكذا حاق طبقة مستانة أتاحت للحديث فرصة تحويل الانشياء منه الي وزرائه المسيحيين . وسهل عليه الامر انه لم يحصل تخصيص في مرتبات الموظفين الاحانب . وكان الاتفاق الذي عقد بين فرنسا وانجلترا في برلين يتجسم تعيين موطف فرنسي نظير كل موطف بريطاني ومن ثم لم يجرؤ ولسن على أن يمس أحداً من الموظفين الفرنسيين . وكان على ولسن أن يحمل كل ما أنار تصرفه من القصور وفي يده معانيخ الخزانة المصرية

ولم يدرك كذلك أقل نجاح — برغم نيأته الحسنة — في تخفيف العبء عن كواهل الفلاحين . وقد كان في برنامجه أن يقي الحديثو قادراً على الدفع ومعنى ذلك أن تدفع فوائد الدين الحسب في مواعيدها . وقد أنقذت التسعة الملايين التي اقترصت من روتشلد في المطالب الهامة ولم تخفض الضرائب بل استمر حكم الكرماج بصرامة أشد في القرى وحيي . للموقف الزراعي بمامل مرعب حديد هو مسح الاراضي الزراعية تحت الاشراف البريطاني وقد تم ذلك سفقات فادحة وعلى أسوأ منوال واعتبره الناس على وجه العموم مقدمة لعرض ضرائب جديدة وتم المثل أخيراً بمسد ديوع الاقتراح الذي عزمه ولسن وهو يقضي بمصادرة أراض تبلغ قيمتها خمسة عشر مليوناً فقد أوقع هذا المشروع عقول أصحاب الاراضي في اضطراب وجعلهم يعتقدون بقرب وقوع نكبات على يدي الوزير البريطاني أهدح من التي زلزل بهم في عهد أسلافه . وعندني وقد عرفت مصر الآن معرفة حقيقة انه لم تكن هناك مدوحة من وقوع أي اسباب له مثل ذلك ولسن وحسن مقاصده في مثل هذه الاحاطا . وليس عدى شك في أن الحديثو معه ربح لكثير منها ليورطه

ولم يطلع سوى سياسة ولسن ونوبل القمة حين أحذا بسرمان الجيش المصرى وفيه ٢٥٠٠ صايط بغير أن يدفعا المرتبات المتأخرة فقد أوقع ذلك الوزراء الاحاس في قبضة اسماعيل وهذه فرصة لم يتردد اسماعيل في انتهازها

ويجب أن أقص هنا تاريخ أزمة فبراير سنة ١٨٧٩ التى طاحت بورادة ولسن ونوبل كما حدثت اذ من الصعب أن يجد الانسان حقيقتها منشورة في كتاب آخر كلن الخديو كما ذكرنا نواقا لتحويل البفض العام الذي كلن يطر به اليه في مصر إلى وزرائه الحدد لرغبته في تخليص نفسه من وصايتهم . وكلن قد نزل بمشور يسمي ذكرى سنة ١٨٧٨ عن إدارة المالية والادارة لهم ولما كلن قد تعود للحكم المطلق ١٨ سنة في مصر فقد عاظه فقدان هذه السلطة . وكلن قد وقع في كرتو كبديل من الافلاس فلما نجا من الافلاس صمم علي قض عهده واذ كان دليعية في البصر بالاخلاق تقطن حالا الى موضع الضعف في الوزارة وعرف كيف تقضي جهل ولسن وزميله الفرنسى « بلنير » بالشؤون المصرية إلى اعتمادهما كل الاعتماد علي نوبل في الاهتداء إلى الحطة التى يسلكها كما عرف أيضاً عمر نوبل كسبحي عن حكم شعب اسلامي

وكانت طبقة الموظفين المسلمين تعد نوبل افاقيا أرمنيا جمع ثروة كبيرة من صرته لأصحاب الاموال المستعدين لاعطاء القروض علي حساب الجمهور . أما الملاحون فكانوا يعرفون فيه الرجل الذى أنشأ المحاكم المختلطة التى يعجدها الاجانب ويحتها الملاحون لاعتمادهم أيا وضمتهم في قبضة المراسين اليونانيين وفعلت مالم تخطه هيئة غيرها

وكانت هيئة هذه المحاكم في ذلك الحين تستدعي أى فلاح أمصى أية ورقة بسلطة أمام قضاة أجاب وبعد اجراءات أجنبية لم يتعودها بلغة أجنبية ؟ بعضها ، وبغير أن نسح له فرصة الدفاع عن نفسه ان كلن فقيراً ، واقامة الحجة علي أن الارقام قد غيرت أو أن الورقة كلها مزورة تحكم عليه بما قد لا يقل عن مجرد من كل ما يمتلكه قبل أن يتسع له الوقت ليعرف بأى شيء هو في الحقيقة طالب . بهذا كان يعرف نوبل ثم انه لم يكن له أنصار وطيون ولا كان مؤيداً بأى

رأى الا رأى التحار الاجانب في الاسكندرية ومن ثم رأى اسماعيل كيف يمكنه الهجوم على نظام الحكم الحديد في شخص نوبار وكيف يمكنه جعله عاجزاً . والواقع أنه لم يكن يقتضى لاسقاط هذا الحكم الا مطاهرة وطنية ضد المسيحي المقيوت وقد سهل تنفيذ هذه الخطة بما حدث من غش ضباط الجيش المسرحين وحرمانهم من المرتبات المتأخرة وحقوق المعاش .

وكان عمال اسماعيل في احداث أزمة فبراير حاضرين باشا أحد موظفي البلاط وأخو روجة لطيف أفندي سليم الذي سهل له العمل مركزه كدير للمدرسة الحربية . وقد نظم هذان مطاهرة من تلاميذ المدرسة فصار هؤلاء في الوقت المين في شوارع القاهرة معلنين أنهم سيطالبون باسقاط الوزارة المقيوتة ثم انضم اليهم جمهور كبير يتقدمهم الصباط المسرحون وكان الاتفاق معقوداً على أن تصل المطاهرة الى ديوان الحكومة في الوقت الذي بصرف فيه الوزراء . وقد وجد المتظاهرون نوبار باشا يركب مركبته فأهانوه واعتدوا عليه وحذبوا شواربه وضربوه بالكنوف ثم قامت في الخلال مطاهرة شعبية وهنا طهرت في الميدان فرقة الحرس الحديدى الاولى بقيادة القائمقام على بك فهمي وكانت على قدم الاستعداد ثم ظهر الحديدى بالذات وأطلقت نضع طلقات في الهواء فوق رؤوس المتظاهرين ثم تفرق الجمهور حين أمره الحديدى بأن ينصرف كل الى بيته . وهكذا نجحت الخطة التي اتفق عليها مع علي بك واستطاع الحديدى أن يقنع قنصلي فرنسا وأنجلترا بضرورة اقالة نوبار وبانه لولا تدخله القوى وسلطانه على الناس لحدثت أمور سيئة العقبى وعلي ذلك نصح القنصلان لنوبار بالاستقالة وحل محله موظف مسلم اختاره الحديدى يدعي راغب باشا . وقد عرف اسماعيل أن وحود رجله راغب في وزارة الداخلية بعجزه ولنس وبليزير عن ادارة البلاد ويستتبع سقوطهما عاجلاً

وبعد أن تم النجاح في التخلص من نوبار أصبح قيام ولنس بادارة المالية مستحيلاً كما توقع الحديدى ثم مجلت حوادث أخرى بقوطه . وكان قد وقع جماعين ولنس وقنصلا في مصر حينذاك (المستر فيعيان الذي صار بعد ذلك لورد فيفيان وعين سفيراً في رومة) بسبب مشاحنة شخصية . فلما طرأت الصعوبات السياسية

وطلب واس تأييده لم يقدمه له أو قدمه بغير اخلاص . ولكن فشل واسن
التهاني لم يبطئ بعد ذلك . فقد نطمت حادثة كحادثة فبراير خلال شهر مارس
في الاسكندرية اذ آذاه الجمهور هو وزوجته فلما رفع شكواه لورادة الخارجية صحت
عليه بالتأييد الكافي لنيل القرضية . ثم نصح له كما نصح لوبار بالاستقالة ولما لم يجد
مناسحا استقال وعاد إلى أوروبا

وقد كتب لي خطابا هاما في ذلك الحين : كتب إلى في ٣٠ ابريل سنة ١٨٩٩
يقول « أحسب أنك سمعت بما كاد لي الحديو . انه لم يقتلني كما قد نظن وللكي
هوجت في الطريق وأسيت معاملتي وقد حصل الآن على غرضه ونخلص مي
فقد تركني حكومة جلالة الملك تحت رحمة القضاء حريا لي عادتها من الاهتمام
بوكلائها . . . ان يعبان هو العامل الرئيسي في سقوط التديرات التي كان عليه أن
يتولي حمايتها ورجع ذلك إلي غيرته مي وإلى نقص في الذكاء وزيادة في الخيلاء
فتمدد انضم إلى الحديو . ومع أن سموه لم يجد أساليب الحكم أكثر من أجادته
التفريق بين الدين يعمل معهم فقد كان يتطلع إلى التفريق بيني وبين بليير أو ييسا
وبين نوبار . ولكنه لم يتوقع حتى ولا في الحلم أن يصير القنصل البريطاني أداة في
يده لاسقاط وزارة فرضها عليه حكومة بريطانية وأكرهته على قولها ... سنبحر
يوم ٦ ونصل لندن يوم ١٥ ، وأنا الآن مسرور لتحلصي من المسألة كلها فهي
سائرة إلى النصار والبلاد موبوءة بالفساد . ويلوح لي أن حكومتي فرنسا وانجلترا
تحشيان العمل وقد طغى الحديو وهو يعصر البلاد لانبزاز آخر قرش . وليس في
الطاقة تأخير الحراب وفي هذه الاثناء لا يسم الانسان إلا التجمع حين يفكر فيما
يجدث الآن من النشوء والشر

الفصل الثالث

السياحة في بلاد العرب والهند

بينا كانت نجرى هذه الحوادث في مصر كنت أسبح بعيداً مع زوجتي في بلاد العرب الوسطى فلم يكن لي بها ولا بغيرها من حوادث العالم أقل علم وكذا قد مكثنا عدة أيام في قبرص ونحن في طريقنا إلى دمشق التي كما معتزمين أن يبدأ منها سياحتنا . وكان قد دفعنا المصـول إلى مشاهدة هذه الجزيرة التي دفعت فيها أنجلترا ذلك الثمن العالي أو بعبارة أخرى تلك الفضيحة الكبيرة . وقد وجدناها تتلقى دروسها الأولى في الإدارة الانجليزية على يدى السـر حارث ولسلى وكانت الخبرة لا تزال في حر الصيف ولم تسكن قد سمعت أمطار بعد . وكذلك لم تبد لنا إلا أحس قليلا من فلاة تربة . وقد زرنا ولسلى في مقر الحكم بيقوسيا ووجدناه يحمل الوحشة على خير ما يستطيع في عرله . وقد أتى في حديثه معنا على هذه « الخوهره » الأخيرة التي ضمت للإمبراطورية غير انه كان واضحاً أن الحرية ليست لها قيمة في تقديره الفني وكانت أشبه الأشياء بتلك المآثر الكثيرة التي قرأ في قصة « فيكار اوف واكفيلد » . انها أحصرت من السوق إلى المنزل . والواقع انه كان يشق علي المرء أن يستين وجه الاستفادة منها أو طريقة الحصول علي نفقات ادارتها وكان الحصول عليها قد أحل بسعة أنجلترا كما مر لك . وكان المسلمون السوريون يقولون ان أنجلترا أخذتها بقشيشاً من السلطان علي خدمتها له

وقد التقينا في دمشق بكثير من أئـداد الرجال منهم الامير عبدالقادر الحارثي بطل الحرب بين الجزائر وفرنسا . ومنهم بطل آخر هو مدحت باشا أبو الدستور العثماني . ومع أي كنت ميالاً للعطف علي اصلاح المسلمين فاني لم أمل لهذا البطل الاحمر . والواقع أن مطهره لم يكن موجياً لتأثر شخصيته . لم يكن ممتازاً بأي شيء في مطبـره سوى انه كان غوراً محتالاً ولم أحد أنا . محادثتي معه في موضوع تحديد تركيا واصلاحها أي عمق في أفكـلره بل وحديثها من ذلك الصرب الاوربي العادي

التي بحل عادة في الشرق محل البوغ الحقيقي والایمان الراسخ وكانت كل آرائه فيها يختص باصلاح الامبراطورية عامة وسوريا الذي كان قد عين والياً عليها خاصة مقصورة علي الساديت كانشاء الخطوط الحديدية والقنوات وحطوط الترام وكلها تشياد طيبة في بابها ولكنه لم يمس في حديثه ما تعوزه الادارة من الاصلاح . ثم انه لم تكن لديه البتة أموال يستطيع أن ينفذ بها اصلاحاته السادية فكانت الاصلاحات والحالة هذه أوهاماً في أوهام . ولم يتكلم قط عن الامور السكيرة الاهمية كالاقتصاد والعدل وحماية الفقراء كما أنه لم يظهر أي عطف علي أهل الولاية في عين والياً عليها .

والواقع انه كان أكثر من الاتراك احتقاراً لكل ما هو عربي ولم يكلف نفسه مشقة كتمان هذا الشعور ولم تكن طرق معاملته للبدو لاثقة بالانسانية . لهذا لم أمل اليه بطبيعة الحال . ومع ذلك أسفت علي عدم محاولتي اثاره عطف الرأى العام البريطاني عليه في أيام محنته ولو فعلت لكل أقتله مساعى من الحراء القطيع الذي أمزله به السلطان . ولكي لم أعرف الحقائق كلها في ذلك الحين وفي سنة ١٨٨٤ عرفت من مصدر أثق به حقيقة ما جرى في محاكمة مدحت في همة قتل كاذب القيت عليه قل ذلك بثلاث سنوات وهذه مسألة هامة لأجد داعياً للاعتذار عن ذكرها . وقد يذكر قرأني اني كنت أصبت أثناء اقامتي في الاستانة بمصر خطير وعني في طبيب يدعي دكسون كان في ذلك الحين طبيب السفارة البريطانية وكان قد وشجت بيني وبينه صلات المودة . وهذا الشيخ الفاضل قضى في الاستانة خمساً وثلاثين سنة فاستشرق تماماً وأصبح أدرى بالشؤون العثمانية من أي بريطاني آخر فبا أظن — وكان فوق ذلك عطوفاً علي القوم الذين عاش بينهم هذا الأمد الطويل . وكان يختلج صدره الي جانب هذا العطف وقاء ونبل علي الطرار الانجليزي القديم . فكانت ميزانه نجسه أجدر الناس بالثقة فيما يتعلق برواية الحوادث التي اتصل بها

لهذا يجب أن تعتبر شهادته حاسمة فيما يختص بالحوادث الواقعة في محيطها .

وقد كست في الاستانة في سنة ١٨٨٤ محدثي بها فظهرت لي من الصحة والاهمية للتاريخ بحيث دونتها في نفس اليوم الذي سمعته به وهي كما يأتي بالحرف الواحد :
في ٣ نوفمبر سنة ١٨٨٤ نذبت الفارة الانجليزية الدكتور دكسون لتحقيق ما أحاط بوفاة السلطان عبد العزيز فقدم قهرراً مفصلاً عن جميع ما رآه في القصر ذلك اليوم . وكانت لجنة الاطباء مؤلفة من يوناني يدعي ماركو باشا وشيخ انجليزى كان طبيب لورد بيرون الشاعر المشهور وعدة أطباء آخرين . وقد وجدوا الحثة في دار الحرم ولخصوها جيداً . وكان السلطان في قميص حريري لا خطوط فيه . وكانت سراويله من الحرير القرنفلي . ولما انتزعت الثياب لم يوجد في الحثة خدش ولا رض « وكانت أيدع جسم في العالم » . هذا عدا حرجين في الحمة الانسية من الدراعين حيث الشرايين . وكان جرح الذراع اليسرى عميقاً بالغاً الى العظم وقد سبر الدكتور دكسون غوره باصبعه أما جرح الذراع اليمنى فلم يكن محكماً فلم يؤذ الشريان وكان ظاهراً أن الحرجين سبب الوفاة . وقد قنع الاطباء الآخرون بهذا الفحص وانصرفوا ولكن دكسون والطبيب الانجليزى الآخر أصراً علي سماع شهادة والده السلطان وقد شهدت بما يأتي :

حاول السلطان عبد العزيز أن يقتحر مرتين منذ أصيب بمرضه . فحاول مرة أن يرمي بنفسه في بئر . وحاول مرة أخرى رمي نفسه في البوسفور ولكنه منع في المرتين . وحذرت السلطنة من اعطائه أى اداة يستطيع أن يؤذى نفسه بها . فلما طلب اليها امرأة ومقصاً ليصلح لحية أعطته أصغر مقص لديها وظلت أنه لا يستطيع أن يؤذى نفسه به . وكانت تسكن غرفة مجاورة لعرفته وكان يقوم علي حراسته فتاة أو فتاتان في غيابهما . فحدث بعد ظهر ذلك اليوم أنه أمر الفتاتين بالخروج وارتج الساب قائلاً انه يريد أن يخلو بنفسه ولم يجرؤ الفتاتان علي المعارضة فلما انتفضي نصف ساعة أخبراهما بما حدث فازعجت في أول الامر ولكنها أمرتهما أن تقفا بالباب وتتمتا . ففادتا اليها وقالتا انهما لم تسمعا شيئاً . وبعد ساعة ذهبت تتمتا وصائفها ودفعت الباب ففتحته فوجدت السلطان راقداً علي حبه فوق متكأ وقد نوفي

وكان المتكأ والستائر من الحرير الاصفر ذى النفوش الحمراء . وفحص زميل الدكتور دكتور المسكن فوجد جانب المتكأ اليسر مشعباً بالدم ووجد تحته فوق الارض كثيراً من الدم الكريه الرائحة . ووجد في وسط المتكأ بقعة دم صغيرة تطابق جرح الدراع البمي . ومع أنه فحص المسكن جيداً فإنه لم يعثر على أثر للدم الا بمبالا صق المتكأ ومن ثم لا يمكن أن يكون قد حدث بضال أو اغتيال .

وكما قالت السلطانة « اذا كلن قد قتل فلا بد أن أكون أنا القاتلة لأنى كنت فى انفرقة المجاورة لغرفته وما كلن أحد غيرى يستطيع أن يقترب منه » .

وقد أحصروا فى محاذة مدحت ومن معه قبضاً من الكتان لا من الحرير مشقوقاً من الحسب كأنما قطعته طعنة سيف وسراويل صفراء وخضراء ورداء من الفرو . ولم يحضروا الثياب التى كانت على الجنة . وأحضروا غطاء متكأ من الشيت ومتائر شيتية ملطحة بالدم ولم يحضروا تلك التى كانت فى الفرقة حيث وجدت الجنة . ومن ثم كسب الدكتور ولسن احتجاجاً قرر فيه ما يعرفه وأعطاه الى لورد دوفرين ورجاه أن يقدمه كشهادة لرئيس المحكمة . ولكن دوفرين أبى أن يتدخل بلا تعليمات وفى الوقت الذى أرسل فيه تلغرافاً أو زعم انه أرسله حكم على مدحت . وقال دكتور ان ماركو باشا لا بد أن يكون قد أغري على أداء الشهادة التى أداها . وكانت حكاية رؤية رجال ينسلقون داخلًا وخارجاً حكاية مسخيفة فقد كانت انفرقة مرتفعة ولم يكن بد من ان يكسر الواثيون منها سيقاتهم . وهذا الدكتور دكتور شيخ دقيق وهو من أولئك الشهود الذين يقتنع بشهادتهم أى محلفين فى العالم . ولذلك أصدق شهادته كل التصديق معها ظهر غريباً عند النظرة الاولى أن يكون السلطان قضى متحرراً لا مقتولاً . وقد مات مدحت وداماد جوعاً فى السلاسل والاغلال منذ بضعه أشهر . كذلك مات شيخ الاسلام الذى أفضى بخلع عبدالعزيز . وهذا الحادث الارهاق هو الذى أعطي عبد الحميد السلطة المطلقة التى يتمتع بها الآن . ومن الاشخاص ذوي الاهمية فى هذا التاريخ والذين قابلتهم بدمشق فى خريف سنة ١٨٧٨ السير ادوارد ماليت . وكان يومئذ سكرتيراً للسفارة الانجليزية فى الاستانة ثم كلن يسبح فى سوريا للتنزه من ناحية وجمع المعلومات من ناحية أخرى

وقد عملت تحت رئاسة والده الجليل مرتين أثناء خدمتي السياسية وكانت بيني وبين أسرته وبينه علاقة ود متينة منذ كنا ملحقين سياسيين معاً . ومن ثم أستطيع أن أتكلم عن علم فيما يختص بصفاته التي أسيء فهمها في مصر .

كأن ماليت رجلاً ذا مواهب متوسطة وقد درق نصيباً وافرأ من المثابرة والحرص والتعقل ولما كان قد ولد في وسط سياسي ثم وضعه أبوه في الخدمة وهو في السادسة عشرة فقد كان ذا دراية فنية تامة فكان موظفاً عمومياً كماً فيما يتعلق بتقاليد عمله وعاداته وكان في استطاعته أن يكتب بلاعاً بلفه واضحة . وكان يمكن أن يوثق من أنه لا يقول كلمة واحدة أكثر مما تجبزه تعليماته ، ولا يورط حكمته في شيء عمواً .

ولديه من المواهب ما هو أنفع وأحدى في أحوال الخدمة العادية التي كان يعمل فيها كالنصر والتحفظ في الكلام وانكار الذات وهي الصفات التي يمتاز بها وكلاء الدعاوى . ولا يخفى أن واجبات السياسي تمثّل واجبات وكلاء الأشغال إلا في أحوال خاصة نادرة . ولكن ماليت لم تكن له مواهب كسعة الخيال وقوة الابتكار وقوة التصرف تحت مسئولية في الفرص التي تستدعي عملاقاً وقراراً سريعاً . وكان آخر رجل يصلح لتدبير الدسائس والقبض على باصية المواقف الحرجة كما كان لطيفاً غير جذاب وفيه طعولة كثيرة ما ظهرت في حياته الخاصة وكان كثير المثابرة حسن السلوك . وكانت استقامته ظاهرة بصفة خاصة لصغر سنه وكان يفضل عمله معاً يكن قليل الاهمية علي أي ضرب من ضروب التنزه والاسترواح حتى لقد كان وهو في الاجازة يقضي بعد ظهر أكثر الايام في نسخ البيانات في مكتب والده بوزارة احماتية مفصلاً ذلك على عمله في البحث عن شيء يشغله في مكان آخر .

وقد غنيت بالدقة في وضعه لانه انهم في مصر بالطبع والذس والتلق وكل هذا مناقض لطبعه الهادي . فلما تسكن لديه روح مجازة لا في عمله ولا في مسراته ولو كان كذلك لرافقنا الي بلاد العرب كما اقترحت عليه ولكنه لم يكن بالرجل الذي يعدل عن الطريق المطروق ومع اني أثرت اهتمامه على قدر طائفي بشروعي الروائي فقد فضل السير في طريق السياحة العادية ومن ثم مضى بعد بضعة أيام الى القدس

أما سياحتنا فكانت تختلف عن ذلك كل الاختلاف . وقد اتفق لنا من الأمور الهامة والأحوال الشائقة أكثر مما توقعنا . فشرت تفصيلاتها بالفرنسية والإنجليزية بعنوان « حج إلى نجد » : واني لا أرى بأساً في أن أذكرها ها بامجاز في بضع كلمات — سافروا بطريق الحج العمادي إلى المراتب ومن هناك إلى جبل حوران حيث أعطانا زعيم درزي من أسرة الاطرش رقيقاً أو ان شئت دليلاً وهكذا انحدروا في وادي السرحان إلى الجوف حيث كان لمحمد عروق بن شيخ نمر ، وقد كان مسافراً مضاعف قرابته . وبعد ان قضينا مع هؤلاء بضعة أيام في اجنيز « نفود » وهو معبر حط في الصحراء الرملية الكبرى يستغرق قطعه عشرة أيام وصلنا « حائل » حيث استقبلنا الأمير محمد بن الرشيد الذي كان يومئذ سلطان نجد المستقلة بكل مظاهر التكريم على الرغم من اننا لم نحمل اليه خطابات أو توصيات . وقد كانت جديتنا الإنجليزية جواراً كافياً في نظره . وكان قد اتصلت به اشاعات عن زيارتنا في العالم السابق لكثير من مشايخ عنزه وشمس . وكما قد تعلمنا إلى ذلك الحين من اللغة العربية ما يكفي للتحدث وقد وجدناه نبيلاً لطيفاً شديد الاهتمام بسماع كل ما لدينا من أنباء العالم العظيم المعزولة عن نجد عزلة تامة بما يحيط بها من الصحراوات . وكلنا توافقا لمعرفة آرائنا في كل الشؤون ذات العلاقة بجزيرة العرب ولا سيما فيما يخص شخصيات رعاء البدو من أعدائه أو نظرائه . أما السياسة الأوروبية فلم يكن بها الا قليلاً وكذلك الحال بالنسبة للاستانة ومصر . ومع أن نجداً كانت تعتبر في بغداد ولاية عثمانية فان أمراء الروهابيين لم يترفوا قط بسيادة السلطان عليهم ولم يكن بينهم وبينه أثناء القرن الماضي كله الا العداء . وكانت ذكرى غزوة محمد علي الكبير لنجد لا تزال حية . وكذلك كان لتبليلا مدحت ماشا على الحساء عند خليج الصحم وحمله المكروهة على الجوف يذكران بالملت في حائل وكان من دواعي رصائه عا اننا قدعنا عليه بغير أن يكون نمة دخل لاية سلطة عثمانية .

وكانت نتيجة هذه الزيارة الودية لعاصمة بلاد العرب المستقلة وما رأته فيها من نظم الحكومة الحرة التي عاشت في قلب تلك الحريرة العجيبة قرونا عديدة أن

راد محمسي في عواطف الحب والاعجاب التي كبت أصمها للحسن العربي والواقع أن « حيي السياسي الاول » كان لذلك الحسن المحيد ولقد كل حياً ما روح يستحوذ علي يوماً بعد يوم حتى عقدت الية على أن أبذل من ما حيني كل معونة أستطيعها لمساعدته على الاحتفاظ بفرزة الاستقلال التي شهدتها فيه . وقد تراءت لي حرية العرب أرضاً مقدسة واعتقدت أن لي فيها رسالة يجب أن أؤديها وعدى اى لم أبالع في تقدير المضائل التقليدية التي رأيت القوم دائنين عليها هالك .

ان نظام الحكم الدوى لا يفصل إلا قليلا في عرف الشرقيين نظاما بوضع للسلب والهب . والواقع أنه ينحط الى ما يقرب من هذا المركز على حدود البلدان للتمدينة . أما في قلب بلاد العرب دأبها فليست الحال كذلك . فقد رأيت « الحرية والمساواة والاخاء » تعيش عيش الحقائق الحية في نجد وتستمتع بها هناك كل رجل حر ولم أرها كذلك في أية بلاد أخرى من البلاد التي ررتها في الشرق والغرب ولا في أوروبا التي نبأني فيها بهاتيك العم وان كنا لا نملكها في الحقيقة بل ولا في فرنسا حيث نجدها معروضة للابطار — كتابة — في كل مكان . فني نجد تعيش هيئة اجتماعية طبقا للنظام الذي يحكم به دعاة المثل الاعلى في بلادنا فلا صرائب ولا بوليس ولا تجنيد ولا اكره في أى شيء . ولا قانون لهذه الهيئة إلا الرأى العام ولا نظام الا ماعليه مبادئ البيل والشرف . وهذا كذلك أناس فقراء ، قانعون على فقرهم وعاشون في رخاء نظراً لقلة احتياجاتهم — أناس أحبوا على كل سؤال القيت عليهم (وباطالما القيت أسئلتى هذه بنصافي غير هذه البلاد) بقولهم « الحمد لله ، لسنا كثير ما من الام . ان لدينا هنا حكومة منا ونحن راضون قانون » وهذا هو الذى ملأني دهشا وسرورا . وهذا هو الذى حولني من رجل لا يعبأ بما يرى من الآم العالم الشرقي الي رجل يفيض بالغيرة علي بسط نعمة الحرية على الامم التي تزوج تحت الاغلال والقيود . وقد أيدت اعتقادي ورسخت أُمالي سياحتي خلال الربيع التالي في العراق وحوى ايران تلك البلاد الاكثر مدنية وأقل سعادة وهاء من نجد . والواقع أنف نحدأ انما هي تقيض أودية العرات الدنيا التي يسكنها شعب عربي أنزل به الحكم العثماني صنوف الفقر والانهطاط .

وانشئ من ذلك أهل عربستان الإيرانية . وقد فكرت فيما يمكن أن يعيد لمؤلا .
 أقوم نلهم المفقود ورخاهم واحترامهم لاسمهم وحيل لى لحطة أن الحماية البريطانية
 قد تكون وسيلة الحاة . وكانت هذه الافكار تسكون وتنجدى عفى أثناء
 ساحتنا البرية الصعبة من بغداد الى بوشير على الخليج الفارسى ثم طريق البحر الى
 كراشى حتى وصلنا الهند حيث كانت تفتقر لى نجارب من وراء آخر وحيث تلقيت
 نوفاً جديداً فى الشؤون الشرقية .

وكان سبب ذهابنا الى الهند بعد ساحتنا الصعبة ادا وحدا فى بوشير خطابات
 كتبها لنا لورد ليتون الذى كان صديق الحميم منذ عدة سنوات وهو يدعونا فيها
 ليلونه بسيملا . وكان ليتون الذى لا أقول هنا شيئاً عن صفاته الشخصية الجذابة
 بعد الذى قت به قبل الآن من حقوق ذكراه المحبوة موطناً سياسياً مثلى وقد
 خضعت معه فى لشبونه سنة ١٨٦٥ وقد قرضنا الشعر معاً وعشنا فى صداقة متينة
 استمرت إلى اليوم .

فالآن — فى سنة ١٨٧٩ - كان قد مضى عليه عامان حاكماً للهند وكاد يختم
 حلتة الاولى على الافغان بسجاح وأمضى معاهدة « حداماك » خلال أول شهر
 قضياه معه . وكان ليتون ممن يؤمنون بالحراقات ويعتقدون بالاوهام رغما من
 سلامة ايمانه الدينى فقصى مدة الحرب وهو يرسل فى الهواء ساطيد صغيرة فاذا
 لوتفت بسرعة فى الهواء اعتقد أن جيوشه ظافرة والعكس بالعكس . وليس معنى
 ذلك أنه كان لصعود هذه المناطيد بسرعة أو ببطء تأثير فى قراراته فقد كان كاملاً
 مجداً متقلاً . ولكن سرعة المناطيد كانت نهديه أعصابه التى كانت أبداً متوترة
 لما كان يراه فيها من دلالة غير عادية حمل نفسه على الاعتقاد فيها . وقد قرن بين
 وصولى سلا وبين التحول الحسن الذى طرأ على القتال واعتقد أنى تأثيراً سعيدياً
 فى أحواله ما بقيت معه . وقد أسرى لى جميع أفكاره فعرفت منه أموراً هائلة فى
 نياسة العليا لا حاجة لى الى تفصيلها هنا وإن كان سوف يوجد بعضها فى هذه
 المذكرات بعد . وقد أظهر لى عطشه على كرجل صاحب آراء عربية ورواى

وشاعر وأمر السير الفريد ليال الذي كان سكرتيره لشؤون الخارجية أن يعطيني كل المعلومات الممكنة .

ولم تكن حكومة الهند حينذاك غير راغبة في أن تدخلوا إلى الامام خطوة في الخليج الفارسي . وكانت البحرية الهندية قد تعودت في بضعة الأعوام الأخيرة أن تشمل المواقيت العربية بنوع من الحماية مقصور على منع القرصنة ومنع القبايل من القتال في البحر مع الامم عن التدخل معهم في البر . فكل هذا نوعاً من الحماية محموداً وقد رفضت حكومة كلكتا الاعتراف بمراعاة السيادة الهندية على تلك المواقيت . وسكانها . وكان السلطان عبد الحميد قد بدأ يزجج سلطاناً في الهند يث الدعوة للجامعة الاسلامية . وقد طموا أن هذه الدعوة أخذت تؤثر في ولاء مسلمي الهند . ولذلك كانت فكرة الاستقلال العربي مستحثة من وجهة النظر الرسمية . وقد أحسن السير الفريد ليال الشهادة لي عد لورد ليتون حتى لقد اتفقنا على أن أعود في الشتاء القادم إلى نجد وأحل رسالة ودية من حاكم الهند إلى ابن الرشيد . على أنني مسرور الآن بعد أن عرفت أساليب حكومة الهند لعدم تنفيذ ذلك المشروع ولو فعلت لمكنت وقت نفسي موقفاً كاذباً وأكون قد تبرعت غير متعمد بعمل نفسي أداة في يد سياسة ترمي إلى استعبادهم مما حسنت نيتي وعظمت رغبتي في مساعدة العرب بخدمة قضية الحرية . فإن من سينت أساليب السياسة الاستعمارية البريطانية أنها لا تستطيع أن تتدخل بين قوم أحرار الا وتنتهي بعمل سيء . حتى ولو كانت قد بدأت عملها حسنة . ذلك ان هذه السياسة عملاء بالاغراض الانانية . وكثرة هذه الاغراض تقلب أحسن البدايات إلى أسوأ الخوام

ولكن هذه الاشياء لم تسكر . كل ما دار عليه البحث بيني وبين ليتون وروسيه — وقد كلف وزيره المالي السير جون سترانشي من علمي أساليب المالية والاقتصاد الهندية وطرق مكلفاتها تصحط وجباية ضرائب الاراضي والعلة وضرائب الملح وغير ذلك من المسائل الكبرى التي كانت مدار البحث يومئذ . وكان سترانشي رئيس المدافعين الرسميين عما كان يسمى في ذلك العهد سياسة الاقتصاد في النفقات

ومن دواعي الاسف أن نتيجة هذا التعليم لم تكن عزعة اعتقادي بامانة حكومة الهند باعتبارها وصية علي مصالح الوطنيين الهنود وسأورد هنا مقتطعات من الخطابات التي كتبت أكتفي بهذا الحين . ومنها يظهر كيف كانت تؤثر في النظرات القصيرة التي كتبت ألقبها على الشؤون الهندية في مراكز الحكم الرئيسية وهما في المقتطعات : « لقد حاب أملي في الهند التي صرت أعتقد أنها سبنة الحكم كسائر البلاد الاسيوية مع فارق واحد هو أن النبات هنا حسنة وهناك سيئة . فالصرايب هنا فادحة والبلاد في أيدي حكم أجانب ويرى الانسان هنا الاسراف في الاموال العمومية ما يراه في تركيا فندعا نعتقد أن المسرفين هنا بلها . وليسوا لصوصاً . ومع ذلك فالنتيجة واحدة ولست أرى فرقاً بين أن يرغم الهنود الذين يتضورون جوعاً علي الاكتاب لانشاء كنيسة في كلكتا وبين اراعام البلغاريين علي دفع نفقات قصر يشيد علي شاطئ البسفور . ان الفقر يأكل هذه الامبراطورية السكيره في حكومتها المركزية ولا سبيل الي اسعادها الا بشقها وترك كل شئ يحكم نفسه » .

وكتبت في خطاب آخر الي صديق آخر يدعي هاري براند وكان يومئذ عسواً في البرلمان وهو الآن لورد هامبدن : « ان الوطنيين — كما يسمونهم ها — ليسوا الا قبيلان من الرقيق فهم مروعون نصحاء وقد هزلت أجسامهم . ومع اني محافظ وعصو في كلوتون كلوب أعترف بأنني قد ارتعت من القيود التي تقبل الهنود وان تقني بالمظلم البريطانية ونعمة الحكم البريطاني قد أصيبت بصربة شديدة . لقد درست ألفاظ المسالية البريطانية علي أحسن أساندها — ورواها الحكومة وكبار موظفيها — فانتهيت الي الاعتقاد باننا لو تأثرنا علي « ترقية » البلاد بالسرعة التي فصل بها الآن فلا مفر لاهل البلاد من أن يلجأوا في آخر الامر الي أكل بعضهم البعض اذ لا يمكن أن تبق في البلاد عبر أحسادهم الآدمية . ولعمري لست أفهم لماذا تأخذ نحن الانجليز أموال هؤلاء الهنود الذين يتضورون جوعاً لشئ . لهم بها خطوطاً حديدية لا يريدونها وسحواً وملاحية للمجانين ومباني أثرية للسير ياترو فرير . كلا ! ولا أعرف لماذا نعلم من أودم البرد القليل حيوشاً من رجال البوليس

والحكم والمهندسين . انهم لا يحتاجون شيئاً من هذا ولكنهم في أشد حاجة للارز كما يظهر لكل من يرى صلوهم الباردة . أما الدس العادح الذي ألقى علي عاتقهم فالشرف يقصى بانكاره كدس على الهدى على الاقل ، وليس في طاقتي أن أرى الفضل الاذي الذي تدعيه الحكومات بفرصها صرائب على قوم لتسديد ديون لم يفترضوها بل اقترضتها الحكومات . ان جميع الديون العامة حتى في البلاد التي تحكم نفسها بنفسها قليل أو كثير من النفس اما في البلاد المستعبدة استعباداً أحدياً فهي لا تعدو أن تكون سرقة » .

وعلى العموم كلن لرياني القصيرة مراكر الحكم في الهدى تأثير كبير في تكوير آرائني فيما يختص بمائل السياسة الاستعمارية الكبرى ونوجيها في الوجهة التي جرت فيها فيما بعد . على اني كنت لا أزال أعتقد قليلاً أو أكثر أن محسن المقاصد وان لم أكن أعتقد بمحسن النتائج في حكمها الشرقي وطلنت أن في الطاقة تحسينه وأن الجمهور البريطاني لا بد أن يصر على ضرورة تحسينه اذا عرف حقيقته .

ومن آخر ذكريات الشهرس اللذين قضيتهما مع ليتون في تروهوف كما كان يدعي قصر الحاكم يومئذ في سلا ، عشاء جلست فيه الي جانب كافاناري وكل ذلك في الليلة التي بدأ في صباحها السفر في مهمته القاتلة الى كابول . وكلت هذا رحلا يبعث اهتمام المرء به وقد أخبرني انه حفيد تاجر من أهل فينيسيا كان قد أقترض بونابارت مالا كثيراً حين احتل جيش الجمهورية الفرنسية فينيسيا ولم يسترده قط . على ان الامبراطور كافاه بان جعل ابيه وزيراً خاصاً له فصار هذا الابن من أشد المحلصين للأسرة الامبراطورية . وكان لويس نابليون كافاناري الحفيد هو أيضاً بونابارتيًا مخلصاً وقد اعتقد انه — واسمه كما هو — لا بد أن يكون له رسالة هامة يؤديها . وكان ذا ثقة « بنجمه » وأشهد أن الاخفاق والخطر لم يخطرا له ببال في الحديث الطويل الذي دار بيننا في ذلك المساء .

ومع ذلك قد كان واجباً أن يكون له نذير من الانباء المحزنة التي تكلمنا فيها أيضاً وهي أنباء وفاة ولي العهد الامبراطوري في جنوبي أفريقيا . ولما اقرقنا كنا على موعد بان أذهب أنا وامراتي في خريف العام القادم لزيارة كابول ، فقال لي

« لا تأت قبل الخريف على كل حال فاني لا أستطيع أن أجيز دار اقامتي قبل ذلك لاستقبال السيدات » ولم يشر أقل اشارة الى أي سبب أشد من هذا حطراً .

ومن الذين عرفهم في ذلك العهد والذين لهم صلة بتاريخ محزون « كولى » وكان يومئذ مسكر تير ليتون الحربى ومات بعد ذلك بهام على تل ماحوبا . وكان ليتون يثق كل الثقة بمواهبه الحرية وقد اشتركا معاً في توجيه الحملة على الافغان من سمرلا . وأحسب ان خطأه كان في تجاوزه الحد في الثقة بنفسه وفي مطامعه . وقد احتل ماحوباً لانه لم يطق أن تنتهي الحملة بغير أن يكون أحرز نجاحاً شخصياً لنفسه . وكان من أصدقائنا في ذلك الزمن ملحنند (لورد متو الآن) ولول كارو ، وبرابازون وكلهم من أركن حرب ليتون وكذلك لورد رالف كبر ، وبلودس وبان وروحاها الجيلتان . وقد عدنا من يومبای في صحبة ملحنند والماجور جاك نازن تاركين الهد في ١٢ يوليو فوصلنا السويس في ٢٥ منه ووصلنا في اليوم نفسه بالقطار الى الاسكندرية .

وأحسب أنها كانت « عدن » تلك الميناء التي عرفنا اذ مررنا بها أعظم أناء مصر في ذلك الحين وهو عزل الخديو اسماعيل . ولما وصلنا الى الاسكندرية عرفت من زميلي السابق في الخدمة السياسية وهو فرانك لاشيل الذى كان يومئذ قائماً بأعمال القنصل الجنرال في الوكالة البريطانية تفصيلات الدور الذى لعبه في هذا الشأن . وليس ثم خلاف يذكر بين ما أجبرنى به وبين التقارير الرسمية التي نشرت في هذا الصدد . لذلك لا أظن انى في حاجة لذكره هنا ولكن الذى لم يظهر في التقارير الرسمية هو الدور الذى لعبه أصحاب مصرف روتشلد في هذا الصدد . وهو دور لم يعرفه لاشيل يومئذ وقد عرفته من ولسن بعد ذلك والواقع انه كان يحق لولسن أن يفخر بأنه استطاع أن يفتنم لنفسه بواسطة هؤلاء . قال لى انه بعد عودته منبوداً من حكومته ذهب مباشرة الى بيت روتشلد في باريس وأنبأهم بالخطر الذى تستهدفه أموالهم بعد التحول الذى طرأ أخيراً على الاحوال في مصر والاسكندرية فالخديو يريد أن يسكر ديوبه ويختمى وراء اعلان الحكومة الدستورية في مصر . هذا لم يعموا ذلك فقدوا كل شيء . وبذلك محج في ادهاب آكل روتشلد وحلمهم

علي استخدام نفوذهم السياسي الكبير في مصلحة التدخل المعالج . وقد بذلوا جهدهم
عشاً أول الامر في وراري خارجي لندن وباريس بعد أن كانت الحكومة
البريطانية قد أقفلت عن ميلها للتدخل لاستعمالها مناع حروب أفريقيا وكذلك
لم يكن لحكومة باريس رغبته .

علي أن يأمن آل روتشلد الساحم من شدة الخوف على اموالهم دفعهم إلى رفع
التماس إلى سرك في برلين . وكان هذا قد شمل بيت روتشلد العبراني بمجايته منذ
ايامه في فراঙ্كفورت ولم يفعل ذلك عشاً وهنا أهمهم المستشار الألماني ، وكان يومئذ
قويًا مرهوب الحاسب ، حكومتى لندن وباريس بأههما اذا لم تستطيعا التدخل في
مصر لمصلحة حلة السدات فان الحكومة الألمانية سوف محفل قصيهم قضيتها
الخاصة . وكانت هذه الخطوة حاسمة فاتفقت فرنسا وجمهورية على أن يكون التدخل
أقل ما يستطاع عملاً وذلك بأن طلبتا من السلطان أن يعزل تابعه المسرف . وقد أُنِي
اسماعيل إلى اللحظة الأخيرة أن يصدق بأن الباب العالي يتحلي به بعد الملايين
التي حباه بها بسجاء ومع بدرات الاموال التي كل لا يزال مستعداً لاعطائها له .
نقول بدرات الاموال لأن اسماعيل كانت لديه كور محبوة على الرعم من ظواهر
افلاس . وكان الضغط الاوربي عليه شديداً حتى لقد قالوا لسن أنه قد رفضت اليه مسألة
اختيار خلف اسماعيل من اثنين أحدهما الامير حليم الذي كان يميل اليه السلطان
والثاني ولي العهد الامير توفيق وقد فصله ولسن لما يعرفه من صمعه وصلاحيته
ليكون آلة في يد السياسة . ومما يكن من الامر قد تقل الي اسماعيل البيان
اسحق الحامل نياً سقوطه وصيرورة اماراة الخديوية الى ولده توفيق . وقد كل
لاشيل هو الذي قدر عليه أن ينقل هذا البأ الى اسماعيل . وهنا أحد اسماعيل كل
ما كان في المالية من القود وجمع كل ما استطاع جمعه من العائس ومصى الي يخته
« المحروسة » ومعه مالا يقل قيمته عن ثلاثة ملايين حبه .

الفصل الرابع

السياسة البريطانية سنة ١٨٨٠

كانت وفاة كاما ماري المحررة في كاول — تلك الوفاة التي حدثت قبل أن ينتهي صيف سنة ١٨٧٩ والتي ورطت ليتون في حرب جديدة ومتاعب سياسية لا آخر لها — قد وضعت حداً لمشروع السياحة ذلك العام سواء أكان في أفغانستان أم في بلاد العرب ومن ثم قضيت اثني عشر شهراً كاملة في إنجلترا وهي من أملاً أياي بالعمل والمشاكل ومع أني كنت قد تلفت الاربعين من العمر فاني لم أكن الي ذلك الحين قد أدت أي عمل سياسي عام . ولا القيت خطبة على جماعة . ولا كتبت مقالا واحداً لانه مجالة أو خطايا محرمة . وقد حلتني الحياء الذي كنت أشعر به في شباني على الانكماش عن أي عمل في أي شكل كلب ولم تزدني تربيتي السياسية الا مقتناً للطور . ولا ينبغي أن السياسة تؤثر الحفية سواء أكان لديها ما تحفه أم لم يكن لديها . كما انها لا تنق بالاقوال التي تلقى علانية وتغار عيرة شديدة من قلة تبصر الصحف . ولكن الحال لم تلبث أن تغيرت . ومعا كانت الكيفية التي أنفعت بها نفسي بان لي مهمة أودبها في الشرق ، ثم معها كانت هذه المهمة مبهمة فقد بدأت أنكلم وأكتب وتغلبت على حيائي الي حد اني ظهرت مرتين على منبر . وكانت أول مرة تكلمت فيها علي هذا النحو في اجتماع عقده الجمعية البريطانية في شيفلد يوم ٢٢ أغسطس وكنت قد دعيت له كمتأرجح ممتاز ، كما دعي سربانتو ، وبرازا ، وكلمبرون وكلهم ذور شهرة افريقية وفي هذا الاجتماع عارضت كلمبرون في تحيذه مد خط حديدي في وادي اليرقات . وكنت أستطيع أن أنكلم في هذا الشأن بخبرة تزيد على خبرته فانه كان قد أحجم عن السير في الجانب الرعر من هذه المنطقة في العام السابق علي الرغم من انه بدأ سياحته بصحة كبيرة . وهذا الحز ، هو الواقع بين ضداد وبوشير . أما نحن فقد عمرنا الطريق كله من البحر الي البحر . وقد استأفنت معارضتي في مقال نشرته مجلة « فورتيتنلي ريفيو » وهو أول مقال كتبه . وكل حو

مورلي بجزر المحلة جيداك وقد قدمت له توصية من ليتون واستطعت أن أثير اهتمامه بأفكلري الشرقية وقد عاد على هذان الخادنان — الخطابة والكتابة — بالشاء الخم وشجعان على الاستمرار في نشر دعوى وكنت مشغولاً كذلك بفرض الشعر . ثم كان هناك أيضاً كتاب روحي عن السياحة « حج إلى نجد » لأبويه وأطيعه . هذا العمل المصاعف شغلني حد الشغل في الشتاء كله .

علي أي لم أشغل نفسي بالسياسة الداخلية قط مع أن الوقت كان وقت أزمة وكان غلادستون — والانتخابات قريبة منه — لا يفك عن الوعظ والخطابة وكان يبلى مع المحافظين فيما يختص بالملترا أما في المسائل الشرقية فقد كنت أعتر غلادستون متعصبا على قلة حيي للأتراك في ذلك الزمن . وكان أصدقائي ماعداً براند وهلمتون محافظين ثم أن حيي ليتون حجب عن عيني أسوأ أنام دررائلي الاستعمارية . وقد تشئت في ذلك الخيس فكرة ما لها أن المجترة قد تصلح أداء خير في الشرق إذا أحسن تغير معاهدة قبرص . وكنت لازال أترجح فيما يختص بموقفها الاستعماري بين الرجا والخوف ولم استقر علي رأي حتى دوت أفكلري . ومن شواغل ذلك الشتاء الكبيرة عابئي بنظم اصطلي في كرات . وست فيما يختص به في رسالة مستمرة مع العالم الرياضي . ومن الغرابة يمكن أن آرائني الخاصة بلحوم الخيل كانت أول فرصة مهدت لي الاتصال بغلادستون كتابة .

وكان عطفه المشهور علي يوان القديمة قد أثار فضوله لمعرفة آرائني في خيلها وطريقة تربيتها فأرسل يستوضحني كل ذلك بواسطة المستر تولز محرر مجلة « فورتينيل ريفو » فهذا وما حدث من تعيين صديق ادوارد هاملتون سكرتيراً خصوصياً له حين حلب دزرائيلي في رئاسة الوزارة في إبريل كونا الحلقات التي أدت بعد ذلك إلى ترأسنا في الشؤون المصرية .

وبينسر معرفة الثورة الفكرية التي كنت أعيش فيها أثناء ذلك العام سواء أكان في الآداب أم الاجتماع أم السياسة باقظاف مد من مذكرات كنت أخذت في كتابتها في ذلك الحين وسأقصر هذه السذ علي ما كان خاصاً منها بالشرق . والسدة الأولى يصف فيها لورد سرادفورد رادكليف الذي أبت سفيراً لبريطانيا

في الاستانة زمناً طويلاً والذى يعيش الآن وقد شاخ في عرلة مع ابنته علي حدود
كنت ومسكن :

مارس سنة ١٨٨٠ زيارة للورد رادكليف في فرائد أعطاني اللورد ورقة
عن الاصلاحات في تركيا . وهو يزعم ارسالها للتيمن وقد قرأتها في فراشي . وهي
عمل رجل مسن كلها ابهام وارتيك وليس فيها الاقليل من مصاء العزم . وقد كان
الواجب ألا يكتب الشيوخ الا الدعوات . وقد بلغ اللورد الراحة والتسليم
من عمره .

ولسكه مع ذلك شيخ عجيب قد ارتسمت على وجهه امارات التقوى وكونه
مزيج من الابن وورق اللورد وعينه زرقاوان صافتان وبياض شعره كياض الثلج
ومم أن سمعه قد ضعف فهو لا يزال مجيد الكلام . وقد رددت عليه بمذكرة أودعتها
أرأني في تركية آسيانم كست أقضى معه الصباح مصعباً له كريمة القديعة فعد كان قائماً
بأعمال السفارة البريطانية في الاستانة حين مر بها لورد بيرون في سياحته الموصوفة
في قصيدة « تشيلد هارولد » وقد لبث معه ستة أسابيع في رهة يومية . وكل بيرون
بومذ لطيف المعاشرة ولم تكن أحاديثه قد امتلأت مكانة القاذعة . وكل الشيخ
رادكليف قد التقى به قبل ذلك سنة ١٨٠٥ في ملعب كرة اذ كانت تنسار مدرستا
« آتون وهارو » وكان كل منهما يلعب مع فريق . قال الشيخ « وكان بيرون يلعب
الكرة (كركيت) على حبر ما يمكنه عرجه » قال وما ملت قط لأن أصدق انه كان
بين بيرون واللادي كاروتش لام أى خطأ حقيقى ، وكل ما في الامر لم يتجاوز
الرحمة والرفة والخير وكلها أمور لا تنفق مع ما اشتهر به بيرون . وقد كنت أفضل
جلوسى لاستماع هذه الذكريات القديمة على سماع حديث أجمل امرأة في لندن .

١٦ مارس — تناولت العطور مع رفرز ولسن ودارت مناقشات حول
شخصية الكولونيل غوردون . والعالم كله متفق على أنه رجل بارع . وقد حكم
السودان وحده رهاً أربع سنين واحتث بحارة الرقيق من حدودها . وقد عاد
اليوم إلى لندن فلم يكلفاً شئ . ولم يره لورد بيوكسيلد (درانيلى) ولا غيره
من الوزراء . وقد أخطأ في أول الامر فيما يخص بعلاقاتهم وقد مر ساريس في

عودته واحتمل لورد ليوتس في السمارة البريطانية ورجاه في أن يسعي في تعيين خلف أوربي له في السودان . وهدد بأنه إذا لم تفعل الحكومة البريطانية ذلك يذهب إلى الحكومة الفرنسية . وبعد هذا دارت يبه وبين ليوتس مراسلات كتب غوردون في خلالها خطاباً حاداً يقول في حاشيته « أن من دواعي ارتياحي ثقني بأنه بعد عشرة أو خمسة عشر عاماً يتساوى الجميع . ففي صندوق أسود طوله ستة أقدام ونصف وعرضه ثلاثة أقدام تودع الرفات سواء أكانت ذات صغير أم وريث أم رفات خادمك الخاضع المطيع » فهذه الأقوال صيرته ممنوعاً في نظر الرجال الرسميين . وكان اليوم قد ترك أوربا ونفض ثيابها عن حدائه قاصداً إلى زربار .

ولست أشك في أن هذا المأذون يمثل أخلاق غوردون كل التمثيل وهي منسجمة مع كثير من الرسائل التي بعث بها إلى السير ايفلين بارن (لورد كرور) بعد ذلك بأربع سنين . وقد كان موظفوناً أبداً يكرهونه لعوده خرق قواعد سياستهم والاخلال بمناهجهم الرسمية . وقد اعتقد بعضهم فيه الخسوس واعتقد آخرون أنه سكير وآخرون أنه متعصب ديني إذا عرضت له مشكلة استفتى فيها بحيلة أو اقترح عليها ناقلاً قطعة من العملة في الهواء . فلم يفهمه أحد ولا وثق به أحد . في الوقت الذي اكتب عنه — أوائل ربيع سنة ١٨٨٠ — كان غوردون مستاءاً جداً من الحكومة البريطانية بسبب اللور الذي لعبته في عزل اسماعيل . وكان غوردون لسبب ما يحب اسماعيل ويكره خلفه توفيق فخيم علم في الخرطوم بما حدث تحلى عن الحكم وساء علي وجه أخضر أن خلفه فيه أحد الباشوات الأتراك ولم يخلعه أوربي كما كان يريد . وقد كان غوردون من أهل البوغ وله كثير من الصفات انبئيلة ولكنه كان كذلك مجموعة مناقضات ويظهر أن للوطنين عنذاً في اعتقادهم أن عقده لم يكن سليماً في كل الأوقات وقد كان هذا هو الرأي الرسمي فيه — كما سيظهر بعد — حتى في الوقت الذي عهد إليه فيه بأموريته الأخيرة في الخرطوم .

وهناك نفة أخرى تاريخها ١٦ مارس أيضاً - مرت بالكردينال مابح وكان حديثاً في السياسة وقد سألي لمن أعطي صوتي في الانتخاب ؟ فقلت سأعطي صوتي للحمه خبيلات . فقال تريد أن تقول بانك لن تنتخب أبداً فقلت لا أستطيع

أن تأثير في نمى اهتماماً بمثل هذه الأشياء ، وأطرد الى المدينة كأنها مقصي عليها
بافتناء ، والى السياسة كأنها أداة لا تستطيع أب تعمد النهاية أو تؤخرها . فقال
الكردبال هذا هو رأيي وان كنت أبيع على مسألة أخرى . في الغالب ان أوروبا
تروض المسيحية وتروض معها القامون الادبي . وقد تحدد اليوم حكم القوة علي نحو
ما كلن في أقدم الاحيان ، ولا يمكن أن يكون لذلك نتيجة غير سوك الدماء ، والخراب
وربما قام على انقاض الكنية تنى . آخر . ثم نكلما عن أشياء . فقال ان « رالف
كير » أخبره أن اليهود يعرفون خفة وطأة حكمها هناك في الخوف وأنهم محترمون
الروسين لانهم يحكمون بالقوانين العرفية . فقلت ان الروسين أسويون وهم يحكمون
بالطرق الاسيوية -- وبالتدليس اذا أهكى — اذا لم يكن بالقوة . وهذا هو ما يفهمه
الاسويون . فقال الكردبال ان الروسين أسويون كما تقول وأريد على ذلك ان
تجهلت بوديون وليس الهلينية من تاج الغرب ولكنها محصول شرقي .

وقد دارت انتخابات سنة ١٨٨٠ على مسائل الساسة الخارجية أكثر منها على
أي شيء آخر . وكان غلادستون قد هاجم بكل قوته مشروعات دررائيلي في
اتسوع الاستثمار . ووصف بمقدان الركن الادبي بداحله في الاستانة وبرلين
فصلحة الأتراك كما أعجى بأشد اللاتعة على استيلائه على قبرص وشرائه أسهم قناة
سويس واعتدائه على مصر — كما حمل على حملتي الافغان وعلى حرب جنوب
أفريقيا التي كانت لانزال ناشبة .

أما فيما يخص مصر فكان غلادستون قد أعلن آراءه كتابة قبل ذلك اد كتب
مقالا في عدد أغسطس سنة ١٨٨٧ من « مجلة القرن التاسع » بعنوان « الاعتداء
على مصر » وأعرب فيه بصارة حلية قوية عن معارضة أحد المجلترا على عاتقها أبة
مسئولية على ضفاف النيل . وهذا المقال من الشهرة والترفع عن المساوى التي
أصابت مصر على يده بحيث يجب أن تقتطف شتاً منه وقد ذكر في هذا المقال
أنه يعارض في اعتداءه كذا لعدة أسباب . أولاً — لأنه يزيد في ثقل الحكم لشرقي
المبصوع على عاتق بريطانيا والذي أصبح له عظمى الى الآن ثانياً — لان
توسيع الحكم الاستعماري لا يمكن الا بوسائل شائعة . ثالثاً — لان زعم حجة طريق

الهدى ما حلال وادى النيل رعم كاذب لان طريق رأس الرحباء الصالح هو طريق المواصلة الحقيقية . وراعياً لان أى تدخل فى قناة السويس أو فى القاهرة لا بد أن يؤدى الى محاربات أخرى فى أفريقيا . قال « وسواء اشترينا وجودنا فى مصر أم سرقمناه فلا شك فى أنه سيكون نواة امبراطورية فى شمالى افريقيا وهي امبراطورية لا بد أن سمو حتى تصل الى مابهم البحر الابيض وحتى نصل أبدياً منها — فوق خط الاستواء الى أبدينا الأخرى فى نائال وكاب تون دع عنك الترנסفال والبرتغال فى الحبوب والخمسة وريزارا اللتين تتلعان أثناء البياحة . وقد تنعم من حيث سعة الاراضى بامبراطورية فى كل ركن من الأركان الاربعة ولكسان يكون منها آمين . »

ثم كتب كذلك فى معيى المحافظة على الحكومة الداتية الاسلامية فى القاهرة فقال « ان الاحساسات التى قد يؤدها فى مصر سوف تكون معقولة وعادلة لأنها مأهولة من قرون كثيرة شعب اسلامى وقد حكمت هذا الشعب سلطات اسلامية وكان لمصر فى وقت من الاوقات سلاطين . وكانت مستقلة استقلالاً داخلياً أثناء لسعية تركية وهذه حالة سعيدة فى أى بلاد كانت فلا يجوز لنا أن نغيرها . ثم ان شكاوى الناس هناك جسيمة ولكن لا يوجد دليل على انها تستعصي على الشفاء . بعد أظهرت التجارب أن الاسلام لا يستطيع أن يؤسس حكومة صالحة على الشعوب المتعددة المسيحية ولكن أى دليل لدينا على أن المالة لا تكون كذلك . وانه يمكن تحقيق الاعراض السياسية اذا كانت الحكومة الاسلامية مسيطرة على شعب اسلامى حيث لا يوجد مناقصات الدم او الدين أو العادات أو أساليب التعبير » ثم تكلم بالمشكلة التى تنشأ بين بريطانيا وفرنسا على مصر فقال : « أعتقد أن اليوم احدى يشهد احتلالنا مصر يشهد كذلك توديعنا كل ما يبسا وبين فرسان العلاقات السياسية الودية . ثم أنه قد لا يحدث عراك فى الحال ولا مطامرات حارجية ولكن سيكون حقد ساكن متأصل كذلك المخذ الذى كانت تضمره أمريكا المائتاً ، الحرب الاهلية وهو — قد الذى انطفاً الآن . وعنى عن البيان أن الامم قوية الذاكرات » وقد حتم هذا القتال مدعوة حارة سأل الله فيها أن يمسد دسائس الزوارات ويحقق بحرر الشرق قل : « ان الارض لم تنعم بمثل هذا الاقصاد

من أجيال طويلة ولا يسعنا نحن المحلزون ألا أن نحزن ونألم لأننا لم نقدم شيئاً في هذا السبيل على أنه كيما حدث فإن أرحو أن لا تقع في شر من هذا التعمود . وأنخبراً لنا الرجاء بعدم الوقوع في الخطأ العمد مصافاً إلى التحلي عن الواحد .

ولم يكن في طاقتي إلا أن أعطى علي هذه التصريحات البيلة التي كررها غلادستون في خطبة أثناء الحملة الانتخابية في سنة ١٨٨٠ لو أنها كانت قيمت بلحلاص أو على قواعد السياسة التي اعتزم الاحرار أن يسيروا عليها إذا هم تولوا الحكم . ولكن غلادستون لم يوح الي في ذلك الحين شيئاً من الثقة وخيل الي أن الفرق بين المحافظين والاحرار كان طفيفاً .

٢٠ مارس . تعثى معاً اليوم حون بولن سكرتير لورد ريبون الخاص . وقد تكلمنا في الانتخابات وقلنا انه لا يوجد فرق يذكر بين المحافظين والاحرار ولن أعطي صوتي . ومع أن سياسة سلبري ليست خساسة كسياسة لورد رافيل أو غلادستون دها اميل الي الالمانيين من أن نرخصي ولا شك في أن رول ألمانيا في الاستانة يكون أسوأ من أى شيء . يستطيع الروسيون أن يفعلوه .

٦ ابريل - باريس . (كانت الانتخابات قد انتهت وأسمرت عن أعلية كبرى للاحرار) تناولت الفطور أنا وجود فرى وب تدرز (ابن عمي فرسيس جون كرى) ثم ذهبت إلى السفارة . شفيدل (سكرتير لورد ريبون الخاص) مبه بحكومة الاحرار الجديدة وبما قاله لمرنجتون وبما قاله غرنفيل له . ومع اني معتكف عن السياسة أظن ان نجاح غلادستون نكبة كبرى . والاحرار اقوياء جداً فلامناص من ان نرى لم نجحارب كثيرة على الدستور البريطاني . وستظل الآن كل قوايس الالهاب والاراضى . وكذلك سوف يطرأ على سياستنا الاسيوية من التعديل والتعذيب ما ننوء به . ولا يعرف الاحرار شيئاً عن الشرق وسيعجنون . عن عكس سياسة المحافظين كما يحافون تنفيذها كما هي الي النهاية . وسيعملون على اصلاح تركيا ومنى تعذر عليهم الاصلاح طاشت احلامهم واندفعوا الى الحرب . وقد ساء في هذا التغير شخصياً اذ لا بد ان يستقيل ليتون مع الوزارة فتقوم اللوائح بيسا وبين زيارة الهد من الشتا . القادم ، ولكن هذه كلها اشياء نافية في سير التاريخ .

٩ أبريل — باريس . جاء في خطاب من آن مفعم السياسة . سيأخذ هارنجتون رئاسة الوزارة ويأخذ البحرية عوشن والمالية علاستون . ولن يتغير شيء في السياسة الخارجية فستحفظ بغير ص وتساكن روسيا وتدار ركبا من عاليولي ولا يعرف لورد ريبون محله أن كان سيكون له محل . ولا رت اسمهم يصور مدام توفيكوف (١) بأنها نجمة علاستون السعيدة ... تقيت مع آدمز سكرتير السفارة الاول وقابلت هناك دفرر ولس الذي يذهب عدداً الى مصر مع دابسي وسوليفان وسيقوم ولسن بمهمة التصفية.

٢٦ أبريل — عدت الى إنجلترا حيث أصبح علاستون موضوع حديث الناس وقد تقلد رئاسة الوزارة واحاط معه بمجموعة معدومة الكفاءة مثل تشيلدور ورايت وعرافيل . وسيأخذ رانجتون الذي هو رجل من الطرار الثاني وزارة الهند ويذهب إلي الهند وريبون ولا يزال هذا الترتيب الأخير سرّاً .

وعلى ذلك لم يفعل علاستون شيئاً حدياً في سبيل تغيد السياسة الذي كان يعظ بها غير ارسال ريبون إلى الهند . فريبون هذا ليس بالرجل التابع ولكنه رجل جد واستقامة . وقد أخذ على عاتقه مهمة الاحتفاظ بالملم على احدود الهدية والشروع في سياسة جديدة الغرض منها تنفيذ المنشور الملكي الخاص بالكم الداني بين الوطنيين . وقد أخذ معه غوردون كسكرتير حصومي فائز دهشة العالم الرسمي الذي كان يعد غوردون مجنوناً . وعندي أنه لم يكن يستطيع أن يبرهن على حسن نيته نحو الهندوبشي . أكثر من هذا . على أن غوردون لم يكن من طرد السكرتيرين الخصوصيين حتي مع رئيس كريون فلم يكند يزل في بومباي حتي اسفال . ولا أحسب أن ديبون كان مخطئاً في اختياره بل أعتقد أن الاستقالة ترجع إلى ثورة غوردون على جميع القوانين والعادات . وسأصف حكم ريبون في الهند عما أصل إلى سياحتي الهندية الثانية في سنة ١٨٨٤ . ويكي أن أقول هنا أنه اذا لم يكن أفاد كثيراً فذلك

(١) كانت مدام توفيكوف امرأة فنانة في خدمة الحكومة الروسية وكانت قد جاءت الى إنجلترا قبل هذا التاريخ قليل ورايت في كرات وقد مكثت معنا اسبوعاً ثم مضت ووقفت الى فتح سياسي مع علاستون .

يرجع إلى حين الحكومة الانجليزية لا إليه ، وقد مرق مروق السهم في الطريق التي
وسمته له في أول أمر ولكنه — كالطفل الذي يسوق اخوانه فيضحكون منه
بالباطل والوقوف ليحد نفسه مفرداً — وجد بهه اشدة دهشه يجري منفرداً
وقد اخذ الوزراء يضحكون من مثابته بعد أن عبروا آراءهم ولم يخبروه بذلك .
ولا بد أن يكون قد تألم كثيراً عند ما اضطر هو أيضاً إلى التسليم . وقد أعطيت
جيم الماسب العليا الاخرى إلى الاحرار فغفلدورد غرايفيل وراوة الخارجية وهو
نييل حسن ، لطيف العشرة ، بحمد اللغة الفرنسية ولكنه أصم كسلان . وسياسة من
الطراز القديم — طراز التأجيل والتسوية الذي لا يعمل اليوم ما يستطيع أن يؤحله
لفعل . أو كما كان يقول سياسة التخبط وترك الاشياء تصلح نفسها ولم يكن ينتظر
من مثل هذا الوزير أن يأتي سياسة جديدة والواقع أنه لم يحاول حذيداً في تركيا
أو مصر أو في مكان آخر . فلم ترمض معاهدة قبرص ولا حوت إلى أي غرض
نافع وإذا استتبها الصغط المصيف الذي تسلط على الباب العالي فيما يختص بمحدود
الجل الاسود واليونان نستطيع القول بأن كل قديم بقي على قدمه .

وعاية ما حدث ان استدعى لا يارد واصح المعاهدة من الاستانة وعين غوشن
مكانه وهو نفس عوش الذي كان قبل ثلاث سنين من ذلك العهد اجري التسوية
الظالمة لحلة السدات وقومه — شركة عوشن وفريحيق — مهم والعمل الوحيد الذي
يدل على ان وزير الخارجية كان يذكر حملة غلادستون على الاتراك ، وكل ما عمله
ليبرس على ان غلادستون كان مصيباً كما كان دزراييلي وسلسبري مخطئين هو انه
خلافاً لما تقضي به تقاليد وزارة الخارجية ولوائعها نشر تلغرافاً سريراً كان لا يارد
قد ناقض فيه جميع ما أعلنه في تلغرافاته غير السرية عن الحالة في الاستانة .

وقد اوضح في هذه الوثيقة المشؤمة كل سوءات عبد الحميد وضعفه ولا سيما
جنبه الشخصي . وفصل ما لم يكن العالم الخارجي يعرف شيئاً عن حقيقته من نظام
الساسونية في حكومته . وكل شر هذا التلغراف حيانه كبرى للا يارد ثم انه كان
عملاً طائشاً لا تزال سياسته في الاستانة تروح تحت اعائه . وقد كلف لا يارد
صديق عبد الحميد الحميم وبالم من حوائره مالا يباله سعر اجبي فوق العادة . وقد

أظهر اسطوانات معه ثلاث يارد كما يظهر معه لصديق يستطيع الاعتماد عليه فلما اكتشف له ما اعتبره هو حياة من لا يارد فحدثنا عن مودته إلى الابد .
ومع ذلك وبقي الرعم من أن الموقف في وزارة الخارجية لم يكن مشجعاً صممت رغبة في انجذاب دعوتي أن أحصل على عطف رئيس الوزارة علي مشروعاتي وقد شجعتني على ذلك تميم أحد أصدقائي الحميمين سكرتيراً خاصاً له وهو ادوارد هاملتون « والآن المنزلة السبر ادوارد هاملتون » الذي قال انه معنا يمكن من قلب الاحوال الخارجية فان عطف غلادستون على الحرية الشرقية لم يحجب . ولم أحب عن هاملتون شيئاً من آرائه ومشروعاته وقد ذكر لي انه لا يعورني لاقناع غلادستون بها الا أن اشرها كتابة . وهناك رسائل أخرى اعتقدنا انه يمكن التأثير بها في غلادستون وهي مفصلة في مذكراتي .

١٢ يونيو — أجدني هاملتون لزيارة السيدة ل . التي تسكن بيتاً كبيراً في ميدان م . وهي ارلندية ميمنة طيبة تبلغ الخمين كثيرة الكلام والتحرير وليس فيها أثر للحمال ولا لأي شيء آخر . وهي احدي مجوم غلادستون وكانت زيارتنا لها نصف سياسية حيث كان قد بدا لي أن ألقيها بأرائي العربية والفتح رئيس الوزارة بواسطتها . وهي عطوفة علي الدين وأتاهم من العرب ولها اهتمام كبير بالشرق . وقد قرأت لنا بحماس رواية كانت تصفها على هيرود وكليونرا وبولوس قيصر . وهي رواية كنيية وان كانت قد اكثرت لنا ان غلادستون معجب بها كل الاعجاب . دعونا رولاند وهور ولن ولورنس ايرلندا للعشاء ، وهذا الاخيرة ذو شخصية جذابة وقد عاد تراً من الاساتذة حيث كان يجهد في أخذ امتياز من السلطان باراض وراء الاردن ليستعمرها أبناء اسرائيل .

٢٢ يونيو — دعونا آكل بلودن للعشاء ، وكذلك ادوارد هاملتون الذي هو الآن سكرتير غلادستون الخاص . وسيزهد بلودن عدداً الي بغداد كقيم سياسي وقد لفتته هو وهاملتون بأرائي في المسألة الشرقية .

٢٦ يونيو رارنا لورد كالتروب ورسني وندهام . وكنت ليفيت في كرايت وعرضا الجبل . وقال لي الاول انه اطلع كثيراً من أعضاء نادي ركاب الجبل على

خطابي الخاص بخيل الساق العربية وانه سيعرض المسألة في اجتماعات النادي خلال الشهر القادم وأنه حينئذ يحق لنا أن نقدر النجاح . وإذا استطعت أنت أدخل انجلترا اخيلا عربية أصيلة تتاسل فيها واستطعت أن تحرر بلاد العرب من حكم الأتراك اكون لم أعش عبثاً . طهر في جريدة سيكيتور خطابي الرابع عن « السياسة في بلاد العرب الوسطى » وأعلنت . . . مجلة فورتنيتي رفيو عن مقالتي « وارث السلطان في آسيا » . ذهبت بعد حين الى وزارة الخارجية حيث أثبت لورد نورثبروك علي خطاباتي (وهي أول خطابات أرسلتها الى الصحف) وكان السير جارنت ولسلي هناك وهو رجل قصير به نشاط ورعدة . ويشق علي المرء أن يتصور أنه قائد عظيم وقد ذكرته بزياراتنا لقبرص فقال « أظن لأدري أن نكتب كتاباً » فقلت نعم ولكننا لم نذكر فيه شيئاً عن قبرص فقال انكنا لم نكتب فيها وقتاً كافيّاً . فقلت لقد ظننا أنه لا يحسن بنا أن نذكر شيئاً عنها .

كانت مقالة « وارث السلطان في آسيا » قد قصداً بها كما أسلفت لفت نظر غلادستون الي آرائي وقد بحثت في ذلك بواسطة هاملتون الذي عرضها لطره وأن كل لم يعجب فيها الا أقل ما يمكن تعينه ، وما كان قليل الاهمية في نظري ان تصبح المقالات الارمنية كوليات مستقلة في المستقبل . وكانت الفكرة التي شرحتها هي أنه اذا كان قد منح الاستقلال لجزء من تركيا أوروبا فقد وحب أن نشجع الأتجار . الاسوية الاخرى على انحلال الامبراطورية على أن تؤلف من نفسها ايلات مستقلة وفقاً لجنسيتها .

وقد دعوت المستر غلادستون باسمه إلى أن يحقق كلمته التي القاها حديثاً وأكثر منها في مصلحة حرية الشرق وذلك بأن يستخدم الاداة التي صنعها أسلافه — معاهدة قبرص — لا في تحقيق مقاصد انجلترا الانانية الاستعمارية بل في مصلحة شعوب الشرق . وكل من وءاه شرح هذه المقالة في مجلة « فورتنيتي رفيو » ان دعيت الي ديوان الوزارة في « دونج اسنريت » حيث أعطيت فرصة سرد آرائي وتأييدها أمام رئيس الوزارة . ويتضح أن شخصيته لم تؤثر كثيراً في هذا اللقاء الاول ولكنني نشجعت على استيعاء أوجه الرأي ومن ذلك الحين كان

غلاستون يعتقد بعض الاعتقاد الآراء التي كانت تصله مي بواسطة هاملتون .
 ٢٧ يونيو - مرتت على ١ . الذي وحصلت معه كوينزرى فاحذ في احوال
 يشرح لنا آراءه الأدبية في حالة انفعال ونحس . قال ان هناك كائنا أعلى ، لا ألها
 آدميا ، ووحدا يهدى المرء في محته عن الكمال . والقاعدة الرئيسية هي الثقة
 بالانسانية . والواحد الرئيسي هو اللوع بالحد والروح الى أوج الكمال . ثم يكن
 الماركيز بالمتكلم القرب اللسان فاقترح أن يتلو عليها شعراً بدلا من الشرح والبيان .
 وهو شعر قرضه - وبينما كنا في انتظار التلاوة دخل فيليب كرى ومعه شبح
 قصير ذو أذنين طويل وعيين سوداوين وهو ملككم حاش السفير العارسي . وقد
 جلسا بيننا أحد كوينزرى يتلو الشعر وهو شعر مهم وعطلي متحدث يتندى بالمادة
 وينتهي بالانسانية . فلما فرغ تكلم الشرقي .

قال « ربما كل بهمكم أن تسعوا حكاية دين أسس في فارس قبل صي عدة
 سنين وقد كنت رعيه في يوم من الايام . وهذه الحكاية تريكم كيف نشأ الديانات
 وأن مذهب الاسانية يصلح لآسيا كما يصلح لاوروبا .

« وعندي ان أوروبا عاجزة عن أن تنشئ دينا حقيقيا يستولى على ارواح
 الرجال كما أن آسيا عاجزة عن أن تنشئ نظاما سياسيا . ان عمل آسيا خيالي كما أن
 عقل أوروبا عملي . اننا نتفح في درس كل يوم « مسيحا جديدا » وعندنا « أباء لله »
 في كل قرية ، وشهداء في سبيل الله في كل بلدة وقد رأيت نفسي مئات من البابيين
 يتحولون الموت والتعذيب من أجل ايمانهم برسول لا تختلف تعاليمه عن تعاليم المسيح
 وقد صلب كما صلب المسيح . ان المسيحية لا تعدو أن تكون دينا من مئات الاديان
 التي أظهرها بين الناس ايمان بعضهم بها . ولو أنها بقيت ايمانا أسيويا لزال من
 الوجود منذ زمان طويل كما زال مائة مثلها من التعاليم الادبية التي وجدت قبلها
 ريبدها . وقد أنشأت في شبلي - كما أخبرتك دينا ، كل له في وقت من
 الاوقات ٣٠٠٠٠٠٠٠٠ . ولقد ولدت أرمينيا مسيحية ولكي شأت بين المسلمين
 وطريقة تفكيرى هي نفس طريقتهم وكنت أحا في الرضاة للشاه . فلما ولي الملك
 جعلني رئيس وزارته . فلما بلغت العشرين كنت حاكما مطلقا على فارس . وقد

رأيت مساوي، الحكم وندهور الرفاهية المادية في البلاد فساورتني فكرة الاصلاح . فذهبت الى أوروبا ودرست فيها نظم الدين والاجتماع والسياسة المتبعة في المغرب وعرفت فيها نزعات فرق المسيحية المختلفة وكيفية تنظيم الجمعيات السرية والهيئات الماسونية وألفت مشروعا يجمع بين حكمة أوروبا السياسية وحكمة آسيا الدينية .

وقد أدركت عبث الاحتماد في تنظيم فارس علي مثال أوروبا فصصمت علي لباس مشروعى اللباس الذى يفهمه الناس هناك — لباس الدين . فلما عدت جمعت زعماء طهران وأصدقائي ممن يري حاجة الاسلام الى الاصلاح موجها توسلاتي الى بنابهم الادبي ومحدثم . وفي فارس كلمتان يعبر بهما عن الرجل — الانسان من اللغة العربية وآدم التي هي اشتقاق فارسي . وتدل الكلمة الثانية علي الرجل العبقري — وهو نوع خاص من الحيوان أما الثانية فتدل علي كائن أدبي ممتاز فقلت لهم كلكم يفاخر بانه أكثر من مجرد « آدم » وانه لذلك « انسان » ولكي أمكنكم من أن ترووا في هذا الزعم أصحكم بأن تفعلوا هذا وذاك . وقد وجدوا كلهم كلامي علي حق وفي وقت قصير كلنى ٣٠٠٠٠ تابع وتحت ستر الاصلاح الديني نفذت ما استطعت من الاصلاحات المادية . فلصاحبي يرجع الفضل في انشاء الثلثون وتنظيم مصالح الادارة . ولكن كثيراً من هذه الاصلاحات التي حاولناها قد أدركه الفناء . ولم يكن لدي في أول الامر نية انشاء دين ولكن أتباعي أرغفوني علي أن أكون قديسا ونيبا فقد لقبوني « بالطيف المقدس » ولقبوا الشاه « بمصلح الاسلام » فوضعت كتابا ، انجيلا ديني وأصر المتحمسون من أتباعي علي أني أجيء بالمعجزات . وأخيرا راع الشاه نحو قوتي التي سارت في الحقيقة أعظم من قوته . فصمم رغم صداقتنا علي قتلي كما صمم أتباعي علي قتله . وعاش شهرين في خوف دائم من الاغتيال ثم تفاهنا . لقد كنت أحب الشاه وأحترمه فاستأذنته في السفر وقد ودعني أتباعي باللموع وقبل الموارون أقدامي فذهبت الى الآستانة معتزما أن أحصل من السلطان علي اذن بالاقامة في بغداد وقد ذهبت اليها فعلا وصار لي فيها أتباع من الفارسيين المقيمين فيها ومن أهل بغداد الشيعيين ولكن الأتراك خدعوني واصطورت للرجل قبل أن آتم علي . وقد طلب أتباعي في فارس أن أعود اليهم ولكنني لم أعد لعدة

أسباب . فأولا حشيت أن أموت وليس لا يؤمن به . وثانياً كانت صغى محرفة . وثالثاً كسب قد تروحت فكتبت الى الشاه الذى رد باستعداده لتقليدى أى منصب فآثرت البقاء . في الخارج وقبلت منصب سفير لدى جميع الدول الاوربية .

وكل من الفرافة يمكن أن يسمع الانسان هذا الشيخ القصير دى الملابس الاوربية يتكلم محبداً الامرنسية الى أقصى حد راوياً حكاية حد شرقية . وقد ذهبت معه الى ممره فيما بعد (وكان يسكن على الجانب الآخر من هيدارك) ووصل لي آراؤه في الشرق واهرب اللادين يعرفها معرفة دقيقة فتركه معتقداً انه أعظم شخصية انتفيت بها في حياتي ومؤمناً أكثر من كل وقت آخر بصواب العقل الشرقي في ادراكه . . وأنى رحل في أوربا كل يستطيع أن يحلل الانسان بشعر بأنه طفل ...!

وبعد كان لهذه الممايزة العرضية في دار سيدة لطيفة في ملجرايا وفي قلب لندن أعظم تأثير في عيبي وقد أحدثت ثورة في آرائي الى حد ما . . والى هذه المقابلة وما أعرضها من الاحاديث مع هذه الشخصية المرمية يرجع الاعتقاد الذي عمرني بعده ذلك وهي ابي أخطأت في اختيار نقطة الانتداع في كل ما يخص بأرائي في تحرير الشرق واصلاحه وانه اذا لم يكن بد من أن أعمل عملاً صالحاً للعرب أو غيرهم من المسلمين الذين يحكمهم الاثراك فانه يجب علي بديء به . أن أعرف أفسلهم الدينية حق المعرفة . وكنت الى الآن قد حللت بينهم كعرب عن آرائهم الحديثة علي الرعم من عطفي عليهم وان لم تكن ساورتني فيهم آراء كالتني تعرض للمسيحيين لقد تعلمت أن أحترم الاسلام ولكني لم أقدمه ولم أتناقش في تعاليمه مع أي عالم تشريعي أو حبر برأيه العصري . وقد رأيت في الحلل ضعف موقفي لا بل عبثه وصممت قبل أن أسير في طريق - لي أن أخصص الشتاء القادم لدرس فقط ذلك اللادين الرئيسية علي الاقل من وجهة تأثيرها في السياسة . وعلى هذا رسمت مشروعات الشتاء . وكان رأيي أن أذهب الى حدة في وقت الحلو وهما أدرس علي خير ما أستطيع ثم انهر المرحمة التي قد تعرض لي لاستثاف العمل . وقد افوق الى احتراق بلاد العرب مرة أخرى من المحار ان امكن أو من الجن الى نجد . وكنت أحسب اني قد أحد من الوهايس العلم الذي يلتقي العقيدة العربية في اللادين من حيث تعارضها مع

العقيدة التركية فيه ، واني قد أستطيع أن أقوم معه بحركة اصلاح أضع أنا عاصرها السياسية ويضع هو العناصر الدينية . ومع ظهور هذه الفكرة صدقت بها في ذلك الحين واعتراى بذلك يفسر لقرائي المصريين كيف اتفق ان سلكت الخطوة التي سلكتها في القاهرة بعد ذلك بعام .

وكننت متأثراً ككفلك في لندن خلال ذلك الحين شرقي علامة آخر يدعي صاونجي وكننت قد تعرفت به كأستاذ في العربية . وهو من أصل مسيحي مثل مالكام خان وقد أزعج مرة أن يكون قسياً واشتغل في نشر الدعوة في روما ولكنه صد عن السوح في آخر الامر وكان كالقبر يعطف علي الدين الاسلامي أكثر من عطفه علي دينه . وكانت له شهرة عظيمة كالم عربي وله حجرة تامة بالمائل التي نصمها سياسي ونصفها ديني والتي كان المسلمون يتناقسون فيها في ذلك الحين . وقد قام بالعمل الرئيسي للرحوم الدكتور مادحر في القاموس العربي الانجليزي المسي باسم الدكتور وكان يصدر في لندن يومئذ جريدة عربية اسمها « النحلة » ويكتب فيها كل شهر عظة اسلامية للمسلمين على أساس الآراء العصرية الراقية أما تمويل تلك الجريدة الصغيرة فكان لقرأ وكذلك كانت أغراضه من اصداره وهي أغراض لم أسبر أعماها قط . وتتلخص روايته لتلك الاغراض في انه وكيل عن سلطان زحمار وهو حاكم مستنير حر العقل والتفكير . ولكني ما اقتنعت قط بهذا التعبير . ولدى من الاسباب التي وقفت عليها بعدئذ ما يحيلني على الاعتقاد بان أموالها وبعض وجها السياسي علي الأقل كل يأتي من الخديو اسماعيل . وكان اسماعيل في ذلك الحين غاضباً على الباب العالي الذي غدر به أمام أوروبا . وكانت « النحلة » تحمل على عبد الحيد حملات عنيفة ونهمه باعتصاب لقب « أمير المؤمنين » .

ولا أذكر الآن هل عرفت أول مرة تاريخ الخلافة وموقفها الحاضر من صاونجي أو من مالكام خان . ولكنها — وأنا علي ما أنا عليه من معارضة الحكم العثماني — أثرت في من وجهة أهيئها بالنسبة لنوع الاصلاح الذي كنت أشده الآن . وفي مذكري ما ثبت اني أرسلت مذكرة الي غلادستون في هذا الشأن . ولدى خطاب من هاملتون يبل علي أن الوزراء اهتموا بأرائي .

٣ يوليو — حفلة شاي في منزل أ. ومن المدعوين رولاند وذرافن والبنات وقد خلوت بالاحيرس في احدى الغرف فكانت النتيجة أن اتفقا على أن نعمل معاً في المسألة الشرقية لكي نؤثر على الرأي العام البريطاني . وصممنا على أن نقصد اجتماعاً عهدياً عند رولاند يوم الخميس

٨ — مررت ببرسي وندهام واقفعت بمذهبي السلمي . وتلقيت زيادة في الموضوع نفسه من المستر جيمس المعصو في مجلس النواب . وتعيشيت مع ذرافن والبنات وأنواي وبرسي وندهام وهيري براند وهوتنكر محرر مجلة « العيانت هرالد » في فندق الممر . والغرض من ذلك ان نضم خطة للعمل بقصد التأثير في الرأي البريطاني العام فيما يتعلق بآسيا . ولم نعمل شيئاً معيماً غير تأليف لجنة لتلقي الاخبار . ذهبت بعد ذلك الى باريس حيث التقيت برجل يدعي روبرتسون سميت وكان حديثاً في الحجاز (وهو أستاذ معروف)

١٣ يوليو — دعينا الى حفلة عند قرية غلادستون . وقد بكرنا في الذهاب وقبل أن يأتي سائر المدعوين تحدثت مع الرجل العظيم عشرين دقيقة ففصلت له آرائي في احياء الشرق ، فلاح لي انه اهممها علي قدر ما يستطيع أن يهتم بها رجل يجهل المسئلة . وقد بدت لي ملاحظاته سطحية وكانت أسئلته ماقصة للسئلة التي ألقاها علي سلسري منذ ثلاث سين . وكانت البار قد أطلقت علي باخرة بريطانية في نهر اللبجة فقال لي انه يخشي أن تكون هذه الحادثة دليلاً علي عداا لبريطانيا من ناحية العرب .

وقد اعتبر حالة الامبراطورية العثمانية « حرجة » وقال انه يرجع ان الشرق لم يمر به مثل هذا الوقت المعصيب .

ولو ان معاهدة سان استامبو كانت نفذت لما تخرجت حال تركيا اكثر مما هي الآن . ومهما يكن من هذه الآراء . أظن اني نجحت في ارضائه بعكرتين : الاولى هي أن بقاء الخلافة في بيت عثمان ليس ضروريا . والثانية هي أن مدحت باشا كان أبله . ولكن غلادستون لم يعقد البية علي أمر بل عول علي أن يسير علي مقتضي الظروف حتي تقع الواقعة .

١٥ يوليو - حضرت اجتماع عقده المشتعلون بالمسائل الامسيوية . وذهبت بعد الظهر الى الدماستون وهي حديقة أنيقة فيها مبرل عصرى منعب وكنت أظن السير هنرى لايلرد من أهل الدعاوى والخيال ، ولكي وحده لطيفاً ومتواضعاً بالنسبة لمركزه ، وهو يحسن التكلم ولا سباً فيما يختص بسياساتنا ويفهم الشرق حق الفهم وقد ذكرني بسكين وزولاند وكابا من السنين في عهده القديم وعندي أن مذ كرات لا يارد تبث من الاهتمام واللذة ما لا تبعثه مذ كرات رجل آخر من أبناء هذا الجيل ، ويتضمن ارتقاؤه من اتفاقي متجول بين الاكراد الى سفير بريطانيا لدى الباب العالي كل ما في الحياة البشرية من عاصر الرواة .

١٧ يوليو - اجتمعت بالسير شارلس دايل وكيل ودارة الخارجية فشرحت له فكرتي في الذهاب الى نجد خلال هذا الحريف مع عبد الله بن السعود ولشد ما دهشت حين خيل لي انه يوافق علي ذلك ، ومع ان محادثتنا لم تكن طويلة قد تركتني مفتتحة بان دايلك رجل عظيم . وكانت أسئلته جلية وفي الموضوع . فلما فهم المسألة كتب مشروع تلغراف الى عوشن في الاسنانة . ثم كفى أن أذهب الى تتردن (مدير الخارجية الدائم) لمعرفة التفاصيل . وكانت الفكرة التي استغرقني في ذلك الحين هي الذهاب الى بلاد العرب وتروؤس حركة يقصد بها إعادة استقلال العرب .

ولم يكن مضى على السير دايلك سنة ١٨٨٠ في ودارة الخارجية الا بضعة أشهر على انه قد قدر له أن يلعب دوراً هاماً في المسألة المصرية سنة ١٨٨٢ . وكان هو وصديقه السياسي شمبرلين وبرايت يمثلون العصر المتطرف في الحكومة الجديدة . علي انهما لم يكونا من الطبقة التي يعين الوزراء البريطانيون منها عادة بل كانا من رجال الطبقة المتوسطة ولا زلت أذكر الفور الذي قبول به تعيين ذلك في ودارة الخارجية حين أن الدعاوى الارستقراطية تقليدية بين الكنبه ولكن ذلك لم يلبث أن ظهر معدنه بالطريق التي قبض بها على عمله في يده وبما هو أحدى معهم من ذلك ألا وهو استخدام اصطلاحات فرسية في حديثه كما هي مبرة موظفي وزارة الخارجية . لذلك لم يمض وقت قصير حتي وجد نفسه لا محتملاً فقط ولكن محبوباً أما عبد الله ابن السعود المشار اليه في مذ كرتي فهو عبد الله ابن ذبيان بن سعود

من بيت الامارة في محدد . وكل قد وحده سبله الي الاستانة ولما فيها الي السفارة البريطانية طالبا المساعدة ليحصل أو يستعيد مركزا سياسيا فقد في بلاده . وقد سمعت به من كركي ثم ربيت الي هذه النتيجة وهي انه قد يكون الفرصة التي أنشدها في بلاد العرب . ومن ثم طلبت الي وزارة الخارجية أن تصل بيني وبينه وتوافق على سفرى الرسوم . ولكن المشروع لم يفته باية نتيجة بالرغم من موافقة وزارة الخارجية كما مر بك وذلك لان لورد تتردن عارض في المسألة حين عرضت عليه قائلا أن المشروع ادا تم بموافقة وزارة الخارجية تعتبر المسألة كلها مهمة سرية ومثل هذه المهمات لا يتفق مع تقاليد وزارة الخارجية . وعلى ذلك انتهى المشروع . وكانت أبنا هزيمة الجيش البريطانى في عاندهار بواسطة الامعانيين قد وصلت الي لندن في ذلك الحين وصاعقت حذر الوزارة في دوح سرية . وكانت الهزيمة ضربة حاسمة لليون ولسياسة المجاعة وراء الحدود الهندية وهي السياسة التي استعارها لسمه . وأطل انه لم يمر وقت طهر فيه حظ بريطانيا الاستعماري في مثل المخطط الذي ظهر فيه في ذلك الحين .

• أغسطس — سافرا الي بورنموث لاستقبال ليتون وأمرته الذين جاءا منهم لتغراف بيني بوصولهم عدا أو بعد عدد وبورنموث هذه مدينة غربية على الطور القديم ليس فيها فندق طيب الي الآن وزلنا في فندق «الحبة ورباط الساق» وفي المتزل المقابل للفندق تمثال نصفي للسون ويستطيع الانسان أن يري من الدافنة سان لتست وفكتورى ومها لمع من قلة مسألة الانسان بوطه — والله يعلم انى لست كذلك — فلا يسمه الا أن يتأثر بهذه الآثار الدالة على عطمة انجلترا . ولم أكن حتى الآن قد أدركت تدهور حالها منذ ستين عاما الي الآن . وأى صدمة كان يصاب بها نلسون وزملاؤه لو أنهم رأوا صحف اليوم غلأها انجلترا في محاربة تركيا نغر معاونة خارجية وبالأمال المدينة في أن ترى فرسا طريقا للمساعدة علي احتيار صعوبات في اشرق . بل هذه الامور كانت تشغل فكري فضلا عن اشتغاله بعودة ليتون — ليتون الذي ادا سادت حال الهند — سوف يحل عليه التاريج انه أول الخائس من تواب الامراطورية في حكم الهند والمنشول عن صياعها

وعنى عن البيان ان هذه كلها أمور نورث الانسان حزناً لا يستطيع وضعه . ومع ذلك لم أكن واحداً من أولئك الذين أقاموا مناحه على سياسة ليتون وطريقة تسعدها . ضد كانت صرورية وبعدت شجاعة ومحاج . وقد طهر في تاريخ تدهور المحلثا لايشيء الا انه هو نفسه ظاهر . ولم يكن في استطاعته أن يصد تيار الحوادث ويدفع معها بمحاولا قيادتها على خير ما يستطيع ولكنه لم يستطع أن يعمل أكثر من ذلك . وعندي أن أسباب تدهور المحلثا أسباب واسعة لا يمكن إلقاء مسئوليتها على رجل فرد أو حرس واحد . انا فمثل لانا لم بعد أسماء ولا عادلين ولا مهدين وحكومتنا « المامة » وليست هيئة ذات حصافة تؤيدها حصافة الامة . وما وصلنا الى المركز الذى نشغفه فى العالم الا بالثائرة العطمة والحصافة القوية والبل العظيم فلما اقرصت هذه الوسائل هبطا الى مستوا الطيعي . وقد صنعنا الخير في العالم خلال المائة عام الماضية وسعصع الشر فيه خلال المائة عام القادمة ثم لا يعود العالم يسمع بنا بعد ذلك

٦ — أغسطس بعد امدارات كلادة أعطيت اشارة بوصول الباخرة « هيلالبا » وقد التقت لحسن الحظ بمجموعة صغيرة قادمة لتحية ليتون وركبا الزوارق لمقابلتها فى عرص البحر وصعدنا اليها قبالة « روبر » وقد وقف ليتون على طهرها وجه لوجه الشمس وملاس رديئة عمرها أربع سنوات وفى فمها « السيجارة » التي كلفته حكم الهدم . وهي اتفه الأشياء التي يعتمد عليها فى النجاح بعض الاحيان !! ولو انه استطاع أن يكف عن التدخين فى الوقت الملائم ، وبذهب مع زوجته الى الكنية لعفر له الجمهور الانجليزى كل مساوئه ولو تجاوزت المحصر . أما والحال كما هي فقد كان خطأ هذا ملازماً له طول مدة حكمه وقد أثقلت موازينه حين أصابته المزعجة السياسية . على انه ما كان يستدعي من الهدم لولا هذه . على انه لم يكن يعبأ بمثل هذه الشؤون وقد وثق من انه بذل أقصى جهده وأجاد وهو على حق فى ذلك . وقد عبثته على هذا الشهور كما عطته على نهضة ذهانه الى داره فى نيوبورت .

ولما أوصلناهم البر وتناولنا معهم الشاي فى المندق ودعاهم خبير وداع وقد سمعت لادى ليتون تصيح من أعماق قلبها « آءا أحب مطر أولئك السكرى الاعراء الذين يسبرون فى الشوارع شذما أحهم » .

وكذلك اتفقت آراؤنا على أن آخرة الامراطورية البريطانية قربت . فاما فيما يخص بي فما كنت أعبا وقد حان حينها وأما ليتون فكلن أكثر منى وطنية ...

١٢ أكتوبر — كرايت . قصيت اليوم مع ليتون ... وقرأ لى دفاعه للمعد لمجلس اللوردات ولا شك لادى فى أن الحق في جانبه وستكون خطبته من أعظم خطب هذا العصر اذا صرح له بان يبرر جميع المستندات الموجودة لديه . وقد اطلعت على هذه المستندات فاذا بمراسلات روسية أخذت فى كابل بنص معاهدة سرية بين شيرعلي والروسين . وقد أخبرني « شوفاروف » انه مر بها حين كان ينهيا للذهاب الى الهند واقترح عليه قسمة أفغانستان بين روسيا وانجلترا .

هذا آخر ما قيدته فى مذكراتى يومئذ على وجه التقريب ويسوء فى أى أهملت التيد فيها مدة عامين بعد ذلك أى بعد سنة ١٨٨٠ . ولم يصرح لليتون باز يشرح قضيته فى البرلمان شرحا وافيا وكان لخطبته وقع فآثر فى مجلس اللوردات بعد أن سلبت أقوى قطعا . على أنى سأقتطف هنا نبذة من خطاب كنبه انى فى ١٨ نوفمبر وبه يتم هذا الجزء من قصتى ولهذا النبذة قيمة خاصة من حيث انها تشرح حقيقة الحال السياسية يومئذ . قال ليتون « قرأت فى احدى الصحف أمس أن عبد المطلب ، شريف مكة الحديد ، الذى هو أداة بيد عبد الحميد يعمل بكل نشاط وطبقا للتعليمات التى ترد عليه من الاستانة لاثارة المسلمين عليها فى جميع أنحاء الارض وقد صارت الصيحة الآن : الخليفة فى خطر . وعدى أن فرصة الاستفادة من العرب التى عرضت فى العام الماضى قد أعلنت تماماً . ولست أرى نتيجة لما فعله علاءدستون سوى انه اعدم نفوذنا فى الاستانة وحوله الى المانيا بفبر أن يدبر وسيلة غيره لحكم العالم الاسلامي . ويلوح لى أن خطبته التى انتظرها الناس بفضول كبير ليست الا اعترافا ضعيفا بالفشل الساحق الذى أصاب سياسة الحكومة البريطانية فهم يطرحون اليونان وأرمينيا وكل شيء آخر باعترافهم أن أصابعهم أخذت تتهرق بنار طرف العصا الذى قبضوا عليه منذ تسعة أشهر . ثم اهمم يتحبطون فى سياسهم الارلندية بما لا يبعد معه ان تكون هذه المسألة سدا لسقوط الوزارة . والحقيقة هي ان الامة ترفض السياسة التى تريد الوزارة تمييزها فى كل مكان وان الحكومة لا تهجرؤ على تنفيذ

السياسة التي تريدها الامة لرغبتها في المحافظة علي وعودها وتمهدياتها . وعلى هذا كانت النتيجة انه لا توجد سياسة معينة الآن . أما فيما يختص بي فأنتى سأكتأ حتى يجتمع البرلمان وان كان قلبي يحترق في صدري »

ولم تكن الاسابيع الاخيرة التي قضيتها في انجلترا من ذلك الحريف مشغولة بالسياسة فقد شملت بنشر جزء من ديوان شعري كان ليتون قد حرصى على نشره وقد تركت له (البروفات) لتصحيحها . وهذا هو الجزء الذى لقي اقبالا كبيرا ونفدت منه عدة طبعات للآن . وقد وضعي هذا الديوان فى مركز أدبي كان له تأثير في أعمالى السياسية التى اعقبت نشره :



الفصل الخامس

زعماء الإصلاح في الأزهر

أبحرت من إنجلترا في خريف سنة ١٨٨٠ يوم ٣ نوفمبر الى مصر ولم يكن لي قصد غير الذهاب منها الى جدة لتعلم والدرس استعداداً لما عسى أن يعرض في المستقبل من الفرص وقد خيل لي مؤقتاً أن مشروعائي الأشد تهوراً ليست عملية فصار أقصى هـي أن أحصل على المعلومات الكافية عن الدين الاسلامي وميوله الحاصرة لعلني أصالح للعمل متى سنحت الفرصة وكنت قبل رحيلي من إنجلترا اتفقت مع هاملتون على أن تستمر المراسلات بيننا مدة الشتاء وعلى أن أكتب له عن كل شيء . قد يستحق الاهتمام من حوادث سياحتي وهو ينقل منى الى غلادستون ما يرى محالاً لقله . وكان هاملتون قد أكد لي أن غلادستون لا يزال بهم بآرائي . وكانوا يظنون الي في وزارة الخارجية كشيء خيالي أكثر منه حديقاً يمكن أن يكون له تأثير يذكر في وجهة النظر الرسمية للمسألة الشرقية على الرغم من وجود رئيس وزارة متطرف . ولما نزلت في القاهرة أدركت بعد بضعة أيام أنها قد طرأ عليها تغيير كبير ولكنه تغيير حسن فيما لاح لي . فقد حل عهد المراقبة الانجليزية الفرنسية محل استبداد اسماعيل وقظمت المالية وأكثر فروع الادارة . وقد زرت بعض القرى التي عرفت يؤسها منذ خمس سنوات فوجدت انه قد وضع حد لما كانوا يألمون منه . ومع أن الفلاحين كانوا لا يزالون فقراء رازحون تحت عبء الضرائب الفادحة فقد تبدد اليأس الذي حملهم على مكاشفتي بتاريخ شقاؤهم حين التقيت بهم أول مرة كرجل أجنبي يعطف عليهم . ولما ذهبت الى الوكالة البريطانية سرني ان وجدت فيها « ماليت » فصلاً جزئياً . وقد قص علي تفصيلات الاصلاحات التي أدخلت والتي لا تزال متتواة مصبوغة بصبغة وردية وكان أكثر هذه الاصلاحات لم يغذ بعد الا فيما يخص بالمالية . وقال ماليت ان الامور تتحرك ببطء ولكن بثبات وفي طريق التحسين ، وان السحب التي لا يرى غيرها في الاتفاق هي أولاً في السودان

الذي هو عبء باهظ على كلهل المالية المصرية وثانياً في الجيش حيث ظهرت أخيراً شواهد التآمر . وقد أكثر من امتداح الحديو الحديدي توفيق وأخذني لزيارته في القصر ومع أنه لم يمت أهياً فقد وجدته يحسن التكلم الاحسان الخليق بالامراء وفي الطاقة أن يستبين المطلاع على الخطابات التي كتبتها من مصر يومئذ صدى تفاؤل مالت وقد كتبت الى هاملتون خطاباً أقتطف منه النبعة الآتية :

تمحست الامور كثيراً عما كانت عليه منذ خمس سنوات . ومما كانت تقائص حكومة إنجلترا السابقة فلها ان تقول انها نجحت في مصر . وقد ضمن الناس هنا وظهرت عليهم امارات الرخاء . وقد سمعت الناس الذين كانوا يشكون بحرارة منذ خمس سنوات يشنون على الحديو الجديد ويطرون الادارة . ويلوح لي أن ولاية الامور هنا وقضوا في طريق العمل وقد اقتصروا على تغير الاشخاص الذين كانوا مصدر الخطر ولم يغيروا في الاساليب الا قليلا . لقد كان التخلص من اسمعيل عملا سياسياً كبيراً ولا شك في أن الرجل الحاضر يستقيم على المادة مع قليل من التوجيه السديد . وعندي ان ثروة مصر وقلة نفقات حكومتها يضمنان نظام ماليتها متى قصرت مقامها على توفير الرخاء . على أنه توجد صخرة أو صخرتان في الطريق مثال ذلك حكم السودان الذي سوف يبق مصدرراً للاتفاق وسبباً للاحتفاظ بجيش . ولا أدري لماذا أنهم مصر بحكم النيل فيما وراء الشلال الاول الذي هو حدها القديم . أما اقتضاء على تجارة الرقيق في افريقيا فاسار لا حاجة لان يحصل عليها غير البلاد لفتية . ولا شك في أن سحب الرقابة والحماية التي تتمتع بها حكومة مصر يكون عملا سيئ الخط والواجب أن يستمر اضع سنوات على الأقل حتى ينشأ جيل أكثر تعوداً على حسن النظام من الجيل القديم . ولشد ما تتوق نفسي لرؤية سوريا تتمتع بهذا النظام واذا نحن لم نقبأ بالصحراء استطننا القول بأن سوريا قطر لغني وفي الطاقة أن تنفق على نفسها . ولكنها سوف تكون في حاجة الى اعلان حماية أوروبية بحالة لا تتحمل الشك حتى يمكن أن نستغني عن الاحتفاظ بجيش . أما فيما يختص بحفظ الامن فتكفي لذلك قوة صغيرة . ولست أشك في أن القوم في إنجلترا يبالغون في صعوبة المحافظة على الامن في بلاد أهلها مزيج من المسلمين

والمسيحيين فإن الشقاء الذي بلوه جميعاً في خلال القرون الطويلة الماضية لم يبق آثراً لما في صدورهم من المرازقات .

وقد أسعدني الخط من أول الامر فيما يختص بما أريد أن أنقله من شئون الاسلام وكان روحريك أحد المستشرقين الممتازين والذي عرفته قبل ذلك اتصالاً في دمشق قد جاء الى مصر وعين فيوزارة المالية فعرفت منه اسم عالم شاب متصل بالازهر يدعي الشيخ محمد خليل ومن ذلك الحين أخذ هذا الشيخ يتردد علي يومياً لاعطائي درساً في اللغة العربية وكثيراً مايتحدث معي طول بعد الظهر ومن ثم ظهر لي انه أكثر من أن يكون مجرد استاذ لتعليم لغة القرآن .

ولعل هذا الشيخ أعظم من عرفهم من المسلمين صراحة وإخلاصاً وتحمساً وكان من طلاب تلك اللدوسة الواسعة الثقية التي كان استاذها يومئذ استاذة الشيخ محمد عبده . وكان الشيخ خليل يبلغ الثلاثين من عمره في ذلك الحين وهو رجل ذكي طيب مجتهد لا أثر فيه للتصنع . وكان كذلك تقياً غوراً بدينه مجرداً من الرياء والتعصب للذهبي والتحفظ الذي عليه الصلف على بعض المسلمين في معاملتهم مع قوم لا يدينون بدينهم . لقد كان على تقيض هذا كله . وكل سروره منذ اليوم الاول في تحصيلي كل مايعرفه . وكان مذهبه في التفسير أوسع المذاهب . وقد اعتبر جميع الدبائنات التي نصر علي وحدانية الله صحيحة ولم تكن اليهودية والمسيحية في نظره الا صورة مشوشة لذلك الدين الحقيقي دين ابراهيم ونوح ولذلك لم يسح بسماع أى قدح في أصحاب هذين الدينين لقربهم في اعتقادهم من المسلمين . وعنده ان المثالب والحرارات انما هي ميراث الحروب القديمة ويعتقد ان العالم سير في الى حالة احمائية كاملة حيث تنزع الاسلحة ويتوثق الآحاد بين الامم والمذاهب . ويمكن تصور سرورى العظيم اذ شرح لي هذه الآراء . وأبدها بذكر التقاليد والقواعد معلناً انها تعاليم — الاسلام الحقيقية — أقول يمكن تصور سرورى اذ وقفت علي هذه الآراء التي هي قريبة جداً من آرائي ولا سيما حين أكد لي أنها من الآراء التي يعتقها الحيل الحاضر من الادهريين وعبرهم من الطلبة في العالم

الإسلامي وحكي لي كيف نشأت هذه الآراء في الأزهر وكيف كان نشؤها في أول عهد بالتعلم في تلك الجامعة الكبرى.

ومن أغرب ما يروي أن الفضل في نشر هذا الإصلاح الديني المجرى العلماء في القاهرة لا يعود إلى عربي أو مصري أو عثماني ولكن إلى رجل عبقري غريب يدعى السيد جمال الدين الأفغاني وهو رجل لم تتجاوز تجاربه العالمية قبل حضوره إلى مصر دائرة آسيا الوسطى وهو أفغاني المولد وتلقى تربيته الدينية في بحارى . وفي ذلك المسكن السحيق وبغير أن يتصل بأي أستاذ من الذين يعيشون في مراكز الأفكار الإسلامية الراقية . استنبط من درسه وتفكيره الآراء التي تعزى إليه اليوم . وكانت حركات الإصلاح في العالم الإسلامي التي قد انحصرت إلى ما قبل ذلك في التفتت القديم ولم تسر في طريق التطور . وقد حاد في الترتين الأخيرين كثير من الواعظين القديس لم يزيدوا على أن علة ضعف الإسلام راجعة إلى كفا تنفيذ عن السير على سنن السلف الصالح ووجد كذلك في مصر وتركيا مصلحون نظمو الإدارة على الأساليب الأوروبية لأغراضهم السياسية . ولكن هؤلاء أدخلوا إصلاحهم بالعنف وبالتشورات التي حصلوا عليها من العلماء بالأكرام . وبغير أن يفتقروا بينها وبين قواعد القرآن وتقاليد . وكانت الإصلاحات السياسية تأتي من العلية العليا ولم يزل حكم الرأى العام الرشيد قاسيا عليها . أما نبوع جمال الدين في اجتهداه في حمل الممالك التي وعظ فيها على أن تعيد النظر في الموقف الإسلامي كله وأن تستبدل التمسك بالقديم بالتحرك إلى الامام حركات أدبية منسجمة مع العلم المعصرى . وقد مكنته عمله التام بالقرآن والسنة من إقامة الحجبة على أهمها أو أحسن تأويلها مما لكل الإسلام كمؤا لأحداث تطور راق عظيم .

ولما آتم دروسه في سنة ١٨٧٠ وكان يومئذ يبلغ الثلاثين من العمر اخترق الهند إلى بومباي وانضم إلى الحج في مكة . وبعد أداء الفريضة حصر إلى القاهرة ثم ذهب منها إلى الاستانة . ولم يلبث في هذه الزيارة الأولى أكثر من أربعين يوما في مصر ولكنه وجد وقتا كلفيا لتوثيق عرى الصداقة مع نفر من طلبة الأزهر ولوضع أساس التعاليم التي شادها بعد ذلك .

أما في الاستانة فما أسرع ما به ذكره بما أوتي من الفصاحة والتبحر في العلم . وقد عين في منصب ديني سام وأخذ يلقي المحاضرات في جميع الموضوعات لعة معارفه ووفرتها . وكان حاد الذكاء قوى المحافظة حتي قيل أنه يستطيع أن يقرأ كتابا رمت في أي موضوع ثم لا يشرد من ذهنه كلمة منه بعد ذلك وقد ابتدأ بتعليم النحو ثم علوم اللغة ومنها انتقل الى الفلسفة والدين وقال ان الاسلام السني يوفق بين نفسه وبين أدقي ما تنصبو اليه النفس الانسانية وما تحتاجه الحياة العصرية واد كلن سببا صحيحا يحيط بالحوادث قد أصفي اليه الناس باحترام ثم لم يمض وقت قصير حتى صار له أتباع من صفار الطلبة . وكان يوحى الشجاعة بحجراته وينقد المذاهب المسلم بها حتى مذهب ابي حنيفة فيقبل الناس تقده بما لا يمكن أن يتيسر لرجل غيره وكان همه أن يطلق العقول من الاعلال التي قيدتها طول الاجيال الماضية ويقيم الحجة علي ان الدين الاسلامي ليس شيئا ميتا ولكنه نظام يصلح للانسانية المتطورة في جميع العصور فهو لا يأتي التطور وكل هذا بمائل ما حدث من أحياء المسيحية واوروا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر علي ان القريب في شأن الاسلام القريب هو أن يعود الفضل في نشوء روح القد بين أهله الى رجل تربى في بلاد رجمية كآسيا الوسطي وتعلم في جامعة سحيقة كجامعة بخارى .

وقد كانت الفترة التي قصاها الشيخ جمال الدين في الاستانة زاهرة ولكنها كانت قصيرة فقد كان رجلا غير مقيد وكان كأكثر الافغانين لا يحفل بالتقاليد المتبعة في خطاب العظماء وهي التقاليد التي كان لها أعظم اعتبار في عقلية العقل التركي ومع انه كان محوطا برعاية علي باشا وواد باشا الذين رأيا في تعاليمه تأييدا لاصلاحهما السياسي ضد قدماء العلماء وقع سوء فهم بينه وبين السلطات الدينية العليا ولا سيما فيما يختص بمسلكه الشخصي نحو شيخ الاسلام فلم تجد هذه السلطات سبيلا لان تجدد في محاضراته محلا للواخذه ولم يمض وقت قصير حتى اقتبست من اقواله قرات اخذتها ديلا علي الكفر والزيغ . فلما أجاب علي ذلك بانه مستعد لان يناقش المسألة علنا مع من هم الكبار فزعت الدوائر الرسمية ورعبت وكان هذا التحدي قد أحدث حركة كبيرة بين « السفهاء » فكان الشبان منهم في جانب جمال الدين

وظهر أن النزاع قد يؤدي إلى عواقب وخيمة . ومن ثم أكره الساسة على إداره
بجلائمة العودة إلى مصر والبقاء المقدسة فعاد إلى مصر في ظل هذا الاضطهاد
الديني ولكن بعد أن بذر بذور النقد التي أثمرت بعد عدة سنين إذ اجتمع السخط
على المطالبة بالإصلاح الديني . وهذا هو الحزب الديني في الحركة السياسية التي قدر
أن تنتهي بالثورة التي قام بها مدحت باشا في سنة ١٨٧١ .

وقد قدمت شهرته إلى الأزهر حين عاد إلى القاهرة ١٨٧١ وكانت مصر في
عصر ديني، مظلم لأن فساد الحكم ولا سيما في عهد اسماعيل كان قد لوث جميع الطبقات
واطعاً جذوة الشجاعة والاستقلال في صدور العلماء ومع ذلك كان فضول الناس
يزداد حول عمال الدين . وقد رجب به الأصدقاء القليلون الذين كل قد تركهم في
مصر . وجبوا به سرّاً أن لم يكن علناً ثم ما لبثت النار والغيرة اللتان يتدفق بهما
حديثه أن جمعتا حوله طائفة من الشبان المريدس كاحداث في الاستانة . أما أم هؤلاء
المريدس فهو الشيخ محمد عبده الذي قدر له أن يلعب فيما بعد دوراً هاماً في الشؤون
العامة والذي هو الآن معني الديار المصرية . والشيخ إبراهيم العجوي الصحفي
المعروف . وإلى هذين استطاع الشيخ أن يقضي بكنوز علمه بلا تحفظ وأن يعرض
فيها روح النقد التي طبع عليها وينفث فيها كثيراً من جرأته . والحق أن الشجاعة
كانت ضرورية لكل رجل يتكلم في مصر بصراحة . ولم يكن اسماعيل يسمح بأقل
معارضه وكان حكمه مطلقاً حتى قدت الاضطرابات المستقلة من أفواه الرجال . ولم يكن
يجرؤ على الشكوى إلا الفلاحون المهدبون في قراهم أو غيرهم ممن لا يعتد بهم من
الوجهة السياسية أما السلطات الدينية العليا والموظفون الكبار فقد طال مسكونهم على
الظلم وآثروا الموازنة ما داموا يحصلون على أنصبتهم من الاسلاب .

وعلى هذه الاحوال البينة ، إن عقلية أو أدعية ، أشرقت تعاليم جمال الدين
الحريّة كما يشرق الضوء الغرب وضمنت له شجاعته مؤقتاً اصفاة الناس بغير تدخل
من جانب الحكومة وقد يكون الفصل في ذلك إلى أن المراك الذي أثاره جمال الدين
في الاستانة قد برره في نظر اسماعيل أو يكون اسماعيل قد اعتبره أضال من أن يستدعي
القمع أو ربما كان قد فكر — كما فكر على باشا وفؤاد باشا — في استخدام التعاليم

الحديثة في حرمة الطويلة مع القناصل الاوربيين . ومما تكن الحقيقة في ذلك قد أتيح لجمال الدين أن يصل محاضراته خلال السنوات التي بقيت من حكم اسماعيل ولم يلق القبض عليه الا في عهد نوفيق وبعد انشاء المراقبة الانجليزية الفرنسية . وقد أرسل بلا محاكمة الى الاسكندرية ونفي من انظر . ولكنه كان قد أدى رسالته واعتنق كل زكي نفيه في الازهر قواعد الاصلاح المر على الاساسات الدينية . أما عبادة المصلح نفسه فقد أقيمت على خير عائق بمحملها بل لا أعالي اذا قلت أنها القيت على عائق أقوى من عائق صاحبها الاصيل وما كل معلمي اللغة العربية - الشيخ محمد حليل ولا يمكن أن يكمل من الاستعاضة في وصف أستاذة الروحي - الشيخ محمد عبده - ووصف كما أنه العقيلة وقد خلف هذا جمال الدين في زعامة حزب الاصلاح الحر في الازهر .

وقد وجدت بين أوراقي فكرة يوحد فيها ان معلمي القناصل أخذني رؤية الأستاذ الشيخ محمد عبده في منزله الصغير بحي الازهر للمرة الاولى في ٢٨ يناير سنة ١٨٨١ وهذا يوم يجب علي أن أميزه علي سائر الايام لانه فتح لي باب صداقة بقيت الآن نحو ربع قرن مع رجل من أحسن وأحكم الرجال المعظم . ويجب أن لا يتوهم أحد اني اذا استخدم هذه الالفاظ ألقى القول علي عواهنه أو أبالغ متقال درة ولكي أقولها معتمداً علي معرفتي باخلاقه في ظروف مختلفة وأحوال صعبة قد عرفته في أول الامر معلماً دينياً ثم قائداً لحركة الاصلاح الاجتماعي ثم زعيماً أدبياً للشورة السياسية ثم أسيراً في أيدي أعدائه ثم منفياً في أقطار أجنبية مختلفة ثم تحت مراقبة البوليس في القاهرة حين ألقي نفيه وأخيراً حين سودته مواهبه العقيلة ونصرته من جديد اذا استأنف محاضراته في الازهر وعين مستشاراً في محكمة الاستئناف ثم عين في أواخر أيامه مفتياً للديار المصرية فخل في أسمى مقام ديني وقضائي في مصر .

وقد كان الشيخ محمد عبده حين رأيت لأول مرة في سنة ١٨٨١ في الخامسة والثلاثين ربيع القامة أحمق اللون نشيطاً يلوح ذكاًؤه السريع في عيين تمغذان الى الاعناق وهنه صريحة ودية توحى الثقة في الحال . أما في القباس والمظهر فشرقي تحت يلبس عمامة بيضاء وقفطاناً كما يلبس شيوخ الازهر ولم يكن يعرف حينئذ لغة

الجنسية أو أية لغة أخرى غير لغته وقد بحثت معه بمساعدة محمد خليل الذي أعان
بمرفئ الضميمة عربيتي في جميع الموضوعات التي بحثتها قبل ذلك مع محمد خليل
وحملت هذه الوساطة على آراء واسعة فيما يختص بتعاليم المسلمين الاحرار ومخاوفهم
الحاضرة وآمالهم في المستقبل وقد دونت هذه الآراء في كتاب طبعته في آخر السنة
بسم « مستقل الاسلام » وكان الشيخ محمد عبده يصر على ان الاسلام في حاجة
الى اصلاح الديني الحقيقي وليس فقط لهيأة سياسية دينية . أما فيما يختص بالخلافة
فكان يشاطر كل المسلمين المستنيرين رأيهم في وجوب اصلاحها وتحديد ها علي قواعد
روحية . وقد شرح لي كيف يؤدي حسن استخدام سلطتها على وجه شرعي الى
مساعدة حركة الرقي الادبي وكيف ان أصحاب هذه الخلافة أهملوا بحيث صاروا
غير أهل لامارة المؤمنين . والواقع ان الاسرة العثمانية لم تحفل بالخلافة مثقال ذرة
خلال القرنين الماضيين ولم يبق لها حق ولا سلطان حق السيف وسلطان . علي انهم
ما زالوا أقوى الامراء المسلمين ومن ثم يستطيعون القيام بالشطر الاكبر من العمل
لخير الجميع أما اذا لم يمكن حملهم على القيام بواجبهم فلا ماص من البحث عن أمير
آخر للمؤمنين ولم يكن ثمة شك في حاجة الاسلام الى أساسات سياسية . وكانت
آراؤه مشربة بروح الاعتدال وهي آراء زاد في انخامها انها عملية ورشيدة .

وفي أثناء الشتاء ذهبت وعقبني لزيارة « جنة » حيث جمعت كثيراً من
المعلومات التي كست في حاجة اليها عن نزعات الطوائف الاسلامية المختلفة وأحسب
ان تلك كانت خير بقعة للاوربي الباحث عن تلك المعلومات فقد تعرفت فيها بواسطة
الدعو يوسف أفندي قديمي بعدد من الاشخاص المسلمين الذين تبهم معرفتهم .
وكان يوسف أفندي هذا متصلاً بالانجليزية . وكان بين الذين تعرفت اليهم
الشيخ حسن حوهر وهو من خيرة علماء الصومال الاذكياء والشيخ عبدالرحمن محمود
من جهة جيسر اباد بالهند والشيخ مشعث المكي وعدد من أعضاء أسرة بسام في
غبرة بسجد وهر شيخ بنوى متعلم تعليماً راقياً من جنوبي مرا كس . ولم أقم في جنة
سوى بضعة أيام فقد أصبت بحمى الملاريا المنتشرة جداً في تلك الجهات وحال هذا
المرض دون فكرة التعمق في داخلية البلاد . ولقد وجدت أن الوقت لم يكن ملائماً

أيضاً لتحقيق تلك الفكرة نظراً للعداوة الجديدة التي أبدتها السلطات في مكة حيال المحتلر . فان السلطان كان قد بدأ فعلاً في حمل كلمته مسموعة بصفتها الزعيم الديني للمسلمين وهو شيء لم يكن معروفاً منذ عدة أجيال لاسلافه العثمانيين بل إنه أصبح شديد القيرة على نفوذه في بلاد العرب بصفة خاصة بينما ان نزاعه مع حكومتنا جعله أكثر ارتياباً في النفوذ الانجليزى منه في أى نفوذ آخر . وقيل زيارتى لجنة بمكة أشهر فقط أراد أن يظهر مقدار سلطته في مكة فبين لها شريفنا ذا نزعات رجعية شديدة ضد الاجانب . فالشريف الاسبق حسين يدعون انه كان رجلاً ذا أفكار حرة ومعروف بصلاته الودية مع القنصلية الانجليزية فاستحق لذلك غضب السلطان ومات أشنع ميتة . وليس من المستطاع الحزم اذا كان ذلك في الحقيقة بتدبير السلطان أو بواسطة والى ولكن الناس في جدة عد ما كت فيها كانوا على كل حال يعتقدون بان للسلطان دخلاً في القتل .

وقد وقفت على تفاصيل مقتل الشريف حسين من وكيله في جدة المدعو عمر ناصب الذي عرانا القتل للسلطان بلا مراء . وهذه الرواية هي انه في آخر موسم الحج ركب في صحبة الحاج قاصداً جدة — كما كانت العادة — لتوديع الحاج والدعاء لهم . وقد كان سفره ليلاً . وفيها هو يوشك أن يدخل بصفة رسمية الى الميناء على ظهر جواده بصحبة الحرم الذى كان بعضه عثمانيين وبعضه الآخر أعراب تقدم اليه أحد الحاج الافغانيين في ملابس رثة كما لو كان يطلب صدقة وطعنه في بطنه وبالرغم من هذا المرح فان الشريف ظل راكباً الى أن دخل دار وكيله عمر ناصب ومات في اليوم نفسه بسبب — كما سمعت — عدم تضبيب هذا المرح غير المبيت تضبيباً كافياً وكانت هناك ظروف عديدة تفرق بين أن يكون الاعتداء حادثاً مشوهاً لقمص الدينى أو حادث قتل عادي . ولم يكن القاتل من جماعة الشيعة كما تبادر الى الذهن باديء ذي بدء بل كان من متطرفي السنيين . وقد فاه بعد القبض عليه بعبارات تدل على أنه كان يعتبر نفسه مكافئاً لفعل ما فعل فانه قال عند ما سئل عن السبب الذي دعاه لارتكاب هذه الجريمة . « يحكي انه كان يوجد فيل وهو أكبر الحيوانات الموحدة في القارة . فجاءته ملة وهي أصغر حيوان في هذا الموحود فعضته

وأما « ولم تكن هناك أيضاً محاكمة علنية للجاني فقد أعدم بعد اعتقاله بأربعة أيام كما تخففت الاجراءات المسكة لاختفاء المسألة .

وكن الشريف عبد المطلب خلف الشريف حسين مر. بيت آل زيد وهي الأسرة المنافسة لاسرة الشريف حسين وكن أيضاً من أشد الرحيمين المسلمين تطرفا. وقد كن طاعناً في السن بحيث انه كان شريفاً لمكة عند ما كانت في أيدي الوهابيين الذين انضم الى مبادئهم ولو في الظاهر .

والآن وقد قدمت سنة اعيد الى ذلك المنصب بلقب أمير ليتوى حركة الجامعة الاسلامية التي كانت سائدة في الاسنانة . وفي عهد الشريف حسين كان في استطاعة أى فرد انجليزى أن يجتاز الحجاز من أدناه الى أقصاه بدون أى اعتداء بل ان « درى » والاساذ « روبرت سميت » حصل على مساعدته وحمايته والآن فن أى محاولة من هذا القبيل تعتبر خطرة جداً وفي الواقع ان السائح الفرنسي « هير » قد حياه لمحاولته اجتياز الحجاز في السنة نفسها . ثم عدنا الى السويس فيما بعد ومن ثم الى سوريا عن طريق الاسماعيلية .

وفي أثناء اجتيازنا الاراضي المصرية وصلني الخطابان التاليان من « هملتون » رداً على الخطابين اللذين أرسلتهما اليه . وأهمية الخطابين هي في أن اهتمام الحكومة بالمسائل الشرقية بدأ يتحول الى المشاكل الداخلية كالتي كانت في ايرلندا . ومن اللدهش والمحرزن أن نلاحظ كيف ان الضرورة — كما سماها الاحرار وهم في الوزارة — في قمع الوطنية والضغط على الحرية في ايرلندا أحدثت رد فعل في الشعور الشريف الذي أبدلوه به — قبل دخولهم الوزارة — عطفاً على الحرية الوطنية في الشرق . ويظهر ان غلادستون — الذي كانت ميوله بلا ريب متجه نحو إعطاء هاتين الحنتين الحرية انتقاد لزملائه الاحرار في الوزارة اللذين كانوا معصبين على الميمنة في الطريق التي لا تلائم نزعتهم وكانت ايرلندا طول العامين التاليين العقبة الكؤود في سياسته وسأبين في موضعه ان قرار القمع الذي تقرر في سنة ١٨٨٢ لاستعماله في ايرلندا كان في ص مجلس الوزراء الذي قرر أيضاً استعماله في مصر . فالاشترك في سوء الحظ بين هاتين البلادين كان مأساة كبيرة لا لمصر وارلندا وحدهما بل لشرق المجتزر

وهاهو الخطاب الاول

رق ١٠١ دوتنج ستريت

لقد نجحتم على عرض خطابك على عدد من الدين أعلم اهم يرغبون في قراءته ومنهم «اللورد غرانفيل» و«ريفرزولسون» و«بمروك» و«هارى براند» وأظن أن الخطاب سر «ريفرزولسون» بصفة خاصة لأن «ريفرز» يظر بعين الانبهاج الى ماضيه في مصر . وقد زاده سروراً أن يسمع من مصدر مستقل بأن العمل الذى كلن له يدكبرى فيه قد أنتج هذه النتيجة الحسنة وانى أخشى من أنه يعتبر ان نصيبه في ادراك هذه النتيجة لم يقدر بعد حق قدره .

« وما برحت ايرلندا تحتكر كل وقت الحكومة ومجهودها وأخشى أن يكون من الصعب البالغة في الحالة الخطيرة السائدة الآن في ذلك البلد البائس . وانى لاحد الله على اتنا أصبحنا على مقربة من عودة اعتقاد البرلمان . وسيظهر اذا كانت الحكومة بالفت او لم تبالغ في التذرع بالصبر والتمسك بجبل الاناة وليس لى أن ابدى رأيا في هذا الصدد . على أن الحالة لى بلا جدال عار على هذه البلاد (انجلترا) والحكومة ترى نفسها مضطرة الى العودة الى الخطة العتيقة خطة العنف والقمع . وقد بدأت أشعر — بالرغم منى — بأن ايرلندا ليست صالحة للحكومة الدستورية . واننا مهما سعينا لازالة المظالم المشروعة فليس من المستطاع استتباب السكينة فيها بدون العود الى ما يشبه سياسة كرومويل . وأنه لعمل تنفطر له الافئدة . فاذا لم يحدث تغيير غير عادى فنصبح في هذه البلاد معرضين لسقوط وزارة تلو الاخرى وهكذا في خلال بضع السنوات القليلة المقبلة . وانى لشديد التشاؤم بالنسبة للمستقبل . وبودى لو استطعنا أن نطبق على ايرلندا شيئا من التطور فالذى رأيته في مصر ... أن ايرلندا البائسة هذه كادت تقضي على الحكومة قبل الاوان من حيث السياسة الخارجية . ولا يزال يؤمل أن يستطيعوا ايجاد مكنون اليونان فلا يدعوا مسائلها تصبح نهائياً في زوايا انفسيان والا اصبح من المحتم نشوب الحرب بين تركيا واليونان . ان اليونان لاتستطيع وحدها أن تكلفح تركيا وقد بنى دخول تركيا الحرب رفع لواء الثورة العامة في الروملى الشرقى وى مقدونية . ولا ازال اؤمل أن توحد نسوية

لسألة حدود المملكة اليونانية بتدخل الدول العظمى باعطائها قطعة أرض صغيرة في الشمال وربما أيضاً بتسليمها جزيرة كريد . ولا جدال في أنه يلزم إيجاد وسيلة من الوسائل لتقوية اليونان وتوسيعها ليس لحفظ السلام في الشرق مؤقتاً فقط بل لوضع الأساس لما عساه أن يكون قوة مصادرة للعناصر الاسلامية ... » .

وهاك نص الخطاب الثاني :

رقم ١٠ دوننج ستريت

نحمرأى ١١ فبراير سنة ١٨٨١

لقد تناول الوزراء خطابك على آر وصوله . وقد تلوت بعض فقرانه للمستر غلادستون وقد اتيح للورد غرانفيل والمستر غوشن أن يقرأه بنفسها وباهتمام علي ما سمعت . أما اللورد غرانفيل فارسل صورة من الملاحظة التي ختمت خطابك بها وهي الخاصة بشؤون الهند الي لورد هارنجتون وأرجو ان لا أكون خنت الثقة التي وضعها في باطلاع الدوائر الرسمية على معلوماتك المذكورة في الخطاب . وقد اطلمت هاري براند عليها أيضاً . ولقد قامت في وجه والده — رئيس مجلس العموم — مصائب لم يقم مثلها لاحد من أسلافه في كرسي الرئاسة . ولكنه خرج من هذا الضال فائزاً . فاذا صرفنا الطر عن جلسات المجلس التي لا نظير لها والتي استمرت أياماً وليالي ووقف العدد العديد من الاعضاء المشاغين قد مررنا في دور برلماني مريح . واني لشديد الامل باختفاء شبح العرقلة الناشي عن الشغب الخاص بالاراضي الارلندية . فاذا ما صادق البرلمان على الاجراءات القمعية او بالاحرى الاجراءات الراقية وصار المشروع العادل التام الجري الخاص بالاراضي قانونا فلن نصبح مهددين بالكابوس الارلندي في القريب العاجل على كل حال .

وفي الوقت نفسه كان اهتمام الجمهور في خلال الاشهر الماضية موحهاً طعماً الى تلك للملكة القاحلة ولذا لم يمن الجمهور كثيراً بالشئون الخارجية . وعلى كل فالمسألة اليونانية لم تصبح نسبياً منسياً . فاللورد غرانفيل مارال يشد طرف الخيل بمهارة تامة ويتباحث كبير على ما اعتقد والعقبة الكؤود طعماً في سبيل التقدم بحاج في هذه للسألة المعقدة هي الدور المحري الذي لعبته فرنسا التي بعد ان هددت وتوعدت

خفت صوتها وبردت حرارتها . وعلى كل فان بشارك قد عمل على أن يتولى الامر بنفسه وذلك بمرض اقترح جديد قد يؤدي الى نتائج حسنة . فأول شرط تتسك به الدول العظمى هو طبعاً الاحتفاظ بالسلام الاوربي فلولا ان تشوب الحرب بين تركيا واليونان يؤدي حتماً الى حدوث القلاقل والقتال في بلغاريا والرومالي الشرقي ولولا أن اليونان لا تستطيع وحدها مكلفة تركيا لكن التمهيد الطبيعي لرفع اليونان نفسها الى صف الدول الاوربية هو الاتجاه الى السيف . فالرومانيون الحديثون ما كانوا لتكون لهم ملوكية متحدة لولا أنهم حاربوا في سبيلها ولا محل لان يشكو اليونان الحديثون اذا رأوا أنفسهم مضطرس لمواجهة أمثال تلك المصاعب والمخاطر . ولكن بصرف النظر عن الحرب التي يلزم أن يخوضها اليونان فان هذه قد أصبحت تحت كف أوروبا فلها الحق في ألا تتنازع أوروبا عنها الآن . فإذا لم يكن تنفيذ حكم برلين سلباً وهذا يظهر انه مسلم به نظراً لعمل فرنسا — فان المآخذ الوحيد هو إيجاد صفقة معادلة لليونان وأقصد بذلك إعطاؤها تعويضاً في جهة أخرى عما لم تأخذه مثل نسايا واييروس وهما الاقليتان اللذان قبل أخذهما والذان يمكن الدول فيما يبين مساعدتها على الحصول عليها وربما كان اقترح من هذا القبيل انحرافاً جديداً وأخشى من العلاج الذي تشير به — ولو انه أجمع وأكثر نجاحاً — هو من الشدة بحيث لا تستطيع أوروبا أن تقبله .

ولا اذ كرأتي كتبت في خطابي مايرر كل هذا الحديث الطويل عن اليونان التي لم تهني بصفة خاصة في ذلك الوقت . وان عبارة الخطاب لتشبه لهجة السمر غلادستون نفسه الى حد اني أظن أنه لا بد أن يكون أملي هذا الخطاب والخطاب الذي سبقه . لهذا رأيت أن أثبتها بنصها ونظراً لاسبابه في شرح المصاعب المملوءة بما سياسة اليونان قد لاح لي أنه — اذا حدث عصيان على الحدود اليونانية ربما شجع في الوقت نفسه عصيان العرب في سوريا .

وكانت رحلتنا من الاسماعيلية سارة . فبعد أن عبرنا القارة تطوحنا الى جهة الشرق في طريق نحيط بها الوهاد الرملية الى تل غير مشهور يدعي جبل هلال . وكان هذا الوادي يشه من بعض الوحوه حالة مجد من حيث الزراعة وترتيب

مواقع الرماية فتعرفنا قبيلتي عبيده وطباها والى الشمال من ذلك بقليل بقيلة
مرايين وأيضاً قبيلة العرابعة وأيضاً كنا فاب قوسين أو أدنى من التصادم معها
محصنة أعوام وكانت هذه القبائل كلها مستقلة عن تركيا وقتئذ تقيم في الأراضي
حتى لا صاحب لها التي تكون الحدود بين سورية ومصر . وقد كانت هذه القبائل
كأحياء العادة دائماً في جهات بلاد العرب المستقلة — في نشاط بعضها مع بعض
وكانت بينها ثارات الدم ولهذا استمرت الحرب بينها بعضها مع بعض مما سبب
كثيراً من القتل حتى الى قرب حدود عزة .

فلما تصع الحكومة العثمانية جداً لهذه الاضطرابات لحلت الى إحدى وسائلها
للمروحة فأرسلت دعوة الى زعمي القبيلتين المتنازعتين للاجتماع بمصرف عزة
لجلاً ودياً ثم أمرت بالقاء القبض عليهما غداً وخيانة وقد رجتها في سجن القدس
كوهينة حفظ السلام في الحدود . وفي ذلك الوقت كانت هناك الفوضى الانجليزى
في تركيا في ادهان العرب فترتب على ذلك أن طلب الى — نظراً لمعرفة
الزعميين المذكورين — أن تدخل مع الحكومة لاطلاق سراحهما . فقبلت التدخل
وأتمهما . ثم استنصبت مع الشيخ القائم بشؤون قبيلة طبهاها وهو علي بن عطية
والابن الصغير لشيخ قبيلة طرايين وقد ركبنا برقعتنا الى القدس فسرنا بطريق
الليل الى أن وصلنا القدس دون أن نخرج على مدينة أو قرية في أثناء رحلتنا
هذه . وفي القدس زرت قنصلنا مور في الحال فحصلت بواسطته على اذن من الباشا
بزيارة السجن وهناك وجدت الشيخين المطلوبين في طبقة سفلية تحت الارض بالقرب
من جامع عمرو . وقد كانا في حالة يرثى لها إذ كانا يشكوان من الامراض والسجن
الطويل فوسطت لهما عند الحاكم على شرط أن يرفرف السلام بين القبائل . وقد
تمكنت من جعلهما يوقعان هذا العهد . ولكن المتصرف أعلن أنه ليس في وسعه
اطلاق سراحهما واحالني على رئيسه والى دمشق فهو الذي يستطيع أن يفعل
ذلك . فذهبنا الى دمشق بصحبة علي بن عطية وبصحبة قافلة الجمالين عن طريق
وادي الاردن وسهل حوران وهي سياحة شاقة ولديزة لان الارض نظراً لاقطاع
الامطار كانت كحصى عند غاصة بالازهار البهجة .

وفي حوران وجدنا الحرب ناشبة بين الحود العمانية والدروز ولكننا تمكنا من المرور بين الحيشين دون أن يمسنا الضرر ووصلنا الى دمشق حيث اتينا عصا التسيار أمام باب منزل صغير يحتوى على حديقة مساحتها عدان في حي باب توما كنت ابتعته منذ ثلاثة أعوام عند بدء رحلتنا الى نجد .

وكان منزلنا في دمشق ملاصقا لمنزل سيده انجليزية مشهورة تدعى اللادي التيره أو المسز ديجي كما تدعى الآن فبعد مخاطرات عرية في الشرق والغرب تزوجت وهي طاعنة في السن من شيخ بلوى من قبيلة عنيزة وأقامت في دمشق مع بعلمها مجبول بعد ان أصبحت لا تحمل متاعب حياتها السابقة في الصحراء . وقد علمنا منها ومن بعلمها المجيد الذي كنا نعرفه جيد المعرفة ان خير وسيلة لاطلاق سراح المعتقلين هي الا نعرض قضيتنا على القنصل ولا على الوالي مباشرة بل بطريق غير مباشر على صديقهم الكبير السيد عبد القادر الذي عرفناه في عام ١٨٧٨ والذي كان له اكبر نفوذ في الحكومة في دمشق في كل ما يخص بالعرب . وكان عبد القادر وقتئذ في سن الشيخوخة وكان معتكفا على العادة وكان موضع اجلال جميع سكان المدينة . وكان له بين عرب مورية بصفة خاصة اتباع كثيرون لانه كثيراً ما أظهر انه حاميمهم وحامي مصالحهم . وقد أكد لي مجبول أن المسألة هي مسألة تقود مع الوالي فاذا تعهد السيد بان يفتح باب المفاوضات ويده مبلغ كبير فان النجاح محقق . فذهبت معه ومع علي ابن عطية الي عبد القادر فوجدناه مع ولده الاكبر محمد وهو رجل مستقيم ولده من أم من الجزائر أثناء اقامته في تلك البلاد . فوقضاه علي مهتماً قبل السيد بارتياح أن يتوسط لنا لدى الباشا وأن يحصل الترتيب اللازم لاطلاق السجينين على الشرط المذكور وهو الاحتفاظ بالسلام العام بين القبائل . ثم أعطيته كيساً يحتوي علي ٤٠٠ جنيه فرنسي (بنتر) ذهباً فاخبروني أن المبلغ كاف لتحقيق رغبتنا . وكانت الرشوة من الامور العادية بين الموظفين العثمانيين وقتئذ حتى انني لم اشعر لا أنا ولا السيد ولا أى شخص آخر بينما باى تردد في تقديم النقود . وكان المبلغ كبيراً ولكن عطفي كان شديداً نحو السجينين المعتقلين وكنت مصماً على الا أرسل علي ابن عطية الى القدس الا مصحوباً بامر الافراج عنها . وعلى ذلك

قدمت على هذه التصحية ولكن المفاوضات اُحفظت في ادراك العاية المطلوبة . وبعد بضعة أيام جاءني محمد اس عبد القادر ومعه الكيس دون أن يمس شئ ، وأخبرني أن والده كاتمه بأن بلغني نجات الوالي وأسمه على عدم استطاعته فعل هذا المعروف لأنه خارج عن حدود وظيفته . فان المسألة قد أُلغيت الى الاستانة وهناك فقط يمكن تسويتها .

وان عاقبة هذا الحادث البسيط لمدهشة ولها علاقة مباشرة بما وقع في مصر من احوادث في السنة التالية . فقد ان فشلت محاولاتي المحلية عملت بصيغة الوالي كنت من موري الى عوشن سعيها في الاستانة وعرضت عليه القصة بمخافتها . ولكنها أريد اهتمامه بالمسألة اخبرته ان الحكومة الانجليزية قد تحتاج يوماً من الايام الى حماية ضفة قناة السويس الشرقية من المهاجرة اذا نشبت الحرب بين إنجلترا وبين إحدى الدول الاخرى . فأنخذ غوشن — على ما أذكر — بعض الاحراء . أت ولما خلفه اللورد دوفرين في منصب السفارة بعد بضعة أسابيع أوصاه عوشن بالاهتمام بالامر . وفي النهاية أحيب طلبي بعد طول الانتظار وافرغ عن الشيخين . على ان اقتراحي بمحصوص القبائل قد أتمر فيها بعد ثمرة من نوع لم أكن أتوقعه أو أربح فيه ذلك لانه لما تقرر في صيف عام ١٨٨٢ ارسال حملة والسلي تدكر غوشن أو شخص آخر له صلة بالحكومة اقتراحي السالف فتقرر ارسال مندوب سرى لاستعمال اسمي في القائل التي تعرفت بها في جنوبي غزة عرها الى عقد محالف مع القوات الانجليزية ضد الجيش الوطني المصري وكست اذ ذلك كما قالوا « كالباحث عن حقي بطلني » وهذه هي بضعة بالر الشهيرة التي سأنتكلم عنها مامهاب في حينه .

وكانت سورية وحدود بلاد العرب وقتئذ في حالة تخمر سياسي . فقد كان هناك تياران من الشعور بين المسلمين محصوص الجامعة الاسلامية أحدهما شعور متعصب الديني وهذا كلن مستمداً من السلطان نفسه والآخر شعور الرغبة في الإصلاحات الحرة . وقد قيل لي في دمشق ان الشعور ضد السلطان ضد الادارة الصحابة الفاسدة قد بلغ حداً يصح معه توقع الثورة في أي لحظة وقد حادث محمد

ابن عبد القادر في ذلك الصدد فوجدته هو وأناه متشبهين لمريق الاحرار وانه —
كثيره من علماء العرب — من انصار فسكر الخلافة اذا كان في الامكن تحقيقها
وقد خطر لي وقتئذ ان ليس بين العرب من هو احق بهذا القرب من عبد القادر
نفسه . وعلى ذلك رحوت محمداً ان يستطلع رأى آية في ذلك الصدد ويسأله هل
يقبل أن يكون رعيه هذه الحركة اذا جد حدها
وقد فعل محمد ما أشرت به عليه وعاد الي بحمل رسالة من والده يقول فيها انه
برغم شيخوخته التي تحول دون الاشتراك فعلياً في أي حركة من هذا القبيل فان
أولاده يقبلون ذلك وانه لا يمانع في ذكر اسمه كرشح للحلافة اذا طلب اليه هذا
الترشيح . وعلى كل فان الحركة لا يمكن أن تصادف بمحاذاة المساعدة من الخارج
فان الحكومة العثمانية قادرة حرياً على كبح جماح القامعين بها وقد تم الاتفاق بيننا
على أن أبلغ رده بصيغة سرية الى الحكومة الانجليزية واستطلع ماذا تكون خطتها
اذا حدثت ثورة في سوريا . وهو ما فعلته بالفعل عن طريق الوسيط المعتاد بيني وبين
مستر غلادستون وهو سكرتيره الخاص هاملتون وقد سألت ما عن نوع المساعدة
التي يمكن أن يعتمد العرب عليها . وقد اقترحت عدد الاشارة الى خطاب هاملتون
الذي سبق نشره ان مثل هذه الحركة قد تنظر اليها حكومتنا بعين الارتياح خصوصاً
بمناسبة المصاعب التي بينها وبين الباب العالي محصوص اليونان . ولكن اهتمام
غلادستون بالشرق بل بالسياسة الخارجية على العموم كان قد خمد وقتئذ خورداً تماماً
ولذلك كان جواب هاملتون موحراً ومبسطاً للعرائف . فقد كتب يقول : انني أؤمل
أن يوجد ما يحول دون وقوع المار بين تركيا واليونان واذا ذلك فبستغني عن
الالتجاء الى مشروعك في سوريا . وكلاماً أقوى هو انه يحتمل ان توجد حالة كهذه
وادراك بصبح من اللارم استعمال الوسائل التي تشير بها ولكن هذه الحالة لم توجد
بعد . ان هذا مهم وغامض ولكن أحشي ألا أستطيع ان أضيق الى ذلك شيئاً

آخره . فلم أحد مناصاً من الكوت على ذلك ولكي بادرت بإبلاغ النتيجة إلى السيد .

ولم يكن لبقية سياحتنا في ذلك الصيف أي غرض سياسي . وقد دررنا أصدقاؤنا من آل عبيدة مرة أخرى فوجدناهم ضارين خيامهم بالقرب من الميرا ولكن معاملتنا معهم اقتضت على شراء الخيول ولم تكن هذه القبيلة تعاضاً بالسياسة فيما يخرج عن دائرة الصحراء . وكذلك كانت عايتها بالمسائل الدينية قليلة . والواقع ان الانسان لا يستطيع على وجه التقريب ان يسميهم مسلمين فانهم لا يصومون ولا يصلون ولا يؤدون أي فرض من الفروض الدينية الاسلامية . وكل ما يربطهم بالاسلام هو أنهم لا يزالون متمسكين بتقاليد الصحراء . وهي التقاليد التي بدت عليها الشريعة ولكنهم لا يعرفون من عقائد الاسلام الا التوحيد أما الرسل والاولياء . والقرآن فذلك ما لا يعرفونه وكذلك لا يعرفون شيئاً عن الدار الآخرة . وقد سخا معهم الى أقصى حدودهم المالية حتى وحدنا أنفسنا في حلب في أول حرارة الصيف ومنها عدنا سريعاً الى إنجلترا (١) .

(١) مما يخلق بالذكر بهذه المناسبة اننا تعرفنا في حلب بضابطين بريطانيين لعبا صد ذلك دوراً كبيراً في الشؤون المصرية وحرب السودان أحدهما الكولونيل سيوات الذي اشترك مع غوردون في الدفاع عن الخرطوم ضد حملات المهدي . والثاني الكولونيل السير شارل ولسن الذي قاد القوات البريطانية في الثامنة بعد واقعة أبوكيلة . وقد ساهم سيوات بإعازي في ذلك الصيف بين بدو عبيدة وشمر ولكنه لم يستطع أن يتفاهم معهم وهذا راجع في الحقيقة الى خلوه من العطف على الشرقيين . أما ولسن الذي كان أوسم منه رأياً فقد صحبنا في سياحة العودة حتى أزمير التي وصلناها وقت القبض على مدحت باشا . وكان كلاهما في ذلك الحين قصلاً منفلاً لبريطانيا في تركيا آسيا من النوع الذي نصت عليه معاهدة قبرص

الفصل السادس

مقدمات الثورة المصرية

قضيت صيف سنة ١٨٨١ كله في « كرايت » أكتب الكتاب الذي كان ثمرة محارب الشتاء وهو كتاب « مستقبل الاسلام » وقد رصعته في مجلة وأحوال لا تساعد على دقة الحكم فقد ازدحت علي الحوادث أثر الحوادث خلال كتابته حتى شق علي أن أضع نبوة هادئة عن مصير الاسلام بيد اي أعتبر هذا الكتاب مؤلفاً جدياً رغم ما فيه من نقائص واداً لم تكن له أهمية تاريخية فلا أقل من أنه تصور آمال المسلمين ومحاولهم في الوقت الذي كتب فيه. وقد دافعت في هذا الكتاب بلا تحفظ عن قضية الاسلام باعتبارها قضية ارضه الخير على شطر كبير من الارض وهي قضية يجب علي كل محب للانسانية أن يشجعها لا أن يضعها. وبنيت أصل الاسلام ومعاخره ودهوره الطاهري الشبه بالتدهور الذي خيل للبأس أنه استولى علي المسيحية منذ أربعمائة عام والذي قد تلافه الاسلام كما تلافته المسيحية بالاصلاح الديني ونحرر أفكارها من قيود التقاليد الصيقة التي وقفت نظورها وعرفت تقدمها. وقد شرحت الآراء كما تطفها من الشيخ محمد عبده أستاذ المدرسة الحديثة الحرة وتوسلت الي مواطني بكل ما فهم من خير أن يعطوها علي آمال أحرار المسلمين ويؤيدوم ضد الزحمين ذوى المكائد والتعصب الأعمى والذين يلجأون في آخر الأمر الي حل مشكلاتهم الاصلاحية بمحذ السيوف. وقد خاطبت إنجلترا بصفتها حاصدة اذ كنت أعرف ان صاحبة المد لا بد أن تنهم كثيراً بمستقبل الاسلام طالبا أن تكون ذا سيادة نشطة مصادقة لافضل عناصر الافكار الشرقية في مكلفها أسوأ ما فيها من العاصر وألا تقتصر علي الاستفادة من حالة الاضطراب لتوسيم ماضيها المادية وقلت « ان النقطة الرئيسية هي أن تنجلي إنجلترا بحق الأمانة التي حملها » باعتبارها وارة الامبراطورية المفولية وبحق علاقتها القديمة بالشؤون العثمانية « وهي أمانة رقية عاصر الخير الشرقية لاهدتها ان

أنجلترا لا تستطيع أن تهجم الاسلام ولا أن قطع علاقتها به لذلك يجب عليها بحق حائق الكون أن تأخذ بيد الاسلام وتعينه على السير في طريق الفضيلة . هذه هي الحطة الحكيمة الخليفة بأنجلترا وهي لعمرى أشرف وأحكم من حرب صليبية تستغرق قرناً بتمامه .

وقد نشرت هذا الكتاب فصولاً شهيرة في مجلة « فورتيلي ريفو » فأحدث تأثيراً كبيراً في إنجلترا وبين قراء الانجليزية في المهد وترجمت أكثر الفصول الى العربية في مصر وكان طاهراً في الوقت الذي كتبت فيه أن حوادث خطيرة توشك أن تحدث في الشرق بل أنها أخذت تحدث بالفعل . فقد بكرت الحكومة الفرنسية في مايو الى عرونة تونس بغزو تنبيه أو امداد تمهيداً للاتفاقية السرية التي عقدت قبل ذلك بثلاث سنوات بين وارمجتون ووزارة الخارجية الانجليزية واحتلت نصب تونس لغربي بحجة حماية الباي من الخطر الذي يهدده به رعاياه — وهو خطر وهمي — وأعلنت الحماية الفرنسية . ولم تكن في حالة الخار الذي هجم عليه هكذا عدداً مايبرر هذا المجوم كسوء الحكم أو الخطر على الاوروبيين أو حتى الصيغ المالي . وكان الباي نفسه رجلاً طيباً يحترم الشخصية ولم يأت بأي شيء يفقده حسن نية الشعب محوه فكلن اعتقاله بواسطة الجنرال « بربرت » واغتصاب سلطته بواسطة الجمهورية الفرنسية من الاعتداءات المصنوعة الظير حتي بين ماحدث من الاعتداءات علي الامم الضعيفة في عصرنا الحاضر اذا استثنينا اعتداءات بونابارت علي مصر سنة ١٧٩٩ . وكان لهذا الاعتداء أسوأ وقع في إنجلترا حيث كان الناس في جبل باتفاقية برلين السرية . أما في العالم الاسلامي فقد أوقد نار الغضب والاشتمزاز الذي أخذ يعظم حين افصح السر .

ولم يكذب أهل تونس العربية يطلقون ناراً علي الفرنسيين لغرض مايقام هؤلاء بالاعتداء واضطر الباي الى توقيع معاهدة قدمت له علي ذبابة السيف بواسطة الجنرال « بربرت » فكلمات الفيجة أن قدمت تونس استقلالها قبل أن تعرف أن هي . ولكن أهل الشطر الشرقي من تونس نفروا الى أسلحتهم وقبل أن يتعصب النقيب تحت الثورة صحاوي اخراير وطني موح الغضب علي الصراينة

الى الشرق وبدأ يؤثر تأثيراً خطراً في مصر كما سأيس بعد كما أنه حيز المصلحين فيها الى الجدل في حركتهم وحمل جيشها على المطالبة بالحكومة الذاتية .

وبما يخلق بالذكر لاثبات اشتراك الحكومة الانجليزية في هذا الشأن العاضح أن لورد جرانفيل سمح لنفسه أن يكتبي بوعده بسيط من الحكومة الفرنسية بأن الاحتلال مؤقت لاعادة النظام على الرغم من أن الطعام لم يكن قط مهدداً وبأن الاحتلال لا يستمر يوماً واحداً مما يتلزمه توطيد حكومة الباي . وهذه خطة زور قلدها لورد جرانفيل بكل دقة بعد ذلك بنة واحدة حين انعكس موقفا فرنسا وانجلترا في مصر . كذلك يستحق الذكر أنه مع أن البرلمان البريطاني كان معقوداً لم لورد سلسبري رعيم المعارضة حانب الصمت المطبق فيما يتعلق بتوس على الرغم من أن أتباعه الدين لم يعرفوا شيئاً من سر المألة أقاموا ضجه كبرى طالين الشرح والبيان . كذلك سكت بيلارك في برلين ولم تبد أي دولة من الدول التي كانت ممثلة في مؤتمر برلين أي اعتراض وان كان الشعب الايطالي قد استاء كثيراً من فعل الحكومة الفرنسية . أما السلطان فقد نشر احتجاجه إذ كانت تونس جزءاً من الامبراطورية العثمانية . وقبلت أوروبا الحالة كحقيقة واقعة .

ووجب على أن أقص تاريخ الحركة التي عرفت في صيف سنة ١٨٨١ باسم النهضة الوطنية المصرية . ويرجع أصل هذه الحركة الى الحقيقة الى مجاهدة اسماعيل حين وقع الخلاف بينه وبين ولين واجتهد اسماعيل أن يحتفظ بسلطته ضد الوصاية التنصيلية التي أوقعه فيها سوء تصرفه ودبوه . وقد أراد اسماعيل أن يتردد مركزه الادبي الذي كان قد قدده ويستعيد حسن ظن رعاياه بشعر نداء عام يطلب فيه تأييدهم ومن ثم أعلن في ربيع سنة ١٨٧٩ عزمه على دعوة جمعية من الوجهاء . ولم يكن شك في أنه يريد أن يرفض جزءاً من الدين على الأقل مستتراً بالرأى المصرى العام . ومع أنه لم يعتقد فيه الاخلاص يومئذ الاضحه من الاوربيين القسيسين في مصر فان فكرة معاملة السيئات التي كابدها الالهون بادخل نظم الحكم النيابي أخفقت نشج وتناصل في القاهرة من ذلك الحين . وكان الشيخ جمال الدين وتلاميذه قد حكموا بان اسناد أمراء المسلمين الآحد في الريادة محال لتعاليم الاسلام الذي

هو في الحقيقة جمهورية اسكل مسلم فيها حق الخطاة في مجتمعاتها كما أن سلطة الحاكم فيها لا تعتمد الا على حسن قيامه بتنفيذ الشريعة وبيعة الناس وقد طعن علماء الازهر على اسماعيل فقالوا أنه امتد على القانون وطالم سياسى . وكثيراً ما تباحثوا سرّاً وبيع سنة ١٨٧٩ عن كيفية عمله والوسائل التي تمكن من ذلك أو حتي من التخلص منه بالاعتقال . وعدى أرسنور اسماعيل بالخطر المردوج الذي يهدده من الخارج وفي مصر ذاتها من ناحية آراء الازهريين هو الذي حمل على الطهور بالمطهر الدستورى . وهنا يجب أن نذكر أن الآراء الدستورية لم تكن سائدة في مصر فقط في ذلك الحين بل كانت سائدة كذلك في الاسنامة وكان السلطان قد استدعى الجمعية قبل ذلك بخمسة أعوام لذلك لم يكن المصلحين مد من المواضعة على حركة اسماعيل معها تكن تقهّم فيه قلبية ومن ثم أخذوا يشرعون هذه الحركة على صفحات الصحف اللاتي اشش في مصر تحت اشراهم . وكان الآر بين الموظفين عدد عبر قليل يميل الى الطام الدستورى ومن بينهم شريف باشا وعلى مبارك باشا ومحمود باشا . امى البارودى . ولم يقف الامر عند هذا الحد . فقد وقع وارث الخديوية محمد توفيق تحت نفوذ جمال الدين القوي وصار هذا صلة قوية بينه وبين المصلحين الذين وعدهم مرة بعد أخرى بأنه متى وصل الى العرش سوف لا يحميد شعرة عن حادة الحكم الدستوري . وقد كان توفيق وشريف الدستوريان عصوين في وزارة اسماعيل الاخيرة التي عمرت ثلاثة أشهر وكانت مقاليد الادارة في أيديهما حين عزل اسماعيل .

وعلى هذا رجب جمال الدين والمصلحون بلوتقا . توفيق منصفه العرش واعتبروه دليلا على حسن الطامع . ومع أنهم أحنوا لان المصريين أنفسهم لم يستطيعوا خلع سلطانهم فقد تطلّعوا الى العصر الجديد بثقة الرجال الذين حطوا خطوة في سبيل تحقيق أمانيهم . ولكن الخديو لم يلبث أن غير رأيه حين تسلّم مقاليد السلطة ، شأنه في ذلك شأن غيره من أولياء العهود ولم يمض شهر حتى نسى وعوده وغدر باصدقائه . وقد كان توفيق صعباً . وكان قد ولدته لاسماعيل احدى سراريه فلم يعامله اسماعيل المعاملة الخليفة بولي العهد كما ان والدته كانت تتركه في خوف مستمر من صولة والده فلم تربطه بهذا الوالد راسطة الاحلاص والتقرب . وكانت نشأته بين سيدات الحرم

أكثر مما هي بين الرجال فتشاً ضعيفاً لا يسمعه الا الادعان لاية ارادة أقوى من ارادته ولكنه يسعى بعد ذلك لتعيد ما يريد بالطرق الخفية . ومن ثم كان شديد العبرة عبالحوادث الانتقام الصغيرة . أما فيما يختص بحياته المدنية فكان مستقيماً بالقياس الى أسلافه ولم يكن كذلك حلوأ من كثير من المضائل الكريمة ، وكانت سلبية أخلاقه تجعله خطراً كبيراً علي أولئك الذين قد لهم أن يتعاملوا معه . وكان همه الاول أن يخفي الحقيقة ويلقي على الغير تبعة المثل الذي يكون قد حدث لمخطئه . وكذلك لم يكن بفضه لشيء . يظهر برصه اياه صراحة ولكن باصطاع الاقاويل والوقية والتفريق حيث يريد أن يسود ويتنم . وقد ذكر عنه أنه لم يخلص لشيء قط وانه لم يثق به أحد الا غدر به .

فلما ارتقى توفيق العرش ووجد نفسه بين فوتين متناقضتي الغرض - قوة أصدقائه المصلحين الذين أحضوا بحشوه على الوفاء بعهوده الدستورية وقوة القناصل التي منعت أن ينزل عن شيء من سلطته التي كانوا يريدون أن يستعملوها باسمه أذعن أولاً لاقتراع وزيره شريف بأن يصدر منشوراً يسمح به دستوراً ولكنه أبى بها علي إشارة اقتناصل أن يوقع المنشور . وقد أفضى هذا الى استقالة شريف باشا فحل محله رياض باشا الذي رشحه القناصل لذلك والذي كانوا يعتمدون عليه في تعمد آرائهم الخاصة بالاصلاح الدستوري في الوقت الذي يتستح فيه بالسلطة المطلقة طبقاً لمنشور سنة ١٨٧٨ ويتصرف في شؤون الادارة كيف يشاء باسم الحديو وبغير رقابة من أي مجلس أو جمعية .

وقد كان الضعف الذي أظهره توفيق في هذا الشأن وهو أول شأن مهم عرض له في حكمه سبب كل ما أصابه بعد ذلك من المتاعب . ولو أنه وفي بعهوده للمصلحين ولوزرائه واستدعى مجلس الاعيان ليق رعاياه موافق له ولما كان قد وجد محل للدسائس التي راجت سوقها في المعادين التاليين والتي مهدت السيل لثورة سنة ١٨٨٢ أما والحال كما هي فقد وجد نفسه بعد ما أطلع القناصل بمجرداً من السلطة وصار القناصل والوزراء يعاملونه كأنه دمية .

وقد اختلف الناس في الحكم على رياض . وقد كان الوطنيون شديدي الحكم

عليه حين زيرت مصر في خريف سنة ١٨٨١ وكانوا يحملونه تبعه احرآآت الضف
التي اتخذت ولكى أعتد الآن ان التبعة كلها لم تكن واقعة عليه وكان رياض
باشا من رجال العهد القديم ولم يكن يشق الا بأشد أنواع الحكم اطلاقا وقد أدار
الادارة بالطرق التي كانت متبعة في عهد اسماعيل أى بالباسوسية وقوة البوليس
والاعتقال والسنى . على أنه لم يكن ظالماً أو واثياً بالطبع وعندى أنه كان محوطاً في
كل أعماله بضرب من الشعور الوطنى . وكانت فكرته في حكم مصر طوعاً لا مرفقضى
فرنسا وانجلترا وعلى دعم الشعب تنحصر كما أكد لى في دغبة انتقاد مصر من مصاعبها
المالية ووقاتها بالديون ومن ثم التخلص بأسرع ما يمكن من كل تداخل أجنبي .
وليس هناك شك في أنه بذل في السنة الاولى من حكمه جهداً عظيماً لتخليص
العلاحين من أتعالم المالية . ولكن الوفاء بالديون عملية طويلة بطيئة وليس بم
دليل على أنه كان يمكنه أن يحج في تحريرها من الوصاية التي ضرت عليها أوحى
تخليص الناس من أقطع ما حاق بهم من سينات الادارة . والواقع أن المراقبة الشائبة
التي خدمها رياض لم تكن إلا بالنسالة المالية طارحة كل ما عداها في زاوية الاهمال .
وقد كان الفلاحون لا يزالون يحكمون بالكرباج . وكانت الحكام بؤراً للفساد والملاك
المدينين يفسرون ممتلكاتهم للدائنين وكانت سلاسل الأتراك والحركس لا تزالان
تسودان البلاد .

ولم تلم الحكومة بأي تحييس أدبي ولا هي حسنت حتى نظم الادارة . وقد
كان هذا موضع ضعف الحكم الإنجليزي الفرنسي وسبب فقله في ارضاء الناس .
ومع ذلك يجوز أن نقسأل ألم يكن بد من أن تأتي الازمة بالسرعة التي جاءت بها
لو أن الخديو كل محلياً لوزيره ممنعاً عن الدس له ؟ ولكن هكذا كان طبع توفيق
كما أسلفنا - فهو ينحصر ظاهراً للضغط ولكن يحاول تحقيق غرضه بوسائل أخرى
لذلك أخذ يديس لرياض من أول الامر وكان غيوراً من سلطته ناقساً عليه القوة
التي منحها له . هذا هو التاريخ الصحيح لسلسلة الاوقات التي مرت فيها مصر سنة
١٨٨١ بما فيها القلاقل العسكرية التي انتهت بسقوط رياض من دست الوزارة .
ان تدخل الجيش في شتاء ١٨٨٠ - ١٨٨١ كقوة سياسية في مصر له أهمية

كبيرة تستدعى الحال شرحه شرحا وافيا . وقد كلف هذا الجيش عاملا من عوامل الاستياء منذ حلت به الهزيمة في الحشد وقضت على سمعة الخديو رد على ذلك ان الصعوبات المالية جعلت دفع المرتبات عسيرا وغير منتظم . وكان الخنود العائدون من الحرب قد استحقوا بقوادم الدين برهنوا على قوة كفائهم واشترك معهم أكثر الضباط الصغار في عواطف الاستحقاق والاستياء . وقد ساعد على ذلك ان مناصب الجيش العليا كانت مفضرة على الخراكة الذين يشكلون الغلبة التركية فهذه الطبقة احتكرت السلطة . أما الخنود والضباط الي رتبة يورناشي فقد كانوا من الملاحين . وقد اشتد الشعور بكرهه الطبقات حين حرم هؤلاء من مرتباتهم في الوقت الذي كان الروس الحراكة يستولون على مرتباتهم الكبيرة غير منقوصة . وعلي ذلك كان الخنود وصغار الضباط شاطرون الشعب استياءه في الثلاث سنوات الاخيرة في حكم اسماعيل وحدث كثير من المؤامرات التي لم تفلح ابداً بين صغار الضباط الذين وصلوا في وقت من الاوقات الى الشروع في استخدام القوة . وكان بين زعماء هذه الحركة منذ سنة ١٨٦٧ احمد بك عرابي الذي خولته رتبته - بكياشي - وهي رتبة قلنا شغلها مصري - نفوذاً قوياً استثنائياً على مواطنيه . وأحسب ان المسكن هنا يتسع لكثافة شيء . عن هذا الرجل الشهير .

ولد عرابي سنة ١٨٤٠ وهو ابن شيخ صغير في احدى القرى بملك مغاربة فداديس ونصف فدان في « هرمة » القرية من الزقاريق حيث نشأت أسرته منذ زمن بعيد وكان لها احترام خاص شبه ديني وقد دعم كثيره من الشيوخ ان دماء السادة « سلالة النبي » تجري في عروقه أما عدا ذلك فهو فلاح فقير ولكن هذه السيادة رفعت قدره علي حبرائه الملاحين ولا أدري ما هو مبلغ الصحة في زعمه هذا وقد اختلف الناس فيه ولكنني أعرف انه حل الاسرة على العنابة بالترية الدينية التي لا يمكن تحصيلها في قري الوجه البحري ومن ثم أرسل عرابي في شبابه كما أرسل والده الى مصر ومكث عامين يدرس في الازهر .

وقد اقترح في الرابعة عشر من عمره وأخذ حنديا ولما كان شاباً طويلاً القامة باكر النمو وكان سعيد باشا قد وضع مشروعا لتدريب أبناء مشايخ القرى ليكنوا

ضباطاً فقد مرق في الرتب الصغرى بسرعة وصار ملازماً في السابعة عشر ثم يوزباشياً في الثامنة عشر وصاعاً في التاسعة عشر وبكباشياً في العشرس. وقد حدث هذا الترقى السريع المعلوم النظير بالنسبة لآبناء الفلاحين تحت حماية القائد الفرنسى الذي كان يصل تحت امرته وهو سليمان باشا الفرنساوى ولكن العصل الحقيقي فيه يرجع لرغبة سعيد باشا الذى اراد أن يكون مصرياً كرعاباه لافرداً من جماعة الأتراك ورغب كذلك في أن يكون محاطاً بالضباط المصريين . وقد حظي عرابي الذى كان وسياً ووجيها برضائه حتي سمي أركل حرب له ورافق سعيد الي المدينة في السنة التى سبقت وفاته. وعندى ان عرابي كون آراء السياسة الاولى أثناء حديثه مع سيده في هذه السفرة التى كانا فيها متلازمين وتحتصر هذه الآراء في المساواة بين الطبقات وفي الاحترام الواجب للفلاح باعتباره العنصر الاساسي للمجد في الجيش المصرى . وهذا الدفاع عن حقوق الفلاح هو الذى ميز عرابي على مصلحي ذلك العصر . وغني عن البيان ان حركة الاصلاح الازهرية كانت تشمل المسلمين ولا تميز بين الاحناس . أما حركة عرابي فكانت قومية ولذلك كانت الوطنية فيها أظهر واقبال الناس عليها أقوى وأكثر .

وكانت وفاة سعيد الفجائية ضربة شديدة على آمال تالعه عرابي فقد زالت الخطوة عن الضباط الفلاحين في عهد اسمعيل وأعطى التفضيل كله للجراكة وقد وجد عرابي ان هؤلاء يعاملونه بازدراء ثم أعطيت له مهمات ثابوة في مصلحة النقل وفي المناصب المدنية فأدى هذا الي انضمامه للتذمرين والى تقافيه في الدفاع عن حقوق طبقته . ولكن عرابي فصيحاً قادراً على شرح آرائه باللغة التي يفهمها مواطنوه وبمحبوبتها . نعم أنها ليست لغة صحيحة ولكنها حافلة بالمجازات بحلاة بالفتنسات من القرآن وكان قد استمادها من دروسه في الازهر . ومن ثم كان له نفوذ كبير عن الذين اتصل بهم .

وفي هذه الاثناء امتزج عرابي بكثير من الاوربيين ولا سيما في الاسكندرية التى كان قد أرسل اليها بأمورية رسمية غير عسكرية خاصة بدائرة الحدبو وكانت علاقته بهؤلاء الاوربيين ودية وقد ظل عرابي الى اللحظة الاحيرة مجرداً من كل

شائبة من النعصب فيما يختص بالمسيحيين . أما فيما يختص بتدبيره فمع أنه كان شديد المحافظة على مروه الدينية كان كذلك من أحرار المسلمين ثم أنه كان محباً للاساية في آرائه الخاصة بأحوال الام وأصحاب العقائد المختلفة .

وقد خدم عرابي في الحرب الحبشية ولكن في خطوط المواصلات بين مصوع وجبهة القتال . وقد عاد منها كسائر زملائه ساخطاً على ما حدث فيها من سوء التصرف . وإلى هذا يرجع تفرغه الآن للسياسة وتعاظم غيظه الذي كان موحهاً بعد ذلك نحو الحديرو . وقد زاد هذا التيفظ حين اعتقل هو والضابط الملاح على بك الزوى نهمة كاذبة هي ان لها علاقة بالمهجوم على نوبار وهي متاوره قام بها اسماعيل ليسر وراءه . دوره الداني . وبعد الافراج عنه اشترك آتية مع بعض الصباط في مشروع لم ينجح وكان مؤداه خلخ الحديرو والراجح ان هذا الخلخ كذا يتم حتى لو لم تتدخل أوربا وذلك بواسطة الجيش والاعتقال ونحوي عن البيان ان هذه الطريقة الاخيرة كانت قد طرحت على بساط البحث بصفة جدية في الازهر وليس هناك شك في أن حرب المصلحين والعلايين قد سرهم سقوط اسماعيل .

ومن الخطأ أن يظن أحد أن عرابي كان معادياً من أول الامر للحكم الحديرو ولم يكن بينه وبين توفيق أو أحد القناصل أي حرازة بل كان يرى على عكس هذا نفوذاً ودياً صالحاً كما كان يرى في القناصل حماة للعلايين من ظلامهم القديما . رد على ذلك انه قلد قيادة أورطة من رجال الحرس وأقام في أحب الامكة اليه أي في ثكنات العباسية . ولو أن مظالم الجنود الحقيقية عولت شيء من الحدق والاعتدال وعين وزير للحرب عبر معاد للضباط الفلاحين لكان الراجح أن لا يثور عرابي ولا غيره في وجه الحكومة . ولكنه أرغم على الدفاع عن نفسه ولثيرة الحديرو توفيق من سلطة وزيره رياض شأن كبير في هذا .

وقد وقعت القلائل على النحو الآتي : لما أتمت وزارة رياض باشا عين عثمان رفقي باشا وهو ضابط مركبي من الطراز القديم لورادة الحرب . وكان هذا ممن يصلحون لتمثيل تلك الطبقة التي ظلت قروناً طويلة تنظر الى مصر كهيبة خاصة وتنظر الى الفلاحين كمبيدها وخدمها فكان ملكه بالنسبة للضباط العلايين مسلكتاً عدانياً من

شأنه من التعصب فيما يختص بالمسيحيين . أما فيما يختص بتدينه فمع أنه كان شديد المحافظة على فروضه الدينية كان كذلك من أحرار المسلمين ثم انه كان محباً للاساية في آرائه الخاصة باخاء الامم وأصحاب العقائد المختلفة .

وقد خدم عرابي في الحرب الحبشية ولكن في خطوط المواصلات بين مصوع وجبهة القتال . وقد عاد منها كثر زملائه ساخطاً على ما حدث فيها من سوء التصرف . وإلى هذا يرجع تفرغه الآن للسياسة وتعاظم غيظه الذي كان موحهاً بعد ذلك بحو الخديو . وقد زاد هذا القبط حين اعتقل هو والضابط الملاح على بك الروي نهمه كاذبة هي ان لها علاقة بالمهجوم على توبار وهي متاوره قام بها اسماعيل ليسر وراه . دوره الداني . وبعد الافراج عنه اشترك آونة مع بعض الضباط في مشروع لم ينجح وكل مؤذاه خلع الخديو والراجح ان هذا الخلع كاد يتم حتى لو لم تتدخل أوربا وذلك بواسطة الجيش والاعتقال وعني عن البيان ان هذه الطريقة الاخيرة كانت قد طرحت على بساط البحث بصفة جدية في الازهر وليس هناك شك في أن حرب المصلحين والفلاحين قد سرهم سقوط اسماعيل .

ومن الخطأ أن يطل أحد أن عرابي كان معادياً من أول الامر للحكم الجديد فلم يكن يبه وبين توفيق أو أحد القناصل أي حرازة بل كان يرى على عكس هذا معوذاً ودياً صالحاً كما كان يرى في القناصل حماة للفلاحين من ظلامهم القديما . رد على ذلك انه قلد قيادة أورطة من رجال الحرس وأقام في أحب الامكنة اليه أي في ثكنات العباسية . ولو أن مطالع الخنود الحقيقية عولحت شيء من الحذر والاعتدال وعين وزير للحرب غير معاد للضباط الفلاحين لكان الراجح أن لا يثور عرابي ولا غيره في وجه الحكومة . لكنه أرغم على الدفاع عن نفسه ولغيره الخديو توفيق من سلطة وزيره وياض شأن كبير في هذا .

وقد وقعت القلاقل على النحو الآتي : لما أغت ودارة وياض باشا عين عثمان رفيق باشا وهو ضابط تركي من الطراز القديم لورارة الحرب وكان هذا ممن يصلحون لتمثيل تلك الطبقة التي طلعت قروناً طويلة تنظر الى مصر كضيعة حاصة وتنظر الى املاحين كمبيدها وخدمها فكأن ملكه بالنسبة للضباط الفلاحين مسلكتاً عنانياً من

أول الامر وقد أعطي التفضيل للحرا كسة لا للفلاحين في جميع التعمينات والترقيات التي حدثت في عهده . وساء الجنود أنهم كانوا يكفون ماداء معات غير واحباهم الرسمية ثم أنهم كانوا معرضين لصروب شتى من الاشغال الشاقة كحفر الترع ومباشرة الاعمال الزراعية في أراضي الخديو ، وكانوا قد فقدوا طبيعة الحال عادة الاشتغال بالزراعة .

فلما وقف عرابي في جانب رجاله وأن أن يسمح بتشغيلهم في حمر التربة التوفيقية غضب عليه وريز الخرب وكانت هلك مسألة مرتبات سمعت فرفع عنها الضباط العلاحون مذكرة ٢٠ مايو سنة ١٨٨٠ وكان عرابي واحداً من هؤلاء الضباط . ولم يكن في المذكرة شيء سياسي وقد رفعت بالطريقة القانوية الي وزارة الحرب فتدخل اتصالاً بجنرالنا وفرنسا وافقت لجنة التحقيق فأقرت اللحة مطالب الضباط . وقد انتصر الميورنح قصل فرنسا في هذه المسألة للضباط واستمر على حاجتهم من ذلك العهد الى حد ما خصوصاً إذ قد شجر بينه وبين رياض خلاف أثناء التحقيق . ومع ان عرابي كان يقوم في هذا كله بصيب كبير قد كان متبصراً معتدلاً وقد أرضي التناصل بذلك . وكان قد جدد الصداقة مع زعماء الاصلاح في الارمر منذ عاد الى القاهرة وقلد قيادة الكتبة الرابعة ثم انه كان متصلاً بواسطة زميله علي بك الروي بوربرين أحدهما علي باشا مبارك والثاني محمود بك سامي البارودي . وكان هذان علي رغم ما عرفا به من الميول الدستورية والتعية لشريف قد احتفظا بوزارتيهما بعد سقوطه فكان الاول وزيراً للاعمال والثاني وزيراً للاوقاف .

وإذ بلغت الاحوال الى هذا المأرق رأى الخديو فيها فرصة سانحة للدرس ضد رياض فانصل بالصباط بواسطة أركان حربه على بك فهمي وهو صابط فلاح ولكنه اتصل بالقصر بواسطة زوجته الحركسية الاصل وعين قائداً للكتبة الحرس الاول . وكان هذا الضابط رجلاً فاضلاً . ومع انه لم يوقع المذكرة التي أرسلها الضباط الي وزارة الحرب ولم تكن له آراء سياسية قد كانت صله بعرابي واحوانه ودية ولم يحد صعوبة في اقناعهم بان الخديو هو أيضاً في حانهم وانه أرسله خصيصاً لاثذارهم بان رياضاً ورفقته يدبرون لهم تدبيرات سيئة وان الخطر سيظل محققاً لهم أو يستحيل هذان

الوربران ، وقد سهل اقناع عرابي بذلك لان رياصاً كان الى ذلك الحين قد اعتقل كثيراً من المطالبين بالاصلاح الدستوري ومن بينهم كثير من أصدقائه . وكان الشيخ جمال الدين قد انتهى أمره بسرعة ونبي شاب من ذوى الاملاك في الشرقية يدعي حسن موسي العقاد منذ مدة قصيرة الى النيل الايض لا شيء الا لانه طعن على قانون المقابلة الذي كان الحديو اسماعيل قد أصدره وكان طعنه هذا رداً على خطاب نشره دفرزولسن ومن ثم اقترح على الضباط أن يسبقوا عثمان رفقي فيطلقوا رفقته وان الحديو ينظر في مثل هذا الطلب بعين الرضا .

وقد انتهت المسألة الى أزمة في أواخر سنة ١٨٨٠ حين علم عرابي ذات مساء وهو مع الضباط في منزل نجم الدين باشا أن الوزارة قررت حرمانه هو ورفيقه القائم عبد العال بك حلبي قائد الكتبة السودانية من مناصبهما ورفعهما من الخدمة . وقد عي اليه في الوقت نفسه أن على بك فهمي هذا في منزله ويريد أن يراه ، فذهب الي داره فوجد فيها علي بك في انتظاره ومعه عبد العال حلبي الذي أكد له صحة ما بلغه من الأنباء . وبعد أن تشاور الثلاثة — لان علي فهمي كان قد قرر الاشتراك معهم — قرروا أن يذهبوا الي رئيس الوزارة ويطلبوا منه أن يضع حداً لما يصيبهم من اضطهاد عثمان رفقي بعزله . وقد فعلوا هذا في اليوم الثاني .

وقد قص علي عرابي نفسه ما حدث في هذا اللقاء ولا شبهة عدى في صحته قال : ذهبنا بالعريضة الي وزارة الداخلية وطلبنا مقابلة رياص . أخذنا الي غرفة خارجية وانتظرنا ريثما يقرأ الوزير عريضتنا في حجرته . ثم خرج الوزير وقال لنا « ان عريضتكم مهلكة . فعي مسألة شتى . ماذا تريدون ؟ تريدون تغيير الوزارة . فماذا نضعون في محلها . من الذين نطلبون أن يديروا الحكومة ؟ » قال عرابي فأجبت قائلاً : ولكن يا سعادة الباشا هل مصر امرأة لم تنجب الا نساء أبناء ثم ابتليت بالعم . وقد أشرت بذلك اليه هو والسيدة الوزراء فغضب جداً من ذلك ولكنه قال في النهاية أنه سيطر في المسألة . وهكذا تركناه .

وقد لعب الحديو دوراً . غادروا في مجلس الوزراء الذي عقد بعد هذا الحادث مباشرة ضد اقترح اعتقال الضباط ومحاكمتهم رغبة منه في توريث الوزارة اذ كان يعلم

في السيد دي ريج القنصل الفرنسي سيندخل لحماية الضباط . ولم يكن عثمان رقيقاً وحسن هذا الاقتراح الذي يعنى الى محاكمته هو أيضاً بطبيعة الحال كما أن رياضاً لم يكن يريد أن تفتضح المسألة علناً وبذلك وقف في جانب الضباط . على انه قد أوعز لرياض سرّاً أن موقفه قد بسا ، تأويله فتعتبر معارضة تقصاً في اخلاصه للخديو فحسب معارضته واتفق في آخر الامر على أن يترك أمر الضباط لعثمان رقيقاً للتصرف فيه بالطرق التي كانت متبعة في عهد اسماعيل . لذلك لم يعمل شيء علناً ضد الضباط ولم يحصل مجلس الوزراء في سألهم بقرار .

أما ما تلا ذلك فمعروف . فقد دعي أصحاب المريضة الثلاثة بعد بضعة أيام الى قصر الليل ليتنقوا مع وزير الحرب على الادوار التي تشعلها كتابتهم في الاحتفال بتأهيل الاميرة جميلة . فلما وصلوا هلك وحدثوا كثيراً من رؤسائهم الضباط الحراكسة مع عثمان رقيقاً ولم يمس على وصولهم لحظة حتى اعتقلوا وأهينوا . وقد تمك عرابي الى آخر الامر بأن المراد كن وصعهم في باخرة نيلية رابطة بحوار القصر والصعود بهم في الليل واغراقهم وليس ثمة ما يحمل على الشك في صحة ذلك . فقد كان كل غرض عثمان رقيقاً أن يتجنب محادثة قد تفضح ظله . ولو أنهم وضعوا في البخرة وأقلعت بهم لاعلن حالاً أن هؤلاء الضباط رفقوا وأرسلوا الى بلادهم . ومهما يكن من ذلك فقد أقدم جنود كتيبة على بك فهمي في الحمال وقد زحفوا على القصر وفتحوا بالقوة أبوابه بقيادة الصاع محمد عبيد وهو رجل طيب مخلص قتل بعد ذلك في معركة التل الكبير . وقد قهرت المواد الحراكسة بعد ذلك وأرغم عثمان رقيقاً على الفرار من نافذة الدور الارضي ثم سار الضباط الثلاثة في طليعة جنودهم ووسط قرع الطبلات الى ثكناتهم . وهالك وضعوا خطاباً دونوا فيه ما حدث وقالوا أنهم فعلوا ما فعلوا دفاعاً عن أنفسهم ولم يرقعوا سلامة أى انسان في خطر ثم أرسلوا الخطاب الى السيد دي ريج طالبين توسطه لدى الخديو في عزل عثمان رقيقاً وتعيين وزير آخر في محله وقد قبل الخديو ذلك في الحال . ولا شك في أن السيد دي رنج والخديو اجتهداً كذلك في حلع رياض باعتبار أن رئيس الوزارة هو أول مسئول عما حدث من الاضطراب ولكن رياض كان مؤيداً من جانب المراقبين المسالين

ومن جانب القنصل الألماني بل من جانب ماليت على ما أنظر وكان هذا كما أسلفت غير راض عن الضابط فلما رفعت المسألة إلى حكومتى باريس ولندن لم تحملا رغبة الحديو ولم يمض وقت قصير حتى استدعي الميودى دى نوح إلى فرنسا تعزى في أديال الحية. وقد حدث هذا الاضطراب العسكرى في قصر النيل يوم أول فبراير سنة ١٨٨١ وحدث بينما كنت لا أزال في مصر ولكي لم أكن في القاهرة وادكراني لم اسمع اسم عرابي قبل ذلك . ونكس عليه هذا أ كسه شهرة عامة واسعة وصار اسمه يذكّر في الانواء كرحل استطاع أن يتحدى الحكومة بنجاح ويرغبها على تغيير الوزراء . ولم يمض عدة أسابيع حتى صار عرابي قوة يعتد بها في البلاد وهطلت عليه من انحاء البلاد كلها عرائض المظلومين الذين يشكون اليه ما أصابهم ويطلبون معونته فيه والواقع ان ظهوره بظهر الدفء عن مصالح الفلاحين ضد طبقة الأتراك الحاكمة أ كسه حب الناس خارج القاهرة فأقل كثير من الاعيان والمشايخ على الاتصال به . وكان عرابي يحسن الرد عليهم على قدر ما تسمح به قوته المحدودة . ومما يكن من شأن الناس الذين أقبلوا على الاجتماع به فقد كان يؤثر فيهم ابتسامته الحداثة وبيانه العذب ورقته .

وقد كان منظر عرابي في ذلك الحين حسناً جداً لائقاً بالدور الذي قدر عليه أن يقوم به بالقيادة عن بني جنسه . فهو فلاح أصيل طويل القامة ثقيل الاطراف بطيء الحركة نوعاً كما هو يمثل تلك القوة العظيمة التي اشتهر بها الفلاح العامل في الوجه البحري .

ولم يكن في عرابي شئ من شموخ الجندي بل كلز في اشاراته ذلك البطء الذي أعطاه مظاهر النبيل والذي يشاهده الانسان في مشايخ القرى ولم تكن ملاعبه نذل على شئ . من اليقظة وقت سكوته كما أن نظرائه كانت شاردة ولم يكن الانسان يتنظن الى ذكائه الكبير ولطفه إلا حين ينسم وينكلم حينئذ كان وجهه يستضيء كما يستضيء الوادى بأشعة الشمس .

والظاهر ان اباشوات الحراكة والأتراك ما كانوا يعملون مثل هيئته وهي هيئة الفلاح الذي سادوه قروناً واستعبدوه وأرغوه على العمل في حقولهم بغير أجر

ضوا أنه لا يصلح إلا أن يكون آلة في أي أيديهم المأكرة . وقد كان رياض يحتقره من قول الامر إلى آخره ولم يعتقد به مصلحو الازهر الا قليلا . ولكن هذه الطواهر كانت أعلم شعائته لدى الفلاحين قد أدركوا أنه واحد منهم وقد تركت فيه حلال فصار باهرة بما تحلى به من قوة وبما تعلمه في الازهر من العلم . وهذا يجب علينا أن نذكر أنه لم يتفق في خلال الثلاثة قرون الأخيرة أن صدأى فلاح مصري إلى فدوة الشهرة السياسية أو ظهر في لباس المصلحين أو وسوس بكلمة واحدة فيها متى الثورة . على أي أشك في أن خصاله وحدها وقد كانت سلبية لا إيجابية ترموه التي لم يكن برهن على شيء منها بعد كانت تضعه في الطليعة كزعيم وطني ولا الاضطهاد الطائش الذي انصب عليه من رياض في الاشهر التي تلت حادثة قصر النيل والذي استطاع دائماً أن يرفضه أو يتخلص منه بواسطة دسائس خصوم الوزير .

وكن أم أولئك الخصوم وأقدم على تحدير عرابي من المخاطر التي تهدده عليه موضعه محمود بك سامي الذي خلف عثمان رفقي في وزارة الحرب بتوصية لبيدي رنج والذي كان من أعضاء حزب شريف وكان دستورياً متحسناً . ومع أنه لم يكن قد تعرف إلى عرابي إلا الآن فقد كان يميل إليه ميلاً ودياً كما أنه كان صديقاً حميماً لبي بك الروبي الذي هو أحد الضباط الفلاحين . فلما تقلد وزارة الحرب أصبح في استطاعته أن يساعد بها بالفعل ويطلعها على ما يصل إلى علمه من الدسائس التي تدبر لها وقد استطاع أن يفعل ذلك بنجاح لاقلائه من الاجتماع بعرابي ولو أنه كان دائم الاتصال به بواسطة علي الروبي . وقد وعد الضباط وعداً صريحاً بأن يطلعهم حالاً على الحقيقة إذ انضم الحديري للذين يعملون ضدهم فإذا لم يستطع للذم استئثار وكان عليهم أن يبدلوا استقائه انذاراً لهم .

أما محمود سامي البارودي فقد نال دوره في ذلك الصمام وهو سليل أسرة شركسية عاشت في مصر أجيالاً طويلة فكان على هذا من طبقة الحكم ولكنه كان كشراف باشا مصلحاً ووطنياً صادقا . أما من حيث مواهبه فقد كان أعجب بكثير من عرابي بل كان من أعظم الناس علماً وتهذيباً في مصر فقد كان

متصلاً في آداب اللغتين التركية والعربية كما أنه حجة في تاريخ مصر وهذا كله فضلاً عن مواهبه الشعرية العظيمة المنتشرة وقد وصمه الكتاب البريطانيون الذين اهتموا أو بعبارة أصبح ضلوا بما في الكتب الرسمية الدوق اذ قالوا انه كان بدمس لورير ينتمى لحزب غير حزبه ولم يتطوع هو لحكمته . وقد كان محمود سامي في الوزارة حين تقلد رياض الرئاسة في سنة ١٨٧٩ . وكل هالك تقام على أن يحتفظ هو وعلي باشا مبارك باستقلالها في كل ما يختص بوزارتيهما . ولم يكن ثمة شك في أنهما كانا بدمسان لرياض في ربيع سنة ١٨٨١ ولكن عرضهما من ذلك لم يكن إلا إعادة رئيس حزبهما شريف الى السلطة . ومن هذه الناحية يجب أن ينظر الانسان لاعمال محمود سامي ولست أشك ان تاريخ الوراثة البريطانية حافل بهذا الصرب من الدساتير وقد كان الدور الذي قام به فيما عقب ذلك من الحوادث دور اخلاص لمبادئه الدستورية والحركة الوطنية وقد دفع في ثباته ثمناً عالياً فانه كان رجلاً غنياً ومن ثم كان معرضاً أكثر من غيره للخسارة .

أما الدور الذي لعبه الحديوي أثناء الشهور السبعة التالية فلم يكن على شيء من مثل هذه الاستقامة والظاهر انه كان في حلال هذه المدة فريسة للتردد والغيرة والخاوف والمطامع . وقد كان خصوم رياض يوهونه أن هذا الوزير يدمس له ويصل لخلعه والحلول محله . ومع أن هذه فكرة لا يمكن تصورها فقد صدقها الحديوي في وقت من الاوقات . وفي أوقات أخرى أثارت شهرة عراقى غيرته فكان ينتقل من خوف الى خوف في الوقت الذي كان فيه يتوق لاستعادة السلطة التي كان يحكم بها والده وقد كانت المراقبة الانجليزية الفرنسية تثير ثائرتيه ثم انه كان يعرف ان السواد الأعظم يكرهه ويزدريه . وكانت بطائته الحركية تصر أشد العدا للضباط الفلاحين ولا تقطع عن تحريضه على معاملتهم بأقصى الشدة وهذا بينما يستخدم شريف باشا واحوايه الدستوريين على أمل أن يعيدوا تمثيل الطائفة التي كان يريد أن يتخلص بها من رياض ومن المراقبة الثانية معاً . هذه هي الحالة التي كانت عليها البلاد في شهر أغسطس سنة ١٨٨١ حيث وقعت الازمة وحيث كان للاختار الذي عرى العالم الاسلامي من جراء اعتداء فرنسا على تونس تأثير كبير .

الفصل السابع

انتصار المصلحين

ليس من السهولة في شيء أن يحدد الانسان الدور الذي لعبه الحديو توفيق في آخر فصول رواية الثورة وهو المظاهرة العسكرية التي جرت يوم ٩ سبتمبر في عابدين وقد ذكر نيتن وغيره من الكتاب أنه كل هناك اتفاق تام بين توفيق في ذلك اليوم وبين الزعماء العسكريين ابتغاء اسقاط رياص والتخلص من الوصاية الشخصية التي ضاق بها الحديو ولكن ليس هذا صحيحاً الا من الوجهة العامة وقد أكد لي عراقي أنه لم يكن له في سنة ١٨٨١ علاقة بالحديو خلاف العلاقة الرسمية التي كانت له بصفته قائد كتاب الحرس ولم يخاطبه عراقي شخصياً الا ثلاث مرات ولكن لم يرد ليلاسة ذكر في واحدة منها ومع ذلك لا شك في أن توفيق ظل يوحى الى الضباط بواسطة أركان حربه على بك فهمي فكرة المظاهرة العسكرية ذات الأغراض المحدودة ولكن هذا الضابط قد عاد الى خدمة الحديو على الرغم من اشتراكه مع عراقي في حادث قصر النيل واعتقاله معه وكان الحديو يستخدمه ساسوساً على الضباط المصلحين ووسيطاً لديهم في الوقت نفسه وكان توفيق يظن أن صلة على فهمي بالباطل بواسطة روجه ضمان لوفائه ولم يغضب عليه توفيق ذلك الغضب الشديد الا حين انضم هاتياً الى عراقي بالرغم من علاقته بالقصر . وقد كان توفيق كما قلنا متقلماً فيما كان يعتمد على الجيش في التخلص من رياص كلن ينحرف عنه بدافع الغيرة من شهرة عراقي الآخذة في الزيادة . وقد برزت شهرة عراقي خلال ذلك الصيف ومكنته من الاتصال بكثير من مشايخ القرى ووجهاء الاقاليم وكان هؤلاء قد فرحوا بفكرة تحرير الملاح التي كان يلهج بها عراقي . وكانوا يسمونه في الارياض « الواحد » وعندى أنه كان جديراً بهذا الاسم فقد كان الفلاح الوحيد الذي استطاع أن يجمع بنجاح طبقات الحكم المركبة

وليس في الطاقة أن يتجاوز الانسان الحد معها قال في التأكد بان حركة سنة ١٨٨١ الوطنية كانت حركة فلاحية محنة غرضها تحرير المصلحين وأنها كانت موحدة

قبل كل شيء . آخر ضد حكومة الحراكة المدومة الكفاءة والتي حربت البلاد وأنها لم تنجح ضد المراقبة الثانية الا حين وقفت هذه في حاب الطلبة وأيدتهم . على انه قد امتزجت شؤون أخرى بالحركة بطبيعة الحال . واد أقل كثير من وجهاء البلاد وأعيانها على عرابي والتفوا حوله وصاروا قوة لا يستهان بها أخذ كثير من الدستوريين الذين كلن أكثرهم من الطبقة الحاكمة يعاملون عرابي كحليف على الرغم من انهم كانوا في الحقيقة خصوما لحرية الفلاحين كما كان رياض معه . وكانت فكرة الدستور في عقول هؤلاء الرجال تنحصر في تخليص السلطة من يد الخديو ووضعها في يد طبقة الحكام الحراكة وهي الطبقة التي اعتبروها وحدها صالحة لحكم البلاد . وكان رأس هؤلاء الدستوريين شريف باشا وقد وحد نفسه في خلال الصيف متصلا بعرابي من طريق المراسلة وباعتباره واسطة الحصول على دستور يمهّد لشريف باشا سبيل الوصول الي رئاسة الوزارة مرة أخرى .

ولما كان عرابي ميالا لمكرة الدستور قد أخذ في تأييدها وخصوصاً ان سلطان باشا الذي كان أقوى وجهاء الفلاحين كان كذلك دستوريا كبراً وكانت واسطة الاتصال بين عرابي وشريف وقد اتفقوا فيما بينهم جميعاً على انه متى حانت فرصة ملائمة يلتقي عرابي بنفوذ الجيش في كفة أي ضغط يبدل لحل الخديو على الموافقة على طلب الدستور . على ان الخديو نفسه لم يكن يكره هذا الطلب لافصانه بطبيعة الحال الى إتالة رياض تلك الاقالة التي كانت عرضاً رئيسياً من أعراض الخديو . ولذلك أوعز الى عرابي بواسطة علي بك فهمي بصارات التشجيع وأكده موافقته .

وتدل أول رسالة تلقاها عرابي من توفيق في هذا الصدد دلالة واضحة على طرق الدس التي كان يسير عليها الخديو . فقد كان يتحدث ذات يوم الى علي فهمي عن الجيش ونما . قوته كعامل سياسي فقال « أنتم الثلاثة عرابي وعبدالمعال وأنت جنودي وأنتم أربعة بانضمامي اليكم » ثم أمره أن يبلغ هذه الرسالة الى عرابي . ثم تبعت هذه الماعات أكثر وضوحاً حتى اقتنعوا بأن الخديو يؤيد سرّاً ان لم يكن علناً كل مظاهرة عسكرية يكون الغرض منها اسقاط رياض . وكان يجب لاقناع القاصد أن يظهر بمظهر المضطر للاذعان بحكم القوة حين يقبل الوزارة .

واسكن الشك في مسلك الخديو لم يلبث أن عاد الى الاذهال حين دقت صلاحة العمل . وقد حدثت الازمة على الوجه الآتى : كان رياض باشا حتى شهر أغسطس قد احتكر حركة الفلاحين الى حد انه لم يحفل البتة بها ولكنه أزعج الآراء المرة الاولى . وكان يعتقد انه يستطيع أن يقمع الحركة العسكرية بوسيلة من تلك الوسائل الشاذة التي تعودت عليها حكومة الجراكزة وكان قد أحاط عرابي ورملاه بالمخاسيس واحتشد أن يورطهم في مشاجرة شخصية بواسطة رجال البوليس أو في قبح اضطراب آخر يقع في الشارع فيقتعوا في قبضته ولكن محاولاته ذهبت عبثاً . صد كل صديقهم محمود سامي وزير الحرب ينذهم بكل مشروع جدي يدبر لهم في الخفاء فكانوا أبدأ على قدم الخنزير وكان قد اتفق بين عرابي ومحمود سامي على أن يتوقع الصراط الملاحون شراً كبيراً اذا اضطرت محمود سامي للاستقالة من وزارة الحرب حتى ولو لم يسمع شيء من جانب محمود . فلما فرغ صبر رياض في أغسطس ووقع الخصام بينه وبين وزير الحرب وأعلى ان محمود سامي قد استقال اعتقد الصراط فيما يخصهم أن ساعة العمل أوشكت أن تخين . وكان رياض أراد ان يرغم وزير الحرب على ابعاد النصابين الرئيسيين ورفقيهما من القاهرة ووافق الخديو على ذلك في بونة من ثوب غيرته من شهرة عرابي فلما عارض محمود سامي في ذلك أعلن بالرفق في الليل . وكان الخديو ورياض لا يزالان يومئذ في مصيفهما باسكندرية فارسل رياض الى محمود سامي خطاباً يأمره فيه ترك القاهرة والسر الى عزبته ولذلك لم يسمح وقته بمختلفة أصدقائه الضباط . ولكن هؤلاء عرفوا حالاً ان عهد انتاعب قد ابتدأ ولا سيما ان ذلك الذي خلف محمود سامي في وزارة الحرب لم يكن أقل ولا أكثر من داود باشا يكن زوج أخت الخديو وهو جنرال جركسي من شرار الرجعيين . وقد عاد الخديو الى مصر في أوائل سبتمبر وكان الضباط قد تشاوروا في الامر مع سلطان يتما وحلفائهم الملكيين وقرروا أن يأخذوا حالاً في العمل . وقد صمموا على القيام لمظاهرة العسكرية معها تكن خطة الخديو محمود وان يصروا على صرودة استقالة الوزارة كضمان لازم لسلامتهم الشخصية . وكانوا قد رأوا اهم اذا سمحوا بان يتعدوا من مصر ويعرفوا سهل حينئذ على رياض ان يضربهم واحداً فواحداً وكان أبسر

ما يتوقعونه على يديه ولكن الغالب ان بعد الى اعتقالهم ومحاكمتهم تهمة العصيان على ماحدث مهم في فبراير . وكان في رايهم المطالبة بزيادة الجيش فمضوا هذا الطلب الى الدستور الذي اعتقد الحليم انه الصياح الوحيد ضد ظلم الحكومة .

وانتهت المسألة سريعاً الى أزمة في ٨ سبتمبر . فان داود باشا الذي كان كافراد طلقته يسرف في احتقار الصايط العلائين ولا يتوقع مقاومة من حامهم أصدر أمره سفر أورطة عرابي الى الاسكندرية وأورطة عدالعال الى دمياط . فلما وصل الامر الى الصايطين قررا أن يعملوا في الحال . ولا شك في أنهما اعتمدا على اانة الخديو اذا لم يكن على عطفه وكانا على بية من صغفه الخلق وعرفا انه سينضم الى الخائف الأقوى مها كان الفرار الذي اتخذته قل ذلك بتأثير رياض . وكانا يعتمدان كذلك على صداقة علي فهمي وان لثا في شك من أمره . وكانت أورطة علي فهمي لا تزال معسكرة في شكة عابدين ولم يرد لها ذكر في أمر الفل الذي أصدره وير الحرب فادا كان الخديو حصاناً لها وكان علي فهمي مطعماً لها فحينئذ لا بد من وقوع القتال والا فالراحح اذا لم يحدث شيء من هذا أن تبقى مطاهرتها سلمية وتنتهي سلام . ولأجل أن يتوقيا سوء الفهم أرسلوا مذكرة للخديو أطلعاه فيها على مشروعهما وقالوا فيها أنهما لن يذهبا بمجنودهما الى قصر الاسماعيلية الذي هو قصره الخصوصي بل يذهبان الى عابدين الذي هو القصر الرسمي والما منه أن يقابلهما ويسمع شكواهما .

أما ماحدث بعد ذلك فاسمعه من فم عرابي نفسه . قال : كبت في صباح اليوم التالي خطاباً الى الخديو في قصر الاسميلية يتضمن مطالبنا وقلت اننا سنذهب الى قصر عابدين في وقت العصر لتلقى الجواب . أما سبب ذهابنا الى عابدين وليس الى الاسماعيلية هو أن عابدين مقره الرسمي وكما أردنا أن نجيب ارجاج سيدات يته . على اننا كنا قررنا الذهاب الى الاسماعيلية اذا امتنع الخديو من المصور الى ابدن . فلما وصل الخطاب الى الخديو استدعى رياض باشا وخيري باشا وستون شا الاربيكي ثم ذهبوا أولاً الى شكات عابدين حيث حاطب الخديو ورياض الخوود أمرا علي فهمي أن يحتل قصر عابدين بمجنوده . فوافق علي فهمي ووضع جنوده في

اعترف العليا بحيث لا يرام أحد ويحيث يستطيعون أن يطلقوا علينا النار من التوافد.
 ولكي لا أعرف هل رودا محطوش فيه رش أم لا. ثم ذهب الحديو والحمرالات
 إلى القلعة وحاطوا الحدود بالمعى معه وطلبوا من قوده بك أن يساعد الحديو عليا
 وقد أنه الحديو وهدده بأن يضعه في السجن ولكن الحديو حاف وترك القلعة ثم
 جاء إلى العاسية بنصيحة رياض ليتكلم معي. ولكني كنت سرت بمجنودى بطريق
 الحسية إلى عابدين فسألوا عن المدفعية قبل لهم أنها ذهبت هي الأخرى إلى عابدين.
 ولما عاد الحديو إلى عابدين وحدثنا معسكرين في الميدان وكانت المدفعية والجنود
 الراكبة واقفة أمام الباب الغربي وكنت واقفاً بمجنودى أمام الباب الكبير. وكنت
 قد أرسلت إلى علي فهمي الذى علمت بوجوده وتكلمت معه فحب حنوده من
 السراي ووقف هم معنا. وقد دخل الحديو من الباب الشرقى ثم قدم علينا بقواده
 وأركان حربه ولكي لم أركض معهما وان لم يعد أنه كان هناك. ثم أمرني الحديو
 بالترحل فترجلت. وأمرني أن أرفع سيفي فرفعته ولكن دملاني الضباط تقدموا معي
 خوف الخيانة وكانوا نحو خمسين ضابطاً وقد وقف بعضهم بين الحديو وبين القصر
 فلما بلغت رسالتى وذكرت الطلبات الثلاثة قال «أنا خديو البلد وأعمل زي ما أنا عاوز»
 فقلت «ومعنى لسان عبيد ولا موث بعد اليوم» فلم يقل شيئاً بعد ذلك ولكنه أدار
 ظهره وذهب إلى السراي وبعد ذلك أرسلوا لي كوكسن مع مترجم سألتني: «لماذا
 أطلب البرلمان مع أني جندي» فقلت «ليضع حداً لحكم الاستبداد وأشرت إلى
 جماهير الشعب التي احتشدت خاف الجود لتأييدنا مهددي قائلاً «ولكننا سنحضر
 جيشاً بريطانياً. ثم دارت مناقشة طويلة بيننا. وقد عادت أو سبع مرات إلى القصر
 وعاد إلي مثلاً حتى قال لي أحبراً أن الحديو وافق على كل شيء وأنه ذكر حيدر باشا
 كخلف لرياض فلم أوافق على ذلك ولما سألتني أن أذكر خلفه ذكرت شريف باشا
 الذي كان أعلن عن ميله إلى مجلس النواب. وكنت قد تعرفت قليلاً بشريف لما كان
 يخدم في الجيش. وفي المساء نفسه أرسل الحديو يستدعيني إلى قصر الاسماعيليه
 فشكرته على إجابة مطالبنا ولكنه قال «يكفى». اذهب الآن واحتل عابدين ولا
 تستصحب الجنود موسيقاها في الشوارع.»

الى ها انتهى رواية عرابي وهي متفقة في كل شئ . مع المعلومات التي وقعت عليها من أوثق المصادر المصرية فيما يختص بحوادث ذلك اليوم بل هي متفقة على الصوم مع الكتب الزرق . ولم يكن الدور الذي قام به الخديو فيها ينطوي على شئ . من الطولة ولكها كانت في الحقيقة مسألة جس مادي أكثر مما تربينا الروايات الانجليزية الرسمية . وكان الخديو يعرف أن لاخطر عليه من الخنود وهم لم يطلبوا اليه شيئاً لم يكن موافقاً عليه أو كان يتعذر عليه أن يعد بقصائه . ولكنه كل ينردد بين الطرفين بنية الانضمام الي الفائز وكان مسلحاً هذا من القموض بحيث لم يعبه كلفن ولا كوكسن .

أما هذان الانجليزيان اللذان ذكرهما عرابي فأولهما السير شارلس كوكسن الفصل البريطاني في الاسكندرية والقائم بأعمال الوكالة البريطانية أثناء غيبة ماليت باحارة في القاهرة - وثانيهما السير أوكلاند كلفن المراقب المالي البريطاني . وكان تمثيل الهيئات الرسمية الاجنبية في مصر يتكاد يكون محصوراً فيهما لان الوكيل الفرنسي الجديد المسيو دي سكوكر لم يكن قد وصل الى مصر بعد وكان المسيو دي بلنجير زميل السير كلفن في المراقبة عائناً أيضاً . لذلك كان عليهما عبء النصح للخديو وارسال التقارير للحكومة البريطانية . وكان كلفن يعمل الى أخذ الامور بالثقة والصف لبيبين أحدهما انه كان قبل ذلك موظفاً في حكومة الهند ولم يكن يعرف من وسائل تدبير الامور الا التقاليد المزعومة في تلك الحكومة وهي تقاليد العنف . وثانيهما انه كان يعمل شبه التفاهم الموجود بين الخديو والضباط . لذلك نصح للخديو بأن يلجأ الى وسائل الصف التي كان يمكن أن يلجأ اليها محمد علي الكبير مع أمثال هؤلاء الضباط قبل ذلك بسنين علماً ولكها لم تكن مما يلائم الظروف الحاضرة وكانت نصيحتة تنحصر في أن يطلق الخديو بيده مرسماً على عرابي بعد محادثة قصيرة . أما كوكسن الذي كان أدرى منه بضعف توفيق فقد نصح مع جهله بسبق الاتفاق القائم بين الخديو والضباط بالاتفاق واقترح الحل الذي كان يريده الخديو منذ زمن بعيد وهو اقالة رياض باشا ونصين شريف . ولقد يستفيد الانسان من قراءة ما رواه عن هذه الاحوال في الكتب الرسمية الزرق كما يستفيد من قراءة

رواية كلفن للحوادث ذاتها في حريدة « انيس » وى « البال مال عاريت » التي كان هو مراسلا لها في مصر . وكانت نبیحة اعلان رأيهما أن أثنت علیها الحكومة البريطانية وأمنت على كلفن مرتبة « سیر » ووضعت في مركز سياسي لم يكن له قبل ذلك في مصر وعلى ذلك انتهت الحال . فان رياض الذى انقظ عما جرى لنوبار وعثمان رفقى فلم يشترك في مناقشة الضباط بل بقى فى القصر حتى أقبل في ذلك المساء من الوزارة وسافر الى الاسكندرية ومنها الى أوروبا ليدقى حتى يأتيه العون من الدول الحامية وحل محله في رئاسة الوزارة شريف باشا بعد أن أظهر شيئاً من المعارضة والغور . وقد استبطلت مصر في صالح اليوم التالى لتعرف ان المسألة لم تكن مسألة عصيان فقط بل كانت ثورة أيضا وأنه قد وضع حد للحكم الاستبدادي الذى طال عليه الزمن . وقد وعد الحديو أن يجمع الاعيان ويمنح للمستور وأن يحكم بلاد الفراعة والممالك والماشوات الترك من الآن فصاعدا على مقتضى قوانين الحق والعدل لا بواسطة الاحاب ولكن بواسطة نواب الشعب المصرى أنفسهم .

وكانت الاشهر الثلاثة التي عمقت هذه الحادثة الشهيرة من أسعد الاوقات التي مرت بمصر من الوجهة السياسية . ويسر في أن حظيت بمشاهدتها بعيني رأسي . ولو اني كنت سمعت بها سمعا لشككت فيها وعندى انها لم يكن لها شبهة في الايام التي رأيتها في مصر وأخشى أن تكون مقطوعة الطير في الايام التي يمكن أن أراها فيها . فجميع الاحزاب الوطنية وجميع سكان القاهرة اتحدوا لتحقيق الفكرة الوطنية وشاركهم الحديو في ذلك على ماظهر يومئذ للناس . وكان قد سر بهد اقتضاء الازمة بنجاح دسيسته ضد رياض والمراقبة الثنائية البغيضة . وقد وثق بان شريفا لا بد أن يخلصه عاجلا أو آجلا من عراي . ثم أن شريفا وزملاءه من وحها، الاثراك لم يكونوا كذلك أقل سرورا بمودة السيطرة اليهم بل ان الاثراك الرجعيين أنفسهم قد سروا بما سموه انتصارا على أوروبا . ونجا العسكريون من كابوس الخطر الذى طالما هددهم وارتاح المصلحون للديون للحرمات التي اعتمدوا اليوم أنهم لا يد حاصرون عليها . اما الذين شكوا وأسأوا الظن للنهاية . فقد اعترفوا

كذلك بأن انتاج قد روت الاتجاا للقوة وما كان لها من نصر لم نملك فيه نقطة دم . ونصاعدت من انحاء مصر صيحة فرح وسرور لم يسمع مثلها على حواصب اسبل مد مئات السنين . وقد حدث فعلا أن الناس كلن يستوقف بعضهم بعضاً في شوارع مصر ويتعاقون على غير تعارف سابق وينبهجون معاً لعصر الحرية المدهش الذي بدا لهم فجأة كما يبدو الفجر بعد ليل مخيف طويل . وكانت الصحف قد أسرعت بنشر الاباء السارة وقد حررتها رقابة الشيخ محمد عبده المستبرة من قيودها اسابقة واستطاع الناس أن يحتفوا ويتكلموا بلا خوف أبناً شاءوا في الاقاليم وبلا وحل من تدخل السوليس والحواصيس . وقد سرت عدوى السرور الى كل الطبقات فالمطون والمسيحيون واليهود قد سروا جميعاً وشاطروا السرور جماعة الاوربيين الذين كانت لهم صلات وثيقة بالحياة الوطنية . وقد اعترف القناصل الاجبيون أنفسهم بأن العصر الحديدي خير من العصر القديم وان رصاصاً قد أخطأ وان أعمال عراي إذا لم تكن كلها سديدة فليست كلها طأ .

وكان الملك الذي سلكه عراي نحو الحديدي والوزراء الخدد مسلكا صحيحاً نبلا وقد اجتمع عدة مرات للحديدي فكانت حطته ودية كما أنه أظهر لشريف باشا ومحمود سامي الذي عاد مثقل ودارة الحرب أنه وقد تم عمله يريد أن يستحي حانياً ويترك أمر ترقيته وانمائاته لاصدقائه المدنيين وكل الخطب التي القاها في ذلك العهد — وبعضها مدون في الكتب الزرق — مشبعة بهذا المعنى الحكيم وتتم على تشعه هو نفسه باسمي الآراء الانسانية التي كانت من مقومات عمله السياسي . وليس في هذه الخطب الا العطف الواسع المدى على جميع المذاهب والطبقات ولا يمكن أن نجد فيها أمراً للخط على المراقبة المالية الاورية التي كان عراي في مقدمة المتفرجين بمواندها وكان المعنى السائد على خطبه هو أن الحكم التركي المطلق القديم قد انتهى واندأ عصر جديد من الحرية الاهلية والسلام وحسن الية المتبادل بين جميع الناس . ولم يمض أسبوعان اثنان على تقلد ودارة شريف أرملة الحكم حتي سار عراي — يوم ٢ أكتوبر — في طليعة فرقته الى رأس الوادي بين هتاف سكان العاصمة المعترفين له بالجيل .

وأخيراً نكلمنا في علاقة مصر بكل من فرنسا وإنجلترا فاعترف عرابي بها بلخير الذي أصابته مصر إذ انحدرت من استعابيل وانتظمت مآلئها ولكنه قال انه لا يجوز لهاتين الدولتين أن تحولاً دون تجديد مصر الاهلي بتأييد حكم الخديو المطلق والباشوات الحرا كسة ضد المصريين وكان يتوقع عطف المحتلرا علي جهاده للحرية أكثر مما يتوقع العطف من جانب فرنسا واكثر ما كان يتوقعه من العطف كان من ناحية المستر غلادستون الذي أظهر صداقته للحرية في كل مكان ، قال هداردا على الشرح الذي أبديته له على آراء غلادستون ولكنه كان يشاطر كل أهل القاهرة قلة الثقة في ماليت وقد بذلت كل جهدي لاربع حاطره من هذه الناحية ثم افرقتا . وكان لهذا اللقاء الاول من حسن الاثر على رأيي في الضابط السلاج ما حملني علي الذهاب في الحال لصديقي الشيخ محمد عبده لافضي اليه بحقيقة هذا التأثير ثم اقترحت وضع برنامج بما أجبني عرابي به وأن أتولى ارساله الى غلادستون إذ لم يخالجي شك في عطفته علي الاماني الوطنية متى عرضها على حقيقتها من مصدر موثوق به . وقد خاطبت ماليت في هذا الشأن فقال ان مثل هذا العمل قد يعود بشي من الفائدة ومن ثم وضعت أنا والشيخ محمد عبده وآخرون وصاحبونجي منشوراً يتضمن آراء الحزب الوطني بكل دقة . وقد أخذ الشيخ محمد عبده هذا المنشور الى محمود سامي الذي كان وزير الحرب وضمن موافقه عليه وكذلك أطلع عرابي على المنشور ووافق عليه . ولما تم هذا قدمت للمنشور بعلم ماليت وموافقته الى غلادستون شارحاً له الموقف كله طالبا عطفه على حركة متفقة كل الاتفاق مع مبادئه المعروفة وختمت خطابي قائلاً : « لا أستطيع أن أفهم أن حكومة الاحرار البريطانية يمكن أن تأسف علي هذا الشعور أو تقضي على مثل هذه الاعمال . وفي الطاقة أن يحسن وجهها وأظن أن محي تقدم العرب لا يسهم الا أن يهتوا أنفسهم على شواهد الحياة السياسية الثرية وغير المتوقعة التي ظهرت في بلاد اعتبرت أقل مناطق الشرق الراكذ فكثيراً وأذكر يلسيدي انك قلت لي مرة أب أنم الشرق لا تستطيع أن تحمي نفسها الا بتجديد ارادتها الاهلية المعفودة فانظر الى هذه

الارادة الالهية الناشئة في مصر والتي تسفل حيدها تتجد أقوالا تقع أوروبا
بوجودها .

وبينا أرسلت « بيرنامج الحرب الوطنى » هذا الى غلادستون أرسلته في الوقت
نفسه الى حرية التمس بناء على اشارة البر وليم جربجورى . واسكن ماليت لم
يوافق علي هذه الخطة لاعتقاده انها تفقد الامور في الاستانة . وهي فكرة رسخت
بقوة في عقله السياسي الرسمي ولكن جربجورى أصر على وجوب شره والا وضع
على الرف في « دونج مترت » وعض عنه النظر فوافقت على ذلك . وكان
جربجورى صديقا شخصيا لشئى رئيس تحرير التمس الذى حدم القصبة الوطنية
المصرية في وقته أعظم الخدمات . وكان شئى رجلا واسع العقل اذ يفكر في
الشؤون الشرقية وكان على جانب عظيم من العلم باللغة العربية وقدر جهم وشر قطعاً
شائفة من مقامات الجربورى ومن ثم كان واسم النظر في المسألة المصرية فلم يرها
كعبها من الصحين مسألة لا تعني غير بورصة لندن على الرغم من أنه كان هو
نفسه من حملة أسهم الدين المصرى . ومن ثم عني عناية كبيرة بنشر خطابات
جربجورى كما أنه نشر لى خطابات كثيرة كتبها اليه في نضعة الأشهر التالية واستمر
يشتر لى كل ما أرسله في تأييد الحركة الوطنية حتى بعد أن وقعت الحرب . وقد
تجاوز شئى كل حد في الاتصاف بالحركة المصرية حيث كتب أن عرابي نفسه هو
الذى أرسل اليه البرنامج ولكن هذا التجاوز مكن ماليت الذى كان واقفا على
الحقيقة من أن يعلن بواسطة شركة روتنر أن الوثيقة التي نشرتها التمس ليست
حقيقية .

وبحسن بي هنا أن أشرح الطريقة التي احتكرت بها الصحف البريطانية ولا
سبا شركة روتنر بصفة رسمية في القاهرة وجعلت خادمة للسان السياسة . لم يكن
للصحف البريطانية مراسلون معينون في القاهرة الا التمس والبال مال عازيت .
وكانت هاتان الجريدتان فيما يختص بالسياسة في يد السر أوكلند كلهم المراقب
البريطاني المالى . وهو موظف هندي داهية مشع العقل بالسياسة الهدية .
وله تحارب صحفية مد كان متصلا بجريدة « يوبير » وهي جريدة انكليزية هدية

شديدة في استعارتها ، وكان السير كلف مرسلها في مصر . وكان أيضاً مرسل مورلي رئيس محرر المال مال عاريت وكان واثقاً من اصعد الحكومة اليه من هذه الناحية . وستظهر قبة هذه العلاقة غير العلنية فيما صد حين يأتي الكلام على الجهود الذي بذله لتحقيق التدخل الانجليزي . وكل كذالك أخيراً يوحى الي التيس بآرائه واسطة مرسلها سكوت الذي كان يعتمد عليه في استقاء المعلومات أما وكلنا رور وهامس فكاننا واقفين تماماً تحت نفوذ المراقبة الثابتة التي كانت تعطي كلامها الف جنبه في العام من المبرانية المصرية الفقيرة . وكانت وكالة رور بصمة خاصة لسان الوكالة الانجليزية وحادثتها وكانت التلغرافات التي ترسلها الي لندن لأرسل الا بعد مراقبة ماليت .

ويجب أن أشير الى أن احتكار مصادرة الانباء العامة لمصلحة السياسة البريطانية لم يكن مقصوداً على القاهرة ولكنه كان موجوداً في جميع العواصم التي لها فيها وكلاء سياسيون وأن هذا أسلوب قوي من أساليب تضليل الرأي البريطاني العام . ولا تقوم السيطرة على تلك المصادرة عادة بدفع مبالغ معينة ولكن باعطاء المعلومات السرية النجاسة والامتيازات الاجتماعية الواسعة وكانت السيطرة على الصحف البريطانية تامة في السر الا في الاوقات التي كانت تحول فيها كثرة المراسلين وامكان السيطرة عليهم جميعاً ولكن هذا لم يحدث ا في الاوقات الخطيرة . أما في الاحوال العادية فقد كانت لموظفي السيطرة العامة على الاخبار التي يجوز أو لا يجوز ارسالها الي لندن والاحبار التي تنشر أو لا تنشر في مصر من أخبار لندن . ويجب على المؤرخين أن يدركوا دائماً هذه الحقيقة حين يرجعون الى أشهر الصحف ليستقوا منها معلومات عن حوادث تلك السنين .

وإذا استثنينا هذا الحلاف البسيط مع ماليت أمكن القول بأن علاقتي به بقيت الي آخر سنة ١٨٨١ . ودية وقد أسر الي شكوكه ومناعه وقلقه فيما يختص بالسير على مناصره ودارة الخارجية من الخطط وخوفه من أن يأتي في أبان أزمة بعمل لا يجوز الموازنة الرسمية . وقد قرر لي أنه يعطى كل العطف على الاماني الاهلية وأطه كلني الحقيقة كذلك واعتمد علي كرجل قادر في كل حال على وقايتة من كل صعوبة

عيفة حتى يأتيه قرار دوسج سريرت بالسياسة التي ينهها . وقد دوت في مذكراتي انه هو والسير او كلند كلمس الذي كست قد صادفته والذي لم يكن أقل عطفاً على الوطنيين من ماليت طلسمي يوم ١٩ ديسمبر أن أساعدهما في حل صعوبة ربط ميزانية الجيش .

كان الوقت وقت ربط الميزانية وقد طلب محمود سامي وبر الحرب لورارته مبلغ ٠٠٠ ر ٦٠٠ جيه . ولست أدكر الآن مقدار الزيادة في هذا المبلغ عن المبلغ الذي ربط لوزارة الحرب سنة ١٨٨١ .

ولم يكن على أفق السياسة المصرية في ذلك الحين الا عيمة واحدة هي ما يحصل من عدا سلطان تركيا لفكرة الدستور وكل عد الحيد بعد أن دأب هذه الفكرة وقتاً في الاستانة قد مرهن على انه ألد عدو للدستور ، إذ كان في ذلك الصيف بالداب قد أمر بتشيل مهلة محاكمة مدحت والحكم عليه وقد كان مدحت أعظم أنصار الدستور في تلك البلاد . ومن ثم قلق الساس حين حصرت في أوائل أكتوبر الى القاهرة حنة خاصة من قبل السلطان لتحقيق ما حدث في مصر ولاسيا مع مبادرة عراي بالذهاب الي رأس الوادي وتعجيل عد المال بالذهاب الى دمياط . علي أن زيارة اللجنة انتهت بسلام واستطاع الوزراء أن يقتنعوا بأن الحركة الالهية التي لم يبق شك في أنها حركة وطنية لا تطوى على شيء من قلة الولاء للسلطان .

وكان مصير تونس قد اتى في روع المصريين أن توثق الرابطة بينهم وبين الامبراطورية العثمانية هو عصمتهم الوحيدة من عدوان أوروبا وقد اعتقدوا أن الفرض من الثورة لم يكن الا منع المراقبة الثانية من الاعتداء على استقلالهم . ومن ثم حسنتية الجميع وساد الرضا والقنوع . واستطاع على نظامي باشا رئيس اللجنة أن يحمل معه تقريراً طلياً عن الحالة وقد أبدى في ذلك العضو الذي يليه في اللجنة — احمد باشا راتب . وكان هذا قد تحدث مع عراي شخصياً في رأس الوادي وهو ذاهب الي السويس في طريقه الى مكة .

وقد حدث هذا اللقاء الذي كان له فيما بعد أهمية بالنسبة للحالة السياسية في القطر بين الزقاريق والتل الكبير وقد أكراني أنه حدث اتفاقا حين كان

عائداً الى رأس الوادى بعد زيارة صديقه احمد افدى الشمسي وسليمان باشا أمانه
في الزقازيق . قال: « كنت عائداً بقطار رأس الوادى فانفق ان احمد راتب باشا كان
في هذا القطار ذاهباً الى السويس حيث كان قاصداً الى مكة لاداء فريضة الحج .
وقد وجدت نفسي في المركبة التي كان فيها وتبادلنا التحية كعربيين ودكرت له
اسمي وذكر لي اسمه وانتواءه الحج ومسائل أخرى . ولكنه لم يخبرني عن اللحنة
ولا سألته عنها . علي أنى أخبرته بأن موال للسلطان باعتباره رئيساً الديني ثم دكرت
له كل ما حدث فقال لي « لقد أحسنت صنعاً » ثم تركه في رأس الوادى . وقد
أرسل لي مصحفاً شريفاً من جدة ولما عاد الى الاستانة كتب الى مانه أحسن
الشهادة في حق للسلطان ثم تناولت بعد ذلك الخطاب الذي أملاه السلطان على
الشيخ محمد طاهر والذي يحتوي على الامور التي يعرفها « وعلي هذا انقصت مهمة
اللحة العثمانية فغير أن تحدث اضطراراً أو متاعب . وقد اتفق أن وصل معها الى
مساء الاسكندرية مدفعتان بحريتان احدهما قريبة والثانية مريطاسية وكانت
حكومتنا تحتلها وفرنسا أرسلتهما حين اتصل بهن نياً المطاطرة العسكرية في عابدين .
ثم أنحرت المدفعتان في نفس اليوم الذي سافرت فيه اللحنة من شهر اكتوبر . وكان
ماليت قد عاد في هذه الاثناء الى مقر وطيفته وكذلك كن سكوكر المعتمد الفرنسي
قد حصر واتفق الاثنان على أن الحالة ليست في حاجة الى تدخل من قبلها . وقد
أحسن ماليت الشهادة أمام حكومته يومئذ في حق الوزراء الحدد وعراى الذي بدأ
ماليت يعتقد الآن أمانته وصدق وطنيته .

وقد عدت الى القاهرة في أوائل نوفمبر حين كانت الحال كما وصفت ولم تكن
قد وصلت الى أبناء جديدة من أصحابي الازهرين ولم أعرف مما حدث في أثناء
ذلك الصف غير ما كان يعرفه الناس جميعاً ولا كنت أقصد الى أكثر من دور
قناة السويس في طريق الى بلاد العرب حيث كنت قررت الذهاب اليها في الشتاء .
وكان اهتمامي قد اشتد بالازمة التي أخذ العالم الاسلامي يقطعها كما كنت على أمل
من أن أقوم أنا بنفسي بدور في المواقف المهمة — التي كنت أوقعها وإن لم أكن
أعرف ماهيتها فيما عدا أنها سوف تساعد على تحرير العرب والاسلام . وكنت لما

نارت احرائق بسبب عندها، فرسا علي توس كنتت الى صاحبي السيد محمد عد
قادر في دمشق أطلب منه خطاا يقدمى فيه لرعيم الثورة « أنى بامة » ولكنه لم
يستلم ذلك . ثم دهمت عنّا كل الجهود التي بذلناها لمعرفة مفر السيد جمال الدين
الافغانى في أمريكا حيث قيل لى انه ذهب اليها بعد أن قضى عامين متحوّلا في الهند
وانتمت أفكركى الآن الى جزيرة العرب التي بدأت أنظر اليها كأرض مقدسة
وأعتبرها مهد الحرية الشرقية ومهبط الدين الصحيح . ومن الغريب انى لم انتبه الى
أن هدف أهمائى بالاسلام مائل بجانبى في الثورة المصرية . وانى لم أعقد آلية على
القيام بأى دور فيها — ولو كان دور المشاهدة — إلا بتأثير حادث عرمي.

ولعل السبب في عدم أهمائى يرجع الى أن الصحف البريطانية صمى ما وقع في
مصر من الحوادث أثناء الصيف بصيغة سكرية فلم يدرك أحد مفرى تلك الحوادث
حي ولا وزارة الخارجية وقد كنت اشاطر أنصار الحرية ومحبيها قلة الثقة برحال
العسكريين واعتقد انهم لا ينتصرون الا للطمع فلم استطع أن أصدق حتى ولا كما صدق
ماليت أن عرايى أمين القصد فيما فعل . ثم أنى كنت أعلم أن الشيخ محمد عده وعيره
من اصدقائى الازهرين الذين لا يميلون الى استخدام القوة وأن تنفيذ الاصلاحات
يستغرق فيما يعتقدون وقتا طويلا وقد ظننت أنه من المستحيل أن تتجح حوادث
ذلك الصيف وحدها في تحقيق تلك الاصلاحات أما عن الدستور الموعود فقد ذكرت
الصحف البريطانية انه كلام في كلام لا يبدو أن يكون دعوى كتلك التي استخدمها
التمثيل ضد رفرز ولسن . وقلن أن ماليت أعلن بان هذا الدستور سيبقى مجرد
وعدا لا السلطان الذي اجتمع به في الاستانة أثناء عودته الى مصر لا يمكن أن
يسمح بتحقيقه .

ومما زاد في ارتياي وجود لجنة التعتيق العثمانية ذلك بمطالبة عرايى بزيادة
قوة الجيش ليكون ١٨٠ ٠٠٠ وهذه هي الاراء التي كانت شائعة يومئذى في لندن ولم
تكن لدى أنباء خاصة نصحيحها . واذكر أنى حين مرت قبل مبارحة لندن
بوقت قصير بابن عمي فيليب كرى في وزارة الخارجية دهشت حين قال ربما كان
في الحركة الوطنية المصرية أكثر مما تدل عليه الظواهر وقد قال لي حينئذ أن ماليت

تصبح ميلا الى اعتقاد ذلك . ثم أظهر نصيحة من عدم دهابي الى مصر وقال لي انى
وحتت في بلاد العرب الآن الرجل الذى ابحت عه . وكلن فيليب يعرف طبيعة
لشغل لوراني التي لم يأخذها قط اصفة جدية ولم يعتقد انها أكثر من خيالات روائية .
وقد قال لي ما قال بلهجة مراح فضحكا ولم تتناقش في المسألة . ولكى ذكرت
بعد ذلك أقواله وحدثت من قلة تأثرى بها ولكن الحقيقة هي أن أفكارى كانت
موجبة الى ناحية أخرى .

وبما يستحق الذكر أنى دعوت في عشية يوم سفرى الى عداء في نادي السباح
كثلاثة من أصدقائي الجيدين هم جون مورلي الذى كلن قد عين حديثاً رئيساً لتحرير
« البال مال عاريت » فضلا عن قيامه برئاسة تحرير « المورد تينيل ريفو » والسير
« فردي لابل فنصلنا في حدة . وزهراب .

وقد تكلمت مع هؤلاء طويلا في الشؤون الشرفية واتفقت مع مورلي على أن
أخبره اذا عثرت على بطل الاصلاح الشرقى الذى أبحث عه وأن يتولي هو عرض
قصيته نحس ما يستطيع على الرأى العام البريطانى . ولم يكن مورلي قد دخل بعد
في البرلمان ولكنه كلن ذا نفوذ كبير في الحكومة لعلاقاته بشمبرن وكانت
جريدة « البال مال عاريت » من الصحف القليلة التى يقرأها علا دستون بل الصحفية
الوحيدة التى يعتقد أن فى آرائها شيئا من السداد وبولها شيئا من ثقته .

وقد كلن عشاء ساراً وكنا متحمسين فى عطفنا على العرض الذى يمكن أن
نعرض للاسلام أما فيما يختص بمصر فن سو الحظ أن مورلي كلن واقفا تحت تأثير
نفوذ غير نفوذى وقد كلن مراسله « البال مال عاريت » السير أوكلد كلفن عضو
المراقبة الثانية عن بريطانيا فلما وقعت الأزمة فى الربيع ظهر مورلي على غير ما كلن
ينتظر منه لو أن كلفن لم يكن مراسله . أما والحال كما كانت فقد كلن فى
جاناب الرأى البريطانى الرسمي ومن أقوى القائلين بحوب استخدام أشد وسائل
العنف لقمع الحرية .

وقد اتفقت لى أثناء عودتى الى مصر حادثه سأعود الى ذكرها حين يأتى
السياق الذى يظهر فيه أهميتها . فقد وجدت فى محطة « شارخ كروس » بلندن

المسترد ذلك وسكرتيره أومس لي مسافرين مثلي الى « درس قصصيت البياحة كلها معها . وكل ذلك مشرح الصدر طرودا فان حديقه الحبيب « عمنا » كان قد حلف في ١٥ نوفمبر السيو سانت هيلير في رئاسة الوزارة الفرنسية وكان ذلك عائداً الى باريس ليستأنف معاوضة الحكومة الفرنسية في تحديد المعاهدة التجارية المعفودة بينها وبين حكومة بريطانيا بعد أن تصدر عليه النجاح في السنة الأشهر السابقة أما وقد تقلد عمنا رئاسة الوزارة فقد كان ذلك وانتماً من النجاح . وكان لغمتا مشروع خاص يستلزم أن يستمد فيه بذلك الذي كان وكيلاً لوزارة الخارجية البريطانية . وكان سانت هيلير قد أحدث ارتساکا كبيراً في عزوة تونس وتركه لحله شمالي أفريقيا يضطرم ماراً . وكل عمتنا قد تقلد رئاسة الوزارة مصمماً على استخدام اسلحة والقض على ماضية الحال وكان مملوفاً بالخوف من ثورة اسلامية ثم انه لم ير في الحركة الوطنية المصرية الا مطهرأ من مطاهر التعصب الاسلامي وكان أصله الاسرائيلي قد جعله مرتبطاً بالمصالح الماثلة في مصر . وقد عقد البية علي أن يصف الى اعتداء سانت هيلير على تونس التدخل بالقوة في مصر .

وقد أراد أن تصمم له الحكومة البريطانية في ذلك تقوم الحكومتان بحرب صليبية باسم التقدم وأن يبدأ في ذلك بتقوية المراقبة الاوربية في مصر . وقد حدثني ذلك طويلاً عن مسألتى المعاهدة التجارية ومصر باعتبار الأولى مصلحة انجليزية والثانية مصلحة فرنسية . وكانت المسألة الأولى تتعلق بشرف حكومة الأحرار الحزبي قد أرادت أن تقيم الحججة على أنها إذا كانت تملك بحرية التجارة فلها أن تحمل الحكومات الاجنبية على معاملتها بالمثل .

وقد عرف بذلك أن نجاحه في هذه المهمة وحله الحكومة الفرنسية على تجديد الامتيازات التجارية بعد فخر أعظمها له . وكان ذلك متحماً الى حد أني لم بسعني عد الفراق إلا أن أحاطب نفسي بصوت مسروع قائلاً . « ان هذا الرجل يريد أن يبيع مصر لفرنسا بالمعاهدة التجارية » وقد أثبتت الحوادث أن الحقيقة لم تكن الا كذلك . وسيظهر فيما بعد كيف ان حرية مصر كلها كانت مرهونة بتخفيض ليل في الضرائب التي نجحها فرنسا على الصادرات الانجليزية . نعم يمت حرية

مصر وفكرة الإصلاح في العالم الاسلامي كله وصحتها حكومة الاحرار الانجليزية بهذا الثمن الزهيد . ولكن الكلام على هذا لم يحن بعد

وقد أسلفت ان ذهاني الى القاهرة في ذلك الشتاء كل انفاقا وأخرى في ان أقول بانه كان بتدبير العاية الالهية لولا اني أخشى أن أعبر ما فعلت في مصر معني عظيم السمو وأهميته كبيرة . وقد شحطت الباخرة التي حصر عليها خدي وادوات معسكري في قناة السويس بعد أن كادت تفرق في خليج سكلى فاصطرت الى الذهاب الي السويس ثم برحت هذه الى القاهرة حيث اعزمت قضاء بضعة ايام . وكان قد شاع في انجلترا أن مصلحي الازهر نبذوا فكرة الإصلاح واصموا الي السلطان في آرائه الرجعية . واذا خلجي هذا الشك أرسلت أولى رسائلي الى أول أصدقائي من رجال تلك الجامعة وهو الشيخ محمد خليل وها حدث حادث عرب ودلا من أن يأتي الي الشيخ محمد خليل في فندق النيل الذي زلت فيه ورجوت منه أن يحضر لزيارتي جاءني شيخ آخر دالاسم فقه . جاءني الشيخ محمد خليل المحرسي وحياني تحية الغريب للغريب اذا كان أحد منهما لم يرى الآخر من قبل . وكان هذا القادم الحديد قد استلم رسائلي فطن لها من ناصر اوربي بينه وبينه معاملة ترجع الى قريه في الشرقية وجاء معه الخادم الذي حمل الرسالة . ومع أن هذا الشيخ كان أقل قيمة ذاتية من صاحبي الا انه كان ذا مركز هام في الازهر .

ثم ظهر لي انه قد يكون أخرى باهتامي من صاحبي في ذلك الحين لتوثيق الصلة بينه وبين الغرب العسكري في القاهرة ولعلاقته الشخصية بعراي ولو لم يكن للشيخ محمد خليل صاحبي ولا رئيسه الشيخ محمد عبده صلة من هذا القليل ولا كانا يستطيعان أن يفيداني أقل فائدة من هذه الناحية بعد ان لم يوافقا على تدخل جماعة العسكريين في الشؤون السياسية في سبتمبر وكانا لا يزالان هما وسائر مصلحي الازهر مبتعدين عن العسكريين على الرغم من فرحم نتيجة عملهم فلما أفاق المحرسي من الدحول الذي استولى عليه حين وجدني انجليزيا وعرف أني لست بصاحبه التاجر لم يأنف مع ذلك ان يتحدث معي عن عراي واعماله ولما افضيت اليه بارآئي الخاصة بالاصلاح الاسلامي على قاعدة عربية أسر الى آواء التي لم تكن تختلف كثيراً عن

أراني . وقد أخبرني أنه أحد شيوخ السادة الشافعية وإن له علاقة متينة بجماعة الإصلاح الأحرار بمكة . وكان هؤلاء يجهرون بمعارضتهم لسلطان عبد الحميد ويتطلعون إلى خلافة عربية . وكانت هذه نقطة اتفاق يساهم بمس وقت قصير حتى تبادلنا كل ما لدينا من الآراء . وعدى أنه ليس أدل على حرية الرأي والقول التي سادت يومئذ في مصر من أن الشيخ الذي لاشك في أنه كان يكتم هذه الآراء في صدره حتى عن أصدقائه قبل عام واحد قد أحاسى بكل صدق وصراحة على أسئلتي وأفضى إلي بأشد إيمانه حطراً على حين أني أوري وغريب عنه . ولا شك أن بعض هذه الصراحة راجع إلى أن أستاذي العلامة صابوني الذي كان معي وكنت قد أحضرته معي من لندن ليساعد ضعي في اللغة العربية .

من المحرسي علمت أول مرة ما حصل في مصر أثناء الصيف ومنه عرفت موقف العسكريين الخفي تجاه الحرب الوطني وهي حقائق أبدت صحتها عدة مصادر كما أيدها صاحبي الشيخ محمد خليل .

أما صابوني الذي كانت له براعة خاصة في هذا الصرب من الأعمال فقد أحد بطوف في القاهرة من أذناها إلى أنصافها يجمع لي الأخبار حتى أنه لم أغض بضعة أيام إلا كما قد عرفنا كل شيء تقريباً من مجريات الحال . كذلك لم يمض وقت قصير حتى تعرفنا إلى بعض الصراط الملاحين الذين اشتركوا مع عراي في المطاهرة وخصوصاً عيد دياب وعلى مهمي الذين كان معرفتي بها وقع حس في نفسي وكانت الأمور التي يدور عليها البحث في ذلك الحين خلق الحديرو وهل بني لولا بني بوعده . لقد وعد بالدستور ولكن هل يكون هذا نزولاً حقيقياً عن السلطة هذرا مسئولين أمام مجلس المثليين أو المسألة لن تخرج عن دعوة جماعة من الأعيان يكون لهم رأي استشاري ولم يكن الناس يتفوق في هذه النقطة بل كانوا يعتقدون أن ما لبت يفريه بأن بحث بالوعد وكان هذا قد عاد حديثاً من الاستانة وأعلن أن السلطان لا يوافق على دستور حقيقي .

هذه الحوادث الطغاف المستمرة قد عصبت من الأسرة العلوية ولا سيما فرعها الذي ينبغي إليه توفيق وكنوا يدكرون ما أصابهم في عهد اسماعيل وحده إراهم من

الظلم التي قضت عليهم أدياً وحريتهم مالياً وجلبت عليهم نكدة التدخل الأجنبي. وقد بدأت الصحافة بعد أن تحررت من قيودها توجه النطاعين تلو النطاعين على لجان نظام الضرائب الذي وضعته المراقبة الأوربية فاعتفت الأوربيين وألقت نصب كله على كاهل الوطنيين كما أنها أتمت بأشد اللامعة على كثرة تعيين الفرنسيين والإنجليز في الوظائف التي لا لزوم لها والتي تدفع فيها مرتبات ماحطة كما أتمت على سيطرة هؤلاء الأجانب على مصلحة السكك الحديدية والأراضي التي يقوم على اختارتها مندوبو بك ووتشاند وعلى فصيحة التسعة آلاف جنيه التي كانت تدفع لحكومة الأوبرا الأجنبية على الرعم من فقر البلاد.

وكانت جريدة «الطيب» التي كن يحررها رجل حاد مانع هو «عبدالله النديم» تحمل حملة شديدة على الترحيص بإدارة الموالخير والحانات والمراقص والمغاني التي هجعت على القاهرة تحت حماية الامتيازات الأجنبية فاستاء منها كل مسلم تقى وكان في مصر صدى لاعتداء فرنسا على تونس واشتد العود مما اتصل بالمصريين من سيطرة الفرنسيين حرم المساجد واعتدائهم على النساء. ومع ذلك كانت العلاقة بين مسلمي مصر وقبطيها ودية للغاية. وكان الاقراط على العموم في جانب الوزارة وكانت العلاقات بين البطريرك والوزارة التي كن بطرس على أحد كبار أعصائها ودية جداً وكذلك كن اليهود والوطنيون بزعماء الزبائمي يطلبون الحكم الدستوري. وكن أهم ما يعنى به الضباط يومئذ مسألة زيادة الجيش التي قالوا بأنها حاجة الآن بعد اعتداء فرنسا على تونس حيث لم يكن الباي على استعداد عكرى كاف للدفاع عن بلاده وكانت الفرمانات تحول مصر أن تؤلف جيشاً من ١٨٠٠٠ جندي وقد طلب الضباط أن تكون القوة كاملة.

وقد حدث أول تدخل فعلى من جانبي مع الوطنيين على الوجه الآتي: أخبرني الشيخ محمد المحرمى ان بين طلبة مذهبي الشافعي والمالكي هياجاً براد به التخلص من شيخ الاسلام أو بعبارة أخرى شيخ الجامع الشيخ محمد العباسي الذي كان حقياً. وقيل لي أن السبب في ذلك عائد الى قلة الثقة في ان يقنى هذا الشيخ فتوى في مصلحة النظام الدستوري. فذا لم يمت وجري في ذلك على رجة الخندوبى الذي

عنه استطاع الحديوي ان يجد عنراً للبحث بوعده . وقد كان المذهب الحسني المذهب الرسمي في مصر وكذلك كان مذهب الولاة الترك من عهد السلطان سليم وكانت الحكومة تختار شيخاً حنفياً لرئاسة الجامع الازهر ولكن الغالية العظمي من الطلبة الذي كان يبلغ عددهم ١٥٠٠٠ كانت دائماً من اتباع المذهبي الآخرين وقد أراد الطلبة الآن اتباعاً لتقاليد ثورة اليوم أن يعودوا الى طريق تمييز الرئيس الديني الاعلى القديمة وهي طريقة الانتخاب . وقال لي المهجرسي انه جاء ليمشيري في الموضوع لانهم يعتقدون ان ما ليت يؤيد الحديوي في تأييد الشيخ محمد العاصي وفي سعي الحديوي للتخلص من وعده بالدمستور وقد طل اب في استطاعني أن أرى الصعوبات اذا استحدثت هودي عند ما ليت . وقد وافقت على ذلك في الحال فانصح لي ان ما ليت يحمل كل الجهد المسألة كلها وانه لا يريد فحلاً في مصلحة أى طرف من طرفي هذا النزاع الذي . وفي ٥ ديسمبر حلج العاصي من وطيعته بقرار اعلى الطلبة وعين الشيخ الامباي خلفاً له . ولم يكن الشيخ الامباي أشهر المشايخ وأجهم لدى الطلبة الذين كانوا يميلون في الحقيقة الى الشيخ عليش المالكي وهو رجل ذو شجاعة كبيرة ونفوذ ديني عظيم وقد لعب دوراً هاماً في الحرب التي وقعت بعد ذلك ومات في السجن خلال أشهر الاحتلال الاوربي . والمعروف انه مات مسموماً كما انصح من الشهادات الصريحة التي أقيمت في محاكمة عرابي . وكان اختيار الاباوي نتيجة رفض الحديوي تعيين الشيخ عليش . وقد صوت أربعة آلاف من طلبة الازهر في هذا الفرصة فكانت عدة الذين لم ينتخوا الشيخ عليش منهم خمسة وعشرين . وكان من شأن الخدمة الصغيرة التي أدتها لهم أن وثق الشيوخ الوطنيون بحسن نيتي نحوهم وقد رتبني على مساعدتهم ومن ثم طلبوا الى أن أوكل سفرى أو أنتظر ربنا أرام يخلصون من مصاعبهم فأجبت طلبهم في الحال وقد رأيت أن العمل الذي يطلبونه منى هو نفس العمل الذي أسى اليه وأرغب فيه فضلاً عن استطاعني أن أؤدى خدمة حقيقية فيه بالاعراب عن مطالهم لحقة المشروعة الى ما ليت هنا وعلا دستون في إنجلترا .

وكت أحتج بما ليت يوماً تقريباً خلال بضعة الاسابيع التالية وصار لي نفوذ

كبير لديه . وقد وحدته قليل العلم بحقيقة أغراضهم على الرغم من أنه لم يكن مجرداً من العطف عليهم . ولم يكن يعرف شخصياً من زعماء المصلحين غير شريف باشا فكان يعتمد في توجيه الخالة الى ما ينصب كل من شريف والحديوى أن يجفرا به . أما من حيث الحوادث اليومية فلم يكن يعتمد في العلم بها الا على مترجمه اليوناني لورانجي الذي كان يلتقط الانباء من قهوات الاحياء الادريه . ومن ثم لم يكن لديه الا قليل من الوسائل التي يستطيع أن يعرف بها حقيقة الموقف ، ولم يكن زميله القنصل الفرنسي الجديد « سنكوكز » أفضل منه من حيث وسائل الاستخبار . وكان ماليت كذلك في حيرة من أمر مقاصد الحكومة البريطانية الحقيقية . وكان لورد غرايفيل قد أرسل اليه حديثاً لتفراه المشهور في ٤ نوفمبر وهو التفراف الذي ذكر فيه باهمام وعروض عطف حكومة جلالة الملكة على الاصلاحات في مصر .

ولكن هذا التفراف كان واسع مدى التأويل ولم يكن فيه شيء خاص يرشد ماليت الى الوجهة التي يتجه اليها اذا قام شجار جديد بين الحديوى والمصلحين أو بينهم جميعاً وبين المراقبين الماليين . ولكن كذلك في شك من رأى المستر غلادستون في مسألة الدستور . لذلك كان من دواعي ارتياحه أن يجد رجلاً مثلي ذا سياسة معينة وقد كانت سياسته واضحة في وجوب مساعدة الوطنيين .

وقد استطعت أن أؤكد له بأن غلادستون نفسه سيكون في جانب الدستور متى وقف على الحقيقة . وقد أيدني في ذلك عند ماليت أصدقاء بريطانيون كانوا يسعون حينئذ في مصر واستطعت أن أقنعهم بأرائي .

كل أشهر هؤلاء الاصدقاء عضوا برلمان سابقاً أحدهما لورد هاوتون الذي كان في أوائل أيامه مداماً متحمساً عن حرية الشرق والسير وليام جرمجورى أحد أتباع غلادستون القدماء وعضو من الاحرار المروفين ولم ينتصف شهر ديسمبر حتى كنت قد استطعت أن أضحم الى رأيي أكثر البريطانيين الموجودين في مصر حتى إن السير أوكلاندا كفن المراقب البريطاني الذي كان قد نصح للحديوى قبل ذلك ثلاثة أشهر بأن يطلق النار بيده على عرابي اعترف بأنه تحول عن رأيه إلى رأيي وأصبح ميالاً لعقد الصلح مع الثورة .

الفصل الثامن

(سياسة غمينا — المذكرة المشتركة)

كان عرابي قد احتفظ منزله في رأس الوادي وهي نقطة عسكرية قريبة من النيل الكبير الى ذلك الحين ولكنه حصر الى القاهرة في ٦ ديسمبر ورأيته شخصياً أول مرة في ١٢ منه . وقد استأجر منزلاً بجانب منزل صديقه على فهمي الذي كان معه الآن قلباً وقالباً . وكان هذا المنزل قريباً من ثكنات عابدين . وقد ذهب الى مع عبيد دياب وصابو بجي بعد أن اتفقت معه على المقابلة بواسطة أصدقائنا المشتركين . وكان عرابي يومئذ في قمة شهرته إذ كانوا يطلقون عليه في طول مصر وعرضها لقب « الواحد » وكان الناس ينساقون من جميع أنحاء القاهرة ليشوه شكواهم . وكانت غرفته الخارجية بل كان الشارع الموصل الى المنزل يمتلئ . كل يوم بمجماعة الشاكين . وكان قد اتصل به نبأ عطى على الحركة ورغبني في مساعدة الفلاح فاستقبلني باسمي مظاهر المودة لهذا السبب وللصلة التي تربط أسرتي باللورد بيرون الذي قد كان عرابي وإن لم يعرف شيئاً من شعره بمحمد لطاعه عن حرية اليونانيين . وقد عنيت بذكر هذه النقطة لدلائلها على عطف عرابي على الاساية كلها وعدم تفرقه في ذلك بين الاحناس والأديان وقد كان عرابي مجرداً من التعصب اذا كان معنى التعصب الكراهية الدينية ولكن أبداً مستعداً لعقد المحامير مع المسيحيين واليهود وحتى مع المشركين والكفرة للدفاع عن الحرية وإن لم يؤخر استعداداً هذا مثقال ذرة في تقواه .

وقد تحدثت معه بصراحة تامة وبغير تحفظ في كل مسائل اليوم فوجدته صريحاً الى أبعد حدود الصراحة . وقد أعرب عن الولا . للحدديو « فبقي محافظاً علي وعوده ولم يحاول أن يحول بين المصريين وبين حريتهم الموعودة » على انه كان ظاهراً أنه لم يكن يثق بالحدديو وأنه كان يعتقد أن واجبه يقضى عليه بمراقبته دقيقة لتلا ينحرف عن الجادة . وقد قلت في خطاب كنيته للسنتر غلادستون في ٢٠ ديسمبر

بعد أن كان قد كثر اجتماعي عراقي ومباحثي معه « إن الآراء التي يعرب عنها عراقي ليست مجرد رد يد للعبارات التي تستعملها أوروبا الحديثة ولكنها آراء تستند على العلم بالتاريخ وعلى تقاليد الأفكار العربية الحرة الموروثة من أيام حرية الاسلام . أنه يفهم الاسلام الواسع الذي وجد قبل محمد يفهم رابطة عبادة إله واحد التي تربط دينه بالاسرائيلية والمسيحية وليس لعراقي مطامع شخصية ولا شك في أن الجيش والبلاد مخلصان له كل الاخلاص ... أما عن مركزه الخاص فيستكمل بتواضع شديد . فهو يقول أنه يمثل الجيش لأن الظروف أرادت أن يثق الجيش به ولكن الجيش نفسه هو الذي مثل الأمة وهو حاميا ومرشدا حتى تستفي عن ارشاده . ويقول ان الجيش هو القوة الواقة الآن بين مصر وحكومتها الاثراك الذين لا يحجمون عن تجديد مظالم اسماعيل في أي وقت إذا لاحت لهم فرصة ويقول أن المراقبة الادوية تحول بصمة جزئية بين أولئك الحكام وما يريدون ولكنها لا تؤهل البلاد لحكم نفسها حين ينقضي أجل المراقبة . وهذا هو الذي يجب عليه أن ينظر فيه ويعنى به . ويقول لقد كتبنا للناس حق التكلم في مجلس الاعيان ونحن نؤيدهم حتي لا يتخذوا أو يزعموا من ثم بالقوة . ولنا نعمل في هذا لأنفسنا بل لأنبائنا ولأولئك الذين وشوا بنا . إننا نحن الجود وقف اليوم في مثل موقف ذلك الاعرابي الذي رد علي عمر في أواخر أيام حكمه إذ كان يسأل هل الناس راضون عن حكمه وهل جرى في كل أعماله في مجرى العدل فقال له ذلك الاعرابي لو رأينا يا ابن الخطاب فيك اعوجاجا لقومناه بسيفونا

ويقول عراقي اننا نحن المصريين لا نحب الدماء ولا نود أن يسفك شيء منها ومتى عرف برلماننا كيف يتكلم تنتهي مهمتنا نحن الجنود ولكننا مصممون على حراسة حقوق الشعب حتى يتحقق هذا ولا نبالي بمون الله بقيمة الثمن الذي تقتضيه هذه الحراسة أو الذي يجب أن ندفعه في مقابل حراسة الشعب الذين يحاولون اسكت صوتة » .

وقد تأثرت كثير أ بهذه اللهجة البعيدة عن التهجئات التي يتكلم بها ساسة الشرق للاوربيين ولم يعني أن أوازن بين عراقي وبطل الحرية الآخر الذي قابله في

دمشق وهو مدحت باشا وشد ما كانت النتيجة في مصلحة عراقي . لم يحلط عراقي في أقواله فليس فيها سلك حديدية ولا نزع ولا ترمويات يمكن أن مرد للشرق حرته بل فيها كلمات تنفذ الى حدود الأشياء وأصولها وتضع مسؤولية الحكومة الصالحة على العوائق التي تستطيع حلها وقد شعرت أن مثل هذه الأقوال قد نسمع إذا قيلت في مجلس النواب البريطاني على الرغم من امتلاء جوه بالشؤون الناجمة والمهتمة . وكان رأى عراقي حلياً فيما يتعلق بالسلطان وعلاقة مصر بتركيا . وقد ذكر لي أنه لا يصمر حباً للأتراك وقد أساءوا حكم مصر قروناً وأنه لا يقبل أى تدخل من جانب الاستانة في شؤون مصر الداخلية ولكنه فرق بين الحكومة العثمانية وبين السلطة الدينية للسلطان الذي قال عراقي بأن طاعته واجبة عليه باعتباره أمير المؤمنين ما دام يحكم بالانصاف والعدل . وإن مثل تونس التي فصلها فرنسا أولاً من الامبراطورية العثمانية ثم ضمها بعد ذلك الى أملاكها لتحمل المصريين على التثبث بالعلاقة التي تربطهم برئيس العالم الاسلامي . وقال عراقي « كلنا أبناء السلطان ويجب علينا أن نعيش كأُسرة في منزل . وكان أعضاء الأسرة الواحدة يكون لكل منهم غرفة يطعمها حسب ما يهوى ولا يحق لرب البيت أن يستريح حرمتها فكذلك لكل شعب من الشعوب الاسلامية بلاد يعيش فيها وينظمها على ما يحب ويهوى . وقد كسبت مصر استقلالها بالفرمانات وسنبذل كل جهدنا في المحافظة على ذلك الاستقلال ولكننا نخطي اذا طلبنا أكثر من ذلك ولا يبعد أن نقف حريتنا في مثل هذه المجازفة (١) » .

وقد سأله هل يثبته وبين الأستانة مخاطبات كما كن قد شاع يومئذ فأبدي لي أنه يلزم جاسب التحفظ في هذه القطة وراغ من السؤال . ولا شك عندي في أن ذكرى حديث مع أحمد راتب باشا عرضت لذهنه وقتئذ وكان ذلك سبب ترده ولكنه لم يشر الى شيء من ذلك في كل حال وقد كنت في ذلك جاهلاً أمر هذه الحادثة التي رويت حكايتها فيما سبق .

(١) نشر السير وليام جرمجوري في التيمس أقوالاً كهذه لعراقي وكان قد سمعها منه في نحو الوقت الذي سمعت فيه هذه الأقوال منه .

وقال محمود سامي أنه طلب هذه الزيادة نظراً لوعد الحديو برفع قوة الجيش الى
 هذا أقصى الذي تسمح به الفرمانات أى الى ١٨٠.٠٠ وبرد الوربر أصراره
 بقوله ان رفض الزيادة قد يؤدى الى مطاهرة عسكريه جديدة وقد كلفت أن أعرف
 المبلغ الذي يرضي الجيش على وجه التحقيق وحولني كلن سلطة الاتفاق على مبلغ
 لا يتجاوز ٥٢٢.٠٠٠ جنيه وأن أجبر عرابي وزملاءه الصباط منه لا يمكن اعطاؤهم
 أكثر من هذا من الوحة المالية. وقال لي كلن أنه لا يمانع في زيادة الجيش
 بشرط الا يزيد المربوط وأنه يطن أن المبلغ كاف لجيش عدده ١٥٠.٠٠ وعلى ذلك
 ذهبت الى عرابي وناقشته هو وزملاءه الصباط في المسألة وتمكنت من حلهم على
 «كف عن المعارضة مؤكداً لهم أن في استطاعتهم أن يعتمدوا على كلمة كلن
 قالوا انهم قبلون مبلغ ٥٢٢.٠٠٠ جنيه وسيريدون الجيش الى أقصى حد يسمع
 به هذا المبلغ. وقالوا انهم سيقنعون في وجوه يعرفوها ويلغون الجيش أقصى
 قوته. وقد وعدوني في هذه الفرصة أن يصبروا ولا يقوموا بمظاهرات مسلحة
 أخرى ثم وفوا بهذا الوعد الى اللحظة الأخيرة. وكانت آخر عبارة سمعتها من عرابي
 يومئذ « من صبر ظفر » وقد أرسلت في اليوم نفسه مذكرة الى كلن أخبرته فيها
 بالنتيجة ثم شكرني ما لبت على اخراجي لها من الصعوبة التي كانا يقاسيها. على
 أن ما لبت لم يلبث أن أدهشني بعد ذلك بأسبوع واحد حين أطلعني وأنا ألاعبه
 كرة التنس في دار الوكالة البريطانية بعد ظهر يوم ٢٨ ديسمبر على صورة تلفراف
 أرسله لوزارة الخارجية وقد ذكر فيه زيارتي لمصر والتشجيع الذي قدمته للوطنيين.
 ولم يذكر في هذا التلفراف شيئاً عن المساعدة التي قدمتها له ولكنه شكاً من ارسالي
 البرنامج الى جريدة التيمس على الرغم من معارضته في ارساله. ولما كنا قد علمنا
 الى ذلك الحين باتفاق وولاء تام ولم يحدث مكدر أكثر من نشر البرنامج فقد أنبته
 على سوء نيته في اخفاء الخدمات التي أدتها لسياسة وأصررت على أن يرسل تلفرافاً
 يلني به تلفرافه الاول فلم يسمعه الا أن يفضل ذلك امامي وأرسل تلفرافاً آخر أصلح
 به بعض الحيف الذي أنزله بي. ولم أستطع قط أن أقسم عرض ما لبت من هذه
 المساورة. وقد حملتها في ذلك الحين على محل الفيرة المعارضة وكرهيت ان تعرف

وزارة الخارجية انه كان لي شأن في تحس الصلات بينه وبين الوطنيين . ولكني بعد انعام الطر جعلت هذه الماوردة علي حدره الطبيعي الذي أوجي اليه أن يحاط ليدراً عن نفسه كل مسئولية امام الرأي العام فيما يختص برأيي في الوطنيين المصريين اذا بدأ للوزارة الانجليزية أن تطعن على هذا الرأي . ولعل هذا هو السبب الحقيقي والذي يؤيد ذلك أن ذمته لم ترتج الا حين كاشفي باجرا . انه الرسمية هذه . ومع انه ندم على غدره قد كان لي من عمله هذا محمداً لم أسه فيما بعد فكنت أشعر بشيء من وقع الصدر علي يديه في بصة الاسابيع التي كنت أذهب فيها الي الوكالة البريطانية بعد ذلك . علي أني كنت مستعداً لمساعدته ولم يمض وقت قصير متى اضطرته الاحوال القاهرة الناشئة من عزله السياسية في القاهرة الى الاتجاء الى حذماني . فأرسلني حين طعن عليه الموج كرسول السلام الى عرابي وأخوانه الضباط . وقد سار كل شيء علي ما يرام الى آخر ذلك العام وفي خلال الاسبوع الاول من سنة ١٨٨٢ كل الاتفاق قد ساد بين جميع الاحزاب المصرية وهذا الجيش واعتدلت لهجة الصحف تحت رقابة الشيخ محمد عبده المحبوبة لدي الجميع ، وأخذ الوزراء الوطنيون وقد طأنا ولم يعد أحد يهددهم بضعون مشروع القانون الاساسي الذي يمنح البلاد حرياتها وفي ٢٦ ديسمبر اجتمع مجلس النواب للدولة في نصوص الدستور بالقاهرة وفتح بمخطة تدعو الى الثقة من الحديوي بالذات . وكان هذا قد أحسن السلوك نحو الحركة الوطنية الى حد أن كتب مالىت عنه الي لورد غرانفيل يقول « وجدت سموه منشروا لأول مرة منذ عودتي في سبتمبر وقد صار الآن كبير الامل من نحن الاحوال . ولم يستطع الانسان الا أن يرى هذا التغير الكبير فيه والظاهر أنه راض بالحالة كما هي » وكل عرابي قد كف عن شغل نفسه بشكوى الناس . واتفق معتمدا فرنسا وانجلترا على أن ينظم عرابي مركزه بقبول المسئولية المترتبة على نفوذه السياسي وذلك بأن يتقلد وزارة الحرب . وقد قصدا بذلك التوقي من خطره ووضعه الى جانب المحافظة على النظام .

ولم يبق محل للشك الا سلوك النواب حيال نصوص الدستور الذي اجتمعوا لمناقشتها . على ان اعلينهم بدت كاسدقائي الارهرين ميالة للاعتدال . وقال الشيخ

محمد عبده « لقد لبنا عدة قرون في انتظار حريتنا فلا يشق علينا أن نتنظر الآن بضعة أشهر » ولست أشك في أن ماليت وكافن وستوكوكز كانوا في ذلك الحين يعطون على طلب الوطنيين للبرلمان عطفاً حقيقياً . وقد بدأ برون ان هذا هو اللطاب الوطنى العام وان البرلمان بقى من شر الافكر الاشد تطرفاً . ولو ان حكومتى فرنسا وانجلترا أعلنتا في ذلك الحين حسن النية حيال الامانى الوطنية لكن في الطاقة ان يوضع نظام حسن العمل بين المراقبة الثائية والحكومة الوطنية ولو تم هذا لضمان مصالحة حملة الاسمهم كما ضمن حرية مصر . وقد حسبنا يومئذ ان الحكومتين لاتبثتان في اعلان كذا .

وقد نشر البرنامج الذى أرسلته الى التيس في عددها الذى صدر في اول يوم من أيام سنة ١٨٨٢ مصحوباً بمقال افتتاحي يتضمن الموافقة والاستحسان : وقد أحسنت أودبا تلقي هذا المنشور على الرغم من تطير ماليت بالسوء . ولم يكن له في الاستانة وقع سيئ . ولكن هذا البرنامج من اعتدال التهمة والصراحة واستقامة المنطق بحيث خيل اليها انه لا يمكن ان يسيء أحد فهم حقيقة الموقف في مصر بعد الاطلاع عليه . وكذلك لم يتصور أحد أن تسيء انجلترا استقباله مع وجود أعلية حرة في مجلس النواب ومع وجود المستر غلادستون في رئاسة حكومة حرة . نعم لم تتصور ذلك نحن الذين كما نتنظر رد غلادستون ولم يخطر على بال أحد منا ان وزارة الخارجية البريطانية كانت في ذلك الحين تعد عدة التحدى والتدخل المسلح . ولكن من سوء الحظ ان هذه الوزارة كانت قد قررت مناهضة أمانى المصريين وان لم يعرف أحد ما ذلك ولا ماليت فيه . والظاهر ان البرنامج وصل الى غلادستون بعد الوقت الملائم بأسبوعين . وبينما سنا نتنظر رسالة سلمية اذا بمذكرة ٦ يناير المشتركة تقع علينا وقع الصاعقة . وقد نقضت هذه المذكرة كل آمالنا وضيقت حابنا وقدمت مصر ؟ حومة بحر لحي من المتاعب .

وهنا يجب على ان أقص الحقيقة في كيفية تكون فكرة هذه المذكرة المشتومة التى يرجع اليها كل ما حدث من المتاعب في خلال ذلك العام ، والتي أفقدت مصر حريتها كما أفقدت غلادستون شرفه وأفقدت فرنسا نفوذها على جانيي النيل . وقد

يمكن ان عرف الانسان شيئاً عنها من الوثائق الرسمية التي نشرت انجليزية كانت
أو فرنسية ولكن الذي يمكن معرفته من هذه الوثائق ليس الا بعض الحقيقة ثم
لا يمكن معرفته الا بطريقة غير مباشرة . وربما كنت أما الشخص الوحيد الذي
يستطيع ان يقص قصتها كاملة اذا استشيا الدين وضعوها وكانت لهم علاقة رسمية بها
وقد اعتقد المصريون بطبيعة الحال ونظراً لاستخدام المذكرة في مصلحة الاعتداء
البريطاني انها من وضع وزارة الخارجية البريطانية وقد وضعتها لاستخدامها في قضاء
اغراضها الخاصة ولكن الحقيقة ليست كذلك فلم توضع المذكرة في خارجية بريطانيا
بل في خارجية فرنسا ولخدمة المطامع الفرنسية التي لم تكن سياسية فقط بل كانت
مالية أيضاً .

وقد ذكرت كيف سافرت مع السير شارلس ديلك من لندن الى باريس
وسردت الحوادث التي دارت بينا في الطريق والتأثير الذي تركته في نفسي من
حيث اعتزاهم يسع حرية مصر بالمعاهدة التجارية وهذا هو نفس ما حدث تماماً

في ١٥ نوفمبر استقال سانت هيلير وخلفه غمبا الذي وجد امامه ثورة اسلامية
على الحكومة الفرنسية في تونس والجزائر . وقد ازيجته صبغتها الاسلامية وعزاها
الى نشر الدعوة الذي يقوم به السلطان عبد الحميد وقد ظن أن الحركة المصرية قائمة
على الاساس ذاته وكذلك كان يمدد دسائس اسمعيل وحليم وغيرها . وكانت
فرنسا معادية من أول الامر للحقوق التي يدعيها الباب العالي في شمالي افريقيا وقد
تقلد غمبا الوردرة مصمما على مقاومة تلك الحقوق بالقوة والصرامة . واذا كان غمبا
يهوديا فقد كان متصلا بالمصالح المالية في بورصة باريس وكان كذلك ذا صلة متينة
ببيت روتشلد وغيره من أصحاب الاموال الذين اشتروا بملايينهم سندات الدين
المصري . وكان نوبار ناشا ورفرز ولسن يمشان يومئذ في باريس فكانا اخص
من يتنصحن بارائهم في المسألة المصرية وقد كون رأيه في الموقف بناء على المعلومات
التي كان يستمدّها منهما .

فلم يمض عليه بضعة أيام في الوزارة حتى اخذ بفاوض وزارة الخارجية البريطانية
ابتغاء حل انجليترا علي الاشرار مع فرنسا في القيام بعمل عفيف ضد الحركة الوطنية

ولن يكون ذلك بمثابة حله صلبية تقوم بها الدولتان تحت ستار الدفاع عن المدنية وتنظيم ما يات
 مصر . وكانت وزارة الخارجية البريطانية تريد ان تجدد المعاهدة التجارية المفقودة بين فرنسا
 وانجلترا التي أوشكت أن يمحى أجلها فأسرع ما يمكن . وقد ارادت الحكومة
 البريطانية أن تنهر فرصة الصداقة الموثقة بين رئيس الحكومة الفرنسية الجديد
 والسفير ديك وكيل خارجية بريطانيا لاستكمال المفاوضات في هذا الصدد . وكانت
 قد ألقت لجنة لهذا الغرض في باريس منذ شهر مايو وقد مثل فيها ديك وولسن
 فلترا ولكهما لم تصل الى نتيجة . وقد استقر الرأي على أن يعود ديك الى
 باريس لمفاوض في مسائل مصر والمعاهدة التجارية ولم يمض أكثر من اسوع على
 قد عثا برئاسة الوزارة . وإذا راجعا الصحف التي كانت تصدر في نوفمبر سنة
 ١٨٨١ نجد المفاوضات بين الدولتين كانت قد وصلت الى نقطة حرجية حتى قد
 تشيخ أكثر من مرة انها قطعت . ولكن عودة ديك أحييت المفاوضات أو على
 الأقل حالت دون انقطاعها . ولث ديك روح ويقود بين فرنسا وانجلترا من
 ٢٢ نوفمبر الي ١٥ ديسمبر وقد جاء في الكتاب الازرق الذي صدر في سنة ١٨٨٢
 يوم ٥ ان عثا أرسل الى لورد ليونس السفير البريطاني في باريس يوم ١٥ ديسمبر
 مشروعا يقضي بالتدخل المشترك في مصر . وقد ذكر في مشروعه انه يرى التدخل
 ضروريا لتقوية سيطرة الخديو توفيق . وقال « انه يجب بذل كل جهد لحله على الثقة
 بتأييد فرنسا وانجلترا وحضه على الخزم والثبات وانه يجب اقناع أنصار اسمعيل باشا
 وحليم باشا كما يجب اقناع المصريين عموما بأنه ليس في استطاعتهم أن يخلعوا توفيق
 وانه مما يرغب فيه ان يوضع حد حاسم للمساكن الاستثنائية الخ . » وقد بلغ لورد
 ليونس هذه العبارات الى وزارة الخارجية البريطانية وفي ١٩ ديسمبر . « وافق
 لورد غرنفيل على انه قد حان الوقت لشطر الحكومتان فيما يجب احراؤه » وبعد
 هذا التشجيع انهز غبنا في يوم ٢٤ ديسمبر فرصة التمام لمجلس الاعيان المصري
 يقوم « بمظاهرة جليلة على اتحاد انجلترا وفرنسا في تقوية مركز توفيق باشا واضعاف
 الحملين على الاخلال بالنظام » وقد التأم المجلس المصري يوم ٢٦ وذكرت التيس
 فن ديك الذي عاد الي باريس يوم ٢٧ اجتمع بغامبيا يوم ٢٨ وحادثه طويلا بشأن

المعاهدة التجارية فيما أعلن لورد غرنفيل في اليوم نفسه موافقته على « أن يعطي توفيق باشا تأكيداً كيداً يعطى المحللاً ومرسماً وتأييدها له وأن يشجع سموه على الاحتفاظ بسلطته وإظهارها فعلاً » .

وغى عن البيان أن اتفاق التاريخين كاف وحده لاثبات العلاقة بين المسألتين . وأنه بين الملاحظة التي حدث فيها الاتفاق الخطر وأن البرنامج الذي أرسلته إلى غلادستون في ٢٠ ديسمبر وصل متأخراً عن الوقت الذي كان يمكن أن يحول فيه دون وقوع الكبة . وكان وصول الخطابات إلى لندن يستغرق في ذلك الحين أسبوعاً وكان غلادستون متعباً عنها بإحارة عيد الميلاد فلم يتسع الوقت لأن يرسله إلى وزارة الخارجية معها كان ميله إلى ذلك .

وعلى هذا الموال تودعت حكومتنا في سياسة غمبتنا ومن ثم قدم هذا في ٣١ ديسمبر سنة ١٨٨١ إلى لورد ليوس مشروع المذكرة المشتركة (راجع الكتاب الاررق رقم ٥ لسنة ١٨٨٢) مكتوباً بخط يده لترسل المذكرة إلى مصر تأييداً لرسالته المؤرخة ٢٤ ديسمبر وهذا يجب علينا أن نذكر أنه أعلن في اليوم نفسه أن المفاوضات الخاصة بالمعاهدة التجارية استؤنفت رسمياً .

وفي أول يناير أرسل مراسل التيس في باريس إلى جريدته مخوي المذكرة الثانية قائلاً انه يقدمها الآن اتباعاً لتعليقات غمبتنا الذي قال له أن لا يذيعها الا في الوقت الملائم » . وقد دل هذا على أن ذلك صحيح في مهمته التجارية وقد عاد في اليوم التالي ، ٢ يناير ، إلى لندن وأنى لأجد تأثير الخطاب الذي أرسلته إلى غلادستون في تأخير خمسة الايام التي مضت قبل أن يوقع غرنفيل المذكرة على كراهية للتوقيع وفي نغفله الذي ذكر فيه « أن حكومة جلالة الملك لا تعتبر نفسها مقيدة بهذا التوقيع بالعمل بانه خطة خاصة » . وهو نغفط خليف بفرنفل دال على تناقض الآراء ، في ذهنه وقد ظهر هذا التناقض بعد ذلك بين غلادستون وبين وزارة الخارجية ومن ورائها السير ديلاك .

هذه هي الشواهد التي أمكن استخراجها من الوثائق التي نشرت يومئذ على أن عددي خطابا من رفرر ولسن جادى بعد ذلك بـ ١٣ أيام - في ١٣ يناير - رداً

على خطاب لي . وخطاب ولس هذا يوضح المسألة في نضع كلمات . قال في هذا الخطاب « يسرى اهتمامك بالشؤون المصرية وانت تؤيد ما اعتقد أنه الحقيقة في هطين على الأقل وهما أن الصباط يعربون عن الرأي المصرى العام وإن الخديو توفيق يعمل بالاشتراك مع السلطان . وعدي أنه لا يحمل للدهش في هذه النقطة الأخيرة فقد قال عبتا منذ ستة أسابيع « أن الخديو حجر السلطان » والسبب في هذا ظاهر فتوفيق ضعيف مجرد من الشجاعة ، والخيش قائم صده والحرم يكرهه فلا يجد ممن المعونة التي يتطلع لها ممن بطبيعة الحال ولم يجد بدم أن يلتفت الى ناحية يمكن أن يأمن منها الخلف وعاجات منها المعونة المادية أيضاً وهي ناحية حكومتى إنجلترا وفرنسا وأنه لمعالجة هذه الحالة فكرت الحكومتان في شر المدكرة الثانية مما كانت الأسباب التي تتحلل لاصدارها الآن . وسيكون أسى عطيا اذا أنعمت المذكرة في استحداث هذه النتيجة ولم تلق فيدوع الصباط والعلماء والاعيان ان تجديد الاضطراب لا يكون له بعد الآن معنى الاندحل أوروبا الملح . وقد لانحب حكومتنا مثل هذا التدخل ولكنها أصبحت مقيدة فرنسا بصفتها رسمية ولم يعد يسرها الانسحاب . ومتى ذكرنا المنصب الرسمي الذي كان يشغله دمرر ولسن في باريس وأضفا اليه اتصاله التام بديك وغبتا عرفنا ان هذا الخطاب وثيقة تاريخية مهمة وقد رأينا كيف انه وضع على الحكومة الفرنسية بصعة قاطعة مسئولية اقتراح التدخل المراد وهنه مسألة تؤيدها الكتب الصفراء ذاتها دعماً عن عدم وضوحها . وقد سمعت حينئذ وأصدق الآن أن كيفية التدخل التي اقترحتها غبتنا هي أن تقوم إنجلترا بمظاهرة بحرية وأن تترك فرنسا جنوداً في مصر . ولو حدث لما كان هناك شك في أن التفوذ الفرنسي كان يسود مصر اليوم . وقد كان هذا هو الذي يكون لولا ان حال دونه سقوط غبتنا اذ صوت مجلس النواب ضد حكومته في مسألة داخلية على غير انتظار في آخر شهر يناير لان غلاستون كلث في ذلك الوقت أعد عن الميل الى استخدام وسائل العنف من أن يرسل اسطولا بريطانيا مع جيش فرنسي فلم يكن بد حينئذ من أن توسع فرنسا في حركتها البرية .

وفي الطاقة أن يسترح الانسان أكثر من نتيجة واحدة من هذه القصة التاريخية. وربما كان من أهم هذه النتائج أن الوزيرين أخفق كل منهما في تنفيذ غرضه على الرغم من اشتراكهما في البعارة السياسية في دائرته وعلى أسلوبه الخاص . ولا شك في أن غبنا وغرنيل تباها في الاسابيع الاولى من شهر يناير بفوزهما في تحقيق غرض مهم وتقويتها العلاقات الودية بين حكومتيهما مما حدث من الاتفاق وقد فاز غبنا بالذكر كما فاز غرنيل بالمعاهدة التجارية . ولكن الحقيقة هي انه لم يستطع أحد من هذين الشاكرين أن يجلب السلب الى بلاده فقد عجز غبنا مع كل مهارته عن حل أغلبية مجلس النواب الفرنسي على الموافقة على المعاهدة التجارية فسقطت المعاهدة وسقط معها ما رعه حرب الاحرار البريطانيين من أن حرية التجارة لا تحمل أعباء في عزلة . ومن ناحية أخرى وجد غبنا انه لم يعد — اذ انجم في اكرام غرنيل على توقيع المذكرة التي اعتقد انه سوف يستخدمها لاعلاء شأن فرنسا — ان صاير سلاحا لا يستطيع هو نفسه أن يحسن استخدامه . وهو سلاح لم يمس عليه ستة أشهر حتى تحول الى يد مزاحمة في الوقت الذي ظهر فيه ان الاتفاقية الودية قد هدمت بمجرد حدودها كل الشهور الودي الذي كان متبادلا بين الاثنين اثنا . حيل كامل . وفي استطاعتي أن أفرق بين اخفاق الدسائين وبين تنافس مصالح أمتيها أما المأساة الحقيقية فهي ان أملا وطنيا قد خاب واصلاحا دينيا قد تأجل سنين عديدة كرامة للمطامع دنيئة وشهوات أدنا منها .

كان نحمدى غبنا للحزب الوطني خطر أ على السلام في القاهرة . وقد كنت مع ماليت بعد وصول المذكرة اليه بوقت قصير فأعطانيها لأقرأها ثم سألتني رأيي فيها فقلت « سيصبرونها اعلان حرب » قال « ليس المقصود بها غرضاً عدائياً » . ثم شرحت لي كيف يمكن تفسيرها بما يوافق الاماني الوطنية . وقد طلب مني أن أذهب الى ثكنة قصر النيل وأطلب الى عرابي الذي كان قد عين حديثاً وكيلا لوزارة الحرب أن يقبلها هذا المعنى ثم خولني أن أقول له « ان معنى المذكرة كما تفهمه الحكومة البريطانية هي أنها لا تسمح بان يتدخل السلطان في مصر ولا تسمح للتخديون بمنح بوعده . ويؤذى البرلمان : » وأخبرني أنه يرجى أن ينال إدراكاً بنشر تفسير

مكتوب للذكره بالمعنى المتقدم ولكنه لم يخولني سلطة قول ذلك لعراي ، وأعرف انه أرسل أكثر من تلافيف طالباً مثل هذا الاذن وانه كتب ينتقد المذكرة بشدة ويقول انها خطيرة مجردة من السياسة ولكم لا نجد شيئاً من هذه العاطليات والاحتجاجات في الكتب الزرق وان كانت تلك الكتب تظهر اهتمام لورد غرنيل بها الى حد اظهار رغبته في نشر تفسير للمذكرة ولكن عبتا معه من ذلك ، واطاهر ان سكويكر طلب هو أيضاً من حكومته أن تأذن له بتفسير المذكرة ولكنه منع من ذلك ، وكذلك أنجى السير أوكلند كائن على المذكرة انما حديثه معي بأشد اللامعة كما فعل ماليت .

وقد ذهبت الى شكة قصر النيل في ظهر يوم ٩ (وكانت المذكرة قد وصلت يوم ٨) فوجد عراي وحده في مكتبه . وهذه هي المرة الاولى والاخيرة التي رأيته فيها عاضياً . وكان وجهه كحافة الرعد . وكان في عيه برق خاص . وقد رأى من المذكرة وان كان لم يفشر بعد وقد سأله كيف فهمها فقال « اخبرني كيف فهمها أنت » وحينئذ أدبت رسالتي فقال « لاشك في ان السير أدوارد ماليت يحسن اطلاقاً لا يفهم معنى الكلمات . هذه لغة محمد وتهديد وليس في هذه الادارة كاتب يستخدم مثل هذه الالفاظ لغير هذا المعنى » ثم أشار الى الفترة الاولى التي ذكر فيها الاعيان وقال « هذا نجد لحريتنا ، وليس لاعلان اتحاد فرنسا وانجلترا معني الا ان انجبترا متغزو مصر كما غزت فرنسا تونس » ثم قال « دعهم يأتون فكل رجل وطول في مصر سيفاتلهم . ليس من مبادئنا ان نصرب الضربة الاولى ولكنا سنعرف كيف نردها » ثم قال فيما يختص بالمحافظة على عرش توفيق « ان السلطان هو الذي يحافظ على عرش توفيق فليس هو في حاجة الى ضمان أجنبي وذلك ان نخبرني بما نشاء ولكنني أعرف معنى الكلمات أحسن مما يعرف ماليت » والواقع ان تفسير ماليت كان هراء في هراء . وقد شعرت لما صرت امام عراي بخفتي وخجلت من حملي اليه مثل هذا الهراء ولكنني أكدت له اني أدبت الرسالة كما أتقما الى السير أدوارد ثم قلت وهو يرجوك ان تصدقها وأنا كذلك » ولم يبد عليه شيء من آثار الرقة الا حين استأذنت في الذهاب فصارول ذواعي وراقني الى

الباب ودعاني لزيارة منزله كما كنت أفعل قبل ذلك. فقلت « ساجي، عند ماتكون لدى أبناء أفضل من هذه » وقد أملت بهذا الى التفسير الذي أستاذن ماليت في نشره. علي ان الاذن لم يأت. كما اني لم أر عراقي في الاسابيع الثلاثة التالية ولكني رأيته بعد ذلك حين وصل الى خطاب من السنر غلادستون ففسره بما أملاه على التناؤل وكان هذا الخطاب سبب سرورنا.

وقد عدت الى الوكالة البريطانية وسألني ماليت كيف أدبت الرسالة فقلت « لقد نفروا وأصبحت مصالحهم مستحيلة وقد قذفت المذكرة بهم في أحضان السلطان » والواقع ان هذه كانت الحقيقة ليس فيما يتعلق بالحرب الوطنية وحده بل فيما يتعلق بجميع الاحزاب والطبقات. ولقد مثل غمنا وباء بالحياة اذا كان قد أراد تقوية يدي توفيق بذكرته الحقاء هذه فقد رعب الحديوي أما الوطنيون فقد هاحوا ولم يخافوا. وهنا وجد المصريون أنفسهم متحدين لأول مرة.

وانضم الشيخ محمد عبده والازهريون المعتدلون الى الحزب المتطرف بكل قوتهم وحق كل الناس ومن بينهم الحراكسة من التهديد الاجنبي ورأى اعداء الترك كصديق المجرسي ان عراقي كان بعيد النظر محققاً ان اعتمد سراً الى السلطان وبهذا كسب عراقي شهرة عظيمة واحتراماً رهيباً ومضت عدت أيام لم أسمع خلالها من أصحاب المصريين الا كلاماً في الرابطة الاسلامية وكل من ألقاه يقول هذه سياسة روستايبه (١) وقد بذلت جهدي في النهدة حتى يصل التفسير الذي وعدنا به ماليت ولكن جهدي ذهب عبثاً. وكانت هذه الاسابيع الثلاثة مزججة للجسيم وهي الاسابيع التي أنقضت منذ أرسل غمنا مذكرته حتي سقط وكان يأتي في هذه الاثناء أبناء بان قوة فرنسية تحشد في طولون استعداداً للامحار. وقد كان هذا شكل التدخل الذي نوقمه الجميع. وعدى ان سقوط غمنا أنقذ مصر من مصيبة ربما كانت أكبر من مصيبتها الحاضرة — مصيبة غزوة فرسيه موجة علماً ضد الاسلام وفي مصلحة المصالح الاوروبية وحدها.

(١) نسبة الى روستان الذي أعد مشروع المحكوم على تونس

الفصل التاسع

(استقالة شريف)

ولم ينتصف شهر حني ظهر في القاهرة أن الازمة السياسية تقترب بسرعة والواقع أنه لم يبق ريب فيها. وقد اتفق أن نشرت المذكرة الثانية والقانون الاسامي في وقت واحد . وكان المراقبون الماليون قد ألحوا على الوزارة في أن لاتمس سلطتهم في وضع الميزانية على مقتضى اعتقادهم في الحاجات الاقتصادية وان لا يتعرض المجلس الجديد لها بحث أو اقتراح موافق شريف باشا على ذلك ووضع المشروع بغير أن يجعل للمجلس أى حق في المسائل المالية . ولم يكن غير طيبى ان تستاء أكثرية النواب من ذلك وقد قالوا أن المراقبة المالية الاجنبية ليس لها شأن الا الاشراف على كل ما يختص بمسألة الديون ولما كانت فائدة الدين تبلغ نصف الايراد فقد وحب أن تكون الامة حرة في التصرف بالنصف الثانى.

ومع ذلك فليس ثم عمل لان تعتقد بان النواب كانوا يصرون على المعارضة لاسما أن سلطان باشا الذى انتخب لرئاسة المجلس كان متفقاً مع شريف في أن الفطنة تقضي بالاذعان . ولكن الاحوال تغيرت في آخر الشهر عما كانت عليه في أوله . وقد رأينا كيف سهل الاثنان بين وزارة الحرب والمراقبين الماليين على ميزانية هذه الوزارة. ولكن الاعيان صاروا الآن — أي تحت تأثير المذكرة — بعيدين عن فكرة المسألة فقابلوا مشروع شريف بمشروع وضعوه بانفسهم وضمنوه عدة مواد توسع سلطتهم البرلمانية وتضع نصف الايراد الذى ليس للديون به شأن تحت تصرفهم . ومن ثم وقع الخلاف العملي بينهم وبين المراقبين وقد تولى بلنجير القيادة وجركفن وراءه . وقد أعلن المراقبون انه لامصاص من بقاء الميزانية كلها تحت تصرفهم المطلق وقالوا أن المشروع الذى قدمه النواب ليس مشروع لائحة برلمانية بل مشروع « معاهدة » ولا شك أن هذه العبارة مقتبسة من اصطلاحات الثورة الفرنسية وأن بلنجير هو الذى وضعها فتلقفها منه كفن وارعم مالت على ازدرادها وكان الخلاف جدياً وربما أفضى الى الشر الذى كان يحشه مالميت ويعطى للحكومة

الفرنسية فرصة التدخل التي تنشدها . ومن ناحية أخرى كان شريف قد ربط نفسه بوجهة نظر المراقبين وكان هذان يلحان عليه في الثبات أما موقف الحديوي فكان مشكوكا فيه . وكانت فرصة وقوع الخلاف بين الحديوي والوهاب على الميزانية المرتبطة بالديون الأوروبية هي نفس الفرصة التي تنتظر الحكومة الفرنسية أن تنهزها بعمل السوء . وكان غمنا لا يزال في رئاسة الوزارة .

في هذه السدة العصيبة طلب ما ماليت وكلفني الذي كل يود أن ينفذ رأيه كمرقب مالي وإن لم يكن يرصى عن تدخل فرنسا أن أساعدها مرة أخرى بأن أذل حمداً حديداً لحل التطرفين من الاعيان على النزول عن بعض ما يطلبون . وبعد أن تداولت مع الشيخ محمد عمده الذي كان كذاباً من الميل إلى التبصر والمسالمة اتفقنا على أن التقي في منزله وفد مهم لناقشهم في المسائل وأرهمم النتائج المحتملة للمقاومة أي التدخل المسلح ومن ثم قدمت وجهة نظر المراقبين الماليين مع كلهم ووصعت مع ماليت قواعد المناقشة التي عولت على استخدامها وكلها مدونة لدى في مذكرة عمواتها « مذكرة بالامور التي سأقولها لاعضاء البرلمان المصري في ١٧ يناير سنة ١٨٨٢ »

ويؤخذ من هذه المذكرة أن تعليماً كانت تنحصر في أن أذكر لاعضاء الوفد ان اجراءات الميزانية الخاضعة انما هي مسألة دولية لا يستطيع شريف باشا ولا البرلمان أن يمسها بغير موافقة الحكومتين الرقيتين . وكان على أت أقص تاريخ انشاء المراقبة المالية وأرهمم مذكرة خاصة وصفا ماليت وفونج قنصل فرنسا الجنرال وارقتها بالمشور الذي نص على انشاء المراقبة في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٩ وإن أطلب اليهم أن يتدبروا هل مع ذلك تكون مسألة تغيير اجراءات اصدار الميزانية مسألة دولية وليست كذلك . وهل اذا كانت كذلك ألا تكون خارج دائرة اختصاصهم وقد اعترفوا بان المسائل الدولية يجب أن لا تمس . ومسألة الميزانية مسألة دولية وعلى ذلك يجب أن لا تمسوها . وقد خولني كلن أن أقول بانه هو شخصياً لا يمانع في تعديل الاجراءات الخاضعة تعديلاً طامعياً بحيث يعطي للمجلس حقاً استشارياً قد يتحول فيما بعد الى حق اقتراح . فاذا قبلوا ذلك عرض

ماليت المسألة على حكومته بصورة حسنة وان كان لا يستطيع أن يطمئن علي قبولها من جانب إنجلترا أو فرنسا . أما سائر حلافاتهم مع شريف فعليهم أن يسووها مع انفسهم . الخ . الخ .

على هذه القاعدة وبمساعدة صابوحي والاسناد الشيخ محمد عبده ناقشتم طويلا في المسألة ولم أكف عن المناقشة الا حين اقتضت بانهم لا يدعئون نعم انهم واقفوا على تعديل ثلاث أو أربع مواد كانت محل معارضة المراقبين الاساسية وأدبحوا التعديلات التي اقترحها عليهم فيما يخص بها في الامثلة التي شرت ولكمهم نشبوا برأهم في مسألة الميزانية على الرغم من مساعدة الاسناد محمد عبده لي ولم يقبلوا أن يغيروا سطرأ من المادة الخاصة بها وعدت مطاطي الرأس لا تبلغ ماليت حكاية فشلي ولم أتوسط بعد ذلك بينه وبين الوطنيين . فقد بذلت أقصى جهدي لاساعده علي حل مصاعبه حلا سليا ولكن شقة الخلاف بين وجهتي نظريا اتسعت منذ ذلك الحين حتي لم يبق محل لتعاوني معه . ومع أني بذلت كل جهدي لاجل الاعيان على الاذعان تحت تأثير اعتقادي بانهم مهذبون بالتدخل الارمني لم يسعني مع ذلك الا الاعتراف بانهم على حق في طلبهم السلطة على نصف الميرانية اذا كان الحكم البرلاني سيكون حقيقة لا تخويها . وتدل تفرقات ماليت في ذلك الحين على ان الاعيان كانوا بدأ واحدة في هذا الصدد حتى ان سلطان باشا الذي كان بطبعه وجلا ضيقا بسهل ارهابه أعلن بصريح العبارة أن دستور شريف باشا « كاطيلة » تحدث صوتا عاليا ولكنها غلوة .

وقد حملتي كراحتي للآراء على الانضمام لوطنيين في الضال الذي نشب بعد ذلك بينهم وبين شريف باشا . وكنت قد زرت شريف قبل ذلك بناء علي رغبة ماليت وبحثت معه في المسألة وخرجت من البحث غير راض . كان شريف تركيا متفريحا طيب المنصر والاخلاق ولكنه لم يحل من شيء من الفطرس واحتقار الفلاحين وهما الوصفان اللذان كانا من مميزات طبقة في القاهرة . وكان ماليت يقدره قدراً كبيراً لاجادته معرفة اللغة الفرنسية وعلومها وسهولة التعامل معه لاسيما في الشؤون السياسية العادية ولكن تفرسه هذا لم يكن يروقي كلما وازت

بينه وبين الرجال المصلحين ذوي الفكر السامية الذين كانوا رواة الحركة الوطنية الحقيقية والذين لم يكن يعتبرهم شريف الا بمثل الاحتقار الذي قد يستشعره رجل فرنسي نحوهم وقد كان شريف واثقاً من كفاءته لحكمهم وقلة كفاءتهم . وقد قال لي « ان المصريين أطفال ويجب أن يعاملوا معاملة الاطفال ، وقد قدست لهم الدستور الخلق بهم فاذا لم يرضهم كان عليهم أن يعملوا بدونه . ابي اما الذي أنشأت الحزب الوطني وسيجدون انهم لا يستطيعون العمل بدوني . ولا شك في أن هؤلاء الفلاحين في حاجة للإرشاد » ومن ثم لم يشق علي أن أختار الحامب الذي أوليه عطفي حين نشب بينه وبينهم النضال العلمي بعد ذلك بزم قصير .

ولم أكن في القاهرة عند ما بلغتني أنباء استقالة شريف في ٢ فبراير وكان فثلي في معارضة الاعيان قد نكدى وشمرت أن قايي بمعارضتهم قد أقضى مودة أصدقائي الاوربيين وانهم ربما يسيثون في الطن لمحاولتي اقناعهم بخطة لا تتفق مع الحطة التي عقدوا عليها عزائمهم فبعت عن النضال الذي لم تبق لي عليه سلطة ولا عدت قادراً على أن أقوم فيه بمخدمة غرض طيب ومع الى كنت مقبياً اثناء الشتاء في فندق النيل . فقد كان لي خارج المدينة خيام وجمال وخدم من العرب وكست أردور هذه الخيام أحياناً ولكني الآن قبعث فيها . وكانت الخيام مضروبة في الصحراء بين قصر القبة والمطرية في نقطة اسمها الزيتون ، وكانت هذه المنطقة كلها لا تزال صحراء قاحلة في ذلك الحين والخيام قائمة الى جانب بقايا شادوف وهي الأثر الوحيد الذي يدل على انه كان في هذا المكان سكان . وقد كنا منفردين في هذا المكان لولا معسكر الامير أحمد الذي كان خارج دائرة المطرية ولم يكن يوجد أي نوع من أنواع المواصلات العامة بيننا وبين القاهرة فكنا اذا أردنا الذهاب الى القاهرة نركب جمانا الى مكلر بين القجالة والعباسية حيث نستطيع أن نكثري الخير . ولم يكن يوجد ولا منزل واحد في الرمل بعد العباسية من الساحة الشمالية الشرقية . وعلى هذا استطعت أن أنسى السياسة لحظه وأن أتمتع بالعيش في الهواء الطلق وهو ما كنت ولا أزال أفضله على كل شيء على أني كنت قد قمت لاصحابي بمخدمة أخيرة اذ كبت في التيمس دفاعاً حاراً عن الوطنيين . وقد حضى على ذلك السير جرمجورى الذي

ترسل أكثر من خطاب قوي بالمعنى ذاته الى التيمس التي كانت تعد في ذلك الحين
قوى صحيفة في أوروبا بلا نزاع.

وليس في الطاقة أن أبالغ في أهمية أي خطاب ينشر في التيمس في تلك الايام
كما انه لاشك في اهتمام الساسة الذين لم علاقة بالخطاب المنشور بالاطلاع عليه والعناية
بأمره . كذلك ليس من المبالغة القول بان خطاباتي وخطابات السير جربجورى بصفة
خاصة كان فيها وقاية لمصر من كثير من الاخطار التي كانت تهددها . وقد وثق
ما أصدقائنا المصريون لما وصلت التيمس تحمل هذه الخطابات وترجمت الى اللغة
العربية ونجدد اعتقادهم عليا . ولكن هذا صابق مألوف . فقد كان مثله كمثل كل
رجال السياسة في بعض العالامية وقد حقق منا نحن الذين كنا موطئين في خدمة
حكومة اذ نجاورناه هو ووزارة الخارجية ولجأنا الى الصحافة . وكان يعرف كيف
يتصرف مع مراسلي الصحف ولكنه لم يعرف كيف يعمل معنا نحن الكتاب
لأحرار ولا استطاع أن يراقب آراءنا أقل مراقبة . ومن ثم انتهى عهد الصداقة
التي كانت بيني وبين الوكالة الى ذلك الحين رغم ما حدث من الخلافات الصغيرة
ولكن هذا من سوء الحظ الذي قدف بماليت — الذي كان دائما في حاجة الى الاعناد
على من هم أقوى منه — في أحصان قوم أقل ميلا منا الى المسالمة والصلح .

وفي مذكرياتي أجده اني ذهبت في يوم ٣١ يناير وهو اليوم الذي سقطت فيه
وزلعة غشنا الى القاهرة وقابلت كلن ونحدثت معه حديثا خطيرا . وقد استحدثت
لحوادث التي جاءت بعد ذلك لهذا الحديث أهمية تاريخية لمحيته في تاريخ على مدى
صحة أيام من الوقت الذي غير فيه المراقب البريطاني مسلكه ففرت معه سياستنا
عمو الوطنية المصرية كما انه يضع على كاهل كلن مسؤولية القطيعة التي جلبها بأعماله .
قد ذكرت فيما سبق طرفا من أخلاق السير أوكلاند كلن فهو نموذج الموظفين في
خدمة الهند قوي الاعناد على نفسه وصار معتادا على الاساليب المتبعة منذ زمن طويل
في الهند ولكنها تعتبر مع هذا جديدة بالنسبة للسياسة الاوربية ولا يميل الى الشرق
لا الميل الذي يجعله يستحدمه للاغراض البريطانية بفكر ان يحبه وهو فوق هذا
بأرد الطبع عبر جذاب . وكنت قبل ذلك التاريخ قد أخذت الاستاذ الشيخ

محمد عبده لزيارته اشتاء، التقرب بينها وكذلك فعلت مع الصباط ولكن أخلاقه نفرت الشيخ منه وكل الصباط أشد حياء، من أن يذهبوا اليه معي . وكان كل من في بعض الاحبال مدعاً في صراحته ولا زلت أذكر قوله لي ذات يوم اذ كان يتحدث عن الاعمال الخفية التي اشتهر بها الشرقيون . انه محطى من بطن انت الشرقيين يفوقونا في ذلك . قال ان استطاعة أي انجليري يعرف اللعبة ان يعلمهم بأسلحتهم وهم أطفال في العش متى قام بينا وبينهم النضال.

وقد كان في الفرصة الماخضة أشد صراحة منه في أي وقت آخر . وكان الخلاف بين الاعيان وشريف في أشد أطواره فسألته عن رأيه في الموقف فقال انه يعتبره خطيراً . فقد ظهر أن الوطنيين عقدوا النية على اسقاط شريف فادا بمحوا قطع كل من علاقته بهم . وقال لي انه غير فكره تماماً بالنسبة اليهم . فقد كان يطلمهم معقولين ولكنه وحدهم خياليين وسينزل كل جهده في هدمهم اذا تقلدوا أزمة السلطة . فسألته كيف يفعل ذلك وكيف يقف حركة وافق عليها حديثاً وان كان قيادها خرج الآن من طوق كل انسان . كيف يعقل ذلك بغير ذلك التدخل الذي اجتهدا جميعاً أن يحول دونه . فقال انه غير فكره فيها يختص هذا التدخل أيضاً وانه يعتقد انه صار الآن ضرورياً ولا مفر منه وانه لا يضمن يبدل جهده بتحقيقه . فجادلته في ذلك وقلت ان التدخل معناه الحرب والحرب معناها الضم . فقال انه يفهم بهذا المعنى وانه شهد هذه المسألة تكررت مرة بعد أخرى في الهدم . وليس في الطاقة أن ترفع انجلترا القدم التي وضعتها في مصر ولا فائدة البتة من التحدث عن حقوق المصريين أو اخطائهم النظرية . فليس ثم محل لاعتبار مثل هذه الشؤون . وقد كرر ماقاله عن تدبير الحزب الوطني وقال انه أعلن عزمه هذا ولم يبق سراً وسيعمل للتدخل والضم اذا لزم الحال .

هذا وأناي واثق من اني لم أحرف شيئاً من العناصر الرئيسية في هذا الحديث ولم تكن المسألة مسألة كلمات قليلة تبودلت على عمل ولكنها كانت ماثقة استغرقت نصف ساعة وقد بلغ من تأثرى . بها ان قررت تحذير أصدقائي المصريين الذين كنت قد أكدت لهم فيما سبق حس شعور كل من نقوم وقد وجب الآن أن

يتوقعوا أسوأ الشر من جانبه . وقد أحايوني بأنهم يعرفون ذلك وانهم قد وصلت اليهم أنباء كهنه عنه .

وقد فتح هذا الحديث عيني لخطر جديد . وكنت قد وصل الى قبل ذلك يومين خطابان أحدهما من مصكر المحافظين في اعلمترا وكلاهما يحصل مثل هذا الانذار . فقد كتب الى جون موربي رداً علي خطاب طلبت فيه مساعدته للقضية الوطنية المصرية يقول فيه « اني أشك الآن في أن تصيب مشروعاتك أي نجاح . فصر لسوء حظ أهلها ميدان المناقشات الأوردية وستحول مصلحة فرسادون حل مألها حلا يتفق مع مصلحة أهلها . ولست أجد مهرباً من هذا . انها لعة الدنيا تلك العظمة السياسية التي سوف تفسد كل شيء » .

أما الخطاب الثاني فن يتون وقد جاء فيه ما يأتي « ان الجمهور الصغير الذي يعني بمسائل السياسة الخارجية في قلق من جراء المركز الكاذب الذي سوق أنفسنا اليه في مصر وهو يخشي أن يرفع صوته ويتكلم في المسألة . ويلوح لي أن آراءهم مع ذلك ليست واضحة . وعدى ان هذه هي أولي ثمرات سياسة مبنية علي خطأ وقد أخذتنا معونة ألمانيا والمسا ووضعتنا تحت رحمة فرنسا التي لا يمكن أن يكون بيننا وبينها أي تحالف حقيق في أي يوم » وقد كتب الخطابان قبل سقوط غيبنا ويخيل لي الآن اني أسمع صدى ما فيهما من الكلمات ولا سيما كلمات مورلي عن العظمة السياسية من رجل في استطاعته أن يضد حلا عادلا لارضاء مصلحة فرنسا وكذلك مصلحة بريطانيا . والحق انه قد استولى علي الخوف وتندمت علي أن صدرت مني الكلمات التي قلتها لسكفن في هذه الفرصة . فقد قلت له « اني أتحداك لتتحقق ما تزعمه من التداخل أو الضم البريطاني » وكان ندمي راجعاً الى أن هذه الكلمات حركه من ناحية شخصية فضلاً عن الناحية السياسية لتنفيذ ماعمله بعد ذلك فقد صارت المسألة مسألة ملوأة بيننا .

ولما وجد شريف باشا بعد يومين أي في يوم ٢ فبراير انه لا يستطيع أن يطوى الواب الوطنيين لارادته قدم استقالته متأزراً تهدد سكفن بالتدخل فيما اعتقد خلفه

محمود باشا سامي البارودي الذي اختاره النواب وعين عرابي ودربراً للحرب فكانت الوزارة مريجاً وطنياً انتهجت به البلاد (١)

وقد جاءني الالباء في عزلي بالصعراء فقابلتها بشعور من مزيج الفرح والقلق ولم يخف قلقي الا في ٢٧ فبراير حين وصل الى رد المنبر علاءستون علي الخطاب الذي كنت أرسلته له منذ سنة أماييم وأرسلت معه البرنامج الوطني . ولا شك في أن التأخر في الرد راجع الي الحيرة التي ورنطه فيها ارتباطات عرنمبل مع غمتا . ولكن سقوط غمتا اطلق الحرية للحكومة فأدجمت في خطاب الملكة عند افتتاح البرلمان فقرة تضمن العطف علي الاماني الوطنية المصرية . وهنا ارسل الي المنبر علاءستون رده وختمه بالعارة الآتية « انا واثق من استطاعتنا حل المسألة علي وجه مرض اذا لم يقع من أحد الطرفين أو كليهما أو علي الأصح من الجميع خطأ كبير . أما رأيي في المسألة المصرية فقد أعربت عه في مجلة « القرن التاسع عشر » قبل أن أقبل الوزارة بوقت قصير ولست علي بينة من أن هناك ما يستوجب تغييره الي الآن »

وكانت اشارته الي مقاله هذا الذي عوانه « الاعتداء علي مصر » علي جانب كبير من الاهمية لان المقالة كانت حكماً صارماً علي سياسة التدخل والضم التي أعلنتها

(١) كان في الوزارة نقطة ضعف أو قطنان أهمها ما يختص باختيار وزير الخارجية . ولم يكن محمود سامي أو عرابي أو غيرهما من الضباط المصريين يعرف لغة أجنبية . ولما كانت معرفة الفرنسية ضرورة للتغاطم مع القناصل فقد اختاروا رجلاً يعرفها ولكنه ليس من حزبهم ولا يرتأي مثل آرائهم . وكان هذا الرجل مصطفى باشا فهمي من طبقة المحكام وأحد أتباع شريف وأركان حرب اسمعيل في سنة ١٨٧٨ والذي اشترك في مأساة اسمعيل باشا المعش . وكان فرعه من تلك الحادثة هو سبب تحوله الي المبادئ الدستورية . ولكنه كان مثل شريف يحتمل زملاءه الفلاحين وقد أصابهم بصرر بليغ بعد ذلك بشهرين اذ كان بصور قصينهم في مراسلاته نصوراً سيئاً . ولم يستطيعوا أن يدركوا هذه الحقيقة لهمهم الفرنسية الا بعد فوات الاوان .

الى كلفن فلما حصلت على هذا البرهان اللامع على حسن نية غلادستون عدت بسرور الى القاهرة واستطعت ان اخبر عرابي انى لم اؤكد له عطى عبثاً . وقد وحده في وزارة الحرب بحيط به اصدقاءه وهو البطريرك القبطي وبعض المشاركين والاوروبيين الذين قدموا لتحية الشمس المشرقة . وكان عرابي يتحرك بمظاهر السيادة والنبل في هذا المحيط وشهد ما كانت تخيل عليه تلك المظاهر . ولم يكن الآن مجرد قائد فرقة بل كان رجلاً اكسبته المسؤولية الحديده التي اقيمت على عاتقه كثيراً من الرصانة . وكان لا يزال مع ذلك فلاحاً ووطياً وان اكنسى مظاهر الرجل السياسي . وقد اتفرد في فاطمته على خطاب غلادستون واتهمها به معاً كبشارة سيئة .

على اننا لم تنتظر طويلاً اولى ثمرات عداوة كلفن . ولست ادرى مصدر الكذبة بالضبط ولكي اوضح ان يكون الحديوي هو الذي حملته غيرته السيئة من سلطه الوزراء على اداعتها . فقد أرسلت شركة روتر تليفرافا قالت فيه ان استقالة شريف باشا حدثت تحت التهديد العسكري . ثم قصت التيس قصة طويلة مفادها ان سلطاناً باشا رئيس المجلس لم يدع الا تحت تأثير التهديد الشخصي وان عرابي استل سيفه امامه وهدد بتقليم اطفاله وقد كانت هذه قصة طائشة فان سلطاناً باشا لم يكن له ابناء فلم يسع كل من عرف هذه الحقيقه في مصر الا ان يضحك من هذه القصة ولا سيما اولئك الذين عرفوا متانة العلاقة بين عرابي وسلطان باشا ولكن هذه القصة كانت كافية مع ذلك ليتخذ منها كلفن سلاحاً « لتدمير الوطنيين » فرت بسهولة من رقابة الوكالة البريطانية وذكروها مالميت في بلاغاته اليومية في حكاية أخرى مفادها ان الحديوي قبل استقالة شريف تحت تأثير تهديد كلفن .

ومع ان يكن من سخافة القصة فقد استاء منها سلطان باشا وطلب مني بعد ان كان النواب قد عرفوا صداقتي لهم ان اكذبها تكديماً باتاً لدى مالميت . وقد ذهبت الى منزل سلطان باشا فوجدت فيه طائفة كثره من النواب وكثيرين من ذوى الخيالات والمكاه في مصر وهم الشيخ العباسي وعبد السلام باشا الموليحي

واحمد بك السيوفى وهام افندى محادى وشديد بطرس احد كبار النواب الاقباط وغيرهم .

وقد أسكر هؤلاء جميعاً هم وسلطان باشا أنهم علوا تحت تأثير أى تهديد وتكلم سلطان باشا بلهجة شديدة مستكراً القصة التى اخترعت عنه وقال « ان احمد عرابي انما هو بمثابة ابن لى وهو يعرف حقى وواجه فسكره في وراة الحرب ومكانى في البرلمان . وهو ينتصح لرايى وليس يعتدى على حقوقى . أما من حيث استلامه السيف أمامى هو لا يفضل ذلك الا اذا راى أعداء يهاجونى . وهذه حكايات لا يصدقها رجل يعرفنا نحن الاثنين وهى حكايات كاذبة لا أساس لها من الصحة . ولك أن تتق بأن أصغر نائب هنا يمثل الناس بحسن الحكم على ما يحتاجه أولئك الناس أفضل من أعظم حندى . ونحن نحترم أحمد عرابي لاننا نعرف انه صادق الوطنية عظيم المواهب السياسية وليس لانه جدى » وقد نقلت كلمات سلطان باشا هذه عن مذكرة لى أثبتتها فيها يومئذ . وقد انجى الشيخ على مالىة لتشره مختلف الاباطيل وطلب منى أن أقبل اليه الحقائق وأن أبلغها لفلادستون وأتشرها في الصحف وقد أرسلت الحكاية بالتفصيل الي التيمس ولكنها لسبب لا أعرفه لم تنشرها وأرسلت تلغرافا بالمعنى نفسه للمستر غلادستون ثم أرسلت خطاباً مستقبلاً ضمه رأيى في الموقف كله .

وقد ذهبت في الحال من منزل سلطان باشا الى مالىة وجادته في المسألة بحدة . ولكنه أصر على أن حكاياته هي الحقيقة وانه استقاها من سلطان باشا بالذات فلما علم أي قادم من منزل سلطان عاد فقبل انه استقاها « من ثمة » فلما شددت عليه التكبير وسأته . « هذا « الثقة » حنة » وقال انى لا حق لى في استجوابه . ولكن ذلك آخر حديث لى معه في السياسة . وقد فهمت من ممالك مالىة هذا انه مثل كل من انضم الى مصر العدو وانه لم يبق محل للركون اليه . وقد طهر لى خطر الموقف ملموساً لآل الصحف ووزارة الخارجية كاتبا بين أيديهم وقد شعرت بضعف مركزى في ماضلتها على الرغم من اصفا . رئيس الوزارة لى وعدم ضن التيمس بنشر آراى . لذلك قررت أن لا أؤخر عودتي الى انجلترا حيث أستطيع

أن أحدم المصريين أكثر مما أستطيع ذلك في القاهرة وذلك لحظاته والتسكك مباشرة مع غلاستون . وقد تحدثت مع كبار الدواب وأصدقائي الأزهريين قبل سمرى وأطلعهم على مشروعاتي فوافقوا عليها وانفتحت مع السير ويليام جرميوري علي أن يتولى في غيبي الدفاع عن القضية المصرية التي كان متحمساً لها مثلي في التيسر والمخططات يرسلها إلى أصدقائه في إنجلترا . وكنت أحسب أني سأعود إلى مصر في ظرف بضعة أسابيع وأن أشارك في التطورات التي قد تقع .

وررت عراني آخر مرة يوم ٢٧ فبراير وهو اليوم الذي سافرت فيه إلى إنجلترا . وكان قد مضى علي أكثر من ثلاثة أشهر في مصر وقد بدت لي كأنها عمر بما أنارته في من بواضت الاهتمام . وقد نظرت إلى مصر كأنها وطن لي ثان واعتزمت علي أن أقف إلى جانب المصريين كأهم هم مواطني . وقد شعرت بالبعد عن مواطني في اليوم ما عدا السير جرميوري الذي كانت تتألف منه الحالية البريطانية في مصر .

وقد اعتاد الجميع لآراء كلفن كاتقاد الغنم وصاروا جميعاً يقولون بالتدخل . ولم يكن التدخل الذي يتكلمون عنه تدخلا فرنسياً بل تدخلا إنجليزياً وقد تحول فصار الآن واجباً بعد أن كان محض اعتداء كما كان معهوداً أنه سيكون من جانب فرنسا . فم كان التدخل بغيضاً وكان اعتداءاً محضاً لما هدد به عمنا ولكنه صار عادلاً ومرغوباً فيه بل صار واجباً وطنياً لما مادي به غرنفيل وكذلك حدث مع الحالية الفرنسية في مصر فقد صارت في جانب المسألة لما تغير رئيس الوزارة الفرنسية وحلفه الميو فرسينيه وعكس سياسة سلته . ولم يشد عن هذه القاعدة من الحماية كلها إلا الميو بلنجير وغيره من الفرنسيين ذوي الوظائف الرسمية الذين خافوا الضغط في العهد الجديد .

وقد حد كلفن وبلنجير في بث الرعب بين أصحاب الوظائف وكان من دواعي الدهش أن غير الشاعر لورد هاوتون موقف العطف الذي كان قد اتخذته حيال القضية الوطنية حين أخبره زوج ابنته فترجى الله أن يعيشه اليوم أصبح مهدداً . وكان منبهوماً أن البرناتنج الوطني يقتضي بالاعتصام في المرات عبر الصرورية وعدم السماح بأن يشغل رجل واحد وظيفتين ويقاوم مرتين . ولم يعز كلفن هذه الحطة

لسمها الحقيقي وهو الاقتصاد المشروع ولكنه عزاه الى « التعصب » وهذا لفظ يلائم الاعراض الجديدة . وقد بدأوا يكثرون من استخدامه في وصف الحركة الوطنية . أما الذي استندوا الى الحكم عليه فقد كان ماسحاه جماعة الموظفين البريطانيين « قرار مجلس النواب المصري الفطيع » اذا هو تمكن من السيطرة على الميزانية علي قطع الاما الخفيه التي كانت تعطي لشركة روتر . وكان يحجل لهم انه اذا قطعت هذه الاعانة استحال عليهم أن يعرفوا تفصيلات ما يجري في سباق التوارب بين جامعتي كمبردج واكسفورد !! أو تفصيلات الحصول على جائزة سباق دربي ... وكانوا كذلك يقولون أن المجلس سوف لا يبقئ النسبة الآلاف التي تعطي للادبرا وشد ما كان فخر الجدي . ويعد في هذه القصة ويؤكد انها نتيجة التعصب الفطيع . وكانت هذه الترهات وأمثالها من التافهات قد اعتبرت جرائم هائلة ضد المجلس وضد الوزارة التي كان يقال لها متفتة مع المجلس في وجهة النظر . وقد تعودت أن أسمع قصة هذه الشكايات من حرججورى الذى كان الصق بالمالية الانجليزية الآس مي . وقد بدا لى أن أظهر ثقتى في نجاح القضية الوطنية — بعد أن أخذ أثر التهديد بالتدخل بطهر في انخفاض أسعار أسهم الدين المصرى والأراضى المصرية — فاشترت جينة الشيخ عبيد وهي أروعون فدا ما بين المريج والمطرية ونوبت أن أقيم فيها في المستقبل

وقد يعنى القراء المصريون أن يعرفوا سعر أراضى تلك المنطقة في ذلك الحين . ولم يكن قد بى ولا منزل واحد كما أسلفت في شقة الصحراء بين العاسية وكفر الحاموس وكانت الحكومة رانبة في بيع الصحراء لكل من يقبل أن يدفع في الفدان بضعة قروش . وقد فكرت ذات يوم أن أنشي نفسي مقرأ في المكان الذى ضربت فيه الحيام وتمحريت من صديق روجرز بك الذى كان في مصلحة الأراضى بوزارة المالية عن الأسعار وقدمت طلباً لشترى مائة فدان في الزيتون على أن أدفع في الفدان خمسة عشر قرشاً . وهذه الاراضى يساوى الفدان منها الآن ، في سنة ١٩٠٤ مائى جنيه . ولكن حدث أنى حين كنت أساوم فيها علمت أن جينة الشيخ عبيد معروضة للبيع فاشترتها بالمراد من لجنة اللومين بأب وخسامة جيه . وقد كانت

حميد أحسن حديقة الفاكهة في مصر يحيط بها سور وتروى من ماء بمير وكلت فيها شجرة من شجر الفاكهة في أحسن حال .

ولهذه الحديقة تاريخ لا بأس بمراده . فهي قطعة أرض حصّة على حافة تصعرا ، وكان يملكها في أوائل القرن التاسع عشر أمام جيش إبراهيم باشا الذي عرّاه بلاد العرب . ولكن الامام وقع في أزمة فاشترها منه إبراهيم باشا وسور منها ثلاثة وثلاثين فدانا واحتر السواقي وطمها كما هي الآن . وقد حدث هذا كله من الثلاثين سنة الاولى من القرن الماضي . وقد حلب بعض الشجر المفروس فيها من الطائف في الحجاز وبعضه من سوريا . وكان إبراهيم باشا قد عي نأف يجعلها أحسن حديقة من نوعها وكان اراد بيع ما كنها في عصره وعصر ابن أخته مصطفى الذي ورث الحديقة ببلغ ١٠٠٠٠ جنيه . أما العمل فيها فكان سحرة على املاحين المحاورين وكان رماها من كبر الحجم بحيث شاعت بين السائين قصة فخواها ان لحل لا يحمل اكثر من ثلاثين رمانة من رماها وانه كانت ترسل كل عام هدية من هذا الزمان للسلطان . والذي أعرفه هو أنه في زمن توفيق حميد إبراهيم وفي لوقت الذي كلب توفيق فيه يعيش في عرلة أثناء حياة أبيه اسماعيل بقصر القبة كان سيدات الحرم يذهبن الى هذه الحديقة يوما في الاسوع للرياسة في فصل الربيع . لما خلع اسمعيل في سنة ١٨٧٩ وقعت هذه الحديقة في أيدي المصنفين وكانت من المناطق الصغيرة التي استقر رأبهم على بيعها وهذا هو الطريق الذي وصلت منه الى السوق . وكما في العام السابق قد ضربنا خياما خارج أسوارها ونحس في الطريق الى سوريا وقد شاقنا ما فيها من جهال ولا سببا لشجر الشمس الذي كان يومئذ في ابان ادهاره لذلك ما أسرع ما أنقبت عليها ونبتت كل مشروعات الشراء الاخرى حين علمت أن في الطاقة الحصول عليها وهأنا أكتب الآف في ظل احدى مجالها الظليلة .

والآن أعود لريادة الوداع التي زرتها لعرابي . ففي هذه الريادة تناقشنا في كل الموضوعات التي كانت محل الكلام يومئذ في الدوائر الوطنية بما فيها من مشروعات للاصلاح وأمان ومخاوف في الداخل والخارج . وكانت بصمة الاسابيع التي قصاها

عراقي في مركزه الجديد - ورر الحرب - قد أصبحت وقوته فاقشي في كل الموضوعات رصانة واعتدال عظيمين سواء في التفكير أو في اللمحة . وقد أكد لي أنه هو وزملاؤه الورراء برغبون كثيراً في أن يصلوا الى تفاهم ودي مع الحكومة البريطانية في كل المسائل التي يختلفون فيها مع الوكالة البريطانية في القاهرة وطلب الي أن أبلغ رسالته هذه بصيغة رسمية الى علاءستون وقد شكوا شكوى مرة من كافر وماليت الدين طهر مسلكها العدائي من الحطة التي حريا عليها فيما يختص بشؤيه سمعة الوطنيين في الصحف البريطانية . وقال لي « ان السلام لا يمكن أن يوطد في القاهرة ما بقي هذان وما بقيت علاقتنا مقصورة عليهما فاننا نعرف انهما يعملان لا يذاثا سرأ ان لم يكن علماً . وسنفعل عملنا جميعاً . ولكنا لا نريد أن يختلف مع انجلترا كرامة لها . دع المستر علاءستون يرسل لنا أياً كان خلاصها لتفاهم معونهم ننتقله بأذرع مفتوحة » وقد أطلب كذلك في تفصيل مشروعات الإصلاح التي ينوبها محمود سامي وزملاؤه الورراء . وقد بعد كثير من تلك الإصلاحات بعد ان عرى للموطنين البريطانيين في عهد الاحتلال وادعى لورد كرومر انه مستكر كثير منها . فس ذلك الفاء السخرة التي كان يصرفها الباشوات الترك على الفلاحين واحتكار بيع الماء في مدة الفيضان وحماية الفلاحين من المرائين اليونانيين الذين أشوا فيهم الاظفار بسبب فقدان العدل في المحاكم المختلطة . ومن هذه الإصلاحات أيضاً انشاء بنك زراعي تشرف عليه الحكومة . وهذا هو البنك الذي باقى به كثيراً المرحوم اللورد كرومر .

كذلك ناقشنا في الإصلاحات القضائية وكانت دوائر القضاء يعمها الفساد كذلك تكلمنا في نظم تربية الذكور والانثى وفي طريقة الانتخاب للبرلمان الجديد ومسألة الرقيق . وقد أطلت عراقي الكلام في هذه المسألة الاخيرة وكان الموظفون الاحانب في مصلحة الرقيق قد خشوا أن يتناول الاقتصاد في المرتبات مرا كرم ومن ثم كانوا يزعمون أن احياء الاسلام معناه احياء الاسرفاق . وقد أظهر لي عراقي صنف هذا الزعم وما فيه من الاقتراء . وبين لي انه ليس في مصر من يود أن يكون لمعيد غير أمراء البيت الحديدي والباشوات الاتراك الذين نعوذوا استبعاد الفلاحين

وانت الاصلاحات الجديدة سوف توطد المساواة بين الناس مهما اختلفوا في احسن واللون والدين وليس مع هذا الاصلاح محل للاستعفاء أما فيما يخص ضرورة الاستعداد لحرب محتملة - ذلك الاستعداد الذي يجب أن يشغل ذهن وزير الحرب فقد تكلم به صراحة وقوة فقال ان الحكومة الوطنية لا تبرع سلاحها ولا تمنعه حتى يوطد الحكم الدستوري ونعترف أوروباً به . وكان يرحو ألا يتجاوز مربوط وزارة الحرب الذي اتفق عليه مع كلفن والا يضطر الى زيادة عدد رجال الجيش عن ١٨٠,٠٠٠ . أما اذا استمر التهديد بالتدخل فلا ماص لهم اتباع الطريقة البروسية أي التجنيد العام لمدة قصيرة ليتمكن من انشاء احتياط كبير . وقد سألت عن رأيي في احتمال وقوع الحرب فقلت له صراحة اني عما علمته من احتداد كلامي في احداث التداحل وبما أراه من المياع الذي شه في الصحف أعتبر أن الخطر حقيقى وانى داهب الى انجلترا لا لشيء الا لأضع حداً للحجة الكذب التى ثارت في الصحف . وستكون مهجى هالك نشر الدعوة للسلام وحسن البية . وفي الوقت نفسه لم أستطع أن أنصح له الا بالثبات والحزم في موقفه وبأن أفضل وسيلة لصيان السلم إنما هي الاستعداد للدفاع . وقلت ان شر أعداء مصر ليس الحكومات الاوربية بل الممالين الاوربيين وان هؤلاء لا بد أن يعكروا طويلا قبل أن يعرضوا مصالحهم للخطر بالحض على اثاره حرب طويلة ذات ففقات طائلة . وقل أن يسي أحد الى أمة مسلحة مستعدة للدفاع عن حقوقها . واذكر انى اقتبست له من شعر لورد بيرون قوله « لاتأمن الفرنج على الحرب » فوافق عرابى على ذلك وكانت هذه فيما أظن آخر كلماتنا . وقد وعدته بأن أعود وأنضم الى الوطنيين اذا شاء القضاء . ووقع السوء .

الفصل العاشر

توسلي في « دوتنج سنريت »

هذه قصة الدور الذي قمت به في مصر أثناء ذلك الشتاء. قد روينها تفصيلا وبكل أمانة ودقة. وقد اعتدت في مراعاة حوادثه المهمة وضبطها على الخطابات والمذكرات الموحدة التي وجدتها بين أوراقى ولكن أكثر اعتمادي كان على قصصها الذي وضعته خلال حرب سنة ١٨٨٢ ونشرته في عدد سنيتري في مجلة « القرن » التاسع عشر في ذلك العام » والواقع ان قصتي الحاضرة ليست الا تفصيلا لتلك القصة.

أما قصصى الآتى فسيكون جديداً لاني اذا كنت قد كتبت قطعاً منه ونشرتها في أوقات مختلفة هـى لم أجدها بعد فراعاً لاستكمال ما كتبت منه واعتمادي في تقرير ما سوف أذكره من التواريخ والحوادث سيكون على مذكراتى اليومية التي استأمت تدوينها منذ عدت الآن الى إنجلترا وعلى الخطابات الكثيرة التي نشرت أو لم تنشر ولا تزال عدى وهي الخطابات التي تبادلها مع كار الساسة الذين وحدث نفسي متصلاً بهم في الأربعة الأشهر التي انقضت بين وصولى الى إنجلترا وصرب الاسكندرية والتي تبودلت بينى وبين الذين كانوا يقولون بمحاكمة عراي بعد موقعة التل الكبير . فهذه شهادات سوف أثبت بها منى اقتنعت الحال سواء فى القصة بأنها أو فى ملحقها . وسيظهر أن هذه الحسابات وحدها تقص القصة بذاتها منى جيك بعضها الى بعض بالشرح الضرورى وسرد على القراء أسباب الحرب

وقد كان الموقف السياسي الذي وجدته فى لندن عند وصولى إليها فى ٦ مارس يباقر الموقف الذى تركته ورأتى فى القاهرة منذ اسبوع ماضية غريبة . كان قد مضى عامان على تقلد غلاستون رئاسة الوزارة وكان نجمه للقوميات الشرقية والحربة الشرقية ذلك التخمس الذى رفعه فى انتخابات سنة ١٨٨٠ الى فرصة السلطة قد قتر بي كل مكل ثم حلفته فى الدوائر الرسمية آراء العف الاستيمارى ولا سيما مع الوطنيين الارلسدين فلم يكن فى ذلك فآل طيب لمصر . وكان مجلس الوررا، قد

اشترط شطرين فكل كبار زعماء الاحرار المتسيطرين على مصالح الحكومة المهمة
 وهم هارنغتون وورث بروك وتشيلندر يميلون الى استخدام وسائل العنف والشدّة.
 ولكن غلادستون وهارنغتون وورث وبرايت وخدمهم تقريباً يميلون الى المسألة أما الشعور
 «عام في البلاد فكل قويا ضد «العصيان ومحالفة القانون» في كل مكان وكان
 «قانون «القاء القبض» Habeas Corpus قد علق في ايرلندا واتى القبض على
 برنل ومعه عشرون من أعضاء البرلمان الوطنيين والقوا بغير محاكمة في سجن
 «كيلناهام» وكل سائر أعضاء البرلمان الايرلنديين قد أخذوا يعطون العمل في
 مجلس النواب وصارت كل «قومية» قدي في أيمن حرب الاحرار. ومن ثم لم
 يكن حو «وستمنستر» وغيره من الورايات صالحاً لقيامي بشر الدعوة للمصلحة
 قومية المصرية. ولكن الاشخاص القليلون الذين يهتمون بمصر حقاً هم حملة سندات
 ادين وهؤلاء أقسم كل من الذي كان قد احتكر الصحف على ماير بك بان عراقي
 والحرب الوطني انما هم عصابة من الميحيين المتعصبين الذين لا يحجبون عن احراق
 بورصة لندن اذا وجدوا لذلك سبيلاً والذين نجحوا فعلاً في تخفيض قيم الصنان
 وجعلوا القطع صعباً وخطراً.

أما في وزارة الخارجية فكان الموقف فيما يختص بمصر كما يأتي : كل عرانييل،
 الحرم الاصم المكشال، حين وجد نفسه قد خلع من كابوس سياسة غمبتا الجريئة
 قد استسلم الى غرضته التي من شأنها فعل لا شيء وترك الشؤون نسوى نفسها بالهدوء.
 اندي تسبح به الاحوال. فلم يكن راغباً في التدخل ولا كان يريد أن يقوم بأي
 عمل عدائي نحو الوطنيين ولا بأي عمل على الاطلاق في الحقيقة. ولم يكلف نفسه
 مشقة قراءة البلاغات ولكنه ترك الى سكرتاريه الخصوصيين مهمة العلم بما يجري
 حوله وكان جل اعتناؤه على وكيه السير ديلاك الذي كان في استطاعته أن يفحص له
 الالبا. ويعرض له ما يختاره من الحقائق وبلاتمه من الآراء. وكان ديلاك الذي
 شاطر غمبتا مسؤولة المذكورة للشركة المؤرخة ٦ يناير قد أصبح عاملاً رئيسياً في سياسة
 التدخل بعد اخفائه عنيته من قيادة الشؤون المصرية وكل يعمل بالاتفاق مع كل من
 والمائين على دفع الامور الى مآرق لا يسم رئيسه المتخرج منه الا أن يتدخل. ومع

أن ذلك نفسه لم يكن وزيراً فقد كان يعتمد في هذا العدد على تأييد قوى من وزارة شمبرلين وهو صديق شخصي له وحليف ليس في طاقته أن يفهم الشؤون الخارجية . وكانت سمعته هو ورميله هذا هي أهمها أشد عناصر الوراثة نظراً ولذلك كان لهما نفوذ على قسم من حرب الاحرار يميل الى المحازقات الخارجية وكان سواد المتطرفين في البرلمان لا يعرف شيئاً من حقيقة الحال ولا يبالى بالمسائل المختلف عليها ما دامت على بعد شاسع .

يسد أنى وحدث في استطاعتي امت كثير من الانظار وكان قد كثر اطلاع المطلعين على خطاباتي التي نشرتها التيسر ثم كان الناس يقبلون بشوق لسماع كلامي وقد استطعت أنا والسير حريجورى أن ملف عراي في مهجة البطولة التي كان خليقاً بها بصفته مدافعاً عن حقوق الملاحين وكنت أستطيع أن أحد من يسمعون لي من هذه الناحية دائماً . وكانت الاشاعات المختلفة لا تفتأ تدور حوله وكذلك الحكايات المضحكة التي تصوره كفرنسى أو أسباني في أهلب مصرى أو كأجور من مأجورى الخديو اسماعيل أو الدعي حليم أو السلطان أو أي شيء آخر الا الشيء الحقيقي . أما أنا الذى رأى عراي رأى العين فقد كان في استطاعتي أن أشرح الحقيقة على انه لم يكن أحد يهتم بالمسألة اهتماماً جدياً ولكن كانت مسألة فضول وكنت أجد من الناس أصفاءاً .

وكانت أول زيارتي بعد وصولي الى لندن لديوان رئيس الوزارة ومع انى لم أقابل المستر غلادستون شخصياً فقد قابلت صديق هاملتون سكرتيره الخاص وتحدثت معه حديثاً طويلاً مرصياً . وكنت بعد اختلافى مع ماليت في شك من الطريقة التي يستقبلوني بها ولكنه أسرع فأخبرنى أن تداخلى في سياسة ماليت لم ينضب رثيه ولكن المستر غلادستون بعكس ذلك ممنون من خطاباتي ومن الخطوة التي سلكتها في مصر . وكانت المسألة الارلندية تكشف كل ما عداها في ذهن غلادستون ولكنى مع ذلك أستطيع أن اطمئن نفسي من ناحية المخاطر التي يلو . لي أنها توشك أن تحل بالقاهرة فهذه المخاطر لا يمكن أن تقضى الى متاعب حديثه ومما كانت آراء وراة الخارجية فيسبحول المستر غلادستون دون تنفيذها . وان

التدخل المسلح « منحيل » ما بقي علاءستون في رئاسة الوزارة . ولا ريب في أن الفكرة في دأها مصحكة . وسنألف الكلام في ذلك بعد كما أتى سوف أقابل المستر علاءستون . وفي هذه الأثناء سيجي هاملتون بان يقف لورد غريميل على ما حضوري . وأخيراً تركت هاملتون وفتى كبيرة

في صباح اليوم نفسه زرت ان عمي الحارون بورك وكان يومئذ معروفاً من أصدقائه باسم « باتون » (١) وكان مقدوراً أن يكون دوره في المألة المصرية في ذلك العام دوراً مهماً ومن ثم كثر ما تكرر اسمه في مذكراتي وكان موقفه في الحياة الاجتماعية موقف شاب على الطراز الأخير وثيق الاتصال بالعالم الرسمي فانه كان الاس الاصغر للورد مايو الذي حكم الهند وكان ابن أخي النائب روبرت بورك (الذي صار بعد ذلك لورد كوينبارا) الذي كان وكيلاً لدارة الخارجية وكان اليوم أي في سنة ١٨٨٢ دعم معارضة المحافظين في مجلس العموم في مسائل السياسة الخارجية وكان باتون أيضاً له مركز في تحرير التيمس لا ك محرر ولكن كوسيط بين شبري رئيس التحرير ورجال السياسة . واد كل ان نبيل من دوى الرتب كان يستطيع ان يدخل ابها، المجلس . وكان يعرف كل انسان هناك وكل ما يجري من الشؤون ثم كان ذا صلة متينة برجال اللاط وبأصحاب الاموال وبجميع القاضين على أزمة الشؤون المهمة في الدولة . وكانت صداقتنا متينة وكان احلص نصحاؤى واكبر شأنى في بضعة الاشهر العصية التالية بما كان له من حكمة ذبوبة لا أستطيع أن أزمى بمثلا وما كان في ذهنه من خصب وسعة حيلة يصعب بهما . واليه يرجع ثلاثة ارباع الفضل في ذبوع كتاباتي في الصحف وفي المعونة التي بذلت في البرلمان . ولما التقيت به رويت له كل ما حدث في مصر خلال الشتاء كما أفضيت اليه بمشروعاتي التي أعدتها للمستقبل . وكان رأيه في المعارضة يختلف كل الاختلاف عن رأى هاملتون لان معرفته بالروتندامبرته علي يبة من اقبال المالية التي يشدوها لتحقيق فكرة التدخل . ثم كل قليل الثقة بقدرة علاءستون علي فهم المسائل السياسية

الخارجية او التصرف في مسألة فيها من المصالح المالية أحدثت كل هذا التأثير على أسعار بورصات أوروبا . ومع ذلك كل يصبح لى المحافظة على المركز الذى نلته في رئاسة الوزارة وان استلهم تفوضى كأحسن ما استطيع فادا أحقق الاعناد على علاستون استطعت أن أعتد على المعارضة في مجلس النواب وقد أ كد لى حصول عليها متى اقتضت الحال . فلم يبق لى في تلك اللحظة إلا أن أحداث كل من أعرفهم من أعضاء المجلس في هذا الصدد والا ان استمر على مراسلة التيس وقد أخذت بهذه النصيحة الحكيمة ونفذتها بلا بطء

وفي مذكراتي إحدى ذهبت يوم ٩ مارس لزيارة جورج هوارد (والان لورد كلرليل) وعييته ونجحت في حلها ولا سيما السيدة على الانصام لآرائى . وكانت يومئذ كما هي الآن سياسية قوية وكانت عطية الثقة في علاستون وقد نصحت لى بأن أصح كل تقضى فيه وانه لاشك في انه سيحول دور وقوع أى أذى بالمرية . وكان . أما روجها فكان أقل ثقة ولكنه ماهر الى المواضة على احدى لمجلس العموم الذى كان عصواً فيه ليقضى بعد ظهر ذلك اليوم الي رملاته أعضاء حزب الاحرار الذين يعتقد أنهم أقدر على مساعدتي . ومن ثم ذهبنا معا ونعرفت الى دوائر برائس وغيره من الاعضاء ذوي النفوذ ولا سيما الذين كانوا مهمهم يعنون بمآلى بلغاريا وأرمينيا حين عقد مؤتمر برلين . وقد وعدني كل هؤلاء بالمساعدة كما وعدني بمساعدته ذلك الرجل الفاضل تشون الذى تحدثت طويلا معه ومع ستانلى زوج أخت هوارد في غرفة الشاى . وكلت تشون ذا قوة سياسية كبيرة على الرغم من أنه لم يكن عضواً في البرلمان وذلك انه كان يحترف السياسة اذ كان سكرتيراً لجمعية « حباة اهل البلاد الاصلاح » وكان يثير هياجاً كلما اعتدت أوروبا على قوم غير أوروبيين وقد دلت الحوادث على عظم قيمة المساعدة التى قدمها لى في أوروبا من ابتداء الامر الى آخره فقد كان دائم الاتصال اليومي بجميع أعضاء البرلمان المتطرفين . وقد نصح لى هوارد بالا أضح القضية في أيدي جماعة « المحترفين بمقاومة التدخل » وان أقوم بنشر دعوتى على أساس مستقل . وكنت في ذلك الحين حديد غير مترص باحوال السياسة الانجليزية .

ولقد كنت قليل الفرس الى حد ان هذه كانت أول مرة دخلت فيها الى حجر مجلس العموم مع اني كنت في س الحادية والاربعين . ومنذ ذلك اليوم أصبحت كثير التردد على ذلك المجلس .

وفي اليوم نفسه حادثت فليب كرى ملياً في وزارة الخارجية وتناقشنا طويلاً في المسألة المصرية . وقد لمحت نادى دي بده انمستا ، مما عملته في القاهرة — بسبب شكوى ماليت مي — طاناً اني ألعب « لعبة كرى عملية على حساب وزارة الخارجية » ولكن ماليت أن تلاحظي هذا الزعم لاني مأسرع ما أقعته بحطورة المسألة وباهتمامي بها بصفة جدية وباني مصيب في آرائي فأشار علي بمقابلة ديلك وغير انفيل في اليوم التالي .

ثم اني أجدني أيضاً في اليوم نفسه حادثت اللورد ملتون أحد لوردات إيرلندا مما يظهر الصلة القوية بين مصر وإيرلندا في الفكر السياسي وقتئذ . وهالك ما كُتبت عن محادثته « ان قصته — أي قصة ملتون — عن شؤون إيرلندا تشبه كل الشبه القصة التي يرويها الموظفون الاحانب عن مصر . فهو يرى أن المصاعب الموجودة في إيرلندا ليست الا من عمل المشايخين وان الفلاحين الإيرلنديين لا يميلون بتاتاً الى الحزب الوطني وان التدخل بقوة السلاح كفيلا بأن يعيد الامور الى مجاريها الطبيعية » .

وفي يوم ١٠ قابلت ديلك في وزارة الخارجية بعد ان زرته في داره في سلوف سنريت . وقد كان في حالة غضب . فدلنا من أن يصي لاقوال شرع يشكو الي من الوزارة المصرية الجديدة قائلاً ان وزارة عرابي مد تربعها في دست الحكم أقيقت على الجيش ما ينيف على نصف « مليون جنيه » وأنها أنت أعمالاً صيانية أخرى . وكنت أعلم أن تلك المسألة لا يمكن أن تكون صحيحة لان الوطنيين لم يجر عليهم في كرسي الحكم سوى ستة أسابيع فقط . فذهبت الى ساندسون وكان وقتئذ السكرتير الخاص للورد غريميل (وهو الان سير توماس ساندرسون رئيس وزارة الخارجية) وطلبت اليه أن يحقق حرافة النصف مليون الحيه فوجدنا بعد مراجعة الرسالة الخاصة بها أن المبلغ المذكور لم ينفق كما أخبرني ديلك في « الستة الأسابيع »

الخاصية بل في «السنة» الخاصة على أن هذا الشويه الغريب من جهة ديك — الذي قرر ما قرره كانوا كان حقيقه لا قبل الحدل — ربما كان مجرد غلطة شائعة ولكن الصحف رددت تلك اعترافه في ذلك اليوم مع أن عدداً غير قليل من تلك الصحف كان يستمد الوحي من ديك مباشرة وهو مثل للطريقة التي كان ينشر بها الاخبار الصارة بسعة الوطنيين المصريين بقطع النظر عن سحافة هذه الاخبار .

وكان مورلي هو السوق الرئيسي لديك كما أن البال مال عاريت (وهي الحريدة الوحيدة التي كان علاستون يقرأها دائماً) أصبحت طول الربيع وأوائل صيف ١٨٨٢ بسبب تأثير ذلك وكلمة معرض الاكاذيب الماسحة والقائلة بوجوب التدخل . فقد حل مورلي معه — على ما أعتمد — على تصديق ما أعلم اليه فراح يعمل بسلامة يته ولكن الشيء الاكيد بالرغم من ذلك كله هو أن مورلي يقع على رأسه أكثر من أي شيء آخر مسؤولية حل علاستون على الالتجاء الى القوة في مصر وهي أكبر خطية في تاريخ حياة علاستون العمومية . ولم يكن موقف مورلي وقتئذ موقفاً مستقلاً كما أنه لم يكن هو صاحب الآراء المنشورة المعزوة اليه ولم يكن قد دخل البرلمان وقتئذ بل كان ينتظر فراغ كرسيه . فكل آماله في الحياة السياسية كانت قائمة على مساندة أصدقائه السياسيين مثل ديك وتشملرن .

لم يكن له والحالة هكذا ماصر — اذا لم يتأ الدول عن مطامعه الشخصية — في أعلى الخطة التي رسمها له ديك في الشؤون المصرية . ولكن كان أسفه شديداً فيما بعد على ما فعل حتى انه على ما أظن — ما كان يجب أن يتذكر الدور الذي لعبه وقتئذ . ولكن لا ريب في أن مسؤوليته عن اشغال دار الحرب كانت عظيمة . ولا يفوتنا أن نلاحظ أن مورلي في كتابه المسمى «حياة علاستون» قد أخفى حقيقة الرواية المصرية ولا حتى تلخيصها تلخيصاً مشوهاً في بضع صفحات . ولكن التاريخ تاريخ ولا مفر من إثبات سلطته .

بعد تسوية هذه المسألة مع سادرسن أحدى كيري لرؤية لورد غرانفيل ولم أكن عرفته قبل الآن وهناك حدثت مناقشة أخرى .

وكان لورد غرانفيل على جانب عظيم من التهذيب وقد أخذ بسأل عن خلي

العربية وبطربني من أحلها ثم تحول الى موضوع المسألة المصرية وأخبرني « ان لديه معلومات موثوق بها تدل على أن عرابي اعما هو صيغة اسماعيل وأن المسألة كلها مسألة دسيسة يراد بها رجع اسماعيل » وكانت هذه أيضا حكاية من الحكايات عبر للعقولة التي دست لورارة الخارجية وللجمهور لحل الرأي العام على سوء الظن بالمسألة المصرية . وقد تمت الى وزارة الخارجية فيما أعلم من تلعراف أو خطاب خصوصي أرسله اليها السير أوغسطس باحث سفيرنا في برومه الذي قال له اسماعيل مباهيا على ما يظهر « ان عرابي في جيبه » .

وليس ضروريا ان يبحث هنا الاسباب التي حدثت اسماعيل الى ذلك فان كلمته هذه لم يكن لها أى قيمة ولا شك في أن ملك عرابي من أوله الى آخره يدل على عكس ذلك تماما . بل أن ملك عرابي في ذلك الحين كل أدل منه في أى وقت آخر على عدائه للشاوشات الحراكية ، انصار اسماعيل الذين كانوا يدسون الدسائس لتوفيق . ولم يكن يخفى على كل حال ان لاسماعيل اعراضا في اظهار الحركة المصرية كأنما حدثت من احله . وكان دائم التشبث بفكرة ماآلها ان الدول الاوروبية سوف تقدم دات يوم على حلعه وان ترجع ابيه باعتباره الحاكم الوحيد القادر على حكم بلاد اضطربت امورها على اثر عيابه . على اني لم اكن اعرف في ذلك الحين مصدر الحكاية كما انه لم يكن في استطاعتي نقصها باكثر من التأكيد بان الزعيم المصري أشد الناس معارضة لاسماعيل (١) فقلت ذلك فابلغت الرسالة التي كتفتي عرابي ابلاغها الى غلاستون فلم يزد في الجواب على أن قال « هل ينزلون عن حق المجلس في الاقتراع علي الميزانية ؟ » قلت له اني أخشى ان لا يكون تمت أمل في

(١) وجدت بين مذكراتي بعد اعداد هذا للطبع مذكرة تاريخها سنة ١٨٨٤ تؤيد وتصحح عبارة باحث وهذا نصها . فيا في ٢٠ سبتمبر . تفذيت في السفارة . وكان السير باجيت أيضا . وتكلم عن مصر ولا يزال يذكر مترجم نوبار . وقد سألتني رأيي في عرابي سأله هل حقا أخرجه اسماعيل بان عرابي أخرجه فقال انه لم يحاطب اسماعيل بشأن عرابي قط ولكنه ذكر ان اسماعيل قل (لقد كلفني هذا الصبي مالا كثيرا)

ذلك نظراً لاتفاق جميع النواب عليه . فقال « اذن اعتبر انه لا أمل في مآلهم ولا بد أن نتعمي حملهم على الاذعان بالقوة » فقلت له اني لا أستطيع التصديق بأن الحكومة البريطانية تدخل في هذا الشأن حقاً وأن تصادر الحرية على مثل هذا الاساس . ولكنه احتفظ برأيه وتركه غير راض مصمماً على الا اصبح وقتاً آخر في اقتناع وزارة الخارجية وانما يجب على ان ابدل كل جهدى في الضغط عليها من الخارج وأنه « لا بد لي من مقابلة غلادستون » .

وقابلت في اليوم نفسه موزلى في مكتب تحريره محاولاً أن أشل معول الاقتراءات التي كانت تنهال عليه من كل جانب ولكن عثا حارلت . فقد كان شديد الثقة بكلمن الذي كان مراسله المعلن في مصر . وكان تحت عود آخر يصل تحت تأثيره وقد شق علي ان أقاوم ذلك الفوذ .

وفي الحادى عشر تعديت مع « باتون » الذى دعا جماعة لمقابلتي خصيصاً . وكان هؤلاء السير فرنسيس نولي سكرتير ولى العهد ورد جنالك بریت (والآن لورد ايشر) الذى كان يومئذ سكرتير لورد هارنجتون وكليغورد احد كبار كتاب التيمس والجنرال السير جون آيد الذى كان من اصدقاء ولسلي وحدم تحت امرته ذلك العام في الحملة المصرية وقد بقى مع ذلك عاطفاً على المصريين في كل ما حدث خدمة للانسانية كما سيتضح بعد حادث التل الكبير . وقد قضينا ليلة سارة وأظهر الكل اهتماماً بآرائي المصرية وبحثت تحدث مع بعضهم الى الساعة الاولى بعد منتصف الليل ولقد أعرف ان نولي تأثر بأقوالى اما بریت الذى كان متصلاً بأكل روتشيلد وغيرهم من الذين كانوا يلحون بوحوب التدخل فقد طهر بعد ذلك انه من أعدى أعداء القضية المصرية . وكان يصل يومئذ لموزلى في « البال مال غازيت » وأوحى اليه انه لم يكن كتب منه بعض المقالات التي آمرت كثيراً على غلادستون .

وفي ١٣ قابلت عوشن . وكان قد أرسلني اليه هاملتون باقتراح غلادستون باعتباراه رجلاً تثق به الحكومة وقد خضت معه في تفصيلات القضية المصرية أكثر مما فعلت مع دبلوك وعرفيل وقد أظهر كثيراً من العطف على آرائى . أظهر أكثر

ما شعر في الحقيقة . باتعاضى بأنه لا ينظر الى المسألة من وجهة مالية . ولا شك في أن ذلك يرجع الى أنه كان في الماضي نائباً عن مدايبي اسماعيل . وقد وجدته لطيف الملك ذا صوت جذاب وبقيت معه ساعتين وقال لي « لك أن تطمئن الى شيء واحد علي الاقل وهو ان الحكومة لا تعمل الا وفقاً للبادئ . السياسة العامة العامة ولا تعمل وفقاً لمصالح اصحاب الديون وكان هذا القول مرضياً وخيل الى انه متفق كل الاتفاق مع حالة الموقف الراهن فقد كانت الصحف نشرت في ذلك الصباح اساءة استفالة بلنجير من منصبه كقريب مالى فرنسي في مصر . واستدل الناس في لندن من هذا الحادث على أن هناك خلافاً بين الحكومة الفرنسية وحكومة القاهرة الوطنية ولكنني عرفت ان الحقيقة لم تكن كذلك فقد كان بلنجير أسقى من كلفن نفسه في العمل للتدخل ففهمت من استفالته ان حكومته قد تخطت عه وهذا هو المعنى الصحيح . ولو كان كلفن قد استفال ذلك الحين ، ولم يكن ذلك صيداً فيما اعتقدت فقد كان في الطاقة تجنب كل المتاعب التي حدثت فيما بعد . ولكن كلفن كان مؤيداً من ذلك الى حد جعل ذلك عيباً .

وقد تركت غوشن وذهبت لاتفدى مع باتون فوجدته مع لورد ده لاوار وهو نزيل من المحافظين ، وأحد جيرانى في سبلس . وكان قد ذهب في العام السابق الى تونس وتشرب بشيء من العطف على العرب اثناء الغزوة الفرنسية . وقد عملنا ما بعد ذلك كثيراً في المسألة المصرية وبرهن على عظم قيمة مساعدته حين تخرجت الامور وانتهت الى أزمة يوليو . وكنت في ذلك الحين أحض على تأليف لجنة تحقيق تذهب الى مصر وكان يظهر انه لا يبعد أن يرأس هو هذه اللجنة .

وقابلت هاملتون بعد طهر ذلك اليوم في « دو بيج استريت » وكان قد ظهرت في ذلك الصباح مقالة شديدة في « البال مال Gaيت » عنوانها ايقاد النار في مصر ولم يكن أكثر ولا أقل من تكرار الحكايات السيئة مضافا اليها حكايات أخرى ترمي الى غرس سوء الظن في الوطنيين .

وقد أشار هاملتون الى هذه الحكايات باعتبارها أدلة مقنعة لظهورها في « البال مال » وانى لا بد أن أكون مخطئاً والا لما كل مورلى يسمح بملوك هذا السلوك

المناقص الحرية وهو لا يقل عني انتصاراً لها وقد شرحت له موقف كافن بالنسبة لمورلي وأنا أكن شرحت له من قبل وطلت منه بالخارج أن أجمع برئيسه . وكنت قد أسكت الى ذلك الحين عن شكوى الاصدقاء ، الذين كنت أعمل معهم في المرحلات الاولى رعيًا لصداقتهم ولكن وحدث الآن سكوني لا يتبع الا الضرر وصمت على احبار علاءستون بكل ما أعرفه عنهم . وكان مورلي قد أذرنى في اليوم السابق لهذه المقابلة باعتبار اني لا يمكنني أن أوافق عليها وطلب مني أن أورد عليها . ولكني كنت أكثر غضباً من أن أورد الا بذكر قصيرة اعقبها في اليوم التالي بزيارة الى شارع نورغرنلاند حيث ونحنت على بشر مثل هذا المرء المؤذى ولكن السوء كان متوقفاً فقد سبق الشر طلب قدمه السير جورج كامبل واستخدم له هذه الحكايات الشائنة وقد شهدت مناقشة هذا الطلب الذي تكلم فيها عوش باسم الحكومة ملهجة للسائلة وان كان لم يذكر الوطنية المصرية مخبر ورعاً كان حديثي معه في الصباح قد أتقدا من شر ذلك وعلى كل حال لم يوضع قرارى مصلحة الحرية .

وقد جاء في مذكري اليومية في ١٤ مارس حديث جرى بيني وبين سير هنري رولتسون السفير البريطاني في طرس وهو من مؤرخي الشرق المشهورين وآراءه من طراز الآراء التي تسمع عادة من الانجليز القيسين في الهند . فقد قال ان المصريين كانوا في الماضي عبيداً وسيبتون كذلك في المستقبل وستنخل بلادهم ضمن أملاك انجلترا أو روسيا مع سائر بلاد آسيا . وقال ان معرفته بالاسيويين تجعله يدرك انهم لا يسترون الحكم الذاتي .

وقد تحدثت أيضاً مع والتر صاحب جريدة التيمس الذي اقترح على باتون أن أقباه . فأخذ يتكلم في أشياء لا قيمة لها ثم وعدني في النهاية بان يرسل مكاتبة خاصة للقاهرة لكي يبعث اليه بالانصار (واسكنه) لم يفصل ذلك لان ما كوندال مدبر الادارة عارض محتجاً بعدم ضرورة صرف هذه المصاريف)

وفي الخامس عشر من هذا الشهر ذهبت الى سير حارنيت ولسلي وتحدثت معه حديثاً حديراً بان أذكره هنا . بعد ما تكلمنا عن قبرص انتقلنا الى موضوع مصر واسكان مقاومة الوطنيين في حالة التنخل وسألني رأيي عن ذلك . فقلت له انهم

«الطع سيقاتلون والقتال ان يقتصر على الحدود لارب الامة سندعم بهم وربما استعملوا طرقا أخرى بعد ذلك وقد أبى أن يصدقني في قولي بان الحدود ستقاتل . ولكن ثبت على رأيي وقلت له انه اذا كلف بان يذهب لغزو مصر عليه أن يأخذ معه على أقل تقدير ستين ألف جندي » .

وقد بالغت بلا شك في هذا التقدير لاني كنت أرمي الى جعل هذه المهمة شاقة في نظرم حتى لا تقدم عليها الحكومة الا بعد تردد ومراعاة « وقد تطوع لي باحارى فانه قد استشير مرتين أو ثلاثا مدة الشتاء ، بعد العارة على مصر والاحتلال وقد أكد لي أن ليس هـا من يود التدخل وان احتلال مصر سيكون مكروها عند الحدود وانه هو نفسه يكون آسفاً جداً اذا اضطر الى الذهاب الى مصر ومن رايه أنه يحب على المصريين أن سرحوا جيشهم ويتقوا بحماية أوروبا . ولكنني أخبرته بأنه ليس من المستطاع لي أن أصبح لهم بذلك وارث الامة التي تسوى القتال بدية صادقة قل أن هاجمها عدو . فقال لي انه ليس هـاك شيء يدعى الشرف في اخروب وادا كانت المسألة مسألة حرب فلا يجب عليهم أن يتقوا بها ولا بأي دولة أخرى » ثم أخذ في الكلام عن الطرق الحربية المؤدية الى القاهرة فذكر بوهارت وطريقه على الشط الابسر بين فرع النيل وطريق الصحراء بين قناة السويس والدلتا حتى شعر بأنه اذا ذهبت الحيوش فستخذ هذه الطريق ولكنني اخبرته من أن أعطيه أي معلومات فبيده أقل فائدة واكتفيت بالضحك عند ما سألتني عما اذا كنت نواقه لأدله على الطريق عند ما ترسل الحلة . وكان الأثر الذي تركه ولسلي في ذهني هو : « انه جندي لبق من الارلنديين الذين يعرفون من لهجة كلامهم . ولكنني لم أشعر انه من العبقريين الذين كان يصف نابليون أحدم بقوله « قائد عشرة آلاف »

ومن الحديث بالذكر اني عند ما كتبت لشيخ محمد عبده بواسطة سكرتيري صابونجي أشرت الى الخطر الذي يمكن أن يقع فيه الوطنيون من عارته من جهة الامناعيلية وأظن أن هذه الإشارة هي التي جعلت عرابي يشرع في تحصين التل الكبير .

وفي اليوم نفسه رأيت لبال على وشك أن يسافر الى الهند لأنه كان قد عين حاكماً لاحدى الولايات الشمالية الغربية .

وقد وجدته أقل الموظفين الانجليز في الهند ترتيباً في الحركة الوطنية المصرية وفي المساء تعشيت مع هاملتون وجودلى وهما سكرتيرا مسنر غلادستون وعرضت عليها مسودة الخطاب الذي أرسلته لورد جرايميل وفي هذا الخطاب أثبتت بصفة رسمية تحيات عرابي ونياته الحسنة نحو الحكومة البريطانية وشكواه من كالمين وماليات التي لم أذكرها له مع ما ذكرته من الاسباب عند ما كنت في وزارة الخارجية .

وقد وافق السكرتيران على هذه المسودة وكانت الموافقة أكثر من جودلى وقد جعلنى أمحو جملة كنت اعتذرت بها عن تدخلى في مسألة مهمة كهذه . فقد قاللى مؤكداً : « تدخلك ليس في حاجة الى الاعتذار »

لقد كان جودلى رجلاً عالى الهمة وكل من يمثل أحسن ما في أخلاق غلادستون من الحسنة والعطف لما هو طيب في هذا العالم والاحتقار لكل ردى . وكل من يخالف كل الموظفين الذين يمجدهم الانسان عادة في الوظائف العمومية الا من حيث القدرة على الاعمال الرسمية وكان طول الازمة المصرية يعطف على ويباعدنى . أما هاملتون فقد كان يعطف ايضاً ولكن عطفه كان يرمى الى صداقته لا الى حماسه الطبيعية للتضحية التي كنت ادافع عنها وقد كان ختام خطابى ما قدعته من الطلب للحكومة بان ترسل بصفة للبحث والتحري عن الحقائق الراهنة في مصر وتفحص المسائل بروح الود والصداقة للمصريين . وأهمية الخطاب تبرر اثباتها بما برمته :—

لندن في ٢٠ مارس سنة ١٨٨٢

ان ما أظهرتموه من التكرم في سماعكم ماقلته لخصاتكم عن بعض تفاصيل الحالة في مصر يشجعنى على أن أقدم الاقتراحات التالية لتكون محل الاعتبار . وأنى اذا كنت قد فهمت ما فهم به فخاتكم فالى اعتقد ان حكومة جلالة الملك تنوى ان تتمجلى في الموضوع اذ هي تميل الى قبول حل سلمى — اذا تيسر هنا هذا الحل للخلاف بين المراقبة وبين الحكومة المصرية . وانها لا تلجأ الى القوة الا

في اللحظة الأخيرة عندما تمحور عن جميع الوسائل للمحافظة على المصالح الانجليزية والتهديدات الدولية من أن يصيرها الوطنيون بسوء .

هذا وإن واقف على آراء الحرب الوطني أو على الأقل على آراء رعاياه الظاهريين فيه ويمكن أن أقول وأؤكد أنه ليس هناك شيء أحب إليهم من التناغم مع حكومة جلالة الملكة . بل الواقع أن عراقي بك قد تلقى بلبس أؤكد لكم فخامتكم أنه إذا خوطب بلهجة الصداقة فإنه يستعمل كل نموذج حزبه — وهو نفوذ خطير — لأن يخفف من مرارة الشعور الذي نشأ بين المصريين والانجليز وسائر الموظفين الأجانب وأنه مستعد لأن يسير إلى نصف الطريق إذا فُتحت للمفاوضات للوصول إلى تسوية سلمية .

وقد رجأ إلى مع ذلك أن أضع أمام فخامتكم مصاعب الحالة إذ قد أعلن للراقب العام الانجليزي عداً شخصياً نحوه كما فعل ذلك أيضاً الوكيل السياسي للقوض لجلالة الملك .

وخامتكم تعلمون أن سير أوكلايد كولفين قد كان ذا أثر كبير في تغيير الوزارات وفيما يمكن أن يسمى « ثورة » أي تلك الحوادث التي حدثت في مصر في السنة الأشهر الماضية ففي ٩ سبتمبر كان هو نفسه الذي أوعز إلى الخديو بأن يقبض على عراقي ويضربه بالرصاص . وعراقي الآن هو وزير الحرية . ثم هو لم يكلف نفسه مشقة إخفاء هذه الحقيقة لأنه على ما أفهم أبلغ الصحف الانجليزية هذه التفاصيل

ثم من المشهور عند المصريين أنه على صلة بالصحف وأنه يكتب عن الحزب الوطني خصوصاً الجيش بلهجة عدائية وأنه عندما استقال شريف باشا صرح دون أن يتحفظ أنه ينوي تبديد شمل الحرب الوطني وأنه سيستعمل كل الوسائل المؤدية إلى هذا الغرض في إمكان التداخل . ولو كانت هذه الأشياء لا يعرفها سوى عراقي لأنغلها ولم يلق عليها أهمية كما قال لي ولكن لسوء الحظ قد صارت هذه الأشياء معروفة مشهورة بين الناس بحيث صار من المحال أن يظهر عراقي علاقة ودية بينه وبين هذا الرجل .

وقد قال عن سير ادوارد ماليت مثل هذا أيضاً بدرجة أخف . فقد كان من

سوء. نخت سير ادوارد ان انفتحت ريارته للاستامعة مع نقشي الاشاعة عن تدخل الانراك الذي ذكرته الصحف الانجليزية في الحريف الماضي . واني مقتنع بان الحكومة الفرنسية هي صاحبة المسئولية في نقشي هذه الاشاعة التي لا يمكن استئصالها الآن من أذهان سكان القاهرة وهي أن سير مالبيت قد اقترح مرارا مختلفة التدخل العسكري . واني أعرف أن هذا زعم باطل وان سير مالبيت قد استنكر هذا الحال . ولكن هناك بعض حقائق نسوغ هذا الزعم . مثال ذلك انه رفض ان يعتبر طلب المصريين الدستور من الشئون الخدية الى وقت انعقاد مجلس النواب المصري . ثم انه قد انضم الى سير أوكلاند كولفين في اعباره الى شريف باشا وقت الفراغ بينه وبين أعضاء المجلس . وقد استاء كثيرون من تصريحه بانه يعتقد صحة الرواية المكذوبة التي لا أساس لها وهي ان عرابي قد أهان سلطان باشا رئيس المجلس وسبه . ومما يمكن من قيمة هذه المرائع فان الواقع الزاهي ان سير أوكلاند كولفين وسير ادوارد مالبيت قد قاطعتهما الحكومة المصرية او كادت . فلهذا السبب محرومان الآن من معرفة الحقائق والوقوف عليها من مصادرها وقد صار الميدان واسعا للدسائين من الدول الاخرى الذين ليس لهم مصاحبة ما في اعتدال الوطنيين أو في تجنب انقطاع المفاوضات انقطاعا نهائيا .

فاذا كنتم تخاصمكم ترون ما قلته حقا فاني أستاذن فخامتكم في تقديم الاقتراحات التالية :

ان الوزراء الوطنيين يشتغلون الآن في اعداد جملة من الشكاوى عن النظام الذي وضعته فرنسا واجتثروا وصدقت عليه المراقبة . وبعض هذه الشكاوى حقيقي . وهم يرغبون في فتح باب البحث فيها بروح الاعتدال والصدقة . ولكنهم اذا رأوا من المراقبة والدول عدا . فمن المحقق أنهم سينظرون فيها بروح العداة أيضا . فان المسائل الختلاف عليها هي حقائق راحة في الاكثر فاذا روعي الحق والعدل وكان غرض حكومة جلالة الملكة ان تكسب منزلة أدبية لاشك فيها فيجب ان تنفص هذه المسائل بروح النزاهة وان يمتد ببينات المصريين كما يمتد ببينات الاوربيين واني أقرر لفخامتكم انه من المحال على عملي جلالة الملكة أن يحصلوا على هذه

التي كانت سواء أكانوا مالين أو سياسيين وأن المصريين سيبترون إليهم بعين الانتباه والريبة . أفليس إذن من الأفضل أن يرسل إلى مصر في مدة الستة أشهر التي ستمر قبل استناد البرلمان المصري مندوبين لبحث الحال الراية وفهم المسائل التي يشتكون منها بروح الصداقة التي لا يمكن أن تتلافى الكارثة بدونها ؟

ولنرجع الآن إلى المذكرات فأقول إنني أجده في قد كتبت بواسطة صابونجي سكرتيري خطاباً مطولاً إلى عرابي أخبرته فيه بأنني قد اقترحت على الحكومة تعيين مندوبين وأن آمالي كبيرة ولكنني قد رجوت أن يكون على حذر كما رجوت ذلك أيضاً من جرمي محوري الذي كل لا يزال مقبلاً في القاهرة . أما الحالة في مصر في ذلك الوقت فتتلخص في أن مجلس النواب قد ألغى في اثبات حقّه بأن نصف الميرانية لم يكن مقبلاً بشرط الدين وإن له الحق في التصويت فيه . وأن الحديو قد أصدر لائحة موقعة باسمه بمنح الدستور على الطرق الادوية . وأن الوزراء قد عرضوا على المجلس حدوداً يتضمن عدة اصلاحات عملية كانت البلاد في حاجة شديد إليها منذ سنين وقد نفذ بعضها الآن .

فلما انتهى ذلك أحل استناد المجلس إلى الخريف القادم . وفي غضون هذه السنة شملت البلاد السكينة التامة ولم يكن من سبب الخلاف مع أوروبا سوى مسألة التصويت عن المالية وهي مسألة لن تبلغ درجة الحدة إلا بعد ستة أشهر عد ما يتم ترتيب الميزانية الجديدة . وليس هناك ظلم من الشك في أنه لو كان كولفن قد اقتنع بضرورة انسحابه من البلاد مثل ما فعل زميله الفرنسي مسيو بلانجير ولو كان اقترأحى بشأن إرسال مندوبين قد قبل لكات الحال في مصر قد عادت إلى الهدوء ولم يكن تمت حاجة إلى التدخل العسكري . فان الوزراء المصريين لم يكونوا يرغبون في أكثر من أن يعيشوا في سلام مع جميع العالم وأن يتفاهموا مع حكومتهم المراقبة الثنائية عن جميع المسائل المتنازع عليها .

وفي ٢٠ مارس تناولت الغداء مع بانون لكي أقابل معه روبرت بورك الذي كان قد نوى أن يضع المسألة المصرية في البرلمان في الاسبوع التالي ويعرضها للنقاش . وكان بصحبة عضو آخر من المحافظين كان يهتم بمسألة تونس . وكان

هدان من الاسهم التي احتفظت بها في كساتي إذا خذلتني غلادستون . ثم ذهبت إلى الجمعية الاسبوية وحضرت اجتماعاً فيها وقد كنت انتحبت عضواً فيها . وفي المساء تناولت العشاء مع رفرز ويلسون . ومع ويلسون هذا « قد تشاحرت مشاجرة عنيفة بشأن مصر » وقد قال بأنه قد ساعد في اعداد مذكرة جديدة على وشك أن ترسل إلى ماليت من وزارة الخارجية للاخاخ عليه بأن يتقاضى الحكومة المصرية تأدية جميع التبعات الدولية . وكان القصد من هذه المذكرة أن تكون بمثابة الوعيد للحزب الوطني ولكنني أعلن أنها لم ترسل مطلقاً أو انها قد ألغيت إذ لم أجدها في الكتاب الأزرق . وربما كان خطابي إلى حراغبل هو سبب الغائبا . وقد كان ويلسون يؤكد بأن جميع الحركة الوطنية هي من اختراع اسماعيل وأنه إذا فوضا وذهب الحديوي اللقي إلى مصر ونزل في الاسكندرية لآتي إليه جميع المصريين وحشوا له على ركبهم . وبعد هذا العشاء قمت إلى دار القيدى كيارى حيث رأيت القيدى سالزيرى وقد انتحيت في ناحية وأحدثت نألى بلهجة العطف عن القصة المصرية وقد عرضت عليها ذلك بأحسن ما استطعت علماً منى بأن ما أقوله لها سيعاد على مسامح زوجها اللورد سالزيرى . وبديهي أنه لا يوجد عطف حقيقي بين المحافظين على آرائى بصدد الحركة المصرية ولكن كل من مصلحتهم بصفتهم الحزب المعارض أن يتجنّبوني سبباً إلى حد ما في الخط من كرامة الحكومة والليل منها : وكل من سالزيرى من القائلين بالتدخل الملحين فيه . وقد توجهت إلى دارى بصحبة هاملتون وأخبرته في الطريق عن فخر ويلسون بالمذكرة الجديدة ورجوته أن يتوسل لى في مقابلة رئيسه وقد حتى على إرسال خطابي إلى جرائل وأرسال صورة أخرى منه إلى غلادستون . وقد فعلت ذلك في الصباح التالي وكلفت هاملتون بإرسال الصورة . وكان قد هيا لى في ٢١ مارس مقابلة رئيسه في اليوم التالي . وفي المساء تمثيت مع روبرت بورك والحزب ال تيل ومراقب حزب المحافظين والقيدى لى وعدد آخر من المحافظين

مارس ٢٢ — كان هذا اليوم من أهم الايام فقد مضى عليّ الآن أسبوعان وأنا بانجلترا ومع اني لم أتهاون أو أهمل في شيء فاني لم أحصل إلى الآن على مقابلة

ميس الوزارة . ولكنى قد نلت حق اليوم . فاني ذهبت الى شارع دونج قبل
 لحمل المضروب قليل حتى أتمكن من مقابلة هاملتون والتحدث معه قليلا . وقد
 لي هاملتون ان الرئيس قد قرأ خطابي وعند ما كانت الساعة ١١ والدقيقة ٢٠
 استقبلني الرئيس . وقد لاحظت ان مسر غلادستون قد تحسنت صحته فهو بخيل
 الى أنه أصغر وأصح عافية مما كان منذ سنتين . فقد رأيته في ذلك الوقت وشعرت
 كأنه في المهبوط أما الآن فهو نشيط الجسم متعاه الدهس . وقد استقبلني بكل نشأة
 وود . وكان خطابي الذي أرسلته لورد جرايميل أمامه على المضعدة . وكان على
 ما يظهر لي مشتاقا لسامع ما ألقاه عليه . وقد سألتني أن أوصي اليه بجميع ما عسى
 وأخذ يستمع لي دون أن يتكلم . وكل اصغاه في بما فيه من العطاء والتشجيع
 بلعنا لي على أن أتكلم بسهولة بل فصاحة لم أعتدها قبلا . وكنت أرى دلائل
 الاهتمام بادية عليه في كل كلمة أقوم بها . وقد تركني نحو ربع ساعة لا بقاطفي
 الا بنحو هذه العبارة : « لا تخبرني عن هذا فاني أعرفه » وذلك عند ما كنت
 أريد أن يؤمن بحقيقة الشعور الوطني في مصر . وقد ظهر لي منه أنه كان قلما وقائلا
 مع الوطنيين .

ثم سألتني عن موقف الجيش والسبب في ظهوره في المسائل الوطنية فانه توجس
 من هذا الظهور . فأوضحت له تاريخ الحركة وأكدت له ان ما قبل عن تدخل الجنود
 قد بولغ فيه وان تلك الرواية القائلة بان الجنود كانوا يتوعدون البواب ويرهبونهم
 من الروايات المختلفة وقلت له أيضا ان الاستعدادات الحربية الحاضرة ليس لها
 من غرض سوى الخوف من الاعتداء والتدخل . وأوضحت له موقف الحزب نحو
 الحديو توفيق والحديو المعزول اسماعيل والامير حليم . فسألني عما اذا كنت قد
 أنضيت بكل هذه الاخبار الى اللورد جرايميل . فقلت له : « ان اللورد جرايميل
 منعتني من اخباره بهذه التفاصيل بقوله في ابتداء حديثه ان اسمعيل قد اشترى عراقي .
 فماذا كان يمكنني أن أقول له ؟ »

وفي هذه اللحظة دخل الينا شخص يقول ان اللورد جرايميل في الممرل فحشيت
 جداً أن يأذن له مسر غلادستون في الدخول علينا لان دخوله كان بمنعني من تميم

قصتي . ولكن المستر غلادستون خرج بمنعصاً وسرح لورد جرايميل وعاد الى وحو
 بفرك يديه فعمل من مخلص من ثقيل . فكانت اشارته هذه تشجيعاً آخر لى فأخذت
 فى الحديث فذكرت وقدمت اليه جميع رسائل عرابي عن الانجاء بالرقيق ومشروعات
 الاصلاح الأخرى ثم جعلت أشرح له مركز ماليت وكولفن فقال لى بلهجة التأثر :
 « ما ذا نستطيع أن نفعل ؟ انهما موظفان بمصرمان وقد نالا الأوسمة لخدمتهما فى
 مصر » وأخذ يابح ويكرر ذكر لفظة الأوسمة . ثم سألتى أن أخبره شيئاً عن زعماء
 الحزب الوطنى من غير الخنود فشرحت له أحوال بعضهم مثل الشيخ محمد عبده
 واحمد محمود وسعد الله حلى وحسن شريفي وآخرين من النواب وكان آخر من
 ذكرت له عبد الله بديم الصحفي الخطيب . وكان وصوى لهذا الاخير بأنه « صحفي
 خطيب » قد لمت نظر مستر غلادستون فكتب اسمه على ورقة صغيرة امامه .
 ومضيت فى الحديث حتى كانت الساعة الثاية عشرة حيث كان عليه أن يقابل بعض
 الزائرين . فأكون قد قضيت معه أربعين دقيقة . فما كان أسرع هذه الدقائق .
 وعند ما خرجت التفت اليه وسأته لحاظ خطر لى عما اذا كان يأخذ لى بأن أرسل
 لعرابي خطاباً أجيبه فيه عن لسانه عن الرسائل التى أرسلها اليه . ففكر قليلاً ثم قال :
 « كلا » ثم قال فى تدبر وروية : « ولكنك تستطيع أن تخبره عما فهمت من احاسى
 نحوه » ثم غير لمجته وقال كأنه يخاطب مجلس العموم فكلز كلامه عندئذ مخالفاً
 لمجته الشخصية التى كان يخاطبني بها : « اذا أراد (الوطنيون) أن يحكموا على موقعنا
 فليعلم أن يقرأوا ما قوله فى البرلمان وبخامة ما أقوله أنا لاني أعنى تمام العناية بما
 أقول فى البرلمان . ونحن فى رسالتنا الرسمية مقيدون برأى أوروبا ولذلك لا نكون
 هذه الرسائل مطابقة للآراء الحرة فى مصر . فليعلم أن يقرأوا خطباً » ثم التفت
 الى المضددة وأخذ ورقة قد كتبت عليها رسالة موقفة فنظر فيها ملياً وشعرت كأنه
 يتردد فى أن يرينها ولكنه ألقاها على المضددة . وقد شعرت أيضاً ان هذه الرسالة
 عمالتى أعبرنى ولسون انه قد هيات ليرسل الى مصر . ثم عاد الى بشاشت وشكر
 لى ارسالى الخطابات اليه ورجا الى ان أرسل ما يتحدد من الاخبار . وعند ما سلم

على وأيت في وجهه ولفظه من العطب ما كاد يجعلني أستعير لخرجت وأنا أحس
أنك كنت في حصرة رجل طيب وعظيم معاً وصرت أنصح بك بصل مثل هذا
الرجل الطيب الى مركز رئاسة الوزارة . فصرت أقول « الحمد لله ، الحمد لله . نصر
من الله وفتح قريب » .

هذا هو غلادستون الذي رأيته في ذلك اليوم : رجل بهط عطفاً كبيراً على
كل ما هو طيب ومن يراه يقدم انه لا يجيد قيد شمة عن محبة الحق . ولكن
كلن في شخصه غلادستون آخر هو السياسي الوصولي الذي يفتن البرص والذي
قد كتب على أن أراه « يلعب الأعيب هوجاء تجمل الملائكة التي في السماء
لا على نيكى » .

واليك وصف ما عرفته عنه مدة العشر السنوات التالية :

كلن غلادستون ذا شخصيتين . فكلن جابه الاساني بسر الناظرين ويجذب
اليه قلوبهم وكان كبير العطف اذا أحب شيئاً أسرف في صرف حماسته عليه . وكان
مع ذلك متواضعاً حتى مع أولئك اللذين كانوا أقل منه مكانة فكانوا بذلك يحبرون
على حبه والولاء له . وكان في خلقه أشياء من الضعف لم تذكر في التراجم التي ألفت
عنه وكانت هذه الاشياء تجعل الناس يحبه أيضاً . وكان الشباب أكثر الطوائف
نطقاً به وكان الناس يحبه أيضاً لهذا السبب .

أما حياته العمومية فكانت زوراً وغشاً كما هي حياة جميع العظماء من رجال
البرلمان فان الخدع البرلمانية كانت قد انطبعت فيه . وكلن قد شرع في تعلمها أيام
كلن طالباً في المدرسة فلما بلغ سن الثلاثين صار مقياس الحق والباطل في نظره
أصوات البرلمان . وكانت مراعاته لهذه الاصوات تضطره الى أن يهمل ميوله
الشخصية حتى اذا بلغ آخر سني حياته صارت ميوله هذه أشبه شيء . بأذواق منها
يمادي . فكلن يشعر نحوها كما يشعر نحو الموسيقى أو الصني أو سائر التحف ،
يميل اليها ولكنه يقيد احساسه نحوها بما يشعر انه واجب الاكثرية البرلمانية .
وفد كلن هذا السبب الاخير في جميع أعماله بل ضميره الحق الذي كلن يضغى له
جمع أمانيه العليا . ثم أن حياته العمومية الطويلة قد ولعت فيه نوعان الخداع الذاتي

الذى يتولد عند المثليين . لانه لما كان مصطراً الى النيل والظهور بغير المظهر الذى يهواه أتى عليه وقت صار يستطيع فيه أن يتخلق بأى خلق شاء .

فلما اتفق أن وجد نفسه مصطراً الى السير على خطة جديدة لا تتفق عمد الى نفسه فأغراها باعتقاد أن هذه الخطة ليس فيها ما يضره . وأخذ نفسه بذلك حتى يؤمن بما يتوهم ويؤلف فى سبيل ذلك جملة أو عبارة يكسب بها رضا نفسه . ومن هنا كان عدم شعوره بالمعاطات . فكان مثله كمثل الطفل فى احدي قصص دكنز اذا أراد أن يمثل دور عليل دهن جلده بالسواد . هذا وأطلى فيما قلته لم أشط فى تدبير غلادستون . والحق ان أعماله فى هذه السنة وخيائنه للقضية المصرية يشتان كل ما قلته وهنا يمكن اختصار ما حدث قبل عيد القيامة فى لندن . فاني ذهبت لعضاء عدة ايام فى كرايت لاشغال خاصة بي ولكن هذا لم يمنعنى من مراسلة أصدقائي مثل عرايى ومحمد عبده وتديم وكنت أحرهم عن نجاحى مع غلادستون وأتوصل اليهم لكي يتصرفوا فى المواقف . وفى ٢٦ منه تسلمت خطا من باتون وفى الخطاب رقعة من أحد ذوى المناصب العليا . وقد وجدت هذه الرقعة لاتزال بين أوراقى وهى قصيرة وكيرة الدلالة فلذلك أرى من المفيد اثباتها ها :

« ٢٢ مه . اتى فى أشد الاشتياق لكي يذهب مستر بلنتويقايل ناتي روتشيلد الذى لا يحتاج أحد الى ابضاح مصالحه فى مصر . فانه يكثر من التعاطب الى وزارة الخارجية والى مستر حرافيل . وهو فى هذا العمل « يموت كل يوم » كما قيل عن القديس بولس . وانه ليعلم الجميع خدمة عظمي اذا هو استطاع ان يوفق بينهم . وقد رغب إلى أن أسأل عما اذا كان مستر بلنت يمكنه ان يتشددى فى نيوكورت يوم الجمعة الآتى الساعة الاولى بعد الظهر فليفعل اذا استطاع . فان هذه المقابلة تكون مفيدة من عدة وجوه » .

فهنا نجد القارىء لب للموضوع فان قرأ روتشيلد كان يبلغ تسعة ملايين جنيه وكان لاسرة روتشيلد وحدها نصف هذا المبلغ ولكن المعتقد أن هذا المبلغ قد أصبح فى خطر الضياع فى مصر . وبناء على هذا ذهبت الى لندن فى ٢٧ منه وهو اليوم المتفق عايه ومي باتون . ولكن لسوء الحظ وجدت ان ناتي روتشيلد قد سافر

خروج انجلترا هذا اليوم لان أحد ذوى قرباه كان مريضاً . فلم نجده . ولكنني وجدته قد ترك لي رقعة برحوني فيها أن أكتب له آرائي . ولقد أسفت على هذه المصادفة التي سمعت التفاني به لان مثل هذا الالتقاء كان يكون لذيذاً وإن لم يكن يؤثر على آرائي . ولقد أخذت بعد ذلك أنعجب من معنى « أن يوفق بينهم » وماذا كان يقصد من هذا التوفيق . وقد خاضرتني الشكوك بان الفرض الحقيقي كان ارشاد عرابي بعدد من الاسم حتى يتخون ملاذه . ويظهر انه قد عرض على عرابي مثل هذا الفرض بعد ذلك بشهرين عن سبيل أخرى . ولم ينتج عن هذه الزيارة سوى أني كتبت مذكرة مطولة لا يمكن اثباتها مما لطلوها قلت فيها ان المساهمين يخسرون بالحرب مع مصر أكثر مما يكسبون وان مصلحتهم هي في قبول الثورة كما هي فليسكنوا اليها . وقد علمت بعد ذلك ان روتشيلد بعد أن كاد يقتله المم أيام ضرب الاسكندرية وهو يعتقد وقتئذ ان أمواله قد ذهبت عاد لما استردها باكليها ذكري بالسوء . ويقول آتي نبي كاذب . ولكن هذا لم يكن ليهمي . فان مذكري إنما كتبت في مصلحة للدينين المصريين لا في مصلحة الدائنين .

وقد كتبت في ٢٨ منه في مذكراتي شيئاً على عقيلة كتاب جريدة التيمس . فقد ذهبت الي ادارة هذه الجريدة أول مرة في حياتي وكان باتون أيضاً دلي . فرأينا هناك مكدونالد مدير الجريدة وخطابه بشأن ارسال مكاتب الجريدة في القاهرة يرسل اليها آراءه مستتلا عن أي تأثير وفكرنا في مكثري وولاس معتقدين انه يستطيع ان يقوم بهذه المهمة . ولكن مكدونالد كلن اسكوتلانديا يعرف قيمة اللال فلم يوافق على هذه المغامرة المالية . وقال لنا انه راض كل الرضا عن الاخبار التي تصل اليه من سكوت المكاتب في الاسكندرية . ثم قال ان للانجليز مصلحتين في مصر هما قناة السويس ورحمة الاسهم وآراء سكوت من هذه الوجهة لاغبار عليها قاعدا هذا لم يكن يستحق اهتمام التيمس . ومع ذلك قد شكر لي ما كتبت اليه من الخطابات وهي خطابات لم آخذ عليها أجراً ولذلك هم بشكروتي كل الشكر عليها وسينشرون لي كل ما سارسله اليهم . ولكن ليس هناك حاجة لارسال مكاتب خاص .

ولكنى الى ذلك الوقت لم تكن قد داخلتى الشكوك فكنت الى اشد قافى
في القاهرة مسياً لم فى الاخيار السارة . اذ ما كنا نحشى وعلاستون قد انضم الى
صفوفنا . وكل ما سألهم أن يربثوا حتى تصل اليهم اللجنة التى طلبت ارسالها
وهناك ما يدل على أن لورد جرانفيل لم يكن صادق البية في تنفيذ الاقتراح
أو أن من قومه في وزارة الخارجية مثل ذلك لا غير . ضد كتب الى في الرابع
والعشرين من الشهر بألتى أن أتناول الغداء معاً لكي تحدث معه بشأن اللجنة
ولكن لسوء الحظ — وربما لم تكن المسألة قاصرة على الخط — لم تصلنى الدعوة
الا بعد ان فات ميعادها .

وهذه مناورة تكرر حدوثها في الاسبوع التالى . هذا والكتب الزرق تذكر
خير مفاوضات لم تنجح مع فرنسا . وكان الغرض منها بحثاً جديداً للعالة . ولكن
المفاوضات وقعت وعاد لورد جرانفيل الى طريقته المألوفة في عدم الركون الى
الحل والعزم . ولم تحض عدة أسابيع حتى كانت الدسائس قد انتهت بالقاية المقصودة
منها في القاهرة في احداث القلاقل الجديدة وصارت مصاعب التوفيق أشد مما كانت
وكنت أكثف في هذا الوقت اليك سكرتير جمعية منع النجاسة . وهو رجل
ذو جدارة وإن يكن محدود الآراء . فقد انتقدي سير وليم مور في حريدة التيمس
لأنى قلت في أحد خطابانى أن برنامج الحزب الوطني في مصر يتضمن محوماً بقي
من تجارة الرقيق فأخذ يبرهن بواسطة مقتبسات من القرآن على أن الرق من
العادات التى كانت ولا تزال ضفة دينية في الاسلام . وقد وجدت أن اليك قد
غضب غضباً شديداً فقولى بأن عرابي يطلب الغاء الرقيق الذى كان اليك يعتبره
من الاعمال الخاصة بجمعية منع الرقيق وحدها . فكان غضبه أشبه شيء بغضب
صاحب كلاب الصيد التى قد ربضت على صيد الثعالب عند ما يجد أحد المزارعين
يقتل ثعلباً بنمسه . فإن من آرائه أن محو الرقيق شيء لا يخص المسلمين إذ ما كنا
تكون قائمة الجمعية اذا فعلوا ذلك ؟ وعلى أى حال هذا هو الأثر الذى تركه في
ذهنى مناقشتى معه .

وقد وجدت أيضا ملاحظة في أول إبريل بشأن مقابلة ولي العهد الذي رغب
 أن أنعش معه . وكان رب البيت في تلك الليلة هو إرد فست ولي العهد
 الحليم . ولكنني لم أتمكن من الذهاب إلى هذا العشاء الذي كان يمكن أن يكون
 ذا أهمية لي . وسبب ذلك أنني كنت على ميعاد مع الاميرة لوبزاف لورن في ذلك
 المساء فلم أرغب في إحلاف وعدى لها . ومع ذلك فقد ذهبت إلى منزل فستنت
 والتفتيت بولي العهد بعد ذلك وتحدثنا معاً عن شؤون مصر ولكن الحديث لم يتناول
 الموضوعات التي تهني أهمية خاصة .

والى هنا يمكن أن أعتر أن حلتي الأولى في سبيل مصر قد انتهت . فقد
 سلر كل شيء ، على الرغم من العقبات الكثيرة . نحو شر دعوتي . وتقبل الجميع
 دعوتي عن الوطنية المصرية تقلاً حساً في كل مكان وحقت أصوات القائلين
 بالتدخل . وكان رجائي في بعض الأحيان عظيماً جداً لأن باتون كان يؤكد لي أن
 اللجنة التي اقترحت إرسالها لمصر قد تقرر إرسالها بالفعل وذكر اسم الشخص الذي
 انتدب لذلك . ولكن وأأساه . كان هذا الخبر إشاعة لس غير . ثم جاءت أحارة
 العيد فغادر الناس لندن ومأم أن عادوا حتي فأحاناً المؤامرة الشركية . فكانت
 بداية النهاية المشؤومة

...

الفصل الحادي عشر

المؤامرة الشركية

يمكن القول . أن يحكم على الحال الحسنة في مصر في الأسبوع الأول من
 شهر إبريل على الرغم من اشاعات القلق التي فشت في أوروبا بخطابين كتبها لي
 عرابي وبخطاب آخر أرسله إلى الشيخ محمد عبده . هذا وإن الخلق العظيم الذي
 يتأثر به الشيخ محمد عبده لزومه المقاتل ثم هذا المركز السامي الذي يملأه الآن في
 مصر وهو منصب الافتاء الشرعي كل هذا — يجعل لشهادته قيمة تاريخية
 لا يبالغ الإنسان معها قال في مدحها . وهذه الشهادة يصح وضعها بجانب الكتب

الورق لادحاص أكاديسها المختلفة . وكان في ذلك الوقت رئيساً لتحرير الجريدة الرسمية ومديراً أقلم المراقبة الصحفية وكان مركزه هذا يجعله على علم بما يدور في الوزارة الوطنية . بحيث لم يكن مألوف أو كوامس أو أى أوروبى آخر ليدعى مثل معرفته بهذه الشؤون . فلهذا الاسباب ألقت نظر المؤرخين الى هذه الوثائق :

القاهرة في أول ابريل سنة ١٨٨٢

الى الصديق المحترم المخلص الخالص المميز منى وفرد بلنت نصح الله مساعيه
بعد حمد الله غالب الاقوياء . وناصر الحق أخبرك بان خطابك رقم ١٠ مارس
قد وصلني وسرني غاية السرور ولا شك في ان كل رجل حر الصير يفرح برؤية
من هم مثلك من الصادقين في القول والعمل الذين عقدوا نيتهم على انقاذ مشرذعتهم
التي يرمون بها الى منعة السوء البشرى عامة ومنفعة بلادهم خاصة

هذا وان محتويات خطابكم تدل على اسمكم قد شغفتم بحرية النوع البشرى
واسمكم تفعلون جهدكم لخدمة مصالح اسمكم الانجليزية وذلك لعلكم بأن هذه المصالح
وبخاصة تلك التي في مصر لا تكون مضمونة مأمونة الا اذا كان المصريون أحراراً
فيكسبون بذلك ودهم . ومن الواجب على الانجليز الاحرار ان يساعدوا اولئك
الذين يجهادون في سبيل الحصول على استقلالهم وعلى الاصلاح وعلى ايجاد حكومة
عادلة وحمودك المدبرة بالشكر ستكسبك بلا شك اسما شريفا بين أبناء وطنك
عدما يعرفون السكينة التي كشفت بها القناع عن المفتريات التي أذاعها أناس
ذوو أغراض .

واما بخصوصنا فعن نشكر الخدمات الحلى التي أدتها مصر وانجلترا معا .
ونحن نرجو لانجلترا أن تكون أقوى الاصدقاء لمساعدتنا في ايجاد نظام حسن على
أساس الحرية فليس عندئذ على عرار الامم المتعددة الحرة . ونحمد الله فاننا سنرى
قريبا نجاحك في حمودك ولهذا نقدر وصولك سالماً لبلادك فألا حساً لنتجاح المتظر
أما بخصوص النصيحة التي زودتنا بها فنحن نشكر ونحترق باننا لا نقصر في
حفظ النظام والهدوء لاننا نعتبر هذا من أهم واجباتنا ونؤكد لك ان كل شيء هنا
هادئ . فالهدوء والسلام بسودان البلاد ونحن واخوانا الوطنيون بدافع مانع .

ما يمكننا عن حقوق جميع السكان تصرف الطار عن الامة التي يتمتعون اليها . ونحن
نحترم جميع المعاهدات والاتفاقات الدولية ولن نسمح لاحد بمساسها ما دامت
قودنا تحفظ وترعى علاقاتها الودية معا .

اما عن تهديدات المالين واصحاب المصارف في أوروبا فاننا نقبلها بالعسكرة
والثبات . واعتقادنا ان هذه التهديدات تعود عليهم وحدهم بالاذى وتقر الدول
التي تتخذه بأقوالهم .

وغايضا الوحيدة هي تخليص البلاد من الصودية والظلم والمهل وان رفع السكان
الى مركز لا يمكن فيه الاستبداد ان يعود كما كان في الازمة الماضية يشر الحراب
والدمار في مصر .

ان هذا الذي اكتبه اليك هو ما يعكر فيه كل مصرى عاقل يجب حرية بلاده
ولوجود ان اقدم نسياني لروحك الطيبة واجل تحيات صديقك المحلل

احد عراقي

القاهرة في ٦ ابريل سنة ١٨٨٢

الى صديقنا العزيز مستر وفرد بلنت

بعد حمد الله لما أنالنا من الحرية والاصلاحات التي أنعم بها علينا أحبك اني
قطعت خطابك الثاني بعد ان أرسلت لك جوابي على خطاك الاول . وأنا استهز
هذه الفرصة لكي أكرر لك شكراتي الخاصة لمساعدكم الحسة . واني أعتز من
ولجباتي كما هو من واجب جميع الناس ذوي الضائر النقية أن أشكركم لما أدبته
من الخدمات العظمى . وفي الاعتراف بالصنعة توثيق الصداقة بين الافراد وكذلك
بين الامم . فمن مبالون أشد الميل الى التفاهم عن المصالح المتبادلة بيننا وبين الدول
المرتبطة بنا وليس للدول ذوات المصالح في بلادنا من سبيل للاتفاق بمقودم
ومساعدتهم الا اذا كانت الصداقة التي بيننا وبينهم وثيقة . فاذا قطعت هذه الصداقة
فالضرر لن يعود علينا وحدنا بل يعود على الدول أيضاً وبنحاسة انجلترا وليس هناك
سيليبي كبير الادراك الا ويقيم قيمة المنافع التي تعود على انجلترا من صداقتها لنا
وموئتها ايانا في كفاحنا .

أنما عن المراقبة فيجب ان تطمتئوا وتعرفوا أنها لن نجد منا ما يعطلها عن تأدية واجباتها حسب الحقوق التي خولتها إياها المعاهدات الدولية . هذا ولم تكن قط مقاصدا أو مقاصد أي اسان في هذه البلاد ان نمنس المراقبة ونقلل حقوقها أو نعتدى على المراقبة الدولية .

فإذا كان ممثلو الدول في بلادنا يؤدون واجبههم كما ينبغي لهم وبراعوا مصالح بلادهم فاحسن ما يفعلونه أن يعاونونا على تحقيق أمانيتنا فيثبتون بالعمل ما يمدونا به بالقول أننا قد برأينا صادقة على ان يكون لامتنا مركز بين الأمم المتمدنية بنشر المعارف في البلاد والمحاطة على الاتحاد والنظام والقضاء بالعدل بين الناس أجمعين ولا يمكن لشيء في العالم ان ردنا عن قصدنا قيد شعرة . فلن نحشي الوعيد أو التهديد ولن نخضع الاحكام الصداقة التي قدرها ونكبرها .

أنما عن المدعو في مصر فتخبرك انه ليس هنا أي قلق . ونحن الآن نحاول ان نعو الآثار البتة التي ركنها لنا الحكومة السالفة .

اما عن عن الاستلة التي وجهتها اليها فقد أرسلنا بواسطة الشيخ محمد عبد المنظر . والحق ان جميع الاشاعات المنتشرة في أوروبا بخصوص الاستعدادات الحربية العظيمة لا أساس لها البتة . فان المصروفات على الجيش لم تزد بارة ولم تنقص درهما عما كانت عليه سابقا . فهي الآن طبق ما كان قد تقر في ٢١ ديسمبر سنة ١٨٨١ في عهد شريف باشا . فيجب ان تطمئن وتعرف ان هذه الاشاعات مقترلت بروجها أناس لا ضمير لهم ، وانه لما يؤسف له ان نجد للاكاذيب مجالا واسما في صفت أوروبا المتدنية .

ونحن ندعو الله ان يرشد ساسة اوربا المفكرين الى مواطن الحق حتى يعرفوا حق المعرفة حالة بلادنا . وبذلك يخدمون بلادنا معاً لان في علمهم هنا توثيقا للروابط الحسنة . ونبتهل في الختام الى الله ان يمتعنا ببركات السلام وحسن الاخاء .
احمد عرابي

وكان هذان الخطابان ردين أرسلهما الى عرابي عند ما بعثت اليه أخبره عما لاقته من شعور غلادستون نحو الحركة الوطنية في مصر . وقد أرسلت ترجمة هذين

الذين عد وصولها الى مستر علاستون . وكنت أظن أن مستر علاستون لو كان قد اطلع على هدى الدين لكان صرف اليها انتباهه . ولكنه كان في ذلك الوقت جدياً عن لندن وقد شطت أشياء أهم مما كان فيه — أعني أشياء تهدد كيان الحكومة — وهي الثورة في أيرلندا . ثم لم تسنح لي الفرصة لرؤيته أو رؤية هاملتون حتى انتهت احارة العيد حوالي آخر الشهر . وفي أثناء ذلك دخلت المسألة المصرية في طور خطير وذلك بسبب المؤامرة الشريكة التي وصلت أخبارها الى لندن في الاسبوع الثالث من شهر ابريل . ولم أعن العناية الكبيرة بهذه المسألة عند أول ظهور أخبارها معتقداً بأنها إحدى المفتريات التي تنشر عن مصر . ولكن الاحوال أثبتت أنها خطيرة تستدعي الانتباه . ولم تكن خطورتها متوقعة على حدوثها من حيث هي بل من حيث أنها كانت فرصة للحكومة لتزقيها لكي توقع الخلاف بين الخديو ووزرائه . وكان مايلت قد خضع تمام الخضوع لكونه في هذا الوقت وصار يتصح بنصحته ويسير على هواه .

وأصل هذه المؤامرة هو بلا شك الخديو اسماعيل . وأنا أعرف هذا من جملة مصادر أحدها إبراهيم بك المولى سكرتيره . فان اسماعيل كان وهو في نابولي يدبر حركة عصابته في القاهرة وكان يرسل بواسطة هذه العصابة نصائحه الى ابنه . وكان وكيله رجلاً يدعى راتب باشا الذي كنت قد سمعت عنه في الحريف الماضي بأنه عدو الوطنيين الازرق . وكان هو واسطة المؤامرة . وكان التدبير ينطوي على ايجاد حركة رجعية بين الضباط الشراكية في الجيش لمقاومة الفلاحين . فغرابي وسائر الضباط الفلاحين يحكم عليهم بالاعدام . فيؤدي هذا الحكم الى ايجاد حركة أخرى بين الضباط الفلاحين وبحصل التصادم فإذا جرى كل ذلك وأدى الى خلط هرج ومرج ووجد اسماعيل ثغرة يدخل منها الى مصر ويمود على عرشه . ولقد كنت أنا مقتنعا تمام الاقتناع بأنه لا أمل لاسماعيل في تحقيق هذا المشروع ولكن القارى . يذكر أن ريفرز ويلسون كان يعتقد امكانه بل هو صار يفكر في وجوبه باعتباره شيئاً مرغوباً فيه للتخلص من ضعف توفيق الذي لم يقدر على حماية المراقبة وكان توفيق متردداً بين سبيلين فلما أن يسير مع الوزارة الدستورية وعراقي

الذى صار الآن بفار منه أشد الغيرة واما أن ينضم إلى الرجعيين الاتراك ولو كان في هذا امكس رحوع والده . وكل شريف وماليت يشتغلان معاً وصل منزل شريف مركزاً للدهائن التي كان يوجيها اليها كوفن لاسقاط الوزارة . ولست أقول ان كوفن أو ماليت أو شريفاً نفسه كانوا يعرفون المؤامرة ولكن كان من المعروف المشهور أنهم كانوا يرمون إلى وجود أى حزب برى إلى قلب الوزارة وكان هذا مما زاد ثقة المتآمرين . ومع ذلك قد وصل خبر المؤامرة إلى عرابي قبل ما يتحقق . فقد حاول المتآمرون أن يقتلوا عد المال بك قبض عليهم في الحال وحبسوا . والفارسي يجد في الخطاب التالي الذي أرسله إلى الشيخ محمد عبده في ٢٥ ابريل تفاصيل هذه المؤامرة وأخباراً أخرى مفيدة :

« أما عن ترقية الموظفين التي تلغظ فيها الصحف الأوروبية فاسمحوا لي بأن أوضح الحقائق . فأقول أولاً أن هذه التريقات لم تعمل ما . على أمر عرابي باشا وحده ولم تكن بمثابة الرشوة لضباط لا كساب عظمهم نحو عرابي . كلا . فالواقع أن هذه التريقات عملت بناء على القانون الحربي الجديد الذي يأمر بإحالة الضباط الذين يلقون سنامعية أو يمرضون ويصابون بعاة على المعاش . وقد نفذ هذا القانون في عهد شريف باشا وأحيل على المعاش ٥٥٨ ضابط . ثم أرسل ٩٦ ضابطاً إلى حدود الحبشة وزيلع وأما كن أخرى . بينما قد أخرج من الجيش نحو مائة ضابط توظفوا في الوظائف المدنية . معدد جميع هؤلاء ٧٥٤ ضابطاً . فكان اذن من الطبيعي أن تحصل تريقات للموظفين الخالية . ولا يزال في الجيش خمسون وظيفة قد حفظت للحزبي المدعومة الحرية .

« والآن أريد أن ازيل من العقول هذا الوهم السائد في ادعاء البعض أن عرابي أو الحزب الحربي أو الحزب الوطني آفة في يد الاتراك . فان كل مصري سواء أكل من العلماء أو من الفلاحين أو الصناع أو التجار أو الجنود أو الموظفين أو السياسيين أو غير السياسيين يكره الاتراك ويقت ذكراهم . ولا يستطيع مصري ان يفكر في زول الاتراك في بلادنا بدون ان يشعر بعاطفة قوية تدفعه إلى امتشاق سيفه والمجرم به على هذا المعتدى .

ان الأتراك ظلة وقد تركوا في بلادنا من آثار السوء، ما لا يزال قلوبنا تضرب منه ضربان الحرج . فلنا نريد رحمتهم ولنا نريد ان نعود الى معرفتهم . وكفى الأتراك ما لهم من حقوق المراميات . صلبهم أن يقفوا عند هذا الحد ولا يتعدوه . ولكنا إذا علمنا بأنهم يحاولون دخول بلادنا فاما تلقى هذا الخبر بشيء لا يخلو من الترحيب . ولقد شعرنا نحن شيء . من هذه النية عند الأتراك ولكن هذا الشعور سبب استعدادنا . فاما ستغنم هذه الفرصة لكي تحقق استقلالنا التام . هذا وساسة البلاد وقادتها يترصدون لحركات الأتراك في مصر وسيففونها إذا رأوا أنها قد عدت طورها . ولست أنكر ان في مصر أتراكا وشراكة يدفعون عن الباب العالي ولكنهم قليلون في جانب اولئك الذين يحبون بلادهم

« هذا وبخصوص المؤامرة التركية لاغتيل عرائس أحببكم ايها ليست ذات خطر فان الحديو اسماعيل قد مصت عليه مدة طويلة وهو يصم الاقدام لكي يدمر حكومتنا وهو يعتقد ان هذا العمل يرجعه الى مصر . ولكن الله القدير قد مدد آماله في الهواء . لان كل مصري يدرك ان رجوع اسماعيل لا يعنى سوى خراب مصر . فهذا الفرعون قد أرسل الى مصر أحد الدفنين وهو راتب باشا الذي حصل علي إذن بدخوله مصر بوساطة سرية في عهد شريف حيث اتصل بأخيه محمود ابندي طلعت البيكباشي ثم استخدم ايضاً يوسف بك نجاشي ومحمود بك فؤاد من اخوت خسرو باشا وعثمان باشا وفقى « وكل من هؤلاء . شراكة » وهؤلاء أخذوا في نشر دعوتهم وهي قتل الوزراء الحاليين ثم قتل كبار الضباط في الجيش . ولكن هذا الجزء . الاخير قد اضطروا الي تأجيله حتى يجدوا من الاعايل ما يبررون بها عمله . ثم حدث ان تسعة من الضباط «شراكة» رفضوا الذهاب الى السودان . فأخذت عصابة راتب باشا في إنغراء هؤلاء الضباط واقترحت عليهم أن يرفضوا الذهاب الا بترقية

« وكانت الوزارة تعرف منذ زمن شيئاً عن هذه الحركات . فهد مجي . راتب باشا الى مصر كلن محمود سامي رئيس الوزراء . الآن ودربراً للحرية يطلب من شريف باشا أن يبعه الى خارج القطر . وانكى شريف على الرعم من نجدبر محمود سامي

رفض أن يأمر بعبه وسب ذلك أن رانا روج اسة شريف باشا والعض يطن ان
الاثنين متواطئان علي وجوع استماعيل

« وحدث ان عصانة راتب دعت ضابطاً شركياً يدعى راشد أنور افدى
لكي ينعم فاني ان تكون له بهم أبة علاقة . فلما ترك المتأمرين قام
نواً وذهب إلى عرابي وكشف له المؤامرة . فألقى القبض عليهم وقدموا
للمحاكمة العسكرية

« وقد أحدثت هذه الحادثة قليلا من التهج بين العامة . والجميع يعرفون
ان حياة عرابي مثل حياة أى انسان آخر . وليس بين الناس أحد معها كان عطيا
يستطيع أن يجذب اليه قلوب الجميع دون أن يكون بينهم من يريده سوء .
ولكننا جميعاً نصحك اذا قيل لنا ان المحلثرا على وشك القوضي لان أحد المجابين
قد حاول قتل الملكة

« ان عدد الشراكسة في الجيش لا يزيد عن ٨١ صايطا ولا يمكن عاقلا أن
يتصور أن مثل هذا العدد قادر على قلب الحكومة

« أما عن تجارة الرقيق فنبلغكم بأن الوزارة الراهنة تعمل بحمد في الفاشا .
والدين الاسلامي لا يعارض في هذا الالاء بل بالعكس رى أن أوامر الدين نعم
اتخاذ الرقيق الا من الكفار الذين يقاثلون المسلمين . فالعبد هو في الواقع أمير قد
أخذ في حرب مشروعة أو هو أحد أفراد أمة ليست على صفاء في علاقاتها بأمراء
المسلمين وليست بينها وبينهم معاهدات أو محالفات تحميها . رد على ذلك ان
الكافر الذي ينتمي الى أمة متحالفة مع أمير مسلم لا يمكن أن يؤخذ في الرق . ومن
هذا يتبين لكم ان الدين الاسلامي لا يعارض في الناء الرقيق ، كما هو الحادث في
هذه الايام بل هو لا يوافق علي استمراره . وأولئك العلماء الذين لا يوافقون علي
هذا الرأي في انجلترا او غيرها عليهم أن تأتوا الينا ويعلموا نحن شيوع الازهر
أصول إيماننا فان مثل هذا العمل يصير من المناظر المدهشة . فان العالم الاسلامي
بأجمعه سيصدق ويعتقد لسانه عند ما يعلم أن مسيحياً قد أخذ علي نفسه تعليم علمه
أكبر حامية اسلامية أصول ديانتهم وكيفية شرح القرآن

« هذا مستند فتوي من شيخ الاسلام اعلناً بأن العالم الرقيق يوافق روح القرآن والسنة .

« وستخند الحكومة المصرية في ازالة جميع العوائق في سبيل هذا الاعلاء .
ولي يهدأ بالما حتى تمحي هذه التحارة من جميع الاراضي المصرية »
« محمد عبده »

وهكذا فشلت مؤامرة ٢٥ ابريل ولم تكن لتستتبع أى ارتباطا كالت أخرى لولا تدخل مالت . فدلنا من أن يصير الوزارة التي كانت هدف هذه المؤامرة مال بكل عواطفه نحو المتأمرين . فقد حوكم هؤلاء المتأمرين أمام محكمة عسكرية وحكم عليهم بالنفي الى البحر الابيض . وليس هذا بالعقوبة الهائلة وكثيراً ما حكم بمنالها في عهد المراقبة الثانية . فكتب مالت خطابات الى لندن يقول فيها ان العقوبة لا تقل عن الحكم بالاعدام . وأحد مكاتب التيمس ينشر قصة مقتراة في جريدته مؤداها ان عراي ذهب الى السجن وعذب أمامه المتهمون . وليس لهذه القصة أساس مطلقاً ومع ذلك فقد ألبسها مالت رسالته شيئاً من الوجاهة لانه ذكر ان هذه القصة من الاشاعات الخارية على الالسن وأنه سمع صراح من السجن في الليل . والحقيقة ان مالت جعل هذه القصة من الاعاليل التي تقدم بها للتخديو للسعاية بين وبين الوزارة لكي ينقل قضية المؤامرة من يدهم الى يد التخديو بنية تخفيف الحكم الى بني سيط مع أن هذا العمل طبقاً لقواعد الدستور الجديد لم يكن من حقوق التخديو

ولنعد الآن الي مذكراتي فأقول اني اجدد في ٢٨ ابريل اني ذهبت الى منزل رئيس الوزارة وأنا في أشد الحلق لانه لم يعمل شيء الى هذا الوقت لمصلحة مصر . ولكن هاملتون نصح بالصبر وقال لي ان هالك فكرة ترمي الى ارسال بعثة لمصر تدرس احوالها الآن . وفي اليوم التالي أيضاً هنائي باتون « وقال لي أن هالك ازمة شديدة عن مصر وأن من رأى الباب العالي ارسال الجيوش وخلع توفيق وتولية الامبراطور مكانه واعدام عراي . ولكن الحكومة الانجليزية والحكومة الفرنسية قد معنا ذلك وان عراي سيعاون وسترسل البعثة » وفي يوم الثلاثاء سيكون موعد اللقاء . تصريح من الحكومة في مجلس اللوردات خاص بمسألة مصر . وحبر نحلل انساب

العالي هو بلا شك أزمة قد أوجدها رتشيلد بمعاونه مبارك . فقد تورت العلاقات بين الاستانة وادرت الوطني في مصر في الاسابيع الاخيرة وذلك لطروف عديدة يليق في تفصيلها هنا الآن مع اثبات المكتبات القريبة التي دارت بين السلطان وعراقي وهذه المكتبات عطية الالهية لانها تثبت سلطة عراقي ونفوذه وعلو ردها على سلطة سائر الوزراء.

والقاري، يذكر انه عند ما زارت بعثة السلطان مصر في خريف سنة ١٨٨١ لقي أحمد باشا راتب (وهو غير راتب باشا وكيل اسمايل) ياور السلطان عراقي في القطار عند سفره الى السويس لكي يذهب منها الى مكة . وقد تبادلوا الافكار والآراء في هذه السهرة وتصادقا، وان ياور السلطان هذا قد وعد بان يذكر عراقي بالخير لدى السلطان ويبين له انه مسلم مخلص يدين بالولاة للحليفة. وجرت مكاتبات بينهما على أثر ذلك وعدى من هذه المكتبات أصل الوثيقتين التاليتين. وقد وقعتا في يدي في وقت محاكمة عراقي وقد كتب هذان الخطان في الاسابيع الثلاثة التي تلت ودارة محمود سامي في فبراير سنة ١٨٨٢ وكان عراقي وزير الحرية في هذه الحكومة . والخطاب الاول من أحمد راتب والثاني من الشيخ محمد ظافر وهو من كبار رجال الدين في الاستانة وكل في ذلك الوقت مكلما بملاحظة مكاتبات السلطان السرية . وقد كتب الخطان بناء على أمر السلطان الشخصي !

« الى وزير الحرية المصرية احمد عراقي باشا

« لقد قصصت على جلالة السلطان الحديث الذي جرى بيننا في القطار بين محطة الزقاريق والمهدية بعد رجوعي الى الاستانة فامرني بان ابلغكم نحياته الشاهانية. وقصصت على جلالاته ما لقيته من حسن رعايتكم لي ولطف آدابكم في القاهرة وقد سر جلالاته غاية السرور لذلك فتضاعف بذلك رضاه عليكم . وقد سبق ان بعض الناس أوهموه ولا أدري بأي كيفية بانكم لا تسبرون على الحق حتى جعلوه يسيء لطن بكم . اما الآن وقد عرصت عليه حقيقة الحال فاني أقسم لكم ان جلالاته قد أسف أشد الاسف لما سبق ان اعتقده خطأ بكم . واثباتا لذلك أمرني ان اكتب لكم هذا الخطاب وان أخبركم بما يأتي :

« لا بهم جلالتهم شخص الخديو . واما على حاكم مصر أن يكون افكاره ومبادئه وسلوكه موجه نحو المحافظة على مستقبل مصر وسيادة الخليفة وعليه أن يحافظ على ديانة البلاد وحقوقها

» وهذه الواجبات المذكورة يجب على الخالس على عرش مصر . أن يؤديها وقد عهد اسماعيل باشا ومن سبقه من الولاة الى ارشاد على باشا وفؤاد باشا ومدحت باشا وسائر من يمثلونهم لدى الباب العالي من الخوة فأخفوا الحقائق ، وأحد ولاية مصر في البنى والعلم وأثقلوا كواهل المصريين بما طلبوه منهم ثم هم فصلوا عن ذلك قد اقترضوا أموالا جسيمة ووضعوا البلاد تحت يديهم ثقل وان حالة المصريين الآن لما تدعو الى الاسف والتحسر ولكن المسألة في غاية الدقة وهي تدعو الى العلاج السريع الواقي . فذلك يجب عليكم قبل كل شيء ان تتقوا كل ما من شأنه أن يخل على البلاد اندخل الاجنبى والأتحدوا عن بحجة الصواب والحق وألا تسعوا أقوال الخوة ولكن عليكم أن تحذروا جميع الوسائل لتفادي النامة لمع الاحاطب من احداث الفتنة هذا هو الكبر ما يرحوه السلطان

« وبما اننا مستكاتب نحن الانبي في المستقبل يجب عليك ان تحتاط حتى لاتقع خطايانا في أيدي غريبة . وأسهل طريقة لذلك ان تسلم خطايانا لهذا الشخص الذى يحمل اليك هذا الخطاب وخطاب الشيخ محمد طاهر

« هذا وأزيد على ما تقدم أنه يجب عليك ان ترسل الى اعتبار حلالة السلطان خفية دون ان يعلم أحد ضابطا من الواقفين على الحقائق في مصر ومن ثقب بهم لكي يخبر جلالتهم عن حقائق الاحوال بتفاصيلها

« وأرجوك ان ترسل الرد عن يد حامل هذا الخطاب احمد راتب

« ٤ ربيع الثاني — ٢٢ فبراير ١٨٨٢ »
ياور السلطان

•••

الى صاحب السعادة وزير الحرية المصرية

« لقد قدمت كلا خطايكم الى جلالة السلطان وقد علم من مضمونهما عواطفكم الوطنية ويقظتكم وبخاصة ما ذكرتموه من السعى في رعاية مصالح حلالة وقد طلب

الى حالاته لهذا السبب ان أعر لكم عن مروره وان اكتب اليكم ما يلي :

بما ان المحافظة على سلامة الخلافة واجب على كل رجل ذي شرف يحس على المصريين ان يعملوا لتوثيق عرى الاتحاد بين مصر والدولة وان يمنعوا السبل التي تؤدي الى خروج بلادهم من الدولة الى ايدى الاحزاب الطامعين فيها كما حصل في تونس . وحالاته بضع ثقته في شخصك وبطلان البك أن تستعمل كل نفوذك لمنع وقوع هذا وعليك ان تحترس والا تفعل عن هذه القطة وان لا تهمل في اتخاذ جميع الاحتياطات التي يتطلبها مآسا المآصر واصفاً نصب عيذك في كل وقت الدفاع عن دينك وبلادك . وعليك أيضاً ان تحافظ على الثقة التي أحررها عدنا وأن ترعى الروابط التي تربطك بنا

« ان مصر ذات أهمية كبرى لسكان فرنسا واحتلتها وبخاصة لاحتلتها . وقد حدثت لها دسائس من رجال هائيل الدولتين برحونهما لتحقيق أغراضهم اللبعية السائلة وقد رأوا أن يمدوا شاك هذه الدسائس الى مصر . لحالاته رعب اليكم أن تتيقظوا وتحذروا هؤلاء الناس . هذا ويرى من تلعنات الخديو توفيق باشا أحد أفراد هذا الحزب انه صعب يتطوح وراء أهوائه . وبلاحظ أيضاً ان تلعناته متناقضة . وزيادة على ذلك تخبرك ان على نظامي باشا وعلى فؤاد بك قد حلتا حالاته بشأنك وامتدحاك لديه . وقد ذكر احمد راتب باشا لحالاته الحديث التي جرى بينها في القطار بين الزقازيق والمهدي وحالاته يشق كثيراً بأحمد باشا ولقد المناسبة قد أمرني أن أخبرك بثقته فيك وأن أكرر عليك ضرورة الابتعاد عن كل ما من شأنه ان يكون سبباً في تدخل الاحزاب بأي وجه .

« اما الأوامر التي سيتلقاها راتب باشا في هذا الصدد فترسل اليك على حدة وقد كتب هذا الخطاب والخطاب المرسل من احمد راتب باشا أحد سكرتيرة حالاته ووضع كل منا ختمه عليه كما وضع ايضاً ختم على كل طرف

« ثم أخبرك بصمة مصرية خاصة ان جلالة السلطان لا يثق باسمجبل او محليم او توفيق ولكن الشخص الذي يفكر في مستقبل مصر ودية والعلاقات التي تربطها بالخلافة والذي يحترم حالاته ويراعي الفرمانات والذي يؤكد استقلاله في الاسطة

وعبرها والذي لا يدع الرشي للموظفين . والذي لا يحرف قيد شعرة عن واجبه
وأي يعرف أساليب الدسائس الأوروپية ويحاط لها ويحاط على الألام شرورها
مثل هذا الرجل يسر جلالته ويحمد لديه قولاً

« ثم أرحوك الا تؤاخذني اذا كنت قد احتضرت القول في هذا الخطاب من
أحمد راتب باشا قد وصل الي هامد ثلاثة أيام وأخير جلاك عن ولائكم حتي
وثق بكم جلالته تمام الثقة . وهذه التعليمات المذكورة هام قد تسلمتها امس فقط .
وابي آمل أن أرسل لك في بريد الاسوع الآتي خطانا أكبر تمصلا من هذا
وعلى كل حال يجب ان نحدد لثلايق أحد الخطابات في أيد عربية وليكن لك
رسول خاص . ويحسن أن ترسل الرد بواسطة حامل هذا الخطاب

خادمك — محمد طاهر

« ٤ ربيع الثاني

٢٢ فبراير سنة ١٨٨٢ »

هذان الخطبان عطيا الأهمية التاريخية واداء قدر لي أن أطبع مذكراتي في
أصعب صورهما القنوعرافية اراء . ترجمتها . فها يوصحان ماحدث بعد ذلك في يونيه
وقت بعثة الدراويش . واذا كل عراقي قد انحد لعمه في ذلك الوقت وفي مدة
الحرب سلطة المستبد المستأثر فانه انما فعل ذلك وعنده من الوجهة الشرعية ما يبرر
عمله وكذلك عنده من أوامر الخليفة ما يبرر مركزه ايضاً اذ قد مدبه الخليفة للدفاع
عن البلاد وحمايتها من اعتداء الصرانية .

وكان الذي دعا الى تفسير هذه الحطة موقف هاريجتون فانه اعتبر مسألة
قتل أخيه كأنها ظلامة شخصية له يجب ان تنأر ومن ذلك الوقت صار أعدي أعداء
الوطنية الاردنية

وهذه الخطابات توضح ايضاً السبب في كراهية السلطان عبد الحميد لان يعلن
في شهر أغسطس أن عراقي ثائر خارج على الدولة كاتين ايضاً سحافة هذه التهمة
ليتم قدمت ضده في وقت المماكة

ومع ذلك يجب الا يعتقد القاري . ان عراقي قد رضى بان يكون آلة في يدا السلطان
في أي شيء . مما له علاقة باستقلال البلاد الاداري . فقد كان موقفه من هذه الناحية

موقف ثابت فقد كان يكره الأتراك ومن الحق أن كالب يقاوم بقوة السلاح أي محاولة مهم في دخول القطر المصري . وحطاب الشيخ محمد عند بشهد بذلك . وهو يتفق وما قاله عراي منه لي . فكل من كره في بلاط السلطان مقلدا غير ثابت علي حال واحدة لهذا السب فقد كان له صديقان في الاستانة هما أحمد راتب ومحمد ظافر ولكن كان له مجانبهما أعداء عديدون . وكان أحمد هؤلاء ثابت باشا السكرتير التركي للحديوي فانه لم يكن يهمل في أخبار السلطان كل ما يوغر صدره على عراي . ولا نداه عند ما حدثت المؤامرة الشريكية وقبض على عدد من وجهاء الأتراك وكان بينهم عثمان باشا رفيق اغتاط السلطان واستاء كثيرا . ولكن بظهر ان هذا الاسيا لم يدوم طويلا لانه بعد ما صارت المسألة تنحصر في مقاومة أوروبا عاد عراي فحسب رضى السلطان وبال خطوته . ولم يكن عند السلطان أى تردد في أنهما يجب أن يختص بهطه . توفيق العونة فرنسا وانجلترا أو عراي الذى ينود الدول المسيحية عن بلاد اسلامية

وأولى انه مما يؤسف له ان رغبة السلطان في خلع الحديوي وتولية حليم مكانه لم تعد لانه وان لم يكن لعراي أى صلة بحزب حليم في مصر فانه لم يكن يعارض في توليته مادام قد رأى الحديوي توفيق قد أتى به في احضان السياسة الانجليزية . وكانت هذه التولية تقابل بالاستحسان والموافقة عند عدد عظيم من سرات مصر الذين كانوا يعرفون ان حليم أكثر ذكاء وأسى آراء في اسباسة من الحديوي . ولو تدخل السلطان على هذا الوجه وبهذا القصد لعد تدخله سديا ولما كان في حاجة الى تدخل حربي . وربما كان هذا على وجه العموم أمثل حل للمسألة . ولكن فرنسا كانت ترغب أشد الرغبة في تدخل السلطان وكان ممثلو حكومتها في القاهرة يكثر من التعهدات لتوفيق . وكانت نهاية هذه المساعي أى فكرة ارسال بعثة انجليزية وهو ما كست اقترحه ايا وفكرة تدخل السلطان ان اقترح مسيو فريسييه ارسال بعثة مؤامه من قائد فرنسي وآخر انجليزي وآخر تركي « لاعادة النظام في الجيش المصري »

وكان اللورد ليونر هو الذى أشار على مسيو فريسييه بهذا الاقتراح ولكن

هذا القورد عيّل الى الاخذ بآراء، مالت . لان هذا الاخير كان سكرتيره الخصوصي
مدة طويلة فكانت الثقة فيه لهذا السبب كبيرة

ولم يعمل شيئاً مما كنت قد وعدت به من الوراثة الانجليزية ولاتلك الكلمات
قليلة التي وعدت غلادستون أن يفوه بها في البرلمان . وحدث لسوء الصدق أن الامة
التي كانت حادثة في مصر قد اتفق وقوعها في وقت الامة الارلندية . فقد جرب
فورستر في أرنلدا نطائماً من الحكم يحصر في التهديد والضغط . فقد قبض على
اعضاء من البرلمان وحبسوا دون أن يحاكموا ونمادى رجال الولىس في اتخاذ أساليب
صارمة لم تؤد الى تهدئة البلاد . وكان غلادستون قد أقنع وزارته بضرورة تغيير
هذه الخطة بحطة المصالحة والمسالمة . وحرى اتفاق سري مع بارنل رعيم الارلنديين
وهو في السجن ومع صديقه ديون وهذا الاتفاق يعرف بمعاهدة كلمنهام أفرح
بمقتضاها عهدها . وكانت قبيحة ذلك أن استقال فورستر في ٢ مايو وحل على الحكومة
لصعها في مجلس العموم . وكان هذا اليوم هو أي ٢ مايو قد عين لان يكون اليوم
لذي تموه فيه الحكومة بتصريح عن مصر وكان مقترح هذا التصريح القورد دلاوار
وقد وجدت في مذكراتي مايلي :

٢ مايو — تقيت القورد دلاوار في مجلس اللوردة . فأخذي الى الداخل وكنت
أتظر ان أسمع شيئاً عن التصريح الخاص بمصر . ولكني بدلا من ذلك سمعت
تصريح اللورد حرافيل عن استقالة فورستر من ولاية أرنلدا . وحدث على أثر ذلك
هياج عظيم في المجلس وكان يبدو على لور جرانفيل خيرة وارنباك . فقد وقفه لورد
سالبري مرة أو مرتين وسمعت روزبري يقول نضع كلمات بيته مؤثرة مثلثة وقاراً .
أما المسائل المصرية فقد أوججت باعتبارها غير مهمة .

فقد أنشأنا أرنلدا جميع المسائل المصرية وبلغت هذه الحال حداً أن ذهبت
مرة الى مورلي في السادس من الشهر لكي يشر لي في جريدته خطاباً جاءني من
الشيخ محمد عبده يوضح فيه المؤامرة الشركية فرفض مورلي نشر الخطاب معتزلاً
لي بطوله وقال لي « ليس هنا من يهتم بمصر الآن » .

وكان هذا أول فصول المناقشة القادمة . ففي السابع من الشهر اغتالت عصاة

أرلندية في دبلين كلفديش شقيق اللورد هارموتون وأحد أصدقاء غلادستون
الحميمين وكان قد عيى والياً على أرلندا بدلاً من فورستر وفقاً لخطة المسألة الجديدة
وقتل معه أيضاً مستر بورك. ولم يكن لهذه العصاة علاقة بحرب بارنل ولكن الجمهور
لم يميز بين الاثنين وكانت النتيجة أن الأمة قامت بصوت واحد تطلب اتخاذ تدابير
شديدة ضد الثورة في أرلندا. وصار غلادستون يقاوم هذا التيار وعرض على ذلك
أحد الأحرار الذين كانوا مثل مستر تشبرلن على ولا. مع حزب بارنل أن يعين
والياً على أرلندا ويستمر في اتخاذ خطة المسألة. ولكن ذلك لم يرقه هذا المنصب
المخوف بالخطر ورفضه. وبات من الصعب أن يوجد من يملأ هذا المنصب

فكان أمام غلادستون طريقتان : إما الاستقالة وإما النزول عن سياسته. وقد
وجد الأكثرية في الوزارة تحالفه فاختار الطريق الثاني وزل عن سياسته. فأرسل
إلى دبلين عاصمة أرلندا ترصليان وانفقدت النيات على اتخاذ خطة حرم وشدة في
أرلندا. وحدث مثل ذلك في مصر. فان غلادستون كان إلى هذا الوقت باعتباره
صاحب الصوت الأعلى في الوزارة يتمتع بشخصه أى تدخل حربي على الرغم من
خطة المسألة والمخاصمة التي ألزمتها وزارة الخارجية. أما الآن فقد وجد أكثرية
الوزارة قد تبحث عنه فألقى بحصر إلى الثواب. فكان لأن حال زملائه في الوزارة
يقول : انظر ماذا فعلت سياسة المسألة في أرلندا وما جنى منها »

وإذا كان ما قيل لي صحيحاً فإن القرار بشأن سياسة الحزم والشدة في أرلندا
والقرار بشأن التدخل في مصر قد اتخذ في جلسة واحدة في الأسبوع التالي من
شهر مايو. وإليك بعض محتارات من مذكراتي عن تلك الأيام.

« ٨ مايو — كانت نتيجة الأحرار السيئة عن مصر التي أرسلت « بلاغاً
أخيراً » إلى غلادستون أرجوه فيه أن يخلصني من الحيرة التي وقعت فيها بسبب
صمت الحكومة. فقد قلت أنني سأقول الحق إذا لم يفك اللورد غرافيل. وأناس
في كل مكان في هياج عن أرلندا فقد جاءت أخبار أمس تبني باغتيال اللورد
كلفديش ومستر بورك وشعر الناس لأول وهلة كأن الحكومة ستوشك أن
تستقيل ولكن بارنل قد كتب اليوم بكر أي صلة أو علاقة بهذه الجريمة وسيقوى

هذا الانكل مركز غلادستون . وفي يوم الجمعة كنت بمجلس العموم في إحدى أروقته وكان الى جايي آرثر رابدين رئيس المجلس فشار بيده الى «الثلاثة الارلنديين المتأمرين» وهم يتحدثون فتأملت باربل . وهو رجل ملوول حسن الوجه يبلغ عمره نحو اثنين وثلاثين سنة . وليس في سمته ما يدل على أنه من القلة السماحين . اما ديون فطويل القامة شاحب جداً أسمر اللون تقريباً . ولو ألبسه الانسان عباءة وأمسكه خنجرأ لصار مثل جاي فوكس . وكان مطرها بشير عن سائر من حولها كما يتميز الرجل المهذب من بين أوباش يحيطون به .

« ١٠ مايو — جاءت احبار سينة من مصر . فان الحدبورقص ان يوقع على احكم في قضية المؤامرة الشريكية فطلب عرائ احكام مجلس النواب . وهم الآن يتحدثون عن خلم توفيق . وقد ذهبت الى معزل رئيس الوزارة ورأيت حودلي فألححت بضرورة حصولي على جواب من غلادستون على اسئلتى الماضية . فقال ان غلادستون غير موحود لانه ذهب لتشييع جارة اللورد كاهديش واتفقت مع جودلي على أن أعود في اليوم التالي لكي أحصل على اجابة . ورأى حودلي شدة قننى فوعدني هذه الاجابة قائلاً ان الوقت الحاضر فرصة سينة » .

هذا ما كنته في مذكرتى واني أندكر الآن أن حودلي كان يعطى على أشد العطف في هذه المسألة . فقد كنت متأراً غاية التأثر . فقد تراءى لى عدتد انه من الحزن أن يتوقف حظ امة بأسرها واحسن الآمال لاصلاح ديانة وكنائهما — الامة والديانة — ذات مكانة في التاريخ على الحصول على مقابلة رجل مسن والتحدث اليه مقدار نصف ساعة لاني كنت أشعر أنني قادر على إقناعه . ولم أكن أعرف احدا في مجلس الوزراء ولكن لابد ان حودلي كان يعرف كل شيء . واني أعرف انه كان على الدوام يعارض خطة الوزارة الخارجية نحو مصر وأطلى أنه شعر بمحابة مسنر غلادستون في اشتراكه في الخطة عندما وقف يدافع عن التدخل وإعلان الحرب على حرية الشرقيين لمصلحة المالىين . ولم يمض زمن طويل على تغيير خطة غلادستون حتى تركه جودلي وعين في وظيفة أخرى وكنت أشعر على الدوام أنه فعل ذلك احتجاجاً على مسنر غلادستون . وإليك المذكرات .

« ١٢ مايو - لقد صرح فريسيه بأن الأتراك لن يسمح لهم بالتدخل . وقد ذهبت الى منزل هوارد الذي وافق على ما رسمته وهو أن أنشر جميع الحقائق وعدى جميعها . وسنشرها التيمس . ويظهر أن روتشيلد قد اشتعل بمجد لكي يجعل الحكومة الفرنسية توافق على عزل الحديو ووضع الامبر حليم على عرش مصر . هذا وقد أمر أحد الأساطيل بأن يكون على قدم الاستعداد بعد خمسة عشر يوماً في بليموث . . . وقد قابلت ادى هاملتون وهو يعدن بالاجابة هذه القليلة . هذا وقد أحدث رفض ذلك لولاية ايرلندا غضب هوارد . وقال عنه : « انه سيفقد مكانته الاجتماعية بهذا العمل » فهم ينظرون الى ذلك في امتاعه عن قبول هذا المنصب كأنه قد أحجم عن خطر ولكن ربما كان الصحيح ان ذلك أثر البقاء في وزارة الخارجية ليشرف منها على جميع مسائل أوروبا ولو أنه قفل هذا المنصب لكان في قبوله خير لمصر » .

« ١٣ مايو - جاء جواب غلادستون عن أسكتلي وهو لا يستطيع إعطاء التعليقات ولكن القود جرافيل سيخطب يوم الاثنين وهو يرجو أن أنتظر الى هذا اليوم وكل ما يعد به أن خطة الاحرار ستكون طبق مذاهب الاحرار . وهذا ما يرضي . وقد كتبت الي غلادستون أقترح أن أذهب وأتوسط لفص الخلاف بين الحديو وعراي وارسلت التفراف التالي الى عراي . « أوجوك الصبر . ولو فعل شيئاً طائشاً أو بدون رأى البرلمان . وأجل ما تنوي أن تعمله مع الحديو وأنا أشتغل بمجد لمصلحتك ولكنني في حاجة الى الوقت . ان الخطر حقيقي » وجاءني خطاب في الساعة الخامسة من غلادستون يقول فيه أنه يظن ان خطابي الاخير قد كذب قبل أن تصل الاخبار الاخيرة من مصر .

ولا أدري ماذا يقصد بهذا القول لانه ليس في جرائد المساء شئ من الاخبار عن مصر وفي المساء جاء رد جوابي : « ١٢ مايو - أشكر لك نصائحك وقد عرض الخلاف على النواب المهدوء شامل . ليس هناك أقل خوف على الاوربيين . احمد عراي » وكنت في ذلك الوقت في كرايت وكل معي فان يينجنس القاضى المولدى المعروف وأحد المؤلفين وهو مؤلف كتاب « قاض محتلط » وهو من أحسن

الكتب التي ألقت عن مصر في عهد المراقبة الثنائية . وقد وجدت فيه رجلا شديد
الحلف على الوطنيين المصريين .

واليوم التالى أي في ١٥ منه كان اليوم المعين لكي تنفوه فيه الحكومة بتصريح
عن مصر في البرلمان . وذهبت الى لندن وكلتي رجاء عن الحالة وقد تقويت بالتلغراف
تهدى أرسله الى الشيخ محمد عبده . ولكن خيبة الامل كانت قد قدرت لى . فقد
حدثت مناقشة في مجلس الأوردات عن مصر ولم يفه الأورد جرانفيل باكتر من
التصريح بما يشبه الوعيد باعادة مذكرة عاميتا ويقول له الذي أعتقد انه لم يكن صادقا
فيه ان المجلس وجميع الامة في صف الخديو ضد الوزارة . فهذه اذن هي « خطة
الاحرار » التي وعدني بها هاملتون . فشعرت عندئذ بانى غير مقيد بهذا الصمت
الذى التزمته نحو غلادستون الذى ظهر لى كأنه قد لعب بى وحذعنى . فتركت
مجلس الأوردة عندما انتهى اللورد جرانفيل من القاء خطبته وأنا فى أشد الفيظ
وعزوت من ذلك الوقت على الأرمي الحكومة . وأخذت افكر فى المسألة طول
الليل لكي أقرر لنصي خطة وأخبر أقر رآي على شيء واحد وهو مقاومة الدساتر
التي كانت تعمل والعمل لاقتصادها .

« ١٤ مايو - قرأت فى الإيزدفر أن سلطانا باشا قد ذهب أمس الى الخديو
لكي يمضي الصلح بين الخديو وبين عرابي . واستنتج من ذلك أن تلغرافى قد
أرسل فى حيه ووقته للملائم . وتقول الصحف أنه هو والمجلس قد انضيا الى الخديو
ضد عرابي . ولكنى لن أصدق هذا حتى تصل الى الاخبار . والارجح أن
سلطانا باشا بعد غضب لاجتماع المجلس اجتماعا غير قانونى وفي وقت غير ملائم . ولا
بد أن الجيش لتفوزه الكبير فى الوزارة قد أوجد لنفسه اعداء . فربما كانت هناك
غيرة ولكنى لن أصدق أكثر من ذلك . وكل ذلك طبعاً هو من عمل كوفلن
وماليت وقد تشجع الشر كى لامل تدخل الاتراك وقد أمرت بعض البوارج بالانحار
الى الاسكندرية وسيكون من تأثير هذا العمل اتحاد الجميع ضد الاورويين

« وفى المساء جاء تلغراف من الشيخ محمد عبده لا أكاد أصفه يقول فيه .
« ليس هناك خلاف بين سلطان باشا والبرلمان والذنب (يعنى الخديو الخلع)

اسماعيل) الذى ذكرت لكم اعتقادى اشتراكه في المؤامرة الشركسية قد ثبت الآن انه مشترك فيها . وسائل الخلاف المهمة قد عرضت على الاعضاء . وليس هناك ما يحشى منه على الامن العام « وحقيقة هذه الامة التى حدثت في الصف الاول من شهر مايو في القاهرة كما علمت بعد ذلك كانت كما يلي :

وحد الخديو نفسه في الثاني من هذا الشهر أمام الخاضع عرابي وزير الحرية مضطراً الى التوقيع على أحكام التي علي المتآمرين الشرر . وكان من بين هؤلاء المتآمرين أصدقاء لهم عليه دالة الصداقة . فاستدعى مالىت لكي يستشيرهم فصيح له بأن يمتنع عن التوقيع ووعده بمطاهرة السياسة الانجليزية له . ويجب أن يعتبر هذا الوقت أول فرصة عقد فيها الخديو نيته علي أن يترامي في أحضان الحكومة الانجليزية ويطلب حمايتها من وزرائه . وكتب مالىت علي أثر ذلك رسالة مهمة طبعته بعد ذلك في الكتب الرق تمدح فيها باخلاق الخديو وعده جديراً بثقة حكومة حلالة الملكة . وبما علي هذا رفض الخديو التوقيع مع أنه ليس له حسب قواعد الدستور حق الامتناع عن التوقيع علي أحكام المحكمة العسكرية

وكان هذا الامتناع الذي عرف وذاع في الحال داعياً الى حقن الوزراء الوطنيين وكان علم الوزراء أنه أت عن فصل أجنبي مما يزيد حقهم . وكتب محمود سامي رئيس الوزراء خطاباً الى أعضاء البرلمان يستدعيهم للحضور الى القاهرة لاعتقاد البرلمان . وكان هذا العمل غير قانوني لان استدعاء البرلمان من اختصاصات الخديو . ثم أن الوقت لم يكن ملائماً لاعتقاد البرلمان من حيث الفصل فاستاء بعض الاعضاء لهذه الدعوة . ومع كل ذلك قد حضر عدد كبير من الاعضاء ولو أنهم لم يجمعوا اجتماعاً رسمياً الا أنهم في اجتماعهم في منزل سلطان باشا قرروا مؤازرة الوزارة . وقرروا أيضاً باكثرية ٤٥ ضد ٣٠ صوتاً انه اذا استمر الخديو علي دسائنه مع القسطنطين الفرنسي والانجليزى لم يكن ثم مناص من محاكته وخلعه . وكان مالىت في هذا الوقت قد تسلم تفرافاً من وزارة الخارجية تفيد فيه حتي خطبه . وكان مالىت قد وُعد من الخديو تردداً فذهب اليه وأخبره بأن الاسطولين الفرنسي والانجليزى قد أمرا بالبحار الى الاسكندرية لحاية الاجانب . فارسل الخديو او

سلطان باشا رئيس المجلس وعرض الموقف عليه وألقى في روعه وصار يلعب على الصرة التي كانت بينه وبين عرابي حتى أمراه بالانضمام اليه والثقة بمعاونة أوروبا بدلا من المغامرة بالحرب . فلما اجتمع أعضاء المجلس اجتمعهم غير الرسمي في المرة التالية صرح سلطان بأنه في جانب الحديو وأنه يعارض خطة الوزارة وانضم اليه ستة من الأعضاء في هذا الرأي . أما القانون فقد ثبتوا على ولائهم للوزارة . وكان هذا هو الوقت الذي تسلم فيه عرابي تلغراف في القاهرة ، يظهر أنه كان له بعض التأثير على سلطان الذي لا بد أنه قد اطلع عليه . ولكن الصحف الانجليزية نشرت في ١٣ منه أن المجلس قد انضم الى الحديو ونشرت في ١٥ منه أن محمود سامي قد استقال . وما يلي مأخوذ من مذكراتي .

وما هو الا أن جاء وقت فتح مكاتب التلغرافات في الصباح حتى أوصلت التلغراف التالية الى القاهرة وذلك في ١٦ مايو :

« الى عرابي باشا وزير الحريسة : قال لورد جرافيل في البرلمان ان سلطانا باشا والنواب قد انضموا الى الحديو ضدك . فاذا كان هذا القول غير صحيح فاطلب الى سلطان باشا أن يرسل الي تكذيباً . واذا اتحدتم فلا تخشوا شيئا ، ألا يمكنكم أن تؤلفوا وزارة يكون سلطان باشا رئيساً لها ؟ وعلى كل حال عليكم بالثبات » وأرسلت أيضاً هنا التلغراف التالية :

« الى سلطان باشا رئيس مجلس النواب : أعتقد أن جميع أولئك الذين يحبون مصر يجب أن يتحدوا . فلا تتشاجر مع عرابي . ان الخطر عظيم » وأرسلت الى كل من بطرس باشا و « أبو يوسف » ومحمد باشا الفلكي هذا التلغراف :

« هل الحزب الوطني مع عرابي الآن ؟ الحكومة الانجليزية تدعي أنه ليس كذلك اذا ذهب اتحادكم ضمنكم أوروبا الي أملاكها »

وأرسلت هذا التلغراف نفسه الى الأستاذ الشيخ محمد عبده والشيخ المهجري وعد الله تديم الخطيب . وجميع هذه التلغرافات كانت موقعة باسمي وكنت أعرف أن في ارسال هذه التلغرافات سأعرض لغضب وزارة الخارجية ان لم يكن لغضب

مستر غلادستون «سه . لانه لم يكن من المقبول أن الوكالة البريطانية في القاهرة ستجلبها لأن تليفارات شركة التلغراف الشرقي كانت تداع في الغالب عد وصولها . ولكني كنت قد عقدت البية على المخاطرة وكل شي وارتياي يحصران فيما اذا كنت قد أوصحت الخطر للتواب . واعتقدت ان عبارة « اذا ذهب اتحادكم ضمتكم اوروما الى املاكها » تؤدي غرضي . وذلك لانه وان لم تكن نية انجلترا او فرنسا في ذلك الوقت ضم مصر الى املاكها فان النهاية كانت نحو هذه النهاية وكانت كلمات كولفن تزن في أدبي . واعتقد أن الحوادث قد برزت اعتقادي . فلما أن دमित سهي ذهبت الي كرايت لاسترح وأتطر مانجي به الايام . فحاء الحواب على تليفاراتي بأسرع مما كنت أعتقد . ففى ذلك المساء . وأنا أتناول العشاء تسلمت تليفاراً من سلطان باشا يقول فيه :

« لقد رال الخلاف الذى كان بين الوزارة وبين الحديو ولم يبق له أثر . وكلنا متفق على المحافظة على الامن والسلام وعلى ماصرة الوزارة الحاضرة . سلطان »
ولشدة سرورى أرسلت هذا التلغراف الى مستر غلادستون كما أرسلته أيضاً الى التيمس لكي تنشره .

وعدت الى لندن في السابع عشر من شهر مايو وأنا في أشد القبطة في طريق تسلمت التليفارات الآتية .

« من الشيخ الامباي شيخ الاسلام . قد سوي الخلاف بين الوزارة والحديو والحزب الوطني راض بهران . والامة والجيش متحدان » .
ثم أيضاً هذا التلغراف التالي وهو بلا إمضاء ولا شك انه من أحد الاعضاء :
« جميع البلاد تظاهر عرابي والورير سامي . والملاحون والبدو والعلماء متحدون . وليس بيننا سوى واحد يقاوم الحرية المصرية ويجتهد في افساد الرأي العام » .

وجداني تليفراف ثالث من حمد عبيد في هذا المعنى .
ثم جاءت صحف الصباح فأيدت هذه الاخبار السارة وذكرت أن الحديو «ساعى سلطان باشا قد صفح عن الوزارة . فظهر لى من ذلك اني قد نلت هوداً

سياسياً هماً . فذهبت وأنا مسلح بهذه التلغرافات الى شارع دو سح حيث منزل رئيس الوزراء فوجدت هاملتون وجودلي فأريتها التلغرافات . هما في على فوري . وأخبرتهما ان هذه التلغرافات قد كلقتني عشرين جنبها فقال هاملتون انه يجب أن يدفع لي هذا المبلغ من محصصات العقات السرية . هذا وقد قال هذا القول طبعاً على سبيل المراح ولكنه يدل على ان فوري على وزارة الخارجية قد قول بالارتياح وقد نصح لي كل من هاملتون وجودلي بأن أكتب الى مسر غلادستون — بما اني لم أره — خطاباً رسمياً أحل فيه على وزارة الخارجية لتعمدها الكذب . وقد قبلت أن أفعل ذلك وقطعت الليل في كتابة هذا الخطاب . وقد اتفقت مع باتون على انه اذا طرأت الحاجة تنشر الخطاب في حريدة التيمس . وفي اثناء ذلك أرسلت الى سلطان باشا تلغرافاً رجوته فيه أن يهني الحديو .

ولكن جاء الصباح فتوضت آمالي واتقلب فوزى هزيمة . فقد نزلت في منزلي في لندن في شارع جيمس رقم ١٠ وأرسلت في طلب الجرائد فوجدت فهن جميعن تلغرافاً لشركة روتر وفيه نص تلغرافي الى الاعضاء الذي قلت فيه ان أوروبا ستضم مصر الى أملاكها . وفيه ان شيخ الاسلام قد تبرأ من الرد الذي جاءني باسمه .

ووجدت في «ذي ستاندارد» تلغرافاً من مكاتبتها في القاهرة يقول فيه انه قد صرح له من سلطان باشا بان يكذب التلغراف الذي أرسله لي ونشر في التيمس . وان تلغراف سلطان انما كذب وهو تحت تأثير الارهاب الحربي . فكنت الى غلادستون خطاباً ثانياً وأرسلت اليه الخطابين مع رسول قبل الظهر . وكذلك أرسلت الى هاملتون مع نفس هذا الرسول أخبره بوجود نشر الخطابين . ووجدت باتون في المنزل ووعدني بأن الخطابين سينشران في التيمس . وقد سر كثيراً منهما وقال لي انهما سيحدثان ضجة بين القراء .

ومع ذلك ومع انه قد صفت حروفها فانهما لم ينشرا . وقد ذكرت سبب ذلك في مذكراتي . وفي الساعة السادسة وجدت رقعة من ادى هاملتون يقول فيها انه سيكون بالمنزل في أصيل اليوم التالي فذهبت اليه . فقال لي اني لم أكن أحسن صنفاً في ارسال تلغرافي الى شيخ الاسلام وانه لا يجسن بي ان أنشره .

« فسأله عن الضمان الذي يستطيع أن يقدمه لي عن أنه لا يقصد سوءاً بالاسكندرية فقال ان ذهب الاسطول لا يقصد منه سوى تأمين أرواح الرعايا البريطانيين . ولم يكن يعتقد أن من المرجح أن يطلب نزع الجيش المصرى أو ازال حنود فى الاسكندرية . وأكد لي أيضاً أن اللجنة التى أشرت مارسالها سترسل الى مصر . وقد سررت بهذا وأرسلت دافيد (خادمى) الى التيمس لكي يقف بشر خطاباتى » ولست أشك أن هذه التأكيدات التى سمعتها فى منزل رئيس الوزارة كانت صادقة . ولكن أعمال وزارة الخارجية كذبها . وسكونى عن الرد على التلغرافات وضعى فى موضع غير حسن لدى الجمهور . فقد قالت عي سانت جيمس عازيت انى محرض أبغث العين من مراقدها . ورات الحرائد الاخرى انى لزممت الصمت فاتبعتها فى سى . وكان لهذه الاقوال رد فعل عند الحكومة وأيضاً عند مستر غلادستون ولو انه كان يعرف الحقائق التى كان يجهلها الجمهور . وواصلت زيارتى لمنزل رئيس الوزارة ولكن هذه الزيارات صارت تنقد بالتدريج الالة الساعة . ولهذا السبب آسف الآن على أنى قد رحيت بالا تنشر خطاباتى فى التيمس . ولو ظهرت هذه الخطابات لما كان هناك مجال لأن يصدر البلاغ الاخير فى ٢٥ مايو

الفصل الثانى عشر

الدسائس ومكائدها

ان تاريخ السنة الاسابيع التالية فى مصر من بدء وصول الاسطولين الفرنسى والانجليزى الى ضرب الاسكندرية بالقنابل هو تاريخ محاولة السياسة الانجليزى أن تستعيد مركزها الذى فقدته . فلما لم تنجح فى ذلك لجأت الى احداث مصادمة . ومحاولة وزارة الخارجية أيضاً ان تدفع غلادستون الى أن يلجأ الى العنف . وفى كل هذه الاعمال كل المدار على احتقاد شخصية اكثر مما كان على السياسة او على النفوذ للماي فلم تكن ورايات اورما او « الدورسات » ملحة الحاحا يحمل النسوة السلمية مستحبة فقد تراحت فرنساى وراة فرسيه عن خطة عامبنا الاعتدائية . وكانت راحية

محل الموجودة بالقاهرة بينما كانت النمسا والمانيا اللتان يمثلهماروتشيلد وبعض الماليين
- بصيتين بالانتجا، الى الصلاح الماح الذي استعمل في سنة ١٨٧٩ بدخول السلطان
والمسألة وتولية حليم مكلن توفيق . وقد كمن هذا حلاسهلاللزعابين توفيق والوراثة
وقد كانت جميع الاحزاب في مصر تقبله لحسم النزاع وان لم تكن تعتبره مثل
خول . اما سائر الامم الاوربية فكانت تعطف على الوطنيين وكان أشدها عطفاً
سويسرا وبلجيكا . وبلغت الحماسة في ايطاليا على الرغم من أن الحكومة كانت
تعهد السياسة الانجليزية ان عاريالذي كان يهيئ فيلقاً للذهاب الى مصر ومعاونة
عراق . ولم يكن الرأي العام منهجاً ويطلب اتخاذ خطة نشطة الا في اجلتر حيث
دأبت الصحف التي اغترهن وراثة الخارجية على التأثير فيه . أما الاتحاد الشخصية
المسألة فتتلخص فيما يلي :

فقد تورط مالت وكولفن عند تشكيل الوراثة في مقاومتها من البداية . فكل
كل حل يقضى بوجود هذه الوزارة واستقرارها يعنى في الواقع خزيهما وانهما
قد كان محتوماً على كولفن ان يقال من الخدمة عدته وفعل مثلما فعل زميله الفرنسي
دوبلانجير : أما مالت فانه كان يرسل الى وظيفة صفرى لا تكون لاغلاطه فيها هذا
الخطر . ثم كانت وزارة الخارجية مضطرة أيضاً الى المحافظة على كرامتها . فكان
ذلك رجلا ذا الطامع وآمال ولم يكن يرضى بالمزمنة . وكلت جرانفيل هذا الشبح
المن على الرغم من حبه للراحة مفرماً بان تكون خطبه جيدة . وعلى هذا نجد من
نصف مايو الى ١١ يوليو وهو تاريخ ضرب الاسكندرية عدة ماوراث لا تبرها
الضرورة بل تخالف ايضاً مبادي غلادستون وليس فيها أدنى مراعاة للضيق والذمة
بحيث اني لا أعتقد ان في وزارة الخارجية ما يماثلها من هذه الوجهة

ومن الجانب الآخر نجد الحرب الوطنى في الوقت الذي اتال فيه مصر حق
الحكومة الذاتية وحصل فيه على حق الحرية المدنية والشخصية وهي حقوق لم يسبق
في التاريخ ان حصلت عليها مصر . وبعد ان اجتمع برلمانها واقضى الفصل الاول
من اجتماعاته . وعند ماكلن النواب يشغلون بالاصلاح ورغبة الجميع الهندوء والسلام
في هذا الوقت وحد الحرب الوطنى معه مهدداً بالخطر في الخارج وبالحياة التي

تؤاثرها الدسائس الاحمية من الداخل . وقد جاء في ثلاثة خطابات . الاول والثاني من عرابي والثالث من حون بينيه وهو الوحيد بين العاطفين على الوطنيين الذي بقى في مصر واشترك مع الجيش . وهذه الخطابات تبين القارئ شعور الوطنيين في الاسابيع الاولى :

القاهرة في ١٥ مايو سنة ١٨٨٢

الى صديقنا العزيز المحلل المستر بلنت

بعد حمد الله . نخبرك ان خطابك المؤرخ في ٢٠ ابريل قد وصلنا . وقد قرأناه ونحن في غاية السرور . ونرجو ان نحبي قريبا بمار مسايك . والحقيقة ان كل من نعتق الحرية يشهد بفضلك ويحمد لك مسايك . وقد تصاعف سروري عند ما علمت ان خطاي قد وصلك في الوقت المناسب . والله برحمته يهدي مائنا بحسن الحال ويرشدنا الى ما فيه صلاح البلاد .

اما عن نشر الخطابين اللذين أرسلتهما لك فقد كان قصدي أن أسفه الاعداء الذين يحملون على ويتهمونني بأنني أركب الشطط وأطمح الى الاستبداد والاستئثار بالسلطة . وانت تعرف ان هذا سبب ليس غير وأحب أن أذكرك نصفتي ودربر الحرية فأنا مسئول عن وزارتي كما ان كل وزير آخر مسئول عن وزارته . وليس في الوزارة سوى صوت واحد وأنا أتبع رأي رئيس الوزارة والخطة التي يشير بها على كما يظهر ذلك من الخطاب الذي أرسله الى الخديو عند ما ألف الوزارة . وبممكن أن تتق بأنا جميعا غيورون على مصلحة بلادنا مجتهدون في أن نسير على أصول الحق . وقد عرفنا بمعونة الله ان نطلب على جميع الصعوبات . فاذا كان في أوروبا أمة تميل الى الخير وتحب نشر الحضارة نود أن نضع يدها في يدنا لكي نعينها على العدم فنحن نسكون لها من الشاكرين . واذا لم يكن هذا فنحن نشكر الله وحده الذي أعاننا في البداية .

أما عن حالة البلاد فالهدوء شامل . والخيبة الوحيدة التي نعانها هي في تلك الاكاذيب التي تنشرها الصحف الاوربية . فان هذا عداء لا مبرر له . ولكن عسي عشاوة الاعرار تزول عن أعينهم

احمد عرابي

القاهرة في ٢٩ مايو سنة ١٨٨٢

بعد تقديم أحسن التحيات والتسليمات أقدم لكم شكراتنا على مساعيكم .
هياكم بمصالح بلادنا وسؤاكم عما بالتغرائب والخطابات بعد الحوادث التي
حدثت هنا . وقد أجبناكم الى ما طلبتم منا كما أجب أيضاً جميع الذين سألهم
يشرحنا الاحوال بالصدق والامانة . واليك الآن بعض التفاصيل .

ان جميع الاهالي في حزن لمحي البوارج الانجليزية والفرنسية وهم يرون في
هذا العمل بيات منطوية على سوء بالبلاد كما أنهم يرون فيه أيضاً اعتداء لاضرورة
ولا مبرراً . وقد قرر المصريون على ألا يسلموا للدولة التي تتدخل في شؤونهم
وفي إدارة البلاد الداخلية . وهم أيضاً مصممون على الاحتفاظ بامتيازاتهم التي
تحتها المعاهدات . ولن يسمحوا لأحد بانتقاص هذه الامتيازات أو مسها مادام
يهمهم . ثم هم أيضاً سيصدون في المحافظة على مصالح الاوروبيين وحياهم
وممتلكاتهم ومقاهم ما دام هؤلاء لا يتعدون الحدود التي رسمتها لهم القوانين .

ونحن جميعاً نجهد في تأدية واجباتنا ونوكل على الله في الدفاع عن حقوقنا
وبعونه سال غايها . وعانيتا نحصر في سعادة الوطن ونشر السلام والأمن بين
سكانه . ونحن نأمل في عدالة اوروبا ألا تتعدى الدول علينا بل بالعكس ننتظر
منهم أن يحسوا السلوك معنا . لأن هذا في مصلحتهم ويؤدي الى تحقيق رغائبهم
ويحسن بانجلترا ألا تثق بوكلائها هنا لأن هؤلاء الناس لم يأرب خفية شخصية
يربدون نقيتها . ونحن نعلم أن نجاحهم في تحقيق مآربهم هذه سيعود بالضرر
علي بلادهم . وعلي حكومتهم .

في هذا ما يكتفي وسيأتيك القند بما نجهله الآن .

وقد أرسلت الى هذا خطاباً أرجوكم أن ترسله الى سير ولهم جرمجوري .
وفي الختام أرجوكم تقديم تحياتي لصابونجي واليدى انى بلنت . والله برعاًكم
بصانته .
احمد عرابي

أما خطابات نينه فنو قيمة خاصة من حيث التاريخ لأنه كتب في ١٩ مايو وهو
آخر أيام الحكومة الذاتية في مصر . فهو يقول :

« إن قلبي وهو قلب وطبي سويسرى يتفطر الآن على هذا الظلم الصراح الذى ارتكبه الدول فى مصر . فالأمة بأجمعها قد اتحدت وانصبت الى زعيمها الشريف الذى أبنته مياه النيل وتكون من غرزة مثل سائر الفلاحين . وقد قبلت الامة المصرية على نفسها أن تدفع الديون التى استدانها حاكم مستبد لا ضمير له . — هذا الحاكم الذى أنفق ويصرف فى ستة عشر عاماً نحو ثلثمائة مليون جنيه لكي يملأ جيوبه وجيوب الساسة كباراً وصغاراً وجيوب المرايين النصارى واليهود ... ثم حرث ثورة سلمية بارادة الأمة . ولم يحدث مدة هذا الانقلاب عمل واحد لا يليق بحكومة تراعى الذمة والشرف . ولكن أوروبا التى تهتم بالبورصات وبالاسهم أكثر مما تهتم بأمانى الشعوب ترسل أساطيلها . ولماذا ؟ لأن مجلس النواب قد وحد من المناسب أن يناقش الحكومة عن الميزانية . طاب الحياة هنا ؟ هب أن وزيراً من وزرائكم اختلف مع الملكة فهل ترسل الامة الكاثوليكية اساطيلها الى ارلندا لتهدئتها ؟ ومع ذلك فى المشابهة فارق . فان مصر هادئة . ولم يشك فيها أحد من الاوربيين أو المسيحيين . ألا نخرج هذه الحالة الصدور ؟

ومع ذلك فعراي رحل هادئ . عاقل ينتظر الغد بحكمة فلاسفة العصور القديمة . فالجيش والامة والمدن معه . وقصص فرنسا كان الى الآن صامتاً . أما سير مائيت فقد كن الى الآن يطلب الصدام ولا يرغب فى صلح او اتفاق يسند فى القاهرة . وبند الخوف بدلا من أن يفرض الثقة والطمأنينة فى قلوب الأهالى . ولا تكاد ياسيدى تعرف مبلغ الفتريات التى تنشر فى التمس والأستانة والدليل نيوز بواسطة الشركات التلغرافية . ومع كل ذلك لا تسمع كلمة لوم ولا نجد من الاهالى ما يسي . أحداً . فقد كما وما زلنا فى هدوء . شبه هدوء المجتمعين فى بستان ريجنت فى يوم أحد . هذا . وينتظر وصول الاساطيل غداً . »

وتم خطابات أخرى تبين الحالة فى تطورها بعد ذلك . وكان هذا الظلم الفادح والمهجوم على اللاد أدعى الى تقيظ الأهالى وحنقهم بحيث تعدوا طورهم لأن هذه الدولة الهاجرة عليهم كانت الى هذا الوقت تعد فى نظرم صاحبة الأثر الحسنى فى حب الحرية والمذاهب الانسانية التى كان رجالها يدعون اليها بحماسة الرسل . هم

يكن اذن من المنهش أن يتلوح العقلاء ويتأثروا بمخاطر هوحاء. وهم قد رأوا
 أنهم مهددين ساعة بالمحوم من جانب انجليترا وساعة أخرى بالمحوم من حاسب
 تركيا بفعل المصائس الانجليزية. فلم يكن لهم من يتقون به وكانوا يخشون الحياة
 في كل مكان. ثم ليس أيضاً من الغريب أن يرتكب الزعماء بعض الاغلاط وهم في
 مثل هذه الظروف المتغيرة المثقلة الشاقة. وكلما دقق الانسان النظر في هذه الاعلاط
 شهد لهؤلاء الزعماء بالفضل. فانه عند ما مثلت دسائس وكلائها واحدة بعد أخرى
 وقطعت في أيديهم أسباب الحياة التي لجأوا اليها ووجدوا أنفسهم بعد حملهم حيل
 هزيمة محزنة — عند ذلك لجأوا الى المدافع والاسلحيل لكي تحمل عقدة لم يستطيعوا
 تحملها. وعندئذ فقط تغير المصريون عن موقف الهدوء الذي لزموه الى الآن.
 واستطاعت عندئذ وزارة الخارجية الانجليزية أن تدعي الظفر.

وإثبات هذه الأقوال لا يحتاج الى ان نسب الى عرابي او الى الزعماء الآخرين
 صفات من الطراز الاول. إذ لم يكونوا من حيث الادارة او السياسة او العسكرية
 يلغون مبلغ خصوصهم وكلما كثرهم قليل الخبرة بأساليب الحكم وبقائهم السياسة
 القولية. وأظن أن أحسن صفات عرابي هو تشبهه بفرسه الأصلي وهو استعداد
 يصادف جميع العالم مع استعداده أيضاً للدفاع عن البلاد وحمايتها من جميع من يهاجمها
 من الأعداء. وقد أدى من هذه الوجهة عدة خدمات لابناء وطنه مدة هذه
 الاسابيع القليلة يجب نذكركم بها الآن.

فليس هناك شك في أنه لو كان عرابي أقل عناداً أو ثباتاً مما كان في عدم مغادرته
 مصر خوفاً من التهديدات أو رغبة في الرشي ولو أنه لم يحارب لبقى الفلاحون عبيداً
 لسيادهم الاتراك كما صاروا عبيداً أيضاً للأوربيين. إذ ماذا كان ينتج عن خضوع
 عرابي؟ هل كانت تستمر الحكومة الذاتية؟ هل كان الحكم الأجنبي يكون أقل شدة
 مما هو الآن؟ كلاهما كلا. إنما كان يحدث شيء من نوع النظام الذي أعقب
 الحرب. أي استبداد الشرطة والجاسوسية والعصابات السرية. يضاف الى ذلك
 وقوف أوربا عن الاهتمام بالمسائل المصرية وجمود صيرها للأدبي من هذه الناحية.
 ومن الممكن أن تكون يؤذن بوجود مجلس من الاعيان مجتمع « شكلاً » بضعة أسابيع

ويكون بمثابة هيئة استشارية ولكنه يكون عندئذ حلوا من النفود وساقطاً من حيث الدعوة الوطنية . وكان حكم طبقة الأتراك والشراكسة يعود الى ما كان عليه من القسوة وكانت المراقبة المالية بعد أن تكون قد رادت سلطتها التي تستعملها لمصلحة السالين الاوربيين تقف موقف الجلود فلا نبالي بتحرير الفلاحين من ساداتهم الأتراك الذين هم أيضاً عبيد أوربا وكانت قصة الوطنية التي ذاعت عن الفلاحين نزول زوالا مغزيا لان الأمة التي لا تمسح على القتال دفاعا عن كيانها جديدة بأن تمحتر . وكانت الصحف الوطنية تنزل الى الدرك الذي بلغتته صحف تونس لا يكون للحرية الشخصية أو المدنية وجود كما أن حقوق الوطنيين تكون عندئذ لا قيمة لها ولم يعتد بها أحد . بل تكون مصر عندئذ كما كانت في سنة ١٨٨٣ حيث لم يكن باستطاعة أى إنسان أن يتكلم بصوت عال أو يأمر جاره على أن لا يؤذيه . فأقل ما فعل عرابي أنه محى بلاده من هذه الخال . وإذا كلت قد أخفق باعتباره حديا فانه لم يخفوا باعتباره وطنياً وبلاده مدينة له بذلك . فقد حال دون الاحكام عن الحرب في وقت كانت فيه الحرب لازمة لانهما كانت الفرصة التي أسداها التاريخ للمصريين ليصمدوا ويدافعوا عن حريتهم .

أما وقد قلت هذا فلا أراحح إلى قصتي . فأقول أن تاريخ التفراف الذي أرسل الي من القاهرة كما يأتي :

كانت الحال قد بلغت حداً خطيراً وذلك للموقف الذي اتخذته بعض الاعضاء ضعاف القلوب وبعض الزعماء من غير رجال الجيش . فان هذا الموقف كان يدمج الى الزيبة . وكلت ماليت قد أغري الحديو بالشجار مع وزرائه وكان الحديو قد أغري أيضاً سلطان باشا لكي ينحاز اليه وقد توصل الى ذلك بالغيرة التي كانت جرد سلطان وعرابي . وذلك أن سلطانا كان يؤمل أن يكون عصوا في وزارة محمود سامي فلما لم يحقق أمله شعر بالحيرة . زد على هذا أن الحديو أخبره بان الأسطويج الفرنسي والانجليزى كانا على وشك الوصول الى الاسكندرية فانضم اليه سلطو و أغري ثلاثين عضوا بالانحياز الى الحديو فبقى مع الوزارة ٤٥ عضوا . واستنصر ماليت أن يرسل الى وزارة الخارجية تلغرافا يقول فيه أن مجلس النواب يصـ

حسبوا على عراقي . ولكن تلغرافاتي أعادت الى الفرددين ثقتهم وجعلت سلطانا
ذهب الى الحديو الذي كان يشتغل وقتئذ في تأليف وزارة برئاسة مصطفى باشا
مسي وربر الخارجية ولم يكن ذا حطة سياسية معينة . فتمكن سلطان من إيجاد صرح
بين محمود سامي والحديو . فاعتبر كل أحد أن الأمانة الوراقية قد انقضت . ولكن
كاد يتم هذا الترتيب حتى عاد فانتكث منه ما اعتقد . فان ماليت سمع بتلغرافاتي
فأرسل في الحال في طلب سلطان ثم أحدث في وعده ساعة ووعده أخرى بالأسطول
حتى أغراه بأن ينحاز الى المراقبة الأوروبية .

وكان سلطان الذي كثيراً ما دهم صد ذلك على عدم تأديته واجبه نحو القضية
لوطية يقول أن ماليت قد وعده بشرفه في ذلك الوقت العصيب بأن نراعي حقوق
برلمان . وقد قال لي أصدقائه أن سلطاناً مات وهو يوح نفسه لأنه صدق ما قاله له
ماليت . ومع ذلك فإنه لم يشق صد ذلك أحد عن القضية الوطنية خلاف سلطان .
وكان جميع الذين فصلهم تلغرافاتي بصدقوتي أكثر مما يصدقون ماليت وتقوى
سلطان عراقي بذلك عند ما جاءت الأمانة الكبرى بعد هذه الحوادث بعشرة أيام
« لعبة ماليت من حيث إرسال الأسطول فشلت فشلاً تاماً . فقد كان غرض
لورد حرافيل من إرسال الأسطول أن يكون حجة بغير طعن لبال غرضه دون
أن يلجأ إلى العنف وكان يؤمن بهذه الطريقة . وقد زاده إيماناً بها أنه حربها في
العالم المنصرم في مسألة الحدود اليونانية في دلسينيو . وكان من الحكم التي تروى
عنه قوله « التهديد يفعل فعل الصرب » وكان ماليت الذي يعرف عقلية لورد
جرايفيل يعتمد على الحصول على انتصار لا تراق فيه دماء . وكان طول الوقت يسي
تقدير العاطفة الوطنية . ولم يلجأ الى العنف والقوة الا عند ما عجز عن تحقيق غرضه
بالوسائل السياسية فعد الى رأى كولفن فاتبه . وهذا هو تاريخ هذا التطور .

في ١٧ مايو انضم سلطان باشا الى ماليت . وطلب من الوزارة أن تستقيل .
في ٢٥ مايو أصدر ماليت وسكيكس بلاغاً أخيراً قال فيه ان سلطاناً قد
اقترح عليها إصداره وطلبا استقالة الوزارة ومفاداة عراقي لمصر .
في ٢٧ مايو استقالت وزارة محمود سامي

في ٢٨ مايو هاج أهالي القاهرة وطلبوا رد عرابي الى مركزه وزياراً وأعيد عرابي وصار له شيء شبيه بالقوة الدكتاتورية وكانت الأحوال في إنجلترا في هذا الوقت على أسوأ ما تكون وقد رادها سواً تحلى سير وليم جريجورى عى وأنا في أشد الاحتياج اليه . فان جريجورى قد انحاز منى الى الوطنيين منذ ظهور الحركة وقد كتب عدة خطابات قوية في التيمس يتدح فيها عرابي ويدافع عنه . وكل من نفوذه أكبر حشداً من نفوذى في المراكز الرسمية وكانت له مكانة عند تشري رئيس تحرير التيمس . فلما رأى أن دهاب الأسطول قد يؤدى الى وقوع القتال أحذنه الخوف والعزع وصار يكتب في التيمس خطابات يصل فيها ارتيابه ويشترط لأقواله السابقة شروطاً . وكان منذ أن ترك مصر في ابريل يسبح ويتجول في أوروبا وكنت أؤمل كل يوم أن يصل الى لندن لكي أدمم به دفاعى عن مصر لدى الحكومة . بيداً من ذلك وجدت ما أحرزنى لأنه وان لم يكن يقاومنا الا أنه لم يكن معنا . وكما قد نواعدا على أن مذهب معاً الى اجتماع لمقاومة القائلين بالتدخل . ولكنه رفض الذهاب .

واليك مذكراتى :

« ١٩ مايو — لقد خذنا جريجورى فانه تعشى أمس مع تشري الذى أتى في قلبه الرعب وهو يرفض الآن أن يذهب الى الاجتماع . وقد ذهبت أنا وألقيت خطبة وأجبت على عدة أسئلة وأوضحت حقيقة مسألة التلغرافات . وقد طلب دولين من المجتمعين أن يصرحوا بأن سلكت مسلماً وطنياً »
« ٢٠ مايو — قيل لي ان لورد جرانفيل يسخط علي لاني قد شرحت مسألة التلغرافات »

وفي يوم الاحد ٢١ مايو — بعد ان دونت هاتين المذكرتين التفتت بحرافيل وكانت مقابلتنا بعد يومين من اقاء الخطبة عن التلغرافات مما ضايق بعض المضافة فقد دعينا أنا وزوجتى الى قصا . يومين عند لورد بورنسوث وهو ابن عم زوجتي في قصره في بورستورن وكان لورد حرافيل وآخرون قد دعوا أيضاً . وأظن ان جرانفيل قد قصد مقابلتي « صدقة » كما هي العادة المألوفة بين السياسيين . ولكن

كانت قد حدثت حوادث خطيرة فلم أكن أحب مقابلة ولم أكن أعرف انه مدعو.
فترعجني حضوره يديا . وافئق سو . الخط اما أحصرنا معا جريدة الازفر التي
روت الحجل الذي بال رجال الاسطول بعد ذهابهم الى الاسكندرية . وهالك
للكرات : « وصلنا مع لوريل سفير أميركا فلم نجد أحداً بالقصر لانهم كانوا قد
ذهبوا جميعاً للكعبة . وعند رجوعهم بطرت هزعت عند رؤية لورد جرانفيل
وزوجته قادمين ممسائر الضيوف . ولكن سارت الاحوال علي ماأشتهي لان الجميع
كانوا في صني وخصوصاً عند ما أطلعوا على الخبر القاتل بان عراي عند رؤيته الاسطول
في مياه الاسكندرية طلب في الحال نعتة اعيش . وان أربعة آلاف من الزديف قد
تطوعوا للقتال . والقلق طاهر على اللورد جرانفيل ولذلك فان حجنى قوية ودفاعي
عن الوطنيين لا يرد . وقد تحدثت معه عن كل شأن في العالم الا مصر . وهو رجل
نظيف للاسان صحبتة فانه يحدث من الطرار التقدم اذا أورد قصة أيقن ايرادها
وقصصه وان لم تناسب المقام كل المناسبة هي على الدوام جيدة . أما مع سائر الضيوف
فقد كنت أتحدث عن مصر وأرى العطف والسرور ماديين علي بحيا كل من كنت
أحدثهم . فقد كان هنري كوبر حذاباً وكان لوريل وستوارت راندل يعطمان أشد
العطف . وكان ثابها لا يدي عطفه الا عدا ما يغيب عنا لورد جرانفيل وكان اليوم
جيبلاً فأخذنا ننشئ في البستان والحداثق . وكان هنري كوبر يقص علينا القصص
المستلمحة . وقد روى لنا قصة عن دررائيلي بخصوص المسألة الشرقية . فقد سمع
ددرائيلي يقول عن نانكرد وهو قصة قد ألفها عن المسألة الشرقية انه كثيراً مايراجع
هذا الكتاب لفائدة لا للتلية ... »

وكان لوريل كما قلت يؤمن أشد الايمان بالحزب الوطني وكان طول الصيف
عند ما يجتمع برفاق علي جميع ما أقوله .

وبما هو جدير بالذكر وله علاقة بهذه الزيارة أن لورد جرانفيل أرسل بعد
يومين أي في ٢٣ مايو تلفرافاً الى ماليت يفوض له فيه أن يعمل بما يناسب وكانت
نتيجة ذلك ارسال البلاغ الأخير في ٢٥ مايو

وكانت الأحوال كما كان براها مورلي في جريدة البال مال كما يلي :

« لا تزال الأحوال في طور خطير . فعراي مستمر في اتحاد حملة التحدي . وهو الآن يلعب بأحسن ما عده من الورق . وقد أحصرت حدود الاحتياطي ابي القاهرة في السلاسل والخنود ترسل بسرعة الى الساحل لمقاومة زول اسحارة الى البر . وقد أرسلت فرق المدفعية الى الاسكندرية والمدافع تحيط الآن بالمواقع . وربما كان كل هذا في الأرجح نهوياً . يقصد به عراي الحصول علي شروط اصلح مما ينتظر »

وقال مورلي في الحريدة أيضاً : « ان تجربة الاحتجاج الشديد بواسطة البوارج قد تمت وقد فشلت تماماً وهالك المذكرات :

٢٢ مايو — عدت الى لندن . وقابلت هاري راند الذي قال لي ان ذلك قد أخبره بأن المسألة لن تنتهي الا بالتدخل وقد أرسل هوون يطلب مني أن يستشيرني عن مصر وقد قابلته في بهو مجلس اللوردة ونحادثنا ملياً . وقد نصحت له بأنه اذا كان سيدفع الحكومة الى ارسال جيوش الي مصر أن يرسل الى ابنته في الحال ليستدعيها الى مصر

٢٣ مايو — سئل اللورد حرافيل في مجلس اللوردة عن شؤون مصر فأجاب اجابات فكاهية

٢٦ مايو — تكلم غلادستون عن مصر فضاء عبارات طويلة كلها خطأ بلا معنى وكان أهم ما فيها انه أعلن ثقته بان المسألة ستسوى تسوية سلمية . وقد أرسل القنصل بلاغا أخيراً طلبوا فيه أن تعاد الى الحديبو سلطته وأن يبنى عراي

٢٧ مايو — أنكر سلطان باشا أنه هو الذي اقترح كتابة البلاغ الأخير . رفض البلاغ الأخير . قابلت جرمجوري . وكلانا يعتقد أن المصريين لا بد أن يحاربوا وأنهم يجب علي أن أذهب الى مصر لكي أنضم اليهم . في تلغراف في صحف المساء خبر استقالة وزارة عراي .

٢٨ مايو — كنت في كرايت يوم الأحد . جميع الأحوال تدل علي أن الأمور تسير نحو الخراب في مصر . وأظن أن سلطة الحديوستعداد اليه الآن تحت المراقبة . واذا غادر عراي البلاد وسرح الجيش أو أعيد اليه ضباطه الشراكة فإن

مصر ستودع الحرية الزداع الأخير وسيكون نصيبها نصيب تونس . لقد اتصرت يا كولفن .

» ٢٩ مايو - لم أستطع اليوم فلما كانت الساعة الثالثة فت أعشي . لقد آتني وعذبي اني لم أذهب الى مصر عند ما ألقى حرافيل خطته . فربما كنت أقدر على تسوية . الآن عاد التوتر . قد حدث انقلاب مدهش في الجرائد فأنها أعلنت أن جمهور القاهرة قد هاج وطلب إعادة وزارة عرابي وقد حصع الحديو لهذا الطلب . وهذه الاخبار لا تكاد تصدق لأنها لم تكن تنتظر . ولا يمكن الشك في صحتها لأن غضب الجرائد يدل على صحتها .

« فقد عدنا الآن الى الحال السابق بل نحن في حال تفصلها وليس ثم ما يخشي من سوى الباب العالي . وقد استقر رأيي على أن أسافر في الحال الى مصر . . . ذهبت الى لندن وزرت حرمجورى وتناولت القاء . عند هوارد وكتبت خطابا الى هاملتون أخبره فيه عن نيتي . »

وهذا هو خطاى الذى كتته الى هاملتون وأما متأثر بالحو الفلاستونى :

عزيزى هاملتون .

أنه وإن يكن مستر علاستون لم يسره ارسال تليفرافاتى الى مصر منذ أسبوعين فاقى لا استصوب الاقدام على عمل ما فى مسألة مصر دون أن اكون على علم به . وأنا مقتنع بأنه سوف يغفر لي ما فعلته ويستصوب ما أنوى فعله الآن . وأنا واثق تمام الثقة بأنه سينحو فى مسألة مصر ذلك النحو الذى تخيله عليه حملة الاحرار وذلك عند ما يقف على الحقائق .

وهأنذا أخبرك بالصبط عما سأقوله لزعماء الوطنيين . فاقى سأحضرهم بادية . على أن يزولوا من بينهم أسباب الخلاف العفرى وهم الآن حبال خطر عظيم . وسأحضرهم أيضاً كما سبق ان فعلت في الماضي على أن لا يشتبكوا مع الحديو في شجار . واذا منحت لي الفرصة بمقابلة الحديو فاقى سأحثه أيضاً على أن لا يتقاد الي القاصل الذين يفرغونه بالامة وسأحضر عرابي على البقاء في وزارة الحرية حتى تكون قيادة الجيش في يده ولكنى سأصيح له بأن يترك جميع المناصب الاخرى لكي يملأها

رجال من غير الجيش وخاصة من أعضاء مجلس النواب . وسأحدث المصريين على أن يحتفظوا سقاء أحسن العلاقات الودية مع السلطان الا فيما يختص بدخول الجيش التركي للبلاد كما عليهم أيضاً أن يحتفظوا بمثل هذه العلاقات مع الدول الاوربية إلا فيما يختص بحقوقهم الدستورية .

وأيضاً سأوضح لهم بأن يسلموا ببعض ما تطلبه منهم المراقبة كما سبق أن نصحت لهم بمثل ذلك في يناير الماضي . فتعال المراقبة بذلك ما تدعيه بشأن الميزانية وسأطلب الى النواب تأجيل النظر في حقوقهم الى العام الآتي . وسأشرح لهم الحالة بمقدار ما يتيسر لي فهمها فأخبرهم بأن الحكومة الانجليزية وان تكن ترعب في بقاء استقلالهم فهي مع ذلك مرتبطة بروابط قد عقد عقدها الورداء السابقون . وسأخبرهم أيضاً عن مرامي الحكومة الفرنسية التي تجري على الماثور من خطتها وهي خطة التوسع في البحر المتوسط وأن الماليين يدفعونها الآن الى الخري على هذه التحطة . وسأخبرهم عن مرامي الحكومة الالمانية وانها تنوى تحويل اتجاه السياسة الفرنسية من المسائل الداخلية الى المسائل الخارجية والى حل التحالف الانجليزي . ثم أخبرهم أخيراً عن مطامع السلطان واحلامه في الخلافة وهذه مسألة يهيمونها على الأقل بمقدار ما أفهمها أنا .

ولست أقصد الى الاشتراك معهم في المسائل الحربية اذا نشب القتال إلا عند الضرورة القصوى اذا كان الأتراك هم المعتدين عليهم لاني لا أعرف شيئاً عن الحرب ونفسي تشنئ منها وتستفظها .

ولكى سأحرص المصريين على أن يقاوموا الغزو من أي الجهات أتاها . وفي حالة الهزيمة عليهم أن لا يدفعوا الضرائب التي لم تقرأها القوانين . أما إذا لم يمتد عليهم أحد فاني أطلب اليهم أن يقوموا بداد جسيم ما عليهم من الدين الى آخر فلس . ولست في حاجة لأن أجد فيهم روح التعصب لاهم ليسوا متمصين ولكني سأحرم صوتي الي صوت عراقي في تفسير قوانين الحرب بما يلائم قواعد المروءة . ثم اني أرغب أن أكون قريباً من الوطنيين حتى أستطيع حماية الاوربيين في بدء القتال .

وأظن أني لست مخطئاً في اخبارك بهذه الأشياء . الخطة التي أرسما في ذهني لكي يجري عليها الوطنيون هي أن يتخذوا قاعدة يسرون عليها تقابر ما يجري عليه سائر الشرفين معبرة تامة . فاني أطلب اليهم أن يقولوا الصدق حتى لأعدائهم . وثني يكون في حودهم من المروءة أكثر مما عند أندادم من الخنود الاوروبيين . وأن يكونوا من حيث الذمة أشرف من دائيتهم . لأنهم بهذا فقط يمكنهم أن يحققوا الإصلاح الذي ينشده رجال الدين عندم واني المخلص لك

و - من بلنت

وقد ذكرت اليال مال في هذا التاريخ أقوالا جديرة بالاثبات هنا . لأنها تظهر كيف أن وزارة الخارجية بواسطة كولفن ويكف وأمثالها كانت تصور الحالة تصويراً كاذباً . فان رسائل ماليت قد حطت هذه الوزارة تعتقد أنه ليس ودا . عراى سد من الأمة وأن الحديدو محبوب عند جميع أفراد شعبه . وانه لم تكن الأحوال تستدعي سوى شيء من التظاهر بالمساعدة الخارجية من ناحية الاستانة حتى يتضح الولا . للحديدو . واذا كانت هذه المساعدة الخارجية لا تحمل الجيش بخفض قايها ستحدث حرباً أهلية تتطلب التدخل .

وهالك ما تقول اليال مال في ٢٦ مايو :

« ان البلاغ الأخير الذي أرسلته فرنسا وانجلترا للوزارة المصرية سيقبل أو يرفض في ظرف ٢٤ ساعة . وعلى ذلك ستحل الأزمة هذا المساء . وسيرسل الى الاستانة في طلب « الجندرمه » لكي تعيد الى الحديدو سلطته تحت مراقبة انجلترا وفرنسا . »

وتقول أيضاً في ٢٧ مايو . « ان الحالة في مصر سيفصل فيها في بضع ساعات وسنرى ما اذا كانت الأزمة ستفرج في سلم وأمان أو تنتهي بحرب أهلية وتدخل أجنبي . لقد استقالت الوزارة وقبلت الى الآن شروط اللاع الأخير الذي أرسلته فرنسا وانجلترا . لكن عليا أن محسب لما سيفعله عراى حساباً فقد يلقي القناع عنه ويصارع رئيسه بالعداء . »

أما هذه الحرب الالهية التي تقول عنها البال مال ووضعتها في اليوم التالي أي في ٢٨ مايو اذ قالت :

« قضى الخديو ليلة أمس في قصره بالاسماعيلية يحيط به اثني عشر ألف بدوى من المخلصين لسموه . ووجود أطفال الصحراء هؤلاء في عاصمة مصر سيكون حائلا دون ظهور عرابي وانتصاره . ولا شك أن وقوع قتال بين البدو والحيش المصري سيكون من الأشياء المرجحة الحقة . ولكن حدوث هذا القتال سيحل الازمة حلا سليا ... فان مركز عرابي لم يعد كما كان قلا . فانه ليس ينمرد الآن وحده بقوة السيف . لأنه اذا كان الخديو لا يستطيع اخضاع عرابي بمهونة البدو والى طهره البوارح الانجليزية والعربية ومعه مجلس الأعيان فان الحالة يجب أن تكون عندئذ أكثر مما قدرها الناس الى الآن » .

فما أعجب هذه الأقوال : أحل أليس من العجب أن يقال أن اثني عشر ألف بدوى قد أحاطوا بقصر الخديو بالاسماعيلية ؟ وان أعضاء مجلس النواب علي ولا . تام للخديو وان عرابي قد وقف معرداً يهدد الجميع ويلقي الروع في قلوبهم ؟ ومع ذلك فان هذه المقترحات التي كان يذيعها جون مودلي « الشريف » هي التي أغرت غلادستون بأن يعاقب الوطنيين المصريين الذين لا يخضعون بأن يرسل اليهم الاتراك حتى تفعل بهم جنودهم ما كان يفعله الباشبوزق في الفظائع البلغارية بل كان يود لو يرسل اليهم « رجل الخطية » عبد الحميد نفسه .

ولكن هذا الزعم الذي أذاعته هذه الصحف عن الخديو وانه محبوب عند شعبه لم يش يومين اثنين . لأننا بعد ذلك قرأ في البال مال جاريت في ٣٠ مايو ما يلي :

« لقد آن الأوان لأن قوم يعمل عاجل في مصر . فان الخديو قد سجن في سرايه . أما الاثني عشر ألف بدوى فقد ذهبوا في الهواء كأن لم يكونوا .. » الخ وكنت في هذه الأثناء أنتظر خطاباً من دار رئيس الوزراء رداً على خطابي السابق وكنت أيضاً أتتبع السير الي مصر في أقرب وقت . وكان مستر غلادستون خارج لندن يقضي نعمة أيام مع لورد روبري في دوردان . وكان وجوده خارج

سدى ذلك الوقت مثير شؤم لى : فقد كت أعرف آراء ووزيري عن المسألة نصرية لاني كنت قد قابلت في دار رئيس الوزراء قبل ذلك وخرجامعاً يصحبها هاملتون وممرنا مدة في المدة الصغيرة القريبة من باب متفرع سان جيمس . فأنته ونحن في الطريق عن رأيه في مصر فأحايي جواباً مختصراً بقوله : « ليس لى آراء مطلقاً عن مصر . فان رأيي هو رأى المساهمين » .

فقد كان يهتم بالوجهة المالية في الموضوع وذلك لان زوجته كانت من أسرة روتشيلد ولذلك اعتبرت زيارة غلادستون له في هذا الوقت مثير شؤم . ولم يكن دوربري يعد عضواً في الحكومة ولكنه كان دائماً نفوذ عند غلادستون وقد عرفت من باتون ان روتشيلد كان يدفعه الى تحقيق غاية السياسة . واستمرت الحال على ذلك سوات وقد كانت المهمة التي سافر من أجلها الى برلين في سنة ١٨٨٥ يعزى بحاجتها الى مساعي روتشيلد . وبعد ذلك كلت برالى خدمة أسرة روتشيلد في وزارة الخارجية ولو اني قد سمعت انه باع أسهمه في الدين المصري قبل أن يعين في الحكومة

واليك شيئاً من المذكرات :

« ٣٠ مايو — لم يصلنى الى الآن رد من هاملتون . ومستر غلادستون ليس في دوردان الآن . ولكن كل شىء يسير سيراً حسناً في مصر . فالمعترف به الان أن عرابي قد امتلك ناصية الحال . وقد وصلتني رقعة امس من هاتون يطلب فيها ان براني ثانياً . وقد ذهبت اليه في منزله في مايفير وأخبرته بعزمي علي السفر الى مصر . وقد شعرت من أسلوبه أن لورد جرايفيل قد دسه لكي يعجم عودي . وقد أخبرت ادارة المصرف الذى أحفظ به أموالى ان يعد لي ألف جنيه ذهباً فرنسوا لكي اقضها على مصاريف الحرب . واني أكره هذا السفر الآن ولكنى سعيد لاني أؤدى حقاً . وسيسافر معي أيضاً صابونجى

« ٣١ مايو — بكرت في الصباح وذهبت الى لندن فوحدت رقعة أخرى من هاتون يؤكد على فيها بصدف السفر : واما متأكد الآن ان ماقاله اما قد أوحى اليه به من مقام رسمي . وفي رقعة هاتون ما يستحق الذكر . فهو يقول : « عزيزى

لست . تؤكد عليك بأن لا تذهب الى مصر في هذه الاوقات . من ما ستفعله أو تفعله هناك سياء ، وسيبره ويجعل على حمل لم تقصد اليه . وقد تحالف الحرب العسكرى و الباب العالي وهذا التحالف لا يوافق آراءك . وأرحوك أن تخبرني عما يصلك من الاخبار . هذا وابنتي لا تزال في الاسكندرية ولكن قلني بخصوص قترحيرالد الذي يكرهه الجيش الآن لاقتصاده الحربى — واقتل صداقة الخلع لك — هاتون . حاشية . اذا دعت فاحضر معك صديقك عرابي ونعال معه اليها هنا لتناول العشاء معاً »

« وجاءني أيضاً تلمراف من هاملتون يقول فيه : « وصلنا خطاكم . أرحوك أشد الرجا . ان لا تفعل شيئاً قبل أن تراني . وسأعود هذا المساء . » وكان قد ذهب الى سالزرى وفي الساعة الخامسة والصف وجدت هاملتون في منزل رئيس الوزارة فرحاني كثيراً أن لا أذهب الى مصر لأن مركرى هناك وعلاقتي بمنزلة دستون سياساً ، فهمها ومحدثان حلبة وضحة ها . ثم وعدني بان الجيوش لى ترسل الى مصر ولن يحدث تدخل ما . أما انا فقد سأله الا يصدوتنى مشولاً عن حوادث قد يمكن وقوعها وكان وجودى هناك يمنع وقوعها هذا . فقال أنهم لن يلقوا على هذه المسؤلية . »

« وصلتني رقعة كبيرة من اليدى جبراهيل تدعوني فيها لحضور احتفال سيعقد بوزارة الخارجية في الثالث من الشهر تذكراً ليوم ميلاد الملكة . وسأحفظ هذه الرقعة باعتبارها جواباً على التهمة التى ينهني بها هارى براند بأنى أخون بلادى والان أنا فى غاية الرضا وسأذهب صابونجي بدلا منى وسيقوم بجميع ما أريه . وقد أرسل الى عرابي تلمرافاً عني جواباً على خطابه لى . وهذا نص التلمراف :

« وصل خطاكم . لا تخش الوارج لن يحدث التدخل . وزع منشورات فى جميع أنحاء البلاد بخصوص سلامة الاجانب »

وكان هذا التلمراف قد أرسل بناء على اقتراح هاملتون

« أول يونيو » تسيير الاحوال كما أشتئى . فعرابى مالك لتأصية المال و مصر ويعطى باتون ان التيسر ستدفع لى من التلمرافات اذا أرسلها اليها صابونجي

وهذا ما أحب . وقد انقمت مع صابونجي على أن أدفع له مرتباً قدره ثلاثون حنيهاً شهراً غير مصاريفه . . . ذهبت إلى مجلس العموم مع نيجل كـحـكـوت وهو القيم على خيول ولي العهد . فدخلنا في قاعة الرئيس . فأعلن غلادستون أنه سيعقد مؤتمر في الاستانة . ولن تبدأ الجيوش في الهند ولن ترسل جيوش إلى مصر . لأن هذا الفصل يجعل حياة الأوربيين في خطر . وقد سألت مكوان رئيس تحرير جريدة الليفانت هيرالد السابق عما إذا كنت سأسافر إلى مصر لكي أدبر فتنة هناك . فأجاب ذلك بأنه يعتقد أنني قد تحولت عن هذه الفية .

« ثم صرح غلادستون بهذه العبارة العجيبة وهي : (ان عرابي قد ألقى عه الساع) وهدد الخديو بالخلع ووضع حلیم مكانه على عرش مصر . وهذا القول خفيف ومن واجبي أن اتقصه وهو أيضاً برهان على مبلغ الجهل الذي تورط فيه وزاراتنا الخارجية . ولا شك ان غلادستون سيفصب من ماليت لأنه قد قاده إلى هذه الورطة . وقد صاحبي فرائك لاسل في الطريق وأخبرني أنه رأى تلفراف ماليت الخاص بتصریح غلادستون . وكل ما في التلفراف ان الخديو أخبر ماليت بذلك وأنه لا يضمن صحته فبمثل هذه الاخبار تتعلق سياستنا »

وتلفراف ماليت كما ظهر بعد ذلك في الكتب الزرق يصرح بأقل من هذا وهذا نصه : « أرسل الخديو اليوم في طلبنا انا ومسيو سينكفـكـز وأخبرنا أنه علم أن الحزب العسكري ينوى خلعـه مساء اليوم وإعلان حلیم باشا خديوياً لمصر . . . وقال لنا الخديو أنه لا يكاد يصدق هذا الخبر » ومع ذلك فإن مستر غلادستون يتعلق بهذه الاشاعة الواهية مع أنه سبق أن صرح لي بأنه لا يلقى القول جزافاً في البرلمان وقد أشار علي أن أنتظر ما سيقوله في مجلس العموم وان للمصريين سيرون في أقواله بشري سعيدة بلادم . أقول أنه مع كل هذا يفوه بهذه الكذبة بعد مدة طويلة لم يقل فيها كلمة عن مصر . وان هذه العبارة يندرك منها هذه الطرق التي يتبعها الوزراء والاسباب التي يتعلق بها عقل غلادستون وكان الأمر الذي أحدثته خطبة غلادستون في ذهني زوال الشك والأمل في مسألة مصر من ناحية وزارتنا فلم نطاولني نفسي بعد ذلك على أن أثق في مستر غلادستون أقل ثقة . حتى أنه عندما

فلم يدافع عن الحكومة الذاتية في ارضها وجعل من نفسه زعماء هذه الحركة لم انخدع به بل اعتبرته رجلاً برلمانياً لا أقل ولا أكثر . واست اقول اني عند ما قابلته في ٢٢ مارس وحاطني وكله مروءة وحماة عن الوطنية المصرية لم يكن مخلصاً فيما قال ولكي اقول ان عطفه على الحق لم يكن العامل الأكبر في سياسته التي كانت غلبها عليه بواعث النجاح وانتهار الفرص . ومن ذلك الوقت زال عني ما كنت أنوهمه فيه ولم يعد الى رأيي السابق فيه .

وابيك المذكرات : « ٢ يونيه . كان بمنزلي لورد دلاوار وحريجورى وبراندي وباتون . وكلهم متفانون عن الحالة إلا براندي ولا يزال هاري يقول اني خائن وان عرابي قد أنرى إثراء عطفاً وانه يجب طرده من مصر . ثم اتفق باتون مع صابونجي على رموز لكي يستعملها باتون في ارسال التلغرافات اليه . وقد اعطيته مائة جنيه لمصارفه سيقدم لي عنها حساباً . وسنرسل الى التلغرافات فاحولها أنا بواسطة باتون على التيمس . وقد اعطيت التعليقات اللازمة لصابونجي وأنها أن يخبر عرابي بان يتصلح مع الحديرو وأن لا يذهب الى الاسكندرية معها كانت الاسباب . وقد رزمت له أمتته وودعه وليس عندنا من قلق بشأنه سوى الخوف من أنه ربما يحجز في الاسكندرية . ويقول لي باتون اني لو كنت المحت على الذهاب الى مصر لكانت الحكومة أصدرت الأوامر لسير سيمور بمنحي من النزول في الاسكندرية .. وأنا الآن مطمئن » .

ولو كنت سمعت خطبة غلادستون قبل أن أعد هاملتون بعدم السفر الى مصر لما رحمت عن نيتي في الذهاب . ولكي لا أعلن أنه كان ينتظر من هذا السفر شيئاً من الفائدة كادلت علي ذلك الحوادث الثانية . ولو كان قد سمح لي بالنزول في الاسكندرية لما كان لي من النفوذ لدى عرابي أكثر مما كان لصابونجي . لان صابونجي كان قدأ في تأدية مثل هذه المهام ولا أعتقد اني كنت أحصل على خير منه لو لم يتم هو بها . فقد كان رئيساً لتحرير صحيفة تدعي النحلة . وسواء اكانت هذه الصحيفة تحصل على اعانة من اسماعيل أم لم تحصل فانها كانت تدافع عن الابرار سائرة في سبل التقدم واصلاح الاسلام . فكان لصابونجي مركز عظيم عند رجال

لأحرار ثم هو كان مع الحركة الوطنية قلباً وقالاً وكان يقابل بالترحاب عدد جميع لوطنيين باعتباره نائياً وكانت الثقة فيه عطية حذاً وهو أيضاً كان حديراً بهذه الثقة. فان الخطابات التي انتمت على إرسالها إلى رجال الحركة قد وصلت إليهم وقد لمخني جميع ما قالوه له. وهذه الخطابات شاهد عدل بل الشاهد الوحيد على مجرى الاحوال في تلك الاوقات. وفي نهاية هذا المجلد يرى القاري حلاصة هذه الخطابات وقد وصل صابونجي إلى الاسكندرية في ٧ يولييه وبقى فيها إلى قبيل يوم خربها بتقابل البوارج.

« وقد بقي صابونجي في خدمتي إلى آخر سنة ١٨٨٣. ثم تركني وسافر إلى الهند حيث كان له أقارب. وتقلب به الاحوال حتى انتهت به إلى ما ينتهي إليه جميع رجال الثورة الشرقيين. أي سراي يلدر. فقد عين هناك مترجماً ينقل للسلطان ما يريد معرفته من الحرائد الأوروبية. وأعلن أنه لا يزال هناك إلى هذا الوقت أي سنة ١٩٠٧ »

الفصل الثالث عشر

« بهتة درويش »

لقد وصلت الآن إلى نقطة في تاريخ هذه الدسائس لو لم يكن لدي مواد مطبوعة شبيهة بالرسمية اعتمد عليها لعد القراء ما أروبه لم قصصاً خيالية لا أصل لها. فان الانسان لا يكاد يصدق أن حكومة حرة على رأسها هذا العظيم الطيب القلب غلادستون تقدم على عمل يخالف الآداب سواء كان هذا لاسباب سياسية أم مالية أم لضرورة خاصة. وقد وضع جون موزلي ترجمة غلادستون فاغضي عن تاريخ هذه الاقتحامات التي اندفع فيها غلادستون في مسألة مصر. فلم يذكر عن هذه المسألة في ترجمته هذه سوى خمس عشرة صفحة مع أن الترجمة تحتوي على ألف وخمسمائة صفحة كلها ترميز. وله الحق في ذلك لأنه لو أراد الاسهاب والتفصيل لما وجد ما يبرر خطة المترجم له. ومع كل ذلك يجب أن يكون لدى المؤرخين الذين

لا يضطرون الى مراعاة التكم هذه التفاصيل . لان التاريخ الذى بهل هذه الاشياء عن احتلال مصر ان يساوى قيمة الورق الذى يطعم عليه .
فانه عندما جاء أول يوبه تبين أن خطة الارهاب والتهويل التي اقضت بحبي . الاسطول للاسكندرية قد فشلت فشلا تاماً . نعم ان ودرة محمود ساقى قد استقالت ولكن هذا النجاح الابتدائي قد أعقبه حبوط عظيم .

وكان البلاغ يطلب من عرابي بكل وصوح أن يخرج من مصر . فلم يقال عرابي هذا البلاغ بالعصيان فقط بل ان الحديو نفسه قد اضطر بقوة الرأى العام أن يردده الى مركز ودارة الحرية ثانياً بعد أن رادى سلطته ووجاهة مقامه . فوجدت ودارة الخارجية نفسها بين أمرس . اما أن تكظم غيظها وترضى هذه الهزيمة العلنية واما أن تبرر ارسالها هذا البلاغ وتقم لكلمانه وزناى وقت كانت قد بدأت فيه أوروبا تنظر الى عرابي باعتباره بطلا من أبطال الوطنية .

وكانت فرنسا شريكة المجلترا فى هذه المسألة قد أخذت منذ وقت طويل تحمر مرغها فى الخروج من هذا المأرق . فكلفت حكومة متر غلادستون تكون الوحيدة فى الاستمرار على هذه الخطة . وكانت هذه الخطة من أعرب ما يمكن حكومة مسدية أن تتبعه وكان وجود متر غلادستون على رأس الحكومة الانجليزية مما يزيد هذه الخطة غرامة . فقد كانت تلخص هذه الخطة فى الرغبة الى الباب العالى أن يتدخل ويخلص مصر من عرابي . ولم يكن هذا التدخل قائماً على استعمال الباب العالى سلطته باعتباره صاحب السيادة على مصر ولا كان أيضاً بارسائه « الجندرمه » التى سبق أن ذكرنا الأشاعة التى راجت فى وقت ما عنها . كلا . قائماً كان هذا التدخل قائماً على تلك الأساليب التركية القديمة المبطونة على الحياة والفنر . وهي أساليب كثيرأما استعمالها الباب العالى فى اخذ حركت التأثير المسيحيين وغير المسيحيين من رعاياه عندما كان يشتم منهم بارة النجاح فى أوراسهم وأول ما يلهم الى هذه التدبيرات ما ذكرته البال مال غازيت فى احدى مقالاتها الموحى اليها بها وذلك فى ١٥ مايو حيث ذكر مورلى بعد ان أوضح رضى الحكومة عن الحالة « ان عرابي قبل مضي رمن طويل ستخلص البلاد منه بطريقة سليمة

هذات هـ وهذه التدابير لم يمش بالطمع سرها في الكتب الزرق . ولكنها ظهرت صد ذلك في البال مال حيث صرحت ناشيا . صراحة - ادحة كأن كانتا لم يسفر أقل نصور بعدم الثقة بما روى . وحلاصة هذه التدابير أن يرسل السلطان الي مصر سحوثا حرييا من طراز الحدود اللدس مارسوا الخدمة مدة طويلة وفيهم من النشاط والاستعداد للدوس علي الصمير ما يمكن ان يجنب بها المصريين ويحولهم عن مقاومة . أما عن عراي فان النية كانت في ان يغريه بالنزول في احدي «سمن» حتى اذا استقبلها انحوت به الي الاسانة . وادا لم يصح هذا التدبير كان علي هذا المبعوث ان يدعو عراي الي اجتماع ثم يقتله بنفسه . وكان هذا المقترح يوافق ما كان قد اقترحه كواهن منذ نعمة أشهر علي الحديوي وكا كواهن يقتدر بذلك فلم يكن اخذ هذا التدبير بعيد الاحتمال . وعلى ذلك أرسل السلطان رجلا يدعى درويش باشا وكان من حيث الخلق والسوابق يوافق هذه المهمة التي انتدب لها في القاهرة

وقد قال مورلي في مقال بطمح سرور آ لارسال هذا المبعوث العجا مايلي :

« لقد وصلت الازمة المصرية أقصى حدودها . ولكن يظهر ان في القاهرة الآن رجلا يستطيع ان يملك ناصية الاحوال . فان في وحاجة درويش باشا الهادئة الرصينة شيئا من التأثير . فهو بلا شك رجل الساعة . فانه مما يرجح البال ويزيل القلق انه بعد عدة قلبات ومراموعات مارسها السياسيون الذين يمثلون الآن هذه الدراسة المصرية نجد رجلا بجمل الآخر يخلصون لارادته بقوة شخصيته الكبيرة . فليس هناك شيء . أكبر آرا من اثباته لسلطته ولا أبرع من اشارته اشارة عرضية الي مذمحة الممالك . ان درويشاً رجل من حديد وحق عراي لن يرتجف أمامه . فما هو ان ينطق بكلمة خرقا . حتى يرى رأه . ه تدرج أمامه علي السجاد . أحل ان درويشاً قادر علي ان يعالج عراي بالطريقة الشرقية لا بالطريقة الغربية . ومن المرجح ان الثورة المصرية قد وجدت سيداً لها في هذا التركي القوي العزيمة »

ثم هناك ما يقوله أيضاً في ١٥ يونيو « ان تاريخ درويش الماضي حافل بالحوادث التي تزيد هذا الأمر الذي تركه في القاهرة من حيث نشاطه وقوته . فهو أشط اقواد في الجيش العاني وأقلهم احتفالا بالصمير والذمة . وهو مع انه في السبعين من عمره

فان ارادته لانزال كما كانت قديماً من حديد . وقد مارس الحروب أولاً في الجبل الاسود وكان الجليون يرون فيه أخطر القواد الذين يقاتلونهم . وفي آخر قتال حدث بين الباب العالي والجبل الاسود (في سنة ١٨٥٦) سار درويش الى جراكوفو وهي أبعد بلاد الولاية الشمالية . ومع بعض الاهالي من التتهقر الى الحبوب فلدجأوا الى معارة واختبأوا فيها . وهذه عادتهم اذا داهمهم عار . لان هذا الكهف الذي كانوا يأوون اليه كان يمنع على الغزاة احراهم منه لان الطريقة المألوفة في مثل هذه الحالات وهي التدجين على باب الكهف لم تكن ناجمة في هذه الحالة . وحاول الأتراك الفوز الى المغارة ولكنهم ردوا عنها بسهولة . فصد درويش الى المفاوضات واتفق على التسليم بشرط أن يحترم حياة المحصورين وأموالهم وحريتهم . وكانت النتيجة ان الأتراك بقيادة درويش حافظوا على شروط هذا الاتفاق بأن قتلوا جميع المحصورين . وكيفية ذلك اهم سيعوا الي مطبق في القاعة ثم وضعوا في الاغلال كل اثنس منهم معاً طيراً طهر ثم قتلوا . وذلك بأن يقتل أحد الاثنين فيحمله الثاني الى حيث يدفنه وبعض الناس لا يعرف الطريقة التي سلكها درويش في الحرب الالبانية . فقد ذهب الى البانيا لكي ينفذ قانون التجنيد ففشل فشلاً تاماً . وقد أشاع أساطير عن معارك لم يكن لها أصل لأنه لم يلق مقاومة تذكر . ولكنه نجح في طريقة أخرى وذلك بأنه كان يرسل في ضياع الييكويات الاغنياء وكان ينصرم حتى يخرج منهم آخر ولس . فاذا انتهى من أحدهم ذهب الى غيره . وكل يرسل الى الامتانة . بالقدود ولكه لم يرسل اليها مجتدين . فاذا كما نبتني تنبؤنا بصدد البعثة درويش في مصر على أعماله السابقة في البانيا والجبل الاسود فاننا نرى انه سينجح في مصر . فان المصريين أقل ميلاً لقتول من الجليين والالبانيين ولكن عدة المسألة المصرية يحتاج أيضاً الى السيف قطعها »

فهذه أقوال عجبية وجدير بحون موزلى اذا تذكرها الآن ان يعرفه المجرى والجبل لانه قد اتخذ بما قاله له أصدقاؤه في وزارة الخارجية حتى وقف من ضده في ذلك الصيف محامياً ينفوذ عن جرائمهم . فلا عجب بعد ذلك ان لا يذكر الله المصرية الا في عدة صفحات في تاريخه . وهذه أعمال عجبية أيضاً من رجل مثل

علاستون اذ ماذا يقول فيها لو أنه دعى الى ابصارها امام صميره الرسمي او عبر الرسمي ، حقا ان طيف درانيلى ليصحت من هذه الاعمال والاقوال ا

الا ان بعثة الساطن لم تكن كما توهمت ودارتنا الخارجية مهرة من الأنتم ساذجة فان امير المؤمنين لم تكن له رغبة في أن يكون آلة مسخرة في يد الغرب يفعل لهم أفاعيلهم ويحترم جرائعهم . فقد كان راصيا مائتدخل ولكن على هدى . وكان يجهل الحالة في مصر وكان يريد أن يستعد لجميع الطوارئ . وكان لعراي أصدقاء في البلاط يمثلونه باعتباره مدافعا عن الدين ولم يكن السلطان يثق مطلقا بتوفيق . وكان يرغب أن يصحح جلبا في مكانه . فانسع السلطان طريقته المعهودة في تعيين وكيلين متعارضين في الحطة . فانه الى جانب درويش عين شخصا آخر يدعى الشيخ احمد اسعد وكان من مشايخ طرق المدينة وكل يقيم بالاستانة ويستخدمة السلطان في المهمات السرية الخاصة بالمائل العربية . وكان يستشير في جميع المائل الخاصة بالعرب والدعوة الى الجامعة الاسلامية . وكان هذا الشيخ مواليا لعراي

فلما وصلت البعثة الى الاسكندرية تبين الثامران لهاصفتين . أحدهما في شخص درويش وتطوى على تهديد عراي . والاخرى في شخص الشيخ احمد اسعد وتطوى على المصالحة والسائلة . وكان من المهمات التي عهدت الى هذا الشيخ خاصة ان يبلغ السلطان عن الشعور العام وعن رأى علماء الازهر وكان يخاطب السلطان بأرقام قد اتفق الاثنان عليها قبلا وكان درويش لا يعرف هذه الأرقام . وكان عراي وأخصاؤه قد علموا ذلك قبل وصول البعثة فمابلوها بشيء من الترحاب . فكان مسطر استقبالا غريبا . فن جهة كل الشراكة والأتراك برحبون بندريش بنما كان المصريون برحبون تشيخ المدينة

وقد أرسل كل من الحديو وعراي مندوبين لاستقبال البعثة في الاسكندرية فكان ذو الفقار باشا ينوب عن الحديو وكان يعقوب سامي باشا ينوب عن عراي وكان عراي قد سبق فأرسل عبد الله نديم الخطيب لكي يهيء الجمهور حتى يحسن استقبال البعثة ويحتج أيضا على البلاغ الأخير الذى أرسله ماليت وزملاؤه الفرنسيون للحكومة

وعلى هذا استقبل الجمهور المبعوثين وكان كل مهبا في مركته ومعه مندوب .
فشكل الجمهور بصيحه « الله يبصر السلطان » ثم يلي ذلك : « اللاحمة مرفوضة .
مرفوضة » يريدون بذلك رفض البلاغ اللاحير . وأيضا « ردوا الاساطيل » .
وكان لهذا الغتاف آثره عند درويش فانه احتاط لنفسه من ذلك الوقت . وقد
ذهب الى البعثة وهي في الاسكندرية والقاهرة مدعون من الاعيان والتجار والموظفين
وكان درويش يجيهم على السواء . إجابة عامة . وهي ان السلطان سيجري العدل وانه
هو قد آتى لكي يرد للسلطان سلطته وبعيد النظام . ولم يصرح الا للأتراك بأن
عراي سيرسل الى الاستانة . اما للمصريين فانه كل بصرح أن الاساطيل ستفادر
المياء في أقرب وقت بينما كان الشيخ اسعد يطمس عراي ويخبره بان السلطان لا
ينوي محوه الا باليات الحسة .

أما الصفات التي اعتقدت وراثة الخارجية الانجليزية ومورلي وجودها في
درويش كما يدل على تلك القطعة التي نشرها مورلي واقتبسناها فلم يكن لها تلك
المسحة القاسية التي توقها مورلي . فقد كان درويش رجلا منا وكأنت عاقبه أن
يلا جيوه لا أن يشتبك في نزاع مع رعيم الملاحين . وقد تمكن توفيق من أن يدفع
له خمسين ألف حيه وقدم له من هبات الخلى ما يقدر بمئة خمسة وعشرين ألف حنيه
ولكن درويشا مع ذلك لم يحاول ان يصرب عراي صرية قاضية . فقد حاول مرة
ان يهدد المواطنين ولكنه نعلم من هذه ألا يعود الى مثلها بعد ذلك . وفي يوم الجمعة
التالى لقدومه زار بعض المساجد وعبر عن استيائه من العلماء لأنه عندما خرج من
الأزهر نحر أواعلى أن يقدموا له عريضة ثم لم يكتفوا بذلك بل زادوا جرأتهم وذهبوا
اليه بعد الظهر وزاروه وعبروا عن أفكرهم بحرية لم يألفها .

وكان جميع هؤلاء العلماء باستثناء العباسي شيخ الاسلام السابق والبحراني والاياري
والسادات في صف عراي . أما هؤلاء الاربعة فكانوا في صف الحديو . وقد طلب
العلماء من أن يرفض البلاغ وبخاصة تلك الفقرة التي تشترط بي عراي . فأمرهم درويش عند
ذلك أن يلزموا الصمت وقال انه إنما آتى لكي يلتقي الاوامر لا لكي يسمع النصيحة
وطردهم وفي نفس الوقت أنهم بالسام العثماني على شيخ الاسلام وسائر المنشقين .

ولكن الرأي العام تحلى في الحال بصورة لا تترك مجالاً للشك . فقد عاد هؤلاء الشايخ من لدنه وهم في أشد القبط وأحبروا كل واحد بأهله التيسار حسب مارأوه من لهجة درويش وفي نفس هذا المساء أرسل الوطيطون رسلكم الى المديريات في قطارات المساء لكي يذهبوا للاحتجاجات . وعقدت عدة اجتماعات تلك الليلة في القاهرة تسخط فيها المجتمعون على البعث . وفي اليوم التالي عقد اجتماع كبير من الطلبة في الازهر واحتجوا على الاهانة التي نالت مشايخهم وفي هذا الاجتماع دعى عبد الله نديم الى الخطابة فخطبهم خطبة بليغة .

فلما بلغ درويشا هذه الحوادث اهتز لها ففقد ثقته ولم تمض ساعات حتى أرسل الى عرابي الذي كان الى ذلك الوقت يرفض مقابلته ودعا أيضا محمود سامي وخطبهما بواسطة مترجم وبهجة المصالحة . وكان الشيخ أسعد مع المترجم يساعده في إيضاح ما يريد به وعلى الرغم من أن درويشا لم يقدم لهم القهوة أو السجائر — وهو ملاحظه عرابي ورفيقه — فان لهجته كانت غيل الى المصالحة . فقد جعلهما يجلسان الى جانبه وأخذ في فحص الحالة فحسا علي مسحة الصراحة . فقال : « انا هنا جميعا اخوان لانا أبناء السلطان . ويمكننا أن تطرا الي والى هذه اللحية البيضاء باعتباري أنا لكما . ثم ان قصدنا جميعا واحد وهو مقاومة الاجاب ومبارحة الاسطول الذي يهدد سلامة القطر المصري ويحلب العار بوجوده هنا على السلطان . فالواجب علينا أن ننظر الى هذا الغاية وأن نظهر غيرنا لمولانا . كل هذا يمكن عمله بان (وهنا وجه الخطاب الى عرابي) نزل عن سلطتك لي ولو في الظاهر وتساقر أنت الى الاستانة لكي ترضى السلطان » فأجاب عرابي بأنه مستعد لان يستقيل . ولكن بما ان الحالة خطيرة والمسئولية عظيمة فهو لا يرضى بأن يؤدي نصف العمل . فاذا استقال فيجب أن تكون استقالته بالفعل والقول . ولكنه لن يستقيل الا اذا تسلم خطانا تدون فيه اقالته . ثم انه لن يكون مسؤولا عن الاشياء التي تعزى اليه والتي يعتبر نفسه بريئا منها . فقد سبق ان اتهم بارتكاب المظالم وانتهاب أموال الحكومة وما الى ذلك فهو لن يترك منصبه الا اذا حصل على اقالة مكتوبة تتضمن تبرئته مما عزى اليه . ثم انه يؤجل سفره للاستانة الى وقت تكون قد هدأت فيه الحالة . وعندئذ يذهب باعتباره أحد أفراد

المسلمين ليقيم دروس الطاعة للحليمة . ولم يكن دروس مستعداً لقول هذا الجواب فلم يستمره وتعبرت هيته . ولكنه قال : « فليعتبر أن المسألة قد سويت » ثم أشار الى الميخاض الذي رآه في الاسكندرية وقال : « ارسل نلعرفاً لعمر ماشا اطلعي (المحاظ) . وقائد الحامية في الاسكندرية . وقل لها انك قد زلت عن وظيفتك الى وابتك تعمل الآن باعتبارك وكلي . وبوم الاحد سيجتمع القاصل بالحدود وستعطيك الاقالة التي تطلبها » .

فرض عرابي أن يفعل ذلك قائلاً أنه لن يستقبل حتى يتسلم خطاب الاقالة . ثم اقترق قادن أن يحدث بينهما تفاه .

هذا هو بيان ما جرى في هذه المحادثة كما رواها نبيه وغيره ممن وقفوا عليها . وكانت هذه المقاتلة في طهر يوم ١٠ سويس . وهي ذات أهمية من عدة وجوه وخاصة لما كلف لها من العلاقة عما حدثت في اليوم التالي من الشعب الذي كان في الأصل مشجرة بسيطة بين مالطي ومكلى مصرى . فقد ابتدأت هذه للمشجرة في الساعة الأولى بعد الظهر وانتهت في الساعة الخامسة وكانت نتيجتها ان مائتي شخص قتلوا وكل بينهم صابط من البارجة « سيورب » وقتل أيضاً مائتا اوروي زيادة على ذلك . وحدث لكوكون القصل الربطاني عدة اصابات خطيرة وأصيب أيضاً قصل ايطاليا وقصل اليونان بعض اصابات . ولم يهدأ الاضطراب حتى وصلت الحنود النظامية فأخذته . وكان هذا الاضطراب أول ما حدث من نوعه بعد عام من الثورة في مصر . وقد أحدث خبر هذا الاضطراب الذي ارسل الى اوروبا بالتلغراف ضجة كبيرة وخاصة في انجلترا .

وبما أن تبعه هذا الاضطراب الذي عاد شؤمه على القضية المصرية قد اقيمت على كاهل رجل هو أكبر من اودى منه — اعني به عرابي — وبما أن هذا الاضطراب قد أخذت وزارة الخارجية الانجليزية تستقله لمصلحتها وتطلبت به لصرب الاسكندرية لأنها اعتبرت مصر « في حالة من الفوضى لا يمكن اسكرها » فإنه يحسن أن نقف هنا قليلاً لكي نقرر مكل هذه التبعة وما لحقها من الحرام . فاني عند ما سمعت عن هذا الاضطراب في لندن شعرت لأول وهلة أنه نتيجة

سيرة التي دبرها رجال وزارة الخارجية بواسطة درويش لايقاع عراقي في الشراك
سى نصب له والغدر به . ولكى لم أحصل على المستندات الخاصة بهذا الاضطراب
لاعد الحرب . فلم يكن فى مقدورى الدفاع عن الوطنيين وتبرئهم من ارتكاب
هذه الجناية الا بعد حصولى على هذه المستندات .

فانا نعرف الآن جميعاً أن هذا الاضطراب وإن كان فى الأصل قد حدث
حول تدبير سابق فإن حزب الحديو كان يوى أحداث مثل هذا الشعب لكي يثبت
عصم أهلية عراقي لحفظ النظام فى البلاد .
أما الحالة فى الاسكندرية فكانت كما يلى :

كانت الاسكندرية أكثر من كل بلدة أخرى فى مصر تحتوى على عدد كبير
من الأجانب فكان فيها الى جانب المسلمين عدد كبير من اليونان والاطالين
والمالطيين . وجميعهم يشتغلون بالتجارة وأكثرهم يشتغل بالربا . ولم يكن بين
طبقتي الأجانب والوطنيين ود كبير . ثم أن مجيء الأسطول الى الاسكندرية
كل القرض الطاهر منه حماية الأجانب باعثاً على إيقاع الصدور . فقد كان محافظ
البلدية يحتاج الى صفات الثبات والولا . والرفق لكي يحافظ على النظام كما كان رجال
الأسطول أيضاً محتاجين الى الرزاة ولكن كان المحافظ لواء الحظ وهو عمر باشا
لطني بكره الوطنيين . فانه كان شركياً وأحد أفراد الماشية وكان موالياً لاسماعيل
وقد خدم توفيقاً وقت المؤامرة الشركية بأن فاض الدوى فى الجهات الغربية بأن
يكونوا فى صف الحديو . فهو لهذا السب كان يشجع العناصر الوطنية على الشعب .
أما اليونان فقد كانوا مسلمين من قبل بواسطة رئيس طائفتهم امبروز سينادينو وهو
رجل منر ولكن أيضاً وكلا ليت روتشيلد فى مصر . وقد نلح الممالطيون أيضاً
واغضى عنهم القنصل الانجليزى كوكسون . فكانت جميع الأحوال مهيأة لأحداث
شغب منذ الأسبوع الأخير من شهر مايو توقفاً للحرب الأهلية التي يذكر القارىء
أن البال مال غازيت قد تنبأت عن حدوثها واعتبرتها حلاً لا بأس به اذا رفضت
الوزارة الوطنية أن تستعمل .

وليس هناك من شك فى أن الساسة الانجليز فى القاهرة كانوا ينتظرون هذا

الاضطراب ليعتبروه حجة على الفوضى بل انه كان في نظرهم لا ينأى خطهم . ومن السهل أيضاً أن تثبت أن عمر لطفي كان يرغب في ازالة عراي من مسرح السياسة . وقد ورد في التلغرافات انه عند ما كان البلاغ الأخير بوشك أن يرسل للحكومة المصرية كانت قد هيات قائمة بأسماء أعضاء الوزارة الشريكية الخديوية المرشحين بعد استقالة وزارة محمود سامي . وقد رشح لوزارة الحرية بدل عراي محافظ الاسكندرية هذا عمر لطفي . ولم يكن هذا الخبر غير مؤسس على حقيقة لأننا نعرف انه بعد ذلك بأيام دعا الخديو عمر لطفي الى قصر الاستماعيلية وعرض عليه هذا المنصب .

حاجي المال مال عاريت في ٢٨ مايو ما يأتى : « القاهرة في ٢٧ مه - اجتمع في سراي الاستماعيلية ظهر اليوم عمر باشا لطفي وشريف باشا وسليمان رئيس مجلس الاعيان وراغب باشا ... وستكون رئاسة مجلس الوزراء لشريف باشا أو لعمر باشا لطفي ... وسيكون عمر باشا لطفي وزير الحرية » .

وقد سلم البلاغ الأخير في أول يونيو واستقالت الوزارة في ٢ يونيو وانتظر الوزراء يوماً لأن الخديو أخبرهم بأنه سيرسل تلغرافاً يستشير فيه الاستانة ولكن عند ما حاه الوزراء في الصباح أخبرهم بأنه قد قرر أن يقبل البلاغ ولو أنه لم ينسب من الاستانة جواباً على تلغرافه . فلما كان اليوم الثالث من يونيو ورأى الخديو انه مضطر الى إعادة عراي بصفط الرأي العام عليه ومظاهرات الجمهور وماصرة القصر الالمانى والفصل النموى لعراي لأنهما كانا بريان فيه أ كفاً راحل لحفظ السنة في مصر كانت خيبة آمال عمر لطفي كبيرة . وكان يرى في حبة آماله هذه ما يذهب الي تنفيذ رأى هذين القنصلين باقامة برهان على . وهناك زيادة على ذلك شخص آخر يقوى ثقتنا في انهام عمر لطفي . وذلك أن الخديو الذى كانت خيبته لا تفر عن خيبة عمر لطفي أرسل في ٥ يونيو تلغرافاً قال فيه :

« لقد تمهد عراي بحفظ النظام وأعلن ذلك في الحرائد وقبل على نفسه المنوي أمام القاصل . فاذا نجح في هذا التمهيد فان الدول يتقرب به وعدتند تضع اعتبارات ثم أن أساطيل الدول في مياه الاسكندرية فقول الناس متهيجة بالمشاعر يست

مبة الحدوث بين الاوروبيين وغيرهم . فالآن : احتر لنفسك اذا كنت تنوي
حصة عرابي فساعدته على تهمة أو تنوي خدمتها .

وكان في هذا التلجج ما يجعل عمر لطفي يتحد اجراءاته . وكان ماعتباره محافظا
« حق الأمر على المستحفظين وهم يؤلفون بوليس الاسكندرية الشبه بالحربي
بواسطة هؤلاء . أمر أن نجمع السابيت في أماكن الأقسام لكي توزع في الوقت المعين
« بعد الاعدادات اللازمة الأخرى لاحداث الاضطراب المقصود .

وهناك أدلة قوية في الكتب الرق ثبت اشتراك البوليس في الاضطراب .
وإن هناك احتلاطا في التمييز بين رجال البوليس هؤلاء وبين الحدود وذلك لأن
هذه عسكى مدل في مصر على الاثني . فإن الحدود النظامية كانت بقيادة المحافظ
حربي ولم تشترك في الاضطراب الا بعد ما دعيت في الساعة الأخيرة بناء على
طلب عمر لطفي عند ما رأى ان الاضطراب قد عدا طوره وأنه لا يستطيع امتلاك
باصيته . ومما يلاحظ أن دئس المستحفظين سيد قنديل وكن من المستصرين لعرابي
وهو رجل ضعيف القلب رفض أن يشترك في أعمال ذلك اليوم واعتذر الى
المحافظ بالمرض .

فالاضطراب كان قد دبر عند وصول درويش ورفيقه الى الاسكندرية في ٨
يونيو . والأرجح أن المقصد كان أحداثه في نفس الوقت الذي يقبض فيه على عرابي
ودلك لاقامة البرهان أمام مبعوث السلطان بان عرابي غير قادر على حفظ النظام .
ولست مقتنعا بأن درويش كان يجهل ما سيحصل وأظن أن الأرجح أنه كان يعرف
كل شيء قبل حديثه مع عرابي . وأنه لو كان قد نجح في جعل عرابي يستقبل لكن
ألمى تدبير هذا الاضطراب . وهناك ما يدل على ان الاضطراب وقع قبل الوقت
الذي كانت النية متهودة على أحداثه فيه . لان من المحقق ان حادثة المشاجرة بين
المكركى والمالطي كانت حادثة عرضية ولكن المرجح أنه لم تصدر أوامر الى البوليس
بوقف المشاجرة فاستمرت وفقا لبرنامج الموضوع للاضطراب . ولكن ما لا شك
فيه ان الحدوي في القاهرة وعمر لطفي في الاسكندرية كانا يحتكران المواصلات
التلغرافية بين هاتين المدينتين . وان عمر لطفي كان يؤجل وهو يتعلل بعدة أعذار

طلب الحدود الذين لم يكن لهم الحق في العمل الاندماج باعتباره المحافظ الملكي للعديّة. ثم ان هذا الاضطراب كان مدعاة الى اعلان المرح يس رحال بلاط الخديو بينهما كان مدعاة الى الاسف عند عراي والوطنيين الذين أخذوا أيضاً في التصغير من شأنه ثم ان اللجنة التي عليها الخديو لتحقيق هذه الحادثة كانت مؤلفة من أعضاء من حزبه ولكيلا يجعل تحقيقها قيمة جعل عمر لطفي رئيساً لها . وصلة الخديو بعمر لطفي تزداد وضوحاً عند ما نعرف انه لما اشتدت شبهة القاصل في عمر لطفي مع الخديو احارة . فلما حضرت الاسكندرية ظهر ثانياً ونال ما كان يطعم فيه وهد وزارة الحرية . وقد بقي هذا المصب في يده الى شهر مايو سنة ١٨٨٣ عند ما أنهى لورد راندولف نشرشل في البرلمان هو والخديو . فاستقال عندئذ . وفي ملحق الكتاب برايمس أخرى تؤيد اشترا كهما في احداث هذا الاضطراب .

ولكن هالك نقطة في هذه المسألة المشؤمة لاتزال عندى موضع الاشكال . وهذه النقطة هي تقدير المسؤولية التي تحملها وكلاؤنا في القاهرة والاسكندرية من هـ . الحوادث . فان في رسائل ماليت ما يعبر منه الانسان انه كان ينتظر حلاص لهصاعب السياسية الى كانت تواجهه وذلك في وقت الذي كان يدبر فيه هـ الاضطراب . ثم ليس من يشك في ان جميع ما كان محتج به على الوطنيين ان اذا ستؤدى الى الفوضى . ثم من المحقق أيضاً ان كوكون القصل الانجليزى ماسك . قد تفاخي عن تسليح الماطلين . ومع ذلك فهناك فرق شاسع بين هذه الامور وبين التواطؤ على احداث هذا الاضطراب . وكل ما أعرفه عن اخلاق مـ . وسلوكه في المستقبل يدعوني الى تبرئته من هذا الاضطراب .

وكان ماليت يثق في توفيق ويعتبره حديراً بالثقة وكان يصدق جميع . يقصه عليه وقد علمت ان وقوفه على حقيقة توفيق بعد الحرب قد آلمه أشد . وهذا القول يصدق أيضاً عن كوفن . فانه كان يجهل تدبيرات الاضطراب . كل يجهل أعمال الخديو منذ عام ولو انه من الصعب ان يعتقد الانسان ان يعرف الحقيقة بعد ذلك بوقت قريب . فاهما كانا متحابين مع عصابة

والاضطراب وعدم ما حدث الاضطراب سارنا الى مصديق الخديو لاهما رأيا في تصديقه ما صادف هواهما فلم يبحثا عن الحقيقة .

وكان لاهما يطر الى الاضطراب عذابه اذ ان اشتعل تنفيد ما رجا وكما يحتاجه على الوطنيين وان ادارتهم ستؤدي الى الخراب والتدخل الاحي . هذه صفة الى لها بالاضطراب هي كل ما اتفق عليه من المسئولية .

ويمكن تلخيص ما حدث بعد ذلك في اضطراب قليله قلنا أعود بالقارى الى مذكراتي فأقول : أن نتيجة الاضطراب لم تكن كما توقعها الخديو وأصحابه بالضغط ضد حرج الاضطراب عن الطور الذي عين له قبالا في رماهم حتى دعت الحالة الى ادخال الحدود الطامية لاعادة السكينة . وبدلا من أن نسط كرامة عرابي به حدث من الزعب بين الاجانب وهم طائفة ترتعد لاقبل حادث ما جعلهم يطورون الى عرابي باعتباره المحي الوحيد لهم حتى أن الماصل لمشاء القصل الانجليزى وافقوه على رأيه . ثم ان الطام الذي أهدنه وحود الحدود الطامية في الاسكندرية راد مقام عرابي في أعينهم . وهذا أقول أنه لو كان عرابي رجل أعمال بدلا من أن يكون رجل أحلام وأمانى أي لو كان فيه صفات الحاكم القوي التي كانت لسوء الحظ متوفرة كثيرا لاستطاع في ذلك الوقت أن يكسب المعركة السياسية من حصومه الذين كانوا لا يراعون الذمة او الشرف فيما كانوا يفعلون . فلو كان عرابي حاكما قويا لكل من الضروري أن ينهم المرتكبين لجرائم الاضطراب ومحاكمهم وكان عندئذ يثبت للجميع أنه ليس من يد أقوى من يده وان العقاب سريع النزول بمن يحدث أي خلل بالامن العام . فكان يمكنه أن يباشر أوروبا والسلطان بكلمات عليها طابع الحاكم القوي بحيث لم يكن من الممكن عدم المبالاة بها . وفي هذه الحالة لم يكن لحكومتنا أن تشذ عن الجميع وتناووه :

ولكن عرابي لسوء حظ الحرب لم يكن رجلا قويا وانما كان ذا أمانى انسانية وكان في خلقه شيء من العباد والانشأ لآرائه والرعة في تحقيقها . فكان يجهل أوروبا جهلا تاما وكان يجهل أيضا الطرق والاساليب السياسية الغربية . فصاعت منه الفرصة السانحة وكلت مالهت وكوثر قد عرسا الخوف في قلوب القاصل

وفي الوقت الذي كانا يكلماه فيه بالمحافظة على النظام في الاسكندرية كانا يهينان صربها بالاسطول . ومن ذلك الوقت رال الامل في تسوية المسألة بالوسائل السلمية .
حدث بين عرابي وبين سير بوشامب سيمور قائد الاسطول مشاجرة تشبه ما يقع بين الدئب والحل . وكان الدافع اليها ان خادم سير سيمور وهو رجل يدعى مسنراكت . قتل في الاضطراب . فاراد سير سيمور ان ينتقم من الاسكندريين لقتل خادمه بصرب الاسكندرية ولو كان في الميدان رجل أقوى من عرابي لاستطاع الخروج من هذه الأزمة . ولكن عرابي لم يكن يزيد عن أن يكون فلاحا متفوقا له عدة أسكار قليلة حلياة فكان يصيه العشل . ولكنه مع ذلك لا يستحق الثوم الذي اتاه عليه بنوطه . فانه لم يستطع أحد منهم أن يفعل شيئا يفضله (١)

ولنرجع الى المذكرات :

« ٣ ريو — كنت بورادة الخارجية ضيقا عند ليدي حرافيل وكان جميع السياسيين هناك . وكان جميع المتصلين بالوزارة مرحون ويدشون . وقد تكلمت عن الحالة مع ولسلي ورولتسون والسفير الأمريكي « لوبل » وغيرهم . وتحدثت أيضا مع سير الكسندر واليدى مالت على الرعم من الشجار الناشب بيني وبين انهما . فكانا يحدثانني ببشاشة ولطف . ويظهر على الجميع أنهم قد تمسوا الصعداء . لتأجيل الازمة المصرية . ولكن ولسلي يقول لي ان السلطان رفض أن يشترك في مؤتمر . وكان ابن عم الحديو وهو رجل صميم يدعى عثمان باشا احد الضيوف .

(١) المرحح ان الذي منع عرابي من محاكمة عمر لطفي هو أولا اضطراره الى وقوفه الى صفه باعتباره مسلما مثله في شجار مع عبر مسلمين . والثاني انه كان هناك شبيهة بتواطؤ الحديو معه . وكان لا يرغب أن يدخل في شجار مع توفيق في ذلك الوقت لانه مضي وقت طويل على نصاله معه . وكان قد اقم منذ أيام قليلة أن يحافظ على حياته كما يحافظ على نفسه . ففضل أن يلقي الثوم على كوكسون وسينادينو وهما بلا شك يستحقان الثوم . وهذا طاهر من خطابات صابونجي ووثائق أخرى ملحقه بهذا الكتاب .

« كن حاضراً أيضاً ولي العهد وأمرأه آخرون وبما أدهشني تلك الدشاشة التي وحدثها في هنري ستانلي . فقد قال انه يحب شديد الإعجاب بمرابي لأنه يهصر الإيمان بأنه يستحق الترقية وإن يسقى هو وتوفيق في التماهرة . وبما انه يمثل في أقواله هذه آراء الاستانة فقد اطمأنت من هذه الساجبة . فإذا لم تطرأ حوادث جديدة لنحوز لنا » .

وهذه الإشارة الأخيرة عن لورد ستانلي ذات أهمية . فإنه كل صديقاً حقيقياً لي قديماً . ولكما كنا نختلف في الرأي عن المسألة المصرية وسبب الاختلاف هو هذا :

فقد كان مزمعة طويلة ملحقة بسفارتنا في الاستانة وهالك تشيع بمحبة الأتراك وكان حب الأتراك في ذلك الوقت نزعاً فاشية بين الإنجليز . وفي سنة ١٨٩٠ كان قد سافر الى الهند الشرقية فآمن بالاسلام . وقد عرفته بطريقة غريبة في ذلك الوقت فقد كنت مسافراً الى إنجلترا عن طريق اثينا والاستانة ونزلت في نهر الدانوب في إحدى البواخر . فلما وصلنا الى إحدى مواقي رومانيا نزل الى الباخرة عائلة أمير مر . أمرأه الفلاح وبصحبها انجليز شاد الهيئة سادج القباس ظننته أولاً مرابي الصبيان أو سكرتير رب العائلة . ودامت سياحسا عدة أيام فصادفت هذا السائح وقد لذي وقتئذ معرفته الواسعة بالشرق ولكه لم يخبرني عن اسمه . وعند ما وصلنا الى فينا اقترح علي أن يذهب معي الى دار السفارة .

وهالك تحققت من شخصيته وسافرتنا من هناك الى مونيخ حيث كان أخوه ليولف ستانلي يتعلم اللامبية . ومن ذلك الوقت عرفته حق المعرفة وانتهز هذه الفرصة الآن لكي أقول انه على الرغم من اطواره القريصة كان رجلاً شريفاً بعيداً عن الانانية .

وكان باعتباره مسلماً شديد الحماسة والعطاف علي آرائي ولكه لم يكن يوافقني على تفضيل العرب علي الأتراك الذين كان يرى فيهم قادة الاسلام . وكان وهو في لندن علي اتصال دائم بالسفارة العثمانية . ولذلك فربأه عن علاقة

السلطان مرابي في الوقت الذي كانت تروج فيه اشاعة ارسال بعثة درويش له قيمة تاريخية عظيمة .

واليك ما كتبت في مذكراتي بهذا الصدد :

« ٤ يونيو — في كرايت يوم الاحد . وهو أول يوم لم نضكر فيه بمصر بعد اسابيع عديدة كثر فيها اشتعال هذا الموضوع . وأظن ان المسألة قد سويت الآن وقد لعبت التمس سد الطهر وانا فرح . ولكن الحسد يدعنا وزارنا وتورث ونزل وفرانك لاسل وهنري وكور ومولوني وآخرون .

« ٥ يونيو — عدت الى لندن . . تقول ليدي جريجوري انهم الآن غير مرتاحين الى سلوك كولفن ويقولون انه غير موافق لمركزه في مصر . وقائل هذا هو اللورد نوت تيروك . ولكن لورد جرايفيل قد ارسل الى سير ويليام جريجوري يستشير في موضوع مصر » .

وعما يلاحظ ان ليدي جريجوري قد بقيت على عهدها الاول موالية للقضية الوطنية بخلاف زوجها . وقد خدم كلاهما عرابي بعد ذلك وبخاصة في وقت المحاكاة وكانت صحف لندن قد بدأن يهتم بمصر ويكتب عنها بشيء من المعرفة وأرسل أكثرهم مكاتنين خصوصيين في القاهرة والاسكندرية . وكان من بين هؤلاء مكاتب الديلي تلغراف الذي انتصر لمرابي بشدة .

« ٦ يونيو — جريدة الديلي نيوز نهيت نفسها منذ الآن لأن تدعو الى العودة الى الحالة التي كانت قبل ارسال البلاغ الاخير . والارجح ان اكثر الجرائد سيسير وراءها في القول بهذه الخطوة بل جميع الجرائد ماعدا التيمس والبال مال التين قد وعظا عن الحق فأبنا أن تعظا . وليس لأرى العام الانجليزي قيمة الآن . . . تحدثت مع لاسل بمحادثة طويلة وأرجو أن أكون قد جعلته في صف مصر . وفي المساء كنت راكبا مع برنارم كراي وقد تطوع ان يراهن على انه لن نخسر خمسة عشر يوما حتى يكون قد انتهي عرابي واهرم .

« ملاحظة : برنارم هو شقيق فيليب كرى احد اصحاب المصارف وهو ابناً من انصار غلادستون المتصلين به . ورأيه هو بلا شك رأى رئيس الوزارة »

٧ يونيو — زارتني ليدى جريجورى وأنضت الى بحبة أجبار . فأخبرتني .
لورد جرانفيل قد قال لزوجها ان آمالهم معلقة على مئة درويش . ومما قاله لورد
جرانفيل ان درويشاً عديم الدمة والشرف ويستخلص من عراي بطريقة ما وأظن
هذه الطريقة هي الرشوة (١) ويظهر ان لورد جرانفيل قد ألمع الى غير ذلك فقد
يكون طريقة التخلص بواسطة فتجان قهوة ولكني لست أخشي هذا . لان غرض
سلطان لا يرعى الى قتل عراي بل الى حفظه بالاستئانة رهية . ومع ذلك فأنا في
شد الاثنياق لان يصل صابونجي . ولا يزال يساورني الشك بأنهم لمعرفتهم بصلته بي
سبحون نزله الى الاسكندرية . وقد كتب الى رقة وهو في القطار زاد فيها بعض
علامات ليستعملها في الاصطلاحات التلغرافية التي اتفقنا عليها وهي علامات
مصححة . ثم قابلت جريجورى وقد أعاد على جميع ما قالته لي روجه . وهو يظن
انه يجب استدعاء كولفن وماليت .

وقد كتب بيمروك الى برلين يقول له أن حق وراوة الخارجية على لاحد له .
ولكن هذا لا يهمني . . . التقيت باوسئين لي في النادي فسألني عن آخر ما وصل
من الانباء من مصر ولى هذا هو سكرتير ذلك . فقلت له انه بلغني انكم منرسلون
الى مصر عدلا من الملح لتعلقوه في ذنب عراي . فأجبتني علي الفور قائلا : كلا .
فان الملح يستعمل في تعليقه . وقد ركبت في المساء مع سيريل فلور وقد تزوج من
أسرة روتشيلد فنصحت له بأن يبيع اسمه المصرية . وتناولت العشاء مع برترام
فكان أرق من قبل . فهو يؤمن بفلاستون ويعتقد ان أولدا متحصل على الاستقلال
الداني . ومما قاله ابن غلادستون يتقدم الزمن الحاضر بجمل فبعد مضي عشرين
سنة سنؤمن بقيمة الاهتمام بمسائلنا .

(١) اجد في المذكرات عن سنة ١٨٨٨ مايلي :

« القاهرة في ٢٢ ديسمبر — تناولت الغداء مع زبير باشا وقال انه حضر
محادثة بينه وبين درويش باشا فعرض عليه درويش ان يذهب الى الاستانة بمرتب
شهري قدره ٢٥٠ جنيه . فأجابه عراي بأنه لو رضي هو نفسه لوقف بينه وبين السفينة
عشرة آلاف شخص لئلا يفر »

« وقد كتب فريدريك هاريسون محتج على تدخلها في مصر . ولكن مقاله شديد الاهجة وقد نشر في البال مال تحت عنوان : المال . أيها السادة . المال » وقد توالى الخطابات على أثر هذا المقال . وقد أسعت كثيراً على عدم معرفتي بالكتاب قبل الآن فهو أعقل وأشجع من يكتب في المسائل الخارجية في حزب الاحرار وأقوي المؤلفين الذين ينشرون الرسائل السياسية ولو كنت قد لقينته منذ شهر أو شهرين لما حصلت الحرب لانه وان لم يكن في البرلمان قد كان ذا نفوذ عظيم بين الاحرار . ومما يزيد سوء المظالم لم يكن في الحزب أحد ذو مكانة ذهنية في هذا الصنف باستثناء فريدريك هاريسون . لان الجميع كانوا متقيدين بالوظائف ... »

« ذهبت الى ليدي سولزرى مدعوا في سهرة . وتحدثت مع ملتون وكان الاستياء باديا عليه بشأن أعمال في المسألة المصرية وذكر تلغرافاني فلم يتكلم عنها بآداب . وتحدثت أيضاً مع ستراثير فقال لي انه يود ان يذهب بعشرة آلاف جدي لكي يشق عرابي . وحرى بيبي وبين عثمان باشا وكامل باشا أبي عم الخديو حديث في غير السياسة ... وقد وصلت بعثة السلطان الى مصر »

« ٨ يونيو — وصل تلغراف من صابونجي يقول فيه انه قد صرح له بالمرور في الاسكندرية وبذلك زال غنى هي . وهو يقول ان البعثة التركية قد سافرت الى القاهرة ... ويرفض هاري براند أن يزورنا في كرايت حتى يرى ما تنتهي اليه الحال في القاهرة . وأخشى ضياع امواله في مصر فان جل ما يملكه فيها

« ٩ يونيو — كتب فريدريك هاريسون خطابا آخر في البال مال . وقد كتبت اليه اقترح عليه أن أطلعه على مكتباني مع ستر غلادستون . وزرت جريجوري . وقد قبولت البعثة بالترحيب والتهليل في القاهرة وظلي أن الناس هناك يتناولون بإيجاد نسوة . وكتب الى صابونجي يخبرني بالتلغراف أن عرابي قد أعلن انه سيقول المجنود التركية اذا انزلت في سواحل مصر . وهو لا يزال في الاسكندرية وهذا يقلقني لانه ينبغي أن يكون في القاهرة الآن . وتناولت العشاء في منزل وتورث لكي أقابل سير مارتل فريزر وهو رجل حلوا لسان دكي الفؤاد »

« ١٠ يونيو — تناولت الغداء مع ستر حرين وزوجته وهما يعلمان على مصر

كثيراً — والاحظ هنا ان متر جبرس هذا هو المؤرخ المعروف . وكانت سخته قد تضعفت في ذلك الوقت واني أذكر الآن عطفه على وعلى القضية التي كنت اذافع عنها . وكانت وفاته حسارة كبرى لجميع الذين يدركون قيمة سياسة البيرة .

« لقد ابتدأ القلق يفتريني هذه الايام عن الحالة بعد مضي اسبوعين وأنا مرتاح البال . وتقول صحف المساء أن درويشاً قد نجح وذلك بأن « اشترى » جزءاً كبيراً من الجيش وأنه يطالب عرابي بأن يذعن له . فإذا لم يصد له عرابي فإن كل شيء يذهب سدي . وبعد تفكير طويل قرأني على أن ارسل هذا التلغراف الي صابونجي . الساعة ٧ مساءً . « اقبضوا على البيعة . لا تخشوا أحداً الا الله » وبعض هذا التلغراف أرسل بالارقام . ولكني أخشى أن لا يكون قد ذهب صابونجي الى القاهرة . والا فلماذا لا يرسلني . هل حدث له ما يمنعه ؟ ... تناولنا العشاء عند ليولف ستانلي وكلن معنا آخرون منهم رابط . وكان كلامه عن مصر كله مروءة وقد انضبت اليه بعض الحديث وأطه كلن مناسباً . وصرحت له بجملة ما عندي والمسألة الآن تتوقف على مقدار الحرامة التي عند أعضاء الحزب الوطني . وأظن أن أوامر درويش كلن القصد منها سبر عور الحزب من هذه الناحية فإذا وجد منهم مراساً شديداً عضدتم . وهو لو استطاع لسحقهم على أيدي الشراكة ولكني أرجو أن يستقوه أو على الأقل يخيفوه فان السلطان لا يجرؤ على اتحاد الحركة بالعنف .

« ١١ يونيه — سافرت في قطار الصباح الى كرايت وقد كنت قلقاً لثلاث أجد في الجرائد خبراً عن حدوث انقلاب . ولكن الزرفر تقول انه لم يحدث شيء . وتذكر الجرائد بعض الحكايات عن كبرياء درويش وتفطرسه نحو العلماء . ولكن لا أهمية لهذا . . . في الساعة الثانية جاء اليها الامير عثمان والامير كامل وابن عمها — وفيههما عارف بك ودليلهما الانجليزي وهو رجل يدعى بليرير لكي يروا خيولنا وبينما كنا نريهم الخيول جاءني تلغراف من صابونجي هذا نصه :

« القاهرة في ١٠ يونيو الساعة ١٢ — تحدثت مع عرابي . البرلمان والازهر

والجيش يعضدونه الاسطانا ماشا وشيخ الاسلام والامة قد قرأها على خلع
الحديو . والباب العالي لا يميل الى مقترحات أوربا . وعراى يلج على انه لن يتفر
السلام حتى يخرج كولس وماليت وهو سيقاوم هجوم الاراك ولى يسافر الى
الاستانة . عين الشيخ عليش شيخاً للادهر . قرر الباب العالي خلع الحديو . ماليت
يلج على البعثة بان تقبل مقترحات أوربا . خطب عبدالله مديم في عشرة آلاف مس
قدم هذه المقترحات وطس في الحديو « ولو كان ابا عم الحديو قد قرأ هذا
التلغراف لما استطاع أن يتفديا . وقد ناقشا في الموضوع ووسل لهم تلغرافاً
تنصح لهم فيه باعلان الجمهورية في حالة خلع الحديو . وقد رال عى المهم الآن
لوجود صابونجي بينهم »

واني فيما قلته هنا عن الأمير عثمان وكامل لم أقل كل الحق . فانها لم يكن
يحسن توفيقاً وكان أبوها مصطفى قد طرد من مصر وأخذ اسماعيل أكثر أملاكه
وكانا هما على شيء كبير من الوطنية . وقد برها على ذلك مدة الحرب اذ
ينتصران لعرابى . وقد قدمت أختها الأميرة نارلى مساعدة كبرى لعرابى وف
محاكمته . وكان عارف بك رجلاً ذا كفاة ولكن كرديا فيه شيء من الدم العرب
وكان حاصله على تربية راقية وله مزايا عليا وقد صار بعد ذلك سكرتير محتار باش
في القاهرة وكان يحرر مجلة أدبية ولكنه انغمس بعد ذلك في الدسائس واختفى
أما الشخص الرابع فكان تركياً متفرنجياً من رجال ملاط السلطان ولم أر اسمه في
المذكرات . وقد أخذنا في الحديث عن السياسة الشرقية وقت الفداء وان لم نذكر
عن مصر . وكان كلامنا عن الجامعة الاسلامية والأمل في طرد انجليترا وفرنسا من
شمالى أفريقيا.

وبحسن بيها أن أثبت خطأنا أوسطه الى صابونجي في التاسع من الشهر
وخطاباً آخر أرسله هو إلى يوم ١١ يونيه .

« شارع جيمس رقم ١٠ »

« ٩ يونيه سنة ١٨٨٢ »

« ان تلمزناكم الذي نحروني فيه عن وصولكم لقطر المصري قد أراح نال
 س. وأردحو أن تكون قد سافرت الى القاهرة والتقيت بأصحابنا وأطل أن
 نحن ما يصوبه الآن أن يحموا علاقتهم مع رجال البعثة. ولكن يجب عليهم
 أن يأتوا حاسبهم لأن أعرف أن أعداء مصر يعلقون آمالاً عظيماً على درويش
 شلوه رجلاً عديم الدمة والشرف في كيفية معاملته للتأثرين. فأنهم سيحاولون
 بكل قوتهم أن يفلوا عرابي الى الاستانة. ولكن يجب ألا يفعل ذلك. وسيغروه
 يحاولون إرشاءه ويقولون له ان الغاية من سفره صلاح البلاد. فلا يفترون بهذه
 الأقوال. ومن المكس أنهم يحاولون القرض عليه أو دس السم له وان كنت
 ترجح هذا. ولكمهم اذ ادأوا انه ثابت لا يتزعزع أمامهم وان الأمة من ورائه
 عمره فأنهم لن يتشاوروا معه ويصيحني الوحيدة له هي أن يخضع لتوفيق باعتباره
 في السلطان على شريطة أن يبقى ودرراً للحرية. فاذا قبل ذلك لم يعد لدى
 حكومة الفرنسية أو الانجليزية مجال للشجيرة معه واذا اجتمع المؤتمرون الاوربي فانه
 يشر بالتدخل. وأنا متأكد بأن حكومتنا لن تلج على تنفيذ شروط البلاغ
 الأخير بخصوص عرابي من البلاد. ولكن الحكومتين الانجليزية والفرنسية
 مصطرتان الى تعضيد توفيق باعتباره حاكم مصر الاسمي. فعلى عرابي أن يحتفظ
 مركزه بحيث يصير الحاكم الحقيقي للبلاد. والناس هنا ساحطون على ولكني
 لا أعيا بذلك ما دامت مصر تنال حريتها ».

وهناك خطاباً أرسله الى صابونجي من القاهرة يوم حدوث الاضطراب في
 الاسكندرية ولكن قبل أن يعلم به :

القاهرة في ١١ يونيو سنة ١٨٨٢

عند وصولي ذهبت الى عرابي ومحمود سامي وغيرهما من أعضاء الحزب. وقد
 قالوني بحماسة وسألوني عنكم. وقال لي محمد عبده انه قد بلغه أن بعضهم قد نصح
 لك بأن لا تنجي الى مصر. وقد غمرني عرابي بالسرور والطرب عند ما رأيته.
 وقبل وصولي لأسبوع خطب في اجتماع وقرأ خطاباً مني أصبح له فيه بالاتحاد...
 أما الحالة فهي كما يلي :

لقد أخبرتك في تلغرافاتي عن جميع ما حدث من قبيل استكشاف المؤامرة الشريكية إلى هذا اليوم . وقد أصدر الشيخ عليش شيخ الجامع الأزهر فتوى قال فيها بما أن الخديو قد حاول أن يبيع البلاد للأحباب وأطاع اشارات قاصل أورده فإنه لم يعد يصلح لأن يكون والياً على المسلمين المصريين وبحسب لذلك خلعه . وقد قبل جميع علماء الأزهر هذه الفتوى وركبوا لأنها صادرة من رجل هو زعيمه الروحاني . وقد ذهب الشيخ محمد خضير ومعه ٢٢ من الاعيان إلى درويش باشا وقدموا له عريضة وقم عليها عشرة آلاف نفس طلبوا منها أن يرفض طلبات الدول ويخلع الخديو . وفي مصر ١٤ مديرية ومع ذلك فليس بها سوى ثلاثة مدبرين يكرهون عرابي . أما الفلاحون أقباطاً ومسلمين فجميعهم في صف عرابي ينصرون ويؤيدونه . أما الابائي شيخ الاسلام فإنه قد وقف على الحياد وذلك لحوفه من الخديو ومن الحرب الوطني ولا يتدخل في السياسة متعللاً بسوء صحته . وقد أخذوا عرابي بأنه لن يخضع لأوربا أو تركيا وقال لي : « فلنسلوا لنا حيوشاً أوروية » هدية أو تركية فاني ما دمت وبني رفق فاني سأدافع عن بلادى وعد ما نعتجبة يمكنهم أن يمتلكوا البلاد وهي خراب وحسنا آخر الدفاع عن الوطن . وليس هذا فقط فان حرباً دينية تنفست في أثر الحرب السياسية وتبعه ذلك تقع على الذين يثيرون الحرب الآن .

هو مصمم على المقاومة ولن يذهب إلى الاستانة واكثرية الامة تؤيده . فليس بين الأعضاء من يعارضه سوى تسعة فقط . وقد تركه سلطان باشا وانضم لمح الخديو لأنه خاف من ماليت ومن الاسطول . وجميع المصريين ينظرون إليه وقد الخديو كأنها خاتمان . وحال من المديريات مندوبيون يطلبون حلم الخديو ولا يمكن أن يقال أن عرابي قد أجبرهم على ذلك . وقد وقع تسعون ألفاً العرائض يطلبون من درويش رفض طلبات أوربا واقفاً عرابي في منصبه .

وجميع علماء الأزهر الا الاماني (امانة) والقبلي والسادات يؤيدون عرابي وكذلك عبد الرحمن البحراوي وقد عقد اجتماع من عشرة آلاف من في الاسكندرية تحطيم نديم وطلب رفض طلبات أوربا وعدم كفاية الخديو

من يستشهد بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وشواهد تاريخية لكي يبرهن على صحة ما يقول ويقنع السامعين بصحة حججه . وخطب عرابي أيضاً خطبة حماسية مدد بعظام الأسرة المالكة من عهد محمد علي الى توفيق . وقد تكلمت مع عبده بدم وأخبرني عن وحب كتابة خطابات رسل لكم بوقتها الاعيان والعلماء والملاحون والتجار لكي يشعروا بذلك حقيقة وجود الحركة الوطنية . وقد ائتمنوا معي على أن يعدوا هذه الوثائق في طرف عشرة أيام وسأرسلها لكم .

وقد ظهر لي أناسا كذا محطتين في تقدير محمود باشا سامي فاني تحدثت معه كثيراً وسألت عه حتى من أعدائه فقلت أنه كان من مديري الحركة الوطنية من عهد اسماعيل . وقد كاند كثيراً من المشاق لاجل آرائه ولكنه لم يتزعزع وكثيرون من الحرب الوطني مثل مدم وعبد بل عرابي معه يعرفون بأهم مديون له بمساعدته لهم وولائه . وقد أعراه اسماعيل على أن يترك الحزب وعرض عليه المال ولكنه رفض . وهو بصرف جميع ابراهه الآن علي الحرب ومبرله أشبه شيء بقافلة قد حطت رحالها في الطريق . أما حياته الشخصية فحياة فيلسوف فلا يصرف على نفسه شيئاً وهو قانع راض بما يأتي له من الحظ . وهو ليس رجلاً جاهلاً فانه متصلع في الآداب العربية ويعرفها أكثر من عرابي وكون الأتراك يكرهونه دليل على وطنيته . وسيكتب خطاباً الى اللورد جرايفيل لكي يثبت له فيه حقيقة وجود الشعور الوطني في مصر ويصرح فيه بصداقة الوطنيين لاجلتمرا اذ هي بصيرة الحرية وكثيراً ما مدت يدها لاسعاف الام الهامسة الطامحة الى الحرية . وقد اقترحت عليهم بأن يكتب عرابي والشبح الامباي خطابات أخرى بمائة لسنر غلادستون واللورد جرايفيل وتطوعت بترجمتها وارسلها .

وعند ما أشيع بأن السلطان يسوي ارسال درويش لكي يحض عرابي علي قبول بلاغ الدول الأخير سافر بدم الى الاسكندرية وخطب مدة ساعتين في عشرة آلاف نفس مندداً بالبلاغ وحث كل فرد من الموجودين على أن يحتج عليه . وقد قوبل مقترح بدم بالانهاج . وعند ما ذهب الناس الى منازلهم أخذوا في تعليم زوجاتهم وأطفالهم هذا الاحتجاج وعند ما نزل درويش في الاسكندرية كان الاولاد

يصبحون « اللايحه . اللايحه » قرد السا . قائلات : « مرفوضة . مرفوضة » وقد اعتبر درويش بهذه العبرة ونحول عن موقفه السابق .

أما الشيخ الاماني فانه بعد أن تظاهر بالعداء للحزب الوطني لأنه أعلن رصاه عن حلع الحديو عاد الآن وعقد الصلح بينه وبين الاعضاء . ولكن سلطان باشا قد خيب رجاء الجميع . فانه ينصر الحديو علي غير هدي وذلك خوفاً من التدخل الاجنبي ولأنه قد أكد له مائيت بأن عرابي لن يبق في منصبه . وهكذا وقع سلطان في الشرك الذي نصب قلا لشريف . وهو الآن غير محبوب ولم يفده انقلابه هذا أدنى فائدة .

وحدثت أمس حادثة عرية فانه عند ما طلب درويش العلماء واستشارهم في أحسن الوسائل للحصول علي صلح شريف وحد الجميع كانوا في صف الحزب الوطني ولم يجد في صف الحديو سوى اثنين .

فغناط درويش من ذلك وفص الاجتماع وقيل بالأسامة الاثنين المشفقين وهم البحر اوى والايارى . فلما علمت النتيجة وذكرتها الخرائد حدث في الازهر حركة شبيهة بالثورة . وقد حصرت عدة اجتماعات للعلماء ولعظم وكان الغصب في جميع شديداً . وكان المتكلمون يكثرون من ذكر القرآن والحديث ويثبتون معها ان توفيقاً لا يصلح أب يكون والياً علي أمة اسلامية . ولم يكتفوا بمقد الاجتماعات الخاصة بل قرروا أماني أن يعقدوا اجتماعاً عاماً في الازهر احتجاجاً علي الاهانة التي لحقت بهم . وعقد الاجتماع بالفعل في الازهر حيث تقام الصلاة وطلب من هيم أن يخطب الحاضرين وكانوا يزيدون علي أربعة آلاف نفس . وليس عندي من الوقت ما يسمح لي بوصف التأثير الذي أحدثته خطبة نديم . فقد سمعت أنت نبذة وتعرف كيف يشتاق الناس الي سماعه والى أى حد يتأثرون من فصاحته

صاويجي

الفصل الرابع عشر

توسلاتي الى غلادستون

هكذا كان شعور الوطنيين في دوائرهم الخاصة في القاهرة عند ما حدث اضطراب
.سكندرية . وفي اليوم التالي قمت الى لندن وأنا مبتهج ومضى تلفراف صابونجي
.سي أرسله في العاشر من الشهر . وكنت أنوي أن أريه هاملتون . وأنا في هذه
حال وإذا بالمرائد تطالغني بأخبار الاضطراب .
وهالك المذكرات .

١٢ يونيو رعب جديد اضطراب في الاسكندرية جرح فيه كوكسون
.بقتل ضابط البارحة سيورب وخسون أوستون أودبي . وقد أحدث هذا الاضطراب
هياجاً عظيماً . ولست على يقين فيما إذا كان هذا الاضطراب في مصلحة عرابي أم لا .
.هـ سيثبت ان عرابي يملك ناصية الاحوال . هذا اذا لم يكن دسيسة من درويش
يقصد منها ان يسافر عرابي الى الاسكندرية فيقبض عليه هناك . ذهبت الي هاملتون
وأخبرته بان تحت يدي مستندات تدل على ان عرابي يحكم البلاد وانت توفقاً
معرض لخطر الخلع بالنسبة لشعور الجمهور بحبه واحبهم اذا لم يكونوا يعرفون ان يلعنوا
الى الضرب في حل المسألة فعليهم أن يسارعوا الى الاتفاق معه . فوعدني بان يقول
لغلادستون جميع ما أخبرته به . وظاهر لي الآن انهم مستعدون لان يقبلوا أي
نسبة ما دام توفيق يبق جالساً على العرش .

« ذهبت الى مجلس العموم . وذهب هاري براند الي أبيه رئيس المجلس
وقال له ان « التأثير بلسن » يطلب مذكرة لكي يدخل احدى شرف المجلس . فقال
أبوه « انه لا يستحق » ولكنه أعطاه واحدة . وكان ذلك يجيب عن أسئلة متنوعة
عن مصر وهو يوم ان درويشاً والحديث لا يحدد الآن ما يعارضها . وقد أرعجني
هذا الكلام . وهناك اشاعة بان عرابي ودرويشاً قد سافرا الى الاسكندرية (وقد
ظهر ان الاشاعة كاذبة) وأحس الحيانة الآن . وقد أرسل لي صابونجي التلفراف
التالي : « ردت عرابي وسلته رسائلك . والهدوء شامل . خطب عبد الله بديع في

أربعة آلاف في الارهر حمل علي العنة التريكو والحديد . وقد صحبت العنة مقترحات أوروبا واني أوصل قرب السلام الآن . وشرأكة يدسون الدسائس . وعاد شيخ الاسلام الى الحرب الوطني اما سلطان باشا فلم يفعل ذلك الي الآن . الاضطراب لا أهمية له .

وقد وضعت رداً على هذا التعريف وأنا بالقطار وأرسلته من تري برديس وهذا نصه « درويش يريد سوءاً . فهو يريد ان يرشي عراني أو يفتاله . اعتقدوا اجتماعاً كبيراً برئاسة ديم وعبيد وعلما الازهر يكون فيه نحو مائة ألف نفس واطلبوا خروج درويش من القطر فاداً لم يخضع لهذا فاقصوا عليه بالوليس وابعده . وانفقوا مع الحديد ولا تمأكوا اتصالاً . وليكن نديم المتدنى هذا العمل اما عراني والحيش ويحب ان يحيا على الخياد .

« قبل أن أرحل لادن التفتت بقردريك هاريسون ونحدثت معه عن مصر وكان قد كتب مقالاً آخر في البال مال عن هذا الموضوع . عرضت عليه خطاباً في المسر علاستون وستكون معونه لنا ذات قيمة . وعد ما كسا على وشك مبارحة شارع فليت اندفعت اليها ليدى ماليت وأحدث تسألني عن حقيقة ما فعلت في مصر . فأجبرتها بكل شيء تقريباً . فقالت ان شرفي عرصة للحظر اذا لم أرى نصي من نعمة الدس لوطي والسكيد له . ثم توسلت الي ان أهدى الخالة هناك وقد عندها بائي سأرسل لعراني خطاباً أطلب فيه منه ان لا يمس شعرة من رأس ابها . وسأكتب وفي البريد المسافر غداً اما اليوم فان التعريف يعني . ولا اعتقد ان هناك أقل خطر على ابها مسكية ليدى ماليت ابي لاشفق عليها . فقد أخبرني ان الناس يقولون بانى أنا ومستر علاستون نتآمر على احباط سياسة ابها في مصر . فأكدت لها هو علاستون عبر مسئول عن تلفراتي وأنا وحدي متحمل هذه المسؤولية . وقد جعلتني أعدها بان أرورها ولكها تنظر الى كما تنظر الى القنلة » .

« ١٣ يونيو — كنت قلقاً طول الليل انتظر حمر القمض على عراني أولمغية ولكن اصعب قول ان كل شيء الآن في قبضة يده . والحديد يشكل الآن

ورادة سيكون فيها عراقي ودير حرية كما هو الآن . وليس عليهم إلا أن يعدوا درويشاً وكل شيء عندئذ يسير سيراً حسناً .

هذا ما كانت تقوله جرائد لندن ولم يكن بحالها في ذلك سوى البال مال التي كانت تعتقد أن المسألة لم تسو بعد . وهي تكتب بإعاز من ورادة الخارجية التي لا يرضي موظفوها بأي تسوية تترك مقابلد الأمور في يد احرب الوطني . وهذا ما يقوله مورلي . « من الصعب أن يخطئ الانسان هذا الخطأ الذي وقع فيه محرر التيمس هذا الصباح عند ما يعتقد ان التسوية المؤقتة التي تمت بين الحدوود و درويش وعراقي والفاصل هي تسوية نهائية للمسألة المصرية . فان الهباح في مصر قد بلغ من الشدة درجة صار فيها لا يؤمن على حياة الاوروبيين وليس في البلاد قوة تستطيع صط الرعاع سوى الجيش . وهذا الجيش في يد عراقي فالخاجة تصطرنا الآن الى استخدام عراقي لمنع المدايح . ولكن كون درويش يلقى مسئولية النظام على رأس عراقي هذا لا يجمعه من التصميم على اقرار الحال الراية كما ان اتفاق فرنسا واحتلها مع عراقي انما كان اساسه الاحكام عليه ان يستعمل حدوده في احماد الاضطراب في الامكتورية . »

ولسكا حذعنا نحن في احتلها كما خدع عراقي في القاهرة هذا الاتفاق الذي عقده مالت وكولفس وكانت ينتها القدر والحياة . فتعهد عراقي لتوفيق واقسم له شرفه أن يحمي كما يحمي نفسه معها حدث واستعمل الحدوود هذا التعهد لمصلحته مع انه كان لا يصبر في قلبه سوى القدر بعراقي .

وهاك ما أجده في مذكراتي عن ذلك اليوم : « أخبرني باتون اس ان روتشيلد قد عرض على عراقي ان يدفع له اربعة آلاف جنيه في العام اذا رضى بأن يخرج من القطر المصري (١) . . . وعند ما ذهبت الي لندن تسلمت هذا التفراق :

(١) أخبرني عراقي بعد ذلك بمدة سين انه لم يسمع بأن روتشيلد قد عرض معاشاً لكي يعطيه له اذا خرج من مصر . ولكنه قال لي انه بعد ارسال البلاع الاخير راره الفصل العرسى وسأله عن قيمة مرتبه الشهري ثم أخبره بأنه

« القاهرة في ١٢ يونيو — كنت في زيارة عراي وهو يرسل لك نسلجانه ويطلب ان مقترحات اوربا لم بعد لها أهمية وان الصلح قد تم . وقد سافر درويش . وروح الحديبو اقاهرة الى الاسكندرية وكان عراي بشيعة بدراعه . والحرب الوطني في انتصار وقد اشتغلت بمعد ولكي سمحت » وقد كادت دموعي تسقط من الفرح عند قراءة هذا التلغراف فأخذته وذهبت به نواً الى منزل رئيس الوزارة وأجبرت هامبتون وسيمور بما حدث . وتبين لي انهما يظان ان غلادستون في هذه الساعة الاخيرة سيري غلطة ويصالح عراي . واثون بطل ان هذا ممكن أبصاً . ولكن وزارة الخارجية ستصلب تصبّت في المنزل ثم ذهبت الى حملة ساهرة في وزارة البحرية فوجدت هناك حريمجوى وسير جولده سمث فتحدثت مع اللورد نورثوك عن مصر . وقد صرحت له بكل شئ تقريباً . وقلت له : « انت كل شئ . يتوقف عليك الآن . فأنت صاحب الامر والكلمة فيما اذا كانت ستفك دماء في مصر ام لا » .

« ١٤ يونيو — لقد نعت حدا . التقيت عزيز هوارد في البستان فقالت لي اني قد تغيرت واثققة ان مصر تساوري مد الازمة سواء كنت ناعماً أم مستيقظاً قضيت الصباح وتناولت طعام العطور مع جولده سمث الذي سيأمر هذه الليلة الى الاستانة في مهمة خاصة وقد رودنه ناراني وعرضت عليه جميع مكاتباتي مع مستر غلادستون .

مستعد ان يدفع له ضمني هذا المرتب أى خمسمائة جنيه في الشهر اذا خرج من مصر وأقام في باريس فتعامله الحكومة الفرنسية كما تعامل الامير عبد القادر . فأني ورفض أن يتكلم في الموضوع قائلاً ان الواجب بقضي عليه بأن يقاتل ويموت من أجل بلاده لا ان يتركها . وقد وجدت عندي هذه المحادثة ولكنها غير مؤرخة . وفي ١٨ مايو قالت جريدة الببال مال :

« يقال ان عراي ينكر في زيارة اوربا لان صحته ليست على ما يحب . وهذا قصد حسن ولن يحدث ضرر ما اذا منح مبلغاً كبيراً لمصاريفه على شرط أن لا يعود لبلاده »

(ملاحظة - هذا الخيال حول سعد عين بعد ذلك رئيساً لمكتب الاحبار
سريعة في حبش واسلى . وهو رجل ماعز اللسان كنت عرفته منذ عام في القاهرة)
« تنفيذ مع لاسل وهو حسب ما يظهر منه يوافق على آرائى عن مصر »
(وقد فكر بعضهم في وزارة الخارجية في ارسال لاسل هذا الى القاهرة بدل
- بيت لانه كان قد سبق له معرفة مصر . ولو انه عهدت اليه مهمة الاتفاق والصلح
قدما احسن قيام . ولكن لسوء الحظ لم يقرر هذا التعيين)

« في الدليلي لتفراف اليوم ما يشتت أقوال صابونجي أما الحرائد الأخرى
تعترا سفر درويش والحديدو الى الاسكندرية يقصد منه رد النظام الى نصابه . ويقال
ان درويش جمع ١٢٠٠٠ حدى وسيزحف بهم على عرايى الذى ليس له نصير الآن
في القاهرة . وأرسلت الى عرايى هذا التفراف : « احمدا الله على هذا النصر »

« وكان هذا آخر أدوار الكماح الذى كست أكلح فيه كوفلن لكي تتحجب
احرب وكنت الى الآن منصرفاً أما بعد هذا فلم أوفق لاستتار . وكان الذى جعل
علاستون ينتهى الى قرار وخطة معينة هو احتياج بعض البلدان الصناعية في شمال
انجلترا على توابه في معالجة المسألة المصرية وان هذا التواني عاد بالصرر على مصالح
هذه البلدان التجارية وكان هذا الاحتياج يستعمله شمران للضغط والتأثير على
علاستون وكان ذلك يجره من وراء ذلك »

« ١٥ يونيو - أتى قلق على الحالة في الاسكندرية ولكى أظن ان عرايى
يثق برجاله هناك . قالت المجرة اليها متواصلة وكذلك الحال في القاهرة . وما
يرجع بالى أن ما ليت غادر القاهرة ودرويش لا يزال بالاسكندرية وهو والحديدو
يقبان في قصر رأس التين تحت حماية مدافع الاسطول . وجاء تفراف آخر من
صابونجي يقول فيه : « كثرت الوسوس حول سفر الحديدو . هاج . نشاط في
الاستعدادات الحربية . ونديم وعرايى وعبدو يتحدثون الباب العالى علناً . وعرايى
ساهر يقظ يتكلم باعتدال . حدثت مؤامرة لقتل نديم . وهناك خوف من حدوث
اضطراب بين الاجانب . ودرويش لا يريد السفر حتى يتسحب الاسطول . ستحلفكم

ماثثة ان تستدعوا ماليت فالجميع يستحقون عليه وسيقتلوه اذا استمر » وقد ذهبت الى هامبتون ورحلته ان يطلب من ماليت أن يستقل احدى الوارج، فأجاب ملبي ثم أرسلت الى هامبتون خطاً حذرت فيه الحكومة من الارتكاح على الحيوش التركية. ثم بعثت بهذا الرد الى صابونجي : « مدوب تركيا يطلب من الدولة ارسال حيوش لافطر المصري . وليس من المرجح ان ترسل . ولكن استعدوا . واحفظوا النظام مهما حدث . فان اضطررنا آخر سيقضى على كل شئ . وسيمادر ماليت مصر قريباً . فاصبروا قليلاً » وبعد ذلك ذهبت الى لورد دلاور وتناولت العشاء هناك . وعند رجوعي الى البيت علفت ان مواصلة خط التلغراف القاهرة قطعت وسب ذلك فيما أطل هروب كثة التلغراف وهذا يقلقى بعض القلق »

« ١٦ يونيو - ذهبت الى باتون فوجدته كله رجا، ولكن ايماني في غلادستون قد زال وأظن ان الحكومة الانجليزية اضطوت على انشر الآن . وقد أعطيت كيجان بول أمس مكثاني مع غلادستون لكي يطبعها حتى تكون مهيئة في حالة حدوث أسوأ ما أنتظره . وقد وصل تلغرافي على الرعم من كل شئ . »

وجاء هذا التلغراف أيضا من صابونجي : « وصل الى ها مندوب حديد بتعليمات غير معروفة . والأمة والخيخ يتشاوران كل يوم في تدير وسائل الدفاع ولا يثقان بالبعثة المردوجة . أحترني عن حطة مستر غلادستون ولورد جرانفيل . وعراي ثابت . عطلت جميع الحرائد فلا يصدر سوى الوطن والجريدة الرسمية . العرب مستحوذ على الاجانب وقد شكر الخديو عراي لحفاظته على الأمن . الهدوء شامل . منع نديم من عقد الاجتماعات »

قابلت هامبتون أمس فأخبرني بأنه يحسن أن لا أزوره في منزل رئيس الوزراء . لانه قد قدمت له ملاحظات عن ذلك واذا كان هناك ما يحسم من الاخبار فيحس ان أرسل له كتابا عنها . وقد كتبت اليه خطابا أسأله فيه بيان خطة غلادستون الحقيقية . فخافني الرد وهو غير مرض . وفي سانت جيمس غازت جبر بصدد الامر بإرسال جود لمصر . ذهبت الى كراست وأنا في توتر عصبي شديد . وقد انعقد مجلس الوزراء أمس في عرفة مستر غلادستون الخاصة انعقاداً عاجلاً . فهل كان

تعدد من انعقاد ارسال الجنود لمصر ؟ اني لا اتأكد من الطل بأنهم يريدون تدخل السريع . ولكن يظهر ان الفرنسيين قد تصالحوا مع عرابي .

وأقول هنا أن جميع الدول وإس فرنسا فقط كن راضيات بالاتفاق مع عرابي . صحة توفيق حلفاً للنظام والأمن . وهناك ما تقوله البائل مال في ١٦ يونيو . « المطنون أن دولتي الوسط ربعان في الاتفاق مع عرابي على أساس تبادل توفيق ونولية ابنه القاصر مع وجود وصي . وهناك فوائد لا تترك لهذا الاتفاق وان كانت فرنسا وانجلترا معطرتين الى مطاهرة توفيق الذي أطاع مصانحهما وبخاصة نصائح المثل الانجليزى . ومن المقول ان خبة توفيق العملية وهى شخصية وسياسية مما قد أوهمت الدول بضرورة استبدال آخر به » .

وهذه رسالة مالت المؤرخة في ١٤ يونيو : « ارسل وكيلان النمسا والمجر والمانيا الى حكومتها أن نتيجة التدخل الحربي الاجنسى مالم يكن مصحوباً بمجيوش تركية سيجعل حياة الاوربيين في خطر . وهما بمتران المسألة السياسية ثانوية بالنسبة الى حياة رعاياها . وهما لذلك يؤيدان الرأى القائل يوحوب ترك المسألة في يد الباب العالي وحده ويستقدان ان أصلح الطرق لتحب أهول المصائب أن أخرج ألمان البلاد وأن يبرحها كذلك الاسطول »

وقد سمعت أن مالت كان يقول لاصدقائه أن حياته السياسية قد قصى عليها . فكان نجاحه هو وكولفن يتوقف على ايجاد الحرب .

« ١٧ يونيو — قضيت ليلة كلها قلق وأرق . ولكن ليس في جرائد اليوم ما يثبت ارسال الجنود . والسبا صاحبة ولذلك عاد الى انتعاشي . وظاهر أن السلطان لا يجرؤ على ارسال الجنود . وقد اتفق الفرنسيون مع عرابي وهناك الساع الى أن النمسا والمانيا ستمتقان منه أيضاً . فلا أهمية لما تفعله انجلترا بعد ذلك .

كان عندنا في كرايت ارنجتون . لمجنحتون . فاركار . هامتون . دالاس . كنجزكوت . بورك . ولتر سيمور . وقد كذب خبر ارسال الجنود . وكل شيء كما نهوى وقد اتفقتا على أن لا نقول شيئاً عن مصر ولكسنا لا نستطيع ذلك » . « ١٨ يونيو — الاحد وهو عيد وأنزلو . ولم تطهر انجلترا بيطهر السحب

والحدود كما تظهر اليوم . وفي وقت الافطار سلمت تفرافاً مائت راعياً وعراقي
أما وراة رضى عنها الدولتان الخ مايتان وبركا مسح الآس في طرب شكر الله
وبحسن بي ها أن أنتت ثلاثة خطابات أرسلها الى صابوحي في تلك الايام
الاخيرة وهي توضح حالة الوطنيين وما كان يحرى في أذهانهم .

القاهرة في ١٤ يونيو سنة ١٨٨٢

ذرت اليوم عراقي باشا بعد وصول تفرافك اليه بدقائق قليلة . ولقد تحدثنا
نحو ساعة ونصف . وسأته عن سبب هذا الرعب المنتشر في البلاد اذا كان قد
اتفق مع الخديو فقال لي : (أما عني أنا فاني أعتقد ان الخديو محليص مادام
يكون بعيداً عن السير ماليت . فانه قد اقتنع الآن ، أنت ليس في الحكومة رجل
يستطيع حفظ النظام سوى هذا الرجل الذي يحتقره رجال السياسة الاوريون احمد
عراقي . وقد تصالحت أنا والخديو وعهد إلى أمام سنة من عملي الدول الاوردية
وأمام دروش باشا أن أحافظ على الأمن العام . وقد قلت ذلك وأقسمت أن
أحافظ على حياته وحياته جميع من يسكن مصر من أي ملة أو أي أمة . وسأقودها
بعد ما دامت لي السلطة . ولكن اذا كان هذا الصلاح مبنياً على النفس والخذاع .
فهذا من شؤون الخديو وحده . أما أنا فاني محليص مع كل من يخلص لي . فالدس
يعاملوني بالسكر والنفس أعاملهم بالمثل . فقد علمنا الدهر واسماعيل كيف نفهم
مكر الانراك ، وكما نستعمل مدافع الترك وأسلحتهم ودحانهم كذلك نستعمل
مكرهم عندما يضطروننا الى ذلك . فلن نعدي على أحد . ولكننا سنقاوم كل من
يحاول الاعتداء علينا . فان أمنا نعرف الاحلاص ونشكر لكل من يأخذ بيدها
ويساعدها على اصلاح البلاد . فلما نرغب في شيء سوى الإصلاح (وهما أكد
هذه اللمعة) .

قال عراقي : « أما الذين يمدعونا فانهم يجدوننا أشد خداعاً منهم فأوردوا ،
وخاصة المجرم اسطر اليا كما نطير الى متوحشين وهم يقولون أنهم يقدرون على سحق
في أربع وعشرين ساعة فليجربوا ذلك اذا أرادوا ولكهم سيفقدون دين الحكومة

في ٨٠ مليون جنيه ودراس الاكاديمية ٢٠ مليون جنيه . من أول رصاصة انطلق ستحررنا من قبود هذين الدينين . والامة في هذه الحالة لا ترغب في شيء . اصل من الحرب . وقد سمعت هذا الكلام من عدة أساس والاستعدادات تجري على سابق وقدم . وقد وجدت ذخائر كثيرة وبنادق عديدة كان قد حياها اسماعيل عندما كان يسوى أن يستقل عن الباب العالي . وهم يقولون ان هذه الذخائر سندهم في الحرب وقد أخبرهم بأني أوصل أن لا نحصل هذه الحرب وهم يقولون أنهم يستطيعون المقاومة سنوات لان الله قد بارك لهم في حاصلات هذا العام حتى بلغت ضعي ما كانوا يحنونه في السنوات الاعتيادية .

وقد عذمت عود عرابي عن حلبي فوجدته بعصل حلبي على توفيق ولكنه يقول انه اذا كان توفيق لا يسير وراء مائيت ولا يصحى لاقواله ونصائحه فان الاحوال تستوى ولا يعود هناك مجال للشكاية منه . ورايه أن كולם أصل مائيت وأضر بلاده ضرراً طليماً كما أضر مصر بشرة الاخيار الكاذبة عنها .

في ١٧ يونيو - ذهبت مساء أمس الى منزل شريف باشا حيث كان هناك عرابي ومحمود سامي وعبد العال وعلي فهمي ونديم وهجرسي وكانوا جلوساً يتناولون العشاء . فبعد العشاء أخذنا ندخن وتحدثت عن السياسة واذا بصابط قد دخل علينا ومعه خطاب من سيدة انجليزية تطلب حمايتها لان بعضهم نصح لها بمغادرة القاهرة . وقد صار عرابي في نظر السيدات الاوريات طلاقاً وقد ممتحن يدحه لحمايته لمن . وعندما يكون في مركبة تتسارع السيدات لرؤيته من النوافذ والشرف . وكلما قابلت أوريباً دعوته الى مناصرة عرابي .

في ١٨ يونيو - في ظهر أمس عندما أعلن بالتلفراف خبر تعيين راغب باشا رئيساً للوزارة ذهبت الى عرابي فقرأ لي تلفرافاً بعث به اليه الخديو بطلب منه فيه ان يتعاون مع راغب باشا باعتباره (أي عرابي) وزيراً للحرية . وعندما شربا القهوة كتب رداً يشكر فيه الخديو . وكان الرد غاية في الادب من حيث العبارة . ثم قال لي بعد دقائق . « فلتركب عربية ولنسرق في شوارع المدينة لكي نبعث الثقة في صدور الناس » فركب هو وعلي فهمي في عربة وركبت أما ونديم في أخرى وسرنا في

العجالة تتقدما جنود وزلنا عند منزل الشيخ الامباري شيخ الاسلام . وقال لي عرابي
« نعال مصالعرفك بطركما » فزلت معه وعد مادخلنا وجدنا الشيخ جالسا
على ديوان قصير فوقه وتقدم عدة خطوات فلم عرابي عليه وقبل يده . أما أنا
فحييته بهز يده فقط . ودعانا الى المجلس فجلسا . وكان معه كثير من علماء
الازهر وكان ابن الشيخ العروسي أحدهم . وبدأوا بالكلام عن الوزارة الجديدة
ثم أخذوا في الحديث عن علاقة الشيخ الامباري بالخدوي في الحوادث الاخيرة .
وقد استطعت أن أعرف من هذا الحديث أن ما أشيع عن وجود فتور بين عرابي
والامباري لا أصل له . وعندما كنا نتناول القهوة قدمني عرابي اليه وبين له اني
صديق المستر بلدت فأوضح لي الامباري مسألة التفراف فقال لي انه كتب الرد
بيده وانه لم يعتذر للخدوي عنه . وهو يعتقد ان ماليت سمع عنه من سلطان باشاؤ من
احد أنصار الخديو .

ثم عرض عرابي على الشيخ مشورا بصدد حماية ارواح سكان مصر وأملاكهم
مهما كانت ديانهم أو قوميتهم ورجاه ان يكتب هو مشورا مشابها له يقول فيه
باعتباره شيخ الاسلام ان الاسلام لا يمنع المسلم من أدى اليهودى او النصراني فقط
بل يفرض عليه حمايته لانه في ذمته . فوافق الشيخ الامباري على ذلك ثم قام في
حضورى وحضور المشايخ الاربعة الآخرين وصلى لله كي يلهيه طريق الصواب في
اصلاح البلاد ووعد ايضا بان يساعد عرابي لتقوية روح السلام بين المسلمين وغير
المسلمين اذ هم في الحقيقة اخوان وان اختلفوا في الايمان

ومن هناك بمننا منزل ارتين بك غيانا وبالغ في التحية ثم سرنا في شارع كاوت
بك ثم الموسكي وسائر شوارع المدينة وكان الناس يقفون على الجانبين صائحين
بقولهم : « الله ينصرك »

وفي نهاية هذه الحولة أخبرني عرابي بانه دعى الى منزل السيد حسن موسى المقاد
لتناول العشاء فاحدني معه وكان بصحته باشوات وضباط ومشايخ وعلماء . وكان
مرحل هذا السيد على سعته مكتظا بالضيوف . فكان بينهم عرابي ومحمود سامي
واحمد باشا وعده ونديم وانا وكما جميعا في الغرفة الكبرى . وكنا نشد الاشعار

في الدنايح والاهاجي وكما تدلى بهو راعب ناشا . فطعم عراىى مقطعة وانظم
سعد شتين أما بديم فطعم أرساوا كتنى سامي ناشين . وعند العشاء حلت الى
حب عراىى . وقدم لنا ثلاثون لونا تقريباً وهذا غير العطاائر والحلوى الاوربية
والشرقية والفواكه .

وبعد العشاء أحدثنا في الحديث عن السياسة وعن أنواع الحكومات وأنسابها .
: كان النوع الجمهورى هو المفصل في الحديث . وأحد محمود سامي وهو ذو دكا .
ومعارف واسعة يتكلم عن فوائد الحكومة الجمهورية للبلاد مثل مصر . وبما قاله :
« لقد كنا نرى منذ بداية حركتنا الى قلب مصر الى جمهورية مثل سويسرا وعندئذ
هت نعصم الناس سوريا وبينها الحجار . وكما وحدنا العلماء لم يستعدوا هذه الدعوة
لهم كانوا متأخرين عن مهمهم . ومع ذلك سنجهد في جعل مصر جمهورية قبل
ثلاثين نوت » .

في ١٩ يونيو - كما أنا وعبد ونداء سامي تتكلم أمس عن الوسائل السلمية
تجى يمكن اتحادها لكي نغمر بها مصر أزمتها الحاضرة . فقال عبده انه اجمع رأيه على
أن يجمع جميع الوثائق والمستندات التي لديه أو التي يستطيع حيازلها ويذهب بها الى
انجلترا لكي يعرضها نفسه على مستر غلادستون والبرلمان الانجليزى . وسيأخذ معه
أحد وجهاء التجار وأحد الاحرار من يونيون عن الملاحين . فوافق محمود سامي
على هذا الرأى وقال انه هو أيضاً يود أن يذهب الى اوربا لهذه الغاية . وعبد
يستعد الآن للسفر . وكان بديم والسيد حسن موسى العقاد يريان ذلك أيضاً . وهذا
الاخير من أعنياء التجار في القاهرة وهو وطنى ذو ثروة عظيمة ونفوذ كبير .
وقد صار راغب رئيساً للوزارة ولكن بما أن خطته تركية فليس من برضى عنه
سوى الشراكسة والباس يتوحسون من نعيمه ويخشون أن تكون هناك دسيسة
تركية . وأنا أهدتهم .

وقد كانت الحوادث الاخيرة باعثاً بين الوطنيين على كراهة الأتراك والشراكسة
والسلطان نفسه . وقد سمعت سامي وعبد وندباً يلحسون السلاطين والامم التركية
من عهد حسين خان وهو لا كوا الى عبد الحميد . وقد الم حارب كبير يستعد لاعلان

الاستقلال عن تركيا اذا تدخل الامراك في مصر تدخل حرياً . ولكن التركي لما كان قد أدرك الخطر وامتنع عن التدخل . وقد قال بدءاً ونحن راجعون من شبراخية . سيهتد عرش السلطان قبل ان يموت .

ويجب أن أحرك بأى الآلى الآن من الحماوة والاحترام ما لم أكن أعلم به . فجميع الباشوات والضباط والمشايخ والتجار يلاقونى بالباشا والود والشكر . وقد اتفقت مع نديم على ايلام ولجنة اكرامك وشكراً على ما أسديته من المعونة للوطنيين في هذا الكفاح .

القاهرة في ٢٢ يونيو سنة ١٨٨٢

ذهبت الى منزل محمود سامي حيث قابلت جميع أصدقائنا واخطأت بالباشوات وسائر الرعا . وكان حديثنا طول الليل عن السياسة وقد أخبرتهم بفعوى خطابك الذي وصل الى اليوم عن طريق برنيزي ولخصت لهم أيضاً أقوال الخرائد التي أرسلها أنت وليدى آن الى . وبعد ذلك قدمت لمحمود سامي عريضة وقعها الوطنيون يطلبون فيها من مستر غلادستون أن يرسل اليهم معتمداً يهتم أحوال بلادهم . وقد وافق سامي على العريضة وقال أنهم سيوقعونها عند ما يجي عراقي الى القاهرة وستقدم العريضة بواسطتك الى مستر غلادستون . وفي آخر الشهر قيل لي أن ماليت حرض توفيقاً وطلب اليه أربع مرات أن يقبض على عبده ونديم ومحمود سامي وعلي أنا أيضاً .

في ٢٣ يونيو — عند ما صدق الخديو على تعيين راجب باشا استدعاني أنا وديما الى الاسكندرية . وفي ليلة الاثنين جاءتني في الصدق عربة وفيها رجل يدعوي زليخة حسن باشا اللوملى . فذهبت أنا ونديم لاني خشيت أن أذهب وحدى . ففد وصلنا قولنا بحماوة ثم أخبرني أن راجب باشا عهد اليه بتبليغي رعيته في رؤيته في الديوان في الاسكندرية فقلت « لأأس » وقال نديم انه سيذهب معي أيضاً . وخرجنا من المنزل وقد عقدنا يمتنا على أن لا نكون لنا علاقة براجب

وهكذا تعرف انه في الوقت الذي أرسلت اليك تاغراغا أدعوك فيه الى أن
تدعى ماليت لتلا يقته المتعصرون كان هو يشير بالقصص على . وقد كنت على
لدوام عند مايتكلم شبان المصريين المتحمسين عن اغتيال ماليت أس لهم حطامهم
وانه ليس هناك أقل منفعة للقضية الوطنية من هذا العمل

في ٢٤ يونيو — كان محمود باشا الملكي قد ترك الوطنيين لانه لم يتقار وزير
في عهد رئاسة محمود سامي وقد نرضاه عراي باعطائه منصب وزير الاشغال
(وأخذ صابونجي هادي وصف الامرة التي سبقت استقالة وزارة محمود سامي
وتوسلات عراي الى السلطان ومئة درويش ثم مئة عثمان بك وكيف أن الوطنيين
كانوا يتلقون السلطان باعلان الاحلاص والولاء له)
وهالك مايقوله صابونجي بعد ذلك :

أما عن عقيدتهم الحقيقية فهم لايعون بعد الحيد أكثر ما يعنون بسكان
القرى فهم يستخدمونه لمصلحتهم ويعتمدون عليه حتى يروا الوقت ملائماً لاعلان
الجمهورية المستقلة وقد كان هذا أساس عقيدتهم منذ البداية ولكنهم تبصروا في
العواقب فرأوا أن يسبوا سيرا وتبدأ في هذا الموضوع هديم يوجه جهوده نحو
هذه القاية منذ بذورها في أدهان الحيل الحديد ومنذ وصولي الى ها وأنا وبديم
لاعترق . والشايخ والعلما والاعيان والتجار والصباط يقابلونا بأذرع مدسطة
ونحن نحدثهم عن مساعيك وعن الخدمات التي أدتها القضية الوطنية وكاهم مشتاق
الى رؤيتك يدونك غيائهم وتسليماهم . والحقيقة أن هؤلاء الناس الطيبين
يستحقون كل عطف ومعونة
صابونجي

ولست أذكر بالذقة ذلك الوقت الذي قر فيه رأي غلادستون على أن يث
فتة في المصريين ويعول على التدخل الحربي بعد أن أغرى به وأعواها بأن هذا
التدخل الحربي ليس في الحقيقة حربا . ولكني أظن أن قراره هذا قد انتهى اليه
بين ٢٠ يونيو وآخر يونيو . وكانت الاعتبارات التي ألحاه اليه ممية على
الخطط البرلمانية ، فان الاحرار من حره كانوا على وشك الانتفاض عليه وكان
تشيرلن يقص عليه القصص عن القلق المنتشر في احماء البلاد وكانت هزيمة ودارة

الخارجية واضحة لا يمكن إحصاؤها فكان حراسيل يلجأ إلى خطئه في التأجيل ويقول ان انهديد بالحرب يساوي الحرب معها فاستعمل هاتين الخطبتين وكانت النتيجة أن انحلتا صارت أضحوكة العالم في معالجتها للسألة المصرية . وكانت أحوال البورصة عبر عادية والتجارة تعاني أزمة دامت زمنا طويلا . وقد استعملت وزارة الخارجية جميع « وسائل الحضارة » في حل المشكلة وهي تتلخص في الكذب والحياة والفش فذهبت كلها هباء . أما عسادر الوطنيين فقد أشرت انجلترا على جلالة قدرها وعظم نفوذها عراني بأن يغادر البلاد فرفض أمرها ، بل حدث عكس ذلك اذ رادت قبضة عراني في عين العالم الاسلامي وكانت هذه الزيادة على حساب انجلترا ، فقد ظن كثيرون في ذلك الوقت أن دعاة الحاممة الاسلامية في الهند سيقومون بهتة ، وكانت انجلترا في يوم عيد واترلو أسحب ما كانت في تاريخها كما سبق لي قول هذا ، فقد فرع أكثر الموططين واستيقطت في المحافظين عاطمة القتال التي أخذت منذ هزيمة دزرائيلي في سنة ١٨٨٢ وهبت تدعو إلى الدم ، فقام مستر غلادستون وأخذ ضميره ولست أظن انه عمد إلى أخذ السألة في يديه بأمر وينهي فيها وإنما أظن انه اقتصر على السكوت وترك (المصالح) تعمل مآثرها واجبا ، ومعنى ذلك أن السألة صارت في أيدي رجال وزارة الخارجية ووزارة الحرية وسيرسيمور وكولس لان (ماليت كلن قد سحب) لكي يحلوا السألة بأنفسهم . فقد كسنا نحن القصة من الوجهة السياسية وهرمنا وزارة الخارجية هزيمة تامة فكان لانجلترا أن تهزمنا من الوجهة الحربية

واليك المذكرات :

» ١٩ يونيو — في بورصة لندن فرع سبه اشاعة استقالة برابط ونشميرلن (وكان هذا الفرع يدل على جهل الجمهور بحقيقة نشميرلن اذ قروا اسمه الى اسم برابط)

» ٢٠ يونيو — كنتت الدبلي نيوز مقالا معقولا ، وينصح لي فريدريك هاريسون بان اكتب لمستر غلادستون خطابا مفتوحا وأطمعه ، وهو يضمن حسن تأثيره في انحاء البلاد ، وقد بدأت في تحرير هذا الخطاب

٢١٥ يونيو - انتهت من خطابي وذهبت الى هوارد لاستشارته فطلب مني أن أفتح بعض العبارات حتي لا يقع غلاستون شخصياً تحت المسؤولية . وكان ذلك هناك . ثم اتفقت مع باتو على نشره في المدة أو يوم الجمعة على الأكثر ثم أرسلته الى غلاستون .

٢٢ يونيو - بكرت في الصباح وذهبت الى باتون وكلاما يظن أن البية بمصر سيئة وقد كتب هاري برايد يقول انه اذا وافقت فرنسا على المدكرة فن الحكومة تعود الى العمل في مصر ولو رفضت المانيا الاشتراك . وأنا أشك في ما اذا كانت فرنسا مستعدة لذلك وسألخى خطابي لمستر غلاستون بخطابات أخرى اذا دعت الضرورة وأنا متأكد أنه اذا أنزلت إنجلترا جيوشاً في أي مكان في مصر فإن السلطان يعلن الجهاد وتحدث فتنة بين مسلمي الهند ونحن الآن في مأزق عجيب .

وقد ظهر خطابي في التيمس في ٢٣ يونيو وهو اليوم الذي انقعد فيه مؤتمر الاسنانة . وقد أحدث رجة في الرأي العام وهذا نصه :

سيدى

ان خطورة الحال الحاضرة في مصر ومصالح الامة الانجليزية وكرامتها المتعلتين بهذه الحال الآن تدعوني الى مخاطبتكم عن الامور السياسية التي قادتنا الى المأزق الحاضر والى تدوين بعض الحقائق التي يجب ألا ننحني عن أعضاء المؤتمر القادم اذا كان ينوى أن يقرر خطة جديدة

فأنت تعرف أنني في الشتاء الماضي توسلت بين سير ادوارد ماليت وسير اوكلاند كولفن من جانب وبين زعماء الحزب الوطني المصري من جانب آخر وقت بمفاوضات بينهما هي ان تكن غير رسمية الا انها كانت ذات أهمية وكان شرفي فيها رهيناً بتولاهم لوكيلي حكومة جلالة الملكة . ثم اني منذ مجيئي الى إنجلترا وانا على اتصال دائم مع هؤلاء الزعماء . فلذلك أجدني الآن في مركز يجبرني الى الكلام عن مسلك هؤلاء الوطنيين وأنراضهم . وتعرف أيضاً أنني حضرت رجال حكومة جلالة الملكة عدة مرار من الخطر الذي كانوا يتعرضون للوقوع فيه لعدم ادراكهم الحقائق واسي

حشنتهم على ان يسارعوا الى التسليم مع اولئك الذين يقودون الحركة في مصر
وتعرف أيضاً ان مراعاة للحق والعدل اصحت المصريين في الارمة الاحيرة
ان يسبوا الخلاف الذي شأ بينهم وبين الحديو وحشنتهم على ذلك بكل ما في «هدى
وقد حصات بالفعل هذه النسوية الآن . وقد تحملت في على هذا مسئولية عظمى
ولكني أعتقد ان الحوادث برزت على .

وأم الحوادث الماضية التي أريد اثباتها هنا هي :

أولاً - في شهر ديسمبر الماضي عاينت رجال الحزب في نشر برنامج بلحصول
فيه آراءهم وكانت آراء ، عادلة سحية وقد راعوها مراعاة تامة . وفي ذلك الوقت ثم
بعد ذلك الى ٨ يناير حين أرسلت المذكورة الثانية لم يكن بين المصريين وبين المحلثرا
او الانحليز ما يدعو الى الخصام او الشجار . ولم يكن بينهم وبين الحديو أو المرافقة
الثانية اى خصام بل كانوا يتقنون هاتين الهيئتين ويعتمدن عليهما لمعاوئتهم
في السير نحو السبل البرلمانية والحكومة الذاتية الدستورية . وكان غرضهم ولا يزال
ان يعود مصر دولة تتدنى دينها وتصلح قضاءها . وكانوا كاهم الآن يتقنون بالحيش
لكي يديلمهم هذه الحقوق وبالبرلمان لكي يصل بهم الى غايتهم . وكانوا مستعدين
لان يتدرحوا في تقدمهم لا يمحيدون عن الاعتدال

ثانياً - ان المذكورة الثانية التي أعدها مسيو غامبتا كانت عاينه منها ان يورط
انجلترا في سياسته العدائية نحو الاسلام وقد فهم المصريون انها أول خطوة
خطتها انجلترا نحو السياسة التي تتبعها فرنسا في تونس فصاروا ثقتهم من ذلك
الوقت في انجلترا توجسا عميقاً . وبدلاً من ان تخففهم هذه المذكورة اجأهم الى السرعة
في عملهم . فهي التي جعلتهم يلحون في طلب استقالة شريف باشا ، الذي كانوا
ينهمونه بالحياة ، ويطلبون من الحديو تأليف وزارة وطنية . وهذا الانحليز الذي تقول
الصحب الانجليزية انه صدر من الجيش هو في الواقع صادر من الأمة الممثلة في
نوابها . ويمكنني ان أقدم عدة شواهد على هذا .

ثالثاً - ان سقوط مسيو غامبتا الذي لم يكن ينتظر منع تنفيذ الوعيد الذي
حا ، في المذكورة الثانية بالتدخل الحربي . ولكن فكرة التدخل وان تكن غير

مباشرة قد بقيت . قال المراقب الانجليزى والعربى احتجعا على الدستور الذى منحه الخديو في ٦ فبراير وامتنعت الحكومتان الانجليزية والعربية عن اعلان رسامها عنه واعتبرت المادة التى تسمح للبرلمان بمناقشة نصف الميراثية التى لم يكن مقبداً . الخديو يحاول للارتباطات الدولية ، وكان المصريون ينكرون حقهما التى أساسها على بعض فرمانات الباب العالي ويكرهات الخديو .

راجعاً - ان الوكيلين الانجليزين تبعاً لاوامر حكومتهم (كما هو المفروض) نصبا من نفسيهما في الثلاثة الاشهر الماضية خصمين بغيال احداث ثورة لقلب النظام الذى اوحده ارادة الأمة والحرية التى منحها اباها والى البلاد . ولم يخرج المراقب العالم الانجليزى ، مع انه موطن في الحكومة المصرية ، عن أن يشترك في هذا العمل . ولم يرض وكيل انجلترا بأى نص في المداخلة بين الخديو وورثائه توصلا لهذه الغاية . وامتنع المراقب من حضور جلسات مجلس الوزراء معتمداً على أن الوزارة الجديدة لعدم مراتها شحطى . ويقف هو من بعيد بحصى عليها اخطاها . وكل مكاتبو الصحف الانجليز مقيدين قدامي شر آرائهم فما هو ان ظهرت الوزارة المصرية الجديدة حتى أذن لهم في نشر الاخبار التى تؤذيها مع علمهم بكذبها . وانى أجزؤ على ذكر بعض الاخبار المزعومة التى نشرها هؤلاء المكاتبون ولم يكن لها أصل ، فن ذلك خبر انتشار قطاع الطرق في افوحة البحرى ، وخبر ثورة البدو ، وخبر ثورة السودان ، وخبر عرب الحبشة ، وخبر التفقات الحربية الهائلة ، وخبر امتناع الناس عن دفع الضرائب ، وخبر استقالة مديرى المديرىات ، وخبر افعال أعمال الرى ، وخبر الخطر الموشك ان يقع بقية السويس ، والاخبار القائلة بان عرابي صار مأجوراً لاسماعيل ثم لحليم ثم للسلطان . مع انه قد يكون هناك أساس واه لبعض هذه الاخبار ولكن ليس لاكثرها أصل التة ،

وقد خاطبت في ٢٠ مارس لورد جرانفيل في هذا الموضوع بما ، على طلب عرابي وأوضحت له الخطر الخائف بالسلام من مسلك وكلاء انجلترا وانجحت في طلب ارسال بثة لى بحث شكايات المصريين

وفي شهر ابريل كشفت مؤامرة لاغتيال الوزراء الوطنيين الذين عرفوا ان يد

اسماعيل هي التي حركت هؤلاء المتآمرين . فأخذ قنصلا انجلترا وفرنسا في استغلال هذا الحادث لمصلحتهما وصاروا يحصان الخديو على مساواة ودرائه . وكان المهتمون بهذه المؤامرة قد حكم عليهم بالنفي وكانوا من ذوي المقامات العالية يشتركون مع الخديو في القومية والجنسية لاجلهم من الأتراك والشركس ولهذا السبب رفض الخديو التصديق على الحكم وقل إشارة الذين أعروه بالامتناع عن التصديق وأدى هذا الى القطيعة ما بين الخديو ووزرائه . ثم أرسل محمود سامي باشا في طلب النواب لكي يفصلوا في الخلاف بين الوزارة وبينه . وجاء النواب ولكن سلطان باشا رفض أن يعقد اجتماعاً رسمياً برياسته وذلك لحد الذي كان عالماً على عواطفه . وأخذ القنصلان في استغلال هذا الحادث الثاني فصاروا يجرسان جميع المعارضين للحزب الوطني بالاتفاف حول الخديو . وخشي بعض سرة المصريين حدوث اضطرابات فانضمو الى الشراكية . وانخدع القنصلان بهذه الحركة فأعدا مسميها لضربة نهائية وأرسلوا السلاح الاخير الذي طلبوا فيه استقالة الوزارة وابعدا عرابي عن القطر المصري . وراى الناس كأن البلاغ نجح لأن الوزارة استغلت بالفعل ولكن ظهر في الحال ان القنصلين أساءا فهم الشعور الوطني ورجع عرابي في اليوم التالي الى منصبه بقوة ارادة الامة الواضحة

ولست أستطيع أن أفهم ان ملك وكيلنا في هذه المسألة يمكن تبريره او انقول بأنه موافق لمبادئ الاحرار وعلى كل حال انه لم يصب نجاحاً

خامساً — عندما أرسل الاسطول الى الاسكندرية حاولت ان أحذر ولاية الامور وكان تحذيري مبنياً على ماعرفته مدة اقامتي من شعور الوطنيين وقد قلت ان وجود الاسطول في مياه الاسكندرية ونجاحه اذا نزل بعض البحارة الى المدينة قد يحدثان في الاغلب اضطراباً واقترحت ان اذهب الى مصر لكي اعمل جهدي في تخفيف بعض الناع التي كست اخشى وقوعها

سادساً — في نفس هذا الوقت رضيت الحكومة الانجليزية بارسال مبعوث مركبي الى مصر وكان المفروض ان يفود السلطان في مصر عظيم لدرجة ان الاهداف سيحضرون لأي إشارة تصدر من مندوبه او ان المقاومة لما يشير به ستكون ضعيفة

لا يؤبه لها . وممبح الباب العالي بان يسلك المسلك الذى برغنه فأرسل درويش باشا .
وعما يؤسف له ان وزارة الخارجية كانت تعتمد فى حل المسألة على ما كان يشاع
عن هذا الرجل من أنه كان حلواً من الصمير والذمة فى معاملته للثائرين . وعندى
ما يداني على ان ما كان ينتظره هو ان يدعو عرابى الى الامتانة فاداً لم ينجح
فى هذا فانه يلجأ الى الرشوة فاذا خاب هذا المسعى الثانى أيضاً يقتله بنفسه باعتباره
ثائراً على السلطان . ولست أناقش الآن فيما اذا كانت هذه تعليلات أمر بها درويش
او هي من ابتكاراته . وبظهر لى ان الباب العالي مثل حكومة حلالة الملكة لم يكن
يقدر مبلغ الشعور الوطنى وان اتحاد الأمة المصرية وشجاعتها هما اللذان أفتما السلطان
بأن الوسائل التى استعملت فى البابا مع الثائرين لن تمضى شيئاً فى مصر . وعادت
الصائح المعقولة الى مكان هذه الأقوال ونصح لكل من الحديو وشعبه بالصلح .

فهذا ياسيدي هو باختصار تاريخ سياسة إنجلترا فى مصر فى الستة الأشهر
الماضية . وهو مما يؤسف له لصدوره من وزارة خلوحتنا . ومع ذلك فان
المستقل لا يزال فى يدنا وان كان المؤتمر عند ما ينقذ لن يحسب لإنجلترا سوى
صوت واحد . وليس لى الحق فى ان اقترح ما يجب ان يقال فى هذا المؤتمر ولكنى
اجرؤ على القول بأنه اذا كان وكيل حكومة حلالة الملكة يتقدم الى المؤتمر ويعترف
بأخطائه ويعلم عطف إنجلترا على مصر فاننا عندئذ نكسب ما خسرناه . لانه
على الرغم من غضب المصريين للحيل والألاعيب التى استعملتها معهم وزارة
خارجيتنا فانهم يعتقدون ان هناك عطفا عليهم من جانب الأمة الانجليزية يحو
أعمال هذه الوزارة وان هذا العطف لا يسمح باستعادم لأوهام عن المصالح المالية
وعن قناة السويس . وقد أكدوا الى المرة بعد المرة ان غايتهم هى السلام والاستقلال
والاقتصاد وان قناة السويس تكون فى أمن وحى جميع الدول وان الجبل يرجع
الى إنجلترا اذا صارت مصر دولة عزيزة الجانب مثل سائر الدول . فحسبكم ان غدوا
الى المصريين يد الصداقة لئالوا منهم الشكر والحمد

« ولفر دسكاون بلنت »

هذا وانى خادمكم المطيع

الفصل الخامس عشر

ضرب الاسكندرية

نأني الآن على ذكر ضرب الاسكندرية وهو قتال دبره الاميرال سيمور بالاتفاق مع كولفن لاسل خروج ماليت آل الى وضع القوة السياسية كلها في يد كولفن ولم يأخذ لاسل كما كنت أؤمل مكن ماليت بل عين في مركزه كانت صغير يدعى كارتريت وكان لحم له وعجزة آلة في يد المراقب يفصل به كيفاشاء . وليس عندي ما أزيد على مدكراني في وصف الاسابيع الثلاثة التي تلت ما تقدم في القاهرة والاسكندرية . وقد جلب على خطابي المتوح الى مصر غلاستون عاصفة من السباب من أصدقاء ماليت وكولفن ومن الرأعيين في الحرب ومن المعاصر المالية في الصحافة والبرلمان واليك المذكرات :

« ٢٤ يونيو — في حريدة التيمس اليوم خطاب شديد من هنري ماليت (شقيق ادوارد ماليت الاكبر) . وقد أعلن لورد لامنجنون انه سيسأل الحكومة يوم الاثنين عن « معارضاتي غير الرسمية » . كلما كثرت المناقشة كان هذا في مصلحتنا . كان عدنا يوم الاحد في كرات جماعة كبيرة من الزوار بينهم لاسل »
 « ٢٥ يونيو — كتبت رداً لتيمس على خطاب هنري ماليت وأرسلته . وقد لطف لهنجته تهذبة للغواطر . لم تكن لي رغبة في الشجار مع أصدقائي وكنت قد قررت ان لا أضرب الا عند الاضطراب

« ٢٦ يونيو — ورد خطاب طويل من صابونجي (هو الذي دوتته في الفصل السابق) فهم في القاهرة يولون ولجنة رسمية اكراما لي . التقيت بلورد دولوار ولورد لامنجنون (وكا متصاهرين) في مجلس اللوردات وقد جعلت اولهما يسأل عن رسالة ماليت التي ارسلها في ٢٦ من شهر ديسمبر (ولكن ماليت قد قال انها لها) وكان لورد لامنجنون ينوي ان يني خطبته على رسالة ماليت ولكنني اوضحت له

حجة هذا العمل . ومع كل قد التي حطبة شديدة على وكانت لهجته عابة في الحدة
مصر فميت وجه لورد حراصل وان عليه الملوك ولكنه صرح بأن قد حاولت
-نة الجيش في احدي المرات وهذا نصريح بعيدا وقد اسكر همرى مايت
م (ثم قال انه لا يتذكر رسالة ٢٦ يونيو ولكنه سيبحث عنها »

(ان سب ثلثي الحكومة وارتا كما عدم استلت الوزارة عن « مفاوضاني
مرازمية » هو انها كانت قد نورطت منذ عام في معارضات غير رسمية مع الينا
في يد ستر ارنحتون بصدد موقف الكهنة الارلديين)

« تناولت العشاء مع همرى مدلتون في النادي وذهبت معه الى اجتماع عقدته
حجة عدم التدخل في شارع « رنحتون » وكان سير واعدد لوسون رئيساً للاجتماع
-تح تكلم فاحسن وهو اذ من سمعت وقرأ فريدريك هاريسون خطبة لخص فيها
سالة المصرية تلخيصاً معتدلاً « لاحظت ها أن همرى مدلتون كان يعرف مصر
قد اقام فيها مدة طويلة وكان يعرف الطوائف العبطية . وقد كتب اليه بطريرك
لاقاط خطاباً مدة الحرب وقد نشر هذا الخطاب وهذا الخطاب ذو أهمية من
حيث انه يظهر كيف أن الاقاط كانوا جميعاً مع عرابي في ذلك الوقت .

« ٢٧ يونيو — تناولت العشاء عند بيمروك . وكنت جميع أعضاء نادى
ويلتون هاك وم يقربون من الاربعين وبعد العشاء ساقيا بعضنا نحو بعض .
ودعيت الى الخطابة . وشعرت اني في وسط لا يطر الى بين الرضا لأن اكثر
المجتمعين كانوا من الراغبين في الحرب . ولكن هاملتون وقف وشرب نخبني منوها
بخدماني العمومية . فلما وقفت للرد قلت ان بعض الناس يخدمون بلادهم بطريقة معينة
وبعضهم يخدمها بطريقة أخرى ولكن ما دام الانسان يخدم ويؤدي واجبه فلا أهمية
للطريقة التي يتبعها » .

(وهذه الخطب لم تكن بالطبع خطيرة الشأن لأن الاجتماع كان مقصوداً به
اللهو وكان الحاضرون من اصداق لورد بيمروك الخواص وكانوا يأتون لزيارته مرتين
أو ثلاثة في العام لهذا الغرض)

« ٢٨ يونيو — ذهبت الى جورج هوارد وعرضت عليه خطاب صابونجي

ومكانياتي مع غلادستون . وصابونجي يقول ان الزعماء الوطنيين في مصر يفكرون في المجيء الى إنجلترا لكي يعرضوا قصصهم على مستر غلادستون - وقد سألت هوارد أن يتوسط لي في مقابلة رابط فاني اعتقد أن رابط يفاد الى الحق اكثر من سواء وربما كان في معرفته فائدة . وليس هناك شك في أن الاستعدادات الحربية قائمة على سابق وقدم لفرص ما . ولست أعتقد الا أن القصد من هذه الاستعدادات هو تقوية يد دوفرين في المؤتمر ليس غير . وقد أرسلت تلفراغا الى صابونجي أخبره فيه بأنه لم يتقرر بعد شيء . بصدد ارسال الخمود وأسأله أيضاً أن ينصح بالصبر .

« ٢٩ يونيو - زرت رابط في منزله في بيكاديلي . وكان يتكلم بلهجة الصداقة ولكن عطفه ومعرفته كانا أقل مما رأيته من مستر غلادستون . ولكن النتيجة كانت مع ذلك مرضية . فهو يؤكد لي أنه لم تتخذ الى الآن اجراءات حرية وهو لا يطمئن أنها ستتحقق وهو يعتبر قوة السويس قليلة الفائدة الحربية لما من حيث تدبير الخطط . وهو يوافق غلادستون على تفضيل طريق الكلب للمواصلة مع الهدد . وقد أوصحت له رأيي عن الاصلاح الاسلامي وبينت له الاختلاف بين الحركة الموحدة بمصر وبين اسكندر السلطان النازعة نحو التعصب . وأظن أن زيارتي هذه ستؤدي حزب السلام في الوزارة »

(ألاحظ هنا أن رابط قد استهجن مسألة التدخل واحتمال نشوب القتال في الاسكندرية أكثر مما توهم القارئ . هذه المذكرة . وقد أشار على بأن اطمئن من هذه الوجهة . وأما علي يقين بأنه كان يقول ما أعتقد . ولكن هذا المسكين الذي كانت مبادئه تنافي الحرب والقتال كان يجهل ما كان يجري في وزارة البحرية ووزار الحربية وقد أخبرني بعد ذلك أنه قيل له أنه في حالة التهديد بضرب الاسكندرية سيقبض هذا التهديد حبراً على ورق . وكانت النظرية التي وضعها وزارة الحربية أمام مجلس الوزراء أن الامة بأكملها في صف الخديو وليست مع عرابي وانه عد اطلاق أول قنبلة من الاسطول يتسارع الناس ويقبضون على عرابي الذي سيفرد وحده بالمقاومة فيضعونه عند اقدام مولا الخديو ولما عرف برابط كيف أنه قد احتل عليه حتى رضي بصرب الاسكندرية الذي انتهى باحراقها وجعل الحرب

ماض منها اغتباط أشد الغبط واستقال من الحكومة ولم يغفر لغلادستون اشتراكه
والمكر به أو تخليه عن مبادئه .

« زرت ليدى حرمجورى التي كنت مقالا عن مراقبة مصر وهو مقال
جلي القارى، بعض التسلية وتناولت العشا، عد هوارد وكانت زوجته متحمسة
شأن ترسباني »

« ٣٠ يونيو — يكذب كولمن بواسطة مكاتب التيمس انه هو أو مايت قد
وسطاني في أي عمل أو استخدماتي لأي شيء . وهذا التكذيب سبيل مكنتي
اصيته بعد التصريح الذى القاه اللورد حراميل هذا الصدد يوم الاثنين الماضى .
ان هذا التكذيب الصريح لأشياء ليس من المعقول أن يكون كولمن قد نسبها
لا يحتاج الى وصف منى . ولم يقلل من مسؤوليته ما كتبه لى في خطاب خاص في ٦
بريو مجهد فيه ما قيل في تعراف مكاتب التيمس . وقد قبلت يباه في ذلك الوقت
واعتبرته محضاً فيه ولكنى عند ما طلبت منه أن مجهد ما قيل في التعراف علماً
رفض احانة طليلي وكان رفضه بمثابة الاصرار على الكذب .

تناولت المطور مع دلاوار لكي أقابل برودلى مكاتب التيمس في تونس

(برودلى هذا هو نفسه الذى عهدت اليه بعد ذلك الدفاع عن عرابي وذلك
باء على نصيحة دلاوار . فانه كان محامياً يمارس صناعة المحاماة في المحاكم القسيلية
في تونس وكان يكاتب التيمس أيضاً . وكان رجلاً ذا كفايات وقد خدم دلاوار
في عدة مهام فكان يقدم له المعلومات التي يحتاج اليها عن المسائل الشرقية التي تشغف
دلاوار بالبحث فيها . وكان يحرص له خطبه التي يلقيها في مجلس اللوردات وذلك عند
ما يكون مقبلاً في إنجلترا . وعند ما عرفت فرنسا تونس أعده هو يدافع عن اثنتين
في التيمس ويبرر ثورتهم والى بعد ذلك كتابا في هذا الموضوع سماه : « الحرب
الفرطاجينية الأخيرة »

« وهو يقول انهم في تونس وطرابلس يتطرون محبي السلطان . والا فان
السوسى يقود المسلمين الى مهضة جديدة ... كنت خطاباً للتيمس ردأ على كولمن
وفيه ما يكفي لخصه . تفديت عند حرمجورى .

« كتب إلى هاملتون يقول ان غلادستون لن يرجع عن خطة العطف التي اتواها نحو مصر واستقلالها اذا كان ما أخبرته به صحيحاً . وأطل ان الذي حمل غلادستون يقول هذا هو رأيي » .

هذا الخطاب المشار اليه ها هو ذو أهمية بالنسبة الى النسبة التي حوت بعد ذلك تصدد مركز مصر . ثم أبصاً وعد لورد ديفيس الذي تعهد فيه بالمحاوطة على استقلال مصر ومعايها الحرة . وكان هذا الوعد موعزاً اليه به من غلادستون . ولولا اني كنت قاضياً على غلادستون من هذه الوجهة لما كان عدى شك في ان مصر بعد معركة التل الكبير كانت تضم الى الامبراطورية البريطانية . فن جميع الاحرار في الوزارة كانوا يقصدون الى ذلك »

« ٢ يوليو - كنت في بروكث وهي قعة ريفية لم أر مثلها قط سوى ويلتون . فجميع ما فيها لم يتغير بل هو باق كما كان منذ خمسين أو ستين عاماً في عهد كلروين لام اولون ملبورن وقد مات ها لورد بالمرستون وهي الآن من املاك هيرى كوبر وهو يعطف علي كثيراً . وكما جماعة مؤلفة من هيرى براد وزوجته والسفير الاميركي ذلورد هاتون ولجنحتون وليفيسون حاور شقيق لورد حراييل وسكرتيره . وقد ناقشنا كثيراً عن مصر وكانت الالهة حية حتى ليفيسون به لم يقصص اما السفير في صي . وبعد ان لعبا التنس أنا وفيسون نجادنا . وكان يتكلم بلهجة القانط من مستقبل الامبراطورية وقال ان احملترا يمكنها ان تعيش اذا لم تحدث فيها ثورة . ومثل هذا الكلام في بروكث يشير الاشجان . . . في الانزفر حلة هوجاء أخرى على .

« ٣ يونيو - كنت في بروكث . أظن أنه اذا قر القرار على التدخل فستكون ايطاليا هي الدولة التي تستغل ذلك بعد إشارة المؤتمر . وليس هذا مما يرغب فيه قان الايطاليين يعطرن الآن على المصريين ولكنهم اذا اتقوا باعهم وغامروا بالفتح فانهم سيلجأون الي طرق التوحش . ثم ان الايطاليين لا يمكن تقدم في محالهم النياية كما هو الحال هنا وفي فرنسا » .

(ألاحظ ها ان الحكومة الإيطالية ستلت لكي تشترك معا في التدخل وفصت

.. صلت لوحدة سخطاً من الاحرار حيث كان غريالدى أحد رعايتهم الشهيرين
سنة ١٨٤٠ م «

« ذهبت الى كيبورث وتغديت هناك . وقد حطط لينون طريقاً الى المنزله
هذه . ونكسنا معاً عن الامبراطورية البريطانية وكان يمدادي في قوطه . ويطن
ساح كان مقدراً لمساعي في مصر أو لمساعي أى واحد عبرى ما دمننا لآرتكن
ب لصدقة . وهو ينهأ بوقوع ثورة في الهند بين المسلمين مها كانت الحوادث ...
وفي الليل ذهبت الى براند .

« ٤ يوليو — في لندن . وجدت تلغرافاً يقول ان عراى ان يذهب الى
الاستانة وخطاباً من صابونجي مزيجاً . إذ يظهر انه فتح في إدارة البريد وما فيه
و أذيع يؤدى الوطنيين في الاستانة . وفي الصحف تلغرافات عن تحدد الشجار
بشأن استحكامات الاسكندرية ما وقد سمعت ليدى حرمجورى من سيرارسكين
ماى ان سير سيمور قد امر بضرب الاسكندرية في القند .

(سيرارسكين ماى هذا كل على ما أعتقد كبير الموظفين الدائمين في وزارة
البحرية . وأول إشارة الى ضرب الاسكندرية في الكتب الزرق مؤرخة في ٢٦ يوليو
حيث أرسلت وزارة البحرية الى سير سيمور التلغراف التالي : « اذا كانت الحيوش
المصرية تستعد للهجمة حابر أمير البحر الفرنسي واستعد القتال » وهذا التلغراف
يظهر التعلل الذى كما تعلل به لكي نهاجم المصريين . وهو أشبه شيء بقصة الدشب
والحلل . ونحن نعرف من جريدة المار التي سنشير اليها بعد ان سيمور قد عقد رنية
على ضرب الاسكندرية منذ ٤ يوليو . وما جعل الوراثة وعلاستون يقرر ان
القرار الهائي ما أذيع من فرية مذبحة بنها التي لم يكن لها أصل مطلقاً وكان الغرض
منها تهيج الرأي العام الانجليزى على عراى »

وقول ليدى حرمجورى أيضاً انها سمعت ان كولفى قد استقال وان استقالته
قد قلت .

ولست أعرف اذا كان هناك أصل لهذه الاشاعة ولكن استقالته في هذه الساعة
جاءت متأخرة فلا تأثير له الآن على سير الحوادث والارجح ان الاشاعة كانت كاذبة .

اي في أشد الفلق مخصوص التهديد بصرب الاسكندرية وفي الساعة الثانية عشرة ذهبت الي مجلس العموم وسمعت ذلك يقول ان « الاسطول قد أمر باب بسلك مسلكاً معيماً اذا حدثت ظروف معينة ».

وقد تعديت مع سبر ولغرد لوسون وهو رجل لطيف وقد قرأت له خطابات صابونجي بشأن مقابلته للوطنيين . وقال لي انه هو وآخرون سيفعلون جهدهم ولكن ليس هناك ما يمكن عمله الآن . وقد طبعت خطاباني التي كنت أرسلها الي غلادستون ولكي لن أشرها حتى أعرف خطة الباب العالي . تعشيت عند ليدي رودا مونت كرستي وكان بول هالك وقد قال ان صرب الاسكندرية سيشرع فيه في الغد وهو مت في صقي . واني أحشى الآن أن بحاطر الوطنيون بما عديم علي مارلة الاسطول لأنهم حما سينهزمون فتؤدي هزيمتهم الي تثييط عرائهم وأظن أنه يلزمهم أن نتركوا الاسكندرية ثم يحفروا الخنادق ويمسكروا بعيداً عن مدى اطلاق المدافع من الاسطول . ولكي لا أجسر الآن علي أن أصبح لهم بشي ما » .

(قال لي ناتون حوالي هذا الوقت أن الخطة التي ستبناها ودارة البحرية هي ازال اخود وقت ضرب الاسكندرية وانغايه من ذلك قطع الطريق علي عراي اذا أراد أن يتهمقر وكان لهذا الخبر تأثير علي تلفراي في اليوم التالي وخطابي الذي أرسلته في السابع من الشهر) .

٥ يوليو - أرسل أمير البحر سيمور بلاعاً أخيراً . وقد أرسلت الي صابونجي التفراي التالي : « يجب ألا تعاكسوا الاسطول . ارسلوا عبده الي غلادستون . » ولا أعرف اذا كنت قد ألهمت السداد في هذا العمل ولكن اتصور ليس في كل الأحوال ثم أن عراي سيدطر في الحالة دون النظر الي ذاني وهو لم يحطلي . للآن . وقد أرسلت نسخاً من مكاتباتي الي الكلدريال ماسج والي نولس والي لورد دفرس . وبعد العدا، ذهبت الي هل رئيس تحرير جريدة الديلي نيوز . وهو الآن بعد فوات الفرصة قد انضم الي حاسا . وقد وعدنا بأن فكتب ما يمكنه . . في الماء نسلت خطأ من صابونجي يقول فيه ان الهدوء شامل فظني أن الصعوبة

قد ارجئت ... كتبت اليوم الى هاملتون أعده ممرض خطابات صابوحي عليه (وهي التي نشرها) وهذا علاج المستبش ولكن هذا هو حكم الطروف .

٧ يوليو - ذهبت لزيارة ستالي والدري وحضضته على ريادة موسوس لكي يجمع حدوث أي شقاق بين عراقي وبين السلطان . وقد عرست عليه حقائق الحالة على وجه التفريب ولكني فهمته ان الوقت الحاضر ليس من الاوقات المناسبة لوجود شقاق بين المسلمين ويمكن الأتراك والمصريين تسوية ما بينهما من الخلافات في المستقبل . وبظهر لي أنه يوافقني ... ثم كتبت خطابا الى صابوحي أسأله فيه أن يصح بعدم الشجار مع الاسطول وانما عليهم أن يعسكروا في خنادق بعيدة عن مدى اطلاق مدافع الاسطول . ولا زلت أعتقد انه لن ترسل حملة بحرية الى مصر وان المصريين سيضطرون الى مقاتله الايطاليين أو الأتراك ... والصحف تشير الى تسوية سلمية بين الاسطول وعراقي . فاذا كانت هذه التسوية قد تمت في هذا ما يرضي .

٨ يوليو - في كرات - وفي البريد الثاني وجدت خطابا من هاملتون بهم منه ان غلادستون لا يزال قابلا للشائقة والاقناع وهذا أكثر مما كنت أظن . (ان ما كتبه هاملتون في خطابه هو : « اظن أنه من السليم ان اب ردة الحكومة في الوصول الى الحقيقة ولكن يظهر ان هذا ليس سهلا » وبناء على هذا أخذت أكتب ملخصا لخطابات صابوحي . وفي المساء حضر لاسل وآخرون .

٩ يوليو - الاحد - استشرت لاسل في مسألة ارسال خطابات صابوحي الى غلادستون فقال لي انه يظن أن الوقت قد فات . اد أن هاملتون أخبره أنهم يريدون احتلال مصر ووضعها جرياً على مبدأ مكهاون القتال : « ان هنا ولن أخرج » وقد قال نشامبرلن : « لقد أخرجنا مركز الرجل (غلادستون) فليس له مناص الآن من الحرب » ولذلك سأنتظر الحوادث . وحريدة الأبرزور تتوقع نهديداً آخر أو بلعاً أخيراً . وعناية الله الآن هي للموكلة على ما يحدث . (ان مادكرمه ها عما أخبرني به لاسل ذو أهمية تاريخية . فقد كل في مركز

كما قاوم جيوش واسلي . ولم تكن كل هذه الاقوال سوى تسمية الاكاذيب الرسمية التي القتها وزارة الخارجية لكي تعتد بها عن تصميمها على التدخل لمصلحة المايين ويمكن أن يراها الانسان في خطبة لورد دوفرين في افتتاحه مؤتمر الاستانة وهي بليغة في الاكاذيب الفجة . فان السير الانجليزى يقول قبل ضرب الاسكندرية ان حالة مصر حالة الفوضى حيث لا تؤمن الارواح أو الاموال وحيث تقع المذابح بواسطة عراني وجيشه وضباطه الآخرين الثمردين . ولكن كل ذلك يمنع الحكومة من ان تعمل لاستتباب الامس أو بلوغ حالة الثبات المالى . وقد أوصحت فيما سبق مبلغ المبالغة في وصف حالة مصر بهذه الاقوال ومبلغ المعتريات والاكاذيب التي فيها . وما تحتاج اليه الآن هو تقرير المسئولية التي تقع على عاتق عراني في ضرب الاسكندرية (١)

فليس هناك ريب في أن عراني كان يقول بالاستعداد الحربي بعد ارسال

(١) قال لورد دوفرين : « ليس من المبالغة ان نقول انه منذ بضعة أشهر قليلة كانت لغوضى التامة منتشرة في مصر . فقد رأينا عصابة حربية ترتكب الجرائم دون ان تنسئ شئ ، ما كما هودأب العصابات التي من هذا النوع حتى صار العصيان تمرداً والتمرد ثورة والثورة استيلاءً للسلطة العليا . وكانت النتيجة أن ادارة البلاد وقعت في الارتباك .

«وقفت حركة التجارة ولم يعد الفلاحون قادرين على دفع الضرائب لأنه ليس هناك من يشتري علاتهم . ونزلت ايرادات الحكومة لهذا السبب . وقد أدت هذه الحال الى الاضرار بمصالح التجارة التي يشتغل فيها رعايا الدول العظمى . وليس هذا فقط بل أن الارتباطات التي ارتبطت بها مصر لفرنسا وانجلترا قد جمدها وقد فصل الموظفون الذين عينوا لكي يراقبوا تنفيذ شروط هذه الارتباطات من وظائفهم وهدم النظام الذى ابتدأ أن يظهر أثره في منفعة العالين . ولم يخسر الدائشون حسائر جمة فقط بل أن حياة الاوربيين لم تعد في أمن كما تدل على ذلك مذبحه الاسكندرية التي قتل فيها الرعاع عدداً كبيراً من أبرياء الاوربيين »

الذكورة المشتركة في ٦ يناير ولكنه كان طول هذا الوقت يطلب السلام لا الحرب فقال بالمقاومة لا بالحرب ولم يكن منفرداً بهذا الرأي ثم ان وصول الاسطول لمياه الاسكندرية قوى مركزه وضم الى رأيه رأى الجمهور . ذلك انه كان أمام الجمهور مثال تونس فكان من المحال أن لا يرى المصريون ماذا كان بها لم على أيدي الدول الادورية . فانهم كانوا يفهمون معنى ايجاد حالة كاذبة من الفوضى والعنتة تبرز بها الدول التدخل لحماية أرواح الادوريين وأملأكم ثم القرض عنوة أو اعراء على حاكم البلاد مدعوى حمايته هو أيضاً من رعاياه الثائرين ثم احاراه على قبول الحماية الحرية . فقد فعل الفرنسيون ذلك في تونس ومجحوا فكالت الية اعادة هذا العمل في مصر على يد الانجليز . فلم يكن من الصعب أن يفهم الوطنيون وهم يرون هذه النتيجة المتوقعة ان المقاومة أشرف من التسليم .

وكان صوت عرابي ذا أهمية كبرى في رفض طلبات أمير البحر ميمور في ١٠ يوليو ولكنه لم يكن في حاجة الى الالتاح في هذا الطلب أو التهديد لتعيينه . فان المجلس العام الذي عقد للقرار على الرد لم يتردد في الحكم بأنه ليس من حق الخديو أن يتزل عن شيء من أرض مصر طاعة لاوامر دولة أجنبية دون أن يحصل على رضى من السلطان بهذا الصل . ولم يكن الخديو نفسه مخالفاً لهذا الرأي . وكان في هذا المجلس عدد من الممثلين من غير اعضاء الحكومة وكانوا جميعاً يلحون في الدفاع عن الحصون وكان الخديو يشاركهم في هذه الالهجة الوطنية يعاونه في ذلك ممثل السلطان درويش باشا . ولم يجرؤ أحد من المسلمين الحاضرين في هذا المجلس حتى سلطان باشا الذي انضم نهائياً الى الانجليز أن يعلن بأنه يمكن قبول طلبات ميموره . وكانت النتيجة أنهم قرروا بالاجماع تعيين عرابي وزيراً للحرية والبحرية وان يستعد للدفاع عن الحصون وان يقاتل الانجليز اذا أطلقوا النار على الحصون ووافق الخديو على كل هذا . وأرسلت أوامر مستعجلة لوكيل الحرية في العاشر من الشهر بأن يعلن في أنحاء القطر بأن الحكومة قد عقدت بينها على الحرب وانها تدعو الرديف وتنوى تأليف فرق جديدة من المجندين . وقد يقال ان الخديو لم يكن مخلصاً في موقفه عند ما وافق المجلس على الحرب . وليس من يشك في ذلك . فان

جميع أعمال توفيق العمومية كانت على الدوام تدل على عدم اخلاصه . والارجح انه هو وسليمان باشا قد اتفقا قبلا على أن يتظاهرا بالوطنية حتى يحميا بالرأى العام في حالة ما اذا ثبتت المحصور ولم تنهر امام الاسطول الانجليزى . ثم يجب ألا ننسى ان معوثى السلطان كانا حاضرين في المجلس وكانت خطة الحكومة الانجليزية في ذلك الوقت وهي الخطة التى كانت نعلنها على الملأ انها لا ترغب سوى أن يتدخل السلطان في الرراع وكان توفيق كمادته يلعب دوراً مردوجاً وعائنه أن ينضم الى الفريق المنتصر .

و في الكتب الرق رسالة عربية تظهر لقارى ما قاله الخديوي لمتشاريه الانجليز . فقد أبلغ في السادس من الشهر عن عزم سيمور على ضرب الاسكندرية وطلب منه كما يظهر ان يذهب الى احدى البوارج الانجليزية لكي يكون بعيداً عن الاذى ولكن هذا الاقتراح لم يتفق ومخاوفه التى كان يحسب حسابها في المستقبل . فأرسل الى كولس يخبره عن خطته في المحافظة على نفسه وقت إطلاق النار على المدينة . وهو يقول في رسالته هذه انه ليس له مناص من البقاء في مصر . فانه لا يستطيع أب يتحلى عن أولئك الذين وقفوا في صفه مدة هذه الازمة . وانه لا يستطيع ترك مصر عند هجوم دولة أجنبية لانه يقال عندئذ انه لم يراع سوى سلامته الشخصية . فهو لذلك سيذهب الى قصره على ترعة المحمودية ويبقى هناك مع درويش باشا . وقد لاحظ أيضاً في رسالته هذه انه اذا انتهت هذه المسألة بسرعة كان ذلك أسلم عاقبة له . وكان هذا هو البرنامج الذى اتبعه ولكنه بدلا من أن ينزل في قصر المحمودية نزل في قصره بالمرمل وهو يبعد نحو ثمانية أميال عن الاسكندرية وكان آمن من قصره السابق الذكر لبعده عن مدافع سيمور .

وبعد الحرب بمدة قصيرة قابلت سيرشارلس ريسفورد . وكان مدة الضرب يقود البارجة كوبردور وعين بعد ذلك أميناً على الاسرى في الاسكندرية قتال الى أقوالا تدل على تردد توفيق باشا اد صرح له أحد الايام بالسبب الذى دعاه الى البقاء في الاسكندرية مدة الحرب وهو عدم تيقنه من معرفة الفريق الغالب . فقد كان المعتقد في مصر ان الدوارج سيفترقن وقد قضى يوما كاملا في قصره بالمرمل

وهو في أشد القلق والارتباب فكان يصعد من وقت الى آخر الى سطح القصر ويصدر الى الاسطول لكي يطمئن على سلامته ولم يقر رأيه على أن ينضم نهائيا الى سيور الا عند ما جاء المساء ورأى النوارح كاملة لم تنقص بينا الحصون قد أسكتت وارى هنا من اللازم ان أوضح القارى ان اقامة برسفورد القصيرة في الاسكندرية قد جعلته يحترق توفيقا أشد الاحترار كما جعلته يعطف بعض العطف على عرابي والملاحين الذين حاربوا على الرعم من نخلف أميرهم وعدم قيامه بواجبه.

ولكن سواء أصبح هذا الذي ذكرناه أم لم يصبح فان رضى توفيق باعطاء اسمه لقرار المجلس بصدد الدفاع عن البلاد الى النهاية قد صاغ الحرب صبغة شرعية بحيث لم يعد لاوامر الحديو التي أصدرها بعد ذلك مخالفة لهذا القرار - وذلك عند ما انضم الى جانب الاعداء ضد بلاده - قيمة شرعية. وعليها يحس ان تذكر ذلك اذا أردنا أن نفهم موقف الوطنيين وقت المحاكمة وموقفهم بعد ذلك عند ما تجلى لهم غدو الحديو. فان الرأي الاسلامي عن الحرب سهل واضح - فهو يقول بأنه متى نشبت الحرب فعلى الزوال والامة ان يستمر فيها حتى يحقق النصر أو تتزل بهما الهزيمة. واذا أمر الزوال فليس له حق اعطاء الاوامر. وليس للوالى الخائن من باب أولى هذا الحق أيضا. وكان المصريون ينظرون الى توفيق بهذا الروح حتى رده الانجليز الى مركزه وقلوب الامة نائية عنه وليس في التواريخ الانجليزية شيء مما ذكرناه هنا بل ترى بعكس ذلك مديحا لتوفيق لولائه لانجلترا وكيفية ثباته على خدمتها دون خجل الى النهاية. وسأعود الى هذا الموضوع.

وهناك نقطة أخرى وهي تحديد المسؤولية بصدد حفظ النظام وتنفيذ القانون وقت الحرب وتدابير الخطط في هذه الحرب ومبلغ اشتراك عرابي وسائر الوطنيين فيها مدة هذين الشهرين الحافلين بالحوادث. فهذه هي الحقائق التي استطعت أن أتحقق منها.

لست حين انه لا يمكن الامة أن تنظر الى الحديو باعتباره رئيسا للحكومة بزوال حقنه في إصدار الاوامر ألف مجلس عمومي ودعى أعضاؤه للنظر فيما يجب عمله. وكان الداعون الى تأليب هذا المجلس من رجال الدين وسائر طبقات الامة أكثر

كثيراً من الداعين اليه من رجال الجيش . ولم يحضر عرابي اجتماع المجلس العمومي لانه كان عائباً مع جيشه في كفر الدوار ولم يزد القاهرة مدة الحرب أو يتدخل في إدارة الشؤون هناك . وكان المجلس حادياً لعدد كبير من الاعضاء . وكان فيه العلماء ورؤساء القضاة التركي والمفتي وشيخ الاسلام ورؤساء المذاهب الأربعة وكان كباراً . نواب المسلمين هناك وبينهم أربعة من أسرة الخديو آخوند عذهب الوطنيين . ودعى اليه أيضاً عدد كبير من مدبري الاقاليم وعدد كبير آخر من الاعيان وكان هناك أيضاً من غير المسلمين بطريق الاقليات وحاخام اليهود .

فكانت قرارات هذا المجلس صحيحة من حيث أنه كل مؤلفاً من أعضاء يوبون عن جميع الطبقات والطوائف . وكان أكبر الزعماء فيه يشعرون الى أصل شرطي ولكم كانوا باعتبارهم مسلمين محلصين يرون ان المسألة قد انتهت الى مأزق يضطر الأمة الى مقاتلة دولة أوربية عارية وان هذه الحالة تقتضي أن لا يصن بمحرمات أية كانت في سبيل الدود عن البلاد بصرف النظر عن الخلافات الحزبية .

وقد قرر هذا المجلس بالاجماع ان الخديو لم يعد في مركز يسمح له بقيادة الأمة وان أوامره ما دام في أيدي الانجليز لا قيمة شرعية لها . وكان أول ما عمله توفيق في موقفه الجديد انه فصل عرابي من وظيفته وهي وزير وزارة الحرية . فقرر المجلس إبقاء عرابي في وظيفته وأمره بأن يستمر في الدفاع عن البلاد . وتألف مجلس دائم لكي يعاونه في اتخاذ سبل الدفاع وكان هذا المجلس برئاسة يعقوب باشا سامي وهو رجل قدير فكنل وكيلاً لوزارة الحرية . وأخذ في نهضة أسباب التجديد مدة الحرب ومد الجيش بالمؤن والذخائر . أما من جهة إدارة البلاد فانه بالنسبة لغياب راعب باشا في الاسكندرية ومعه سائر الوزراء الذين حجزهم الخديو وحرصه الانجليزي تقرر أن تسير الوزارات على ما ألفته من الاعمال . وسار العمل على هذه الطريقة دون أن يحدث أقل اهمال لأن وزارة راعب كانت في الحقيقة وزارة اسمية فلم يؤثر غياب الوزراء في سير الاعمال أقل تأثير . والحقيقة ان صلاحية الحكومة في ذلك الوقت لأداء واجباتها كان ظاهراً ككل الظهور حتى ليصح أن تقول ان مصر لم تر حكومة أصلياً من الحكومة التي أدارت شؤونها وقت الحرب . فكانت 'وزلوة

إداحلية يدبرها إبراهيم بك فوردى الوكيل وكان يدبر الوائيس اسماعيل افسدي حودت وكلا الرجلين من أهل الكفاية والندرية وقد جمعوا الامن في ذلك الوقت المضطرب في جميع أنحاء البلاد . وقد حاول اثنان أو ثلاثة من المديرين الشراكسة أن يقتلوا عمر لطفي محافظ الاسكندرية في احداث الفلاقل في المديريات خدمة لتوفيق فقبض عليهم واعتقلوا الى نهاية الحرب . ولم يحدث بعد هذا أى اضطراب . وقد حوفظ على الاوروييس الذين ظلوا في القاهرة بعناية تامة وكان أولئك الذين يرعبون في مغادرة البلاد يخفرون الى يونس سعيد .

وليس هناك أكذب من قول لورد دفرس في مؤتمر الاستانة ان المسيحيين يذبحون كل يوم في مصر . وهكذا كانت الحال أيضاً في سائر المصالح والادارات . فلم يتعطل حيي الصرانب ولم يتعطل الصرف على المرافق العامة . ولما انتهت الحرب كانت خزانة الحكومة في حالة التوارس الواضح فلم يظهر أى عجز عند ما سلمت الى موظفي الحديو بعد معركة التل الكبير ولم يسرق منها أى شيء . ولم يظهر في دفاتها أى تلاعب وكانت الحاكم تسيير سيرها الطبيعي ولم تكن هناك أى علامة تدل على ان البلاد تعيش في أوقات شاذة . وعند ما انتهت الحرب كل في مخازن الحرية من المؤن ما يكفي الجيش أربعة أشهر استولى عليها جميعها الخزانة ولسلى .

وبقي مركز عراقي ذا صيغة سياسية فقط فكان يدير شؤون وزارة الحرية ويدبر شؤون القوات الى أن وصل ولسلى الى التل الكبير فاضطر عندئذ أن يأخذ القيادة على عاتقه . وكان مقامه بين العلماء والملاحين في الوجه البحرى من أكبر البواعث على بث الحماة في صدور الاهالى وكانت الامدادات تتدفق لهذا السبب على وزارة الحرية مجانياً . ولكن المتطوعون يتوافدون لهذا السبب أيضاً . وكان عراقي بهذه المثابة ذا فائدة كبرى للأمة وقد أحسن صنعا في عدم أخذه القيادة على عاتقه في ميادين القتال . وقد عزا أعداؤه ذلك الى جبنه ومن الصعب أن يكذب الانسان هذه الدعوى أو ينفي هذه التهمة . فان عراقي كان فلاحاً لا شائبة فيه فلم تكن فيه تلك الغرائز الحربية التي توحيد عدد بعض الشعوب ولكنها غير موجودة عند الملاحين فقد كانت شجاعته من نوع آخر ولم تكن من النوع العسكري ثم هو لم يشاهد

معركة حربية قبلا . والارجح انه كان يعرف هذا القصص في نفسه كما كان يعرف أيضاً جهله بالمعارف العلمية التي كانت تتطلبها الحروب . فهو لم يحظ بتربية حربية حديثة ولم يكن له من التجارب سوى ما عرفه من التجارب العسكرية التي تدرب عليها في الثكنات وأطن انه لو دعى الى عمل متواصلة بقصد العرض لما استطاع ذلك

ولكنني أظن مع ذلك أن السبب الحقيقي في عدم حمله عب القيادة في ميادين القتال انه كان في ذلك الوقت رئيساً للحكومة وانه بهذه المناطة لم يكن ينتظر منه أن يقود الحىوش بنفسه . ومع ذلك فهذا لا يبرئه في نظري راءة تامة ولم يبرئه بنو وطه كذلك هم يلومونه بحق لأن سيفه لم يصطلق بسيف العدو ولا في أواخر أيام القتال .

ولست أدعى معرفة تفاصيل سير القتال مدة الحرب ومع ذلك سأحاول أن أدونها هنا حسب ما علمته من المصريين لا من الانجليز . ولسوء الحظ هرب صابو ينجي قبل ضرب الاسكندرية مع سائر المارين . وبقيت بلا أخبار حتى نهاية الحرب . وليس في أوراق التحقيق في محاكمة عرابي ما ينير المارى . في هذا الموضوع . وجميع ما جمعت من هذه التفاصيل أخذته من الاقواء بعد الحرب من أناس شاهدوها أو اشركوا فيها ومثل هذه المعلومات تكون بالطبع غير دقيقة من حيث ضبط التواريخ والأرقام .

وكان الاوربي الوحيد الذي اشترك مع الجيش المصرى في الحرب هو الرجل السويسرى صديق الوطنية المصرية جون تينيه

وكان جون هذا في مركز يسبح له بأن يعرف شيئاً كثيراً مما كان يجرى لأنه قضى الشهر الأول من الحرب في كفر الدوار مع عرابي وكان يعاونه في مكاتباته مع الاجانب وقد تحدثت عدة أحاديث الى تينيه هذا . ولكن بما يخل روايته أنه شديد التحمس للعرابين وقد وضع كتابا في سنة ١٨٨٤ وهو ظاهر الاهمال كثير الاستسلام للجدليات بحيث أنه لا يمكن القارى . أن يثق به كل الثقة . زد على ذلك أن تينيه لم يكن مع الجيش عند ما شرع الانجليز في حملتهم الحقيقية فانه بقى في كفر

الدوار حين كان الجيش في التل الكبير . وما علمته عن الحرب يمكنني أن أقوله هنا باختصار .

لما ضربت الاسكندرية ثبتت المدفعية المصرية للاسطول عدة ساعات أكثر مما كان ينتظره سير سيمور أو أحد من ضباطه . وكان المصريون يعانون شدة عظيمة لقدم القلاع التي كانوا يدافعون عنها . وكانت هذه الحصون من عهد محمد علي وكانت واجهاتها مبنية من الاحجار كما كانت العادة وقتئذ . ولكن الاحجار تعود بالضرر على المدافعين لانها تنفقت شظايا وتزيد قوة انفجار القنابل المعادة . ولم يدرك هذا النقص أحد حتى محمود همي نفسه وهو مهندس كبير في الجيش فكثرت الاصابات بين المدافعين . وتقول الكتب الزرق أن حامية الاسكندرية كانت بين ٨٥٠٠ و ٩٥٠٠ جندي وهذا العدد يوافق على وجه التقريب ما ذكره الوطنيون . وبلغت الاصابات نحو المائتين قتيل وحرع . فاذا كانت هذه الارقام صحيحة فالتسبة في الاصابات عظيمة . وعلى كل حال فان شرف الحامية موهور وكان ثباتهم أول ما دعا الى رد الفعل في الرأي العام في إنجلترا وقد ظهرت هذه الحالة بوصوح في الاسابيع التالية . وكان عمل عراي في الدفاع عن الاسكندرية كسائر عمله في الحوادث التالية غير مهم . فقد بقي مدة الضرب في دار البحرية وهي ليست بعيدة عن رأس التين فلم يكن بعيداً عن قتال الاسطول ولكنه لم يذهب للتفتيش على الحصون الا عند ما كف الاسطول عن الصرب . وكان قد اكتفى بأن يصدر الاوامر ويتلقى الاخبار . وفي المساء ذهب الى الرمل لكي يخبر الحديو بالنتيجة وكان توفيق هناك في قصره فاخترع لكي يخفي سروره مشاجرة سحيقة لان عراي لم يكتب له تقريراً عن حوادث اليوم .

ومن الصعب أن يفهم الانسان كيف أن عراي لم يدرك المهمة التي كان يتجه اليها ميل الحديو والارجع انه كان يعرف ذلك فانه في صبيحة اليوم التالي أرسل الحديو حرساً قوياً لحمايته في الظاهر والحقيقة أنه كان يريد مراقبته وأرسل اليه أيضاً رسالة يقول له فيها أنه بما أن سيمور يهدد بتجديد الضرب فانه يدعو الى أن يتراجع الى حيث لا تصل اليه مدافع الاسطول وأشار عليه بالفرار الى القاهرة . وكان يجب على عراي

أن يذهب معه الى نوفي و يجبره على قبول دعوته و يرفض جميع تطلانه و يحمله معه سجيناً لآب مثل ماي تونس كان أمامه ثم هو لم يكن يحمل مكر الحديو وانه لا يمكن الثقة بشرفه . وكان خطأ عراي هنا قاضياً عليه و الطاهر أنه كان مشغولاً ذلك اليوم بمألة جلاء الخنود عن الحصون فلم يكن عنده من الوقت متسع لزيارة الحديو مرة أخرى . وفي أصيل ذلك اليوم تمكن الحديو بارشاء العمال من السفر الى الاسكندرية في القطار الذي كان قد أعد لفته الى القاهرة فصار بذلك في حياية سيمور الطاهرة . وقد حمل معه على القطار أعضاء وزارته و درويش باشا فكان هؤلا . بذلك شركاء في الحياة . فلما صار الجميع في رأس التين تخرجهم قوة من البحارة الانجليز تباع سجينين رحلا صار الجميع في الواقع أسرى حرب . و تمكن درويش الذي كان له يمت خاص وكان قد حاشته أوامر مستعجلة من الاسنانة بالفر اليها من أن يخرج من هذا الاسر المهيمن و سافر على الزعم من الاسطول الذي حاول رحاله أن يمنعوه من السفر . أما راعب وزملاؤه الوراء فأنهم بعد أن وقعوا في الشباك رضوا بالمحالة وبقوا في رأس التين خدماً للحديو الى أن أنشئت شبه حكومة شرعية تولوا ادارتها الى حين جاءتهم الوزارة الانجليزية المحصة قفضت على سلطانهم . وكان عراي يحمل طول هذا الوقت أنه خدع وكان أيضاً مشغول البال بنقل القوات الى خط الدفاع الآخر في كفر الدوار .

وأظن أن اختيار هذا الموقع الحسن يعزى الى فطة محمود فهي المهدم فان كفر الدوار على محطة السكة الحديدية الموصلة الى القاهرة وعلى جانبيه أراض مستنقعة . ولم يكن هناك أنفع من هذه البقعة لكي تكون معسكراً حديداً للجند فقد كانت بعيدة عن مدافع سيمور ولم يكن في وسع جيش معاد أن يقترب منها الا على طريق السكة الحديدية الضيق فكانت بذلك حصينة من جهة الاسكندرية بينما هي مفتوحة السبل من جهة الدلتا وما فيها من كنوز الذخائر والامداد . وكانت الطريق بينها وبين القاهرة واصله . وتكن الجيش المصري هنا من مقاومة الانجليز حصة أسابيع يرد هجومهم ويطاردهم الى أبواب الاسكندرية قريباً . ولو لم يكن هناك باب آخر للدخول الى مصر لنجح الوطنيون وكسوا الحرب

أما عن احراق الاسكندرية فاني لم أستقر على رأى في مقدار نصيب الجيش المصرى فيه . فقد أنكر عرابى كل الاسكر أنه أمر بهذا الاحراق . واعتقضى أن مثل هذا العمل يحتاج من النشاط العظيم أكثر مما يأتلف ما درج عليه عرابى من التهاون واللين بحيث أرى من الانصاف أن يرفض هذا الرأى . ومن الواضح أنه قد اعتبر هذا الحريق طرفاً ملائماً لأنه لولا لهلك هلاك كبير في استطاعته الحلاء بمجرده الى كسر الدوار لان حيشه كل مهروما . نعم لم تكن قوته المعنوية قد ذهبت تماماً ولكنها كانت قد ذهب لو نزل الحدود الانجليز ووقفوا على السكة الحديدية لمنع انتفهم . وقد كلف الانجليز يدبرون الوسائل لايقاع عرابى وحيشه في الشرك في الاسكندرية وربما كان سبب امتناع سيمور عن ارال الخنود للبر هو مكيدة رفع الراية البيضاء وشعاعة الخنود التي لم تكن منطرة . وقد مكن حريق الاسكندرية عرابى من التهمز الى كسر الدوار وأعطاه من الوقت ما استطاع به أن يرد الى حيشه قوته المعنوية .

وقد كان تينيه باسكندرية مدة ضربها وهو يعزو الحريق الى قابل الاسطول والارجح أن هذه هي الحقيقة . لأنه لو لم يكن الاسطول سبب ذلك لما دعر الناس وزكوا سارلم في اليوم الثاني عشر من الشهر . ثم لو كان الضرب مقصوراً على القلاع كما كان يدعى البحارة لما هجر الناس سارلم اذ لم يكن ثمماً يدعوهم الى ذلك . وسواء أكان الضرب حدث قصداً أم اتفاقاً فالتينيه يعزو الحريق اليه . ومن الحق أيضاً أن الحريق قد مد عمداً الى الحي الاوربى وأن مؤخرة الجيش هي التي فعلت ذلك وكانت قد هجرت الاسكندرية في حال غير منتظمة فأخذت في النهب الذي كان قد شرع فيه بدو المدينة قبل هذا الوقت .

من المؤكد أيضاً أن عرابى لم يسأل سليمان باشا قائد المؤخرة ولم يحقق معه عن هذا النهب . ولست أعتبر هذه المسألة ذات قيمة أدبية لان مثل هذا العمل يعد من الاحتياطات التي يجوز لأي قائد أن يتخذها لكي يؤمن طريق تهمزه ويمنع العدو من انزال الحدود الى البر . ولكنه مهم من الوجهة التاريخية لذلك أقول أن عند وزن البيانات أجد الجيش قد اشترك في تهمزه في الاحراق . ولم يكن اشتراكه بتبعه

الفوضى والارتباك الشائنين عن التفهم . ولما كانت الريح هب بشدة في ذلك الوقت امتدت النار وما جاء نصف الليل حتى كانت المدينة لهيباً يحترق .
ولكن كل ذلك لا يقلل ملمع النعمة الملقاة على حكومتنا في تدمير المدينة لانه لو لا سو ، نطار وكلانا في تقدير المواقف لكان يمكن التنبؤ بكل ما وقع والاحترازمه ولما أرسح الجيش أقدامه في كفر الدوار في ١٣ منه وقف ينتظر الحوادث .
فأخذ عرابي مركزاً له إلى شرق الجيش من ناحية القاهرة ورسم محمود فهمي خطوط الدفاع وعادت بذلك الطائفة والثقة إلى القلوب .

أما الفارون من الاسكندرية فقد أرسلوا بالتدرج إلى داخل البلاد فأحدثوا قلاقل عديدة لأنهم كانوا في حال شديدة من العصب فكانوا على الدوام يرغبون في الثأر عما لحقهم ممن يقابلونهم من الاوربيين أو المسيحيين الوطنيين . وكان في سططا مدير شركسى يدعى ابراهيم آدم وكل يعرف أن الخديو وبلاطه ينظران بعين الرضى الى ما يحدث من القلاقل بين المسيحيين والمسلمين فعمل على إحداث ما أشبه أن يكون مذبحه . ولولا تدخل أحد الوطنيين ، وهو أيضاً صديق عرابي أعني به أحمد مشاوى بك الذي أخذ هذه الفتنة بتابعه من الفلاحين على الرغم من المدير لامتدت هذه المذابح إلى البلاد الاخرى . ثم قبض على المدير وأرسل إلى القاهرة فاعتقل هو واثنتان آخران لم يكن يوثق بهما إلى نهاية الحرب . ثم لم يحدث قلاقل بعد ذلك .

وفي مساء ١٤ منه وصلت الى عرابي رسالة من الخديو ذكرها تبينه ولكنها لم تذكر في الكتب الرق . وهي وثيقة خطيرة لانه يظهر ان الذي أملاها على الخديو هو كولفن أو أحد مستشاريه الانجليز لأنها تدل على وجه النظر الانجليزية في ذلك الوقت . فهي تبثدي . بذكر سبب القتال وانه انما نتج عن عدم مواظبة عرابي على طلب الاسطول الانجليزى بخصوص تخريب الحصون من السلاح وان أميرال الاسطول لم يكن يرغب في الحرب مع مصر وانه يرغب الآن في إعادة العلاقات الودية مع البلاد المصرية . وانه مستعد لان يسلم المدينة لجيش نظامي مطيع وفي حالة عدم محبي . هذا الجيش فانه يسلمها للجيش العثماني . ولكي تقل ادارة المدينة من هذه

حال الى الحال الحديدية فان الحديد يدعو وري الحرية لأن يحضر اليه ورأس التين لكي يتفاوض مع داعب باشا وسائر الوزراء في هذا الشأن . ثم تقب الاعمال لحرية اذ لم تعد منها فائدة .

وممن نعرف من الكتب الزرق أن هذه الدعوة اما كانت شركا براد إيقاع عرابي فيه لكي يصير في أسر الانجليز . وذلك لاننا نرى في رسالة تلغرافية من كرزيت الى لورد جراييل ارسلت اليه في ١٥ منه ما يأتي : « طلب الحديد من عرابي أن يحضر الى هنا فاذا أتى سيقبض عليه واذا لم يأت يعتبر عاصياً حارحاً على القانون »

وهذه الحادثة تدل القاري على مبلغ استسلام توفيق للانجليز حتى صار اللسان مطلق عن خطتهم وكيف ان الحكومة الانجليزية اسعت طرق الحكومة العثمانية في بعد بالخارجين عليها . وكلن جواب عرابي للحديد ان سموه هو ودرويش باشا هما 'لقدان حضاه على رفض طلبات سيمور وطلبا منه أن يباركه القتال اذا هو اتع تهديداته بالعمل الحربي . وأن الواقع الراهن ان الحرب موحدة وانه لا يمكن الجيش أن يرجع الى الاسكندرية الا اذا خرج الاسطول من الماء . وأعقب ذلك أن الحديد نشر منشورات مطبوعة لكي ترسل الى المديرين واحباء البلاد يقول فيها : بما أن عرابي قد رفض أن يسافر الى الاسكندرية لكي يتفاوض مع الوزراء . فقد فصله الحديد من وزارة الحرية . وكلن طبع هذه المنشورات هو الذي دعا الى عقد مجلس عمومي بالقاهرة أقر عرابي على البقاء في مركزه كما ذكرنا آنفاً .

كان الشهر الذي تلا هذه الحوادث حافلاً بالآمال في نظر جميع المصريين ولما تخلص الأهالي من ربقة ولائهم للحديد بانضمامه الى الانجليز أخذوا يظهرون وطنيتهم دون أن يستروها وقد تيقنوا في ذلك الوقت أنهم بحاربون من أجل حريتهم وكان الفلاحون قد استغرقهم الديون التي للدائنين اليونانيين عليهم فكان هذا من أسباب حماسهم لانهم توهموا أن الحرب تخلصهم من هذه الديون فصاروا يمدون الجيش بالأموال والرجال وظهر بعد ذلك ما يأم أن انحاذ كفر الدوار مركزاً للجيش جاء موثقاً لوطنيين لان الجنرال اليون حاول أن يهاجم الجيش

لعدة آلاف أنزلها إلى البحر فارتد مهزوماً وهكذا تعلقت الآمال باطالة الحرب بعدة طويلة بهذه الطريقة وكان عراي لا يزال وزيراً للحربية ولكنه كان أهم عصب في الحكومة وكان يتواعد إليه أعيان البلاد والعلماء والتجار وكان يقيم في سراوق عظيم كان يملكه سعيد باشا أهدنه زوجته إلى عراي عندما كان ياور زوجها وكانت نازلي هام وبعض الأمراء يظهرون إعجابهم ببطولة عراي بهدايا عديدة يهدونها إليه .

وقد وجدت ما يلي في مذكراتي عن سنة ١٨٨٧

« زرت اليوم الأتربة نارلي وهي ماهرة بمقدار ما هي جميلة وحديثها بارع ولو وجدت في أي وسط لرائته وقد أخبرتنا عن أشياء كثيرة خاصة بهراي وهي تعجب به وتأسف لموته ولا تل من الكلام عن زواجه أغراضه ومما قالته أنه لم يكن جديداً حساً لأن قلبه كان أطيب من أن يساعد على ذلك . ولو كان رجلاً بسيطاً ويصف مثل محمد على لأخذ توفيقاً مع جميع الأمراء إلى القلعة وقطع رؤوسهم وصار أميراً على البلاد ولو استطاع أن يجعل الخديو يسلط معه مسلط الشرف لجلسه ملكاً على البلاد . وكان عراي في رأيها أول وزير وطني جعل الأوربيين يحترمونه ويخضعون له . وكان المسلمون في وقته يرفعون رؤوسهم ولا يمكنوا الأوربيين أن يحالفوا القوانين . قالت وقد أخبرت توفيقاً بكل هذا فان المصريين الآن يخضعون للقوانين بينما الأوربيون لا يكثرثون لها . »

ولا أنكر أن التعلق قد أضر عراي وأنه أثار الحسد الذي كان سيء العاقبة . عند ما جاءت الأزيمة فان الفروض وقتئذ كان انه اذا نجح عراي في صد الانجليز فانه سيكون رئيس البلاد وشعر الضباط الذين كانوا حاصلين على تربية أعلى من رتبته والذين كانوا يعرفون أنه فلاح سادج وأنه سيتفوق عليهم فأعضبهم هذا الخاطر . وكان عراي يستشعر هذا الشعور فحصى في أحلامه بتحليل ان الاقدار قد حابته وهيأت له مستقبل عظيم وجعلته في مركز الخلف لامتة . وكان يحيط نفسه برجال الدين لأنه كان مسلماً ورعاً وكانت الاوقات التي يحب عليه أن يقصصها في تطعيم وسائل الدفاع بصرفها في الأدعية والصلوات ويظهر أنه لم يقطع عن هذه الاعمال إلى النهاية . ومن الصعب أن يعرف الانسان ما كان هياه من التدابير الحربية . ويقول تبيه انه كان

يعتقد انه اذا طاللت الحرب فان اوروبا ستضطر الى الاتحاق معه . وكان المؤتمر معقدا في الاستانة وكان اعضاءه يحضرون السلطان على التدخل وكان أكبر ما يخشاه السلطان من دخول الحدود التركية ان تتأخى مع الحدود المصرية عند التقاء الجيشين . وكان عراقي يعرف أن مسلمي العالم يطمرون اليه باعتباره دعي الإسلام وبصيره وذلك لأن حجاج الذين عادوا من الحجاز أحبهوه بذلك فكان يرى انه من الصعب على سلطان أن ينضم الى اعدائهم وبخاربه . ثم كان أيضاً لا تزال عنده بقية من الثقة في علاءستون وكان يعتقد ان الانجليز يحبون الحرية وأنهم سينصرونها اذا عرفوا حقيقة وادركوا ان المصريين ثابتون على وطنيتهم وقد كانت كل هذه أحلاماً يدر عليها لأن غيره كان يعتقد صحبها ولنجاحه بعد حوادث السنة الاشر السابعة .

ولما أنزل ولسلي بعض جوده للبر ووجد خطوط كمر الدوار حصينة وعاد عنها وحده الوطنيون في القاهرة اهم بحسب عليهم محصبين مصر الشرقية من ناحية قال سويس . فعلاً على ههنا حيثاً في القاهرة وسار به حتى احتل القناة ورسمت خطوط الدفاع في التل الكبير

ولم تكن الى ذلك الوقت قد عمل منها شيء . على الرغم من التحذير الذي سبق ان ارسلته لمحمد عبده . ثم ظهر أيضاً وجوب سد القناة من الجهة الشمالية خوفاً من أن يسارع الانجليز الى احتلالها بيوارجهم فيزلوا جودهم في الاسماعيلية . وكان الرأي المتفق عليه بالاجماع بين الضباط وجوب هذا العمل ولو كان بالرغم مع شركة القناة . ولكن عراقي — وهذه هي غلطته الثابتة — بقي متردداً في هذا الشأن . وكان تردده ناشئاً عن التأثير الفرنسي فان مسيو دلبيس كان قد وصل الى الاسكندرية في أواخر يوليو ولما علم بنية الانجليز في استعمال القناة خاف وفزع من ذلك وسافر الى بور سعيد وجعل ينادي عراقي بشرفه أن يمنع وصول الحرب الى القناة . وكان دلبيس رجلاً كثير الثقة بنفسه وكان يعتقد أن وجوده وحده يكفي لتخويف حكومتنا وكان يقول أن القناة أرض محايدة يجب ألا يقربها أحد المتحاربين . وبعد الحرب عند ما كنت مشتغلاً بالدفاع عن عراقي كنت اليه أسأله أن يرسل اليّ ما يمكنه أن يكون في مصلحة عراقي مما يشهد هو به قبالاً بواجبه لتقديم والانسانية ، فارسل اليّ

صوراً من خطابات أرسلها اليه عراقي في ذلك الحين ولكنه لم يرسل الى النسخ الاصلية (وقد نشرتها في ملحق الكتاب) ومن هذه الخطابات يتبين للقارى أن عراقي قد ضلل به .

وبعد مكاتبات أولية نجد عراقي يوضح رأيه في هذا الشأن . فقد كان في القاعة عدة بوارح بين الاسماعيلية والسويس بقيادة الاميرال هيوث وكتب دلبس بشكو من أنهم يشرون منشورات بين سكان شاطي . القاعة .

وقد رد عراقي على دلبس في هذا الشأن فأذكر حق الاميرال هيوث في اداعة هذه المنشورات وقال انه أرسل هذا الرد بناء على اشارة المجلس وأنه موافق على رغبة دلبس في حيلة القاعة « وخاصة لأنها من الاعمال العظمى التي سيعيش اسم سعادتك في التاريخ لانكم قتم بانعامها . ولي الشرف أن أجبركم بأن الحكومة المصرية لن تنهك حرمة هذه الحيدة الا في الحالة القصوى وفي حالة ارتكاب الانجليز أعمالاً عداوية في الاسماعيلية أو بور سعيد أو أي نقطة أخرى من القاعة . » والمداها واضح ولكن نقطة الضعف تحصر في انتظار عراقي لان يتندي الاعداء بارتكاب الاعتداء بدلا من ان يتقدمهم هو ويقطع عليهم طريق الاعتداء . ومع كل ذلك فان تبنيه يؤكد ان الاستعدادات كانت قد تمت سراً لسد القاعة في نقطة معينة بين الاسماعيلية وبور سعيد . وقد أثبت لي هذا الخبر آخرون . ولم تذهب هذه الفرصة سدى وبفضل المشروع الا لان عراقي كان يكره جداً ان يعصى على هذا الامر مع رغبة جميع اعضاء المجلس فيه . وعند ما وصل الاسطول الانجليزي الى بورسعيد يحمل ولسلي وجيشه أرسل دلبس الى عراقي خطافاً سكه ادعاء . وقد ذكر تبنيه نصه كما يلي :

« لانحاول أى محاولة في سد قاتن . فاني ها . فلا نخش شيئاً من هذه الناحية . فاهم لن يستطيعوا ازال جندي انجليزى حتى يكون الى جانبه جندي فرنسي آخر . وانا مسئول عن كل شيء »

وكان هذا الخطاف سبباً في عقد مجلس آخر في كمر الدوار اجمع جميع الاعضاء . فيه سوى عراقي وحده على عدم اعتبار رسالة دلبس ووجوب سد القاعة

ولكن عراقي كان الى هذا الوقت متخذاً كلام دلبس عن ارسال حود فرنسية. ومع انه أعطيت أوامر في مساء تلك الليلة بتحريب القصة تخريباً « مؤقتاً » فان الوقت الذي صرف في المناقشة عن هذا الموضوع كان قد أصاع الفرصة ونمكر ولسلى من الدخول الى القصة بوارجه . وضعف عراقي في هذه المسألة هو أكبر لطحة على شهرته الحربية كما انه أبصاً بسمة بطامع المحز السياسي . وقد قال ولسلى بعد ذلك عما كل البرلمان يناقش في مسألة حفر قناة بين إنجلترا وفرنسا : « لو ان عراقي سد القناة كما كل يوى ذلك لكننا الآن لا نزال في البحر محاصرين مصر . فان تأخر عراقي ٢٤ ساعة نجابنا »

وكان احتلال ولسلى للاسماعيلية في ٢٦ اغسطس ومن هذا الوقت صار الدفاع عن مصر أمراً ميثوساً من الوجهة العملية ولو ان القتال لم يكن نزهة للانجليز كما ادعى بعضهم ذلك . وكان الجيش الانجليزى يربى على ثلاثين ألف جدى ربما لم يكونوا دوى قيمة كبرى اذا أصبح لهم أن يقفوا في وجه جيش أوروبا مطم ولسكهم كانوا يكفون لمرعة حوش عراقي القليله فان كافة الحود في كمر الدوار لم يكونوا يريدون على ثمانية آلاف جدى نظامي ولم تكن مدافعهم تزيد على ثمانين مدفعا من مدافع كروب . ولم يكن الجيش المصرى بأجمعهم يزيد عن ١٣٠٠٠ رجل أما المجاهدون المحدد فلم يكونوا لاثقين للخدمة العسكرية فلم ينتفع بهم الجيش الا في الاعمال اليدوية في الخنادق . فلم يحدد ولسلى عاه كبيراً أمامه عند ما أنزل جنوده الى الروايس بينه وبين القاهرة سوى حطوط التل الكبير التي لم تكن قد تمت بعد . ولكن المكتسب السرى للجيش الانجليزى أراد ان يزيد تأكده وطأ بيته فانخذ الاحتياطات السرية التي الفت استعمالها الحيوش المتحاربة في الحروب الحديثة وان كذت تسكرها على الدوام . ومن العدل ان أدون ما فعله الجيش الانجليزى فقد وقعت في بدى تفصيلات أهم حادثة من هذا النوع . أسكر كتابنا الانجليز ان تقدم ولسلى كل يبرى الى حد كبير لمثل هذه الشؤون فهناك الآن ما يثبت .

كانت وزارة الحربية ووزارة البحرية في إنجلترا قد عقدتا النية منذ أوائل السنة أن يكون المحوم على مصر من ناحية قناة السويس وتعد في أواسط يونيو

أن تمهد السبل لذلك بالرشوة بين مدو الشرق . وكان الفصل في اقتراح هذه الخطة يعود الى لورد نورثوك الذي كان يفتخر بنجاحه في هذا الصدوقه . كل من اكبر أساليب اقتحامه أنه بي خطئه على ملحوظة قلت مي ولم اكن أدري وقتئذ ان أحدًا استغل حديثي لمحاربة أصدقائي . فقد كنت في ربيع سنة ١٨٨١ في الصحراء الشرقية للقاهرة وكنت قد عرفت بعض مشايخ الطياحة والبرايس وكانوا يفتسون ذل الاسر في بيت المقدس ولكي أغري سفارتنا في الاستانة بالسعي في فك أسرهم قلت ان هؤلاء المشايخ قد يؤدون لنا بعض الخدمات اذا كانوا على صفاء مع اخلائنا . وعرف لورد نورثوك بهذه القصة فتذكرها في هذه الازمة المصرية واستغل اسمي بعد أن أضاف اليه الذهب في استخدام هؤلاء البدو ضد عرابي

ولم يكن في اخلائنا في ذلك الوقت من يعرف العربية وكان من الصعب وجود من يمكن ارساله للقيام بهذه المهمة . فاستدعى لورد نورثوك أستاذ اللغات الشرقية في كامبردج وهو ادوارد بالمر وكان عارفاً باللغة العربية ممتازاً فيها وكان يعرف أيضاً القعة التي يعيش فيها أولئك البدو لانه كان فيما سبق عضواً في بعثة استكشاف فلسطين . وكان في ذلك الوقت يعيش في لندن في حالة املاق يستعين بالصحافة على شؤون العيش وقد زاد عمره زواجه الحديث . فلما كلف يوم ٢٤ يونيو حادثة دعوى الى المكتب السري لكي يزور لورد نورثوك ويتناول معه طعام الفطور وهناك عرض عليه أن يقوم برشو هؤلاء البدو فطلب من القبول فوراً اذ عرض عليه ٥٠٠ جنيه للصاريف الابتدائية ووعده بالمسكنة في حالة النجاح . وقبل سفره أي في ٢٦ منه جاء وراي وقال لي أنه مسافر الى الاسكندرية لكي يكون مكاناً لصحيفة ذي ستاندارد وطلب مني أن اكتب له خطابات التقدمة اليهم لكي يتعرف بهم وانه يعطى على الحركة وسيصرها في رسائله على الدوام . وكان قوله هذا بمثابة الغطاء مخفي به عمله الحقيقي الذي كان مسافراً لأحبه فاجبت طلبه وأنا متوجس منه لأنني شعرت بان لهجة لم تكن صادقة فكتب له بعض خطابات مقدمة لصايومي وغيره ولكنني اعتقد اني لم اعطه خطابات لراي وكان البرناج الذي وضعه وزارة البحرية للامر هو ان يذهب أولاً الى

استندية لكي يتفاوض مع الاميرال سيمور ثم يذهب من هناك توا الى يافا
ساحل فلسطين الشرقي ويذهب الى الصحراء الواقعة في الحبوب العربي من مرة ثم
الى خيلتي الطياحة والتمارين اللتين كانت أذاع عنها مسد ١٨ شهرأ وأما
صغير . وقد كتب هو مدكراته وطبع بعضها وهي كبيرة الفائدة لنا من حيث
- تمناع الوسائل التي توسل بها للوصول الى غرضه . فهو يشير فيها الى
تصيلات الخاصة بالاتفاق بينه وبين لورد نورثبروك . ثم يصف بعد ذلك نزوله
بمجت الاميرال سيمور في الاسكندرية حيث أمر هناك بأن يسافر في الحال الى
صحراء لكي بشرع في عمله . وقد أعطاه الاميرال « مسداً وندقية وعدة
حريوشات » ويرى ان الاميرال هناك « ينتظر الحرب في اقرب فرصة وقد تقع
عداً » ثم يقول :

« اني مسرور لأن الحرب ستقع . فاني وان كنت سأبقى مدة بعيداً عن
بلادي سأستفيد منها فائدة كبيرة وسأكون عاملاً من عوامل الانتصار لبلادي...
وقد قال لي أمير البحر انه يهني الوطن لأنه اهتدى الى رجل قادر مثلي لكي يقوم
بهذه المهمة الشاقة »

ويقول بالمر انه رأى سير اوكلاند الوكيل السياسي ثم يقول بعد ذلك في
مذكراته ان أمير البحر أخبره بأنه سيصرب الاسكندرية قريباً . ثم يذهب بعد ذلك
وهو في أشد الطرب والزهو الى يافا على إحدى سمن أمير البحر يخفق فوق رأسه
العلم البريطاني ومعه بحاران « لكي يحملوا البندقية والمسدس »

فإذا وصل الي يافا نزل عند القنصل البريطاني شايرا اليهودي . والقنصل
يرسل انه معه الى غرة لكي يهيئ له رحلته في الصحراء . ويحدد هنا بدوياً يسافر معه .
ويشتري عندئذ لباساً عربياً وسائر ما يحتاج اليه . ثم يشكو من الحر ومشاق الرحلة
ولكنه يعزى نفسه وبمنها بالكفاة الجسيمة في المستقبل . وفي الخامس عشر قبيل
قيامه بالرحلة يسمع سراً عن ضرب الاسكندرية . فيقرر الذهاب الى السويس
ويكتب في طلب زورق لكي يأخذه الى مكان مأمن .

وفي السادس عشر يلتقي بعض افراد من قبيلة الترابين وهناك مايقول : « كانوا

يظهرون فضولا كبيرا يريدون معرفتي ومقاصدي . فقال لهم البدوي الذي معي إني ضابط سوري مسافر الى مصر . وكنت بالطبع مرتديا ملابس العرب المتحضرين وقد علمت عنهم كثيرا عرفوا عني . وأما الآن أعرف مشايخ الصحراء وأما كنهم وقد انفتحت مع الطليحة وهم أكثر الدوشجاعة وأقوام على أن يؤدوا الى كل ما أطلبه منهم . وعسى ما أعود سيكون في استطاعتي أن أضم الى منهم أربعين ألف رجل . وقد كان من حسن حظي ان عرفت هذه القبيلة . ومعنى الآن نسير سيرا حسنا وأنا في أشد الاشتياق لتسلم الاوامر من السويس ولعرفة ما اذا كانت جنودنا قد نزلت الى البر . ولم أكن أنتظر كل ما وحدته ها . وأظن أننا قد أصاننا الحظ ولما الثروة » ثم يقول في الثامن عشر :

« كابدت اليوم أمرا عظيما . فقد التقيت بكبير شيوخ العرب . ولكي جعلته يقبل آرائي »

ثم يقول في ١٩ يوليو : « إني أتعجب من محاسني . فقد ضمنت الي رحلا حاول عراقي عبثا أن يستلمهم الى صفه . وعد ما تتطلب الحاجة سيضم الى لوائي جميع البدو من عرة الى السويس ... ولست أعرف بالطبع ما حدث في مصر منذ مغادرتي لها سوى أن الاسكندرية قد صرحت كما أخبرني أمير البحر بأن هذا الامر سيقع حالا . ولكن العرب يقولون لي ان الحزب العسكري لا يزال مسلحا . وعلى هذا أظن ان جنودنا قد نزلت الى البر »

ويقول في العشرين : « هذا الشبح هو شقيق سليمان وهو الذي يضمن عدم اعتداء العرب على دكة الحج الذي يسافر من مصر الى مكة . فهو إذن خير من اعتمد عليه . فقد أقسم لي قسما عربيا رهيبا أنه يستطيع اذا أردت أن يضمن سلامة القننة ضد عراقي نفسه وهو يقول لي إني اذا قدرت على تخليص ثلاثة من المشايخ من السجن فهو يضمن انصام جميع العرب لنا . وأنا أؤمل ان أحلص هؤلاء الثلاثة بواسطة سفيرنا في الاستانة »

ويقول في ٢١ منه : « أما في اشتياق للذهاب الى السويس لاني قد انتهت من الاعمال الابتدائية . فإذا تسلمت الاوامر فإني أتفق مع العرب في أسوعين أو

« وأنتهى من كل شيء . أما البدو الآن فيسيقون في سكة ولما ينضموا الى
 . في ولكنهم سينظرون كمتى لكي يعملوا ما أشير عليهم به . وهم بمنبروت
 سافه افندى (كما يسوتني ، رجلا عطيا »

وفي ٢٢ يقول : قال لي بدوي جاء حديثاً من مصر ان عرابي قد أحضر الى
 قلة ٢٠٠٠ حبال من بدو النيل . ولستهم سيرجعون عند ما يصلون الى السويس
 . دالم نجد الوسائل السلمية فاني سأرسل لهم عشرة آلاف من الطيحة والبرابن لكي
 طردوهم . وقد انصم الى بدوى آخر وهو الذي بعد ركب الحج بالجمال ووعدت
 نير المشايخ بمخيمات حنيه هو لذلك لا يحجم عن عمل اى شيء آخر لاخل . أما في
 ضد السرور لان الحرب قد وقعت بالفعل . وصار على الآن أن أقوم بواجبي
 عظيم وأنا متأكد من النجاح . وسأعرف قريباً ما يجب أن أفعله . وقد قال لي
 ورد نورثبروك أن يعطينى ٥٠٠ جنها عند السفر وأما عن المفاوضات فيستقون معي
 تعاقبا آخر . وسأقصد هذا الشهر على الأقل ٢٨٠ جنها وهو ربح لا بأس به من
 عمل شهر واحد . ولا أظهم يعطونى أقل من ألفين أو ثلاثة آلاف جنيه للقيام
 بالمهمة بأكملها

ثم يقول في ٢٦ مه : « وجدت أنه من الممكن أن نحصل على السفن من السويس
 وسأسافر غداً وأرجو أن أكون على ظهر سفينة بعد أربعة أو خمسة أيام . لقد
 نجحت نجاحاً يوراني أن أطلب من الحكومة مبلغاً آخر وسأقول انى صرفت كل
 ما معي في الهدايا . وبضعة مئات من الجبهات ليست شيئاً يذكر في نظر الحكومة
 ولكنها ذات قيمة كبرى لثلي . وسأرسل الى روجني نحو مائة جنيه عد اول
 وصولي للسويس . لقد دفعت كثيراً ولكن لا يزال معي ٣٠٠ جنيه بعد
 نفقات سفرى الى السويس . وهذا أفضل من الشغل في الصحافة بمرتبة ٣٠٠
 جنيه في الشهر أكلت اليوم الخبر والملح مع العرب الى حياة كل منا
 الآخر الى الموت »

وفي ٢٨ منه يقول : « انصم الى مشايخ الحويطات . وقد نجحت نجاحاً ناهراً
 وقد قدمت في القصر أنشد الشعر العربي لهؤلاء البدو حتى تعاطفوا بي »

وفي أول أغسطس يصل المار الى السويس فيقول : « أما الآن على ظهر إحدى سفن شركات الملاحة الانجليزية . وقد نسلمت خطاك (من زوجته) . أما كيفية وصولي الى السمية فاني سرت مبدأ عن السويس في الليل ثم نزلت الى السفينة في نصف الليل . وقد كلفني هذا العمل عشرة جنيهات ولكي نخرج من الحرس المصري . وستأتي الحياض يوم الخميس أى بعد غد . . . كنت عند أمير البحر منذ وقت قصير . وقد سر بنتيجة عملي وارسل تلغرافا الى لورد نورثبروك . وكان قد أمر بأن تخصص ثلاث سفن لمراقبة الشاطئ من أجلي . ولكنني وصلت الى السفينة وحدي »

وفي ٢ أغسطس يقول : « ذهبت الى الصحراء ثانياً وسأقي فيها يومين اذ كلفت بأن أقلع أسلاك التلغراف وأحرق الأعمدة حتى تقطع المواصلات بين عرابي وتركيا . وصل الكابتن جل امس الى بورسعيد وسيصل الينا هذا الصباح . كان امس يوماً مشهوداً . زرت جميع ربابة البوارج وكانوا يرحبون بي ويستقبلوني أحسن استقبال وكانوا يلحون علي في أن أشرب معهم الشبانيا الثلجة وفي المساء أولم أمير البحر ولية تكريماً لي ! وكانت اللجمة خمة ولم أعد الى سفيتي الا في الساعة الاولى صباحاً »

وفي ٤ أغسطس يقول « أمرت يوم الاثنين بأن أرافق ضابط القوة للاستيلاء على السويس فزلتنا ومعنا خمسمائة رجل وثلاثة مدافع . وفرت الجنود المصرية فلم نقاتل . وكنت في أول الرواق التي وصلت الى الشاطئ . ثم أمرنا المحافظ بأن يصلحنا المدينة وخمسين الف جنيه كانت لديه ففعل . . . أمس الأول اربسل لورد نورثبروك رسالة لأمير البحر بهنتي فيها بسلامة وصولي ويقول اني قد عينت رئيساً للترابطة في جيوش جلالة الملك في مصر . وضرت بذلك في هيئة أركان الحرب التي يرأسها أمير البحر . واما هنا (في السويس) في الفندق أعيش على حساب الحكومة معيشة خمة ولا أتناول الطعام الا مع أمير البحر . وبعد غد سأذهب الى الاسماعيلية في زورق مجهز بالمدافع وقد قال لي أمير البحر في السويس « لا تدع الاميرال هناك يحجزك عنده لانك انت هنا مفيد اسمك بين رجال باراجتي . ويستغل الآن تحتدي يلسني

محو أربعين شعصا . وقال لى امير البحر مند ابام انه متأكد من انى سامنج
يسام الشجاعة ونجم الهند . وم لا يرعون فى ذهاني الى الصحراء . الآن لانهم
يردون ان ابقي معهم واما الآن احد ضباط الحلة ولذلك ارانى مرهوا رهوا
كيرا وسيسل غدا الاثلاي ٧٢ وسأبحث لرجاله عن جمال . اما الأجرة فستكون
حب قرارى ولكنى لم أقررها للآن »

ثم بعد ذلك نرى هذه الجملة العجبة وهي لب هذه المذكرات : « وضع الكاتن
حل فى بدى عشرين الف حنيه لاوزعها بين العرب »

واما ما بقي من هذه المذكرات فاحلام وأمان فى ٦ اغسطس يقول : « فى
لسويس . . . سأقوم غدا الى الصحراء لمشتري الجمال . وسيدهب معى الكاتن جل
وملازم امير البحر ولن نخشى أى خطر . . كآنى الآن فى حلم . وقال لى امير
بحر بما انى افضل أن تقرر الحكومة مرتى فيمكننى قبل قرارها هذا أن أسحب
ما أريد من الأموال لعتاقى الشحصة وعلى هذا سأرسل اليك (لزوجته) خمسمائة
حنينه عند رجوعى . ويمكننى أن أفعل ذلك الآن ولكنى لا أريد أن يظهر على
تمصر . فقد بقي لى بعد جميع نفقاتى ٢٦٠ جنيتها واليوم دفع لى عشرون الف حنيه
ولى أن أنصرف بهذا المبلغ كيتما شئت . وأما الذى أعطى الخوازات للحرص . واذا
رأيت اثنتى عشر فرسا فاني اشترىها دون مسالومة . وأمس رأيت ثلاثين جلا
عاطلي صاحبها ٣٦٠ جنيه عنما لما بمجرد ان كنت هذا المبلغ على قطعة ورق .
واليلة أترجم أقوال المحافظ الذى كان يتناول العشاء مع امير البحر . وعدى الآن
خدم وكتبة ومترجون يطبعون أوامرى والخلاصة أنى فى مركز لم اكن أحلم به .
ونحن هنا آمنون فى خنادقنا والعدو على بعد ثمانين ميلا ما وعدا ستأتينا الحيوش
الهندية . ويدبى أنا فى حرب ولكنى بما أنى فى هيئة أركان الحرب فاني لست
أخشى أى خطر . وأمير البحر رجل ظريف وقد قيل لى أنه لا يسى صباطه وبحب
على الدوام أن يرقهم وقد قال لى انى استحق وسام نجم الهند »

وهذا آخر ما كتبه بالمر فى هذه المذكرات التى تثير الاحساس . فقد خرج فى
اليوم التالي بصحبة جل وتشارنخون الى الخل فى الصحراء الشرقية وكان الغرض

من خروجهم قطع التعرف الواصل بين مصر وسوريا وقد أخدمهم لهذا الغرض صدوقاً مملوءاً بالدينارमित وكانت مهمة بالمر الطاهرة شراء الجبال وكل الجميع مرتدين ملابس عربية . ولكن كانت مع كل منهم كوة حرية لكي يلبسوها عندما يكونون بين القبائل الموالية لهم تكبراً لشأنهم . وكان المبلغ الذي أخذوه معهم من العشرين الألف جنيه التي أعطيت لبالمر يتراوح تقديره بين ٣٠٠٠ و ٨٠٠٠ جنيه وكان جل قد صرح بعدم موافقته على خروجهم في هذه المهمة فإنه طالب أن يأخذ المبلغ كله ليورعه بين العرب كما كان الاتفاق بينهم وبين بالمر ولكن أمير البحر عارض في ذلك .

وكل الفشل مقدراً لهم . فان الحرس المؤلف من البدو الذين ساروا معهم عرفوا وجود المال معهم . وكان هؤلاء العرب من قبيلتي الخوايات والحويطات وكان المال محصواً لأطياحة . فرعب الحرس في المال ويظهر أنهم كانوا متواطئين مع حاكم النحل (وهي بلدة واقعة بين السويس والقنطرة) على أخذ المال وقتلهم مما هو أن ساروا بضعة أميال حتى هوجوا وأوتقوا وسلبوا ما معهم ثم ضربوا بالرصاص على حافة وهدة في وادي صدر . وهكذا انتهت آمال بالمر المسكين . وكانت الكثرة من العداحة بحيث سئلت عنها أسئلة في البرلمان ووقف ذلك الرجل سبر هنري كبليل بارلمان وكان وقتئذ وكيل وزارة فكلفت بحجب على الاسئلة ويسكر المهمة السرية التي كانت موكولة الى بالمر ورفقائه ويقول أنهم لم يخرجوا الا بنية شراء الجبال .

ولست مذكرات بالمر المالية الوحيدة . فان الكاتبين جل قدرتك أيضاً مذكراته وهي تثبت هذه الحقائق . فان مهمته في غربي القناة كانت لا تختلف عن مهمة بالمر في شرقيها . وتبتدى هذه المذكرات في الاسكندرية وهو يقول فيها أنه ذهب لمقابلة سير فريدريك جولسبيد وأنه يأمل أن يكون بين البدو في غرب القناة بعد قليل من الوقت . ثم يقول أنه أخذ من الخديو قائمة مكتوبة بخط يده عن أشهر المشايخ بين القناة والارض المزروعة ويذكر منهم اثنين وهما سعود الطحاوي في الصالحية ومحمد البغلي (البقلي ؟) في وادي طوميلات . وكان يستعد أن البدو ينظرون للانضمام الى الجانب الذي يوافق مصالحهم . وفي بورسعيد يقابل المحافظ المعزول

يجبره هذا بأنه يمكن شراء البدو مجنبيين أو بثلاثة جنيهات الواحد . وفي ٤ منه تم إرساله قرأ تقرير بالمر لسير سيمور . ثم يقول : « لو اني كنت عرفت أن التقرير سيوصل رأساً الى سير سيمور لكنت سألت هو سكندر عما اذا كانت لديه النقود اللازمة بالمر » ثم يقول :

« يقول بالمر انه يستطيع أن يشتري خمسين ألف بدو بخمسة وعشرين الف جنيه يسألح في اعطائه هذا المبلغ »

ثم يذكر تقريراً له يقول فيه أنه لا يمكن سد القضاة الا من نقطة معينة يذكرها وذلك لقلة وحود الاحجار في الاماكن الأخرى وصعوبة اغراق السفن بدونها ثم يذكر دلّس فيقول انه يستطيع الحاق الاذى بالقضاة لأن جميع الكراكات والزوارق هي تحت تصرف الشركة هي والحقيقة تحت تصرفه . وفي ٥ أغسطس يذهب حل الى القناة ويصل الى السويس ومعه ضابط آخر ومعها عشرون ألف جنيه ذهباً لكي يعطيها بالمر . وعندما يكون في الاسماعيلية يقابل مستر بيكلرد فيناقشه في أحسن الوسائل لتدمير التلغرافات . ثم يذكر ان أحسن الطرق ثلاث . وهي : (١) تدميرها قريباً من الشاطئ . في العرش وكلاهما يعتقد أن هذه طريقة خطيرة . و (٢) تدميرها عند جسر القنطرة ولكن يعترض على هذا العمل بأنه يخالف جيدة القنطرة . و (٣) من السويس وهذه ميسورة . ويظهر أنه لا يثق ببيكلرد فيقرر أنه يذهب الى السويس ليقطع خطوط التلغراف بعينه .

وفي ٦ أغسطس يذكر سرورده لأنه تخلص من مبلغ العشرين ألف جنيه اذ سلمها بالمر . ثم يذكر أنه سيذهب مع بالمر لمقابلة المشايخ في النحل ثم يقول انه بعد أن يذهب معه سيرى مبلغ آمال بالمر التي عندها على هؤلاء البدو وهل حالة البدو تبرر هذه الآمال .

فهانان الوثيقتان أي مذكرات جل ومذكرات بالمر تثبتان كل الاتبات استعمال الرشوة قبيل معركة التل الكبير .

وقد كنت متصلاً بهذه المسائل صيد حدوثها . وذلك لأن عائلتي بالمر وجل طلبنا الى أن أطالب الحكومة بالاعتراف بمحدثها القتل ومكافأة عائلتيها . وبعد

أن أنكرت الحكومة المواقف التي أدت إلى قتلها جعلت صهرى لورد وتورث مطالب الحكومة بإيضاح هذه المسألة . وكانت مطالته هذه سبباً في تغيظ اللورد من حرب الحكومة ووقف لورد حرا فيل ولورد بوديرون ينكر أن أشد الاسكار أن الحكومة حاولت أن ترشو البدو . ومن العجب أنني ذهبت إلى لورد سالزبرى وطلبت إليه أن يساعدني في الاعتراف بخدمة هؤلاء القتلى ومكافأة عائلاتهم فقال لي أنه يوافق على أن ينكر اللورد . جميع ما عمل في المصالح السرية . ولكنه مع ذلك أمكن لورد وتورث من شرح المسألة بينما غيره كان يعارض في ذلك .

ولكن مع كل ذلك لم تكن أعمال الممر وجل ذات قيمة كبرى لولسلي فانما المساعدة الحقيقية للحيش الانجليزى جاءت على يد الحديو . فانه أعزى سعودا الطحاوى من مشايخ العربان بخيانة عرابي وكان هو الوحيد الذي نجح في خيانه أو ثقت على الحياة . وكان سعود قد أخذ مكافأة على هذه الحياة مبلغ خمسة آلاف كرون عسوي . وكان دائماً على الحياة منذ انتقال الحيش من كفر الدوار إلى التل الكبير . وكان سعود من سادة العرب وكان على شيء من الذكاء . ولكن اختلاطه بدليس والفرنسيين الذين كانوا في القنطرة على بعد يوم من خيامه أنلفه فاهو المعتاد اذا اختلط العربي بالفرنجي وحاول أن يمثل دور الجنرال . فكان يخاطبهم ويصيد الغزلان معهم . وعدى ما يشبه أن يكون أقراراً منه بأنه كان جاسوساً للانجليز في جيش عرابي فاني مرتت بالصالحية في سنة ١٨٨٧ فنزلت في خيمه . فلما عرف أي انجليزى وكان بالطبع يجهل ميولى السياسة أخذ يتكلم عن اعماله في الحرب فلم يترك عندي مجالاً للشك . فقد كان يشتغل عند عرابي ويقوم لجيشه بالاستطلاع فكان رجاله بروحون وبفسدون من نجيم إلى آخر . ولم يكن في عمله ما يتغير منه لأن البدوي ينظر إلى المصري والتركي والافرنجي باعتارم جميعاً أجاناب ليس لأحدم عليه ولا . وانما هو يخدم الجميع بمقدار ما يستفيد منهم . وليس للبدو البازلين في شرقي النيل الا القليل من الاحساس الديني بحيث لا يتمتعون لذلك من خدمة الكفار اذا وجدوا في ذلك مصلحة لهم . زد على ذلك أنه لم يكن قط حب بين الملاحين والبدو .

ولكن أكبر ما عاد بالأذى على عرابي وعجل انتصار ولسلي هو ما فعله بعض
عصريين للمستغنين في القاهرة والتل الكبير من ارشاء ضباطه بالمال والوعود بالترقية
حيث تلح هؤلاء الضباط ولا هم له .

ولم يفعل ذلك ولسلي أو أحد من رجال المصلحة السرية الانجليزية وإنما الذي
فعل ذلك هو الخديو لأنه كان يعرف من يمكنه أن يعول عليهم أكثر من الانجليز
يحيى كان الانجليز هم الذين قدموا للخديو المال اللازم . وكان أنشط وأذكي الذين
وكل اليهم هذا العمل ياوره عثمان بك رفعت الذي كان يعرف عوامل الغيرة بين
الضباط وميول كل منهم . وكان يوصح للضباط الذين هم من أصل شركسي عدم
مقابلة انصاهم للعرايين وعدم فائدة المقاومة لأن الخديو سيفوز في النهاية ويكافي
من ينضم اليه من الآن ويعاقب من يعمل خلاف ذلك

وكان الانجليز وولسلي يخضمون الخديو وكان السلطان الذي أعلن ان عرابي
ثامر وكان على وشك ارسال الجنود يفعل فعلهم . وكانت أقوال عثمان دفعت ذات
وزن واعتبار في نظر الضباط الشراكية أما السفلة من الضباط المصريين فإن الاموال
أنعوتهم . وكان عرابي على الرغم من ان الجنود والضباط كانوا يحبونه قد ألحق الغيرة
والخس في قلوب بعض كبار الضباط الذين كانوا يرون أنهم يفصلونه في قيادة الجيش
ومما زاد استياءهم تلكه في مسألة سد القناة . فإن ثقتهم فيه زالت من وقت أن
نزل الانجليز من القناة ولم يردم الفرنسيون الذين كان عرابي يعتمد على وعودهم
في رد دم فلم يعد العدة للملاقاهم عند شاطئ القناة . اما مع رعايا الوطنيين من غير
الجنود فقد كان للخديو وكيل آخر هو سلطان باشا الذي كان زعيم الملاحين
قبلاً ثم اقلب عليهم وانضم الى الانجليز ولم يعد ينجح من بذور الشقاق بين
الوطنيين الذين كانوا لا يزالون متعلقين بوطنهم وقد يصعب الخيل الجديد من
المصريين ويتساءل عن السب الذي حمل رجلاً شريفاً يتحدى الحياة بالوطنية الحارة
ثم ينتهي بالمبوط الى ذلك الدرك . وتفسير ذلك هو ما يلي :

كان سلطان باشا رجلاً ذا كبرياء له ثروة واسعة وجاء عريض وكان له

صدر المكان في أى اجماع يعقد وكان يسمى ملك الوحه القبلى بين كار الملاك وكان يرى أن من حقه لهذا السب وعامة الملاحين .

وكان ينظر الى عرابي نظرة الرعية التي ينعتف بها الكبير على الصغير وكان يرى فيه أداة لتحقيق أغراضه ولكنه لم يكن يتوقع ان عرابي سيأخذ مكانه بين الجمهور . ولما ألفت وزارة سنة ١٨٨١ ولم يكن وزيراً بها اغتاظ من ذلك ولكن كانت له بعض التعزية اذ عين رئيساً للبرلمان الجديد . واغتاظ أيضاً عما ألفت الوزارة الثانية في سنة ١٨٨٢ ولم يكن عضواً فيها فشر ان الوطنيين لا يعطونه حقه من الاحترام فانهمد الى الجانب الآخر . ثم جاء الاسطول الى الاسكندرية فأخذ مالت في إغرائه ثم في تخويمه حتى صرح بأنه يرضى ماحاة مطالب الانجليز ثم انصم نهائياً الى حزب الخديو فليس في انحدار سلطان كما انه ليس في انحدار الخديو شئ . يستصمى على الفهم فقد صارت المسألة في نظره عاداً بعد ان كانت طموحا الى منصب ثم مما تخفف عن نفسه خرى الصغير ما وعده من أن تدخل الامحاز لا يقصد به سوى إعادة الحالة على ما كانت عليه قبل وزارة محمود سامي وأن مصر ستبقى دستورية كما هي . وبناء على ذلك أرسل لجميع أصدقائه العديدين خطابات يقول لهم فيها ان التحالف الموجود بين الخديو والانجليز هو تحالف مؤقت وستخرج الانجليز من مصر عند ما ترجع للخديو سلطته وان عرابي قد فقد ثقة السطان وان الاستمرار على المقاومة في القاهرة لم يعد مجدياً والمسلمون يستكرونه . وقد كان لهذه الخطابات التي وزعت بعناية أثر كبير وكان للاموال ايضاً أثر آخر . ويظهر ان سلطاناً وكان يقدم هذه الاموال من جيبه الخاص لا من اموال الحكومة للمصرية التي قررت بعد الحرب منحه سلطان مبلغ عشرة آلاف جنيه بحجة انها توفيت لما ناله من الخسائر مدة الحرب ومنح أيضاً لقب سبر من الحكومة الانجليزية . والاغلب على الظن ان ما صرفه سلطان لهذه الاغراض لم يكن كبيراً لانه كان يعد الوعود لبعض الضباط « ولم يف بها بعد ذلك » ولهذا كان هذا المبلغ اكبر مما صرفه ومما كان كل ذلك فانا بممكننا ان نقول ان الخديو قد مهد طريق العصر لولسلى (١)

(١) أُنشد هذا في مذكرياتي عن سنة ١٨٨٧ « ١٣ فبراير - زادني عبدالسلام

وكان الجيش يستطيع على الرعم من هذه الدساتس أن يبطل مدة الدفاع لولا
 سو، المخط الذي لارمه مدة الحرب . فانه عند ما عرف ان الانجليز سيهجمون من
 شرق ذهب محمود همي المهندس القدير وكان من اكر أعوان عرابي الى التل
 الكبير وأخذ يرسم خطوط الدفاع التي لم يكن له من الوقت ما يكتفي لانماها . وذلك
 انه عند ما كان يشتغل في تخطيطها وقع في أسر الانجليز في يد جماعة من حرس
 الجيش الانجليزي . وكيفية ذلك ان محمود همي كان قد خرج عبد الماء ومعه ياوره
 فقط وكان قد خلع ملابسه الحربية لحر الشدبد وصعد على ربوة لكي يستطلع
 الصحراء الواقعة بينه وبين الاسماعيلية . فانقضت عليه جماعة الحرس الانجليزي
 هذا وأسرتة في الجانب الآخر من وادي الطميلات . ولما لم يكن في ملابسه
 الحربية احتار الملازم تالبوت في كيفية معاملته وكاد يقل أقواله من انه افسدى
 بملك بعض الارض في تلك الجهة وكاد يطلق سبيله لهذا السب ولكنه أمسكه
 وأخذه الى مضارب الجيش الانجليزي حيث عرفت أهميته . والواقع ان أسره هذا
 كان ذا أهمية عظمى وكان نكبة لا يمكن تقديرها على الجيش المصري في التل
 الكبير (١)

وكانت النكبة الاخرى ما أصاب قائدس من أحسن قواد عرابي في القصاصين

المويلحي فقال انه كان صديقاً حياً لسلطان وانه كان من حربه وقد تشاجر مع عرابي
 ولكنهم أسفون على انشقاقهم عه الآن وقال انه لم يوافق على سلوك سلطان مدة
 الحرب . وان سلطاناً قد خدعه مالميت ووعد به بقاء البرلمان بعد الحرب . وأراد
 سلطان ان يحصل على وعد كتابي من مالميت بذلك ولكن الخديو طلب اليه ان
 يكتفي بالوعد الشفهي ولما عرف سلطان هذه الخديعة بعد الحرب أسف كل الاسف
 ومات وهو يتحسر ويطلب ان يغفر له عرابي فعلته والا يذكره الناس بخيانة الوطن.
 وكان سب مشاجرة مع عرابي حسده له لانه صار وزيراً أدونه »

(١) ان ما حكيتة ها عن محمود همي قد قاله هو في نفسه . وقد روى غيري
 روايات أخرى عن كيفية أسره وقال بعضهم انه انضم الى الجيش الانجليزي ولكن
 من يعرف محمود همي لا يصدق هذا

وهما على فهمي صديق عرابي المحرب وراشد باشا وكان كلاهما جسدياً محرباً وكانا من الشجعان الذين قد جربا الحرب قبلاً . وهما أول من قام بالمحوم على حبش ولسلي في القصاصين . وكان ما أصابهما شر ما نزل بالجيش المصري في جهوده وفي صد الانجليز .

ويقول الرواة المصريون ان العدو كان قد فوجئ وبقيت الحرب سهلاً بين الفريقين وكاد اللوق كنوت أن يقع أسيراً . ولو كان هذا اللوق أسر وصمد الجيش المصري لاعدائه لكان الأرحح ان المصريين حصلوا على الصلح واعترفوا بالهزيمة بالحالة الجديدة لان الرأي العام كان في ذلك الوقت قد تحول وصار الناس يخرجون من محاربة فلاحين يقاتلون من أجل حريتهم ورد المطالم عن أمهم .

ولكن كان يتدخل مديراتهما أى على فهمي وراشد باشا (تقصان . فان هذه التدبيرات كانت تقضي بان يزحف محمود باشا سامي بالني جندي في الصباح وبهاجم الانجليز من الميسة . فقاتله في الليل رجال سعود وأضلوه عن الطريق فلم يصل الى الميعاد . ثم أن عرابي لو كان جندياً له سليقة الحرب لانضم اليها ووقف الى صفها ولو في مؤخرة الجيش مع الاحتياطي ان لم يقف في المقدمة . ولكنه لهدم فعله ذلك لم تطهر في الميدان جميع قوة الجيش التي كان يجب استخدامها . وأصيب هذان القائدان بجروح منعهما من مباشرة الحرب . ثم من المؤكد أيضاً أن أحد القواد المصريين وهو على بك يوسف قد خان الجيش .

فكأن الجيش المصري لهذه العوامل في ارتباك هائل في التل الكبير وقد مدت بوادر الخاتمة المحزنة . فان عرابي قد أحسن قواده ولم يعرف أحداً يقوم مقامهم . وكان الذين يثق بهم قليلين ولم يكونوا من أهل الكفاية . وكان هناك رجل ربما كان يمكنه أن يسير بالدفاع على نحو ما وهو عبد العال حلمي ولكنه لعله غير واضحة بقي بعيداً عن الميدان .

وكان عبد العال هذا أحد « الضباط الثلاثة » وكان من أشجع ضباط الجيش وكان قبلاً معيناً في الدفاع عن دمياط توقعاً لنزول الانجليز هناك وكان معه عدد كبير من أفضل الجنود وبخاصة تلك الفرقة السودانية التي كانت فرقته الأصلية .

ولو أن هؤلاء الجود أحضروا إلى التل الكبير مع قائدهم لكانوا على الأقل نحو الجيش من وصة العار لأنهم كانوا في حماسة حارة ولم تكسر قلوبهم هزيمة سافة ولكن يظهر أن اللجنة أبقت في دمياط اعتقاداً بأن هذه البلدة لا تزال تحتاج حماية إذ لم تقرر تعيين عبد العال خلفاً لملى فهمي .

وقد جال مخاطري بعض الاحيان أن يعقوب سامي رئيس لجنة الحرب مع ماسبق له من الخدمات في هيئة أمر الدفاع قد أغراه بعد ذلك وكلاء الحديو . فإنه كان مسلماً من أصل يوناني ولذلك كان من حزب الحكم السادة وعدى وثائق تدل على أنه بينما كان يظهر كأنه ساعد عرابي الايمن اذا به رحل الحديو الذي يعتمد عليه ويظهر أن الحديو كان يسيطر اليه هذه النظرة ويعدّه من رجاله ولذلك عومل بشدة بعد الحرب . وكان أحد الناشوات السبعة الذين بقوا إلى سيلان . وقد أظهر خصوصاً وندماً في المحاكمة وجعل يدافع عن ولائه للحديو . وهذه الوثائق تثبت حده لعرابي وغيرته منه . فمن الممكن اذن أن يكون قد احتشد بعد اصابته على فهمي في عزل عرابي ابتداء التعجيل في هزيمته في التل الكبير ولم يرسل اليه عبدالعال لهذا السبب . وقد أعطيت القيادة لرجل طيبو لكه غير قادر على القيام بأعبائها هو على باشا روبي أحد رفاق عرابي القدماء . ولكن لم يكن له صفة أخرى تجعله صالحاً للقيادة .

اما عرابي فإنه على الرغم من قرب هجوم الانجليز فقد بقي في خيام يحوطها الايمان ورجال الدين الذين كان يقضي وقته معهم في الصلاة والذكر . وكان يعتمد على سعود الطحاوي لكي يبنه بتقديم والى . وكان سعود يفشيه ويطمئنه وكان جيش التل الكبير في غاية التفكك فان الجنود المنظمة لم يكونوا يزيدون على ستة آلاف او سبعة آلاف وكان معهم نحو الف خيال ومثل هذا العدد من المدافع وكان رجال الطوبجية يعرفون حرفتهم . وهذا هو كل القوة التي كان يمكن الاعتماد عليها . أما ما عدا هؤلاء فكانوا جماعة من المجندين الجدد الذين لم يدربوا وأجسادهم تكاد تكون عارية وكانوا من الفلاحين السذج يشتغلون بمجد في حفر الخنادق ولكن لم تكن لهم قيمة حربية . وربما كان عددهم يبلغ عشرين ألفاً ولكن ليس عندى احصاء صحيح عنهم . وكانوا يكدون ليل نهار في انعام حفر الخنادق ولكن كان هذا فقط

كل ما استطاعوا أن يعملوه . وقد قال ستون ناشا الامبركي بعد الحرب أنه يعتقد أنه لم يطلق واحد من جميع هؤلاء خرطوشة واحدة والارجح أنه مصيب في اعتقاده .
وحادث الحانة فجأة في محرم ١٣ ستمبر . فقد كتب الكتاب الحريون الانجليز قصصاً خيالية عن تقدم الجيش الانجليزى سرّاً في الليل تحت جنح الظلام يهتدي بالنجوم وبهداية صابط من البحارة حتى خرج من المحسة ووصل الى التل الكبير حتى لا يتوهم القاري . أنه كان يتحس طريقة في الظلام لا يدرى الى أين يقاد . ولكن الواقع خلاف ذلك . كان حواسيس العرب والبدو الذين أشرت اليهم بدلوته على الطريق . وكان انسان من صفار الضباط في جيش عراي قد ارتشيا من الحديدو قبلا على يد وكلائه وكانا في مركزين مهمين . واسم كل من هذين الضباطين يجب أن يدون تحليداً لعارهما وقضيتهما . فالولها هو عبد الرحمن بك حسن قائد الحرس الراكب وكان في مقدمة الجيش مع فرقة خارج الخطوط وكانت الصحراء من جهة الشرق مكشوفة أمامه . ففي تلك الليلة الممهودة نقل رجاله الى جهة بعيدة نحو يسار الجيش حتى يصير طريق الهجوم خالياً أمام الانجليز . وأما الثاني فهو الذي سبق أن ذكرته واسمه على بك يوسف الذي كان على قيادة خطوط الخنادق المتوسطة . وكانت هذه الخطوط لانعوق سير المدفعية . وظهر من التحريات بعد ذلك ومن أقوال عراي أن هذا المخلوق لم يكنف باخلا . مرا كره بل وضع المصاييح لكي يهتدي بها جيش الانجليز . وقد ذكرت في أسماء أخرى لمن خانوا بلادهم ولكني لعدم ثقتي بالرواية أوتر عدم ذكرهم . أما هذان الانسانان فان خيانتهم قد اشتهرت في القاهرة مدة سنوات لانهما لم يخفيا فعلتهما وخاصة على بك يوسف الذي كان نائب الشكوى من قلة المكافأة التي كوفى بها على حياته وطه

فقد دفع له الف حنيتها قبل المعركة وكان قد وعد بعشرة آلاف جنيتها بعد المعركة ولكن الحكومة لم تدفع له سوى معاش شهرى قدره ١٢ حنيتها مدة حياته . وكان عراي وسائر الجيش قد باتوا تلك الليلة مطمئنين لان سعود الطحاوى كان قد غشهم وخدعهم . فبات هؤلاء الساكنين في خنادقهم ووراءهم عراي على بعد ميل منهم واذا بمحبوش العدو تصب عليهم فاخترق الانجليز الخنادق من أمامها

الضعيفة وفي مؤخرتهم المدافع تصب النار ففر جميع المحمد بن الحدد دون أن يطلنوا طلقة واحدة وكانوا في حالة تشب العري وقد أضناهم حمر الخنادق ورموا بادقهم وهرعوا يعدون والمدافع تمصدم وكانوا ليلهم بكيفية التسليم يطهرون كأنهم لا يزالون يجاربون فكأنت الحرب أشبه شي بمجرة وحدث كل هذا في القلب وفي المينة . أما في الميسرة فقد صمد محمد عبيد وكانت المدفعية المصرية تحيد الضرب هنا وهناك ولكن كل هذا لم يستغرق بالارجع أكثر من أربعين دقيقة . ووقع محمد عبيد في هذا الدفاع الشريف ووقع معه أكثر رجال المدفعية الذين صمدوا للقتال ولكن لم تمض ساعة حتى انتهى القتال وصار الجيش الوطني خليطاً مشتملاً .

أما عن الدور الذي مثله عرابي في هذا الصباح المشؤم فاني أرويه نقلاً عن بيان خادمه محمد سيداحمد الذي كان خادمي مدة سنة ١٨٨٨ مدة سنتين وهذا فضلاً عما رواه لي عرابي نفسه بعد ذلك .

قد كان سيداحمد هذا يروي لي هذه الحوادث عدة مرات وكان يقول لي ان الجيش كان مستغرقاً في اليوم تلك الليلة لان الطلائع كانت قد روت ان الانجليز لم يتحركوا . وكانت خيام عرابي تبعد عن الخطوط نحو ميل لكنها كانت قريباً في وسط خيام الجيش .

وكان عرابي مطمئناً كسائر الجنود قد خلع ملابسه وذهب الى فراشه ونام نوماً عميقاً ولم يستيقظ أحد الا على زئير المدافع . فلبس عرابي في الحال كسوته الحربية وامتنطي حواده وذهب الى خط النار وكان معه خادمه هذا وآخرون . ولم يذهبوا بعيداً حتى قابلهم جمهور من الفلّوين يقولون انهم قد خسروا المعركة ولكن العرب البدو الذين ينتمون الى الحائن سمود الطحاوي يركضون خيلهم هنا وهناك فيزيدون الارتباك . فجعل عرابي يحض الجنود على الثبات وصار يتقدم بهم الى الامام في ناحية محمد عبيد الذي كان لا يزال صامداً للانجليز ولكن أمواج الفلّوين ردتهم الى الوراء . وحمل خادمه سيداحمد هذا برجوه ان يفر وينجو . فامتل عرابي أخيراً الى هذه النصيحة . ولم يكن الخادم يعرف ان واجب مولاه ان يصمد ويموت في مكانه في ميدان القتال وكان يتحتر بأنه استطاع ان يجعل مولاه يسمع نصيحته .

وكان كلاهما محتلياً جواداً كريماً قد أهديا البها من مدو النجوم الغرية . فوصلا الى محطة التل الكبير قبل وصول الانجليز بدقائق ولم يتمكنوا من أخذ القطار . ولكنهما عبرا الحسر المقام على القناة قبل أن يقفل ولما صارا على الضفة الاخرى وحد نفسيهما في وادي الطميلات فسارا الى بليس ركضاً . ولم يكن معهما أحد لان الارتباك الذي نال الجيش فصل عرابي من أركان حربه . وكان كل م عرابي أن يصل الى القاهرة قبل وصول خبر الهزيمة حتى يهيئ وسائل الدفاع عن عاصمة البلاد . فأخذ القطار في بليس ووصلا الى القاهرة بعيد الظهر .

(وقد سمعت مثل هذه الرواية من مصطفى بك طبيب الجيش رواها لها في سنة ١٨٨٤ وكان ليلة معركة التل الكبير مائماً في خيمة قرية من خيمة عرابي وفي ملحق هذا الكتاب رواية عرابي نفسه)

ويظهر أنه عند وصول عرابي الى القاهرة كانت لا تزال برأسه آمال عن الاستمرار في الدفاع عن المدينة . فذهب توأ الى قصر النيل وانضم الى لجنة الحرب التي عقدت اجتماعاً وكان القرار الذي انتهت اليه اللجنة عبارة عن تسوية تقتضي الخضوع للتخدير من جهة والدفاع عن القاهرة أيضاً من جهة أخرى . ولم يفعلوا الاكثر من ذلك الى اليوم التالي عما وصلت الحنود الهندية بقيادة دورري لوالى العباسية والحقيقة أن وكلاء الحديرو كانوا قد كسروا قلوب الوطنيين بدسائسهم كما أن اعلان السلطان بان عرابي نائر كان قد فت في عضد الوطنيين . ولم يكن يقول بالدفاع في هذا الوقت سوى رعاى الشوارع وكاتوا بجهلون كل شيء . وكان في المدينة حامية من الهنديين الجدد وكان في مقدورهم أن يثبتوا في القلعة ويحسوها ولكنهم لو فعلوا ذلك لدمر الانجليز المدينة . ولم يكن أحد مستعداً لذلك ولذلك قررت لجنة الحرب أن تسلم في الحال مفاتيح القلعة التي طلبها . وكان عرابي قد قضى الليلة السابقة مع جون تينيه وهما في قلتي ومباشرة فنصح له تينيه بالتسليم فذهب الى القائد الانجليزى في الصباح وسلم سيفه واستأسر

(هذا رأي أحد في مدكراتي في سنة ١٨٨٤ انه في ٢٩ اكتوبر جاءني الامير
العربان عثمان كامل وكانا يتكلمان بحماسة وطنية عن الحرب وقالوا لي أشياء كثيرة

فما قاله عثمان أنه لم يكن هناك وقت الحرب لأنه كان سميماً ولكنه كل يعطف على
 القصة الوطنية وقد سلك سلوكاً شريعياً بعد الانتهاء . وكان كامل عصواً والحكومة
 المؤقتة وكان يرى عرابي كثيراً وشهد بولطته ولكنه لأمه على نهاونه . فقال انه كان
 يحب عليه أن يصرب على يوسف بالرصاص بعد القصاصين لانه قد عرف تماماً أنه
 خائن وقد أخذ قبل المعركة حصة آلاف حيه . وحدث أنه كان يوجد ١٨ الم
 جندي مصري ليس أمامهم سوى ٢٥٠٠ حدي الانجليزى بقيادة الدوق كسوت
 نعم ان على يوسف الذى كان فى القلب حمل على الانجليزى ولكنه ترك ميدان القتال
 فاختل نظام الجيش . وكان معظم هذه الرشوة التى رشاه بها الانجليز رافعة بها كبة
 كبيرة من الرصاص وبعد المعركة امتلأت القاهرة بهذه القود الرائعة فاشترتها
 الحكومة بسعر القطعة عشرة أو حصة فرنكلت .

وكانت الحوالات البريدية أيضاً مزودة ولكن على يوسف ألح فى أن تكون
 حوالاته موقفاً عليهما من شخص يعرفه . وكانت القود التى ارتشى بها عد لغفار
 انجليزى زائفة فأخذت زوجته بعصامتها وذهبت به الى زوجة اسماعيل جودت لكى
 تستبدل بها قوداً أخرى . وكسر الامير كل بعض هذه القود فوجد فى داخلها
 رصاصاً . اما البدو فلم يخذعوا فان الخائن سمود الطحاوى لم يقبل سوى الريالات
 الفضية نسلها من أحد قواد الانجليزى كما أخبر الامير كل بذلك بعد الحرب . فكانت
 المسألة فضيحة من جميع النواحي وكان كل قد أمر بأن يذهب الى التل الكبير
 ليقبض على على يوسف ولكن المهرجة فى التل الكبير حالت دون ذلك . فيظهر من
 ذلك ان جميع من كان حول عرابي قد خانوه بعضهم حباً فى المال وبعضهم حسداً .
 وكان محمود سامى يحمى عرابي وقد أضعاف الفرصة فى القصاصين لانه لم يكن قائد
 الجيش بدلاً من عرابي .

قد كان عليه أن يتقدم من الصالحية ويحافظ على ميعاده مع على فمى الذى
 كان جندياً شريعياً قادراً بينما كان غيره لا قيمة لهم . وكان عرابي يمنع الأتراك من
 القيادة وفى الوقت نفسه لم يكن يجد من الملاحين سوى غير الأكفاء . وكان محمود
 سامي هو التركي الوحيد الأمين ولكنه آرشخصه على مصلحة البلاد . وكان الامير كامل

حاضراً في مجلس الحرب في قصر النيل عند ما وصل عرابي وأخبر الاعضاء بهزيمة الجيش وهو يبكي أحر بكاء . وقد قال انه حارب حتى لم يبق سواه . وليس هذا صحيحاً . فوئحه الامير كامل وقال له « ان من يفامر بعمل عظيم يجب عليه أن يحسب حساب الخسارة »

(وقد قال لى الامير كامل ان عرابي لم يكن جديراً بأن يتولى القيادة العامة . فلو انه ضرب بالرصاص أو شق ستة أشخاص في أدوار الحرب الاولى لاسر كل شئ . سيراً حسناً . ومما فاته أيضاً ان ما يقال من ان الجيش الانجليزى كل فى هذه الحرب يسير سير المتزهد عار عن الصحة .

(وقال لى محمد سيد احمد انه كل حول عرابي نحو ألف جندي دبحوا جميعاً قبلما يترك ميدان القتال . ولكي لا أغلق أهمية على صحة هذه الرواية أو كدها وبخاصة من حيث العدد . والمطنون ان القتلى والفرحى من المصريين قد بلغوا نحو عشرة آلاف . وأكثرهم كانوا قتلى لان الانجليز لم يستعملوا أقل هواده . ولكي مع كل ما ذكرته لا أضن صحة هذه الارقام . وعلى كل حال فى التل الكبير أكوام من عظام القتلى وم شهادة باطقة على ما جرى فى المعركة)

الفصل السابع عشر

محاكمة عرابي

لما كانت هذه الحوادث تجرى فى مصر كنت أنا أقضى الصيف فى كرايت والحرن يقطع نياط قلبي . وكانت كل عواطفى بالطمع مع المصريين ولو ان جميع أسباب المكائبات يبي ويهمهم قد قطعت . وكانت حمى الحرب فى الاسابيع الاولى من القتال عظيمة بدرجة لا تدع أية منفعة من كلامي . فصمت امام الجمهور واستعددت لان أقدم دفاعى عن موافى اراء المسألة المصرية . ومما كان يذكر ضدى ما ذكرته شركة روتر من ان عرابي قد فتح دارى القرية من القاهرة ووجد فيها سبعة عشر جسدوا قتلوا بالبنادق ووجد أيضاً مدفعاً محاسياً من النوع الذى يحمل على ظهر

اليخوت والحقيقة في ذلك هي أنه لم تكن نعمة الاسع عشرة بندقية وهذا المدفع وكنت قد اعددت ذلك لاهديه الى ابن رشيد في حائل . وكانت هذه الاشياء في منزلي فسمع بها بعض ولاة الامور فقلوها الى القلعة . ولم أحصل على معلومات عن هذه الاشياء . للارتباك الذي أعقب الحرب الا ما أشيع في لندن من ان مدفعي النحاس قد عديم غنائم الحرب وانه حل الدوراة البحرية لكي يمرض على انظار الجمهور . وبعد الحرب بـ عشر سنوات كنت أتناول الفداء مع ابن عمي لورد ويندهام في القلعة في القاهرة . وبعد الفداء أخذني لكي يري أسلحة دار الصنعة فرأيت هناك مدفعي وسائر أسلحتي . ولما كان الصندوق الذي يحوى البنادق لا يزال اسمي عليه فابى استطعت ان أسترد جميع هذه الاسلحة .

و كست مدة الحرب مكروهاً في دوائر الحكومة ولكن علاقتي كانت لا تزال متصلة بدار رئيس الوزارة . وكست أقابل هاملتون وقد عرصت عليه دفاعي الذي نشرته في مجلة القرن التاسع عشر في وقت كانت أوشكت ان تذهب فيه حماسة الحرب وتنطفي حذوتها وكان المكرون من الامة أخذوا يفسادون عن السبب والعاية من الحرب . وكانت مقاتلي تستند في الدفاع الى العاطفة أكثر من العقل . وكانت تقيحها أكبر مما انتظرت فان سيرلوسون ومسترحيموركي وعبرهما من الاحرار أخذوا يطوفون البلاد يدعون الى وقف الحرب وصار في البلاد شبه رأى عام يقاوم الحكومة في هذه الحرب . فتشجعت من ذلك . وحوالي ذلك الوقت أيضاً نلت خطاباً من الجنرال غوردون مؤرخاً بتاريخ ٣ أغسطس وكان وقتئذ في مدينة الكلب وقد صرح لي فيه بعطفه على القضية التي كست أدافع عنها وهذا نصه :

مدينة الكلب في ٣ أغسطس سنة ١٨٨٢

عزيزي متر بلنت

انك تقول في التيمس إنك ستنشر بياناً عن المكاتبات التي دارت بينك وبين الحكومة فأرجو أن ترسل لي نسخة من هذه المكاتبات . فقد كتبت أنا مسودة كتاب عن الحوادث التي جرت بين بعثة كيم وبين ارتقا . شريف مصعب الوزارة وسأسميه « اسرائيل في مصر » وسأبعثه بأخر اسميه « سفر الخروج » ولا أعرف

إذا كنت سأطبع هذا الكتاب لانه ليس من الصواب ان يشتم الانسان أعدائه .
أعني بذلك الاعداء الزميين .

ما أبلغ الدمار والخراب اللذين جرهما مالت وكولمن بل ما أؤخم عواقب
سياسة التكنم التي جرى عليها ذلك وكولمن ومالت . قد فر ذلك من إجابة
الاسئلة التي أقيمت عليه في البرلمان بدعوى المصالح الانجليزية . فياله من شقي اتني
اعتقد تمام الاعتقاد انه لا يدري عن خطئه أكثر مما يدري بواب ورارة الخارجية .
وهل كان يمكن أن تكون خواتيم الامور أسوأ مما هي الآن لو انه صرح بكل شيء ،
كلا . إذ ما هي النتيجة الراحة ؟ زوال المراقبة وزوال الموظفين اللذين يتنازلون في
العام ٣٧٣ ألف جنيه وزوال نفوذ القناصل وزوال توفيق وزوال الربا وخراب مدينة
الاسكندرية وفوق ذلك أمة نكرهنا وسيدهد ككولمن الى الهدم ومالت الى
الصين ولن نسمع عنها شيئاً . وكل هذا لأن القناصل والمراقبين لا يرغبون في أن
يساقش أعيان البلاد الحكومة عن الميزانية في وزارة شريف . وأما عن عرابي فها
حدث لشخصه منه سيعيش في قلب الامة الى الابد : ولن تكون هذه الامة
« خادمتكم المطيعة » مرة أخرى .

(ك.ج. غوردون)

واقبل نحيات المخلص لك

وقد رأيت في الحال أهمية هذا الخطاب لآتي وان كنت في ذلك الوقت مكروها
في الدوائر الحكومية الا ان اسم غوردون كان ذا قيمة كبرى عند الجمهور وبخاصة
عند ذلك الجمهور الذي بدأ بمضدي فاعتدت على هذا الخطاب لكي أشرع في
مكاتبات جديدة مع هاملتون . وكان مستر غلادستون قد قال في البرلمان عنى
أني « من الشاذين السيئين » اللذين لا يعرفون مصر فأرسلت اليه عن سبيل هاملتون
نسخة من خطاب غوردون لي ثم لفت نظره الى ما ذكرته الحرائد من روايات
الفظائع التي كان يرتكبها توفيق هو وورداؤه الشركس مع المعتقلين الوطنيين . فقد
روى أن محمود فهمي القائد المهندس قد غلب وان السياط وسائر آلات التعذيب
قد استعملت بلا رحمة . فسألت أما مستر غلادستون عما اذا كانت الحيووش الانجليزية
قد أرسلت لمصر لهذا الغرض . وجاءني رد سريع وقد أضافني بعد ذلك عدما طلبت

لا يترك عرابي تحت رحمة الخديو حتى يهوي عليه بالهلاك بلا محاكمة .

وهناك نص هذا الخطاب :

« ١٠ شارع دوتنج سيريت — هوبنول »

٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢

« لا أظن أنني في حاجة لأن أحرك أن القلق قد ساور مستر غلادستون بصدد ما أشيع من ارتكاب العطايع مع الموظفين في مصر . وقد أرسلت في الحال تعليقاتي للبحث عن حقيقة هذه العطايع ومع الإشارة بالاحتجاج على ولاية الأمور إذا كانت قد وقعت « سلا . وانه ليس لي أن أحرك بأن ما لدينا من الحقائق يبي وقوع هذه العطايع المزعومة وقد أعطيت أوامر شديدة بأب يعامل الموظفون معاملة المروءة والانسانية .

ويظهر أن هناك بعض الزبنة في ارتكاب التعذيب مع أحد الحواسب ولكن التحقيقات تجري الآن والضمانات تؤخذ لمنع تكرار التعذيب . ولكن على يقين بأن مستر غلادستون سينتكر « العطايع المصرية » ويدد بها كما يدد بالعطايع البلغارية « ولست أعلمك من أن أدركك بأن رأيك أو رأي غوردون الصيبي عن عرابي سيتغير عند ما تقرأ الوثائق التي قرأها » .

« فذا أشهر قليلة (وهذا خبر لا يجب أن يعني) فما بعض التحريات عن غوردون فانه قد عرض علينا بعض مقترحات بارلندا وكانت نتيجة هذه التحريات أنه ظهر لنا أن عقله لم يكن سليماً »

وكانت هذه الحلة الأخيرة غريبة فان السبب الذي جعل حكومة مستر غلادستون تعتبر أن عقل غوردون لم يكن سليماً هو أن غوردون كان قد ساح في غربي ارلندا وأرسل وقت سياحته الى أحد أعضاء الحكومة وهو لورد نورثبروك يقدم له مقترحات عن رد الاراضي للارلنديين بالثمن وأيضاً يقترح الحكومة الدانية لهم .

وكان هذا الخطاب فاتحة علاقات حسنة بين وبين دار رئيس الوزراء وصار لي بعض النفوذ عقب انتصار اخود الانجليز في التل الكبير وأسر عرابي وكانت نتيجة انتصار الجنود تغييراً هائلاً ونحو لا في رأي الجمهور . فكان من حسن الحظ

أني استطلعت أن أقول كلمة مد أسبوعين لأنني لو لم أقل هذه الكلمة في ذلك الوقت لما سمع بعد ذلك أحد صوتي في جليلة الصر . وكانت نتيجة هذا العور أيضاً أن برزت الحكومة جميع أعمالها السابقة وقسي مستر غلاستون من ناحية الوطنيين . وكان هناك خطر من أن يلجأ غلاستون لتبرير ذبح الفلاحين أمام ضميره إلى تضحية عراقي نفسه . وكان عنده الوحيد فيما ارتك من الفاضل الحربية ماسبق أن أغرى به نفسه من أنه يعامل في شخص عراقي رجلاً مجرمًا معاملاً غير جدير بالاحترام الذي هو من حق الوطنيين كالأ يمكن اعتباره قائد جيش متمدين .

ولدى ما يجعلني اعتقد أنه لو كان عراقي قد وقع أسيراً في يد واسلي في التل الكبير لأعدمه في الحال ولولا تدخل سير جون أديو وهو قائد أكبر سناً من واسلي وأكثر تجارب لضربه بالمرصاص أيضاً في القاهرة عند القبض عليه ولكن سير جون أديو أظهر لولسلي البار العظيم الذي يلحق بالهيش الانجليزي إذا كان قائد قوة منظمة قد احتاحت الحكومة الانجليزية إلى تعبئة ثلاثين ألف حدي لقمه لا يعامل المعاملة الشريفة التي هي من حق أسير الحرب . ثم أن برايت قد صرح لمستر غلاستون برأيه وهو في أشد القبط عن هذا الموضوع وطلب معاملة عراقي معاملة حرة . ويحب أن يعتقد أن قوة الرأي العام وحدها هي التي جعلت الحكومة تحجم عن تضحية عراقي كمارة عن اغلاطها وكان مستر غلاستون ولورد غرانفيل وسائر اللوردات الأحرار في الوزارة مصممين على ذلك . ولكي أبين الأساليب التي جعلتهم يعدون إلى الوسائل الانسانية في معاملة الوطنيين بحبان أذكر التفاصيل الآتية :

فقد أعلن تسليم القاهرة وأسّر عراقي في جريدة التيمس في يوم ١٦ منه وفي هذا اليوم أيضاً أرسل موبزلي بل مكاتب التيمس في الاسكندرية تلغرافاً لحريته يطلب فيه التبريد بعراقي وعشرة آخرين من زعماء الوطنيين . وأدركت من هذا أن النية سينة بل في غاية السوء وأرسلت في الحال تلغرافاً إلى ناتون أسأله عن رأي الدوائر الرسمية . وكان جوابه الأول مطمئناً يقول فيه :

« ليس هناك في ظلي أقل خوف من أن يصرّب أحد بالمرصاص . ولكن يجب عليك مع ذلك أن تطلب معاملتهم بالرفقة »

ولكن بعد ذلك ساعتين أرسل لي التفراف التالي :

« ان لائحة الدوائر الرسمية تصدّد أصدقائك لا تطعن فاكتم لي خطابه
استطيع أن أوبه لرئيسي »

وكان يقصد بهذا الرئيس نشري رئيس تحرير جريدة النيس وكانت علاقته
به حسنة جداً . فكنت في الحال الى هاملتون أقول :

« لا أظن أن هلك أي خطر من وجهة اعدام أحد من الوطنيين في القاهرة
ولكن اذا كان يوجد هذا الخطر فانا آمل أن محبري في الوقت الملائم لأن لي بعض
مفترحات بخصوص محاكمتهم محاكمة عادلة وبخصوص مسائل أخرى »

ومما هو ذو دلالة اني لم أنس ردأ على هذه الرسالة مدة يومين وبعد ذلك جاءني
رد يقول ان هاملتون على وشك أن يسافر الى الارياض وعلى ذلك فلا يمكنني أن
أعتمد عليه .

ولكنني لم يسقط في يدي لهذا السبب فاني كتبت رأساً الى مشر غلادستون
وقد فعلت هذا بعد أن استشرت باتون وبرودلي وهذا الاخير قابلته في منزله بعد
طهر يوم ١٩ منه وقررنا أن يكون ردولي المحامي عن عراي وسائر المعتقلين السياسيين
وكان باتون الذي يعرف دحائل المسائل يرى أن الوقت لا يتسع للارجاء والتسويف
واتقناع مع ردولي على الدفاع بمبلغ ٣٠٠ جنيه ثم زاد هذا المبلغ الى ثمانية جنيه وهذا
غير ما طلب بدفع له في تأجيل القضايا . وفي أثناء ذلك خدمنا باتون خدمة كبيرة
بأن تمكن من أن يجعل جريدة النيس تعلن بأن عراي ورفاقه لم يعدوا الا برضى
الحكومة الانجليزية وأنه سيدفع عنهم محامون قادرون . ولم يكن عددا ما يدفع هذا
الخبر ولكن بما أن النيس قد أعلنته فان الحكومة وجدت من الصعب أن ترد
عن خطة الانساية التي أدعتها عنها وسماها اليها .

وهناك خطابي الى مشر غلادستون

١٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢

سيدى العزيز

أما وقد انتهى المصريون من معادمتهم الحربية وبما أن عراي وسائر الزعماء

قد سلموا أنفسهم لقوات جلالة الملكة فاني اتحرف على مخاطبتكم لمصلحة العدالة ولمصلحة أولئك الذين اُقتل بهم مقادير الحرب في أيديكم .

والظاهر أن الية المقودة على تأليب محكمة عسكرية لمحاكمة الرعايا العسكريين للثورة للبحث عن علاقاتهم ببعض الاعمال العنيفة التي ارتكبوها . وسنساعد المحكمة العسكرية بمحاكمة مدنية في هذه التحقيقات . فاذا كانت هذه هي الية المقودة فاني أرجوكم أن تعتبروا الظروف التالية لاهلها حذيرة بطركم وعائيتكم .

١ - اذا كان أعضاء المحكمة العسكرية المقترح تأليفها مصريين بينهم الخديو فاسمهم لن يكونوا أحراراً في حكمهم وسيستحون من المصايط الذين كانوا من حرب الخديو فيكونون لذلك معرضين .

٢ - واذا لم يحصل ذلك فيجب أن تذكروا أن شهود الزور كثيرين في مصر وتزوير الوثائق العربية سهل فلذلك لا يمكن الاعتماد على مثل هذه الشهادات . ويجب إذن وجود خبراء له حصص هذه الشهادات قبل قبولها .

٣ - واذا كانت الينات مما يساعد المعتقلين فلا يمكن مثبته أن يقولها الا وهو حائف . فنفسه تغريه بالا يقدم مثل هذه الينات فيما تغريه البلاط اليهود نارب يقدموا يينات نصر بالمعتقلين . واذا كان الخبراء وطنيين سيكونون معرضين لجميع هذه الظروف .

٤ - وشهادة الادريين المقيمين في مصر ستكون مصوغة بصيغة تافي مصلحة المعتقلين فهم ذو مصلحة في القضية . فقد خسر بعضهم بعض املاكه وتعطلت تجارة البعض الآخر وأصيب بعضهم بما مس كرامته فهو لذلك يرغب في الانتقام . ولهجة الانتقام بادية منذ الآن فيما يكتبه الاخيليز المقيمون في مصر وفي الصحف الانجليزية .

٥ - ولا يمكن اذا أريدت محاكمة المعتقلين بالعدل أن يوجد ممثل للحكومة جلالة الملك في شخص أحد اتراجة أو نحو ذلك وقت التحقيقات . لأن الشعور السياسي قد طمأ بحيث لا يمكن لاحد في القاهرة أن يحكم حكماً نزيهاً بعد حوادث الستة الأشهر الماضية .

٦ — اذا كانت الية معقودة على أن يضم ضابط الجلب الى الاعضاء الوطنيين في المحكمة العسكرية كما هو الحال. فاهم سيحصلون لغة المعتقلين وان يستطيعوا فحص الوثائق أو استجواب الشهود فيكونون لهذا السبب في أيدي المترجمين الدين ربما يفهمون الاقوال للاضراء بالمعتقلين. وأكثر ترجمة القنصليات سوريون مسيحيون يكرهون المسلمين كراهة شديدة. وليس في مصر انجليزى يوثق به للقيام بهذه المهمة. فوظفونا لايصفون العربية أو يعرفونها معرفة قليلة ثم أن علاقتهم بالقليل ستفسد بالطبع رأيهم السياسى .

فذلك يظهر أنه اذا لم تتخذ احتياطات خاصة فان الخطر من عدم تحقيق العدل عظيم .

وتلافياً لذلك يقدر الامكل قد عولت على ان أعين محامياً على مقتي أنا وبعض أصحابي للدفاع عن أهم المعتقلين وسأذهب به الى القاهرة لكي تجمع الوثائق للدفاع عنه : وسيكون معي القسيس صابونجي كترجمان . ولما كانت معرفتى بالعربية ناقصة فلست لذلك أستطيع ان اشتغل وحدى وصابونجي هو أحد أصدقاء المعتقلين وهو قادر على أن يتكلم عنهم . ثم هو يجيد معرفة الانجليزية والعربية والفرنسية والايطالية والتركية وربما كان خير من يعرف العربية . والمعتقلون يثقون به واعتقادي انهم يثقون بي أيضاً .

وهذه الطريقة فقط يمكنهم أن يحصلوا على ما هو من حقهم أى تحقيق كامل خلو من الغرض .

وفي الحتام أرى أنه ليس من الضروري ان أعد باى وقت اشتغالى أنا ومن يقومون معي بالدفاع عن المعتقلين ان نتدخل مطلقاً في السياسة . وأكون شاكراً لكم إذا نكرتم باخبارى في أقرب وقت عن نوع المحاكمة وبام التهم التى ستوجه الى المعتقلين . وأرجو أن أجد أنا ومن معي التسهيلات التى تسهل علينا القيام بعملنا في مصر ولن أشك في انكم لما جئتم عليه من حب العدل والحق ستمكنوني من القيام بهذا العمل هذا وانى الخ . ولنفرد سكان بلت

وهذا الخطاب الذي كنت أعرف ان من الصعب على مستر غلادستون بعد أن ذكر « المطامع المصرية » الى حاسب المطامع البلغارية ان يرد عليه بالرفض ، امتته اليه بعد أن ردت هاملتون وأحمرته بیتی . ولكن هاملتون لم يشجعي كثيراً كما نلت ذلك لي أبصاً من رفته التي أرسلها لي في الصباح التالي ردأ على خطاب مي له . ففقد قلت له في هذا الخطاب اني سأكتب الي عرابي واسأله عن حكيمة إرسال خطاب اليه (الى عرابي) وقد رجوت ان أحصل على رد من رئيسه مستر غلادستون قبل يوم الجمعة . فكلن ردها ملتون كما يلي :

« اي آسف لان أخبرك بأن خطائك قد تأخر بنحو ثلاث دقائق . ولكن على كل حال بحسب الا تعتمد علي جواب سريع . فان مستر غلادستون سيتقل كثيراً ثم هو ان يكتب الرد حتى يستشير آخري . وأنا نفسي أجهل المسائل التي ربما تؤدي اليها مقترحاتك ولذلك لن أنطوع برأي .

ولكن أليس من المشكوك فيه انه يمكن الدفاع عن انسان بواسطة محامين حاسب وان هذا بخلاف القوانين الدولية والعرف ؟ وأني أجهل أيضاً كيفية ارسال الرسائل الى أسرى الحرب ولكنني أظن انه لايتسى ارسال أية رسالة لعرابي الا اذا رضي الحديو وقائد الجيش الانجليزى . وعلى كل حال فواسطة المفاوضات سيكون مايت في الارجح »

وبناء عل هذا الاقتراح كتبت خطابا الى عرابي أخبره فيه عن الطريقة التي ستتمها في الدفاع عنه وألحقت هذا الخطاب بصورة منه لكي يطلع عليها مايت ولزيادة الاحتياط ذهبت بنفسى الى وزارة الخارجية وسلمت الخطابين لكي يرسلوا الى لورد تشرندن حتي يكتب عليهما مايفيد العناية بهما . ولكن سوء الحظ أبى الا أن يموت اللورد في ذلك الصباح وكان البريد على وشك السفر فاضطرت الى ارساله على يد حادم باتون . وكان الخطاب موحاً الى القاهرة ولكن مايت أبى أن يعلم

لخطاب ورد الى رسالتى . وهذا يدل على مبلغ معاكسة الحكومة لى في تعيين
صالحين للمهين وهلك كتابه لى :

القاهرة فى ١٤ أكتوبر سنة ١٨٨٢

سيدى :

بناء على التعليقات الواردة الى رئيس حكومة حلالة الملكة ها أما إذا أرد اليك
كتابك المرسل الى عرابى طي كتابك المرسل الى بتاريخ ٢٢ من الشهر السابق .
ادوارد ماليت

اما كتابي الى عرابى فكان كما يلي :

الى صديق الشريف أحمد عرابى باشا

أنت كخندى ووطى أدرك الأسباب التى معنى من انت اكتب اليك أو
أرسلت مدة هذه الحرب المشؤمة . اما الآن وقد انتهت الحرب فاني ارجع ان
أريك ان صداقتنا لم تكن مقصورة على الاعطاء فمن الارجح انك ستحاجكم وستكون
تتمتلك الثورة أو غير ذلك من الهمم التى لا أستطيع معرفتها الآن ، فإذا لم يقدم
عك دفاع قوى يارع فأنك تكون معرضاً لأن يحكم عليك حكماً سريعاً . ولذلك
عزمت بعد مواظنتك على ان أسافر الى مصر لكي أقدم اليك التى تفيدك في
المحاكمة وسيكون معى محام انجليزى شريف قادر على الدفاع عنك وقد أخبرت
الحكومة الانجليزية عن نيتى هذه فارحوك أن تولكنى فى القيام بهذا العمل فى
أقرب وقت لان رضاك ضرورى . ويحسن لك ان ترسل لى تفرافا بالقبول وكتابا
آخر توافق فيه على ان أقوم بمهمة الدفاع عك . ويمكنك ان تعتمد على طول مدة
اعتقالك لى ان عائلتك لن تحتاج الى شىء ما . والله يقوى قلبك ويمسك القدرة
على تحمل السراء والصراء .
ولمرد سكان بلاست

٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢

كرابت — مسكس — انجلترا

وكن حواب غلادستون قد جاء الى قبلما كنت انتظره ويظهر من انه كان قليل

البل الى محاكمة زهبة وكان رأيه في ذلك هو رأى وزارة الخارجية . وكان الحواب
مرسلا عن واسطة هاملتون وهو :

١٠ شارع دوننج .

٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢

« لقد قرأ مسر غلادستون الكتاب الذى بعثته اليه بخصوص محاكمة عرابي
واقترحك تعيين محام انجليزى للدفاع عنه . وكل ما يستطيع أن يقوله لك الآن
انه سيعرض طلبك على لورد جرايفيل الذى سينشيره في هذا الموضوع ولكنه
لا يمكن أن يؤكد لك مد الآن بأن طلبك سيجاب »

ولم يكن هذا الكتاب فضاً بآناً ولكن التبيط ظاهر فيه . وقد أضاف هاملتون
بعض عبارات تريد قوة هذا التبيط إذ قال في خطاب له : « اعترف بأنى كلما فكرت
في المصاعب التي تخطر ببالى أجدها تزداد عدداً باقترحك هذا . وستعرف عن هذا
الموضوع بعد يوم أو يومين أشياء كثيرة . ولكك لن نسمعا لأنى كلما سبقان
أخبرتكم عازم على السفر »

فبقيت في شكوك فيما كانت افالة تزداد حرجا كل يوم . ولم أكن أحسر على
السفر الى مصر قل ان احصل على جواب فاصل لأن وجودى في القاهرة لن يكون
منه أقل فائدة مالم أكن حاصلا على سلطة من الحكومة . وربما كان لا يسمح لى بأن
أقابل المهين . وكان برودلى قد سمم الانتظار وسافر الى تونس . وكان فصل
البرلمان قد انتهى وأكثرت الناس كانوا يبادرون لندن وكان الوزراء يوكلون وكلام
في القيام بأعمالهم وركدت حالة الاشغال

وكانت الصحف في أثناء ذلك تتناقش في مسألة اعدام عرابي وكانت صحف التزعة
الحرية يصرخن مطالبات باعدامه ولم يكن يسمح الاحتجاج على هذه الاقوال الامن
النواحي الضعيفة . وكانت اللجنة المصرية التى الفاسير ول فرد لوسون في الصيف وقد
أدت إذ ذاك بعض الاعمال الطيبة قد سكنت وأرسل لى لوسون نفسه كتاباً مملواً
باليأس قال فيه :

« أي اشك كثيراً فيما اذا كانوا سيسمحون لعرابي بأن يحاكم محاكمة زهبة :

لأنهم يعرفون تمام المعرفة أنهم اذا فعلوا ذلك سيحكمون على أنفسهم. والسياسيون احدثق من أن يفعلوا في هذا الفتح . وعلى كل حال أنت مصيب فيما تحاوله من انالهم شيئاً من الانصاف »

وكان كل مايمكنني ان اعله هو أن أبقى في لندن الخ على رئيس الوزراء . باجابة طنائى وأوعز الى التيمس مكتابة ماأريد . وبعد ان انظرت اربعة ايام كتبت الى علاءستون الكتاب الاآي اطلب منه جواباً فاطمأؤذلك لأن الحالة فى القاهرة كانت قد بلغت درجة خطرة

٢٧ سبتمبر سنة ١٨٨٢

كتبت اليكم منذ عشرة ايام بصدد إرسال محام للدفاع عن عرابى باشا وسائر المعتقلين من الزعماء الوطنيين فى حالة محاكمهم وكذلك اخرتكم عما نويته من السفر الى القاهرة لكي اتولى تقديم اليبات التى تفيدهم ولكي ارقب الاحراات . وقد رحوتكم بأن تبلغوني في أقرب وقت قراركم بهذا الصدد

وقد كان جوابكم الذى ارسلتموه بواسطة هاملتون جعلنى اعتقد أن اقتراحى سينظر فيه وأن كنتم لاتؤكدون باجابه طلبى

وبنا على ذلك قد اتفقت مع أحد المحامين المشهورين على أن يدافع عن المعتقلين فى حالة رضى الحكومة بأن يدافع عنهم ولكي احصل على موافقة هؤلاء المعتقلين بأن يدافع عنهم محام كتبت الى عرابى باشا عن سبيل سير ادوارد ماليت أرجوه بأن يوافق على أن أرتب الدفاع عنه ولم يصل الى الرد للآن . وكذلك لم يصلنى منكم أو من لورد جراڤيل كتاب للآن .

وقد قرأت فى التيمس رسالة من مكاتبها فى القاهرة يقول فيها أنه قد قرر أن يحاكم النهمون امام محكمة عسكرية سيدكر أعضاؤها . وهذا هو نص الرسالة : « سنعين المحكمة العسكرية لحاكمة جميع المتهمين غداً . والحديدو وشريف ورياض يلعبون الخلفاء كبيراً فى ضرورة اعدام الزعماء وهذا رأى يكاد يجمع عليه الجميع الا القليلين »

وقد قال لى شريف وهو رجل معروف بأنه معطور على اللطف والرافة : انى

لا أطلب موت المتهمين لأنى أحقد على أحد منهم ولكن لأن موتهم ضرورى للامم
المام فى هذه البلاد . وليس من يسكر فائدة الحملة الانجليزية ولكننا لا نريد أن
تأثينا الجيوش كل اثنى عشر شهراً »

فإذا كانت هذه الرواية صحيحة فانها تؤيد ما كنت أتوحيس منه من ان
مستشارى الخديو يودون قتل هؤلاء المعتقلين وهي أيضاً تبرر ما سبق ان قلته من
ان المحاكمة لن تكون نزيهة . فذلك أعود الآن وألح فى وجوب منع المتهمين حق
الدفع الشرعى عن أنفسهم . وأرجوك لكي تخفف آلام الشكوك والمسئوليات
فتحترق صراحة هل تسوى الحكومة أن تسمح لمحامين انجليز بالدفاع عن المتهمين أم لا .
وهل تعطى إلى التسهيلات التى وعدت بها فى مكانة المتهمين والموصول على مترجمين
قادرين ل ترجمة أقوالهم .

وليس يعكس فى حالة الشعور الزامن بين المؤملين ان أعمل أنا أو سواى
شيئاً لمصلحة المتهمين ما لم تحصل على الحماية والمساعدة السياسية .

ومرورة الحالة وحرارتها عذرى فى رحاى لكم بسرعة الرد
ولكن هذا الكتاب لم يصل الى منر غلاستون لانه كان قد برح لندن
وكان سكرتيره الذى يتلم ما يرد اليه من المكاتبات هو هور سيمور فأخذ كتابي
هذا وأرسله الى وزارة الخارجية . وكتب الى يقول .

« بالسبة لقيام منر غلاستون وقت وصول مكاتباتك أرسلت مصمون
طلباتك اليه الى وزارة الخارجية . وقد فعلت ذلك لانه كان قد سلم كتابك السابق
اليه الى لورد جرانفيل كما أخبرك بذلك هاملتون ولأني فهمت من رقتك أنك
توافق على هذا العمل وفيها أيضاً توفير الوقت . وقد علمت ان لورد جرانفيل سيرسل
اليك رداً رسمياً يوضح فيه رأي الحكومة عن المسائل التي عرضتها »

وعلى هذا فهمت ان منر غلاستون قد رفع عن نفسه مسؤولية قول « نعم »
أو « لا » وألقاها على عاتق لورد جرانفيل . ولما لم يكن جرانفيل أيضاً بلدن فانه
لم يبق سوى كتبة وزارة الخارجية للفصل في المسائل التي عرضتها على منر غلاستون
وعلى الرغم مما قاله سيمور من أن الحكومة سترسل لى رأبها فاني لم اتسلم سوى

ساعة موقفة بامضاء جوليان بنسفت يقول فيها ان مستر غلادستون قد احال
رسالتى الاثنين على لورد جرايفيل وان لورد جرايفيل يأسف لانه يشعر ان ليس له
الحق فى مكاتبتى عن هذا الموضوع . وهكذا تحلى مستر غلادستون عن المسؤولية التى
حارلت ان اربطه بها وكان قد عقد نيته على ان يقتل عرابى وكانت هذه أبصاً بية
رجال وزارة الخارجية . وقد شرحت تفاصيل هذه المسألة لاهميتها التاريخية ولكي
اين قنارى . ذلك المكر الذي كانت تلجأ اليه الحكومة .

وقد قرأنى بعد ذلك على ان لانضج منى مرة اخري فتشاورت مع باتون
ولورد دلاوار الذي كان قد آتى الى لندن وعرض ان يدفع نصف نفقات الدفاع
عن عرابى (ولكي لاحظ هنا انه لم يف بوعده) وقرأنا على ان يرسل الى مصر
اول محام نجده يكون خاليا من الاشغال لكي يكون مساعدا لبرودلى الذي كان فى
ذلك الوقت فى تونس . فيعمل مايمكنه عمله فى القاهرة حتى يصل اليه برودلى .
ولم يكن لورد جرايفيل موافقاً على وجود محامين للتمهين . ولكن التيسر كلسق
ان ذكرنا كانت قد قالت عن الحكومة انها لن تسمح بقتل عرابى الا بعد موافقتها وانه
سيدافع عنهم محامون مهرة : ولم يكن لرجال الحكومة قوة على تكذيب مانسبته اليهم
التيسر علماً . وكان نفوذ باتون عند رئيس تحرير التيسر كبيراً لدرجة انه صار واثقاً
من انه يستطيع ان يجعل لورد جرايفيل يقبل وجود محام انجليزى مالملاح على
هذا الطلب فى جريدة التيسر

وعلى هذا ذهبنا فى ذلك اليوم الى مكاتب المحامين للبحث عن محام ولكننا
وجدناها خالية لاننا كنا فى اوقات العطلة ولكنا وجدنا فى الساعة الاخيرة الرجل
الذى كنا نشده وكان هذا الرجل مارك نيبار ولم يكن يفضل أحد في سعة الحيلة
ومعرفة القانون وقوة العارصة . وكان يمتار أيضاً بأنه ابن سفير فكلن يعرف الاساليب
السياسية ويحيد معرفة الفرنسية وهي ذات قيمة كبرى فى القاهرة . فلما رضى بالذهاب
واعطياه ماسمحه الوقت من المعلومات اخبرناه بان يذهب رأساً الى مالت ويخبره
بانه قد حضر لكي يدافع عن عرابى ويلجأ في مقابلة موكله . وهذا كان كل
مايستطيع ان يفعله وهو اذا قدر على ذلك فقد أدى عملاً عظيماً . فاذا رفض مالت

طله فعليه ان يخرج وان يستمد من كل حادثة لمصلحة المتهمين . ثم عليه ان لا يقطع عن اخبار ما عما يحدث كل يوم بالتلغراف ومن هنا ان اسكت عن المطالبة في الصحف وفي وزارة الخارجية حتى يحال الى ما يطلبه . ولم يكن مارك نيسار ممن يتحدثون بوقار السياسة وحرمتها لانه كما قلت كان ابن سفير وكان يعرف دخائل السياسة . وسافر تلك الليلة عن طريق برنذبزي ومعه بعض كتب التقدمة وجدول ارقام للاستعمال في ارسال التلغرافات . ولم يكن معه من الامتعة سوى حقيبة يد .
أما انا فقد ارح على دلاوار في ان لا اذهب الى القاهرة لانه كان يعرف حتى وزارة الخارجية على .

وذلك لاني لو كنت بالقاهرة لوضعت تحت مراقبة الحواسيس اوروبا كانوا قبضوا على وردوي الى انجلترا في حين اني يبقائي هنا في انجلترا بمكني ان اولى الحملات من الصحف الا ان كان في مقدورهم وحدهم ان يكسب القضية لمصلحتنا . وقد تمكن باتون في تلك الليلة من عمل مهم في التيسر وذلك ان دلاوار كان قد حصل على تأكيد من حراويل بان الحديو سيمسح المتهمين جميع العرص التي تمكنهم من الدفاع عن انفسهم . وكان هذا التأكيد لا قيمة له من حيث الحصول على محاكمة زهية لان جميع المحامين الذين كان يمكن المتهمين ان يستخدموم كانوا من رجال سواحل البحر المتوسط الشرقية ولم يكونوا يفضلون المحامين الوطنيين بشيء . ولكن استخدام حكومتنا لمثل هؤلاء المحامين كان يرفع عنها عبء انتقاد الجمهور وكانت في الوقت نفسه تستطيع ان تنفذ اغراضها وتقدم المتهمين .

وكانت الية ان ننهي محاكمة المتهمين في المحكمة المصرية في يومين فاذا ما انتهت عليهم ادلة الثورة عوقبوا في الحال بالاعدام وفي هذه الحالة يرفض قبول المحامي الانجليزي باعتباره اجنبيا ليس له حق التدخل

وكانت الصارة التي فاهها جرانفيل امام دلاوار لانه لم يأتني : « ليس عدى ما يجعلني أشك في ان الحديو هو صاحب الخطة الشرعية سيمسح المتهمين جميع العرص المعقولة للدفاع عن انفسهم مادام لا يؤذى هذا العمل الي تأخير غير ضروري أو غير عادي وعلى المتهمين أو اصدقاءهم ان يشهدوا ما يناسبهم من الاحباطات تحت مسؤوليتهم

فأخذ بانون هذا التصريح وكنه في التمس بالشكل الآتي :

« كتب لورد جرايميل يقول ان جميع التسهيلات المقولة ستمح لله تعالى في
مصر واصحابهم لكي يهينوا لم المحامين عنهم ونا على هذا قد أرسلت تلمعات
من منبر برودلي بأن يقوم في الحال ويسافر الى مصر »

وظاهر من المناقشة الشديدة التي جرت بين لورد جرايميل ولورد ديلاوار كيم
حسب جرايميل من تفسير كلامه على هذه الصورة (انظر الكتب الزرق) ولكن
شر هذا الخبر في التمس بهذه الصورة وضع لورد جرايميل في مركز لا يستطيع
بتردعه وهكذا أمكننا بهذه الحيلة ان نفهم يدبه على الرغم من مرة أخرى
في للسألة (١)

ومع كل ذلك ندنا فقد كل شيء . وذلك لعودة كوا من العناية الى القاهرة
مرة أخرى . وهو ثانياً اثنين (هو والحديوي) بخيان على التحقيق . وكل عرض
بإدارة الخارجية في ذلك الوقت تعجيل المحاكمة والانهاء . منها قبل وصول برودلي
من تونس . وذلك لان تونس كانت ولا تزال غير متصلة مباشرة بمصر وكان
لترح ان تنتهي عشرة أيام قبل وصول برودلي الى مصر . ولم يكن عسدم علم
« ما أرسلنا نيلار » فاعطيت لذلك الاوامر في الحال بنقل عراي من اعتقال
الانجليز وإرساله الى سجن الحديوي حيث لا يمكن أحداً ان يزوره وفي الوقت نفسه
ترفع المسئولية عن عاتق الحكومة الانجليزية . وقد عمل هذا العمل يوم ٤ أكتوبر
أي قبل وصول نيلار بيومين فقط . وحدد يوم ١٤ أكتوبر للمحاكمة فيما لم يتمكن

(١) لقد قبل لي حديثاً بان تأييد التمس لنا في وجوب محاكمة عراي بمحاكمة
زينة كان الغرض منه خيئاً وذلك لأنها كانت ترغب ان تتحمل الحكومة المسئولية
حتى ينتهي ذلك بالسيطرة على مصر ولكن لم أسمع ما يشير الى هذه النية في ذلك
الوقت ولا زلت أحب ان اعتقد ان الباعث على تأييدنا هو العواطف الشريفة
التي هي من أفضل تقاليد جريدة التمس وأيضاً ما عرف به شري رئيس التحرير
من طيبة القلب .

برودا، من الوصول الى مصر قبل يوم ١٨ مه . ولم يمد هذه التدابير سوى ظهور نيبار الفجائي في القاهرة .

ولكي يجمدوا الدواع شاقا ويمحوا المحاكمة حملوا القانون المرسى هو المصموم به في المحكمة العسكرية . وهذا القانون في حكومة لانزعى الذمة آلة قوية للأنهام . فبناء على هذا القانون يجوز استجواب المتهمين والشهود قبل أن يروا محامهم ويستشيروهم وبهذه الطريقة لا يستطيعون ان يقولوا شيئا خشية ان يواجهوا بما سبق ان قالوا في استجوابهم الاول . ثم ان خصيان الخديو الزوج كانوا يزورون المتهمين في المعتات التي يكونون فيها في السجن فيضربونهم ضربا مبرحا لكي يلقوا الرعب في قلوبهم ويكسروا اعنهم وعزة نفوسهم . وبعد كل هذا اعلنت الحكومة المصرية ان الدفاع عن المتهمين لا يكون ألا باللغة العربية وعلى هذا صار لا يمكن ان يدافع محاموهم عنهم وقد ارسل الى نيبار هذه الاخبار بالتلغراف

وكان كل مافعة الحكومة الانجليزية لمنع الخديو من التماذي فيما كان يرتكب من المظالم وضروب العنف السافل في اشخاص هؤلاء المتهمين انها عينت اثني من الانجليز لكي يشرفا على التحقيقات . وكان هذان الاثنان رجلين شريفيين ذوي مروءة . فكان أولهما سير تشارلس ولسون الذي رافقني في سياحتي من حلب الى أرمير ومسنر اردن بيان الذي كنت أعرفه في دمشق وكان في هذا الوقت المرحوم الرسمي عند مالت في الوكالة . وكان كلاهما يعرف العربية وقد تأثر كلاهما من قدر عرابي وقت المحاكمة والاعتقال وكانا يعطيان نيبار ما يحتاج اليه من المساعدة

وقد نجح نيبار في ان يجعل مالت يعترف بمركره كوكيل لعرابي ورفقائه كما اعترف أيضا بمركره ايف كمحضر للدعوى . ولكن نيبار لم ينجح في ان يحصل م على وعد بأن يكون المحامي عن عرابي انجليزيا . وكان مالت سوف في اجابة طلب نيبار في رده موكله أي عرابي بان يحمله على الدوام على رياض باشا وزير الداخلية في وزارة الخديو . وكان هذا فرض طلبه على الدوام . وطول هذا الوقت كانت التحقيقات تجري بسرعة فتبين لنيبار اهم مخدعونه وان تنتهي التحقيقات والمحاكمة قبل ان يؤدي له بالدفاع عن المتهمين

ويبىا كانت الاحوال فى هذا المأرق إذا رسالة حادتي من دلاوار فى ١٢ أكتوبر يقول فيها « اذا لم تتحدأحرأات شديدة فان حياة عرابى فى خطر . ولا بد انك قد تسلمت معلومات عن ذلك من بيبىار »

وعلى أثر هذا الخبر السيء خرجت فى احوال وذهبت الى باتون ووجدته لحسن حظى فى مكتبه وكل معلوماته توافق معلوماتى فقرر رأبها على أن نلجأ الى الجمهور وسأشده بخصوص محاكمة المتهمين وان يحمل على وزارة الخارجية ونجبر مسرر علاستون على اعلان خطئه . فجلست وكنت كتابا نهائيا الى مسرر علاستون عبرت فيه عن عيظى من جرائيل وعددت جميع التهم التى اتهم بها ولم اسس ان اهمه علاقته بجميع تفاصيل المسألة وعظمه القديم على الزعماء الوطنيين . ولم نتطرحوا بان لان باتون وضع هذا الكتاب فى مكل طاهر فى التيمس التى كتبت مقالا افتتاحيا تعليقا عليه وذلك كله انما كان يسحا . شيرى رئيس التحرير وعطافه على مساعيا . وكان باتون قد عرف ان المحاكمة ستندى . يوم الاحد وان الحكم سيطبق به يوم الاثنين وينبع ذلك اعدام عرابى مباشرة . وكان اليوم وقتئذ الجمعة فكل لا يزال امامنا ثلاثة أيام (وكان احدها الاحد ولا تصدر فيه الصحف) لا يقاط الرأى العام . وكانت هذه الايام القليلة كافية لحسن حفظنا لذلك

واظن ان هذا الوقت هو الفرصة التى انتهزها برابط وذلك عندما قرأ كتابى الى التيمس فذهب الى علاستون واخبره بأه سيعد فى التاريخ جاحداً للمبادئ . الاساية اذا هو سمح بارتكب هذه الخيانة العظيمة . وسواء أصبح هذا ام لم يصح فان وزارة الخارجية سلمت به واقرت بصوردة المحاكمة البرهة وكتبت الى مات بان لا يعترض على وجود المحامين عن عرابى . والتفراف التالى الذى ارسله لى بيبىار يدل على نجاحنا « أرسل جرائيل الى ماليت يشير عليه بان بدافع عن عرابى محام انجليزى . والمنظر أن الاجراءات متطول »

وقد رأيت أنه من الضرورى أن أذكر تفاصيل المصاعب الاولى التى اعترضتنا فى سبيل محاكمة عرابى لأنى لا يمكنى بدون ذلك أن أنحو أثر تلك الاسطورة التى راحت فى مصر وحلاصها أنه كان هناك اتفاق سرى بين عرابى

وعلاستون بأنه لن يعدم . وفي استنطاعني ان اثبت بالوثائق التي تحت يدي ان
علاستون لم يكن يطر الى المتهمين روح الأفة . دع علك الاتفاق معهم - بل
بالعكس كان يجارى حرا بعل في السبي في اعدام عراي بواسطة الحديو وذلك بايجاد
محكمة نحاكة محاكمة صورية لكي يبرروا علطانهم ونورطانهم في السنة الاشهر الماضية
في مصر . ولم يكن وخر الصير هو الذي مع غلاستون من السير في خطته الى
النهاية بل أن صوت الجمهور الانجليزى هو الذى أخافه وأندره بالخطر الذى يهدد
شهرته ادا هو معي في طريقه الى آخرها . وهذه هي الحقيقة التي أراد أصدقاء
علاستون أن يبرروها حطاً لسمعته . ولا عبرة أيضاً بما تقوله الكتابات الفريسيون
من التجاء علاستون الى الرفق بعد الصف من حراء ما طوه من وحود علاقة خفية
بين غلاستون وعراي .

ولما انتهى دور الخطر هذا لم يكن من الصعب أن يتنبأ الانسان بأن نتيجة
المحاكمة ستكون سليمة . فان المحاكمة الربية في محكمة عليية ووجود محام انجليزى يش
معرفته أقدار الحديو وبكشف عن الخرائم المحبوة - كل هذا لم يكن مما يفكر
فيه الحديو الا وهو يرتحم خوفا . ثم أن التحقيق العلنى هذا كان من شأنه أن يفسد
على الحكومة الانجليزية تدابيرها وبعد نظريتها عن الحوادث الماضية التي بت
عليها معاذيرها لانتخاب خطة الصف . ثم أن السلطان كان في حاجة الى عدم افشاء
أسراره . ولم يكن الخوف على حياة المتهمين قد زال ولكن الامل كان كبيرا في
الوصول الى تسوية اذا لم يمكن الحصول على البراءة . وقد ظهر التغير في الحالة في
القاهرة منذ ١٦ الحادى كما تدل على ذلك التلغرافات التالية . وسأقص بقية قصة
المحاكمة كما وصلتني في التلغرافات والكتب :

من فييار الى بلنت في ٢٠ اكتوبر

« بظن ان الحكومة المصرية ستجنهد في الفاء المحاكمة وان الرؤساء والزعماء
من المتهمين سيطلب اليهم مبارحة البلاد فقط . وليس عندي من المعلومات ما يمكنني
من الحكم في قيمة هذا الخبر ولكنى أظن انه غير مرجح »
وهالك تلغراف آخر ارسله الى برودلى وكان قد وصل في يوم ٢٠ اكتوبر الى القاهرة .

« أعلن بوريلى بك النائب العمومي في الحكومة المصرية انه ليس للحكومة قانون أو اجراءات تتعها ولكنه اقترح علينا ان نتفق على الاجراءات وصرح لنا أيضاً بان أعضاء المحكمة اغفال لا يهتمون . وهو يرجو ان لا أسس السلطان والحديدو الا بكل ما يمكن من القاطع والرقى »

من نيبيل الى بلانت في ٢٠ اكتوبر

« أظن انه يحكى الآن ان تقدم للدفاع دون ان نحشي شيئاً . ان الاذن بالمحاكمة لا يقل قيمة عن عرش الحديدو منه »

وكلن الخطر الذى يواجهنا هو رغبة وزارة الخارجية ان تتوصل بجميع الوسائل لانهاام عرابي بتهمة ما تقتضي اعدامه . فقد كتب الى شيرى يوم ٢٠ اكتوبر يقول : « بين العظماها شعور شديد ضد عرابي وذلك لما برعونه من انه كلن له يد في مذبحه الاسكندرية او انه اعصى عن المصريين فيها »

ولكن هذا الخطر لم يظهر شديداً في القاهرة وكلت في الحقيقة ابعداً ما يمكن ان يوجهه الانهاام نحو عرابي . لان الحالى الحقيقى في مذبحه الاسكندرية هو الحديدو وليس في التحقيقات ما هو جدير بلفت النظر اكثر من تحوط الانهاام ونجسه السؤال عن هذا الموضوع ثم عدم ظهور أى بية تثبت تهمة احداث المذبحه على أى شخص ومع ذلك كانت هذه المسألة ذات اهمية كبرى في اعتبار حكومتنا من حيث وجوب القاء التبعة على عرابي نفسه . لان هذه المذبحه هي الاساس الذى بنت عليه حكومتنا خطة التدخل عنوة والقتال وبدون هذا الاساس تسقط الحاجة الادبية للتدخل

ويمكن ان يقال هذا أيضاً عن سو . استعمال الراية البيضاء وقت اخلاء حصون الاسكندرية . وهذه مسألة كلن غلادستون نفسه لا يفتأ يكررها مع ان رفع الراية البيضاء من الامور المسموح هافى الحروب . فبان ان التهمتان أى مذبحه الاسكندرية ورفع الراية البيضاء وقت التهنتر كانا من اهم ما يمكن انهاام عرابي به تذرعا الى الحكم عليه بالاعدام لان الجمهور الانجليزى لم يكن يعاباً بالتهمة السياسية ولا يرضى بان تكون سبباً للحكم بالاعدام

وفي أثناء ذلك كانت الاحوال تخرجى على ما نراه في القاهرة وفي ٢٢ من اكتوبر

ونيبيلان بدخلا الى عرفة عرابي وعرفا بما اخبرهم به كيفة نية دفاع قوى معه . وكان موقف عرابي وهو في الحسد مملوؤاً بالوقار لانه مها قليل عن شحاته المادية كل على ملع كبير من الشجاعة الادبية . وكانت هيته وسلوكه لذلك عد مقابلتها بلوك المعتقلين الآخرين يلفتان النظر . فقد كتب دون ان يتردد تاريخ المسائل السياسية التي اشترك فيها باجمها وكانت روايته صريحة مقنعة . ولم تكن صراحة دون ذلك أيضاً عد ماروى ضروب الاساءات التي عاملها بها اولئك الاوغاد السفلة خصيان الحديو توفيق عندما نقلوه من السجن الانجليزى الى السجن المصرى وطول مدة بقائه في هذا السجن

فقد كان مولاهم الحديو برسلم في الليل فيضربونه وبشتمونه هو ورقائه ولكن رقاؤه لم يصرحوا لما فيهم من قصص الشجاعة الادبية بما نالهم من المراتم التي انقضت فيها يد ذلك الظالم الحان الذي صار رئيسهم الآن . فليس هناك اسوأ ولا ادعى الى الاسف من موقف الحس والذلة الذي وقعه المتهمون مازال الحديو الذي كانوا يكرهوا ويمقترونه منذ شهر فقط . وكان من الحوادث المهمة استعراج اوراق عرابي التي كان محبوسة في بيته والتي اخبره هو برودى بها لاحصارها . وقد كان من الصعب حد اقتناع روحه واسها وهما مروعان بضرورة البحث عن هذه الاوراق وتسليمها للمحاميين معه وسب ذلك ان خدم الحديو كانوا قد زاورها أيضاً . وأخيراً احضر محمد سيد احمد خادم عرابي هذه الاوراق وسلمها الى برودى . وكان لهذه الاوراق أهمية كبرى لانه وجد بينها كتباً من السلطان ومن غيره لعرابي . وقد أدى خبر وجود هذه الاوراق الى القاء الرعب والفرع بين أهل السراى وصار احتمال ترك المحاكمة أمراً مرجحاً

فقد كتب الى نيبيل في ١٣٠ أكتوبر يقول : « اعتقد اننا قد ملكنا ناصية الحال الآن وان الحديو وعصيته يودون لو يستطيعون الخروج من المأزق الآن بترك المحاكمة في اقرب وقت . وقد تمكنا بواسطة امانة خادم عرابي وولا . زوجته من الحصول على جميع اوراقه ماعدا واحدة فقط . والاوراق محفوظة الآن في خزانة حديدية في عرفة بيان في التفصيلة ... ولن تستطيع الحكومة مواحه دفاعا ومبتكر حوت عليها

من نسوبة كالتى مع عدم مصادرة الاملاك . وماذا عكسا ان «عمل اكثر من ذلك
: لمن ان هذه مسألة ستدرسها قريبا »

ويجب ان نلاحظ ههنا ان التغير الذى اصاب الحالة السياسية فى القاهرة قد وجد
: صدق فى لندن بين الصحف . فقد كانت القاهرة حافلة بمكاتبى الصحف وكل
رودلى من مهرة الفن الصحافى فلم يمحض عليه قليل زمن حتى جعلهم فى صعه . وكان
كرمه (على حساني) كرم اسراف وبذخ فلم يكن يصنع بالدجاج والشمبانيا . اما مالت
وكولفن اللذان كانا يتفوقان فى الزمن السابق فانهما لم يقفرا على صدائير الآ
وصارت الاسرار تفشى وتهدم النظرية التى سورها للتدخل بان عرابى وحشيه هما
وحدهما فقط اللذان كانا يمارضان فى المطالب الانجليزية وان الحركة الوطنية لم تكن
عامة . وكان مقام كولفن قد نزع فى وزارة الخارجية ومار يعتبر كانه مصلل اما
مالت فقد ثبت عدم كفايته تمام الثبوت : وهاج محاحا هداورد حرافيل ولما رأى
ان الحالة فى مصر تسير الى ارتباك لا يرجى له نظام احال المسألة جميعها الى لورد دوفرين
لسي يصل الى نسوبة ما وكان هذا العمل افضل ماعمل . وقد اخبرنى باتون عن
هذه الحركة الجديدة وان اول اعمال دوفرين عند وصوله الى القاهرة سيكون ايجاد
نسوبة فى المحاكاة . وقد ارسلت فى ذلك الوقت كتابا الى برودلى بالنسبة الى هذا
الموقف الجديد وهو جدير باثباته ها :

من بلنت الى برودلى فى ٢ نوفمبر سنة ١٨٨٢

ارغب فى أن ابين لك مرة اخرى امكبرى وآمالى فى قيامى بامر الدفاع عن
مرابى وعن رفقائه لانه اذا تحققت هذه الامال فاني اجد فيها ما يبعثنى عما افقته
ن الاموال بل اجد فيها اكثر من ذلك . فدهسي ان الغرض الاصلى من الدفاع
كان تخليص حياة المتهمين واظن اما قد حصلنا على هذه النجعة وذلك لان حالة
لأرى العام الانجليزى وعدم نجاحهم فى القاء بومة فتنة يونيو وحريق الاسكندرية
على عرابى يرجعان ذلك

وليس باقيا فى اليمت ما يمكن ان يصح حياة المتهمين فى خطر . ومنذ وصولك
الى القاهرة وبما اطهرته من البراعة وما حصلت من التوفيق قد صرنا بعد انفسنا الآن

سعداء. فأوراق عراى دلا من ان تكون في وزارة الخارجية قد صارت الآن في يده وانت الآن تخبرني بأن دعاها سيكون وجها اد قد حصلنا على مركز تستطيع منه ان نملي شروطنا على الخصم وعلى هذا لن تقع نازل من البراءة الشريفة او ترك المحاكمة وترك المحاكمة هو المرحح الآن فقد أمر لورد دوفرين بالسفر الى مصر وأخذ رئيس الوزارة اس في شخص الحالة وهل يمكن عمله نسوية . واسمع انه سيقدم مقترحا بشأن الوصول الى اتفاق مانجس للفصائح التي تنتج عن افشاء الاسرار

فليس يتوقف عليها تخليص حياة عراى فقط بل شرفه وحرية وأيضاً حرية المساحين السياسيين المتهمين معه

« واعتقد ان لورد دوفرين سيجهد غاية جهده في ان يجعل عراى يرضي بالنفي في جزائر اندمان او في مكان آخر في الامبراطورية الانجليزية حيث يبقى سجيناً يعامل بالرفق ولكن لا يؤذن له في التجول . وأظن أيضاً انه سيجحاول الحصول على أوراقه . ولكن يجب الا يتح لورد دوفرين في هذين المسعين ويجب ان تردوا عليه كل مقترحاته التي من هذا النوع وتقالوها بالرفض . فليس من واجنا ان نلخر للخدو او للسلطان شرفه او ان نخلص لورد دوفرين من المآزق التي يجوزها . وأق سأتبر مثلنا عطياً جداً اذا لم نحصل على اكثر من ذلك . ثم اظن انه يجب على عراى ان يطلب أولاً ان يحاكم محاكمة نزهة لكي لا يجرح شرفه ولكي يثبت أيضاً راءة جميع الذين اشتغلوا في صفة مدة الحرب وم جميع افراد الامة . والا فاذا لم تكن النية بما كت فيجب سحب جميع التهم التي اتهم بها . ويجب ان يصد عفو عام وان وان لا تأخذ منه أوراقه وان كان يمكن الاتفاق معه على عدم نشرها مدة معينة من السنين . ولا يمكن في الظروف الحاضرة ان نعارض كل المعارضة في النفي لانه لا يمكن ان يقال عندئذ ان في قدرة الخديو نفيه بواسطة قرار وهذا العمل من مصلحتنا لان دستور سنة ١٨٨٢ بمع الخديو من استعمال هذا الحق . ويجب ها ان نشر هذا الدستور وثيقة كبيرة الاهمية لان السلطان قد اقره بعد ان صحه الخديو . ومع ذلك يجب ان رفض السجن فقد يستطيع السلطان نفيه من السلطنة الصبابة ولكن ليس لاحدهم الحق في تعيين المكان الذي ينفي اليه

وتم لا يمكن الحكومة الانجليزية بعد ان سلت عرابي للخديوى لكي يحاكمه
 تأخذه ثانياً ونعامه معاملة المحرم وهو لم يحاكم بعد . وقد ادركت الحكومة الانجليزية
 انها لو ابنت ان تأخذ عرابي ثانياً ، فديهي ادن انه اذا لم يحاكم ويحكم عليه بحرمانه
 به يجب ان يخرج من مصر وهو حر . ثم لا يمكن شرعاً ان يحرم من رتبته ومن
 نه . ولكني اعتقد انه سيرضي بان يرح البلاد برتبته الحربية وبشيء من المال
 يوم ينقته ويرد عنه العاقبة حتي لا يحتاج الى ان يكسح يديه لكي يعيش . وهذه
 شروط تحفظ كرامة عرابي فيمكننا ان نلج في الحصول عليها والا فليمان ان ندخل
 في حمة الدفاع ومجاهد بكل قوانا واعتقد انك لن تصني الى أي مقترح بخصوص
 محاكمة صورية لا يلس فيها الخديو الا بكل لطف ورفق كما قال بورلي . فأما أن
 نشر جميع المقائق الصحيحة واما ان نسحب جميع التهم . واني أثق بانك ستعاووي
 في الحصول على هذه التبعة دون ان تعتبر ما عسى احساسات القناصل والسفراء
 والولاة هؤلاء ، جميعهم لا قيمة لهم عنديا وانما يساحداً لاهية شرف عرابي .
 ولست أشك في أن مهارتك السياسية لا تقل عن مهارة دوفرين وقد استطعت ان
 تجعل مالت يفعل ما شئت وستجعل دوفرين أيضاً يفعل ما ترغب . فاذا نجحت في
 ذلك دنا لن نقاش عن « اعقاب » الدعوى وطى هذا كتاب مقدمة الى
 لورد « دوفرين »

أما الكتاب التالي فهو من متر بيان مترجم مالت الرسمي وهو شاهد لا يمكن
 انتقاص شهادته أو تجربتها ولذلك هي ذات قيمة تاريخية كبرى . وقد كان بيان
 يدبر الوكالة البريطانية في القاهرة في بضعة الاسابيع التي سبقت ضرب الاسكندرية
 ولما كان مجيد معرفة اللغة العربية كان لذلك واقفاً على حالة البلاد الحقيقية أكثر
 من أي أحد آخر . وقبل أن يرسل لي هذا الكتاب كان قد عين لان برقيب التحقيق
 بالنيابة عن مالت وهذا هو الكتاب :

من بيان الى بلنت في ٦ نوفمبر سنة ١٨٨٢

« . . اليوم آخر الايام قبل التأجيل . . ورجال قصر الخديو ها في نهيج
 وارتيك بشأن مجي ، دوفرين . وهو سيصل هنا عدا . وقد كان قدوم برودلى شديد

الآلم عليهم اما قدوم لورد دوغريس فهو الطامة الكبرى . واني أعتقد ان دوغريس
 سيعرف في الحال حقيقة صاحبا توقيعى والقول انه سيصفي الى كل من يتقدم اليه
 بقول ما . وعلى ذلك ستكون معارفته المؤقتة على معرفة بالحقائق أكثر من الوكالة
 الدائمة . وقد كنت أخلط بالاهالي قبل ضرب الاسكندرية ولذلك عرفت وجهة
 النظر الانجليزية والتركية والعراية والتوقيفية . وجميعها يختلف بعضها عن البعض
 الآخر . ولما لم يكن أحد يثق بما أقول احتفظت بمعلوماتي لعمري ولستى قدمت
 بعض الملحوظات لأميدة اسير شاراس ولسون وهو الآن أكبر من جميع
 المواقف المصرى من الرجال الرسميين وهو رجل شديد الحذر له نصيب كبير من
 المهارة وصحة الحكم ونواسطته تمكنت من ايهال بعض الحقائق الى مانت ولولاه
 لأخبرت مانت نعمي عن هذه الحقائق . وأظن الآن ان مانت لم يبعد بمحترو
 الخديو أو يرى له أقل كرامة . وطول مدة الاحراءات كان يسلوك معها سلوك التواضع
 الا فيما يخص مصالحته . . . وانت تعرف مقدار ارتباطه بالخديو فهو الآن يذوق الكائن
 المرة ويرى الصنم الذى كان يعبدته يتهدم امامه كأنه بيت من ورق . .

وأظن ان أعمال ابراهيم اما وحده تدل على طبيعة الخديو . فقد سمعت الحكاية
 رأساً من انقصر وكيف ان اثينونجي (أو حامل عليون الخديو) قد قبل يد الخديو
 وطلب أن يأذن له أن يصبق في وجوه المساجين وقد بحث سير شاراس ولسون
 عن هذه القصة فوجدوها صحيحة بأكملها . ومع ذلك ولكون هذه القصة تمس الخديو
 وتظهر للبلاد قدرته قد اتفقوا على ان يتركوها . وقد اقترحت عند ما حلف الشهود
 ذورا أن يطلب منهم القسم بالطلاق ثلاثا وكاد سير شاراس ولسون يوافقنى على
 مقترحي ولكن انتهت المسألة بالاھمال والتروك

« وامرأة ممومة لا تنكر الان هذه الاعمال . فهذا اذن هو الرجل الذى جئت
 الى مصر لحايته (١) »

(١) لقد شهد الشيخ محمد عبده بان حصيان الخديوى قد دهبوا الى رعمه
 الوطيين في السجن وصر يوم واهل يوم . وكان الشيخ محمد عبده معه أحد حواريه
 المساجين وقد وقت له الاھانة مثل غيره .

« واداً لم يكن مركزي عنى من ان اوح لهرودلى بما أعرفه عن الحديدى
 دن لاجبرته باشياء لو قيلت فى التحقيق السكبان فيها طرد الحديدى من القد ومع
 ذلك فاني ارجو ان نفسى هذه الاسرار واول رجل يحب التخلص منه هو رياض
 فانه يمثل فى مصر دور الميس . وقد قال مند ايام : « ان المصريين ثعابين والطريقة
 الوحيدة لمح نفسى الثعابين هو سحقها بالاقدام . وسأسحق انا المصريين وهو
 يسحقهم بالفعل الان »

وهذا الخطاب يصف حالة القاهرة فى الاسوع الاول من شهر نوفمبر أى وقت
 وصول بعثة دوفرين . وكان من خطا الحس فى ذلك الوقت ان البرلمان كان مسعدا .
 فقد انضم اليها من اعضاء البرلمان عدد من دوى القدرة على الكفاح مثل تشرشل
 وولف وغوردست ولوسون ولاوشير وروبرت بورلا ولورد مائرر وايلى ولورد ويمس
 وعصوان أو ثلاثة من الالنديين وكان يرمى ويندهام هو العصو المحافظ الوحيد
 الذى انضم الى الاقلية التى كانت مؤلفة من ٢١ عضواً لمقاومة الحرب

الفصل الثامن عشر

بعثة دوفرين

لما وصل لورد دوفرين الى القاهرة فى ٦ نوفمبر اتخذت الاحوال شكلا جديداً .
 فقد كان رياض باشا وسائر وزراء الحديدو يفعلون ما يشاءون ولم يكن عليهم من الرقابة
 سوى رقابة مالت الضعيفة . اما دوفرين فكل من عصر آخر ولم يرض عليه طويل
 وقت حتى اطهر للحديدو ان مركزه بالنسبة اليه ليس مركز مستشار بل مركز سيد
 يطاع . ولم يمر اقوال الحديدو التفاتاً كبيراً وكذلك لم يلتفت الى روايات مالت بل
 فتح ابواب السفارة لكل واحد يستطيع ان يزوده بمعلومات عن الحالة . وقد تمكن
 ما كنزى وولاس فى بضعة ايام من الوقوف على حوادث مصر مدة السنتين الماضيتين
 ووضع كتاباً عن هذه الحوادث هو اصدق ما رأيته من حيث صحة الروايات .
 وكان ما كنزى وولاس هذا معاين لورد دوفرين وكان لورد دوفرين على الرغم
 من كسبه يشط عند القزوم ويعرف كيف يتوصل الى معرفة ما يحتاج اليه

قد معي اسوعا بعد وصول دو فرين ومحاكمة عرابي مستمرة وكانت تسيطر على هذه المحاكمة رعية الحديوفي احما. الحقائق وشعفه بأن لا تعلق الفريسة من يده. وخير ما يدل القارى. على الحالة هو تلك الخطابات والتفراغات التي كل برسلها الى كل يوم كل من برودلي ونيبيار ونيبيار. منها كيفية التدرج الى التسوية النهائية من برودلي الى بلنت في ٦ نوفمبر

« اوافقك على جميع ما فاته وسأستغل بكل نبره . وانا الان هي. أركان الدفاع وهي تنحصر فيما يأتي :

- ١ - طهارة اغراض عرابي وشرفها
- ٢ - اتصافه الزام مع توفيق لقاية ١٢ يوليو
- ٣ - اتصافه مع السلطان في جميع الاوقات
- ٤ - كون الحركة الوطنية كانت عمومية
- ٥ - كون تأليب الحكمة العسكرية غير شرعي
- ٦ - سخافة دعوى وقع الزاية البيضاء.
- ٧ - مروءة عرابي وتطرفه في انسانته
- ٨ - الظلم الفاضح في جميع ما عمل قبل وصولنا
- ٩ - تعذيب المساجين
- ١٠ - الخطابات التي ارسلها توفيق ضد اهلنا
- ١١ - اكاذيب صحيفة المونيتور

« وسأطلب اخلا سبيل جميع المحرفين . ولا فزع مضمون هذا الخطاب . وكل ما أختاره هو عظم الثقة التي نحتاج اليها مدة دفاعا فقد تستغرق ثمانية او تسعة اشهر . فسد عرابي وحده ٤٠٠ شاهد . . . وانا اصرف هنا بسخاء . فاني أولم الولاثم لمكانتي الصحف وتمكنت من جعل الاجيشيان عازيت لسان حالنا وجعلت الرأي العام هنا يميل الى عرابي . وعندما الان نحو ١٢ مترجما تراوح مرتبائهم من جيبه الى جيبين ونصف حيه في الاسبوع . . . وغيايبي عن تونس هو بمثابة فقدان كل شيء . هنالك . فقد تركت جميع القضايا التي كانت بمكتبي ولكن بعضها

في غاية الاهمية . ويمكن يورك أن يخبرك بان عندى موظفين احدهما يتناول ٢٥٠
حينها والآخر يتناول مائة حبة في العام .. فأرحوك ان تعتبر كل هذا ... وكل
ما اقله الآن ان نحاج عددا ما يتوقف على الاساق مسخا ان لم يكن بتدبير .
ثم اذ كر ان كل اسان ها ضديا والناس هالا يشتعلون الا بأجر ... فاجمعوا
تبرعات باسم عرابي .. ولا نس محاكة تشبورن التي دامت تسعة اشهر . فقد
تكون الحال ها كذلك .. واعود فأقول ان كل شي يتوقف على ما ننفقه . فلا
نفتكر بشاني وانما أذكر النفقات .. وانا اشتعل ١٦ ساعة في اليوم ... ولا يمكن
بتدبير خدمة نيبار »

من نيبار الى بلنت في ٦ نوفمبر

« يطهر ايك مرات في جدول التهم التي انهم بها عرابي . فهو الآن لم يرسل
البا بطريقة رسمية ولم يقدم اليا حتي تتم شهادة الشهود ولكن حلالة التهم هي كما
ذكرتها التيمس في احدى تفرقاتها :

١ - سوء استعمال الراية البيضاء .

٢ - الاشتراك في مذابح الاسكندرية ونهبها في ١٩ يونيو

٣ - الاشتراك في إحراق المدينة بالنار

٤ - اثارة الحرب في ارض السلطان

٥ - التمرد على الخديو وعلى السلطان »

من برودلى الى بلنت في ٧ نوفمبر

« اذا لم تكن نخشى النفقات فالتحاج مؤكدا ... أنظر خطابي المرسل

لك امس .

« والسألة الوحيدة هي هل يفرج عن المعتقلين بدون محاكة أو هل يتاح لهم ذلك
بالدفاع عن أنفسهم . وانا مقتنع بأن الحكومة هانسي لوقف التحقيق لان الحقائق
التي ستظهر عند الاستجواب ستوقم جميع الموظفين الكبراء الموحدين الآن في
الحكومة في خطر وتفضي أيضا أسرارنا نشين الخديو . وقد نرضى حكومتنا الاتفاق
مع عرابي لهذا السبب الاحير لانها نخشى ان تطهر المحاكة اما قد عانا الحيوش

وأحضرناها الى مصر وغزونا البلاد وقاتلنا الوطنيين دفاعا عن اسفل اسان فيها .
وانا شخصياً ليس عندى شك فى ان الحديو وعمر لطفى هما اللذان درامدبحة
الاسكندرية وذلك لسكى يقضيا على نفوذ عراي ومكانته اذ كان قد تحمل مسئولية
الامن العام . وفي يدى وثائق تؤدى الى نصف الطريق فى اثبات ذلك ولكن لم
يأت الوقت بعد لاعلاها »

من برودلى الى بلنت فى ١٨ منه (بالتلغراف)
« أعتقد انا منحصل على احسن تسوية . ولا نحمل على وراة الخارجية .
اكنم هذا السر »

من برودلى الى بلنت فى ٢٠ نوفمبر (بالتلغراف)
« لندن تناوض دوفرين . وغة الحكومة المصرية فى التسوية قد قلت بالنسبة
لما نعتقد من تغير الرأى العام نحو عراي . « شهادة سليمان سامي بأنه أحرق
الاسكندرية . وهي شهادة مزورة »

من برودلى الى بلنت فى ٢١ نوفمبر
« نتحدث قريباً أزمة شديدة . وأصدقاء الحكومة المصرية يؤكدون النية على
شنق عراي . ابقى فى لندن »

من برودلى الى بلنت فى ٢١ نوفمبر
« لست أستطيع أن أصف لك مبلغ السفالة فى ممالك الحكومة المصرية .
فعلي لا تعتبر قواعد اجراءات المحكمة ورحالها يقولون انهم لا يبالون شي . لانهم
يتناضون بالطرق السياسية لشنق عراي »

من نيبيار الى بلنت فى ٢١ نوفمبر
« نحن نكفح جميع قوات الحكومة المصرية وليس من يساعدنا . ولكنى
اعتقد أن لورد دوفرين سياتى وبخلصنا فى النهاية . ان الحكومة تنوى ان تتر
هؤلاء المعتقلين ظلاً وعدواناً ونحن نجد ليل نهار لسكى نحبط مساعيهم . وولس
ودفرين يساعدانا ولكن الحكومة المصرية سريعة بقطه ولا ذمة (حالها) أمامى
فبالضرورة نسبر بيطه . وحذر »

من برودلى الى بلنت في ٢٦ نوفمبر
 « تقترح الحكومة المصرية محاكمة عراي على حدة . أرسل لنا رأيك
 بالتأخراف »

من برودلى الى بلنت في ٢٧ نوفمبر (بالتأخراف)
 « أرسلنا لك خطابات لبيان الحالة . عندى ما يجعلني أعتقد ان الحكومة ترضي
 نفي عراي ومحمود سامي وطلبة الى مدينة السكك أو أى مكان آخر اذا اعترفوا
 بشبهة اثورة وبالاتمرار على الحرب ضد أوامر الخديو ونحسبكم على الباقيين بالفى
 البسيط أو العمو . أرحوك أن لا نبوح بشئ . من هذا . وأنا ونييبار موافقان على
 هذه التسوية وذلك للصعوبة القائمة فى سبيلنا في نفي تهمة الاحراق الخ »

من بلنت الى برودلى في ٢٨ منه
 « لا أوافق على الشروط التي ذكرتموها . لا أوافق مطلقا على النفي في
 السكك . سأستشير بعض أصدقائي عن المال . وسركرنا السيسى قوي جدا .
 وسأرسل الرد الهائي بعد »

من برودلى الى بلنت . خطاب مؤرخ في ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٨٢
 (خصوصى ويجب عليه الرد بسرعة)

عزيزى بلنت

« أوجو ملك ان نستعمل نصرك وهدو . بطرك وحكمتك فى موضوع هذا
 الخطاب . لقد تحدثت اليوم مع دوفرين حديثاً طويلاً وهو يتكلم معنا بلهجة الصداقة
 وأملنا الآن ملف القضية . وليس يواجهنا من الصعوبات سوى مسألة احراق
 الاسكندرية . وليس هناك ما يبرهن على ان عراي قد أمر بالاحراق . ولكن يبقى
 بعد ذلك حقائق كريمة . مثال ذلك انه لم يأمر باطفاء النار ووقف التهب ثم صدقته
 اللجنة مع سليمان سامي بعد ذلك ثم عدم معاقبته المجرمين ثم شر انه التورول بكليات
 كبيرة ثم الكيفية المنظمة التي اتبعها الخنود فى احراق المدينة

« هذه هي الصعوبة . فهل لم يكن فى وسع عراي وقف الحريق ؟ ثم ان خطبه
 السابقة فيها لهجة النار وتكاد نوحم باللعنة الى الاحراق

« وإذا أقرعنا ببعض التهم الرسمية كأن يعترف مثلاً بعصيانه أو أمر الخديو
عند ما أشار عليه بالسك عن الحرب فانه عندئذ يبق
« وعندئذ يكون المني مدينة السكك مع التساهل السكافي . وأظن أني أقدر
ان أحصل له هو وسامي وطللة على هذه الشروط
أما الآخرون فالذي الديسب أو المعو . وأظن اني أقدر على أن أحصل له على
مرتب بعد استصفاء أمواله مع عدم تجريدته من رتبته » وإذا لم رض نحن بهذا فان
المحاكمة ستطول وقد يتغير الرأي العام . فريد عليا الصفقات ولا نفس مع كل ذلك
همة احراق الاسكندرية

« وإذا أمشيت شيئاً من هذه الاسرار فانك تؤذينا اكبر اذى . فتأمل في كل
هذه المسائل واذكر مسئوليتنا المعظمي الخطيرة . ودورس يتودد اليها . ارحوك
إذا واقعت على مقترحاتي ان ترسل لي بالتلغراف كلمة « سلام » وإذا لم توافق
وكتت نرغب ان نستم في الدفاع بالرسول لي كلمة « حرب » وأنا مستعد ان اكلمك
كفاح الرجال الى النهاية المرة . ولكنني اعرض عليك كل شيء فتأمل وتدبر
واذكر الطواري .

صديقك الخالص

بردولى

من نيسبار الى بلنت في ٢٧ نوفمبر

عزيزى بلنت

ان بما يوسف له جد الاسف ان مصلحة البريد قد وقتت على مكاتبنا ضد
فتحوا خطابك الاخير المسجل الذى ارسله الى وتسلمته انا يوم الجمعة الماضي .
وكان الخطاب جدول التهم التى قدمها لنا بوردلى وملحوظة صغيرة منك . ولا اظن
انه سرق من الخطاب شيء . وسأرسل هذا الخطاب الى ه . هاسكويت في قاعة
الحامين « نبل بار » في لندن وذلك حتى لا يتنبهوا اليه ويقتحموه . وقد احتججت في
الحال واسكى لا اعتقد أنهم سيكشفون عن التحسس . ثم اني آسف ايضاً لأنى لا احتفظ
بنسخ من الخطابات التى ارسلها لك لكي اراحها . فلا تدش اذن اذا وجدت
تكراراً في اقوالى . ولست أقدر على اخبارك بجميع المكاييد التى يصوبونها لنا لالها

على الجملات . ويظهر لي ان الخطاب قد فتح من فوق الختم ثم الصق بالصمغ ثانياً .
 وكان هذا العمل متقناً ولولا ان الصمغ لم يكن قد جف تماماً لما كشفت هذه القطعة
 ضاحته انفتح من مكان الصمغ وسأرسل لك رقعة عن البريد الراسي فلا تدهش
 بتأخر هذا الخطاب

« وقد اشتغلنا بجهد مد ارسل البريد ولكن لم يجد شيء . منذ ذلك الوقت
 سوى انه قد أذن لنا بالدهوع عن محمود سامي وقد جلسنا معه عدة جلسات . أما
 « طلبة » فريض ومرضه ناشي . في الاغلب من التهييج العصبي وهو يشكو من علة
 الربو ولا أعرف هل يموت ام لا واسكني على أي حال قد اجتهدت لالحصول له
 على المعوية الطيبة وجعلته ينقل من عرقه وأحصرت له حادما وسيريرا

« ان الينبات عن حريق الاسكندرية لم ترسل البنا واما علمنا بها من الاجنبيات
 جازيت وهذه الينبات قد تكون صحيحة وقد لا تكون . وهي ليست قوية ولكن
 فيها ما يكفي لان يصعب المهمة بصعوبة الحقيقة . فمن المهم جداً أن نبحث عن طريق
 أخرى للخروج من هذه الصعوبة وإيجاد حل آخر غير الحل الذي نتظره من المحكمة
 العسكرية . ولست أشك في قدرتنا على تنفيذ هذه الينبات بل سمعنا سحفاً وقت
 الاستحواض في المحكمة . ويمكننا أيضاً أن نوجه الاهتمام عن مذبحه ١١ يونيو ولكن
 للراح العليا نعتقد انه ان ثبت احدى هاتين التهمتين على عرابي فيحكم عليه
 بالشنق . فلنفرض ان المحكمة حكمت على عرابي بالاعدام فليس هناك سوى الحكومة
 الانجليزية لالقاء هذا الحكم . واني أعتقد ان من الخطر ان تترك للحكومة الانجليزية
 لخص الينبات ومعرفة الطرق التي حصلوا بها عليها . اذ من المحتمل ان ورارة الخارحية
 تنظر نظرة عاجلة وقد تترك عرابي في يده المحكمة وتصرح بأنه قد عمل كل شيء .
 لضمان نزاهة المحاكمة وانها لا يمكنها التدخل لقلب الحكم بعد اذ منح الدفاع جميع
 الفرص اللازمة ليشرح موقفه . ثم ان من المرجح انهم سيحكمون بحكم ما على عرابي
 وأي حكم تنطق به المحكمة ها يكون كبير الخطر عليه وعلى سائر المعتقلين .

« والآن أرى بعد التأمل والاعتبار انه يجب على المعتقلين الا يأمنوا جانب
 المحكمة اذا وجدوا للحلاص طريقة أخرى . فاداً عرضوا عليها شروطاً مقبولة لثني مع

مبان الميثة فيجب الا نرفضها . والخلاصة انه اذا قر قرار المحكمة على ان عرابي مجرم فمن المؤكد الحكم عليه بالاعدام . واذا برى . فيبقى بدون ما يضمن له معاشه في مناه . وعندى ما يمتنى على اعتقاد ان هذه التسوية مقبولة عند الجميع ماعدا رياض اما دوفرين فموافق عليها
« متطر ردك اسكى أقف على رأيك واقل نحيات المخلص لك »

« نيبار »

« حاشية — من حمة القصية كل شيء يسير على ما برام . فقد عالجنها من الجهة القانونية ومن جهة الحقائق ومن حمة سفالة الاجراءات . ولكن هناك الاخطاء والاعتبارات التي أشرت اليها . وقد ناقش برودلى جميع الادعاءات في المحكمة ولدى دوفرين بكل قدرة وهمة وحكمة . والعنل في صفنا ولكن الحكم لن يصدر من المحكمة وانما سيصدر من مجلس الوزراء . ومن المحال ان تنكر قيمة الاشاعات وليس لدينا من الوسائل ما يمكننا من تمحيصها »

من برودلى ونيبار الى بلنت في ٢٨ نوفمبر (بالتلغراف)
« نحادثنا طويلا مع دوفرين . فترجوك أن تأذن لنا بالاتفاق على امثل الشروط والتأخير يقضي على كل شيء . ولا يمكن الثقة بمعونة وزارة الخارجية . ودوفرين يميل الى الخروج تعليقاته لكي يساعدنا وهو الآن مسيطر على الحكومة المصرية . ودفاعنا عن حمة حريق الاسكندرية غير متع ومن هنا القلق فانهز الفرصة الراحنة . ومساعدة دوفرين ضرورية جداً . ارسل لنا بالتلغراف الاذن بالاتفاق . سنتحدث مع دوفرين غداً في الساعة الحادية عشرة »

« برودلى ونيبار »

من نيبار الى بلنت في ٢٨ نوفمبر
« اقسم لك بشرى اي لا أرى اننا يمكننا الحصول على اصل مما ذكرناه في تلغرافنا السابق . فوافق ولاحظ ان مصلحتنا الشخصية لا تتفق مع هذا الطلب »
« نيبار »

من بلنت الى برودلى ٢٨ منه (نصف الليل)

« لا أوافق على شروط النفي الا اذ كان نفياً شريعياً بدون اعتقال مثل عدنان أو مالة أو القصير . فاتفقوا في حدود ذلك »

من برودلى الى بلنت (بالتلغراف ٢٩ نوفمبر)

« اعطانا عرابي وثيقة مكتوبة يقرر فيها السلطة التامة لنا لكي نتفق بشأنه مع دوفرين . ودوفرين يقترح أن عرابي مذهب من حيث الثورة فقط والغرول عما عدا ذلك من النهم . أما الحكم فيسقط الى النفي في مكان طيب تتفق عليه أنت مع وراة الخارجية مثل جزر الاروريس وسيعطى مرتباً مناسباً ويوضع عن استصفاة امواله »
« واكبر غثي أنك لا تدرى الصعوبة التي نكابدوها في دفع تهمة حريق الاسكندرية والحصول على شهود الدفاع . ووزارة الخارجية لن تتدخل في الحكم اذا كان أقل من الاعدام فاذا كان الحكم بالسجن مدة طويلة في مصر فهي لن تتدخل وانا مقتنع بان النتيجة ستكون أسوأ من هذا وانى أحشى هذه المسؤولية وذلك لوقوفى على الحالة هنا . فارجو أن تكتب لنا بالموافقة على ما نعمل لكي تجنب وقوع كلثة »

من بلنت الى برودلى في ٢٩ نوفمبر الساعة الثالثة صدى الظهر .

« استشرت دلاوار وأنا موافق على النسوية على أساس التلغراف الذي ارسلتموه الى »

من برودلى الى بلنت في ٣٠ نوفمبر .

« كل شئ يسير على ما برام : اجتمع مع دلاوار في البحث عن مكان النفي . وهنا يقترحون فيجي . واشكرك على ثقتك »
من بلنت الى برودلى في ٣٠ نوفمبر .

« لا قبل أن يكون النفي فيجي أو ازورس . يجب أن تلعب في ان يكون النفي في وسط بلاد اسلامية لكي يؤدي عرابي فرائض دينه . وهم لا يقدررون على الرفض . سأستشير . دى لاولر ليس هنا »

من برودلى الى بلنت في أول ديسمبر .

« سلوك دوفرين جميل جداً . وهو يقترح أن يناوض دلاوار وزارة الخارجية

عن المتني . والمغتفلون كلهم راضون »
 من يرودلى الى بلنت في ٣ ديسمبر .
 « انتهت محاكمة عرابي . والاخبار الصحفية عنها في حريدة ستاندارد .
 قامت الحكومة المصرية بجميع عهودها »
 من يرودلى الى بلنت في ٤ ديسمبر .
 « لقد سر عرابي من النتيجة . وهو يشكر ويميل الى أن يكون المتني في
 الكلب . دوفرين جدير بكل ثناء »
 من يرودلى الى بلنت في ٤ ديسمبر .
 « مدعش لندم كتاباتك . نجاحنا تام . الانجليز هان في حق »
 من بلنت الى يرودلى .
 « أمي . الجميع . يقول دلاوار أن دوفرين حر في اختيار مكان المتني . ولا أنظر
 الكلب يوافق فما رأيك عن حل طلاق أو حرزى ؟ استشر عرابي »
 من يرودلى الى بلنت .
 « أشكر على تفراتك »

بدرك القارى . من هذه التفرافات أي لم أرض بالتسوية التي عرضها دوفرين
 الا كرهاً . فقد كان الرأي العام مصافي ذلك وكنت أعرف أنه ليس في ومع
 وزارة الخارجية الا أن تقل ما يريد عليها ولم تكن لدغية في أن تلصق بناتهم الثورة
 ولكن في الوقت نفسه لم يكن بمعنى بازا . تفرافات يرودلى وخاصة تفرافات نيبيل
 أن أرفض التسوية . فان المسؤولية كانت كبيرة .

وكان على أيضا أن اعتبر مسألة التفرافات . صحيح انه قد فتح باب التبرعات
 ودخل فيه عدد من ذوى المداواة . ولكن مبلغ هذه التبرعات لم يزد على مائتي
 جنيه وذلك في حين أن نفقات يرودلى كانت قد بلغت في ذلك الوقت نحو ثلاثة آلاف
 جنيه . ولو استمرت المحاكمة شهراً آخر لبلغت التفرافات أكثر مما كنت أستطيع حمله ،
 وذلك في قضية لم تكن قضيتي بالذات . فلذلك استشرت دلاوار وروبرت بورك
 لحدرنى هذا الاخير من الاعتماد على الرأي العام وصح لي بالرضا . وانتذكر الآر

حديثي معه ونحن نروح ونفدو في ميدان مونتاجو حيث كان يسكن وضيت متروداً نحو ساعة انتهت في آخرها بالرضا وكانت النتيجة اني أرسلت تلفراف الموافقة وبعد ذلك وبعد مجادلات طويلة وصيا ان يكون المني جزيرة سيلان وهي المكان الذي يؤثر عه انه نفى اليه ابونا آدم عند ما طرد من الفردوس . ولم يكن من المستطاع وجود مكان أشرف منه

ولم يكتب دوفرين شروط الاتفاق ولكن برودلي قد سها ان يطالبه بذلك لانه كان يجب عليه أن يلح في كثافة شروط ولو فصل ذلك لوفر علينا غنا كبرا . وكان هذا الاهمال سبباً في تجريد عرابي وسائر المساجين من رتبهم العسكرية ولم يكن برودلي ينتظر أن يرضى دوفرين بهذا العمل ولو انه كان منتظراً مشكلاً بعد الحكم بالاعدام . ثم نشأ النزاع أيضاً عن قيمة المرب الذي سيسمح به لعرابي بدلاً من أملاكه التي استصيفت . والظاهر ان برودلي كان قد بالغ للمساجين في أمر هذا المرب . أما انا فأعتقد اهم عوملوا سخطاً لان أملاك اكثرهم كانت قليلة القيمة ثم ان أملاك زوجاتهم لم تستصف . وكانت أكبرهم خسارة محمود ساي لانه كان يملك أملاكاً واسعة استصفتها الحكومة . أما عرابي فان ما أخذته الحكومة لم يكن سوى ثمانية فدادين وورثها عن أبيه وأثاث بيته المستأجر في القاهرة وخيوله ونحو سبائة فدان من الارض البور اشترأها في أيام عزه . وكانت كل هذه الممتلكات وقت الاستصفا لا يزيد ثمنها على ألبى حنيه أو ثلاثة آلاف لان العدان من الارض البور في ذلك الوقت لم يكن يزيد ثمنه على بضعة ريالات . ولم يكن عنده من الوقت ما يساعده على اصلاحها (١)

(١) منذ مدة قريبة أرسل عرابي الى الملك ادوارد عريضة طلب منه فيها تمويضا عن هذه الارض وهذا الطلب من اوهاام عرابي وهو يدل على ما يعرفه عنه المحتجون به وهو انه قد دخل في سس الهرم فهو في خرف الشيخوخة وقد كان أسوء شر وقساوه انا لم نطلب تحديد معنى العقول المام ومن هنا نشأت اتهامات جديدة

وهناك مسألة أخرى كثر فيها النزاع في ذلك الوقت ولكن لم يعد لها أهمية الآن وهي هل اقرار المساجين كل اقراراً للحكومة الانجليزية المصرية ؟ ولكني لا أحتاج الى عاء البحث الآن في هذا الموضوع وانما أقول ان الحكومة الانجليزية قد حققت غايتها فحلتنا قهر بالثورة ثم استندت الى هذا الاقرار لكي تدخل تدخلها في مصر ذا وجه شرعى. فلما حصلت على هذا لم تمن أقل عناية بساتر المساجين الذين لم يشملهم العفو فبطش بهم الخديو توفيق . ولكن ما حصل لهؤلاء . حصل لهم في عهد الاحتلال وانما لا اكتب عنه الآن والمذكرات لاتسع هذه التفاصيل . واطن اني قد اوضحت جميع الاعمال التي قمت بها في الثورة المصرية في هذه المذكرات والآن وأنا أعيد النظر الى اعمالى الماضية واتذكر كيف ابتدأنا بالجراح وانتهيا بالفشل في محاولة الحصول لوطنيين من الحكومة الانجليزية على حقهم في معاملة حسنة — اقول انى وأنا الذى نظرت الى الوراء عن اعمالى الماضية لا ارى انى علت ما آسف عليه . وقد أعطأت بالطبع عدة اخطاء . واشعر انى مشول الى حد كبير عن تصميم الوطنيين الذى أدى الى الحرب . ولكنى لا أزال اعتقد أن حظهم كلن يكون أسوأ لو أنهم لم يقاتلوا الانجليز . وسدوا بمطالب القناصل الاوروبيين . فأقل ما فى عملهم أنهم استمدوا من سماع العالم لتقصيهم واذا كلن العلاج قد انتصف بعض الانصاف من ظالمه فذلك لا يعرى الا الى جهود عرابي التى كست اشجعها فيها حتى الى وقت اعلان الحرب اذ كانت هذه الجهود نتيجة مبادئ الوطنيه السياسية . وقد كانت هذه الثورة حيا في أن تصفى انجلترا الى شكوى الفلاحين بعد ذلك وهي وان كانت قد حرمتهم حق الحرية السياسية قد عالجت معظم شكواهم

ولست أدري ماذا يأتي به المستقبل لمصر . قد زادت ثروة مصر منذ الاحتلال الانجليزى ومع انى لا اعتبر ان ثروة البلاد وغناها يدلان على حسن حافها قد كلن لها مع ذلك قيمة من حيث انها جملا الفلاح يثبت في ارضه ويحتفظ بها لنفسه دون الاجانب وما دامت الحال كذلك فسينقى الامة حية وربما يأتي اليوم الذى يعاد فيه الى الفلاح دستوره وعندئذ يدرك الفلاحون حقيقة ثورة سنة ١٨٨٢ ويعرفون انها كانت بدعياهم الوطنية وهي لذلك من محاسن تاريخهم ومفاخره

تاريخ احمد عرابي بقلمه

(الدليل الاول لكتاب التاريخ السرى للاحتلال البريطاني)

هذا هو تاريخ حياة عرابي وحوادث سني ١٨٨١ و١٨٨٢ كما كتبه لي
أنا ولقد سكاون بلنت أمس في ١٦ مارس سنة ١٩٠٣ في الشيخ عبد

—٢٠٨٨٨٨٨٨—

كل مولدي في سنة ١٨٤٠ في بلدة هرية قريبا من الزقازيق في الشرقية. وكان
أبي شيخ القرية وكان يملك ثمانية فدادين ونصف فدان ورثها عنه وأصفت
إليها ما اشترته مما كنت أدخره من مرتبي الذي بلغ أحيانا ٢٥٠ جنيه في الشهر
فبلغت أملاكي ٥٧ فدان وهذا هو المقدار الذي استصفته الحكومة وقت محاكمي .
وكانت هذه الأرض وقت اشتريتها رخيصة لا يزيد ثمن الفدان عن بضعة جنيهات
في حين انه يساوي مملعا كبيرا الآن ، لأنها كانت في ذلك الوقت رديئة أما الآن
فهي جيدة ولكن لم يكن فيها شيء . وكان كل ما أدخره اشترى به أرضا ولم يكن
لي أملاك أخرى أو مقولات الا اثاث البيت والحيول وكلها لم يكن يتجاوز ثمنها
الف جنيه .

ولما كنت صبيا دخلت الأزهر ودرست فيه سنتين ولكني جندت وعمري
١٤ سنة لأنني كنت مديدا القامة وكان سعيد يحب تجريد أولاد المشايخ لكي يصيروا
ضباطا . فامتنحت دفادني في الامتحان ما كنت قد تعلمته في الأزهر فميت كاتبا
بدرجة « بلوك أمين » ولم أنظم في صف الخنود وأعطيت مرتبا مقداره ستون قرشا
في الشهر . ولكنني لم أحب هذا المركز لأنني خشيت الا أرتقي وكنت أطمح الى
منصب عالي يماثل منصب مدير مديرية . فقصمت عريضة الى دنيس ابراهيم بك
لكي يرديني الى الصف . فاجبرني ابراهيم بك باي أخسر في هذا العمل لأن مرتبي
ينزل عندئذ الى خمسين قرشا ولكني ألححت عليه فقبل . ثم لم يمض قليل حتى
امتنحت مرة أخرى ففرت وكنت الاول فيه لجلولتي « جاويشا » ثم امتنحت

مرة ثالثة فعينت ملازماً وكان عمرى وقتئذ ١٧ سنة . وكان سليمان باشا المرئى
يحبني فألح علي سعيد باشا لكي يرقني فصرت قائمقاماً وكان سني عشرين سنة . ثم
تخفي سعيد باشا معه كباروه عند ما زار المدينة قبيل وفاته بهام وكان هذا في
سنة ١٢٧٩ هجرية (١٨٦٢ م)

وكانت وفاة سعيد باشا من الكوارث التي نزلت بي لانه كان يحب أبناء البلاد،
لما اصابه فلم يكن كذلك ، ففي زمنه أعيد كل شيء الى أيدي الأتراك والشركس
وصل المصري في الجيش مجرداً من الحماية ومن الترقية، فبقيت قائمقاماً مدى ١٢ عاماً
ولم يحدث فيها شيء حتى جاءت حرب الحبشة ، ولم أكن قد أرسلت الى الحرب
الروسية ولكن لما نشبت حرب الجيش طلب جميع الجنود وسعيت الحاميات من
طريق الحج وكلفت أنا بالذهاب لقيام سحب هذه الحاميات ، وذهبت وحدي
فلم يكن معي جندي واحد ولم أزود بقرش واحد وكان علي أن أصـل الى مكان
هؤلاء الجنود على الجمال بقدر المستطاع ، فذهبت الى النخل والعقة والوجه وصرت
أجمع الحاميات وأضع مكلمها العرب كحفراء للحصون . ثم عبرنا البحر الى القصير
وذهبنا الى قنا ومن هناك الى القاهرة . ولم يدفع لي قرش واحد على قيامي بهذه
المهمة بل قتت أنا نفسي بنفقات سفرى . وكانت البلاد في حالة مروعة من الظلم
ومن ذلك الوقت بدأت أهتم بالسياسة وجاء أن أخلص البلاد من الخراب . ثم ذهبت
الى مصر وعاشت في الحملة التي كانت بقيادة راتب باشا وكان لورنج باشا الأمريكى
رئيس أركان الحرب . ولم أشهد معركة لأنى كنت قائماً في ذلك الوقت بمسألة النقل
بين مصر والجيش . وكانت المعركة من السكبات التي نزلت بالجيش اذ قتلت
جنود سبع كتائب . وكان الخطأ يعزى الى لورنج باشا . وكان ابن الخديو حسن
هناك وكان فى صغراً يعلم الجندية ولم يكن يقود الجيش ولم يؤخفاً سير أعدنا الاحباش .
وبعد ذلك أخذت أفكر فى الشؤون السياسية . وأتذكر اني رأيت الشيخ جمال الدين
ولكنى لم أكلّمه وقد أفادتنى علاقته القديمة بالآزهر معرفة عدد من الطلبة . وكان
من أفضل من عرفتهم الشيخ محمد عبده والشيخ حسن الطويل . وكان أول كتاب
أدركت منه بعض الآراء عن المسائل السياسية كتاباً مترجماً الى العربية عن

« حياة بومارت » تأليف الملازم لويس. وكان سعيد باشا قد أخذ هذا الكتاب معه في زيارته المدينة وكان ماذكر فيه من أن ثلاثين ألف جندي فرسى قد فتحوا بلادنا قد هاج غضب سعيد باشا فرمى بالكتاب الى الارض وقال لي : « انظر كيف قهر مواطنوك » فأخذت الكتاب وقرأته طول الليل فلم أتم حتى الصباح . ثم ذهبت الى سعيد باشا وأخبرته بأنني قد قرأت الكتاب وإن السبب الذي جعل الفرنسيين ينهضون هو أن حبشهم كل مطا وأنا نستطيع أن نعمل ذلك بمصر لو اردنا .

والآن نأني عن الشعب الذي حصل في وقت اسمعيل ضد نوبار وهل لي يد فيه . فأقول أنه لم يكن لي يد فيه لاني كنت في وقت ذلك الشعب في رشيد مع الأساى . ولكن في اليوم الذي سبق يوم الشعب أرسلت الى الحرية أنا واثنا عاشر الآخر محمد بك نادى ناهراً لكي مطر في أمر الدين فصاروا من الجيش ولم يدفع لهم متأخر مرتباتهم بل لم يكن لديهم ما يقتاتون به . وكانوا وقتئذ في العباسية . ولكنني لم أعرف ماذا كان يدبر ضد نوبار باشا . والحقيقة ان اسمعيل باشا هو الذي دبر هذا الشعب بواسطة أحد خدمة شاهين باشا وصهره لطيف افندي سليم ناظر المدرسة الحربية . وانضم اليهم بعض الخنود المعزولين ولم يكونوا كثيرين . ووجدوا نوبار على أبواب الوراة على وشك أن يركب مركبته . فهاجموه ولكوه وشدوا شاريه . وذهب الخبر الى اسمعيل باشا لكي يهدي . الشعب فذهب ومعه عبد القادر باشا وعلى فهمي مك الملازم في حرسه فأمره بأن يطلق النار على الطلبة ولكن على فهمي أمر بإطلاق النار في الهواء فلم يجرح احد . ولم يكن على فهمي معنا في ذلك الوقت فقد كان اميناً لاسمعيل وكلت قد تزوج احدى سيدات السراي واسكنه لم يحب أن يهرق دما . هؤلاء الشباب

ولكي يخفي اسمعيل اشتراكه في ايجاد هذا الشعب انهمي أنا ونادي بك وعنى بك الروني بأننا زعماء المشايخ وقدما للمجلس المؤلف من ستون باشا وحسن باشا أملاطون وعثمان رفقي الذي صار بعد ذلك وكيل وزارة الحربية وآخرين . فقررت في ذلك المجلس . اننا لا يد لنا في هذا الشعب اذ كنا في رشيد ولم نصل الى القاهرة الا في الليل ومع ذلك قد ومضنا وفصل كل ما عن أليه . فأرسل نادى الى

المصورة وأرسل الرقيب الي الفيسوم . وأرسلت أنا الى الاسكندرية كوكيل لمشاخ
 "صعيد الذين كانوا يرسلون المتأخر عليهم من الضرائب عيناً كالقول وغيره من
 الغلات الى الاسكندرية فكان يتسلمها بعض يهود في الاسكندرية ويرتبهونها جراه
 ما يقترضه منهم اسماعيل من الاموال

ولكن قبل أن نفترق اجتماعنا اقترحت عليهم أن نكون عصبة لخلق اسماعيل
 ولو فعلنا ذلك لخلقنا المسألة من قوتها لأن القنصل كانوا يرغبون في التخاص من بآية
 طريقة وكنا قد وفرنا على أنفسنا جميع المشاكل التالية وكنا وفرنا أيضا ١٥ مليون
 حنيه أخذها اسماعيل وقت خلعه . ولكن لم يكن قد ظهر بعد من يقود هذه الحركة
 فوافق الموحدون علي رأيي ولكننا لم تقدر على تنفيذه . ثم خلق اسماعيل فزال عنا
 عبء ثقيل ولكننا لو كنا نحن قد فعلنا ذلك بأنفسنا لكنا نخلصنا من عائلة محمد علي
 بأجمعها ولم يكن فيها أحد جديرا بالحكم سوى سعيد وكنا عندئذ أعلننا جمهورية . وقد
 اقترح الشيخ جمال الدين علي الشيخ محمد عبده أن يقتل اسماعيل علي حصر قصر النيل فوافق
 محمد عبده علي الاقتراح . ولكن اسماعيل قد جمع أموال المديريات قبل خلعه بستة أشهر
 وقد اعترف لطيف بعد ذلك باشتراكه في هذه الاعمال . وقد اودع لطيف السجن
 ولكن جماعة الماسون طلبوا من نوبار الافراج عنه فخلى سبيله

ولما خلف توفيق اسماعيل أعلن في أول أعماله انه ينوي منح البلاد دستورا .
 والآن نسأل هل كان مخلصا في هذه النية ؟ فأقول أنه لم يكن مخلصا ولكنه كان
 ضيقا الى درجة لا تصدق ولم يكن يقدر علي أن يقول « لا » ولكن تأثير مباشر عليه به
 وزيره شريف باشا الذي كان يحب النظم الدستورية في الحكومات . وكان في عهد
 والده بجميع الاموال وكان هذا ام ما جهن له . فكان يأخذ الهدايا من جميع المتقدمين
 بالعرائض لايه وكانوا يستقنون أنهم بارشاد توفيق يستطيعون تحقيق أغراضهم عند
 والده اسماعيل فلم يكن توفيق يرغب في وجود دستور ولكنه شق عليه أن يقول :
 « لا » عندما عرض عليه شريف هذا الرأي فوعده به ولكن لم يمض شهران حتى
 وقع تحت نفوذ القنصل الذين منعه من اصدار قرار الدستور فجمع عندئذ شريف
 ووزرائه وقرروا معه انه اذا استقال هم أيضا يستقيلون وأقسموا له بشرهم ولكن

على الرغم من القسم انضم بعضهم الى وزارة رياض باشا الذي صار رئيساً للوزراء . مكان شريف . ولكي يرغبهم رياض في وزارته تعهد لهم بأن كل وزير سيكون مستقلاً في وزارته وأن توفيق لن يتدخل في ادارة أعمالهم . فصار محمود سامي وزير الاوقاف وعلى مبارك وزير المعارف وعثمان باشا رفيق وهو تركي كل يكره الفلاحين صار وزير حرية وكانت الحكومة الجديدة حكومة جائرة . فقد كتب حسن موسى العقاد عريضة بشأن نظام المقابلة (الضرائب) فكان جزاؤه لتقديم هذه العريضة النفي الى البحر الايض ، وعزل احمد فهمي لعريضة أخرى . وعزل آخرون لان الوزارة لا تنتظر لهم بعين الرضا وكان أسوأ هؤلاء الوزراء جميعهم عثمان رفيق

وكنّا نحن الضباط كل منا مع الألبه وكنا نقاسي صنوف الظلم لاننا مصريون : وكان الضابط المصري يقبض عليه لاي علة ويوضع مكانه رجل شركي . وكانت النية أن يعزل جميع الضباط المصريين . وكنت أنا من المغضوب عليهم لأنني رفضت أن تؤخذ جنودى لحفر قناة التوفيقية وكانت العادة أن يسخروا في مثل هذه الاعمال دون أجر . ودرت التدايير لكي اشترك في مشاجرة في بعض الشوارع فأقتل ولكن حب جنودى لى كان يسجنى على الدوام من هذه المشاكل . وبات جميع الضباط الذين لم يكونوا شراكسة في خطر وفزع لا يرحلهم ولكن هذا هو السبب في أن على فهمي الذي كان متصلاً بالبلط الحديو لواجه احدى حواريه انضم البنالاه كان يخشى أن يعزل ويوضع مكانه شركى او تركي . وكان ضابطا في الآلاي الاول من الحرس وكان مركزه عابدين وكنت أنا في الصاسية مع الآلاي الثالث . وكان عبدالعال حلمي في طرءه وكان على روني يقود الخيالة .

ثم حدثت أزمة في يناير سنة ١٨٨١ . فقد كنت ذهبت الى دار نجم الدين باشا في المساء . وكان هناك بعض الباشوات فاخذوا ينسأرون عن التغييرات التي ينوي عثمان رفيق أن يقوم بها فقلت من كلامهم أنه قد قرر أن يعزل أنا وعبدالعال من قيادتنا ويعين في مراكرنا ضباط شركي . وفي الوقت نفسه جاءني رسول يقول لن على فهمي وعبدالعال في بيتي ينتظرا تني فذهبت الى البيت ووجدتهما وصحت منهما هذا الخبر السيء . فجلسنا نتشاور فيما يجب أن نفعله فاقترح علينا

عبد العال أن نصطحب قوة ونذهب الى منزل عثمان رفي وقبض عليه أو نقتله .
ولكني قلت له : « كلا يجب أن تقدم عريضة أولاً لرئيس الوزراء . فإذا لم يقبل
تقدم عريضة أخرى للحدوي »

فكلفتني بأن اكتب العريضة . فكتبت العريضة وأوضعت الحالة وطلبت عزل
عثمان رفي وزيادة الجيش الى ١٨٠٠٠ جندي وعلان الدستور الموعود .

« ملمحظة من بلنت : أعلن أن عرابي قد أخطأ هنا اذ خلط بين هذين الطالبين
الاخيرين وبين الطالب الاول الذي قدم في ٩ سبتمبر ولكنه ألح بأنه قد أثبت هذه
الثلاثة الطالبات في فبراير »

ثم وقصنا نحن الثلاثة هذه العريضة مع علنا بأن حياتنا قد صارت في خطر .

وفي اليوم التالي ذهبنا بعريضتنا لرياض في ودارة الداخلية فقرأها في غرفة
داخلية ثم خرج الينا وقال لنا : « هذه عريضة مهلكة . ماذا تطلبون ؟ تفسير الوزارة ؟
ومن يأخذ مكانها ؟ ومن تقترحونه لكي يقوم باعمال الحكومة ؟ »

وكنتم أقصده هو ووزراء السبعة بذلك . فغضب مني ولكنه قال أخيراً أنه
سينظر في طلباتنا وتركنا . وفي الحال التأم مجلس الحدوي وجميع رجال بلاطه
وأبضا ستون وبلنت . واقترح الحدوي أن يقبض علينا وان نحاكم ولكن الآخرين
قالوا : « اذا حاكمت هؤلاء فيجب أن يحاكم عثمان باشا أيضاً » وعلى هذا تركت
المسألة لثمان ليعالجها كما يرى وانت تعرف الباقي .

أما عن سؤالك هل كان يعرف الحدوي في ذلك الوقت عرفنا على كتابته العريضة
فأقول انه لم يكن يعرف ذلك ولم يعرف أيضاً أن علي فهمي قد انضم الينا .

أما عن سؤالك هل كنت أعرف البارون ديديج فأقول أنني لم أكن أعرفه ولم
أكن أعرف أحد من القناصل . ولكني سمعت أن أكبر القناصل نفوذاً هو القنصل
الفرنسي فكتبت اليه أخبره عن موقفنا ورجوته أن يخبر سائر قناصل الدول بأنه
ليس هناك أقل خطر على رعاياهم .

أما محمود سمي فلم أكن قد عرفته بعد ولكنه كان صديقاً لصديقي علي دوي
وسمعت انه من المتعلقين بالجرعة .

وكان من أصل شركسي ولكن عائلته عاشت في مصر نحو ستمائة سنة .
أما في المظاهرة الثانية التي حدثت في ٩ سبتمبر فقد كما نعرف أن الحديو كان
في صفائه أراد أن يتخلص من رياض الذي كان لا يكثرث لأوامره وقدراته
وتكلمت معه مرتين في ذلك الصيف ولكما لم نتكلم في السياسة . وكانت رساله
لي على لسان علي فهمي مقصورة على هذه الكلمات

« أنتم ثلاثة جنود وأما رابعكم »

والآن نأتى عن احلاصه فأقول أنه لم يكن قط مخلصاً وإنما أراد أن يتخلص
من رياض . ففي هذه المظاهرة طلبا عزل رياض مع سائر الوزراء ونجح فلم انه
سيفرح لهذا الطلب . ففي صباح يوم ٩ سبتمبر أرسلنا كلمة الى الحديو نقول اننا
سنذهب الى قصر عابدين لكي نطالبه بأداء وعوده السابقة . فجاء . وكان معه كوكون
وكان حديثي أنا مع كوكون هذا فأتى كوكون هل ترضي بحيدر ماشا فاحتسه
بأسا لا ترضى برحل يمت الى الحديو بقرابة ، ولم يكن لنا في هذه المرة الثانية طلبات
مكتوبة وإنما جددنا طلباتنا التي قدمناها في أول فبراير وهي : مجلس النواب وزيادة
الحيش الى ١٨٠٠٠ جندى كما تنص على ذلك القرارات وعزل رياض ، فوافقونا على
كل ذلك ، وفرح الحديو بذلك ، واستأعرف هل كان كوكون هناك وهل نصح
للحديو شئ . ما ، وإنما رأيت هناك كوكون وجولدمت وكنت أخطب كوكون
ولو حاول الحديو قتلى لأخلفت النار عليه ، والحقيقة أنه كلن في أشد الجذل
والجور لهذه المظاهرة .

نأتى الآن عن أبي سلطان (سلطان باشا) فأقول انه كان مفتاحاً لأنه عند
ما ألقت وزارة شريف لم يعين في احدى الوزارات . وكان الظن ان مصبر رئيس
مجلس النواب أشرف وأهم . ولكنه هو لم ير هذا الرأى فساءه انه ليس عضواً
في الوزارة . وهذا أول ما جعله يتقلب علينا . أما عن سؤالك هل أسيتت معاملة
الشراكية الذين قبض عليهم وأودعوا السجن للوامة عند ما كنت وزيراً
للحرية فأقول آني لم أدخل السجن الذى كانوا فيه ولم أرم يصدون بل لم اقرب من
السجن مطلقاً

أما عن مسألة هياج الاسكندرية فليس هناك شك في أن الذي دبر هذا الهياج هو الحديو وعمر باشا لطفي المحافظ ومستر كوكسون . وقد دبر هذا الهياج قبل وقوعه بعدة أيام وكل الغرض منه ازالة الثقة في لاي كذ قد تعهدت بحفظ النظام . فان الحديو أرسل نगरافاً بالارقام الى عمر لطفي كما تعرف . واتفق عمر لطفي مع السيد قديل رئيس المستوطنين على ايجاد هياج . وأخى السيد قديل هذه المسألة عنا ونحن في القاهرة . أما اشتر كستر كوكسون فينحصر في أن عدداً من الصادق التي تحتوى على الاسلحة الباربة أنزلت الى الاسكندرية وأرسلت الى دار القنصلية حيث مستر كوكسون وبديهي انه كل يقصد بازال هذه الاسلحة للمدينة تسليح بعض الناس وعندما سمعت بالحادثة أرسلت في الحال يهتوب سامي الى الاسكندرية وأمرته بأن يبحث بحثاً وائياً فانتهي من البحث بإثبات جميع هذه الحقائق التي ذكرناها . وقد قيت أشياء كثيرة غير صحيحة . فليس صحيحاً انه وجدت أجسام من القتلى النصارى في لباس اسلامي . وابتدأ الهياج بين مالطي وحمار . ولكن هذه المشاحة كانت عذراً ليس عبر . . وكان عمر لطفي كما تقول من شيعة اسماعيل . وتألني لماذا ترك مثل هذا الرجل المخطر في مثل هذا المنصب الذي كان يساعده على احدث اكبر الاضرار وكل ما أقوله انه لم يكن تابعاً لوزارة اخري بل كان يتسلم أوامره من وزارة الداخلية . وكان من سوء حظنا اننا تركناه في مركزه . ولم يذهب نديم ولا حسن موسى العقاد الى الاسكندرية في هذا الشأن وانما ذهب حسن موسى العقاد في مسألة مالية .

وما تألني عنه بصدد اسماعيل باشا صحيح . فقد عرض عليا اسماعيل أموالا . وظروف المسألة هي هذه : كما طلبنا بعض المدافع من المانيا ولسكنهم دفعوا أن يملوها لنا ما لم ندفع الثمن . ولم يكن عندنا مال . فعرض عليا اسماعيل ٣٠٠٠٠ جنيه على شرط أن تقول اما نشغل في مصلحته . وكان الذي عرض علينا هذا المبلغ هو مسيو محسن (ماكس لافيسون) وكبل اسماعيل الروسي وكل لحسن موسى العقاد يدق هذه المسألة . ولكن الاموال لم تطهر واذا كان اسماعيل قد أرسل المبلغ حقاً الى الاسكندرية فقد بقي في ايديهم فاننا لم نلـه

لا أنذكر اني سمعت شيئاً عما تذكره من أن روتشيلد قد عرض على معاشاً سنوياً قدره أربعة آلاف جنيه بشرط أن أعيش خارج مصر . وانما أتذكر أن قنصل فرنسا زارني بعد أن أرسل القنصل مذكرة لهم في طاب عرل الوزارة المصرية وقال لي انه يدفع لي مئتي مائة جنيه في الشهر اذا كنت اذهب الى باريس وأعيش هناك كما كان يعيش الامير عبد القادر . فرفضت وقلت له ان واجبي يقضى على بأن أدايع عن بلادي وأموت في الدفاع عنها لا أن أهرها . ولم أسمع من روتشيلد بخصوص هذه المسألة .

والآن سأخبرك كيف خسرت معركة التل الكبير فانه لما كان الانجليز يتقدمون دبرها محوماً تقوم به في القصاصين . وكان هذا التدبير يقتضي أن يتقدم محمود ساعى الى ميسمهم من الصالحية وتتقدم نحن الى الامام وفي الوقت نفسه تكون قد دارت قوة من جنوبي الوادي لكي تضربهم من المؤخرة . وجربنا الحيلة وبدأنا بتنفيذها ولكننا فشلنا لان على بك يوسف خففس خاننا وأفشى هذا التدبير وأرسل الى لورد ولسلى الرسم السكروكي الذي كنت رسمته أنا وأرسلته اليه . وكان أبو سلطان (سلطان باشا) بالنيابة عن الخديو قد أفسد على يوسف وضباطاً آخرين في الجيش بالرشوة . ولما كنت في السجن في القاهرة جاءني سير نشارلس واسون ومعه دمي السكروكي وسألني هل هذا من رسم يدي قلت « نعم » فاخبرني كيف وقع في يده وقال : « انه تدبير محكم وربما كنتم هزمتونا لو سرتم عليه »

فكانت هذه أولي نكباتنا . وفي التل الكبير فوجئنا وكانت الحيانة هي السبب أيضاً في هذه المفاجأة . فان قواد الحيلة كلن قد أغرام أبو سلطان (سلطان باشا) وأملهم آمالاً كبيرة . فكان مكلن الحيلة في مقدمة الجيش وكلن عليهم أن يندرونا عن تقدم الانجليز . ولكنهم تنحوا الى الجانب ولم يندرونا . وكلن الخائن على بك يوسف خففس في الخنادق فوضع مصاييح لكي يهتدى بها الانجليز ثم انسحب برجاله فترك عمراً عريضاً لمرور الانجليز

انظر الآن الى هذه العلامات في هذه السجادة فهي بمثابة الخنادق . هنا كلن علي يوسف وكلن محمد عبيد هناك . وكنت أنا في مؤخرة الجيش على بعد ميل ونصف

ولم تكن تنتظر هجوماً لانتالم تكن نسع إطلاق المدافع . وكنت أننا نأتمنا وإذا بي استيقظت على هدبر المدافع قريباً منا . وكان على روبي في المقدمة فأرسل الى يقول يجب أن أعبر مركزي لان العدو يضربنا من الجنب . فعدت وركبت حوادي وذهبت الى حيث كلن لنا قوة من المتطوعين وأمرتهم بان يتبعوني لكي نذهب الى الخطوط الاولى ونماون المقاتلين . ولكنهم كانوا فلاحين ولم يكونوا جوداً وكانت القنابل نسقط حوالهمم فلاذوا بالفرار فذهبت الى الامام وحدي وورائي خادمي محمد . فلما رأي وحدي وانتي أتقدم الى الموت الا كيد أخذ بزمام حوادي وأقسم علي أعود . فلما بانتي في المريعة ورأيت الجميع يفرون عدت : وراضني محمد حتى عبرنا وادي التل الكبير ثم حاذينا قناة الاسمعية حتى وصلنا الى بليس وهناك وجدنا معسكراً آخر وقد وجدت ان على روي كان سبقي هناك فعزمتنا على ان تقاوم . ولكن ما هو ان وصلت خيالة دوروري لين حتى فر الجميع فتركنا كل شيء وانجهمنا نحو الحمة الشمالية ولكنه لم يكن خائناً . أما الحوة فهم عبد الغفار على ما أظن ومن يليه في القيادة عبد الرحمن بك حسن وعلى يوسف خنفس . أنت تقول سعود الطحاوي ؟ ربما كان ذلك فهو لا البدو لا يوثق بهم وكان جده مع بونا نارت لما جاء مصر منذ مائة سنة .

والآن قد رجعت الى بلادى بعد عشرين سنة من النفي والأسي وبنو وطني صاروا يفتقدون اني قد بعث بلادى للانجليز وذلك لان بعض الصحف الفرنسية تقول ذلك .

رأي الشيخ محمد عبده

في تاريخ عرابي

(في ١٨ مارس سنة ١٩٠٣ عرضت على الشيخ محمد عبده في منزله في عين شمس تاريخ عرابي كما كتبه لي . فوافق على أكثره ثم قدم لي الملاحظات التالية عنه —
ولقد سكاون بثلث)

أولاً — بخصوص الشغب على نوبار أقول ان رواية عرابي صادقة ما عدا قوله عن علي فهمي . فان الامر الذي أعطي له باطلاق النار على الطلبة لم يكن يقصد منه التنفيد . فكان على فهمي اطاعة للاوامر يطلق النار في الهواء . وقد أمر نوبار بالقبض على لطيف بك بعد انتهاء الشغب ولكنه أفرج عنه بعد ذلك لان الماسويين طلبوا ذلك وكان لطيف عضواً في الجمعيات الماسونية . وكلف يصرح بما قلم به في اهذه المسألة . أما ما قاله عرابي بصدد خلع اسماعيل وأنه اقترح ذلك فأقول انه من المؤكد اننا كما نتكلم سرّاً في هذا الشأن وكان الشيخ جمال الدين موافقاً على الخلع واقترح عليّ أنا أن أقتل اسماعيل وكان يمر في مركبته كل يوم على جسر قصر النيل . ولكن كل هذا كان كلاماً نهامسه فيما بيننا . وكنت أنا موافقاً الموافقة كلها على قتل اسماعيل ولكن كان يقصدنا من يقودنا في هذه الحركة . ولو اننا عرفنا عرابي في ذلك الوقت فرمّا كان في إمكاننا ان ننظم الحركة معه لان قتل اسماعيل في ذلك الوقت كان يعتبر من أحسن ما يمكننا عمله ولكن يمنع تدخل أوروبا . ولكن لم يكن من المستطاع في ذلك الوقت تأسيس جمهورية اذا نظرنا الى حالة الجهل الذي كان سائداً على العقول . أما عن قول عرابي ان اسماعيل أخذ معه الى نابولي ١٥ مليون جنيه فليس هناك من يعرف الحقيقة . وأما المعروف ان المبلغ الذي أخذه معه كان كبيراً جداً . وكان اسماعيل يدير المال في الاشهر القليلة التي سبقت خاتمه . فكانت الاموال التي نحجي من المديرية لكي ترسلها الى وزارة المالية يأخذها هو لنفسه .

ثانياً — أما عن قول عرابي أن توفيقاً كلن يأخذ الهدايا والرشى من مقدمي الأمراض لوائده أيام كلن اسماعيل خديوياً فقد يمكن أن يكون صحيحاً . ولكن لم اسمع هذه الاشاعات وهذا العمل لا يتفق مع سلوك توفيق لما صار حاكماً . فذلك لست أصدق هذا القول .

ثالثاً — أما عن ظلم رياض فاقول أن رياضاً كلن ظالماً ولكن ظلمه لم يكن يبلغ سفك الدماء . فانه كلن على الدوام بكره ذلك . فلم أسمع انه كان يأمر بالقتل بالناس سرّاً . ولم يكن هناك على أى حال خوف من أن يفعل ذلك باحد قبل حادثة قصر النيل . ولكنا سمعنا أقوالاً وروايات عن محاولة قتل عرابي وغيره من الضباط في صيف سنة ١٨٨١

رابعا — اما عن حادثة اول فبراير سنة ١٨٨١ في قصر النيل فأرى ان رواية عرابي مرتبكة وغير صحيحة . فان العريضة الاولى التي قدسها عرابي وسائر الضباط كانت تتضمن الشكوى من الحجب الذي يقع بهم من عثمان رفقي . وكان هذا العمل سبباً في غضب وزير الحرية فقد دنته على ان يتخلص منهم وكان هذا اول ما لمت طر القنصل الى عرابي .

وكان البارون ديرنج في خصام مع رياض فاهتم لذلك بمسألة الضباط . اما العريضة التي يقول عرابي انه قدسها بنفسه الي رياض في يناير فلم تبين فيها أى اشارة الى الدستور او الى زيادة الجيش الى ١٨٠٠٠ جندي . فان هذه الطلبات لم تقدم الا في سبتمبر بعد المظاهرات . وكانت عريضة قصر النيل لا تزيد عن ان تكون شكوى من مساوى عثمان رفقي وطلب عزله من الوزارة . وكان رياض في المجلس الذي عقد عقب المظاهرات موافقاً على عمل تحقيق عن هذه العريضة . وكان هذا التحقيق يتطلب محاكمة الضباط وايضا عثمان رفقي امام المحكمة العسكرية . وكان رياض يكره العنف . ولكنه لما اوضح له انه اذا لم يستعمل العنف سيعد سكوته دليلاً على تشبعه مع الضباط ضد الخديو اضطر في النهاية ان يترك المسألة لعثمان رفقي يتصرف فيها كيفما شاء .

خامساً — أما عن مطاهرة عابدين في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ فاني أقول أن

السبعة الأشهر التي كانت بين مسألة قصر النيل ومظاهرة سبتمبر كانت منعمة بالانشاط السياسي الذي شغل جميع الطبقات . فقد صار عرابي محبوباً عند الأمتواتصل بالحزب الوطني وعرف سلطان باشا وسليمان أبانغله وحسن الشريبي وعرفني أنا أيضاً وكنا نحن الذين طلبوا الدستور . وقد أهم هو بالدستور لأنه رأى فيه ضماناً من انتقام الحديو أو وزرائه منه كما كانوا ينتقمون أيضاً من سائر الضباط .

وقد قال لي هو ذلك جملة مرات وبناء على ذلك قدمنا العرائض بطلب الدستور وحملنا في الصحف حملات عديدة في هذا الصدد . وكان عرابي يزور سلطان باشا كثيراً في ذلك الصيف - وكان سلطان مترافكاً يرسل إليه الهدايا من الثياب والحيل وغير ذلك لكي يعتمد علي قوة عرابي ونصفيده لهذه الحركة الدستورية . وحدث مظاهرة عابدين بالاتفاق مع سلطان وقد أصاب عرابي في قوله أن سلطان كان يطمح في أن يكون وزيراً بعد سقوط وزارة رياض .

ولكن شريف باشا الذي صار رئيساً للوزارة لم يفكر في تعيين سلطان . وبعد ذلك أمكن مصالحة سلطان بإعطائه رئاسة مجلس النواب . ولم يتشاجر مع عرابي إلا بعد اللامحة أي البلاغ الأخير الذي أرسله القناصل إلى الحكومة فإن عرابي جرد سيفه هنا في وجه سلطان ووجه أعضاء المجلس عندما رأى منهم تردداً في رفض اللامحة وكانا إلى هذا الوقت يسيران يداً بيد

ورواية عرابي عن توفيق من أنه أرسل يقول له : (انتم ثلاثة جنود وأنا راجعكم) صحيحة وهي تظهر مركز الحديو أمام الضباط . وكان كولفن مع الحديو في عابدين ولكنه لما كان لا يعرف العربية لم يلتفت عرابي إليه . وكان الكلامهم كوكسون وكان البارون دي رنج قد استدعته حكومته بناء على طلب رياض الذي شكك في جميعه الضباط سادساً - أما عن الشغب في الاسكندرية فإن عرابي صادق في روايته عن عمر لطفي والحديو فهما اللذان دبرا الشغب قبل حدوثه بيضة أسابيع . ولكن روايته عن سيد قنديل غير صحيحة فإنه كان ضعيفاً فلم يقو على اخذ الشغب وهو أيضاً مخبط . فيما ذكره عن كوكسون . فإن الاسلحة التي وردت إلى القنصلية إنما حُمي بها لحامية المائطين وسائر الرعايا الانجليز . وقد حكم بالنفي على سيد قنديل 'عشرين

عاما ولكن عني عنه بعد ذلك فرجع وهو الآ في داره في الريف في مصر — وكثيراً ما تحدثت معه في هذا الموضوع . وعراقي صادق في قوله أن حسن موسى العقاد وعبدالله نديم لم يشتركا في أحداث الشف . فانه قد ذهب الى الاسكندرية لالقاء خطبه أما العقاد فقد ذهب في مسألة مالية .

رأي الشيخ محمد عبد الله

في الثورة العراقية

(في ٢٠ مارمر سنة ١٩٠٣ قدم لي المفتي الملحوظات التالية عن الثورة العراقية . وافرد سطاون بلفت)

في أواخر أيام اسماعيل ساول البعض ادخل الماسونية الى مصر . وكانت جميع المحافل المصرية منصلة بالمحافل الاوردية وقد انضم الشيخ جمال الدين الى أحد هذه المحافل ولسكنه لم يجد لها قيمة فخرج منها ، وكان اسماعيل باشا قد أخذ يشجع الحركة بنية الاستفادة منها وذلك عد ما وقع في ازماته . ولكن الماسونية لم تبلغ يوماً ما مركزاً قوياً في مصر

ومن المؤكد أن الشيخ عبيد قتل في التل الكبير ، فقد سمعنا اشاعات تقول انه حي بررق في سوريا . ولما كنا في المنى في بيروت كنا نرسل الى داخل البلاد لسؤال عنه ولكنهم كانوا يرجعون ويقولون ان رواية وجوه كاذبة

وكان محمود سامي دستوريا من عهد اسماعيل . وكان صديق شريف وكان كلاهما يشدان آلا سياسية واحدة ومن الأرجح انه انذر عراقي بازماع القبض عليه لانه كان في ذلك الوقت عضواً بمجلس الوزراء . ولا بد أنه كان يعرف هذه النية أما بعد مسألة قصر النيل فانه كان مع عراقي والضباط قلباً وقالباً وكان هذا هو السبب في أن رياضا نخلص منه وعين داود باشا مكانه

وكان رياضا لا يقدر أهمية عمل عراقي ولكنه بعد ذلك صار ينجشاه . فابتدأ باحتقار الحركة والتقليل من شأنها لان هذه كانت عادته إذ كان لا يعتقد أن للملاحين شأماً يذكر في السياسة

واستقال شريف باشا في فبراير سنة ١٩٨٢ لانه تشاجر مع عرابي بل لانه كان يخشى تدخل أوروبا . وكان يعارض مجلس النواب في طلب مناقشة الميزانية واستقال لهذا السبب وكان راغب باشا من أصل يوناني ولكنه كان مسلماً . وكان رئيساً للوزارة في عهد اسماعيل ولكنه كان دستورياً وقد عين بعد اللامعة (البلاغ الاخير الذي اوسله القناصل للحكومة) رئيساً للوزراء . وكان عرابي وزيراً للحريتين هذه الوزارة . وكانت علاقته بعرابي شريفة وقد بقي مع الحزب الوطني مدة الحرب ويقول بتران اول عريضة قدمت كان تاريخها ٢٠ مايو سنة ١٨٨٠ والراجع

ان هذا التاريخ صحيح

وكان ابراهيم الاعاني من أقدر تلاميذ جمال الدين وأفضلهم في الارهر وهو لا يزال الآن حياً وهو موظف في المحكمة :

لما انعقد مجلس النظار لكي ينظر في عريضة عرابي التي طلب فيها عزل وزير الحربية عثمان رفقي ارتأى الخديو هو وعثمان رفقي أن يقبض على عرابي وينفي الي البحر الايض ولكن رياضاً طلب القيام بتحقيق أولاً . وبعد ارفض المجلس قابل طه باشا رياضاً وأجبره بأنه اذا اصطنع الرفق مع عرابي فان الخديو يظن أنه (أي رياض) قد انضم الى الجيود ضد الخديو طمعاً في الخديوية لنفسه فلما سمع رياض ذلك سككت عن المعارضة . وقد أجبرني بهذا بعد ذلك محمود سامي وكان وزيراً في وزارة رياض وكان ابراهيم افندي الوكيل وحسن الشريبي واحمد محمود زعماء الاحرار في مجلس النواب .

آراء أخرى

للشيخ محمد عبده عن الثورة المراتية

(في ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٠٣ قدم لي الشيخ محمد عبده الملحوظات التالية) :
 ما نفي الشيخ جمال الدين بعد عزل شريف بيضة أيام سنة ١٨٧٩ أمرت بان أروح
 القاهرة وكنت استاذاً في مدرسة للمعلمين وطلب الى أن أذهب الى قريتي . وكان
 حلي في المدرسة الشيخ حسن وكان أعني . فسئمت وعودي في قريتي وارتدت الذهاب
 الى الاسكندرية وكان البوليس يراقبني . فذهبت خفية الى طنطا وأخذت أجول
 فيها مدة طويلة . ثم رجعت الى القاهرة أملاً في أن أقابل محمود سامي وكان صديقي
 وكان في ذلك الوقت وزيراً للأوقاف . ولكنه كان غائباً . فذهبت الى علي باشا
 سارك وكان صديقي ايضاً وكان وزيراً للأشغال ولكنه قابلي أسوأ مقابلة ونصح
 لي في ذلك الوقت بأن لا أمكث في القاهرة ثلاثاً ، الطن في وأتهم بالاشترار مع
 مصبة التي تألفت من شاهين باشا وعمر لطفي وغيرها من حزب اسماعيل ضد رياض
 فذهبت ثانياً الى قريتي .

ولكنني تولاني السأم ناية لان القرويين كانوا لا يفتأون ينشاجرون فعزمت
 على أن أرجع الى الازهر لكي أدرس فيه . وكان رياض لا يجد أحداً يجيد الكتابة
 بالعربية لتحرير الجريدة الرسمية فاستشار محمود سامي فأخبره بأنه لو كن في مصر
 ثلاثة مثلي لنجت البلاد وكذلك قال بهذا الرأي الشيخ حسن الذي عين خلفاً لي
 بمدرسة المعلمين .

وعلى ذلك عينت في آخر رمضان (أكتوبر سنة ١٨٨٠) محرراً ثالثاً للجريدة
 الرسمية ولكن المحررين الذين كانوا هناك أحسا الغيرة مني فلم يتركوا لي شيئاً أكتبه
 وعلى هذا لم يتحسن تحرير الجريدة . فاستاء رياض من ذلك وأجرى تحقيقاً كانت
 نتيجته أني عينت رئيس التحرير ثم رقيت بعد ذلك الى رئيس المطبوعات . وكان
 هذا قبل نهاية سنة ١٨٨٠

وكانت أول مرة لقيتك فيها عندما زرتك مع روجر في فندق النيل وقد أرسلت لك محمد خليل . وهو الذي جاء بك بعد ذلك لزيارتي في منزلي . وكنت أنشد الحكومة بشدة في الجريدة الرسمية وكنت لا أضيق على الحرائد باعتياري وليس قلم المطبوعات . ولكن لم تكن الثورة من رأيي وكنت قائماً بالحصول على الدستور في ظرف خمس سنوات فلم أوافق على عزل رياض في سبتمبر سنة ١٨٨١ . وقبل مظاهرة عابدين بمشرة أيام التفتت بعراي في دار طلبه عصمت . وكان قد جاء مع عراي لطيف بك سليم وكان هناك عدد كبير من الزائرين . فنصحت لعراي بالاعتدال وقالت له : « اني أرى أن بلاداً أجنبية ستحتل بلادنا وان لمة الله ستقع على رأس من يكون السبب في ذلك » فأجابني عراي أنه يرجو أن لا تقع هذه اللمة عليه وأن سلطان باشا وعده بأنه سيحصر له عرائض لطلب الدستور ممضاة من جميع الاعيان . ولكن هذا صحيحاً . فان جميع العدد كانوا مستائين من رياض لأنه منعهم من نسخير العمال وقطع هذه العادة . ولم ينضم سليمان أباطه الى الثورة لأنه كان يعتمدانه لم يشأ أو انها بعد وكان الشرعي باشا ضد الثورة أيضاً .

ولكن لما منح الدستور انضمنا جميعاً الى الثورة لكي نحقق الدستور . ولكن عراي لم يتمكن من ضبط الجيش وكانت عند الصباط مطامع عديدة . ولم أكن أعلم شيئاً عن مظاهرة عابدين ولم أخبر عنها قبلاً لاعتقاد أني من حزب رياض . ولكن المظاهرة دبرت برأى سلطان باشا وشریف باشا وكانت آراء الحديو كثيرة التقلب من جهة عراي . وقد انضم الى رياض والى داود باشا في محاولتهما سحق عراي . ولكن المتظاهرين أخبروا الحديو عن المظاهرة قبل حدوثها يوم وافق عليها لأنه كان يرغب في عزل رياض .

حديث مع عرابي

في الشيخ عبيد في ٢ يناير سنة ١٩٠٤

سألتني عن تاريخ أول اتصال الحديو توفيق بنا نحن الجنود . فأقول أنه قبل حادثة قصر النيل أرسل إلينا الحديو على فهمي لخبره بما فعل ولكن على فهمي كان صديقنا وانضم إلينا في المريضة التي رفضناها إلى رياض باشا وقبض عليه أيضاً معنا ولما رأى الحديو مكانتنا في عين الجمهور بعد حادثة قصر النيل أراد أن يستفيد بنفسه في مناوأة رياض فأرسل إلينا على فهمي بهذه الرسالة : « أنتم ثلاثة حنود وأنا راسكم » ولكن هذا بعد شهر من حادثة قصر النيل . وقد علمنا أيضاً من محمود سامي الذي كنت وزيراً أننا لما حطوة الحديو . وقال لنا محمود سامي في ذلك الوقت : « اذا رأيتموني عزلت من الوزارة فاعلموا أن الحديو قد تغير نحوكم وانه يريد بكم شراً »

وكان في سنة ١٨٨١ عند بدء القلاقل في العريف ثنى بمحمود سامي وكان رياض باشا وزيراً للداخلية يث علينا العيون ويحمل البوليس براقتنا .

وكن الاستياء مني عظيماً لأنني رفضت ان اسمح سفر جنودى لكي يجمعوا قناة التوفيقية بأمر على باشا مبلوك وزير الاشغال . فتغير الحديو لهذا السبب ولا سباب أخرى علينا وعزم مع رياض على ان يصلا لشق الاتحاد الموجود في الجيش وذلك بقشيت الفرق في أماكن بعيدة يحول بعدها دون اتصال الضباط فطلب الحديو وكان في ذلك الوقت في الاسكندرية من محمود سامي وزير الحرية أن ينفذ هذه الخطة فلما رفض محمود سامي تنفيذ هذه الخطة كتب إلي رياض يقول . « قد قتل الحديو استنائكتم » ثم أشر كلهم إلى الحديو ورياض على محمود سامي أن يبرح القاهرة ويسافر إلى قريته قريبا من طنطا وان يلزمها ولا يعود إلى القاهرة أو يكتب الضباط . ولكنه حضر إلى القاهرة ونزل في منزله فذهبنا لزيارته فرفض ان يقابلنا . فعلمنا انه يراد بنا شر . وعين الحديو بدلا عنه داود باشا يكن فاشتد غيظنا من ذلك وايضا أنهم سيعاولون اهلاكنا

وفي اوائل سبتمبر عاد الحديو ووزراؤه الى القاهرة وعقدوا نيهم على أن ينهوا منا فاستشرت عد المال وعبد الغفار قائد الحيلة في الجزيرة وفوده بك حسن التناقص في القلعة وكان المير الاى في القلعة قد عزله محمود سامي قبل استقالته ولم يعين مكانه أحد . وكان الامير الاى من جنسنا ولكنه كان خائفاً فاتفقنا على ان قوم عطاهرة نطلب فيها عزل الوزارة وتعيين وزارة وطنية وعقد مجلس النواب وزيجة الجيش الى ١٨٠٠٠ رجل ولسكتنا لم نجبر على فهي عن اتفاننا هذا لاننا لم تكن نتق به في ذلك الوقت كل الثقة . وفي صبيحة اليوم التالي كتبت طلباتنا وبشئنا الى الحديو في قصر الاسماعيلية واخبرته باننا سنسير الى ميدان عابدين في العصر لكي نتسلم حوايه . وسب ذهابنا الى عابدين بدلا من قصر الاسماعيلية هو ان قصر عابدين هو مقامه الرسمي ولم تكن لنا ايضا رغبة في ازعاج سيدات القصر ، ولكنه لو لم يحصر الى عابدين لسكتنا ذهينا اليه في قصر الاسماعيلية .

فلما تسلم الحديو عريضتنا أرسل الى رياض وخيري باشا وستون باشا فذهبوا الى ثكنة عابدين لمخاطب رياض والحديو الجنود وأمر ا على فهي بأن يحتل هو وحنوده قصر عابدين . فأطاع على فهي ووضع جنوده في الغرف العليا حتى يستطيعوا أن يضربونا بالدار من التوافد ، ولكنني لا أدري هل كانوا قد اعطوا خراطيش أم لا ؟ ثم ذهب الحديو ووزراؤه الى القلعة وخاطبوا الجنود بمثل ما خاطبوا به في عابدين وطلب الحديو من فوده بك أن يتنقض علينا ويمنه قائلا له : « سألتك في السجن » . ولكن الجنود تكلموا حول مركبة تخاف الحديو وأمر السائق أن يسير به الى العاصية وذلك باشارة رياض لكي يخاطبني أنا أيضا . ولكنني كنت حينئذ أعوذ جنودى وذهبت الى عابدين عن طريق الحسينية . فسلوا عن المدافع فقبل لهم أننا أخذناها الى عابدين . فلما وصل الحديو وجدنا قد احتلنا الميدان ووجد الحيلة والمدافع تواجه الباب الغربى

وكننت عند وصولي الى ميدان عابدين قد علت بوجود على فهي في القصر فبعثت اليه بكلمة فترك القصر وجاء الى الميدان وانضم الينا ودخل الحديو الى القصر من الباب الشرقي ولكنه لم يشب عما طويلا فانه جاء اليا ومعه حرسه وقواده ولكنني

« أر كوفن بينهم وربما كان مع ذلك هالك، فطلب مني الحديو أن أنزل عن حوادي
نزلت . فطلب مني أيضاً أن أعقد سيفي . فأعده . وها أقربت من الضباط لانهم
كانوا يخشون الحياة والقتل . ووقف بعضهم أى نحو خمسين منهم بين الحديو وبين
قصر . أما رياض فانه لم يخرج من القصر الى الميدان بل بقي فيه

فلما أفضيت الى الحديو بجملة مطالبنا الثلاثة قال لي

« أنا حديو البلاد وأعمل زى ما أنا عاوز »

فأجبت « ونحن لسنا عبيداً ولن نورت بعد اليوم » فلم يقل شيئاً آخر ولكنه
رجع الى القصر . ثم ارسلوا فى الحال كو كسون مع مترجمه فسألني لماذا اطلب وجود
برلمان مع أي جندي . فقلت له اننا نطلب ذلك لكي نقضى على الاستبداد وأشرت
الى سائر الوطنيين الواقفين وراء الحنود . فأخذ يهددني وقال لي : سنطلب هنا
حيثاً أنجليزياً » وطال الجدال بيننا وكان يروح ويقف ويقتربنا وبين القصر وفعل ذلك
نحو أربع مرات ثم أخبرني في النهاية بأن الحديو قبل كل شيء . وقال ان الحديو
يرغب في تعيين حيدر باشا بدلا من رياض . فلم أوافق على ذلك . فلما سألني
إلى أن أذكر اسم رئيس الوزراء الذى أرغب في تعيينه ذكرت شريف باشا
وذلك لانه كان لا يعارض في وجود مجلس نواب وكنت أعرفه قبل ذلك معرفة
قليلة في زمن سعيد باشا عند ما كان في الجيش . وفى المساء أرسل لي الحديو وهدبت
اليه في قصر الاسماعيلية . وشكرت لمواقفته على مطالبنا فقال :

« كفي . كفي . أذهب الآن واجل عن عابدين ولكن بدون موسيتي في الاشوارع »

وذلك حتى لا يظن أحد اننا نفعل هذا لسرورنا

ولما حضر الى القاهرة على باشا نظامي واحد باشا راتب من قبل السلطان
خاف الحديو لئلا يفتح تحقيق . وكان محمود سامي وزيراً للحرية فأمرنا بأن نهرج
القاهرة فنذهب أنا الى رأس الوادى وذهب عبد المال الى دمياط وبقي على فني
في القاهرة . فلم أر على نظامي . ولكن كنت قد ذهبت الى الزقازيق لزيارة
صديقي احمد افندي الشمسي وسليمان باشا أناظه . ثم بعد انتهاء الزيارة ألقى القطار
الى رأس الوادى . وكان احمد باشا راتب في نفس القطار وكان مسافراً

الى السويس . فوحدت نفسي في مركبة واحدة معه فتبادلنا التحيات وتعرف كل منا بالآخر فاجبرني أنه يريد الحج وأشياء أخرى ولكنه لم يجبرني عن المهمة التي حا. الى الخديو من أجلها وأنا أيضاً لم أسأله . ولكنني أخبرته بأنني على ولا. لاسلطان وقصصت عليه جميع ما حدث . فقال لي . « لقد احسنتم »

وتركته في رأس الوادي . وبعد ذلك أرسل لي نسخة من المصحف الشريف من جدة وبعد ذلك لما عاد الى الاستانة نسلت خطاباً أملاء السلطان على الشيخ محمد ظافر يجبرني فيه السلطان بأشياء أعرفها

أما يعقوب سامي فهو من أصل أغريق من الاستانة . وقد ذهب بأمرى الى الاسكندرية لفتح تحقيق عن مسألة الهياج ولكنهم لم يسمحوا له بعمل التحقيق . وكان يعقوب سامي هذا هو راغب باشا صاحب الاقتراح بقطع رأس الخديو . وأنت تقول الآن انه كان يحسن بنا أن نفعل ذلك . ولكنني كنت أربح في أن تتم ثورتنا دون أن تراق فيها قطرة دم واحدة .

اضطرابات الاسكندرية

هذه مدكرة تاريخية وضعت في سنة ١٨٨٣ عن اضطرابات الاسكندرية التي حدثت في ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ . وهي موضوعة على أساس الادلة التي قدمت عن سباب الاضطرابات :-

« هذه هي الحقائق التي أسمر عنها البحث في مسألة الاضطرابات :-

١ - علي أمر الخلاف الذي شجر بين الخديو ووزراء . وأعصا . الحزب الوطني في مسألة المؤامرة الشركية (مايو سنة ١٨٨٢) اجتهد الخديو أن يجد قوة يعتمد عليها بدلا من الجيش الذي كان يؤيد الوزراء . فعمل لشراء مساعدة البدو الذين يقطعون اقليم البحيرة بين القاهرة والاسكندرية بواسطة رجل يدعى ابراهيم بك نوبق . وقد اتفق في هذا السبيل عشرين الف جنيه . حصلت قبيلة أولاد علي علي أكثرها . وقد جاء مشايخ هؤلاء العربان الى مصر فاستقبلهم الخديو استقبالا فخما واتفق معهم علي أن يدخلوا جاغفيا آمن رجالهم الى القاهرة بطريق الخيصة على نيسة أن يمدثوا حياجا في المدينة . وذلك أن حزب السراي كان جادا في ذلك الحين في اثبات أن الفوضى ضاربة أطنابها في مصر ولكن غرضه من ذلك أن يقيم الحجة على عدم كفاءة الوزارة الوطنية . وقد فشل هذا المشروع بسبب ضعف البدو الذين خافوا دخول المدينة التي يضلها النيل عن صحرائهم والتي يكثر فيها الجنود . ولكن عمر باشا لطفى محافظ الاسكندرية الشركي استطاع بعد ذلك أن يقنع جماعة من قبيلة أولاد علي بدخول الاسكندرية ، وهي في منقطعهم ، غير مسلحين للعب دور في الاضطرابات أما أسلحتهم فقد حفظها لهم رجال البوليس وسلحوا لهم يوم الاضطراب

٢ - كان عمر لطفى ، رغم شركيته ، يتظاهر حتى أواسط مايو بأنه كأكثر الموظفين موال للمحركة الوطنية مؤد لقائمين بها ولكن ما علم الخديو أن استنتم اليه عمر لطفى هذا بعد الانذار القصلي النهائي الذي قدم في ٢٤ مايو سنة ١٨٨٢ والذي استقالت الوزارة الوطنية أمر تقديمه . فلما وصل إلى القاهرة عرض عليه الخديو يوم ٢٦ مايو منصباً في الوزارة التي كان يسعى الى تشكيلها . ولا شك في أن

عمر لطفي كان يفوز بهذا المنصب لولا عودة عرابي الى السلطة (وهذه نقطة مهمة لأنها تكشف عن سبب اهتمام عمر لطفي بذلك بأسقاط عرابي)

٣ - لما رجع عرابي إلى السلطة باعتباره الرجل الوحيد القادر على حفظ الأمن والنظام وبعد ضمان الأمن الذي أعطاه لقصاصل عاد الحديو الى مشروعه الاول ، مشروع خلق الموضى واخلال النظام ولكن في ميدان جديد غير ميدان القاهرة . وكانوا ينتظرون أن يعمل درويش باشا بسرعة ليحكم بين الحديو ووزرائه فكلن ضروريا أن يجد الحديو مطلقا يتذرع به الى التشهير بالوزراء . ومن ثم أرسل يوم ٣ يونيو الى عمر لطفي تلغرافاً بالشهرة هذا نصه : -

« ضمن عرابي الأمن العام وأعلن عن ذلك في الصحف وحمل نفسه مسئولاً امام القصاصل . فاذا نجح في حفظ الأمن فلا بد من أن تثق به الدول وان يصيح ما بقي لاس اعتبار . أصف الى ذلك ان أساطيل الدول في مياه الاسكندرية والحواطر متجهة عليك الآن أن تختار لنفسك : فاما ان نخدم عرابي في ضمانته للأمن أو أن نخدمنا »

٤ - أرسل الحديو صهره حيدر باشا مرتين خلال الاسبوع التالي الى الاسكندرية وكان يقابه مقالة سرية قل ذهابه وبعد اياه . وكان حيدر باشا في الاسكندرية يوم وقع الاضطراب . فلما انتهى الاضطراب عاد الى الحديو في الخلاء . - شررت حريدة المحروسة (لسان حال شريف باشا التي كان يحررها سلم نقاش السورى الماروني) في الاسبوع الذي سبق الاضطرابات بياانا مكنونا عن اضطرابات حدثت في القاهرة . وكلنا الغرض من ذلك اعداد الاذهان لقبول انباء اضطرابات الاسكندرية وقد وزع هذا البيان في دوائر الاسكندرية الرسمية ووصل التحقيق الي مصدر التوزيع .

٦ - احتشد البدو الذين تقدم ذكرهم خلال هذا الاسبوع في ضواحي الاسكندرية وقد لفت نظر المحافظ عمر لطفي الى احيائهم بلا نتيجة وكذلك لفت نظره بلا نتيجة الى احتشاد الرعاع في الاحياء الافرنجية بلا مبرر وخلافاً للعادة .

٧ - حدث يوم ٩ يونيو (أى قبل الاضطرابات بيومين) انه بعد أن تخبر

الحديو مع درويش باشا مندوب السلطان ان استقدم الحديو عمر لطفي الى القاهرة على قطار خاص وبعد ان فاضله طويلا مفاوضة سرية عاد عمر لطفي الى الاسكندرية في القطار الخاص . وهلك أدلة غير مباشرة على ان درويش باشا والشيخ أسعد حين وصلا الى الاسكندرية تسلم كل منهما هدية من الحديو فأخذ درويش ثلاثين ألف جنيه وأخذ أسعد تسعة آلاف جنيه وهذا المبلغان حصل عليهما الحديو من طريق رهن ممتلكات زوجته الخصوصية .

٨ — في يوم ١٠ يونيو أى في اليوم السابق ليوم الاضطراب حدث اجتماع في منزل درويش باشا بين درويش والشيخ أسعد أحمد رسول السلطان من ناحية وعرابي ومحمود سامي من ناحية أخرى وكان هذا أول اجتماع بين درويش وعرابي . وكانت مقابلة درويش ودية جداً وقد طلب من عرابي أن يتخلى له عن قيادة الجيش باسم المصاحبة العامة وأن يوافق على الذهاب الى الاسكندرية . وقد وافق عرابي على هذين الطالبيين بشروط أهمها ان يحجج درويش باشا كتابة من عهد المحافظة على الامن وما تبعه من المسئوليات . وقد وعد درويش باشا ما جاء هذا الطلب على أن يسلم امرأى الوثيقة المطلوبة يوم الاثنين ١٢ يونيو بدعوى أنه سيمقد اجتماع بين الحديو والتماسل في ذلك اليوم وهكذا مكرت مسألة التخلي لدرويش عن قيادة الجيش الى يوم الاثنين أيضاً .

٩ — حدث في اليوم نفسه وهو اليوم التالي ليوم عودة عمر لطفي الى الاسكندرية أن استدعى هذا قنديل رئيس البوليس ليتفق معه على تدبير اضطراب سبقي ساعتين وقد كان قنديل مربصاً أو مجارفاً ولكنه أتى غير أنه لم يشأ ان يورط نفسه في المسألة فعاد الى منزله ولزم فراشه تاركاً قيادة البوليس لحسن بك صادق . وليس ثمة أدلة على أنه كان في النية عمل شيء غير اضطراب ساعتين اثنتين . والراجح انه لو سلم عرابي بمطالب درويش بلا شرط لكان التدبير قد اتى أو لكن الاضطراب قد وقع في أول لحظة بواسطة الحد الظاهري الذي كان يستخدم حينئذ باسم السلطان وهنا يجب الا ننسى ان البوليس والمستعظمين كانوا تحت قيادة عمر لطفي وهو الذي كان يتقدم مرتبائهم وانه ما دامت لم تكن قد أعلنت حالة حصار فلم يكن في الطاقة

أن يتدخل جنود الجيش في المدينة إلا بناء على أمر مكتوب موقم عليه من المحافظ أما المحافظ فلم يكن مسؤولاً قانونية إلا أمام الخديو لأنه منذ استقلال محمود سامي لم يعين وزير الداخلية .

١٥ - حدث يوم ١١ يونيو يوم الاضطراب بالذات ، ان استأجر مائطي حجاراً (وقبل مركبة في بعض الروايات) وسعدان طاف على محال الشراب في الاحياء الاوروبية وقف عند مشرب « القرار » ثم أخذ ينشاجر مع المكشوي أو السائق وهو مصري مسلم يدعى سيد العجان على الاحرة فلما تبعه هذا الى المشرب طعنه المائطي بسكين فاصى هذا الى تعميم الشاحرة وانساءها ولما طلب الى البوليس ثم الى المستحقين بعد ذلك ان يتدخلوا أبوا أو اهم تدخلوا ليضيقوا ضيقنا على ابالة ثم أطلقت النار من منزل يسكنه مالطيون على اليهود في الشارع ثم جاء جماعة من المسلمين اكرم برابرة مسلحين بالعصي من الحي الوطني في المدينة ودخل البدو الذين تقدم ذكرهم في المدينة أبعاضاً واشتركوا في الشجار وهكذا تحولت الحادثة الى معركة عمومية وقد اهتم القنصل الانجليزي الذي وصلت اليه رسالة من لطفي عمر وضرب . ولم يحضر عمر لطفي في اول الامر الى محل الحادث فلما جاء في نيابة المدينة ولم يفضل قط شيئاً من شأنه ان يقف الهياج لابل انه قد سمع بمحض بعض البدو على الضرب ولم يحضر عمر لطفي حتي العصر السلطات العسكرية ولا هو أرسل الانباء الي عرابي في مصر ولكن تبادلت تفرقات كثيرة بينه وبين الخديو . وقد أمره الخديو في تفراف من هذه بالأستخدام الحد النظامي . ولكن اقترح عليه ان يقف الاضطراب الذي كان قد تحول الى مذبحه مستعيناً بأم آلات الاساطيل الاجنبية الراسية في مياه الاسكندرية . وهكذا لم ترسل رسالة الى سليمان سامي قائد الجنود الا بعد الساعة الرابعة ولم تكن الرسالة التي أرسلت بعد ذلك مكتوبة ، الامر الذي أدى الى تأجيل التداخل العسكري وقتاً آخر . على ان أغرب من هذا كله ان طلب تداخل الجنود على الا يكونوا مسلحين ، وأخيراً أرسل سليمان سامي الجنود مسلحين على مسئوليت في الساعة الخامسة وقع الاضطراب .

١٦ - حدث بعد ظهر يوم الاضطراب ان أقيمت الافراح في قصر الخديو

وفي الديوان نفسه وصرح علناً فيها أن عرابي قد هدم . وهناك أدلة حجة على هذه الافراح التي أقيمت في السراي وعلى ما وقع فيه الوطنيون من الاضطراب والخيرة ولم يدع عرابي الى التدخل في الامر الا حوالي الساعة الخامسة تقريباً

١٢ — لم يتحدث بعد يوم ١١ يونيو تحقيقات جديدة عن أسباب الهياج رغم الحاح عرابي المتتابع في شأنها . وثبت ان الخديوي كان يستعين ببعض القناصل كما انه من المعروف ان بعض الاوروبيين لعب دوراً في المراحل الاولى من الهياج ، وانه حينما تولى راغب رئاسة مجلس الطار وبعد التهام الطاهري بين الخديوي والحزب الوطني ممح بأجراء تحقيقات ولو أن المسألة كانت قد عرفت تماماً .

١٣ — لم يتحدث تحقيق علني ولا محاكمة مع كل من عمر لطفي وحسين بك صادق (الذي كان يتولى قيادة النوليس بالنيابة في يوم الهياج) بل على العكس من ذلك أعطيت أجازة لعمر لطفي من الخديوي عقب الحادث بقليل وكان على وشك مغادرة القطر المصري حينما أطلقت النيران على الاسكندرية . وانه كان بعد ذلك يقابل بالترحاب في السراي ثم منح المنصب الذي كان وعده به في حالة سقوط عرابي وهو مركز نظارة الحرية الذي يتربع فيه الآن ويستمتع بكل ما يحوطه من الأبهة والشرف .

تقرير احمد بك رفعت

الذي كُتب سنة ١٨٨٢ وهو في السجن

عرفت أسباب حادث ١١ يونيو وعرفت المساعي الاخرى التي بذلت لاحداث مثله بفرض اسقاط هية مجلس الطار الوطني وضباطه والحزب نفسه الذي كان يدبر دفة السياسة في ذلك الوقت في أعين الدول الاوروبية .

وحينما نشأ الخلاف بين الخديوي ووزارة محمود سامي (وذلك قبل الانذار) جرت في القاهرة اشاعة فخواها ان الخديوي سيعمل بواسطة بعض أتباعه على اثارة مذبحه في القاهرة — حتى ان محمود سامي (وزير الداخلية حينئذ) وهو بمنزل عمر

بك رحى في ليلة من الليالي وصلت الى مسامع هذه الاشاعة فدعى اليه حكمدار البوليس في الحال وأمره أن يذهب على فوره ويزيد قوة الغفر الليلية وأن يعمل كل ما في جهده لحفظ النظام وخرج الحكمدار في الحال ونفذ الاوامر . وأسشرت الوزارة طول مدة بقائها في الحكم ساهرة على منع تحقق هذه الاشاعة على وجه خاص وحينما رأى الحديوى أن خطته في هذا السيل غير مكللة بالنجاح دعى اليه ابراهيم بك توفيق مدير البحيرة وطلب منه أن يجمع مشايخ البدو ورؤساء القبائل وأن يحصرهم اليه . وحدث ذلك فعلا . وحينما مثل الاعراب بين يديه قابلهم بترحاب عظيم ووعدهم بعود جمة وأهم المدير أن يأمرهم بجمع ثلاثة آلاف رجل من الاعراب وأن يحصروهم الى العاصمة عن طريق الجزيرة — وأمله من ذلك أن الاعراب قوم لائظام عندهم ولذلك فالاضطرابات تنشأ في المدينة بوصولهم ويعكرو صفو السلام وينسب كل ذلك الى الجيش . وكان رأى ان الاعراب تدخل كهراس للحديوى . ومضى شهر ومشايخ الاعراب يروحون ويبحثون دون أن يتمكنوا من جمع هذا العدد الكبير واحضاره الى القاهرة وسبب ذلك خوف هذه القبائل من جنود الجيش

وحيما فشل الحديوى أيضا في هذه الخطة كتب تلغرافات بالشفرة الى عمر لطفى وكان حينئذ حاكما لمدينة الاسكندرية وأخبره بما يأتي « ضمن عرابي الامن العام وأعلن عن ذلك في الصحف وجعل نفسه مسئولا أمام القناصل . فاذا نجح في حفظ الامن فلا بد من أن تضع فيه الدول ثقتها وعندها يضع مالنا من اعتبار . أضف الى ذلك أن أساطيل الدول في مياه الاسكندرية والحواطر منهجة عليك الآن أن نختار لنفسك : أما ان نخدم عرابي في ضمانته للامن وأما أن نخدمنا »

وسرعان ما ذاعت أخبار هذا التلغراف على اللسان وقيل حينئذ أنه من أحد موظفي مكتب التلغراف بالسراى .

وفي يوم الحادث (١١ يونيو) ذهبت الى ديوان السراى أو المنية (كما نسميه نحن مكتب مدير البلاط) ووجدت موظفى السراى في سرور وفرح عظيم لما قد حدث . وكانوا يتحدثون عنه ويبالعون في أخباره ويهزأون بعرابي وبضمانته في حفظ الامن .

و كانت العادة المتبعة منذ الحديوى السابق أن موظفى السراى لا ينتقلون الا ما يرضى مولاهم . وفى كل يوم يتحدثون بما يصل اليهم من الاخبار وكانوا يهشون : يفرحون ان كانت موافقة لهوى الحديوى ويتظاهرون بكل ما يملكون من مظاهر الحزن ان كانت غير ذلك .

وفى اليوم التالى لحادث انتشرت الاخبار فى القاهرة ان الحديوى أرسل تلغرافا لى عمر لطفي يأمره فيه بما يأتي : « اطلب المعونة العسكرية من الاميرال ولا تطلب حودا مصرية . » وأن عمر لطفي أجاب على ذلك بقوله « أن الاميرال غير موافق حشية أن يحدث شيء آخر من الحنود فى المدينة مما يكون من الصعب تلافيه . »

وحينما كنت فى الاسكندرية بعد الحادث باثني عشر يوما سمعت جميع الاهالى يقولون بلسان واحد ان المحافظ (عمر لطفي) هو الذى ترك الحادث يصل الى هذا الحد لانه كان هناك ولم يصدر أى أوامر معها كما انه لم يشرحه الى مكان الحادث لا بعد مرور بضع ساعات . وأنه لم يستدع الحنود النظاميين مع انهم كانوا على مقربة من المكان وقالوا أيضا ان هذا التصرف كان بتخريض الحديوى . وسمعت منهم أيضا انه عند انتهاء المذبحة كان المحافظ (عمر لطفي) ينتقل من مكان الى آخر وان احد الاوروبيين كان مطلعا من نافذة ويده مسدس فقال احد البدو للمحافظ « هل اطلق النار على هذا الرجل يا باشا » . فأجابه « نعم اضربه » . فأطلق الاعراب عليه رصاصة وقتله . وقالوا ان كثيرا من الاموال المسلوقة فى هذا اليوم الاسود دخلت بيته وبيت أقاربه .

وسمعت من الاهالى فى الاسكندرية أيضا ان (عمر لطفي) كان يحرض بعض الناس أثناء المذبحة بكلمات تشجيع وأنه كان يعمل اشارات لرجال البوليس مغزاها ان لا يهتموا بشيء . ويقول « سيوم يموتوا ولاد الكلب » . وقبل الحادث ذهب حيدر باشا مرتين الى الاسكندرية وكان يعود فى كل مرة الى القاهرة وأنه فى يوم الهياج كان موجودا بالاسكندرية وحينا اتعنى عاد الى مصر . ورحل بعد ذلك مع الحديوى فى زيارته للاسكندرية .

وحينما الفت القلم للبحث فى أسباب الهياج لم يوجه أى سؤال الى عمر لطفي .

بل على العكس من ذلك أوعز اليه أن يستقبل بحجة المرض وان يقول انه يريد الذهاب الى أوروبا للاستشفاء. وبعد تنفيذ ذلك استمر منتقلا مابين مصر والاسكندرية الى أن أعلنت الحرب وعدها استقر بالاسكندرية وأصبح (أو عين) ناظراً للحرية. وكان عرابي في أثناء ذلك كله عاملاً جهده للمحافظة على تحقيق ضيائه للامن دائم المرور في طرقات القاهرة أثناء الليل ليتفقد بنفسه البوليس وأرسل أوامره لجميع الأنحاء ان يسهروا على حفظ الامن .

كان عمر باشا لطفي حاكماً لمدينة الاسكندرية أثناء الهياج وكان هو الشخص المسئول قانوناً عن الامن ولكنه أهمله اهمالاً تاماً ان لم يقل انه عمل على زيادة الاضطراب فاذا كان ذلك الاهمال بناء على أوامر عرابي — كما يدعي عمر لطفي مع ان صوته في مركزه كانت مباشرة مع الحديوي من يوم ان أصدر الحديوي مرسوماً يقول انه بعد استقالة سامي من وزارة الداخلية يكون مرجع جميع شئوننا الى السراي — فكيف عين ناظراً للحرية ام هل كان ذلك مكافأة له على اطاعته لاوامر عرابي ولخفافته لاوامر سيده الحديوي ؟ واذا كان الاهمال من عند نفسه وبدون اعزاز فكيف انه مع هذا الاهمال والعجز بعين ناظر آ للحرية ؟ وكيف انه لم يوجه اليه سؤال واحد مع انه اول شخص يجب ان توجه اليه الاسئلة ؟ والحق ان يجري الحوادث ينبغي في بيان واصح على ان الحديوي بالانضمام الى عمر لطفي هما سبب هذا الهياج ؟

وقد لعب الحديوي دور الدسائس نفسه في السودان واعتاد ان يكتب الى الحاكماً هناك ان لا يأبه بتقديم المهدي رغبة منه في زيادة الاضطراب . وكانت التلغرافات التي ترسل الى السراي من حاكماً السودان غير هذه التي ترسل الى ديوان الحكومة . وفي اليوم الذي أرسلت فيه الاخبار الى ديوان الحكومة بان المهدي قتل احتشدت السراي ان تنفي هذا الخبر وكان الحديوي يتضرع من أي انسان يمنح في حديثه الى الهدوء ونشر السلام

وحينما كان الحديوي في سراي الرمل بالاسكندرية أثناء الحرب كان الاعراب الذين قدموا أنفسهم اليه لاثارة القلاقل متجمعين حول القصر . وهم الذين نهوا وحرقوا الاسكندرية وارجعوا المهاجرين من أهالي البحيرة وسلبوا أمتعتهم واحترقوا

على هذه الحال الى ان عزل المدير الذي كان بشخصهم وعوقب كثير منهم حتى امتنعوا خوفا من الجنود الذين وصلوا الى المدينة واحتلوها
هذا ما أعرفه عن الحادث ولو كنت خارج السجن لاثبتته بشهود لا يمكن دحضهم بحال من الاحوال .

تقرير الشيخ محمد عبيد

الذي كتبه وهو في منفاه بسوريا عام ١٨٨٣

قبل حادث ١١ يونيو مايا م قلائل أعلنت حرية المروسة (وهي جريدة تعبر عن رأي عمر لطفي) ان الاوروبيين في الاسكندرية يعملون استعدادات حرية . ولم تعلن ذلك لاهالي الاسكندرية فحسب بل للقطر المصري بأجمعه وعينت في الوقت نفسه عدد الذين يسلمون أنفسهم .

وقد دفعت غرامة الخبر - اذ لم يكن هناك أى داع لهذه الاستعدادات - بعض الايمان الى سؤال أحد محرري الجريدة عن الامر - فقال انه أمر بنشره ولكنه لم يبع باسم الشخص الذي أرسله اليه .

وقد ذهب يعقوب سامي (وكيل نطارة الحرية) الى الاسكندرية قبل الهياج بمدة خمسة أيام ليستقبل درويش باشا . وحينما وصل الى هناك سمع ان تلغرافا من القاهرة يقول ان الخديوى ذبح وحينما بادر الى السؤال بالتلغراف من القاهرة عن حقيقة الامر أباهوه ان الخديوى قتل حقيقة وان العاصمة في هياج والمذابح قائمة ضد الاوروبيين . فأرسل تلغرافا ثانيا وهو في حالة شديدة من اليأس والذهول الى مكتب قصر النيل فاستلم رداً ماقصداً للاخبار التي سبق له سماعها وتبين فيما بعد ان هذا الخبر المكذوب أرسل من مكتب الازبكية بالقاهرة وقصد به إثارة الخواطر بالاسكندرية ولكن وجود يعقوب سامي هناك حينئذ أخر الهياج الى زمن آخر .

وقبل الاضطراب الحقيقي بيضة أيام شوهدت حركة غير معتادة بين الاوروبيين في الحى المجاور للميدان الاكبر (ميدان الناصل) وقد وجه احمد افندي نبيه رئيس

بوليس الناحية انظار الضبطية والمحافظة اليها بدون أى جدوى . وكذلك قدم طاهر افندى الكردلى من ضباط البوليس تقريراً عن معلوماته الخاصة عن هذه الحركة ولكن عمر لطفى لم يتخذ أى احتياطات .

بل ان عمر لطفى نفسه كان من أهم الشخصيات الظاهرة التي اعتادت حينئذ على عمل الولايم لرجال الحرية حيث كان يدعى الخطباء الى منزله وهناك كانوا يحضون على اعتناق مبادئ رجال الجيش . فهو الذى من لغيره الخطة وتبعه كثيرون من ذوي الجاه والنفوذ في عقد مثل هذه المجتمعات وكان هو أهم من يدعي اليها . وكانت هذه المجتمعات تطرق بالخطباء والمصحفين والاجانب وغيرهم . وكانت تلقى الخطب على مسمعيه دون ان يظهر أقل إشارة تدل على رغبته في منها . وأول شيء سمعته في سبيل هذا المنع كان تصريحه الذى نشر بعد ذلك .

ولكن سعادة المحافظ عاد أخيراً وادعى ان الهياج تسبب عن خطابات نديم مع ان خطابات نديم في ذلك الوقت كانت تعتبر من المسكنات لانها كانت تدعو الناس الى عدم الاشتباك في مشاجرة حتى ولو أسيت معاملتهم أو ضربوا بواسطة أوباش الاوروبيين منهاً ايام ان تلك هي الغاية التي كان يرمي اليها الخصوم لاصطلاح الانجليز حجة بتسكنون بواسطتها من اطلاق النار على الاسكندرية . وهناك كثير من الاعيان يشهدون بذلك والحقيقة أيضاً ان نديم لم يكن في الاسكندرية عند حدوث الهياج بل كان في القاهرة .

بدأ الهياج عند الساعة الواحدة بعد الظهر في شارع ابراهيم على مقربة من مركز البوليس بين وطنى اسمه العجبان وآخر من الجنسية المالطية ضرب الاول والقاء الى الارض مدرجا في دمائه . وحينما أراد شقيقه ان يستعين ببوليس ايطالى لقبض على المعتدى لم يكن من هذا أيضاً الا ان ضربه واساء اليه وعندها قابل هذا الشقيق أعمال البوليس الايطالى بالمثل . وتجمع الناس وأصيب أحد رجال البوليس بضربة من شقيق المعتدى عليه . وكان رجال البوليس من القلة بحيث لم يتمكنوا من تفريق المتجمهرين ولكن لم تكن الى هذا الوقت قد وجدت مشاغبات بمعنى الكلمة الى أن أطلقت أعيرة نارية من النواقد بواسطة فريق من الاوروبيين .

وقد هاجم نفر من الاوروبيين المسلحين بعض أوياش الاسكندرية الذين قابلوا ذلك بمجمع كل ما وقعت عليه أيديهم من عصي ومظلات وكراس من الخوانيت وقوائم الطاولات وغير ذلك ولكن سعادة المحافظ لم يخف الى مكان الحادث الا بعد ساعتين ونصف من ابتدائه . وعندها أرسل القنصل الانكليزي المستر ككسون لكي يلحقه الى هناك بدون داع نعرفه لهذه الدعوة . وما كان من القنصل الا أن حضر وأخذ يشق صفوف الجماهير المحتشدة معرضا حياته للخطر .

ولم يادر عمر لطفي حينئذ الى دعوة هذا الفريق من البوليس الذي كان تاهاً للضبطية وخاضعاً لأوامره الخاصة . ولم يكن له علاقة ما بنظارة الحرية اذ كانت مرتبته وأنظمتها كلها في أيدي الادارة دون سواها . وحينما اضطر أخيراً الى دعونه (البوليس) طلب اليهم ان يحضروا غير مسلحين مما أدى الى اقتناءهم من المحافظ يرغب في زيادة الاضطراب . ولذلك حضروا الى مكان الحادث بهذه الروح وعلى هذه العقيدة واشتركوا مع الرعاع في القتل والنهب وكانوا يرسلون ما تطفربه أيديهم الى بيت سعادة المحافظ .

وحينما رأى المحافظ ان الحالة أصبحت من الخطورة بحيث أن مسؤوليته الجنائية محققة أرسل في طلب الاسلحة وأمر أن ترسل في عربة من عربات الحكومة . ولكنها لم توزع على البوليس الذي كان قد نشئت حين وصولها .

ولقد كان معسكر الجنود النظامية على مقربة من الحادث ولكنه ترك أربع ساعات طوال ثم دون أن يهم بدعوتها وحينما أرسل في دعوتها كانت رسالته شفوية غير قانونية تخاف رئيس الفرقة مصطفى عبد الرحيم من التسولية وأرسل يطلب ان يكتب اليه الطلب بالطريق الرسمي المعتاد . وحينما أرسل هذا الطلب خرجت الجند وفرقت الجماهير وأعادت الامن بشهادة جميع قناصل الدول الاجنبية أنفسهم .

وكان يقصد المحافظ من اهمال الانظمة والاصول العسكرية ان يطول الجدل بينه وبين قائد الفرقة وبذلك يساعد نيران الاضطراب ان تمتد وتنتشر . وقد قيل ان سماعته كان يحرض الناس على النهب وحين سئل عن ذلك بواسطة أحد من

وصلتهم الاشاعة قال « نعم فعلت ذلك لكي أحول أنظار الجماهير عن القتل » يا الله
السماوات أنها سياسة رشيدة حقاً !

وفي أثناء الهياج طاف احد خدم المستر ككسون القنصل الانجليزي على
الاوروبيين وحرصهم على التقدم وان يشاربوا على الصال .

وحينما كان المحافظ وقائد القوات العسكرية ووكيل الصبغة جلوسا في ديوان
الحاكم المختلطة بعد المغرب ساعة واحدة وصل اليهم خبر غزاه ان عربية مملوءة
بالاسلحة كانت متجهة الى دار القنصل الانجليزي . وبينما قابل المحافظ هذا الخبر
بدون أى اهتمام قام قائد القوات العسكرية وأوقف العربية وأمرغ ما بها في ديوان
الصبغة .

وحينما تبين لقائد القوات العسكرية الموجودة في « باب شرقي » ان عمر لطفي
نفسه يمرض على الاضطراب ثم بالقبض عليه . ولكنه لم يتمكن من ذلك بما أن
القطر لم يكن تحت الاحكام العرفية حينئذ ولذلك انتظر حضور وكيل نظارة الحرية
يعقوب سامي لكي يقضي اليه بمحقيقة المسألة . ولكن فكرة القبض قد تلاشت حين
وصوله الى الاسكندرية

وحوالى الساعة السابعة مساءً وصلت أخبار الى الاميرالاي مصطفى عبد الرحيم
أن قواربا تسرع الى الشاطي . وعليها جنود بريطانية بقصد ابصالحهم الى البلدة .
وفي الحال أخطر المحافظ الذي استبعد ذلك كل البعد ولكنه لم يقع وتوجه الى
القنصل الفرنسي الذي راقه مع فريق من الضباط وشرذمة من الجند الى شاطئ
البحر . وهناك نأكدوا من صحة الخبر وتوجهوا نواً الى القنصل الانجليزي وبعد
شيء من الجدل صدرت الاوامر الى القوارب بالرجوع ثانية بمن عليها .

ولقد احتج أغلب من قبض عليهم من المتهمين في اليوم التالي للقبض مباشرة
بأن الذنب ليس ذنبهم فقط بما أن سعادة المحافظ نفسه أمرهم بالتهب والاعتداء . ولم
أنه حصل تحقيق في هذه الايام القلائل الاولى لا محصرت الشبهة بناء على أقوال
الاغلبية الساحقة من المتهمين في شخص المحافظ . ولكن الاميرال سيمور -

يسمح بمثل هذا التحقيق لتلاشي السبب الذي اعتمد عليه في اطلاق النيران على الاسكندرية.

ولقد كان عند السيد قنديل أوراق تبين كيف ان الامر نظم بواسطة المحافظ والهندوى ودبر بالاتفاق فيما بينهما ، وحينما قبض عليه أجبر على تسليم هذه الاوراق ومع ذلك لم يوجه أى سؤال الى عمر لطفي بل على النقيض من ذلك رقي الى أعلى مراتب التولية .

وحيثما قامت المذبحة في ططا ذهب ابراهيم باشا آدم مدير الغربية الى بناء الحكومة وجمع بقية الموظفين والكتاب والسكرتيرين وأغلق عليه وعليهم الابواب تاركا الاهلين وما يفعلون وبذلك انتشر الاضطراب وكان لابد أن ينتشر أكثر من ذلك لولا ان أحمد بك المنشاوى وأخاه — ولم يكونا من موظفي الحكومة — أخذوا الاضطرابات وأخذوا ارواح اليهود والمسيحيين والاعنياء من الرعاع ومهاجري الاسكندرية . ومع ذلك لم يسأل هذا المدير أيضاً عن شيء وأعيد الى وظيفته بعد الحرب ... ألا فلي سجل الله عنده في أم الكتاب وزر من كانوا سبباً في اراقة هذه الدماء !

وفضلا عن ذلك فان من بين الاحكام التي أصدرت في هذه الايام حكم صدر من محكمة الاسكندرية العسكرية ضد عبد الرزاق علوان وكيل مديرية البحيرة أثناء الحرب قاضيا بنفيه خمسة عشر عاما الى « مصوع » وذلك لمعاومته ومخريضه الثوار في دمنهور وبعلم الله وكل انسان يعرف كيف أنه عرض حياته للخطر في سبيل خدمة الناس والمحافظة على أموالهم . والسبب الحقيقي في هياج دمنهور هو ابراهيم بك توفيق المدير — الذي رغم فصله من وظيفته في اليوم السابق على الهياج ، عمل على تنفيذ خطته قبل ان يستلم المدير الذي عين بدله أعماله — ومع ذلك أعيد الى منصبه في مديرية البحيرة عقب انتهاء الحرب . وقد أخذ هذا الرجل أيضا ما يقرب من الاثنى عشر ألفا من الجنهيات رشوة من الاهالى . وعلى العموم فما عمله من سيئات كان يستلزم زمنا طويلا لاصلاحه

وانى اعتقد ان الحكومة الانجليزية كانت مستعدة أن تعفو عن أى جريمة ارضا.

للمحتفي بها، الحباب العالي الحديوى . ويظهر ان مهمة « اعادة النظام » التي تتقلدها الآن الحكومة الانجليزية تنحصر في تجسيم مطلع مجوء واثارة رغبته في الانتقام هو ومن حوله . مضحية في سبيل امواتهم جمهور الاهلين البانس . وتمتدق انه من الممكن ابهانتا على لسان الصحف ان اعادة النظام ونشر لواء العدل كان بفضل الحديوى ونظاره والجيش الانجليزى .

ولست هناك أية حاجة لسؤال المصريين عن مبلغ الآلامهم . اذ يكفي في ذلك أن نصت الى تأوهاتهم وأحزانتهم .

تقرير عرابى

حقيقة حوادث ١١ يونيو عام ١٨٨٢ التى وقعت بالاسكندرية

ان حزب السراى المكون من الأتراك والشراكسة عدو للانسانية فهم يعتقدون ان الله القدير لم يخلق المصريين الا ليكونوا عبيد آلهم وخدامهم الذين يتخونهم آله لنشر سلطانهم المطلق تبعا لما توحى اليهم أهواؤهم وهم في كل ذلك يعاملونهم بقسوة واحتقار . وحينما رأوا (الأتراك والشراكسة من حزب السراى) ان مجهودات الحزب المصرى بدأت تؤتى ثمرها وان فريقا نابها من بين هؤلاء الذين كانوا يظنونهم عبيدهم قد خطوا خطوات شاسعة الى الامام وأصبح منهم وزراء يجلسون معهم على قدم المساواة فى مجالسهم المقدسة وان سواهم من ذوى المواهب قد ارتفعوا الى مناصب رفيعة من مناصب الدولة وأن الامة بدأت تستنثر الحرية . وتخلع عن أيديها اغلال الاستعباد وان كل ذلك يحدث فى جو من الهدوء والسكينة — كبر ذلك جدا فى أعين خصوم المصريين وتبين لهم ان لاسبيل الى وضع الرايقيل فى سبيل التقدم المصرى الا بأثارة حملة وحشية ذنينة ضد أوروبا تحملها على اتخاذ تدابير فعالة لاطفاء جذوة المصريين المتعطلين واخراجهم من وطنهم — اذ اتهم يولوجهم هذه الغاية بخلوهم الجولا اعادة عهد الاستعباد فى مصر — ولذلك اتفقوا فيما بينهم (حزب السراى) على تنفيذ هذه الخطة مستخدمين العيان الذى كنت أعطيه

للأوروبيين عن سلامتهم وحفظ الأمن في جميع أنحاء القطر المصري (وهو الضمان الذي جعلني الحديوي أعياه في حضرة درويش باشا مندوب السلطان وجميع قناصل الدول الأوروبية) وأخذوه وسيلة لتنفيذ مؤامرتهم — حتى يتمكنوا بذلك من تشويه حركتنا في نظر الأوروبيين . وأدلة ذلك هي :-

أولاً — أرسل الحديوي الى عمر لطفي محافظ الاسكندرية أن يحضر اليه بقطار خاص في ٩ يونيو عام ١٨٨٢ . حين وصوله دارت بينهما محادثات طويلة زوده فيها بمعلومات خاصة بتنظيم الاضطراب في الاسكندرية وفي اليوم نفسه عاد عمر لطفي وبدأ في تنفيذ الخطط المتفق عليها حتى انه في ١١ يونيو (أى بعد أخذ المعلومات من الحديوي بيومين اثنين فقط) انفجر الاضطراب — ودليل ذلك هم جنود البوليس أنفسهم — الذين ارتكبوا أغلب جرائم القتل أمام باب رئيس البوليس وباب الضبطينة . ولم يقم جنود البوليس بواجبهم على خلاف المعتاد ولم يحضر الجنود الى مكان الحادث الا بعد أن تلقا الخطب وحينما حضروا كانوا كأنظاراً مدون سلاح — وذلك على خلاف ما يقتضي به واجبهم — وفي أثناء كل هذه الحوادث كان المحافظ وقائد الجندمة اسماعيل كامل باشا الشركي يراقباتها من أولها لآخرها ومع ذلك لم يتحركا الى استدعاء الفرق (الجنود النظامية) — لاطفاء الفتنة الا بعد ان وصلت الى ذروتها ونفذت أوامر الحديوي السرية ولو انه كان في استطاعتها أن يستدعيا الفرق في الحال اذا أرادا

ثانياً — لم يعطى عمر لطفي أى معلومات عن هذا الحادث مع انه يعلم انني أخذت تحت مسئولتي وبضمانى حفظ الأمن والسلام في جميع أنحاء القطر وأن بياننا بهذا الشأن أعلن بواسطة الحديوي ونشر في جميع الجرائد العربية والافرنجية .

ثالثاً — أن عمر لطفي بعد أن صنع كل ذلك — اذ هو المحافظ المسئول عن كل ما يحدث في المدينة — عين رئيساً للجنة التحقيق في الحادث المحزن ثم طلب الأذن بالسماح له بالسفر الى الخارج لتبديل الهواء ولم يتأخر الحديوي عن اجابته الى هذا الطلب . وبعد ذلك اعتزل العمل ولكنه بقى في القطر لاعمال خاصة به الى أن قامت الحرب وعندها ذهب الى الحديوي في الاسكندرية عن طريق بور سعيد

وعين حينئذ ناطراً الحرية . وكذلك فعل زميله اسماعيل كامل باشا الذى عين فيما بعد وكيلاً لمظارة الحرية — كل هذه أدلة بيّنة على أن الهياج دبر أو نفذ بواسطة الخديوى بالاشتراك مع عمر لطفي باشا واسماعيل كامل باشا وبقيّة خصوم المصريين وذلك رغبة منهم في إثارة الاوروبيين ضدهم .

تقرير أحمد بك رفعت

المقدم لمسنر بلنت من تونس في عام ١٨٨٣

لا يزال يوجد أساس عندم الحرّة الكافية أن يقولوا ويكتبوا أن الحزب الوطني المصري ورئيسه مسئولون عن حوادث ١١ يونيو المشنومة بل أن بعض الكتاب لا يتردد في ذكر أسماء ممينة وزعم أن أصحابها هم المحرضون على ما حدث في اليوم المشنوم وذلك رغم ما أظهرته التحقيقات الأخيرة . وذهب بعضهم وهو يحاول أن يشرح الحوادث ويحراها أن يعين الغرض الحقيقي من الهياج فكان في شرحه متناقضا حيث يقول « رغبة في القاء اللوم في بحيلة الباشا التركي (درويش باشا) من ناحية ومن ناحية أخرى في التعظيم من مركز عرابي الممتاز الذي اعتبره القاصد مسئولاً عن الأمن العام عند الثوار الى تدبير اضطراب بدون تحديد لطيفه أو شكله يخمد عرابي بعد ذلك بمجرد دفع يده » .

ونصفني سكرتيراً عاماً للحكومة المصرية في عهد عرابي ولائمي بأحوال بلادي وأحوال رجالنا أراى مضطراً لخدمة للحقيقة والوطن أن أبسط هنا المعلومات والشواهد التي تدحض هذه الاباطيل دحضاً نهائياً . واني أعطيك هذه المعلومات التفصيلية بسرور عظيم لعلي باهنيامك الدائم بمصير هؤلاء المصريين الذين كلن ذنبهم أنهم أحبوا بلادهم ودافعوا عنها . كما أتى لم أخف أن أقدم هذه المعلومات اليكم كنت سعيداً مع عرابي ورأيت بعيني رأسى رجالا يسدون بها مفخرة أن يسبوا هذا الرجل الذي كان دماً للمستقبل بلاده والذي لا يزال في صدقه وحرية ضميره كذلك الى الآن .

في يوم الاحد ١١ يونيو كان القومسير النماني درويش باشا ممنطياً عربته في الشارع المؤدى من سراي الخزيرة الى كوبرى قصر النيل . وكان حينئذ قد عقد اجتماعاً طويلاً في قصره الخاص مع عرابي باشا وجميع الظار السابقين ومتوحداً بعده الى سراي الاسماعيلية حيث يقم الخديوى لكي يعرض على مسامحة تفاصيل ائتلاف اتفق عليه والذي الى حد قولهم كان يوفق بين الخديو الصغير الجاهل وبين نظاره . وحينما وصل درويش باشا الى الكوبرى قابله طلعت باشا سكرتير الخديوى الخاص الذي كان مرسل اليه من قبل سيده ليخبره عن حدوث هياج في الاسكندرية وانه لا يزال مستراً منذ ثلاث ساعات وان الادويين والمسيحيين يذبحون في كل مكان . وكانت تلقى هذه الاخبار لدرويش باشا في هيئة الانتصار اذ ان وجعلت باشا كان مشرفاً يأتق . وكأنما أراد أن يقول بذلك ان عرابي الذي عمل من أجله كل ما عمل هو سبب هذا الهياج . والحقيقة ان عرابي كان قد تعهد في محضر من جميع القناصل أن يحافظ على الامن العام وان يسيده اذا ما اضطرب أقل اضطراب . والآن هاجم الحوادث تكذبه والمذابح دائرة منذ ثلاث ساعات وهو عاجز عن ان يفعل شيئاً لاعادة النظام . ولم يكن هناك شيء . أسعد ولا أسر لانصار الخديوى من ذلك . وكلت جل أملهم أن يسحق عرابي باشا ولو سحق في سبيله السلم المسمى نفسه . وما كان من درويش باشا حينئذ الا ان ارسل رئيس أركان حربه الذي كان معه في العربة الى عرابي . واذا كنت حاضراً في هذه المظلة فقد أفسحت مكاناً لرسول درويش باشا في عربتي وأخذته الى منزل محمود باشا سامى حيث كان يوجد عرابي حينئذ .

ولم نلبث الاخبار ان انتشرت في المدينة ففرع الناس وأسقط في يد عرابي وأصحابه . بينما كانت سراي الخديوى في افراح . وكان محافظ الاسكندرية يجيب رسل عرابي بأن الجيش قبض على ناصية الموقف وأعاد الامن الى نصابه وفي الوقت نفسه كانت الاشاعات المدهشة تنتشر بين الناس في الطرقات . . . فالبعض يقول وكأنما هو يصل في ذلك بناء على تعليمات خاصة ان عرابي أصدر أوامره باقامة المذبحة دون ان يعطي ايضاحات أخرى . ويقول آخرون بلهجة الرجل الاكثر اطلاعا ان

الحركة دبرت بواسطة رئيس النظار السابق محمود باشا حاملي الذي يتولى قيادتها ولكن المتنورين رأوا في المسألة مؤامرة خطيرة ولو أنهم لم يبدوا رأيا حاميا في الموضوع، اذ أنهم لم يعتقدوا ولم يتصوروا ان عرابي له علاقة بهذا الحادث لا مباشرة ولا بالواسطة .

ففي ٢٨ مايو اى قبل الحادث بأربعة عشر يوما أعلن عرابي الدول انه يتعمل تحت مسئولية الشخصية استتباب الامن والنظام . وكذلك أدرك عرابي واعلن ذلك مراراً في صراحة تامة ان سلامة مصر تتوقف علي استتباب النظام فيها . وكان يمارض دائماً في انزال الخديوي من على العرش بحجة انه حامى الخديوي من مثل هذه الطوارئ . . وقد أراد بهاتين الظاهرتين أن يطمئن القناصل على حياتهم وأنفسهم وأن يهدى . خواطر الجماهير . فكيف يتأني لهذا الرجل نفسه في لحظة هو أدرى الناس بخطورتها أن يسفه مبادئه ويعمل على قض ما وعد به ويظهر عجزه يديه ؟ ولو أن عرابي حقيقة كان يملك أن يوقف الهياج باشارة من يده كما يقول الكاتب سالف الذكر لكان لنا أن نقول كما يقول هذا الكاتب ان عرابي أراد ان يتظاهر بقوته ولكن ما الحكم اذا كان الخديوي لم يكلف نفسه حتى ابلاغ ناظر حرية بما حدث ولم يعلم عرابي باشا عن الحادث الا من طريق درويش باشا وكان ذلك بعد ابتداء الهياج بثلاث ساعات . فمن الطبيعي اذاً أنه لم يوقف ولم يتمكن أن يوقف الهياج باشارة من يده .

ولكن هناك حقيقة لاشك فيها وهي أن الحادث كانت له مقدمات تفي عنه وكان يدبر وينظم بمهارة تفوق الوصف . قد ثبت أن بعض المتنورين السريين قاموا بتوزيع نايبت على الرعاع قبل حادث ١١ يونيو بيضة أيام فقط . وان هذه « النايبت » ظهرت في أنحاء المدينة المختلفة دفعة واحدة وفي اللحظة التي قتل فيها المكلاى بواسطة المالطي لسبب تافه . وثبت أيضاً أن طائفة المكلايين — وكانت معروفة بالهدوء والسكينة ومحبتها « للقشيش » — لعبت دوراً خطيراً في هذا اليوم المشنوم تحت تأثير هذه الرشوة الصغيرة وأن بعض الأروام والبدو كانوا مسلحين بالمدسات أثناء الهياج ومحتئين في مخالي . يمازل معينة وغرضهم الوحيد

اشغال المذبحة باطلاق النيران خلسة على جماهير الاوروبيين والمصريين وثبت أن بعض المشايخ المتعصبين انطلقوا من مكان لا يعرفه أحد وأخذوا يجرسون الاهالي على ذبح جميع المسيحيين . وأن قوة البوليس التي أرسلها المحافظ في الطاهر لتخمد الفتنة كانت تخر النملس بجراها بدل أن تحميهم وأن بعض المهاجرين البؤساء كانوا يقتلون علناً بواسطة رجال الضبط أمام أعين رئاسة البوليس وسمعها . وثبت أن البدو الذين حضروا الى الاسكندرية من البقاع المجاورة لها كانوا على وشك أن يقوموا بدورهم في النهب لولا أن ظهرت قوى الجيش النظامية وأجبرتهم على التراجع ولو أن ظهورها كان بعد أربع ساعات من قيام الفتنة

ومما هو جدير بالملاحظة هنا أن أم رسل هذه الفطائح والجرائم كانوا من الاروام والمالطين الذين لا يمكن اتهامهم بحال من الاحوال بالتعصب للاسلام ضد الاوروبيين وكذلك المكاريين الذين يتكلمون قليلا من اللغة الانجليزية والفرنسية ولا يظن أنهم يحملون بضاً او كراهية للاوروبيين وكذلك البدو الاعراب من أهالي البحيرة الذين قتلت عنهم شركة ووتر التلغرافية قبل المذبحة بقليل أنهم قدموا اقارهم بالولاء والطاعة لاعتاب الجناب الحديوي في مظاهر فضحة خلانة

ومن جهة أخرى فإن محافظ الاسكندرية يفسر توابه في ارسال الجيش الطامى لاختاد الفتنة بخوفه من انضمام الجند الى الثوار . ولكن معادته لم يفسر لنا ولم يسأل بتاتا كيف أن خوفه هذا الذي استشعره عند بدء الهياج قد تلاشى حينما اشتدت المذبحة ووصلت الى ذروتها .

ولكن الحقيقة في كل ذلك والتي كان علل التلغراف المتصلون بالسراى على استعداد الى بسطها هو أن مراسلات عدة كانت تتبادل بين محافظ الاسكندرية والحديوي عقب اندلاع الفتنة مباشرة وكانت كلها تدور حول ارسال فرق من الاسطول الانجليزى أو الفرنسى للتدخل في الامر . ولقد كان الحديوي الصغير لمدة من الزمن ينتظر بضاغ الصبر نزول القوى الاحبية الى أرضه التي كانت مرسلة لتثبيت سلالته وأن يراها في القاهرة نفسها وتقبض على عرابي وجميع الوطنيين ثم تعود ثانية الى بوارحها وهي تشد تشيد المجده لجنابه العالي . ولقد كان حدد

باشا ابن عم الخديوي في الاسكندرية في يوم الهياج وساعد كما قبل على ذبح المسيحيين
البؤساء. وقد كان قبل ذلك يقعد اجتماعات طويلة لمدة أيام متتاليات مع الخديوي
في « الحرم الملك » وكانت دائماً تقعد في المساء . ولم يلجأ المحافظ الى الجيش المصري
ليضع حدا للمذبحة وذلك باتفاقه مع الخديوي الا بعد فشل مفاوضاته مع قواد
البحر الاوروبيين لارسال قوى من قبلهم . وهذه معلومات لها قيمتها عند جميع
هؤلاء الذين يسمح لهم مركزهم أو تسمح لهم معلوماتهم عن السياسيين المصريين
أن يكونوا رأيا صائباً عن حوادث ١١ يونيو .

وهناك مسألة باقية ليست حقيقتها معلومة للجميع . وهي أن محافظ الاسكندرية
في وقت الهياج هو عمر لطفي وعمر لطفي هذا هو الروح الثانية لبراهيم المفتش
صاحب الموارد والايادات الصخمة والمفتش السابق لوجه القبلي الذي اشتهر بأعمال
« كرابج » في الاهالي . وكان تعيين عمر لطفي في عهد وزارة محمود سامي بناء على
إلحاح وتوصيات الخديوي الخارة . اما عرابي باشا فقد كان شعوره الشخصي وما هو
مولع به من الاستقامة ضد هذا التعيين وكان يشعر دائماً بقلق من جرائه . ولكن
رئيس النظار حينئذ كان يثق في كفاءة عمر باشا لطفي الشخصية ويعتقد انه لا يجرؤ
مطلقاً على خيانة الحزب الوطني ولو انه لا ينتمي اليه وفي الوقت نفسه كان يرى في هذا
التعيين ارضاء للخديوي (وذلك قبل وصول القوى الاجنبية) الذي كان دائم
التضجر مستمر الإلحاح في هذا التعيين ويقول أن الاسكندرية في حاجة قصوى الى
محافظ نشط قادر على حفظ الامن بها — وقد تنجح في الحصول على موافقة مجلس
النظار على هذا التعيين . وفي اليوم الثاني للمذبحة حصل عمر لطفي على اجازة غير
محدودة المدى من الخديوي وأعد معداته للإبحار على أول باخرة تقوم من الميناء .
وقد كانت ثلاث لجان بالتتابع للبحث في أسباب الحادث واكتشاف المجرمين
الحقيقيين ولكن لم تنجح واحدة منها في مهمتها ولم يصلوا الى نتيجة ما بل ان لجنة
التحقيق بالاسكندرية حينما عاقبت أخيراً فريقاً من هؤلاء الذين قد صفت أيديهم
بدماء الحوادث كان ذلك لانهم آلات لم تؤت من الذكاء القدر الكافي الذي ينبغيها
من الانهام . مع ان الاشخاص الذين دبروا كل شيء وساروا في تنفيذه لم يرد لهم

ذكر مطلقاً في التحقيقات - لماذا ؟ هذا هو بيت القصيد .

هذه يا سيدى هي الحقائق والعلومات التى يمكننى ان أبسطها لكم ومما كانت الاستنتاجات التى يمكن الحصول عليها مما ذكرته فأنى أعلن انى قد أنفت كذب الاتهامات التى تكلم عن قصد أو عن جهالة ضد الحزب الوطنى المصرى وضد رئيسه . واننى مستعد ان أقسم على صدق هذه البيانات امام أى محكمة بل ومستعد ان أذهب الى لندن نفسها لأتأمرها واعطاء جميع الايضاحات اللازمة .

ملحوظة - كل هذه البيانات التى أعطيت عن الحادث قدمت للورد راندلف تشرشل فى عام ١٨٨٣ وقدمت بواسطته على ما أعلن الى ادارة الشئون الخارجية . وكذلك قدمت اثباتات اضافية أخرى كنت جمعها بنفسى الى المستر جلادستون ليحبها ولكنه أبى ان يقوم بهذه المهمة .

مذكرة مرفوعة للورد راندلف تشرشل

فى عام ١٨٨٣ عن رأى المستر بيان فى الحادث

لشهادة المستر بيان عن منشأ مذبحه ١١ يونيو أهمية كبرى نظراً لظروف التى أحاطت بمركزه فى مصر ولما هو عليه من الخلق العالى فى الوقت نفسه . فن المعلوم أنه كان مترجماً فى دار المندوب البريطانى حين نشوب الفتنة وكان بهذه الصفة فى احتكاك مستمر بالسراى والوطنيين من قبل السير ماليت . وأنه فى شهر يوليو فزمن انطلق العام الذى سبق الحادث تركه السير ماليت وفى عهده السجلات الرسمية وقد استمر فى القاهرة الى ما قبل اطلاق النار على الاسكندرية يومين اثنين فقط وكذلك كان المستر بيان من أول من نزل الى أرض الاسكندرية بعد الحادث واشتغل شهراً مع اللورد شارلز بيرزفورد فى البعثة البوليسية وهو صاحب الفكرة فى معاقبة الذين ارتكبوا أعمال النهب والقتل والحريق . ثم التحق بعد ذلك بأركان حرب السير جادنت ولزلى وحضر جميع وقائع الحرب وأنه بعد عودة السير ماليت عين هو والسير شارلز ولسن لمراقبة الاجراءات المتخذة فى محاكمة عرابي من قبل

حكومة حضرة صاحب الجلالة ملك بريطانيا. وأنه استخدم في ترجمة الاوراق العربية المتعلقة بهذه القضية ومن بينها أوراق عرابي الخصوصية . وأنه وضع بالاشتراك مع الميجر شرميد تقريراً نشر في الكتاب الاخضر عن حالة السجون المصرية وهو تقرير استحق عليه الشكر من اللورد جرانفيل وأنه حين اعتزاله خدمة حكومة صاحب الجلالة الملك في ديسمبر عام ١٨٨٢ قدم له الشكر على خدماته من كل من اللورد جرنفل واللورد دفرين . وأنه من ذلك الوقت عاش في مصر حيث تولى بعد ذلك الدفاع عن قنديل وسجناء آخرين منهمين بالاشتراك في المذبحة . ولذلك كانت شهادته ذات قيمة خاصة بل هي أفضل ما يقدم في هذا السيل . ويمكن استخلاصها من التبذ الآتية المنتقاة من خطباته المختلفة .

ففي خطاب لمستر بلنت من لندن في ٦ نوفمبر عام ١٨٨٢ يقول « ان رجال السراى هاتى ارتيالك عظيم أمام وصول اللورد دفرين الى هنا باكر . ولقد كان وصول برودى صدمة قوية لمهم ولكن وصول اللورد دفرين هو الضربة الاخيرة . واني اعتقد في اللورد دوفرين أنه رجل فطن سيتمكن من فهم صاحبنا توفيق بسرعة وعلى ما علمت أنه سيفتح أذنيه لكل انسان وأن البعثة المؤقتة ستمد بمعلومات أدق بكثير مما كانت عليه الحال مع دار العميد في جميع الأوقات . ولقد حادثت كثيرين من الوطنيين قبل ضرب الاسطول لميناء الاسكندرية وهم من جميع الطبقات والاحزاب ووقفت على حقيقة الدور من أبطاله الأربعة — انجلترا و تركيا وعرايى وتوفيق . وكان لون كل منهم واضحاً تمام الوضوح » .

« . . . واني أظن أن مسألة ابراهيم أغا وحدها تكفى أن تدل على حقيقة انجلاء الحديوى . فقد سمعت القصة كلها من السراى مباشرة — وكيف أن توتنجى قبل يد الحديوى وطلب أن يسمح له بأن ييصق في وجه السجناء الخ . وهذه هي المسألة التي حقق فيها السير شارلز ولسن ووجد أنها صحيحة من أولها لآخرها ولكن بما أن الحديوى كان لا بد أن تظهر له عورات في هذه المسألة فقد تركت جانباً ولقد اقترحت حينها رأيت أن جميع الشهود حاثون في ابحاثهم ان البمين التي تطلب منهم هي بين الطلاق (على الطلاق بالثلاثة) وكان السير شارلز ولسن لمن رأى

يضاً ولكن المسألة وقفت عند هذا الحد . وعائلة الخديوي نفسها لا تخفى حقيقتها لأن فيما بين أنفسهم ولا تحاول إخفاءها ومع ذلك فهذا هو الرجل الذي ذهبنا تعاربه من أجله في مصر .

وفي السابع عشر من الشهر نفسه كتب يقول « المسألة توقوف الآن على ما لو سمح للسجونين وأعطيت لهم الفرصة في أن يسمع دفاعهم عن أنفسهم باخلاص . لاني مقتنع الآن أن الحكومة هنا تعمل كل ما في وسعها لعرقلة اجراءات المحاكمة . وذلك لان الحقائق التي تسفر عنها مناقشة المتهمين عن جميع الرجال الذين في الحكم الآن وتظهر حقائق غير سارة عن الخديوي نفسه . ولهذا السبب الأخير اعتقد أنه من الممكن ان تتفام الحكومة الانجليزية مع عرابي على شروط معينة لانه من المؤلم جداً أن تظهر المحاكمة أن الرجل الذي أرسلنا جيشاً الى مصر للانتصار له هو أكبر رجل دجال فيها . وانا شخصياً لا يكاد يخافني شك في أن الخديوي وعمر لطفي دبرا مذبحه الاسكندرية لكي يطعنا عرابي بها بعد ان جعل نفسه مسئولاً عن الأمن العام وأن عندي أدلة تكفي أن تجعل ظني أقرب للاعتقاد منه لأي شيء آخر ولكن لم يحن الوقت لاثباتها » .

وفي اجابة له على خطاب سئل فيه أن يعطي معلومات أوفى وابطاحات عن حادث ١١ يونيو قال :

١٧ فبراير سنة ١٨٨٣

« اني مسرور أن أسمع عن الحلة التي تمدها ولكني أرى أنه من الصعب جداً أن تظهر مسئولية الحكومة التي تخلصت من شبائك الحادث بكل مهارة وخفة . أنت تسألني أن أعطيك براهيناً تؤيد نظريتك وأنا شخصياً ليس عندي شهادة معينة . حينما حضر القورد دوفرين أخبرته ان المذبحه نشأت في الحزب الفرعوني (الحزب الخديوي) ولم تكن سياسة خاسرة فيما يتعلق بأنفسهم لأن غرضهم الواضح منها أن يشوهوا سمعة عرابي بعد أن أعلن ضمانته ومسئوليته عن الأمن العام ولكي يدفعوا الاوروبيين الى العمل على استقالته . وكان الرأي القائل بالصاق الحادث به مضحكاً حقيقة لانه كان انتحاراً له وقد أدركوا جميعاً ذلك حينئذ . وحينما طلب الى القورد دوفرين

أن آى له باثباتت تؤكد اعتقادى ان كان عندى شيء منها ذهبت اليه في النهاية وأخبرته أنه لو أعطي ضياعاً كتائياً لشهود أن لا يحسم أذى لأحضرهم اليه — بما أنى لا يمكن أن أحضرهم قبل ذلك — والشيخ عبده ورفعت يعرفان الحكاية من أولها لآخرها تماماً — وهؤلاء الشهود يثبتون أن عمر لطفي أمر سليمان سامي أن يرسل اليه الفرقة بغير سلاح ولكن سليمان سامي أبى أن يستقبل هذا الاستقبال ويرسلها بهذا الشكل لادراكه ما يترتب على ذلك من النتائج وفي الوقت نفسه كان يدرك ما يصح ان يقال لو بقى بمجنوده بعيداً بينا المذبحة قائمة على قدم وساق ولذلك توجه بفرقة بعد تردد ساعة من الزمن وكانت مسلحة على قبض أوامر عمر لطفي وأخذ الفتنة . وفي مكنتي أن أحضر الرجل الذي تلقى الأمر من عمر لطفي وأوصله الى سليمان سامي . وعيكتي أن أحضر شخصاً آخر سمع عمر لطفي يحرض أوباش المذبحة في الطرقات على أن يجزوا مازال المسيحيين على من فيها وأن لا يتركوا منهم أحداً . وهنا صاح اللورد دوغرين وقال أنه ليس من شأنه أن يحاكم عمر لطفي وكان ذلك قبل ظهور برودلى في الميدان وبعد ذلك مضيت في مجهوداتي معتدداً على نفسي فيها ثم التجأت الى برودلى وتمكنت في النهاية من الحصول على شهادة الذين أرسلوا الرسالة الشفوية من الحديوى الى عمر لطفي في الليلة السابقة للمذبحة وفيها يأمره بأقامة الاضطراب — وذلك يقصر الانسراح الجنوني الذي قبلت به أنخبار الفتنة في السراى — بقولهم « الآن قد فتلناها لهم » وكان جميع رجال التشريفات والخدم يرتصون من الفرح وغير ذلك من مظاهر الفطة والسرور . ومما زاد هذه الأدلة وضوحاً تعيين عمر لطفي ناظراً للحرية (أعترافاً بخدماته في ذلك اليوم) بدون أى سبب خاص يدعو الى ذلك التمين أو كفاة شخصية له . وإذا لم يكن مدانا حقيقة فلا يمكن أن يهرب من تهمة الاهمال التام والعجز وعدم الكفاة كحفاظت بحتم عليه اخذ الفتنة التي تح كل مسؤوليتها عليه دون سواء . ولكنه رغم كل ذلك عين ناظراً للحرية . وهذه هي اعترافاتي التي تغلب بها برودلى على الخصوم في جميع مساعيهم . ولا بد انك لاحظت — كما لاحظ كل انسان هنا — كيف أن مسألة المذبحة التي كانت في قلب

الامر قصب السبق المحرز ضد عرابي أخذت فجأة ثم توارت من الميدان بهذا الحكم المصحك »

وفي ٤ مارس كتب المستر يمان ليخبر المستر بلثت أن قنديل وسليمان سامي وآخرين طلبوا اليه أن يدافع عنهم امام محكمة الاسكندرية العسكرية التي كانت تتجه بواباها الى اعدامهم ثم أضاف الى ذلك بقوله .

« ولقد كانت الورقة الرابعة في يدي في هذه اللعة هي الشهود بطبيعة الحال الذين كنت اهدد باحضارهم لانهم عمر لطفي ماثرة والرأس الكبيرة بطريق غير مباشر . وأظن ان الحكومة تفضل أن تطلق سراح المتهمين عن أن تعرض نفسها لمثل هذا التعريض الخارج . وفي يوم ١٨ من الشهر قال « اتى واثق من الازواج عن المتهمين وربما استبدل بهم في قضص الأتاهم ناظر الحرية » . ولكن هذه الخطة أفسدت بالأجراءات المحنمية التي اتخذت حينئذ ومع أى استشارة أو تواصل مع المتهمين الى أن انتهت المحاكمة وأما فيما يتعلق بقضية سليمان سامي ضد حرم من وسائل الدفاع دفعة واحدة

وفي هذه الاثناء عاد المستر نايبير الى انجلترا وهو الذى انضم الى مستر بيان في مساعاه الى الدفاع عن المتهمين وبناء على نصيحة المستر بلثت قال المستر راندلف نشرشل والسبر وفردلوسن . وكان تقرير المستر نايبير حينئذ هو السبب في تصريح المستر راندلف العلني الذى عمل في شهر مايو - وهو أول تصريح علني له عن علاقة الحديوي بالذبحه والذي أدى بالمستر جلادستون الى الوعد بمحاكمة المتهمين محاكمة عادلة .

ومع كل ذلك فإن المستر نايبير لم يجد ما يشجعه على العودة الى القطر المصرى ولذلك استمر المستر يمان - ولو انه لم يكن محاميا - في الدفاع عن قنديل بطريقة عامة وكان المستر بلثت يمدد بالمعونة المالية اللازمة للمصاريف الضرورية لانه لم يأخذ أحرا على دفاعه ولم يتمكن قنديل من رؤية مستشاره المستر يمان الا بعد أن حوكم زميله سليمان سامي وكانت مهزلة أكثر منها محاكمة وبعد أن أجريت معه محقيقات بمجموعة متضاربة من خصومه . وقد مضى تسعة أشهر في السجن وكان

يقع في دماغه طريقا منع عنه غوائل المحوم . اذ أنه كان يطالب بالرحمة لابلل الذي لم يكن له موضع حينئذ .

وكتب المستر بيان في الثاني والعشرين من الشهر فقال : « وكان يحلب انه لا يعرف أى شيء . يربط عمر لطفي بالمذبحه اللهم الا بعض شواهد عارضة يشترك في معرفتها كل الناس . وان عمر لطفي لم يعرض عليه أى اقتراح وأنه لا يظن ان المذبحه دبرت من قبل (هكذا) وكل ما هنالك ان عمر لطفي كان واقفا وقوفا تاما على شعور الاهالي ويعرف انه لا بد ان يتفجر في يوم من الايام . وحينما حصل الانفجار قال قديلا انه كان طريح الفراش وأردف ذلك بقوله ان عمر لطفي أو أى انسان آخر كان يمكنه ان يحمي الفتنة عند منشئها . بل ان تلفراقا واحدا لعراقي كان يكنى الوصول الى هذه النتيجة . ونداءاً واحداً ليجد كل يأتى على الفتنة في الحال ولكن عمر لطفي اكتفى بالطواف في المدينة وتبادل التلفرات الشفوية مع الحديوى ومن الحال الوقوف على ما دار بين الاثنين حينئذ من المراسلات . اذ ان الكتاب كانوا يتقنون الارقام دون ان يفهموا لها معنى وقد صدرت الاوامر باعدام جميع التلفرات الشفوية (والظاهر ان مثل هذه التلفرات تعدم دائماً) . ويقول رفضت ان التلفرات كانت خاصة باستدعاء الجدد الى مياه الاسكندرية من البوارج . واذا كان الحديوى قد اعلم بهذه المذبحه عند الساعة الثانية او الثالثة فلماذا اذا لم يستدع السير مالت (الفصل الانجليزى) مباشرة ؟ فان السير مالت لم يعلم بها الا بواسطة تلفرات من كبير وهو في حجرة بليارد زيجادا حولي الساعة السادسة مساءً . وهنا هو الدليل الوحيد القائم ضد الحديوى . أما الادلة ضد عمر لطفي فهي أقوى من ذلك ولكن للاسف لم تمكن من الحصول على الشهود الذين عرضت ان احضرم اللورد دوفرين . لاني لم أعرف اسماءهم بنفسى ولكني كنت أحبرت بواسطة شخصين معينين انه اذا وقف اللورد دوفرين وقعة مليه في هذه المسألة فأنها يعطيانى الاسماء . ويسلمانى الاشخاص أنفسهم . ولكن اللورد دوفرين لم يقل اعطاء الامان المطلوب ولا يمكننى ان أعطي تفصيلات أكثر من ذلك لاسباب أحب ان تصدقنى أنها أسباب قاسية لا يمكن انتقلت عليها . ومع ذلك فان الشهود كان يمكن الحصول عليهم

وسائل أخرى ولكن ما كان يمكن الحصول عليهم بالطريقة التي سمحت لي أولاً .
وفى دليل على حسن نيتي اتى وعدت باحضار هؤلاء الشهود أيام كنت موظفاً
بحكومة ولكن عجزت عن القيام بما اخذته على عاتقي في هذا الشأن يكفى لسحق
سحقاً تاماً . ولكن العهد قد تناول على هذه المسألة الآن ولا يمكنني ان احضر
شهود بعد . او على الأقل ليس لدى الوسائل في الوقت الحاضر التي تمكنني من
قيام بذلك ولو اتيت فيها بعد قد أمكن من احضارهم . »

ثم قال أيضاً في الخطاب نفسه « واني اعتقد ان فكرة مجابهة المستر جلادستون
بذكرة تاريخية فكرة حسنة جداً . ولكن حذار ان تذهب في تأييد معتقداتك الى
حد غير ملائم اذ تقرر اكثر مما يمكن ان تثبت . ومحمد عبده ورفضت شهادته
صروريان لنا وسوف لا أمتنع عن الافصاء لك بما أعرف ولكني سوف لا أخبرك
عن مصادري » :

وقد أشار أيضاً الى هجوم اللورد رودلف نشرشل الثاني الذي قام به بمناسبة
تعزيز حكم الاعداء في سليمان سامي مما أدى بالمستر بلنت الى اعتزام تسليم جميع
الأوراق التي في حوزته ومن بينها البذ القديمة التي ذكرت الآن للورد راندلف
« اعتبارها » الوسيلة الوحيدة لحقن الدماء وان لا يعاد هدرها بعد ذلك مرة ثانية » .
وأشار كذلك الى خطاب المستر ايف القدي ظهر في الوقت نفسه بمجريدة التيس ثم
قال « اني آسف ان ايف نشر هذه التبذ من خطابي ... اذ اني لم اكتبها بالصيغة
التي نجعل ما فيها من حقائق معدة للنشر . فاولا ان عرضي الشهود لم يكن على اللورد
دوفرين شخصيا بل على نكلسن (سكرتير دوفرين الخصوصي) الذي أعطاني على
كل حال جواب اللورد دوفرين . وأظن اني أشرت مرة الى المسألة امام اللورد
دوفرين الذي أجاب بشكل يدل على انه مطلع عليها ولكنني كنت في ذلك
الوقت منهمكا في قضية عراقية الى حد انني لا اتذكر جيدا ما مر في هذه
اللحظة ... واني لا أعيا بما تنشره عني ضد مر لطفي ولكني أفضل أن لا توقعني
في مشاكل مع الخديوي . وقد عدلت أفكاري فيما يتعلق بمسئوليته عن الحادث ولا
يهمني بعد أن اهاجه . واذا ما حامت حوله الشبه فيما بعد عن طريق عمر لطفي كان

ذلك حسنا وخيرا لكم ولكني لا أريد أن يهاجم باسمي أنا شخصيا . وأنا الآن في حالة من التعاطف الحسن مع أغلب رجال الحكم وأنى أستعين بهذا الشعور الحسن لتحقيق مصالح المتهمين عملائي وإذا ما قطع بيني وبين الخديوى على حين فجأة فانهم هم الذين يضارون ولست أنا » .

ملخص الشهادات والادلة

مجموعة من الكتب الحضراء في عام ١٨٨٣

يثبت تاريخ مذبح الاسكندرية كما هو موجود في الكتب الحضراء (الكتب الازرق رقم ١٦-١٨٨٢ والكتاب الازرق رقم ١٧-١٨٨٢ والكتاب الازرق رقم ٤-١٨٨٣) ادانة السلطات المدنية والبوليس بشكل لا يحتاج الى الجدل وبراعة السلطات الحربية و فرق الجيش براءة تامة مع الاقرار بملكها الامين المشرف . وتلك حقائق تؤكدها مجموعة من الشهادات عن هذه المذاج . والبوليس والجندوة كانتا تحت اشراف المحافظ عمر لطفي المطلق وكان عمر لطفي بدوره ليس مسئولا لملكه وزير الحربية (عرابي) بل امام الخديوى مباشرة وذلك ما يجب أن يبقى عالقا أبدا بالاذهان بينما كانت فرق الجيش تحت اشراف عرابي باشا وزير الحربية وحده . وقد قرر المستر جروجان (الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ٩) — الذي كان قد عين واسطة السير أدوارد ماليت بناء على تعليمات اللورد جرنفل ليجمع من مدينة لاسكندرية أدلة يتمكنون بها من اثبات أن عرابي هو مدبر الحركة — أن البوليس بل الحادث بأيام قلائل انتاع كمية كبيرة من النبايت والدفوف ووزعها على الطبقت لندنيان من الاعراب والبدو وأن هذه النبايت كانت توزع من منزل قريب جدا من الضبعة الرئيسية . (راجع كذلك اقرار المستر أدوارد باربر « الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٧ ») . وقد أضاف المستر جروجان انه لم تتخذ أي اجراءات ضد الاشخاص الذين وزعوا النبايت كما أن التقارير الطبية التي كتبها عشرة من الأطباء الاوروبيين الذين بحثوا جثث القتلى في المستشفيات تثبت جميعها أن القتل حدث به

على طعنات من المدي وحراب البادق . ولا يخفى أن المدي وحراب البادق هي أسلحة البوليس الرئيسية والثابت أن البوليس في يوم المذابح كان يغير أسلحته الباربة وكان مسلحاً بالحراب فقط (الكتاب الأزرق رقم ٤ صفحة ٧٥ المشؤلة الثالثة تحت رقم ٩٢ من مستر بروفنش الى المستر جروجان) وتقرير هذا الرجل له أهمية عظيمة اذ هو يثبت ان الطرقات كانت خالية من الفرق النظامية في يوم الحادث خلواً تماماً ومما يجدر ملاحظته أثناء قراءة الشهادات الخاصة بالمذابح في الكتب الزرقاء المشار اليها آفاً أن كلمة « جنود » تشير فقط الى الجنود وقلماء مذل في أى موقع منها على جنود الجيش النظامية .

ولتكلم الآن على مسلح البوليس . يقول المستر بوبس المهندس في الاطول الانجليزى (راجع الكتاب الأزرق رقم ١٦ صفحة ٢ : المشؤلة الثانية تحت رقم ٢) أن الجنود التى كانت تحت اشراف رئيس البوليس مباشرة لعبت دوراً كبيراً فى الحادثة . قتلوا المسيحيين حينما كان الرعاع يكفون عن ذلك . واذا انكسرت الحال وأخذ الرعاع فى قتل المسيحيين كانوا يتركونهم وشأنهم ولا يبدون حراكاً . ويقول المستر هيوات وهو كاتب حسابات انجليزى كان يبيت فى الاسكندرية منذ سبعة عشر عاماً (راجع الكتاب الأزرق . رقم ١٦ المشؤلة الرابعة تحت رقم ٢) أنه « اذا أردنا أن نعرف موقف السلطات المصرية والجيش أثناء الاضطرابات فيجب أن نقسها الى قسمين هما (١) البوليس (٢) الجيش . فأما عن الاول فليس عندي أقل تردد في القول بأنهم بدل ان يخدموا الفتنة قد بذلوا كل ما في قواهم ليزيدوها استمراءاً وكلن مسلحهم في هذه الاثناء وحشياً قاسياً مبنياً على التعصب . وسوف يظهر على ما أعتمد من الكشف الطبي أن الجروح التى أصيب بها كثير من الاوروبيين كانت بيد رجال الجنود . ومما لا جدال فيه أيضاً أن كثيراً من النبايت وزعت على الاهالي بيد هذا البوليس نفسه بدون مقابل بينا نزعوا من الاوروبيين جميع أسلحة الدفاع التى كانت في حوزتهم حتى العمى التي يتوكأرون عليها . ولقد علمت من أوثق المصادر أن الاجانب الذين كانوا يعيشون في الاحياء الوطنية والذين التجأوا بطبيعة الحال أثناء الاضطرابات الى الضبطية أو أحد معاقل البوليس الاخرى

ذبحوا شر ذبحة بمجرد دخولهم هذه الاماكن . ومن جهة أخرى فاني مقتنع ولست في حاجة الى شرح أسباب هذا الاقتناع أنه لولا استدعاء الجيش في النهاية واتخاذ القتلة لما كانت تنتهي الا عذبة مخيفة . وإذا كان الاوروبيون مدينون للاحد بأرواحهم فهو الجيش » . ويقول المستر جورج يلافانثي (راجع المشولة الخامسة في القسم الثاني ص ٩ الكتاب الازرق رقم ١٦) « أن البوليس انتصر علنا للاعراب وكثير من الضحايا الذين كارب يقومهم البوليس الى الاقسام انزلوا من العربات وقتلوا بسان الحراب » . وألستر ستين راني يقول (راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ٧ ورقم ٣) « لكي تتحقق من حياة "سلطات ماعليا الا أن تعرف ما لي — بدأت القتلة في الطريق عد الساعة الثالثة واستمرت الى الساعة السابعة وكلم معظم القتل بيد البوليس واستمر الحال علي ذلك اى أن أرسلت فرقة من الحند لاختاد القتلة وكان من الممكن احماها بهذه الطريقة في ربع ساعة لو أنهم أرادوا ذلك . »

ملحوظة : بمناسبة هذه المسألة نشر الى اس سلبان سامي ميرالاي الفرق ' نظامية لم يستدع الا في ساعة متأخرة بعد بدء الهياج .

ويقول المستر جرومان (راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٠) « وأشر جميع الحرحى في المستشفيات بان رجال الحندمة كان لم ضلع مع العواء في اللذبة وكذلك كان بكثير مهم جروح من رماح النادق » . ويقول هتيل سكحنيليو الاسكنداني (راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٦) « أن الثلاثة رجال الذين قتلوا وهم الدكتور ريتس والنيور ليجري وفي رب والارمين قتيلا الآخرين من الاوروبيين كانوا قد التجأوا الى الصيطة ليكونوا تحت حراسة البوليس . وق الليلة نفسها ذهبت الى المستشفى الاوروي لايبحث عن صديق النيور فارديب . وهناك سألتني الحراس الذين كانوا في الخدمة حينئذ عما اذا كنت أملاك حفيقة كل هذه الحيرة التي تدفعني الى عمل كهذا . ولكني انطلقت الى الداخل وكانت ساعة متأخرة من الليل وسرعان ما رأيت انامي اكواماً من الجثث وعندها تريت وعدت في اليوم الثاني ووجدت ما يرو على السنين قتيلا كلهم عرايا وأجاسهم شدة

خروج من التبايت ورمح البنادق . وكثيراً ما جرح البوليس الاجانب من
لاوريين كما كان ينظر بعين الارتياح الى الاعراب وهم يفعلون ذلك أيضاً
. (سج الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٦) وقد أخبر كل من المستر دوبرت جيلبو
س الرعايا الانجليز والمستر جوزيف ليني من مصنع المسيو بيرو ليني بنشستر والمستر
لحاشي من مصنع فيفاتي وولده بنشستر القنصل البريطاني في مدينة ليجهورن « ان
سلطات المحلية اشتركت في المذبحة » وفي الصفحة نفسها توجد كلمة الكولونيل . . .
وهو أحد الضباط الاورويين ذوي الاعتبار كتبها في ترستا في ٢٨ يونية وهي الآتية
« ار. أحد الوطنيين الافاضل واسمه وزير بك وقطن الدور الاول من المنزل المواجه
ثلاثة البوليس وقال امامي وامام محافظ المدينة وغيره من كبار موظفي الحكومة انه
في التبايت توزع على الجماهير من الشايك التي امامه. هذا في الحي الاوروي بيتنا
كلن قريفاً من القوعاء يقتحم شارع دى سير وميدان دى لاني في حين آخر من
مختلفين . وبعد ذلك عدة رأى هو وزوجته وخدعه ثلاثة عشر أوربياً كانوا قد التجأوا
الى رئاسة البوليس للحماية يسحبون خارجاً عرايا الاجساد مشوهي الخلق الى البحر
لكي يموتوا فيه وغول المستر ادون بلربر في صفحة رقم ١٧ » وفي أثناء هذه الحادثة
نصير فحصر جمع كبير من الاعراب من جميع الجهات وجهزوا بتبايت القيت اليهم
من منزل وطني عال قريب من الضبطية « ثم يقول بعد ذلك » وبعد اغلاق الباب
صعدت الى الدور الاعلى ومن هناك رأيت عدداً كبيراً من الاوريين مقتولاً في
الطريق وكان البوليس يساعد القتلة . ولما لم يكن البوليس جيوب فقد كان ينجي
مفاته ورا. انبراميل وأحياناً تحت أغطية البالوعات » . ويقول للمسترجون ولس في
صفحة ١٧ « وفي هذه اللحظة وصل رجال البوليس وعددهم ثلاثون أو أربعون
وبدأوا يطلقون اعبرتهم بدون أى مبرر ظاهر لذلك . وكانوا يرون الاوريين
مدرجين بدمائهم تحت أقدامهم ولكنهم لم يفعلوا شيئاً ليدافعوا عنهم » . وقال
أيضاً « ورأيت أيضاً رجالاً من الجندمة يحملون بعض الامتعة المسروقة . ولكن
حينما وصلت الفرق الطامية عاد الامن الى نصابه وكأنما لم يحدث شيء . » وفي اقرار
السنيدو فرتوني ما يأتي (راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٩)

« وسد قليل من الوقت رأيت عربات كثيرة مملوءة برجال الجندمة (ومجنود في ملابس زرقاء) آتية من ناحية مركز البوليس الرئيسي وكل من فيها ينظر الى النوافذ حيث كانت تتجه بادقهم أيضا ويصبحون للاعراب « تشجوا . اضربهم » . (راجع الكتاب الازرق رقم ٤ صفحة ١٠ المشولة الرابعة من القسم الرابع) . ويقول المستر ستوتون صراف الباخرة (انفسنبل) « كان البوليس والموظفون المحليون أثناء المحوم المثار اليه ينظرون للقوعاء نظرة عطف ولم يتخذوا أى اجراء لحماية المسيحيين وكبح جماح القوعاء . ولم يكن فى الطريق أى أثر للمجنود النظاميين فى هذه الاثناء »

وقد كتب الاميرال السير بوشامب سيمون الى الاميرالية عن مسلك الفرق النظامية فقال (راجع الكتاب الازرق رقم ١١ صفحة ١٠٨) استمرت الاضطرابات مدة ساعتين او ثلاثة قبل ان تدعى الحماية الى تقلد السلاح . ولكنها حينما حضرت ظهرت الطرقات بسرعة محدودة وساد النظام فى الشطر الباقي من الليل « ويقول المستر كلغرت نائب القنصل الذى أسندت اليه أعمال القنصلية بعد ان جرح المستر كوكسون (راجع الكتاب الازرق رقم ١١ صفحة ٣٩ ورقم ٩٧) فى ١٢ يونيو « لم يتدخل البوليس ليحمى الاوروبيين . الى ان حصرت الفرق النظامية وأعادت النظام » وكتب فى اليوم نفسه (راجع الكتاب الازرق رقم ١٧ صفحة ٢٤ المشولة الثالثة تحت رقم ٢) « وقد كان مسلك الجنود النظامية حسناً جداً ولم تتجيز القوعاء » وفى الرسالة نفسها ما يأتى : « نهب البوليس المنازل والدكاكين على حد سواء . وبعد رسائلي للتغرافية اليك تحددت معركة فى حي من أحياء المدينة الدنيا ولكن فريقاً من الفرسان فرق الثوار فى الحال . والمدينة الآن فى سكون تام » ويوجد فى البيان الذى أذيع على الاوروبيين مهوراً بامضاء جميع القناصل بعد اجتماعهم فى منزل المحافظ فى ١٢ يونيو الفقرة الآتية « حدثت اضطرابات خطيرة فى يوم الثلاثاء ، بالاسكندرية ولكن الجيش المصرى أعاد النظام ونعهد رئيسه بالمحافظة عليه . ونحن نثق فى الجيش المصرى »

الطواهر السابقة على المذبحة—(راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ٢ المشولة

(الناية) بيان المستر حويس المهندس الانجليزى « لاحدال أن الحادث كان منظماً من قبل بدليل بعض الظواهر المثبتة التى ما كان يما لها الانسان فى ذلك الوقت كالذى حدث لى فى صبيحة يوم السبت اذ كنت خارجاً من منزلى فقابلنى مائع خضر فى الطريق وطلب الى أن اشترى وآكل لان النصاري سيذبحون باصكر . وقبلت هذه الكلمات بعد ذلك لكثيرين غيرى ولم يبروها مااستحقه من الانتباه أو أى انتباه علي وحده الاطلاق . (المسمولة الرابعة تحت رقم ٢) ويقول المستر هيوات « بناء على معلومات جمعت من مصادر مختلفة كثيرة أصبح عدى اعتقاد راسخ ان حادث ١١ يونيو كان نتيجة خطة مدبرة . » (المسمولة الخامسة تحت رقم ٢) . ويقرر المستر الكسندر فيس « بناء على تعليمات تمحصلت عليها فيما بعد أصبح عدى عقيدة أن هذه المسائل كانت مدبرة . وبدأت فى وقت واحد تقريباً فى جميع أنحاء المدينة » (المسمولة الخامسة رقم ٢ صفحة ٦ الكتاب الازرق رقم ١٦) ويقرر المستر حورج بلافانثي « كانت مشاجرة يوم الاحد مع الماطلي مدبرة تديراً محكماً بواسطة البوليس حتى انه نشأ عنها هذه الحوادث الوحشية التى اشتملت علي التهب والقتل وقد كما رقياءه كما كنا فى الوقت نفسه ضحايا . وظهور الفتنة فى ثلاث جهات فى وقت واحد يدل على أن الامر كان مدبراً » . ويقرر فليبوليس « كنت فى السوق فى يوم ٢٨ يونيو حوالى الساعة الرابعة ونصف بعد الظهر . وهناك رأيت كثيراً من البدو محمولون بنادق ويتركونها فى بعض المحازن هناك بحجة حفظها لهم . وفى اليوم التالى بينما كنت جالساً فى احدى المقاهى اقترب منى أحد أصدقائى من المصريين ونهضى مخدراً الى ان الاعراب سيقولون المسيحيين فى يومهم أو فى اليوم الذى يليه » ويقول المورد جرنفل (راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ٢ ورقم ٣) « أخبرني المستر سيادينو وهو أحد مديري بنك مالى يونانى بالاسكندرية أن عنده الادلة الكافية فى أن حادث الاسكندرية كان مدبراً . وكذلك أشار المورد جرنفل فى الرسالة نفسها الى مبشر امريكي قال « أخبرنا كثير من الناس ان الاضطرابات بدأت فى أحياء مختلفة متباعدة من المدينة فى وقت واحد وقلبك فنحن نعتقد انها كانت مدبرة » . ويقرر الدكتور جنويس (راجع

الكتاب الأزرق رقم ٤ لعام ١٨٨٣ المشمولة الثالثة تحت رقم ٤) « أنى لا أعتمد أن المذبحة كانت مدبرة فقط بل هي أكثر من ذلك قد عدت بمهارة وبظهر أن المشتريين فيها كانت عابثهم السلب والتهب وعلى كل قد جمعوا بين هذه وبين الثورة » . ويقول المستر ستونين (راجع المشمولة الرابعة في الكتاب الرابع) « حينما نزلت الى الاسكندرية وطلعت في شوارعها وجدت الناس في الشوارع والطرق المؤدية الى المدينة العامة صائرين في هدوء تام وسكينة . وحينما وصلنا أخبار الفتنة بعد ذلك ثلاث ساعات فقط رأينا مئات من الاهالى مسلحين بنجاة بالعصي والسكاكين ولذلك فاني أعتمد أن الفتنة كانت مدبرة من قبل » . ولا يتمكن المستر حروجان من إيجاد راسلة بين عرابي وبين التدابير الساعية على الفتنة ولو أنه كان مروداً بمعلومات صريحة من القورد جرنفل أن يجمع أدلة ضد عرابي فتبد اشتراكه في تديرها (راجع الكتاب الأزرق رقم ٤ لعام ١٨٨٣ صفحة ٧٣ وصفة ٨٨) . وعامة قوله « ولقد تبين أن سفر حسين موسى العقاد من القاهرة الى الاسكندرية كان في الساعة السادسة بعد ظهر يوم ١١ يونيو : وسافر في عربة من عربات الدرجة الاولى ومعه جون نينه الخنوى ووصلا اليها في المساء » أقول أنه يمكن اثبات عدم صحة هذا الخبر على الاطلاق بواسطة جون نينه نفسه وهذا أمر مهم جداً لأن المستر جروجان يضيف الى ذلك (راجع المشمولة الاولى تحت رقم ٩٢ الكتاب الأزرق رقم ٤ لعام ١٨٨٣ صفحة ٧٤) « وفي اعتقادي أن حلقة الاتصال بين سيد بك قنديل وعرابي هو حسين موسى العقاد » . (راجع الكتاب الأزرق رقم ١٦ الرسالة رقم ٣ صفحة ٩) وقد أخبر الكونت دلالا رئيس لوكس لوكس حرب الخديوى المفوضية البريطانية في برلين أن الكونت هازنفلت أخبره أن ضرب الاسكندرية كان خطة مدبرة اشترك فيها رجال الخندمة

مسلك عمر لطفى المحافظ

في يوم الاضطراب

ان ما قيل عن مسلك هذا الرجل في يوم الاضطراب في الكنب الرقاه قليل جداً لا يشي غليلاً ويصل ذلك بمساعي الحكومة البريطانية بعد الموادث وانجاسها في انهام عرابي وحينا لم نطفر بذلك لم تبدل أى مجهود في اكتشاف المدبرين حقيقيين لها . ولكن في اقراريس كتابين (راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٠) قدمها اللورد جرنفل الى السير ادوارد مايت (الرسالة رقم ٢) وهما لكل من لويجي اوفريو واولو اوفريو من قائتا بحزيرة مالطا وكانا سابقا بالاسكندرية ما ياتي « في يوم الاحد الحادى عشر من شهر يونيو الماضى حينما كنت في منزلى بالاسكندرية حوالى الساعة الثانية ونصف بعد الظهر سمعت صياحا عاليا في الطرقات قاطلت من البافنة وعندها رأيت المستر كوكسون القنصل الانجليزى وغيره من القاصل الذين كانوا معه يهاجون بواسطة الرعاع . ورجال البوليس يعاونونهم في هذا الهجوم وبضربون حصرات القناصل بمؤخر بنادقهم وكان عمر لطفى المحافظ حاضراً حينئذ ولكنه لم يندل اى مجهود ليحمى هؤلاء الاوروبيين او لتشتيت القوعاء . ورأيت أيضاً بعض الاعراب والجنود مصريون السنيور كلاري والسنيور مكفالى القنصل الايطالى والقنصل النمساوى . وقد جرحوا جميعاً جروحاً خطيرة وخصوصاً السنيور كلاري » . والاقراران متشابهان في عبارتهما . وكتب المستر جروجان (راجع صفحة ٩ من الكتاب الازرق رقم ١٦) عن تكليفه من قبل اللورد جرنفل لجمع الادلة الكافية لانهام عرابي باشا قتل « اظن أن لدى محبلا للتدليل ولكنى لم أمل اليها حينما كان الاتصال متعجلاً . من الامور التى تثير كثيراً من الشكوك هو ما اذا كانت دعوة القناصل للذهاب الى قسم القبان بعد ظهر يوم ١١ يونيو قد صدرت من المحافظ عمر لطفى أم لا . لان عقيدتي الحالية أن الدعوة التى وجهت اليهم شعوريا كانت تقصد استدراهم الى أيدي الجماهير » .

وقال بعد ذلك : وكان بين ابلاغ كل رسالة وأخرى فترة من الزمن لا تسوجبها المسافة نفسها التي تفصل القاصل بعضهم عن بعض وكان ذلك مدبراً من قبل ، بقصد أن يصل القاصل متفرقين الى المكان الذي كانت تتجمع فيه القواء . وبلغت الرسالة اولاً القنصل الفرنسي ثم الايطالي ثم غالباً اليوناني والاماني واخيراً القنصل الانجليزي ، وكتب المستر كوكسون في رسالته لـ «سير ادوارد ماليت (المشغولة الاولى تحت رقم ٢٢ الكتاب الازرق رقم ١٧ لعام ١٨٨٣) فقال : بعد نصف ساعة استدعيت بواسطة البوليس المحلي للتوجه الى مركز بوليس قسم اللسان حيث كان قد وقع شغب بين بعض الاعراب من الالهالي والمالطيين في الساحة المجاورة وعدت قنصلية حوالى الساعة الثالثة ونصف وخرجت مباشرة بآء على دعوة رسول كلن في انتظاري لحضور اجتماع مع بقية القاصل في قسم الباب . ومن هنا يتبين أنه كانت هناك مؤامرة لاستدراج القاصل الى الجماهير . وبدل وجود عمر لطفي وهيته ساعة هجوم الجماهير عليهم أنه كان مشتركاً في هذه المؤامرة ومن الممكن اثبات ان عمر لطفي لم يستدع الجيش مطلقاً الا بعد أن استمرت المذبحة زمناً طويلاً وعندها أرسل الى سليمان سامي رسالة شفوية وليست كتابية يخبره فيها أن يحضر هو وفرقة الى المدينة بدون سلاح . وسوف تجد رأى سليمان سامي عن مصلك عمر لطفي في بيان المستر جون نينه المطبوع . وكل من سليمان سامي وأخيه — وكلاهما أمير ألاى في الجيش — يعلم أن عرابي باشا بصفته وزيراً للحرية ورئيساً للجيش المصري قد أخذ على نفسه ضماناً بحفظ الامن والسلام وأن هذا الضمان يتبين الآن أن لاقية له كما أن التفة في الجيش المصري قد تلاشت بظهور هذه المناجح . والعلم بهذا الضمان ثابت من رسالة المستر كوكسون الى السير ادورد ماليت (الكتاب الازرق رقم ١١ لعام ١٨٨٢ المشغولة الرابعة تحت رقم ١٢٦) والمؤرخة ٦ يونيو حيث يقول : «الحاقاً برسالتى في ٢ الجارى أتشرف بأن ابلغكم أن المدينة في هدوء تام . وقد أفاد نصريح عرابي باشا الذى أبلغ الى فى ٢ الجارى والذي تعهد فيه بالحفاطة على السلم وأرواح الاوربيين كثيراً فى تطمين نفوسهم وتبديد مخاوفهم .» ويبدو غضب كل من الامير الاين سليمان سامى وأخيه من مصلك عمر لطفي في طاعت

١ يونيو من رسالة للستر كوكسون الى السير ادوارد ماليت (راجع رقم ١٧ عام ١٨٨٠ المشمولة الاولى تحت رقم ٢٣ صفحة ٢٣) حيث يقول « علمت انه حدث نحرار عنيف بين المحافظ والاميرالين وأن المحافظ أصبح حاقداً عليهما. بينما هما جسامته في عبارات قاسية شديدة بخيانة دينه وأيا أن يطعما أوامرهم . » اذ أنت صانطين بعد أن فقد ضمان عراني قيمته تبين لها أن الاوروبيين سوف يتدخلون لاجلهم وحينئذ تطعن القضية الوطنية طعنة نجلاء .

ويتبين اهتمام عراني بأنقاد الجيش المصرى من أى شبهة أو اتهام بالاشتراك في مداخل من تعليماته التي أعطاهها لعقوب سامي وعلى الخصوص تعيينه ليكون في لجنة تحقيق التي كونتها الحكومة المصرية عقب الحوادث مباشرة وقول عراني في هذه تعليمات « انك لانجمل اهمية الموقف الذي تقفه في الحالة الراهنة من لجنة التحقيق ذلايجنى عليك أن اعضاء هذه اللجنة ليسوا من هؤلاء الاشخاص الذين يهيمهم شرف الجيش أو شرف الوطن . وهذا يتطلب منك أن تأخذ جميع الاحتياطات في مجرى التحقيق وأن تكشف لنا عن الدافع الاصلى لهذه الفتنة . » وكذلك يتبين اهتمام عراني باشا بمنع أى أمر بخدش هبة الجيش بعد ذلك أو بمس ضمانه من رسالة المستر هورى المترجم في القنصلية الانجليزية بالاسكندرية المؤرخة ١٢ يونيو (راجع المشمولة الرابعة رقم ٢٢ الكتلب الازرق رقم ١٧) حيث يقول فيها « تعهدالقناصل أن يذلوا اقصى ما يمكنهم من الجهد لتحقيق هذا الغرض ووعدوا بأن يمتنعوا رعاياهم من اطلاق النار على الاهالى أو الجنود كما أن ضباط الجيش أخذوا على أنفسهم ايضا أن يحافظوا على الامن والسلم العمومى وأعلنوا انهم مسئولون عن ارواح الاوروبيين وقد وجه صاحب السعادة بعقوب باشا وكيل نظارة الحربية الى الاميراليات العبارة الآتية « حافظوا على القناصل وعلى سلامة رعاياهم ما دام فيكم عرق يفيض . » وقد اجابته الضباط بالسبع والطاعة ... وكان أهم شىء عند القناصل هو مقدرة الجند على منع تجمعهم الوطنيين في الاحياء الاوروبية ولذلك تعهد ضباط الجيش العظيم بتفريق أى اجتماع للوطنيين يحدث في تلك الاحياء . » ولا ينبغي عن القهر انه من تاريخ هذا

الاجتماع وبعد ان وضعت الاسكندرية رسمياً تحت اشراف الجيش الى ان ضربها الاسطول لم تحدث اضرابات تذكر وكذلك لم تحدث أى مذبةجة .

وبالنسبة لسلك عمر لطفي باشا يجب أن لا ننسى لاي اعتبار من الاعتبارات انه كما تم مدني للمدينة وتحت تصرفه المطلق بوليس ورجال المندومة في المدينة يعتبر أول شخص مسئول عن الامن والنظام فيها . وانه في ذلك الوقت كان مسئولاً أمام الخديوى دون سواء و كان الخديوى يقوم نفسه بأعمال ناظر الداخلية بناء على عدم تعيينه ناظراً جديداً لها واصداره تعليمات لمديري الوجه القبلى والحر . بأن يرجعوا لمكتبه الخاص في كل مسألة ذات بال مما يعرض عادة على ناظر الداخلية (راجع الكتاب الازرق رقم ٨ صفحة ٤٠ الرسالة رقم ٩٠ من السير مالميت الى الارل جرافل) . وقد لا يكون من الضروري الآن ان نضيف ان عرابي باشا بصفته ناظراً للحرية والبحرية لم تكن له أى سلطة على عمر لطفي حاكم مدينة الاسكندرية المدي كما انه من الثابت من بيان المستر جون نيت المرفق بهذا ان عرابي باشا لم يحط على بالحوادث الا في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم ١١ يونيو وان مكاتب التلغراف بمصر والاسكندرية حجرت في ذلك اليوم خصيصاً للرسائل بين الخديوى وعمر لطفي ومع ذلك لم يحدث تحقيق على عن مسلك هذا الرجل « عمر لطفي » من يوم المذبحة الى الآن لا بواسطة الحكومة الانجليزية او المصرية ولم يحدث اكثر من ان الخديوى عينه ناظراً للحرية محل عرابي باشا في السادس والعشرين من شهر يوليو التالى (اصر الكتاب الازرق رقم ١٧ صفحة ٢٢٣ الرسالة رقم ٦٤٤) .

وقد لازم سيد بك قنديل رئيس البوليس الذى يحاكم الآن منزله في يوم الاضطرابات والايام التي تلت لمرسه بينا حسن بك صادق وكيله الذى حل محله في ذلك اليوم والذي قال عنه المستر كلريريت (الكتاب الازرق رقم ١٧ الرسالة رقم ٣٥ صفحة ٣٥) انه ينتمى الى حزب الجيش وانتقد انه لم يوقف عن العمل لسلكه يوم الحادث وعلاقته به قد عين بعد ذلك في وظيفة مهمة بالجيش بالسودان جزاءه على مسلكه في يوم ١١ يونيو وتخلص بهذا التعيين من كل مناعب التحقيق ويجب ان لا يغيب عن الالهم حين قراءة هذه المذكرة السابقة المتنبئة من

كتب الزرقاء ان جميع الرسائل التي كتبت والشهادات التي جمعت فيها كانت مكتوبة وبمجموعة تحت عقيدة ان للذبايح من صنع عراقي والحزب الوطني ويقصد صاق النهمة بهم

ولتوضيح ذلك يجب ان ننقل فقط كلمات القورد جرنفل الموجودة في رسالته في السير ادوارد ماليت (الكتاب الازرق رقم ١٥ ورقم ٣ صفحة ٧) وهي «أرى ان أكلفكم بعسل ما يلزم لاتعام هذه الشهادة وخصوصاً القسم الذي يتعلق بصله من عراقي» وهذه خطه شاذة بذل بشكل لا يقبل الجدل ان فكرة اكتشاف مدبرين الحقيقتين لحادث الاسكندرية كانت أقل رسوخا في نفس القورد جرنفل من اتهام عراقي باشا نفسه بأي شكل من الاشكال

ونجاح هذا المسمى يمكن استنتاجه مما قاله السير شارلز ولسن (راجع الكتاب الازرق رقم ٣٠١ الرسالة رقم ٤٥ مشمولة صفحة ٢٨) - عن النهمة الرابعة في ورقة الاتهام التي وحت الى عراقي ومحمود سامي وطلبه ومحمود فهمي وعمر رححي وسيد قنديل بأنهم «حرضوا الناس على حرب أهلية وبأنهم ارتكبوا أعمال التخريب والقتل والنهب على الاراضي المصرية» - فقد قال السير ولسن «لا بد لي من تصريح انني اعتقد انه بناء على الشهادة الموجودة بين أيدينا لا يمكن لأي محكمة عسكرية ان تلحق بالمتهمين نهمة أكثر من الاشتراك في ثورة عسكرية ناجحة ضد الخديوي اللهم الا طلحة والسيد قنديل مع شيء من الشك بالنسبة لهما أيضاً»

وكتب السير شارلز ولسن أيضاً فقال (راجع الكتاب الازرق رقم ٥ عام ١٨٨٣ الرسالة رقم ٤١ مشمولة صفحة ٦١) «بنيت المحاكمة على ما يظهر على فكرة ان هناك حوادث معينة مثل مذبحه ١١ يونيو لا يمكن حصولها الا بناء على أوامر عراقي» وذلك دليل كاف في نفسه على ان عراقي أصدر أوامره بعمل المذبحة.... ومن جهة أخرى فقد كان من الممكن تكوين دفاع حسن عن المتهمين وذلك بمناسبة سماع شهود بلائيات دون شهود النفي ومن غير توجيه أسئلة اليهم من الدفاع»

واقدر نركت الحكومة الانجليزية فكرة ان المذبحة كانت مذبحة ومنظمة من قبل حتماً استحال لها ان تثبت صلة عراقي بالحوادث. وفي الحكم الاخير معان جمة أحب

ان ألفت اليها الانظار . وفي نهاية الرسالة كتب السير شالز ولسن « لم يكن هناك دليل على صلة عراى بالمذبحية التي وقعت بالاسكندرية في ١١ يونيو ومن المشكوك فيه ان المذبحية كانت أمراً مدبراً »

وعدم ظهور أى أثر للنفراقات والرسائل التي تبودلت بين المحافظ عمر لطفي والحديو وبين الحديو والسير مالت والقنصل الانجليزي والتي لاشك انها كانت مستمرة طول مدة الاضطرابات من المسائل التي تثير الشكوك وتحتاج الى الايضاح . وكل اسان غير متحيز يمكنه أن يحكم من الشفرات السابقة المقتبسة من الكتب الزرقاء ، والتي لاجدال في انه قد أبد منها كل ما يشتم منه رائحة اتهام للحديوى او عمر لطفي او السلطات المدنية (بقدر ما تسمح به الحال طبعاً) ان هناك مائل خطيرة ضد هؤلاء الناس قد سككت عنها وانها في أشد الحاجة الى تحقيق نشط وبحث دقيق

بيان المسترجون فيننه

عن حوادث يونيه سنة ١٨٨٢ التي وقعت بالاسكندرية

وقد أصدره بأمره في ٣٠ يناير سنة ١٨٨٣

كنت بالاسكندرية حين وصول درويش اليها في يوم الاربعاء ٧ يونيه سنة ١٨٨٢ ورأيت على الرصيف وهو في طريقه الى سراى راس الستين ومعه ذو القنار باشا (مبعوث الحديوى وهو رومى مسلم وأحد مخلوقات سعيد باشا) وبغوب باشا (مبعوث عراى وهو شركسى الا انه عرف بالامانة) وكذلك الشيخ سيد وعمر لطفي (محافظ الاسكندرية)

وبعد الطهر تروحه العلماء وبعض الاعيان والضباط لزيارة درويش ولكنه لم يتخبرهم بالحفاوة الكافية وكذلك زاره القاصل وكان للمسترجون كوكسون والمسيو كليموسكي في ملاسهما العادية — وزاره كذلك كل من الاميرال الفرنسى والاميرال الانجليزى

ب. ملابسها الرسمية . وكنت موجوداً حين استقبال المتر كوكون الذي ذكر
رويش ان الاميرال سيمون هو نفس قائد القوات البحرية في دلسنيو ولكن درويش
بحسب على ذلك بأكثر من الانقسام . وبعد ان خرج القاصل قدم الاعيان عريضة
يشون فيها شكوى الشعب المصري وبظهور استياءهم من وجود الاسطول ورغبة
لأمة في الاستقلال وحادثهم درويش كثيراً عن هذه الموضوعات ووعدهم ان
الاسطول سيغادر المياه المصرية بعد زمن قصير . ولم أكن حاضراً هذه الواقعة ولكنني
سمعت عنها من صديقين لي وهما الثرياني ونديم كانا حاضرين حينئذ . وكانت
ديم في هذه الاثناء دائم التردد بين مصر والاسكندرية . ولم يكن العقاد في الاسكندرية
على ما أعلم الى ما بعد الحوادث

وفي صبيحة اليوم التالي وهو الثامن من الشهر توجه درويش الى القاهرة وتبعه
دهو في طريقه الى المحطة بجمهورية كبير وكان يصبح صيحات مختلفة حول السلطان
والاسطول وكان ذو الفقار وبقية ضباط الحديوي يتجادلون حول سفر يعقوب باشا
في عربة درويش ولكن درويش أمسك يعقوب من كتفه وجعله يدخل العربة
وبذلك أصبح فيها هؤلاء الاربعة : درويش وأسد وذو الفقار ويعقوب . وعمل
ديم على أن يسافر في نفس القطار فضلاً اندس بين السكرتيرين والخدم . وحضرت
رفود في دسهور وطلعا وكفر الزيت لاعلان ولأنهم لعظمة السلطان وربما كانت
هذه الوفود خطة مدبرة .

والنقط الآتية مصحها من عرابي ومن رساله وأنى أعتمد في صحتها : قوبل
درويش في المحطة بالجند والموظفين ولكن لم يقابله أحد من أعضاء الوزارة الوطنية
ولم يكن عند الجماهير حماس ظاهر وأن درويش سار مباشرة الى سراى عابدين
ولم يستقبل أحداً في ذلك اليوم ولم ير غير الحديوي وعائلته في قصر عابدين وقضي
ليته في قصر النوسة الذي كان معدا له وسمعت ان الحديوي أرسل في تلك الليلة
أو صباح اليوم التالي أحد الاغوات الى درويش واتفق معه بواسطة سكرتيره انه
لا بد ان يصله ٥٠٠٠٠ جنيه بمجرد الحصول على القود . وبذلك اكتسبه في صفه

مع ان التعليمات التي كانت صادرة لدرويش هي ان يعزل توفيق ويولي حليما بدله . ولم ير درویش يعقوب باشا بعد ذلك .

ومضى يوم الجمعة في زيارة للمساجد والصلاة وفي احدى هذه الزيارات قدم له عالم من العلماء عريضة اغتاض لها درویش وحينما حضر اليه العلماء بعد الظهر ليقدموا له احترامهم ويشوه شكواهم قابليهم بخشونة وقال لهم لقد حضرت لانتكلم أنا لا لاستمع لكلامكم . فسبب هذا الحادث حركة غير اعتيادية في المدينة وفي المساء توجهت الرسل الى جميع جهات القطر وأنبأت الناس ان درویش لا يمكن الوثوق به . وفي يوم السبت أرسل درویش باشا في طلب عرابي ومحمود سامي . وحينما حصرا قابليهما بكل ما يملك من مطاهر الاحترام . وأجلسهما بالقرب منه وتكلم معهما عن الحالة . وقد شرح عرابي لي هذا الحادث وقيل لي عبارة درویش وهي « نحن هاجموا اخوة وأبناء السلطان وان لحيتي البيضاء هذه تسمح لي ان اكون أبك أنت أيضا وغرضنا واحد وهو ان نصل الى تحويل الاسطول عن ميناء الاسكندرية الامر الذي يعتبر مسببا للسلطان وتهديداً للمصر . — وطلب اليهما ان يتقوا جميعاً على ان يعملوا لهذه الغاية وعلى المحصور عرابي ومجلس نظاره لكي يظهر اولاً ثم ليدعم السلطان . ويكون ذلك بتخليهم عن سيادتهم الحرية ولو في الظاهر فقط . ولكي يدخل عرابي السرور على السلطان أيضا فليبه أن يتوجه الى القسطنطينية ولو لمدة وجيزة فقط . وأحباب عرابي على كل ذلك بأنه كان يوده ان يتنحى ولكن الموقف كل من الدقة يمكن وانه أخذ على عاتقه مسؤولية حفظ الامن وانه لا يمكن ان يقف في منتصف الطريق أزاء هذه المسؤولية . فاذا ما تنحي فيجب ان يكون تنحيه تاما واستقالته نهائية في الباطن والظاهر . وعلى كل فانه لا يمكنه أن يتبع أى خطة من هاتين الخطين الا اذا أعطيت له تخلية كناية من الضمان لانه لا يمكنه ان يتحمل تبعات أمور لا يكون له دخل فيها . وقد أنهم في حكمه بالبعث والاستبداد وأمور أخرى وانه لا يمكنه ان يترك كرسبه الا اذا أخلى طرفه اخلاء تاما من هذه الاتهامات . وقال عرابي أيضا انه مستعد ان يتوجه الى القسطنطينية بعد ان نستتب الامر كغرد عادى ليقدم ولاءه الى حلاله السلطان » ولكن درویش لم يكن مستعدا لتلقى هذا الرد وحينما صممه :

يسر منه وامتنع لونه . ثم قال : « ظلمتكم الآن الامور قد استقرت . وما عليك حينئذ الا أن ترسل تلمرا الى محافظ الاسكندرية وقائد الحامية تخبرهما فيه انك تسحب عن مركزك لى وانك ستعمل كوكلى وسيبقى يوم الاثنين اجتماع في عابدين من الخديوى والتناصل وفي هذا الاجتماع نخليك من ضياتك للامن . ولكن عرابي رفض ان يفعل ذلك وقال انني سأبقى في مركزى منحملا مسؤولية ضيائي الى أن أنسلم وثيقة مكتوبة نخليني من الضمان وعند هذا الحد وقفت للسألة . ولم يقدم لها درويش في هذه الاجتماع لا قهوة ولا سجاثر وبعد ذلك بعدة ايام اخبرني محمود سامي أيضا بتفاصيل الحادث باجمعا وبعد الاجتماع مباشرة حمل تديم أخباره الى الاسكندرية وعاد الى مصر في صبيحة يوم الاحد .

وكننت في الاسكندرية في يوم الاحد أى في اليوم الثاني وكانت المدينة في سكون تام وعند الساعة الثانية بعد الظهر أرسلت خادمي السوداني ليحضر لى عربية أتوجه بها الى مركز قيادة الحامية وكان القائد شركسيا اسمه خورشيد باشا ولكنه رجل طيب وكان من اتباع اسماعيل باشا ولذلك كان معاديا للخديوى توفيق . وبعد أن تأخر خادمي في هذه المهمة نصف ساعة عاد وطلب الى أن لا أذهب الى حيث اعزمت لان هناك مشجرة عند قهوة الجزاز في شارع الاخوات — وهي بقعة يتجمع فيها عادة في أيام الآحاد جميع أوباش الادرين والحالون الاعراب . وقال لى أيضا انه قتل اثنان من المسلمين . وبعد ذلك توجهت الى المكان على قدمي ولكنى لم اخترق الميدان بل سلكت شوارعنا خلفيا . فوجدت شارع الاخوات مملوءا بالتحلوقات من افرنج ومسلمين ولكنى لم أر اقتالا بالقرب منى . ولكن على بعد مائتي ياردة شاهدت الجماهير توج كالبحر ورأيت طلقات نارية تطلق من الترافد ولم تلبث المعركة أن تقدمت الى ناحيتنا وتراجعت الى ان وصلنا الى مدرسة الرهبان حيث رأيت أمام قهوة من التهوات حوالى اثني عشر روميا مدججين بالبندق وحينما نركنا الطريق بدأوا في إطلاق النيران على الجماهير بدون حساب . وفي هذه اللحظة رأيت عربية بداخلها جندي من جنود البوليس مجروحاً أو قتيلاً . ويظهر أن هذه كانت إشارة الخطر اذ بعدها مباشرة حضر مندوماً الى مكان الحادث جمهور من المسلمين من كل

ناحية وأغلبهم من البرابرة والاعراب من أهل الصيد مدججين بالعصي وعندها أصبحت الطافات النارية عامة في كل مكان ولذلك عدت الى منزلى . ولايت في طريق عربة بها المستر كوكون وأخبرني احد المارة انه كان بمنزل رجل مالطى قبل ذلك بقليل وان هذا المنزل نفسه هو الذى أطلق منه الرصاص وحيثما كان المستر كوكون خارجا منه ضربه الاهالى لانهم اعتبروه مسئولاً عن اطلاق الرصاص . والمعروف انه كان نصيح للمالطيين قبل ذلك بان يحموا أنفسهم في حالة حدوث هياج ثم قابلت عقب ذلك عند الساعة الثالثة عمر لطنى بتشي في ملابس عادية مع نفر من البوليس وسأله عن السبب الذى منعه من إيقاف الاضطراب . فقال « اتدكنت مع القنصل الانجليزى الذى ضربه الاهالى » فقلت « ولكن لماذا لم تذهب لباسك الرسمى ومعك خمسون رجلا من البوليس السوارى وتوقف الاضطراب » . فقال انه لم يتر على قنديل رئيس البوليس . « ولكن الحد . لماذا لا يقومون بالعمل مع أنفسهم » . فاجاب انهم يعتقدون احتياجا الآن « فأثته ولماذا لم يرسل تلغرافا لمدوب السلطان ؟ فاجاب في غلظة « وما شأنك وهذا . » وكانت القنصلية الفرنسية مملوكة باللاجئين الاوربيين .

وبعد ذلك توجهت الى منزلى وارتديت اردأ ملابسى وحملت عصاة يدي ثم خرجت ثانية ورأيت بضعة أطفال يحرقون بأمتعة سرقتها من المحلات التجارية وكان رجال البوليس موجودين حينئذ ولكنهم لم يفعلوا اى شئ . لمنع الاقتال وفي هذه الاثناء قابلت احد حراس القنصلية الروسية واخبرني ان القتال دائر ايضا بالقرب من الميناء وان المسافرين الذين كانوا على ظهور المراكب في ذلك اليوم قد ضربوا والقنصل اوسلوا تلافراغات الى مندوب السلطان . وكان ذلك عند الساعة الثالثة ونصف او الرابعة وكان الكل ينتظر ان يتدخل الجيش في الامر وعند الساعة الخامسة ظهرت الفرق وانتهت الفتنة . وأني اعتقد من مساء عمر لطنى ومن ظروف اخرى ان عمر لطنى مسئول عن استمرار الهياج . فقد كان الجيش يتدخل قبل ذلك لو انه طلب من الجيش التدخل ولم يتكأ .

ومن المرجح لهذا الاعتقاد الظرف الآتى . بعد الهياج بارعة أيام توجه عمر

لطفى الى المركب الاول بالاسطول الماربط وأخبر الاميرال سيمور انه غير مسئول عن النظام وان عرابي عاجز أبصاً عن المحافظة عليه . ورجاه ان يرسل مرافقاً عنده وطلب ذلك في وقت كانت المدينة في هدوء تام . وكان عمر لطفى خضماً لمرابي وصديقاً للغديوي . وقد نجي عن مركزه كما سمحت بناء على طلب القناصل ترصية لمرابي العام وذلك حينما اعتزل راعب باشا الحكم وجاءت نظارة ذو الفقار . واوقفت لجنة التحقيق عن متابعة أعمالها حينما طلب عرابي أن يكون التحقيق شاملاً يتناول الاوروبيين والمصريين على السواء .

وقد علمت تفاصيل مقابلة عمر لطفى للاميرال سيمور على ظهر باخرة المستر ماربوت الذي كان يتخذ سيمور سكرتيراً له وعلمت بعض المسائل الاخرى من المسيو دى لكس القنصل الرومى .

اما من حيث منشأ المشاعات فهو كما يأتي : أحدث وصول الاسطول الى مياه الاسكندرية شعوراً عداًئياً شديداً بين المصريين وبين الحامية الاوروبية . فالأوروبيون رأوا في حضور الاسطول مقدمات أولى للحرب وأصبحت معاملاتهم للإهالي على شئ كبير من العنف وكانوا يقولون « الآن سترون ماذا نفعل » وبالقسبة للمصريين أصبح الحوادث موضع حديثهم اليومي وأثيرت بينهم احتمالات كثيرة . وانتشرت فكرة جديدة وهي ان الجنود ستنزل من الاسطول الى البر وان البلاد ستحتل بالانجليز . وكثيراً ما سئلت في هذه الاثناء عما اذا لم تكن هذه هي نية الاسطول الحقيقية وازداد هذا الظن رسوخاً حينما عرف انه كتب عقد بين الاميرال سيمور والمسيو كنراد فنون الاسطول لمدة ثلاثة أشهر وأصبح الناس ولا حديث لهم الا ذلك وازداد المياج ولكن الشهور ضد الفرنسيين لم يكن بهذه الصفة العدائية لان لما رقب الذي وقفه الاميرال كنراد حينئذ لم يكن عداًئياً بل على العكس من ذلك كان يصل دائماً على التوفيق بين الوطنيين . وقد سبب هياج الاممكر بين الاهالي فزع الاوروبيين وحموصاً الانجليز والمسايطين منهم الذين كانوا دائمي الاستشارة لقاصلهم عن الطريقة التي ينبغيها لحاية أنفسهم في حالة حدوث اضطراب وقد أخبرهم المستر كوكسون ان يستمدوا الحاية أنفسهم في أواخر مايو او اوائل يونيو

وعرف في الوقت نفسه انه أرسلت آلات نارية من اليونان لتسليح الادوام
بالاسكندرية . واشترى الانجليز كل ما عثروا عليه منها في المدينة وعلمت من موطنى
مصلحة الجمارك ان بنادق ومسدسات من ماركة منبدر أرسلت اليهم من الاسطول
وبناء على ذلك أصبح حدوث معركة من المسائل المؤكدة تقريبا واذ كان يوم
الاحد هو اليوم الذي يتجمع فيه الاوروبيون في القاهرة وفي الطرقات لتعاطى
المشروبات ، فقد كان ينظر الى كل أحد نظرة خاصة وكان توقع الخطر بهذه القوة
التى ألبأت كثيرا من مسالى المصريين والاوروبيين على السواء الى ترك القطر .
وبدأ المسلمون كذلك يلحون أنفسهم بالمعصي وعلى الخصوص النوبيين الذين
كان يوجد منهم بالاسكندرية ٣٠٠٠٠ . ومن المعلوم ان البرابرة قوم مشاغبون
ومحبون للاقتتل . وكان كثير منهم متعلقا لشراكة في هذا الحادث .

والقصة التى ألفت الى عن منشأ الحادث في هذه الاثناء هى كما يأتى : فى صبيحة
يوم الاحد الحادى عشر من الشهر حضر أحد الماطلين لزيارة أخيه الذى كان في
خدمة المستر كوكون . وأخذ حنبها بقتيشا من القنصل وخرج ليستمع به في المدينة
وركب عربة وأخذ يدور بها على جميع الحارات فى الحى الاوربى وأخيرا وصل
الى قهوة الجراز . وكان سكرانا فى هذه اللحظة وأراد أن يصرف السائق ويعطيه
قرشا واحدا فقط . فتنابروا ما كان من الماطلى الا أن قبض على سكين من سكاكين
القهوة التى تستعمل لقطع الجبن وكانت مربوطة في خيط كبير متصل بالخوان «الترابيزة»
وطعن بها السائق . وكانت طعنة نجلاء أصابت احشاء الرجل وحينما أتى آخر ليعاون
الجريح قتل أيضا يد يوناني آخر . وفي المشاجرة التى تلت هذا الحادث قتل خباز يوناني
كان يعيش في البناء الملاصق وبذلك أصبحت المشاجرة عامة . وكان معاون قسم
القبان وهو الرئيس المباشر لبوليس هناك ابطاليا لا يعرف اللغة العربية ولم يتمكن
من إيقاف المشاجرة . وجرح أحد رجال البوليس من اتباع المعاونة المذكور أما
البقية فقد انضمت للمشاجرة وناصرت الاهالى . وهذه المعلومات تلقينها عن رجل
من رجال البوليس المسيحيين وكان حاضرا وقت الواقعة .

أما بالنسبة لتعديل رئيس البوليس فقد كنت رأيته في يوم الخميس السابق يحمل

سوماريقا وعلت انه مريض لاني جسست نبضه وكان مصابا بالحمى . ولو ان عمر لطفي أراد أن يوقف الهياج لامكنه ذلك بكل سهولة .

والسبب الحقيقي في انتشار الهياج بهذه السرعة هو عرض الموتى من المسلمين لانظار الجمهور . وقد رأيت ٧٨ أوروبيا قتل وعلت من السكرتير المسلم في لجنة التحقيق وكذلك من الدكتور المسلم وهو مصطفى بك نجدى أن عدد القتلى من المسلمين كان مائة وأربعين منهم ٢٥ بربريا .

وكذلك كن للاعراب من قبيلة أولاد على ضلع في المشاغبات فقد رأيت ٢٠ أو ٢٥ منهم بالقرب من بيت جبارا وشاهدتهم يفتحون مخزنا للأسلحة النارية وكان أولاد على في هذا الوقت متحيزين للخدوي بمدان أخذوا ٢٠ ألفا من الحسبات رشوة من مدير البحيرة ابراهيم توفيق في دمهور . وسمعت فيما بعد من أحد موظفي مكتب التلغراف المحلى أن عمر لطفي أرسل في هذا اليوم كثيرا من التلغرافات الشفوية الى نائب السلطان .

وأقرر أيضا اننى لم أترك الاسكندرية مطلقا قبل يوم ١١ يونيو بيضة أيام وبقيت بها الى ما بعد اطلاق القنابل عليها من الاسطول .

الملحق الثالث

خطابات من عرابي ناشأ لم تدمح في أصل الكتاب

مترجمة عن العربية

إلى الماستر بلنت من القاهرة .

٢٢ نوفمبر سنة ١٨٨٢

الى صديقي وروح جاني الماستر ولوفر بلنت .

أدامه الله

بعد تقديم أوفر تحيائي وشككم أحر أشواقي لرؤية وجهكم المنير . أخبركم أنني نشرفت باستلام خطابكم المؤرخ ٣ نوفمبر سنة ١٨٨٢ وحدث الله على نعمتكم بالصحة التي أنعمي دوامها . ألبسكم الله حال العافية والرخاء . والحق أن خطابكم ملا في سروراً بلوحة أعجز عن التعبير عنها . كما أنني أوجو أيضاً أن تبلغ وافر تحيائي لحرمكم المصون اللادى بلنت

والآن أخبر حصرتكم أنني لا أعبا بالآلامي ولا بالسجن ولا بالسباب ولا بأي شيء . يوجه الى بعد ذلك مادمت قد وقفت نفسي على حرية بلادى ولا شيء . يعني الآن الا أن أتقد أهل بلادى من هذه الهوة الملوثة بالآلامي السامة وأن أتشلهم من محالب هذا التنين الفظيع — ويكون ذلك بمعونة القضاء . من الانجليز الذين يفارون على صحة بلادهم وشرفها .

وأريد فوق ذلك ان كان في العمر بقية أن أعيش طليقاً في دمشق مع أولادى بعيداً عن السياسة مادمت بعيداً عن مصر واذا لم يسمح سلطان المسلمين بأن أعيش بين المسلمين قاني أفضل أن أفطن لتسدين مجاوراً لآخواننا من محبي الانسانية ومساعدتها وأعيش هناك كرجل حر في أرض الحرية — ولكن على ألا أكون محتدقاً او اشراف . وكذلك أصدقائي وأعواني الذين قدموا لأرواحهم في سبيل الوطنية يجب أن يعيشوا أحراراً . ومقابل ذلك قاني أعطي كلمة شرف أأكيدة

أن لا أمدخل في الامور السياسية في الوقت الذي أعيشه بعيداً عن بلادى » الى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

اما من حيث الطريقة التي ألقى بها الخصوم على النهم فيما يتعلق بمحوادث ١١ يونيو و ١٢ يوليو — فهذه مجرد اقتراعات لا يمكن اثباتها بأدنى دليل أو برهان منذ كانت هذه الاعمال تتنافى مع أعمالنا الشريفة . وقد اجتهد خصومنا أن يشيروا أوروبا ضدنا بهذه الاتهامات لكي يمزقوا الحريات التي حصلنا عليها لبلادنا أربا وينزروها في الفضاء . ومن يدري فربما أفاد ذلك بلادنا ويأتي وقت تستكمل فيه حريتها وحلاصها باتجاه الرأي العام الانجليزي الحر اليها رعباً عن مساعي خصومها المكشوفة

واني لا أعيا بهذه الاقواب العارضة التي لم أكن أرغب فيها في اى وقت من الاوقات . واني مكتف بشرق الشخصي الذي سوف يلانمنى ماحيت ويبقى بعدى ادا مت . وسوف يرضيني دائماً أن أنادى « باحد عرابي المصري » فقط وبغير اقواب .

وفي الحتام أرجو أن تبلغ اوفر نحياتي لحضرة صديقنا العزيز المستر مايونجى والمسيو جون نيه واخوانك الذين انفضوا اليك في الدفاع عن الانسانية ومن عدنا محمود باشا سامي وعلى باشا فهمى وعبد العال باشا حلى والشيخ محمد عبده واحمد بك رفعت يلفونك نحياتهم . أدام الله عرك يا صديق المحبوب صديقك احمد عرابي

من القاهرة

الى المستر بلنت

الى مهجة أرواحنا ومنفذنا المستر ولفرد بلنت . أدامه الله وأبقاه

بعد تقديم وافر نحياتي والتزويه بشرفكم الذي يعجز عن استيعابه الوصف أخبركم أنه بناء على تعليماتكم ومشورة حضرة المحترم المستر برودلى والمستر نايبير قد اعترفنا بالثورة ضد الخديوى وصدر الحكم علينا بالثبوت المؤبد . ولكن موافقتنا على ذلك لم تكن الا لتخفيف المصاعب التي تحيط بالسياسة الانجليزية وان تقفنا في عدالة

الشعب الانجليزى يحبطا نعتد انا سنحصل في المستقبل بطريقة تزيد من مجد اسم
انجلترا في التاريخ . وقد عاملتنا الحكومة المصرية من ناحيتها معاملة مخالفة للقانون
والعوائد المدنية في الاسلام فاصدت رسوما تصادر به أملاكنا وأراضينا ومواشينا
مع ان الحكمة العسكرية نفسها لم تضمن حكمها قراراً كذا كما أن هذا المرسوم مخالف
للشريعة الاسلامية ولم يكن له مثال الا في حادثتنا . لان قضية درويش باشا التي
حكم عليه فيها بالنفي وبالحرمان من الوظائف والاقاب ومن كل شيء . الا أملاكه
فقد تركته ومقدارها ثلاثون الفا من الجنيهات — أو تزيد والاعجب من ذلك اننا
حررنا من التوارث بنا . على الشريعة الاسلامية في المستقبل وهاك أمر آخر لا يعدله
شيء في الظلم والاستبداد وهو اننا حررنا من حق آخر ثابت لنا بمقتضى الشريعة
الغراء — حررنا من ان يرث أبناؤنا أملاك آبائهم وأجدادهم بعد موتهم . وقد
احتجنا على ذلك بواسطة محاميننا في المحكمة .

والآن نحن متجهون الى حديقة آدم : سيلان . ولكنى قبل ذلك قد أبنت
وجهة نظرى فيما يتعلق بسعادة مصر ورخاء أهلها لسير شارلز ولن ليكي يرضها
على الورد دوفرين . وسأصطحبهم الى سيلان ابني محمد وزوجته وخادمتهم وخادى
الخاص فقط وسأترك في القاهرة أولادى الآخرين وأهمهم وأمي الى ما بعد الوضع
وبعد أربعة أشهر من الآن أى بعد الوضع باربعين يوماً سأرسل ابني الى مصر
ليأتى بهم الى سيلان . أما اخوتي فيقيمون مع أقاربهم في القرية وبما ان الحكومة
المصرية لم تحدد مرتباتنا الشهرية الى الآن وتركنا تقرير ذلك لسعادة محافظ جزيرة
سيلان حسب ما يراه من تكاليف المعيشة هالك فاني واخواني نأمل من عواطفك
واحساسك الشريف ان تكتب لسعادة محافظ سيلان وكذلك نأمل ان يكتب
اليه صديقنا السير وليام جرمجورى لكي تعامل وتقدر مرتباتنا تقديراً حسناً . كما
اننا نرجو ان نسى في تخليص ممتلكاتنا من المصادرة وان تجعلنا نعامل بشأنها
حسب الشريعة الاسلامية والعرف الاسلامي وان تحصل من الحكومة المصرية على
نصرح برسالة ثلاثا الى سيلان على نفقها الخاصة لانه يستحيل علينا ان نفق
أي شيء في هذا السبل وحالتنا المالية المصرة معروفة للجميع .

وانا نرجو بجرارة أن يكون أصدقاؤنا وأقاربنا في مصر تحت حماية ممثلي الحكومة
الانجليزية فيها حتى لانسي. الحكومة المصرية معاملتهم وتذمم منهم باتخاذ اجراءات
غير شرعية ضدكم ولذلك فنحن نضع أنفسنا وأصدقاؤنا وأقاربنا في ظل حي الدولة
البريطانية ونحن مطمئنون تمام الاطمئنان والآآن يا صديق الحبيب سنتبع نصيحتك
الصادقة التي أسديتها في خطابك المكرم المرسل لنا بتاريخ ٨ ديسمبر سنة ١٨٨٢
وسنمضي أيماننا في سيلان في تعلم اللغة الانجليزية وفي عبادة الله تعالى دون أن
تتدخل في أي أمر من أمور السياسة على وجه الاطلاق — الى أن يأتي وقت بمشيئة
الله أو يهي. الله لنا ظروفا تقنع انجلترا اننا لم نكون نافرين — بل على العكس من
ذلك كنا ندافع عن بلادنا دفاعا شرعيا

ونرجوك أن لا تفرغنا من اخبارك الشيقة التي نحن دائما في تشوق اليها .
وأرجوك ايضا أن تبلغ تحياتي وتحيت عائلتي الى السيدة المصونة اللادي آن بلس
والى اللادي جرمجوري وشكرنا العظيم على كل ما فعلوه لنا وخدموا به الانسانية
وكل لخواني هنا — يعقوب سامي ومحمود سامي ومحمود فهمي وعلى فهمي
وعبد العال حلبي وطلبة عصمت واحمد بك عبد الغفار يرجون أن تذكرهم ويلقونك
اسمى تحياتهم ونحن جميعا نرجو أن تبلغ تحياتنا لصديقنا السيروليم جرمجوري والمستر
لويس صابوهمي والمنسيو جون نينه وجميع أصدقاؤنا من ذوي المروءة الذين ساعدوك
في الدفاع عن العدالة .

ادام الله لنا حياتك يا صديق في سلام دائم

صديقك الخاضع لامر الله
احمد عرابي المصري

٢٢ ديسمبر سنة ١٨٨٢

خطاب من عرابي

كتب في كولومبو في ٧ يوليو سنة ١٨٨٣

ووصل الى لندن في ١٤ اغسطس سنة ١٨٨٣

الى صديق العزيز الخ صابونجي

بعد التiche أخبرك أني تسلمت بسرور خطايك المؤرخين في ٩ و ١٥ يونيو
واطمأنت لما جاء، فبهما من حسن صحتك الخ .

واني أشكرك وأشكر اخوانك أنصار الاسانية لاستمراركم على محاربة جيش
الظالمين وعلى تديده شباتكم واني وإن كان واجبي الآن أن لا أدخل في الامور
السياسية إلا أن العدل يقضي على أن أبرئ درويش باشا من تهمة الاشتراك في
مذبحه الاسكندرية وأقول هذا دون اي شك او تردد . ولكن لا أبرئه من انه
أحد رشوة من الحديو فان هذه عادة الأتراك ولكن المبالغ الذي أحده لم يكن
المتحصل من رهن اراضي ميت خالد التابعة لحرم الحديو ، فان الناج من رهن هذه
الاراضي دفع رشوة للبعثة النمانية السابقة التي كانت برئاسة علي نظامي باشا وكان
مبلغها ٦٠,٠٠٠ جنيه أرسلها ثابت باشا الشركسي الى الاستانة بحواله من البنك
الانجليزي . وكذلك لم يطلب درويش إلى شينا سوى أن أسافر مع بعض رفاقي الى
الاستانة وكان وهو يعرض ذلك يقول للضباط انه رئيسهم ووالدهم لكي يغريهم
بالتة به حتي ينجح في حضنا على السفر ولكنه فشل في ذلك .

وقد سبق أن أدليت بتصريح خاص الى المستر برودلي بشأن مذبحه الاسكندرية
وبآخر في الامر نفسه الى صديقنا النبيل المستر بلس ، وهذان التصريحان بوضوحان
ظروف تلك الحادثة . وقد علمت ان احدهما لم يصل الى المستر بلس ولكنه لا يختلف
عن التصريح الآخر وفيه الكفاية . غير آتي لكي أقنعك على الحقائق ولكي أحول

وبين الالتفات للاشاعات الكاذبة اكتب لك ها تفصيلا ما أذكره من الظروف التي سقت حادثة ١١ يونيو والتي حصلت في اليوم نفسه أو بعده حتى تعرفها جميعها وهي كما يأتي :

اما الظروف السابقة للحادثة فهي :

أولا - لما رأى الحديو قدم الحزب الوطني استكثره بالنسبة لنفسه واستشاره وحرره - وكانوا خبرى باشا الشركي وطلعت باشا الروي وأنالهما - وشرعوا يصمون خطة للهدم . وبناء على ذلك استدعى الحديو رعايا البدو بواسطة ابو سلطان باشا وحمد سلطان من عمران الشرقية واستخدمهم لمحاربة الحزب الوطني بعد ان منح بعضهم سيوفاً مزينة بالفضة وشجعهم وأثار أطماعهم ، حتى بدا الناس بوجه عام ان الاسماعيليه صارت معسكر البدو

وكلن الاوريون والقامل في القاهرة يعرفون ذلك حق المعرفة وقد زاد عدد البدو الوافدين لدرجة انه سبب الخوف من وقوع اضطراب وشرع الاوريون يشتررون جميع الاسلحة التي يجدونها في حوايت القاهرة والاسكندرية . وقد أثبت ذلك السير ادوارد ماليت في برقيته التي أرسلها الى الوزارة الخارجية بتاريخ ١١ يونيو ثانيا - لم تنقطع المراسلات السرية قط بين الحديو وعمر لطفي حتى أنتجت مذمجة الاسكندرية وبعض هذه المراسلات كان شفويا والبعض في برقيات رقية وكان يدير حركتها خبرى باشا الشركي وطلعت باشا الروي ولما تم التدبير نفذه عمر باشا لطفي بالتعاون مع اسماعيل كليل باشا الشركي . ولكن السيد قنديل الذي كان من الحزب الوطني لم يشترك معهم في ذلك ولم يدعو يعرف شيئا مما دبروه اذ خشوا ان يقابل سوء أعمالهم بعمل الحزب الوطني فلا يجنون فائدة وهو بعيد عن كل شبهة .

ثالثا - قال باشجاويز ابطالى - ولا أذكر اسمه - لصديق له قبل الحادثة يوم « انه خير له ان يفادر الاسكندرية معه لانه علم ان شيئا من الاضطراب سيحدث » وقد فر ضلا ويعرف اسمه حسن بك صديق وكيل الضيقية وكذلك

ضباط البوايس ولا بد أن يعرفوا أيضاً اسم الشرطي الذي قبض على الماطلي .
ولكن القول بأن البدو أودعوا أسلحتهم في العنينة قبل الشغب محض اختلاق .

أما الظروف التي كانت يوم المذبحة فهي كما يأتي :

أولاً — لم يرسل إلى محافظ الاسكندرية بأ بالمدبحة كما كان واجبه وإنما أخبرني الخديو في صباح ١٢ يونيو أن المحافظ عمر لطفي أرسل إليه تلغرافاً يقول فيه أن مالطياً طعن وطنيا بجديّة ثم لجأ إلى دار يسكنها أوريون وأن الناس تجسّروا مرتقين القبض على المعتدي وأن البندقيات والمسدسات أطلقت عليهم من منازل الأوربيين وأن ذلك أحدث مذبحة كبيرة

ثانياً — لما علم الخديو بذلك لم يخبرني به في الحال على الرغم من أنه يعلم أن السلطة التنفيذية ليست في يده وأنه قل إلى ضمان الأمن العام بعد أن استخدمه لئلا أسباب الاضطراب . بل أنه على العكس استدعى وكيل الحربية ليلاً وأرسله إلى الاسكندرية في قطار خاص مع بطرس باشا والياور الأول لدرويش باشا لينضموا إلى عمر لطفي في قمع الهياج .

ثالثاً — نشبت الجمع كله عند محرد ظهور سليمان بك سامي وحشوده في منطقة الاضطراب ثم وزع الجود في الشوارع وحمل يطوف بنفسه في أحياء المدينة وكذلك وقف الاضطراب في الحال ولكن المحافظ لم يستدعهم ولم يخبره بالامر الا بعد أن اتسع مجال الشغب ونعدت تدابير الخديو وشركانه لكي يسوئوا أعمالنا وينقضوا ضمانتي للأمن العام .

أما ما حدث بعد يوم الحادثة فكان كما يأتي :

أولاً — لما أخبرني الخديو بالحادثة كما قلت آنفاً علمت في الحال أنها مكيدة فأصدرت أمراً على إجراء تحقيق في أسباب الشغب وتعيين مندوبين عن الدول العظمى وآخرين وطنيين لكشف الحقيقة . وثنا على ذلك أصدر ديكريته بتعيين لجنة تحت رئاسة عمر لطفي نفسه الذي كان المسؤول عن الحادثة . وكذلك عين وكيل الحربية و بطرس باشا عضوين بها ولكنني لا أذكر اسماء المندوبين الذين اختارهم الدول العظمى التي لحق برعاياها ضرر

ثانيا - لما وصل وكيل الحرية الى الاسكندرية ووقف على الحالة رجاني أن
رسل قوة عسكرية لتأييد الأمن فارسلت في اليوم التالي للاضطراب فرقتين من
المشاة وبلوكين من السوارى وطارئين من المدفعية وكان ذلك في اللحظة التي طلبت
فيها هذه القوة . وكتبت خطابا الى وكيل الحرية راجيا أن يدل كل جهده لارالة
الاضطراب وتوطيد الامن والهدوء في المدينة وحارجها وأن يكون متبصرًا حين
يبدأ التحقيق وأن يحدد الوقوع في فتاح الخادعين - أعني عمر لطفي وجماعة الخديو -
وأن يدافع عن شرف الجيش والحكومة وأن يعقد بفته على معرفة الحقيقة وكشف
لحرم الحقيق

ثالثا - أمر الحافظ بدفن القتلى دون كشف طبي كما يقضي القانون وبدون
حضور ممثلين للدول

رابعا - لم تبحث لجنة التحقيق قط عن سبب المذبحة ولا عن القتلى وإنما
حصرت بحثها في الاملاك التي نهبت متذرعين بأن ممثلي الدول لم يحول لهم التحقيق
في شيء يخرج عن الاملاك المسروقة

خامسا - طلب عمر لطفي من الخديو السماح له بتغيير الهواء في سوريا لكي
يهرب من التحقيق ويبعد عن المسؤولية ولكن يعرف أن الحرب داية وقد حصل
على اجارة . ثم ذهب الى القاهرة ومكث فيها الى ما بعد ابتداء الحرب وبعد ذلك
لحق بالخديو عن طريق بود سعيد وقد كافأه الخديو على نجاحه في اشغال نار الفتنة
باعطائه وزارة الحرية . ولما استقال من منصب محافظ الاسكندرية ومن رئاسة لجنة
التحقيق عين ذو المقام باشا سر تشريفاتي الخديو خلفا له ولم يقم بأى عمل .

سادسا - كانت أوراق التحقيق مع الحافظ عمر لطفي ولم تؤس على شيء من
الصدق وقد حفظت بمحاولة الاسكندرية ولا بد أن نكون هنالك الآن ان لم
يتلفها الخديو

والآن انصح تماما ان اعمال الخديو وجماعته كانت سرية ولم يكن استطاعتنا
أن نقف عليها لأنها كانت مصادرة لاعمالنا وقد استحوذت الحكومة على جميع

اوراقا ووثائقا مع أملا كما ولا يمكننا أن نذكر تواريخ الحوادث بالاصط ولكن في هذا وفيها أرسل سابقا الكفاية .

وجميع أصدقائنا هنا يرسلون اليك تحياتهم ويرحونك أن تسعى حتى لا يعين مصر حاكم غير مسلم لانك تعلم ان أي حاكم غير مسلم يضر بحقوق المصريين .

وقد كتبت آرائى الى صديق العزيز المستر بلنت وحين نطلع عليها سننضم لمساعدتنا . حفظك الله الخ .
صديقك

في ٧ يوليو سنة ١٨٨٣ احمد عرابي المصري

خطاب من عرابي الى صابونجي استلمه يوم ١٤ أغسطس سنة ١٨٨٣

الى صديق العزيز صابونجي

تحيات ... الخ .

سررت كثيرا بمخاطبك المؤرخ في ٢٢ يونيو وأسأل الله أن يعبك ويوفقك في أعمالك وقد بلغت سلامك الى جميع رفاقنا وهم يرسلون اليك تحياتهم .

هنا ويرجوك أن تبلغ صديقنا المستر بلنت اضافة الى ما كتبنا اليه بتاريخ ١٥

الحاري ، ان التفقات التي تكلمها ١٠٠.٠٠٠ جندي مصري أثناء الحرب ، قدوقتها

كلها هات اكتبته بها الامة المصرية على اختلاف طبقاتها وعند ابتداء الحرب لم

يكن ثمة أكثر من ١٠.٠٠٠ جندي تحت السلاح ولا أكثر من ١٢.٠٠٠ بذلة في

الحارن ولم تكن جاهزة ، ولم يكن هناك أيضا غير ١٥٠٠ « بشل » من القمع .

ولكن عند انتهاء الحرب كان في خزائن الجيش والمدريات وفي المخازن ما يزيد قيمته

على مليون جنيه من القود والحاصلات والماشية والعنم والافشة وكانت الامة قد

تبرعت بها للجيش الذي يدافع عن بلادها . وبشهد بذلك اولئك الذين رأوا استلا.

المخازن التي تركت في التل الكبير وكفر الدواو وكفر الزيات وغيرها من المرا كز

الحرية . وفي ذلك الوقت لم ينمق على الجيش درهم واحد من أموال الحكومة بل

بالعكس تركت خزانة المالية وصندوق الدين وخزائن المديرية ملوثة بالاموال .

ويشهد بذلك ايضا ما نشرته الجرائد المحلية وغيرها في ذلك الوقت وهو أن المباح

التي وجدت في صندوق الدين زادت على المطلوب لدفع كوبونات شهرى اكتوبر

ووفير بمبلغ ٣٥٠٠٠٠ جنيه ولم يقل أحد أن املاك الحكومة صودرت أو نهبت . ولو كما ممن يبعون شرفهم أو ممن يقدمون رجاؤهم ومصالحهم الشخصية على المصلحة العامة لاوطن لاخذنا الاموال التي كانت تلك الخرائن المملوءة ولكنا تحت تأثير الرغبة في الغنى نقوم بأعمال مختلف تماما عما عملناه ولما سرنا في طريق الاستقامة نقود الامة في دفاعها عن بلادها محترمين حقوق الامة التي نماربنا وحقوق الامم الاوربية الاخرى في أثناء الحرب ، ثم لما سلمنا الودائع التي كانت بأيدينا بذمة وشرف ، وان الرجل الذي يدل على مثل هذه القمة وهذا الشرف لا يليق به أن يصير آلة بأيدي المستبدن ذوى النيات السيئة أو يؤجر نفسه باموال من السلطات أو من الشيطان بل انه في حرصه على شرفه ومسلكه يخشى أن تشوبها أية شائبة .

وقد أرسلت رفته هذا خطابا الى صديقا السير ولیم جريجورى وأرجو أن ترجمه وترسله مع الترجمة الى عوامه بعد أن تراه لصديقنا العزيز المستر بلنت . نسأل الله أن يبينك على الخير

صديقك المخلص

احمد عرابي المصري

حاشية — يا صديق العزيز أرجو لك هذه المناسبة ان تذكر صديقا المكرم بما قلته في ختام نصريحي للمجلس الذي حاكمي ، وهو كما يأتي :

يا أنصلو الانسانية : اذا لم تكن نمة حركة وطنية ولا رأى عام في مصر بل كانت هناك حركة عسكرية كما يقول المفرضون ، فلماذا سجن عشرون النامن الوطنيين بعد الحرب ومن بينهم حسن باشا الشريبي أكبر سرة الوجهة القبلية أبا عن جد وسيد ابو سلطان الذي ساعده حين كان (ابو سلطان) بمجرد موظف في الحكومة . وأيضا عبد الله باشا فكرى العلامة المشهور صديق حسن الشريف باشا . ومن بينهم أيضا صديقاى محمود باشا سامى ومحمود باشا فهمي الاذان تقوفا في الجيش أثناء الحرب . ومن بينهم كذلك كثير من كبار الباشوات ورؤساء المصالح المدنية مثل حسين باشا الدرملى ومصطفى باشا نايلى وآخرين ، وكثيرون من العلماء الكبار وأعضاء مجلس النواب والدبرين والمتين والموظفين المدنيين من جميع الدرجات وأعيان التجار والصد ومشايخ البدو ومشايخ الطرق الصوفية ، حتى ان سجون القاهرة

والاسكندرية والمديريات والمحافظات كانت نحتق بهم أنا، سجننا . وأخيرا نفي كثيرون من أدكياتهم من الاراضى المصرية . فاذا اعتبر الجيش وحده فى حالة ثورة فلماذا عوملت الامة هذه للعاملة ؟

ولكن من جهة أخرى اذا كلن الجيش وزعماء الامة — او الامة المصرية كلها فى الحقيقة — قد اتحدوا رغم اختلاف العقائد واتفقوا جميعهم على واحد هو الحق، فلماذا تأتى أمة أخرى معروفة بأنها تقبم عهد الحق والعدل فتسحق هذه الامة المنكودة الحظ لكي ترضى فردا واحدا لا يسمح له قانون بلاده بان يكون حاكما باى حال وذلك رغم احترام الحكومة الانجليزية للقانون والدين ، وكيف يبدو مثل هذا المسلك أمام العالم المتمدين فى التاريخ ؟

احمد عرابى المصري

خطاب من عرابى الى المستر بلنت

كولومبو فى نوفمبر سنة ١٨٨٣

الى صديقى العزيز المكرم . . . الخ المسنر بلنت حفظه الله

اذكرك الآن بطروف العهد الخفيف الذى حل ييلادام مصر ودفعني الى ان اكلف مسيو لويس صابونجى بان يكتب اليك خطابا باسمي بشأن النتائج التى تنجم عن محاربة انجلترا لمصر والاحوال التى تصير اليها البلاد راجيا اياك ان تبين ذلك لرئيس الوزارة المستر غلادستون . وكنت اؤمل قبول هذا التصريح وجنى بعض الخير من ورائه . وكان ذلك قبل ابتداء الحرب بضعة أيام . وقد كتبونفى رغبتى وبأمرى وان كلن الخطاب لم يكتب بخط يدي ولم يختم بختمى . وقد كتبت اليك هذا الخطاب لآنبئك بحقيقة تلك المسألة يا صديقى الكريم .

صديك

احمد عرابى المصري

١٠ نوفمبر سنة ١٨٨٣

قائمة بأسماء المكتتبين

نلدفاع عن عراقي

جيه	شطن	بنس	
١٠٠	٠٠		اللورد وتورث
٦١	١٧	٦	مبلغ جمه فريدريك هاريسون
٥٠	٠٠		ج . باسكور ادواردز عضو البرلمان
٥٠	٠٠		رينشارد ايف
٢٥	٠٠		السير وليم جرمجوري
٢٠	٠٠		وليم جون ايفلين عضو البرلمان
٢٠	٠٠		روبرت هاريسون
٢٠	٠٠		السير ولفريد لوسن . عضو البرلمان
٢٠	٠٠		ايرل آوف ويميس
١٠	١٠		الانور ايل ا. يورك
١٠	١٠		سبنسر تشارنجن
١٠	١٠		فردريك هاريسون
١٠	١٠		الجنرال اللورد مارك كز
١٠	١٠		صمويل ستوري عضو البرلمان
١٠			الرايت انور ايل روبرت يورك عضو البرلمان
١٠			ر . فودمي
١٠			ت . س . كلوجوم
١٠			اللاي جرمجوري

بنس شن جنیه

١٠

السیر آرثر هوبهوس

•

ف. بکستون عضو البرلمان

•

اللورد راندولف تشرشل عضو البرلمان

•

ادوار کلارک عضو البرلمان

•

ر. س. فیشر

•

الجنرال س. ا. غوردن (مع الوعد بمجیه كل سنة)

•

الاونورابل اوبرون لفربرت

•

وتنورث س. هولده زورقی

•

الفريد النجورث عضو البرلمان

•

ا. کنجلیک

•

فرنون واشنجتن

•

السیر هنرى درموند وولف عضو البرلمان

•

ادجار درموند

٣ ٣

ملحوظه — جورج مردیث وولفرید مینل وآخرون اکتفوا بمبالغ أقل .
واللورد دلاوار اکتتب علی ما اعتقد بمبلغ ١٠٠ جنیه ولكن ليس عندى مذكرتها .

خطابات صابونجي

التي وردت إلي من مصر

القاهرة في ٢٧ يونيو سنة ١٨٨٢

في ليلة أمس (الاحد) زرت منزل محمود سامي الذي يجتمع به زعماء الحزب
الوطني كل ليلة للمناقشة في خطتهم . وفي الوقت نفسه لفت فوزي بك مدير البوليس
الانظار الى اعلان من الحديو منشور في الجريدة الرسمية بشأن الاضطراب الاخير
الذي حصل في الاسكندرية . وقد أحضرت الجريدة في الحال وأعطيت لديم فقرأ
الاعلان في صبيح فأحدث في الحاضرين أثرأ سيئاً شديداً . أما أنا فاني لم أحد
اى خطأ في الاعلان لانه وصف حالة البلاد بمجمل وأبدى الاسف لما حدث وقله
الثقة من جانب الأوروبيين ثم دعا الى السلم والهدوء والسلوك الودي اراء المسيحيين
على اختلاف جنسياتهم الخ . . . وقد انتقد نديم وغيره هذا الاعلان وأثاروا مناقشة
حاددة استمرت حتى الساعة الثانية صباحا وحاولت عينا ان أنصح لهم وأهدئ
نفوسهم ولكنهم أصروا على القول بان الحديو ليس من شأنه أن يذيع مثل هذا
الاعلان وان ما لبت هو الذي نصح له به . وقد حاولت عينا أن أبين لهم أن ما لبت
غادر الاسكندرية منذ يوم الاربعاء . ولكنهم حتموا أن يخلع توفيق وأن يولى ابنه
عباس بك بدلا منه تحت الرصانة . والواقع أن نديما رغم خلقه الثورى الطيب وميله
الى اصلاح مفسر من دفع سبل التآمر وأسوأ ما شهدته منه أنه كلما وجد نفسه مغلوبا
في مناقشة ففز في علف الى موارد التعصب الديني وشر ما في الامر انه بعيد عن
التدين ولكنه يتظاهر بحماسة للدين تفوق حماسة شيخ الاسلام . وعرابي باشا
يعرف كل ذلك وقد نصح له فعلا بالاعتدال ومنعه من السفر للاسكندرية خشية
أن يحدث شيئا آخر لان له هناك نفوذاً أكثر من أى مكان آخر . وأنا أبذل ما في
استطاعتي لفيلاهم ولا أضن بأى جهد في هذا السيل ولكنى أخشى خلق نديم
المتبع فانه يستطيع في أى أية لحظة أن يشعل نار حرب دينية

وقد كان الحزب الوطنى حتى الاسبوع الماضى راضيا عن الوزارة الجديدة ولكنه اليوم انقلب خصما لها وكان نديم وسامي قد اقترحا ان يشمل برنامج الوزارة أن جميع المكاتب الاجنبية الرسمية يجب ان يكون طريقها الوزارة وحدها وأن الحديو لا يحق له أن يقبل تلك المكاتب الا بموافقة مجلس الوزراء . ولكن الحديو رفض هذا الحد من سلطته فاراد الوزراء أن يحولوا دون قيام صعوبات جديدة وانفقوا على تخفيف صيغة الفقرة . ولكن هذا العمل الذى اتخذته عرابي ووزراء آخرون في اعتدال وتبصر حرك شعور نديم فثار ضد الوزراء والحديو معاً وشرع يدعو الى خلع هذا الأخير . وقد جاء في إحدى البرقيات أن مالت سافر الى فينيسيا وأن المستر كارتر عين بدلا منه ويقول برقية أخرى أن السلطان أرسل الى عرابي بشا وسام المجيدى والى الحديو وسام « سوفير » مرصفاً بالمال .

القاهرة في ٢٩ يونيو

ذهبت بالاسبوع لارى حديقتك وكان نديم معي وكان الحر شديداً وقد مكثت هناك طول النهار وكان الوكيل الاوربي ولا أعرف اسمه (هو المستر روسل من لجنة الدومين) قد فر مع بقية الاوربيين الذين غادروا مصر أخيراً . وقد شكوا الجنائي العربي البينا عدم معرفته من يلجأ اليه في حالة الضرورة . وزارني يوم السبت ومعه حسابات راجيا أن أرسلها اليك ووعدته بان أحضر له وكيلاً مصرياً أهلاً للثقافة ورجوت نديما أن يدلني على أحد معارفه . والحديقة في هذه السنة أكثر انتاجاً من المعتاد والمياه وافرة .

نسيت أن أخبرك في خطابي السابق ان انصار الحديو حاولوا أن يسموا نديما بسيجارة مسمومة وقد دخن نديم جزءاً منها وهو مطمئن فكان هذا الجزء كلب لأن يفتقه وعيه وبصره مدة خمس وثلاثين ساعة . والحق ان نديما حركه دأعة .

وقد كان عرابي في الاسكندرية يوم ٢٧ الجاري وعاد منها الى القاهرة قبيل إرسال البرقية اليك وقضيت طول الليل معه . وكان محمود سامي والباشوات الآخرون وندى وعبدو حاضرين وحوالي منتصف الساعة الثانية عشرة ذهب الجميع ولكني بقيت

مع عرابي وسامي ونديم وحدثني عرابي عن الاستعدادات الحربية القائمة في قنط مخرمة من مصر. وقد أنخضت الاجراءات لردم قناة السويس في حش ساعات عندما تبدو من جانب اوربا أول دلالة على العداء. والمطاهرة البحرية الحقاء التي قامت بها انخترنا وفرنا قوت الحزب الوطنى مائة مرة حتى صار عبارة عن الامة نفسها. وأنت نعرف تمام المعرفة ان الدوافع الدينية تلعب دوراً كبيراً فى مثل هذه الظروف وأن البعض ممن لا تؤثر فيهم العواطف الوطنية والسياسية تقوم الحاسة الدينية، وكذلك الحالة فى مصر وأخشي مما أراه وأسمعه ان تملن الحرب الدينية عند أول بادرة للعداء. من جانب أية دولة اوربية. والحالة الحاضرة سيئة جداً وقد علت من قنصل ايطاليا ان ١٠٠٠٠ شخص عادروا مصر مند قدم الاسطول ودعت الانفصالية البريطانية الرعايا البريطانيين الباقين الى المهاجرة من مصر حالا، والذين يختارون البقاء يجب عليهم أن يوقعوا اقراراً بأنهم يقون هنا تحت مسئوليتهم الشخصية والرعب القاتل يشمل الآن جميع الاوربيين على اختلاف طبقاتهم ولا يوجد اكثر من اثني عشر محلا اوربيا مفتوحة وتغلق الفنادق ابوابها وليس هنا محلات مؤنثة لتؤجر ومنظر الاحياء الاوربية بالفاهرة نادى الكآبة ولكن الاحياء العربية مثل ما كانت عليه من قبل نستمتع بالحياة بطريقها الخاصة والملاحون وحدم فى قلق لانهم لا يلفون من بشترى حاصلاتهم وقد مضت الآن ست سنوات والحاصلات بهذا الوفرة والقمع الذى كان يباع بخمسة وعشرين فرنكا على الاقل لا يجد الآن شاربا بخمسة عشر فرنكا بينما قيمته في انجلترا خمسة وثلاثون فرنكا للربع. ونمة ربح قدره خمسون فى المائة على الدوام وقد فر الاوربيون الذين كانوا يجوبون داخلية البلاد وبشترون من الفلاحين حاصلاتهم وأخذوا معهم أموالهم.

الاسكندرية فى أول يوليو

رأيت أن اذهب الى الاسكندرية لان عرابي اضطر الى المكث بها مع راغب باشا والحديدو، وعلى ذلك أتيت الى الاسكندرية اليوم وأجرت غرفة فى فندق (ابات) وهو مزدحم باللاجئين من الاوربيين وفى المساء ذهبت الى سراى رأس التين لأقابل

عراي باشا ولكنه كان مشغولا في مجلس حربي فكننت اليه مذكرة قلت فيها :
 «أولا — مادامت انجلترا تحدث هذه الضجة حول قبة السويس فمن المستحسن أن
 ينخر ممثلي الاول الاوربية بأن القصة بصفتها طريقا دوليا لكل الامم يجب أن تبقى
 محايدة في حالة الحرب مع مصر ولا تمر بها بارجة أو أية سمية بها أسلحة ودخائر
 من تاريخ كيت الى تاريخ كيت . فاذا خالفت ذلك أية دولة فإن الحكومة
 المصرية تدمر القصة في الحال وتقع المسؤولية على عاتق الدولة التي تحمل عليها السيف
 الداخلة في القصة . ثانيا — ينبغي للحكومة أن تنحصر الدول التي أرسلت أساطيلها الى
 الاسكندرية لتوطيد السلم والهدوء في انحاء البلاد بأن يتساءل الاسطول في مياه
 الاسكندرية يدع نفسية المصريين في هياج وهذا خط على الامن العام ومانع للناس
 من الرجوع الى الاسكندرية ماداموا يعرفون أن الاسطول لا يزال هناك . وبناء
 على ذلك يجب أن يرسل انذار الى الدول صاحبة الشأن وفيه انه اذا لم ينسحب
 الاسطول من تلقاء نفسه في مدة اربع وعشرين ساعة تصوب الحصون مدافعها اليه
 وترغمه على الانسحاب . واضفت الى ذلك انه مما يرفع شأن عراي باشا ان يكون البادي
 في هذه الحالة ليرى اولئك الذين هددوه قبل شهر مضى انه بلغ الآن من القوة
 ما يجعله يهددهم ويتعداهم . ثالثا — عرضت على عراي باشا ان يتبع الجنود الجيوش
 التركية ولا يسمح لها ان تنزل الى الارض فان الكراهية السابقة بين الاتراك والعرب
 لم تمت ولن يتفق الجنود الاتراك والعرب معا ووجود الجيوش التركية في مصر سيخلق
 الفوضى ويحدث الاقسام في الجيش والامة ويشل جهود الحكومة بواسطة الدسائس
 المعتادة فخير له ان ينصح للسلطان بان يحجم عن ارسال جيوش الى مصر فاذا اصر
 على ارسال جيوش يعتبر كدولة مهاجمة ويقاوم على هذا الاعتبار .

في ٣ يوليو

في ليلة امس اثناء العشاء ارسل الى عراي باشا صابلا وترجمانه الخاص راجيا ان
 اذهب لزيارته وحالما دخلت غرفة الاستقبال وقف في ادب وقال بمنميا : « كنت على
 وشك ارسال رقية اليك بالقاهرة ولكي علمت انك في الاسكندرية والملك جنت

لربارني بعد ظهر اليوم بينما كنت في المجلس مع راعب . وبعد شرب القهوة سألتني
عك وعن السيدة حرمك وعما اذا كنت علمت شيئا من اخبارك وعن كيفية سير
الاحوال في البرلمان البريطاني . وقد اخبرته بكل ما عرفه قابطاني بان مراسلا جديدا
الجريدة ستاندارد وصل احبرا وزاره ليسأله عن وجهة نظره في الحالة الحاضرة وقال
عراي : « وقد قلت له اني آسف لانه اتعب نفسه في المجي الى بينما كان يستطيع
ان يحصل على كل المعلومات اللازمة من المستر بلنت في انجلترا وهو يعرفني كما عرف
نفسى » فقال المراسل ان الامة الانجليزية تدرك الآن تماما ان المستر بلنت من
اكر اصدقائه المصحين به ولهذا السبب نحسبه مفرضا يغالى في الحقائق . وعلى اثر
ذلك حرت محاوره بين عراي والمراسل وربما قرأها في الاستاندارد . واخبر المراسل
عراي ايضا بان في انجلترا الآن جمعية لحماية الرعايا البريطانيين في الخارج وان هذه
الجمعية تطالب الآن بدماء الرعايا البريطانيين الذين قتلوا في الاسكندرية يوم ١١ يونيو
فأجاب عراي قائلا انه يسره كثيرا ان يسمع ذلك وانه هو نفسه سينضم الى الجمعية
لا يطالب بدماء الرعايا البريطانيين وحدهم ولكن بدماء جميع الضحايا من كل
حسبة الذين ضحى بهم على أرض مصر ، سيطالب بدمائهم من أصحاب تلك
الكلثة . وان من واجبه ايضا ان يطالب بدماء اخوانه المصريين الذين ذبحهم
الاوربيون وان الحكومة البريطانية نفسها كانت سبب الأذى بواسطة ممثلها في
مصر . وقد رجاني خمس مرات امام الجميع ان أرسل أصدق تحياته القلبية اليك
وأبكر احترامه الى السيدة فرينتك وكلم الحاضرين عنك وعن شديد اهتمامك
بالتضية الوطنية وقال انه لو كان كل الانجليز مثلك لأصبحت انجلترا جنة
والانجليز ملائكة

وقد ابدت في خطابك الاخير رغبتك في ان تسمع منى بياننا عن الشعب الذى
حصل في الاسكندرية يوم ١١ يونيو . وبما انى لم اكن في الاسكندرية في وقت
الحادثة أكتب اليك وصفها كما سمعته من الصباط والمصريين والاوربيين ثم كما سمعته
من الشا نفسه ثلاث مرات ثم مرة أخرى في ليلة أمس

في يوم الاحد ١١ يونيو من مالطي مكلرا غر في الحال قبلا فلم يصبر
الوطنيون المشاهدون للحالة حتى يحضر الشرطة بل هجموا على المايلي وقتلوه فوق
الحمار واد ذاك شرعت الجالية المالطية في اطلاق الرصاص من النواذف وكانت قد
تسلحت من قبل . فاحدث هذا اضطرابا عاما بين الجماهير التي تجمعت في الميدان
ومن ثم امتد العراك الى أجزاء عديدة من المدينة واستمر الى الساعة السادسة (أى
نحو خمس ساعات) حتى حضر الشرطة والجند ليفرقوا المتشاجرين

وقد جرح القنصل البريطاني جرحا خفيفا في ظهره بواسطة عصا وهو المعتبر
أصل الحادثة ومديرها ولكنه لم يخرج من بيته وكان الدافع له الى البقاء فيه خوفا
من القتل لا خطورة جرحه . ولكن على الرغم من ذلك بعث السير ماليت في
منتصف الليل الى المراسل لخدنيدي لجريدة « اللدلي تاغراف » يخبره بان القنصل
البريطاني جرح جرحا مميتا وأنه قد يلم الروح قبل شروق الشمس ويرجو ان يرسل
هذا الخبر في الحال الى لندن . غير اني نصحت للمراسل بان لا يتسرع ولن
يرتقب حتى آتية بالنبا اليقين من عراي نفسه وذهبت في الليلة نفسها الى عراي باشا
وسأله عن حقيقة المسألة فلجاني بانه أبرق أربع مرات ولكن لم يأت اليه جواب .
وبينا كنت لديه أنت برقية وبعد خمس دقائق جاء الحاج رازي وكان قد
أرسل من الاسكندرية خصيصا ليخبر عراي بالسبب الحقيقي لاشتب وتفاصيل
حدوثه فعدت في الحال الى المراسل وأخبرته بان مسألة القنصل لا أساس لها بل
على العكس لما فرق الشرطة الجماهير وحدوا عند باب القنصلية عربية فيها أربع وعشرون
بنديقة وسدسان وصندوقان مملوءان بالبارود وكان القنصل نفسه قد أعدها جميعا
ليستخدمها المالطيون . وقد أخبرني عراي باشا في ليلة أمس بان لجنة التحقيق أثبتت
ان المشاجرة كانت مدبرة وذلك انه في صباح يوم الاحد الذي وقعت فيه الحادثة أخبر
ايطالي يشغل وظيفة كونستابل في البوليس المصري كونستابل آخر من رفاقه انه
ستحدث مشجاعة خطيرة في اليوم نفسه وانه خير لها ان يهربا وقد اخفيا بالفعل وهم
الآن في ايطاليا . والحرائد لا تكتم سر المسألة وتصرح بان القنصل ابريطاني و

الاسكندرية هو الذى دبر المشاجرة وأعد لها اغراض سياسية . ولم يعرف عدد الضحايا واتقت السلطات الاوربية والمصرية على علم التحقيق في هذا العدد. والواقع ان الشعب كان أحطر مما وصفته الصحف فقد قتل فيه أكثر من ١٤٠٠ شخص معظمهم من الاوريين . وكان الاوريون كلهم مسلحين بالبنادق والمسدسات بينما الوطنيون لم يسلحوا بعير العصي ومع ذلك كان موقف هؤلاء خيراً من الاولين. وهذه التجربة المبذولة هي التي ثببت من شجاعة الاوريين وجعلتهم يفرون من مصر كالجبناء .

وقد وصل كتابك «مستقبل الاسلام» الى نديم وذكرت لمغلاصته وترجم خطاباتك الذي أرسلته الى المنستر غلاستون ونشرته «التييس» الى اللغة العربية لينشر في «الطائف» وقد سر عرابي باشا به كثيراً وهو يقول ان الجو السياسى مضم وريعاً أنتد بصواصف أشد وان الحرب أقرب من السلم ولا مثل للنشاط البادى في الاستعداد للحرب في مصر في الوقت الحاضر ويستعد للحرب الجنود والفلاحون والبدو جميعاً . وسأغادر مصر في اليوم الذى تعلن فيه الحرب وعلى الرغم من ان الباشوات والضباط يطلبون ان أبقى في مصر أثناء الحرب لا أحسب ان بقاى يكون من الحكمة وأؤمل ان تدرك احوال نشوب الحرب وتبتي قبل نشوبها بالتغراف على أن تكون الدلالة على وجوب مفادرتي مصر هي كلمة «اكسودس» . واذا قامت الحرب فستغرب مصر تماماً وستغرق الاسكندرية ومديرتان معها وستندمر القناة الى الابد بياه البحر التي تندفق من سد أبي قير وستكون حرب اليأس ولن يسلم المصريون حتى يصحوا بكل نفيس. ويدلنى ما اسمعه وما أراه على أنهم أعدوا العدد الكفى يجعلوا من الحرب في مصر ثورة عامة يقوم بها المسلمون في آسيا وأفريقيا .

الاسكندرية في ٣ يوليو

رجائي عرابي باشا أن أدون المكتبة الآتية التي أملاها على باللغة العربية بحضور عبد المال باشا ومحمود باشا مهني مفتش التحصينات وكثير من الباشوات والصايط وطلب الى أن أترجمها الى اللغة الانجليزية وأرسلها اليك لكي تتمصل

تقديمها باسمه الى الرايت اونورا بل المستر غلادستون (وذكرها خطاب عراقي الى المستر غلادستون وقد سبق ذكره في أصل الكتاب)

حاشية — خولي عراقي باشا أن أخرك بأنك بعد أن تقدم هذا الخطاب الى المستر غلادستون يمكنك ان تستخدمه كما تشاء سواء بنشره أو بغير ذلك .

الاسكندرية في ٤ يوليو سنة ١٨٨٢

نلت شاكرًا مكتوبك الرقيق مع قصاصات الخرائد . ينظرونها الى السياسة التركية بعين الشك وسوء الظن وقد عزم عراقي والباشوات والضباط والامة علي منع الجيوش التركية من النزول الى البر ويقولون أنهم غير محتاحين الى مساعدتهم على الارض ، واذا كانوا يرغبون حقًا في مساعدتنا فاجارباو عدونا المشترك في البحر .

الاسكندرية في ٥ يوليو سنة ١٨٨٢

كنت ليلة أمس مع عراقي باشا حتى منتصف الليل ولما دخلت غرفة الاستقبال وجدت بها مزجحة بالباشوات والضباط وغيرهم وكانوا قد اجتمعوا هناك ليهتوه لماسبة الانعام عليه بالوسام الحميدى الاكبر . وعند الساعة الحادية عشرة اصرفوا وبقينا أربعة وحدنا بالفرقة وأخذنا نتكلم بحرية في مسائل كثيرة . وقد قرأت له برقيتك المؤرخة في اول يوليو فسر كثيرًا ولما ذكرت له اسم درويش هز رأسه وكأنه يقول : « نحن نعرف هذا الشخص حق المعرفة » . ثم قال لى : « أما عن ذهابي الى الاستانة فليقل الناس ما يشاؤون فاني ولدت في بلاد الزراعة وستظل الاحرام الخالدة قبرى وان يحاول الباب العالي أن يخرّب احدى الممتلكات العثمانية ومن الامثال العربية : لا يجمع احد أمه يده . وسيفكر السلطان مليا قبل أن ينوي دعوتى الى الاستانة أو ارسال جيوش الى مصر » .

ويوجد الآن في مصر شعور قوى ضد الانراك والامة الانجليزية على السواء . وقد أيقنت أخيراً ان اميرال الاسطول البريطانى هو ماليت او كلن آخر أو شر منهما . وبالناس ارسل انذارا (والاذنارات هي الطراز السائد الآن) ارسل اليك صورة منه مع هذا الخطاب وقد وجه الى طلبه باشا .

وقد أحدث دعياً شديداً بين الوطنيين وأيضاً بين الاوربيين القليلين الذين لا يزالون في مصر . وقد كنت في غرفتي أكتب بعض الرسائل فإذا بأحد خدام الفندق يأتي الى مرتجفاً ويخبرني بشي . لا أنهمم بداية لانه كان من شدة الخوف لا يطق الا بصف الالفاظ وقد حاولت ان أهدي روعه وسأله ما ذا في الامر . فقال : « ألا تعلم ان الاسطول البريطاني سيضرب المدينة اليوم ؟ » فابتسمت لأبش في نفسي شيئاً من الشجاعة وبصحت له بان لا يخاف وأنه لا يوجد خطر ولكنه قال وهو لا يزال يرتجف ان القاصل أمروا جميع الاوربيين بان يتوجهوا الى المال الى ظهور البواخر . فسأله أجا . هذا الامر رسمياً الى الفندق ؟ فأجاب : « كلا ياسيدي . ولكن كل من بالفندق يغادرونه » . فقلت له لانهم بهم وأعطينه ثيابي ليسألهما الى القاعة فرفض وتولى . وفي المال قتت وذهبت الى عرابي باشا لأرى ما هو جار فلم أجد شيئاً جديداً سوى ان راغب باشا أخبر الاميرال انه لا توجد أعمال جارية في الحصون وقد سكن ذلك ثائرة الاميرال ولكنه لم يطمئن الشعب الخائف . ولذلك ذهبت ثانيا الى طلبه باشا ورجوته ان يرسل الى جنديين ليحرسا مدخل فندق المساجيري الذي أسكه الآن فتبعث الثقة في نفوس البازلين به . وقد كنت لدى طلبه باشا حين وصل اليه الانذار فاعطانيه لكي أعريه فعريته في المال بحضور عرابي باشا والضباط الآخرين . فلما قرأوه قال الكولونيل عايد بك : « هل في الامكان ان أنجلترا لا ترسل اليها سوى موظفين مجانين ؟ ان هذا الاميرال يدل ان يظهر نفسه في مطهر الرجل العاقل الجري . يدي الخوف عند أدنى حركة في الحصون ولا يقنا بضايقتنا بانذاراته وبزعج الناس ويشير شعور العرب وهو يضراً أكثر مما ينفع » . والواقع ان مدينة الاسكندرية أصبحت خاوية

وقد طفت أمس بالمدينة راكباً فلم أكد أرى عشرين او ثلاثين أورديا والحوافيت والقماوى مغلفة والمهاجرة من الداخل مسنرة وقد أمر استخدام الدومين ووكلاء المراقبة وأصحاب المصارف الخ بان يغادروا مصر . بل وصلت الحالة الى درجة ان أدوات شركة التلغراف الشرقية قلت الى بارجة الاميرال وقد أصبحت الخبرات بالتلغراف صعبة جداً وغير مأمونة واضحت طريقة ارسال أحد التلغرافات متعبة

فعلى المرسل ان يكتب نص التلغراف ويعطيه لكتاب حجز نفسه في غرفة صغيرة جداً بها نافذة ذات قضبان حديدية وليس فيها سوى ثغرة سقفاً خمس بوصات. وكذلك الانجليز الشجعان الذين أتوا الى هنا باسطولهم لكي يهزموا العرب الذين لا يزالون يعيشون في هدوئهم المعتاد

اما عن نفسي فلا أدري أمن التبر ان أبقى في مصر في حالة الحرب أم لا ؟ ويريدني أصدقائي على ان أبقى ولكن لا أعلم ان كان ذلك مأموناً. ورجائي اليك ان تراقب اتجاهات وزارة الخارجية وفي اللحظة التي تعلم فيها ان الحرب قررت ترسل الى تلغرافها به كلمة « موسى »

في ٨ يوليو — توجت صباح اليوم لأرى عرابي باشا فاخبرني انه استقبل سيدة امريكية فنية من فيلادلفيا رحته ان يوقع باسمه على دفتر الامضاءات « أوتوجراف » وقال انه كتب لها باللغة العربية ورجائي ان أترجم ما كتبه الى الانجليزية وأخبرني أيضاً انه كان منذ يومين آتياً من القاهرة الى الاسكندرية فوجد في اللحظة حسماته ايطالي يستعدون لمغادرة مصر فشرع بمحادثتهم ويشجعهم على البقاء في ديارهم لانه لن يوجد خطر مطلقاً وضمن لهم أرواحهم واملاكهم وقال انه يضمن سلامة كل انسان . وقد شجعت كلماته أولئك الاشخاص الذين غلبهم الرعب فاندفعوا اليه رجالاً ونساءً وبناتاً واطفالاً ليقبلوا يده ويشكروه. ولكن بينهم رجل من طول عرابي نفسه شق لفه طريقاً بين هذا الجمع ولما وصل اليه وضع كلنا يديه على كتفه وقال له بالايطالية ما معناه « الله يباركك » . وفي النهاية عاد ثلثهم الى بيوتهم في القاهرة .

وبينما كنت مع عرابي نسلم خطانا من رجل ايطالي برحوه ان يقله بصفة متطوع في الجيش المصري ويقول انه كان فيما سبق جندياً في الجيش الايطالي تحت قيادة غاريبالدي وانه الآن يريد ان يحارب لاجل حرية مصر .

لا يشق السلطان كثيراً بدرويش باشا وقد أرسل معه الشيخ احمد أسعد وكيل السلطان في المدينة بصفة حاسوس عليه رقب حركاته وأعطى السلطان بدرويش باشا شرفاً خاصاً ليرسل به تلغرافاته وفي الوقت نفسه أعطى احمد أسعد شرفاً خاص

آخر وهكذا بمثل هذين الملوين أحدهما ضد الآخر وكل منهما يرسل تلغرافاته مستقلا . وهذا الشيخ أحمد أسعد صديق جميع لعراقي وقد ساعده كثيرا في أزمته الأخيرة مع الخديو .

ومنذ يومين كنت مع عراقي فأناه رجل عربي بخطاب ففتحته وتلاه علي وعلى الضباط الآخرين وقد كتبه حافظ الكعبة الملحق بشريف مكة وكان الخطاب مكتوبا بأسلوب راق وفيه مدح كثير وقال كاتبه ان جميع الناس في مكة يدعون الله ان ينصر عراقي وان الصلوات تقام من أجله ومن أجل نجاحه في الكعبة وعند قبر اسماعيل ويزمزم وعرفات ومنى وفي كل مكان مقدس في مكة . ولم يتردد الكاتب في منح عراقي لقب حامي حرم الاسلام والدولة الاسلامية . وقد أتى بالخطاب رسول خاص . والمجاز كله مع عراقي ولم يرد شريف مكة أن يكدر علاقته مع السلطان فكلف أحد رجال حاشيته بكتابة هذا الخطاب وهو عباس أعا زمزم . ولما تلى الخطاب اتفق على كتابة خطاب شكر اجابة عليه .

ويظهر أن الاميرال الفرنسي هارناب كثير في حركات الاميرال البريطاني وكما رأى الاول الثاني يغير موقفه بارجته ببقه في الحال واذا خرجت بارجة انجليزية من الميناء سارت في أثرها بارجة فرنسية واذا وصلت الى الاسكندرية بارجة بريطانية جديدة يترك الاميرال الفرنسي في الحال طالبا ارسال بارجة فرنسية . والواقع ان هاتين الدولتين تتبع احدهما الاخرى كالقط والفأر .

في الاسكندرية الآن شيخ مشهور من الجزائر يدعي الشيخ محمد البزري ويمجله جميع المسلمين والسلطان نفسه . وقد سبب للفرنسيين متاعب كثيرة في الجزائر ثم في تونس ولما جاء الى مصر منذ أربعة أشهر بدأ ينشر الدعوة ضد عراقي وأعلن للخديو أن عراقي ناثر على السلطان واذا كان رجلا عالما فصيحاً ذا نفوذ أضرب بعراقي كثيراً وساعد في الخلاف القتال الذي قام بين سلطان باشا والنواب وعراقي . وفي ذات مرة كان بخطب ضد عراقي في اجتماع فسأله أحد الحاضرين هل يعرف عراقي شخصياً فاجاب الشيخ مشتمراً بأنه لم ير عراقي قط وانه لا يعرف في رؤيته (ثم ذكر الخطاب كيف ان الشيخ قابل عراقي بعد ذلك في إحدى الولائم دون أن يعرفه وبحث معه

في مسألة الإصلاح وأثرت فيه مناقشاته وحججه حتى صار أحد أنصاره المخلصين).
ومنذ ثلاث ليال رأيته في دار عرابي وقد أتى ليستأذنه في أن يذهب الى السلطان
ويسأله باسم جميع المسلمين ان يعطل عن ارسال جيوش تركية الى مصر فلما سمعت
ذلك منه سأله كيف كان ، حين سررت برؤيته لأول مرة ، بدعو الى تدخل الأتراك
بمحجة ان مصر ولاية عثمانية فاذا أنت الى مصر جيوش تركية كانت في بلادها ؟
فاجابني : « صحيح ان ذلك كان اعتقادي في ذلك الوقت ولكن لما سمعتك تقول
ان الجيوش التركية اذا أنت الى مصر فلن يخرج منها وان وجودها في مصر سيجدد
الفضض القديم بين الجنود العرب والجنود الأتراك — وجدت انك مصيب في رأيك
والآن أتيت لاستأذن من صاحب السعادة أن أذهب مع بعض اصدقائي الى
الاستانة لامنح السلطان من ارسال جيوش الى هناك » . وأظن أن عرابي أخبره بأنه
تأكد من السلطان انه لن ترسل جيوش الي مصر -

في ٩ يوليو

علمت من مصدر ثقة أن خير الدين باشا وسعيد باشا — والاول رئيس وزارة
سابقة بالاستانة — بعارضان في فكرة ارسال جيوش الى مصر ويقال بأنه بينما كان الوزراء
يبحثون المسألة في مجلسهم قام خير الدين وأراهم من آيات القرآن والحديث ما يدل
على أن ارسال جيوش مسلمين لمحاربة أمة مسلمة هادئة أمر يخالف الدين وخم كلامه
بحديث مؤداه انه اذا تحارب شخصان سلطان عذب القاتل والمقتول كلاهما عذابا
أبديا في نار جهنم .

فهمت من الصحف التي تفضلت بارسلها ان ماليت وكلفن هاجلاك ولعلك
تذكر اني كنت مصيباً في رأيي الذي كوته لفسى بشأن هذين الشخصين منذ اول
يوم دخلنا فيه القاهرة . وقد اعتمدت أكثر من اللازم على صداقة ماليت وعلى
اخلاص كلفن المزعوم والآن اصدقائنا هنا في أشد السخط عليها
قرأت خطاب السير ولیم حوججورى المشهور في « التيس » وترجمته الى اللغة
العربية لعرابي باشا فسر به كثيراً .

في ١٠ يوليو

هذا يوم الاضطراب البالغ ، يوم الرعب والاشقاء والمرار العام . ففي صباح اليوم كنت في سريري فجاء إلى خادم وطلى من خدام الصديق وقال « قم واستعد للذهاب » . فسأله لماذا ؟ فأجابني : « لأن سيدي سيفلق الصديق ولن يبقى به أحد وقد ذهب الجميع إلى البواخر » . فقامت وأمرت الخادم بأن يحضر لي وجبت شاي . فقال « لا يوجد شاي » . فلبست ثيابي ووزلت إلى قاعة الطعام ووجدت فيها صاحب الفندق في اضطراب وبأس . فسأله عن الحالة فأجابني « أمر جميع القناصل وعابايم أن يبادروا الاسكندرية قبل الظهر » . فقلت : « هل تتركني أسكن الصديق وحدي وأعني به ؟ » . فرفض ذلك قائلاً انه لا يمكنه . فرحوته أن ينتظر على الأقل ساعة حتى أذهب إلى نطلة البحرية وأعود . وفي الحال ركبت عربة وذهبت لأرى عرابي ولكني لم أستطع رؤية أحد من الطار فقد كانوا جميعاً في المجلس . ووجدت سكرتير عرابي الخاص فأخبرني بأن الاميرال البريطاني أرسل كلمة شفوية فقط يقول انه سيضرب الحصون بعد أربع وعشرين ساعة وأن قناصل الدول الاخرى ذهبوا إلى الاميرال البريطاني ليسانود عن المسألة . ولما عدت إلى الصديق وجدت صاحبه قد حرم امتعه ووضعها فوق عربات وأنه على استعداد للرحيل ولم أجد وقتاً كافياً لأحضر حقائبي الصغيرة وأركب عربة وأذهب . ولم أدر إلى أين أذهب . وقد خرجت الاساطيل فعلا من المياه . وذهبت إلى البحر استعداداً لاطلاق المدافع . وكان الناس - وأعني القليلين الذين بقوا حتى اللحظة الاخيرة - ينجون في سرعة كبيرة إلى البواخر المختلفة التي مكثت في الميناء لتستقبل اللاجئين . ولست أظن أن ملاحسة الاسرائيليين من مصر تداني ما رأيت ، فان الرجال والنساء والاطفال والرضع الباكية بين أذرع أمهاتهم ، والشيوخ الذين لا يقدر على السير ، والمرضى الذين لا يستطيعون حمل أنفسهم ، هؤلاء جميعاً كانوا يندفعون إلى ناحية البحر في رعب يذكر الانسان يوم القيامة . ولكن هؤلاء الناس البائسون لا يجدون ما يفرحهم في ذعرهم وبأسهم سوى لمن القناصل والحكومة البريطانية التي أنت لمصر بهذه النكبة .

وسعد أن شهدت هذا المطر الممزرع بدأت أفكر في مآلي ولكن كلما

ذهبت الى من أمرهم وحدثهم قد ذهبوا . ولم أحد مكاناً إلّا اليه سوى الترسانة ولكنني لم أحسبها مكاناً آمناً لقرها من الحصون في حالة ضرب المدينة . وكان الوقت محضى آناء ذلك وقد قرب انتهاء مهلة الأربع والعشرين ساعة . فجال فكري أن أذهب الى إحدى البواخر ولكن سمعت أنها مزدحمة وكان أحد بحارة القوارب مشغولاً بحمل حقائبه الى قاربه فعرض عليّ أن يأخذني الى القارب البريطاني المسمى « تانجور » ولكنني رفضت ذلك لأن جميع الرعايا البريطانيين والقاصِل ومراسلي الصحف — وأكثرهم يعرفوني — كانوا في البواخر ولذلك لم أجِد من الحكمة أن أُرَج بنفسي بينهم وعزمت على أن أبقى على الشاطئ . وأن أكون آخر من يغادر الاسكندرية ولكن دنت آخر ساعة وكانت القوارب الأخيرة تروح . وفي هذه اللحظة قابلت فرساً كان على وشك الإبحار مع زوجته فدعاني لأن أذهب معه الى الباخرة « سعيد » إحدى بواخر المساجيرى ماريتيم فتوجهت اليها وهأنا أكتب فيها هذا الخطاب . ولا أظن أني أفتر على إرسال هذا الخطاب اليك غداً لانه لا يوجد بريد بريطاني . وقد اعقلت جميع مكاتب البريد بما فيها المكاتب المصرية . وقد تركت شركة التلغرافات الشرقية مدينة الاسكندرية ونقلت أدواتها الى مارحة الاميرال البريطاني .

ولما رأيت صدقاني منذ ساعتين وحدثهم ثاتين ومتأهين لقتال والمقاومة الى الى آخر نقطة من دماهم معها كلهم ذلك في ١١ يوليو

في صباح اليوم (الثلاثاء) عند الساعة السابعة تماماً أطلق الاسطول البريطاني أول طلقة اشارة الى ضرب الحصون . وكنت على ظهر الباخرة « سعيد » على بعد مسافة قصيرة من الاسطول وقد أتت ساءة عرابي الخطيرة . وأما درويش ضاغر الاسكندرية عقب ابتداء انصراب وأنجر الى حيث لا يدري أحد . ومن بين ١١٧٠ شحصا كانوا معي هذا الصباح يشهدون ضرب المدينة كنت الوحيد الذي يمتنى حسن احظ واحصاح لمرأى ورفاقه . ولما أطلقت أول طلقة لوح في الهواء بالقبعات والمناذيل والايدي مع الحفاف والنداءات اللدالة على الرضا وكان الرجال والنساء والاساقفة

والقموس والراهبون والراهبات في سرور وجفل يتنبأون بتسلم الحصون بعد ساعتين ولكن استيادهم بدأ بالفعل والساعة الآن الواحدة والنصف ولما ينقطع إطلاق المدافع من الجانبين وقد كانت المقاومة حتى الآن باهرة وبعض طلقات المدافع المصرية يتخطى الاسطول والبعض الآخر لا يصل اليه والمسافة بين الطرفين بعيدة بشكل ظاهر ولكن لا يستطيع أحد الآن أن يتنبأ بالنتيجة . وأجلس في هذه الآونة فوق ظهر الباخرة أرقب الضرب وأكتب كل ما أستطيع رؤيته ولكن ماذا يمكن الانسان أن يراه على البعد ووسط سحابة من الدخان المغمى سوى ابراق المدافع وارعادها ؟

مكثت بلا أخبار منك مدة أسبوع قريبا وكنت أنتظر أن يصلني نبأ منك حالما قررت الحكومة البريطانية الحرب ولكك تركتني في ظلام حتى اللحظة الاخيرة ولم يكن أصدقاءنا ولا بعض القاصِل أنفسهم ولا انا متأكدين من أن انجلترا كانت ترغب في الحرب بغية جديدة

وقد عزمت على السفر الى نابولي أو فينسيا حتى تستقر الاحوال في مصر وأظن ان هذا يتطلب أشهرا ويمكنك، من خطاب عرابي الى المستر غلادستون - ولعلك تسلمت أمس كما ينبغي وقدمته اليه ونشرته - أن تحكم على نيات المصريين وتقدر الاضطراب الذي سيحدث في مصر مدة من الزمن . وقد مرقت الطائفة الاولى جميع المعاهدات قطعة قطعة وأرسلت ملايين رونتشل الى جهنم وأبعدت الرجل التي اتفقت انجلترا وفرنسا على توليد سلطته وسنملى . قناة السويس في بضعة أيام به ١٠٠.٠٠٠.٠٠٠ من الفلاحين والبدو دجرا على كيفية اداء مهنتهم من قبل - هذا اذا لم تكن القناة قد دمرت الآن فعلا .

(وقد وصل صابونجي الى فينسيا يوم ١٩ يوليو ثم وصل الى لندن بعد بضعة الاسابيع)

برنامج الحزب الوطنى المصرى

الذى قدمه المستر بلنت الى المستر غلادستون في ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨١

مع رد المستر غلادستون

١ — يرى الحزب الوطنى محافظة على العلاقات الودادية الحاصلة بين الحكومة المصرية والباب العالى واتخاذ ذلك الباب ركنا يستند عليه فى أعماله — ويعتقد أن (جلالة) السلطان عبد الحميد مولاى وخليفة الله فى أرضه وإمام المسلمين ولا يريد قطع هذه الصلات والعلاقات مادامت الدولة العلية فى الوجود ثم يعترف باستحقاق الباب العالى لما يأخذه من الخراج وما يلزمه من المساعدة العسكرية إذا طرأت عليه حرب اجنبية وهذا بمقتضى القوانين والفرمانات الشاهانية كما يعتقد هذا الحزب أنه يحافظ على امتيازاته الوطنية بكل ما فى وسعه ويقاوم من يحاول اخضاع مصر وجعلها ولاية عثمانية (أى من يريد سلب امتيازاتها وسخ الفرمانات التى منحها استقلالها الاداري) وله ثقة بدول اوربا لاسيما انجلترا المدافعة عنه ويود أن تدوم هذه المحبة حتى يحصل على حرية مصر واحترامها .

٢ — هذا الحزب يخضع للجناب الخديو الحالى وهو مصمم على تأييد سلطته مادامت أحكامه جارية على قانون العدل والشرعية حسب ما وعد به المصريين فى شهر سبتمبر سنة ١٨٨١ وقد قرئت هذا الخضوع بالمرم الاكيد على عدم عودة الاستبداد والاحكام الظالمة التى أورثت مصر النبل والالحاق على الحضرة الخديوية بتنفيذ ما وعدت به من الحكم الشورى وإطلاق عنان الحرية للمصريين وبطلبون منها الاستقامة وحسن السلوك فى جميع الامور وهم يساعدونه قلبا وقالبا كما أنهم يمحذرونه من الاصفا الى الذين يمحسون اليه الاستبداد والاجحاف بمحقوق الامة ونكت المواعيد التى وعد بأجبارها

٣ — رجال هذا الحزب يصفرون بفضل فرنسا وانجلترا اللتين خدمتا مصر

خدمة صادقة ويطعون ان استمرار المراقبة الاوربية هو الكفالة العظمى لنجاح أعمالهم مع قبولهم تلك الديون الاجنبية حرصا على شرف الامة وان كانت تلك الاموال لم تصرف في مصلحة مصر بل صرفت في مصلحة حاكم ظالم لا يسأل عما يعمل . ومعلوم لهم أن ما حصلوا عليه من الحرية والمعدل كان بمساعدة هاتين الدولتين فهم يشكرونهما ويشنون عليهما .

ثم اتهم برون أن النظام الحالي لم يكن الا وقتيا والافانهم يؤملون أن يستخلصوا مالاينهم من أبدي أرباب الديون شيئا فشيئا حتى يأتي يوم تكون مصر فيه بيد المصريين . وهم لا يخفى عليهم شئ . من الخلل الحاصل في المراقبة ومستعدون لاداعته فانهم يطمعون أن كثيرا من المستخدمين في قلم المراقبة لا يقدرعون على القيام بوظائفهم ولا يراعون حق الشرف والاستقامة وبعضهم يأخذ الرواتب الجسيمة بلا استعناق مع وجود من يقوم بعملهم من المصريين على أحسن اسلوب براتب لا يرازي خمس راتب الاجنبي وهذا يحكون بوجود الظلم وخلل الادارة مادام هذا الاسراف الخارج عن الحد باقيا

وهم ينجبون من اعضاء الاجانب من الضرائب وعدم خضوعهم لقانون البلاد مع تمتهم بخبرها واقائهم فيها ولكنهم لا يريدون مدركة هذا الاصلاح بقوة أو جفوة بل يقتصرون على اقامة الحجة ويطالبون من فرنسا وانجلترا بالتصرف في هذا الامر فانهما أخذتا على نفسيهما مراقبة المالية فيما مطالبتان بنجاحها وباستخدام أهل الامانة والاستقامة فيها لأنهما مسؤولتان عن رقابة مصر بعد ان نزعنا ادارة ماليها من أهلها وتكفلنا بنجاحها .

٤ — رجال الحزب الوطني يطمعون عن الاخلاط الذين شأنهم احداث التلاقل في البلاد إما لمصلحة شخصية أو خدمة للاجانب الذين يسيروهم استقلال مصر . وهؤلاء الاخلاط كثيرون في البلاد (بل هم معلومون المصريين ولهذا اشتدت التفرقة منهم) والمصريون يطمعون ان الصمت على حقوقهم لا يخلوهم الحرية في بلاد الف حاكمها الاستبداد وكرهوا الحرية فان اسماعيل باشا لم يمكنه من الظلم والاستبداد الاسكوت المصريين وقد عرفوا الآن معنى الحرية الحقيقية في هذه

السينين الاخيرة فقدوا خصاصهم على توسيع نطاق النهديب وم يرجون ان يكون ذلك بواسطة مجلس شورى النواب (الذى انعقد الآن) وبواسطة حرية المطبوعات بطريقة ملائمة ويتعميم التعليم ونحو المعارف بين افراد الامة وهذا كله لا يحصل الا بثبات هذا الحزب وحزم رجاله .

وبرى هذا الحزب ان مجلس النواب ربما اكره على الصمت كما حصل لمجلس الاستانة واستمين عليه بجمل المطابع آلة تفوق نحوه السهام فيتكدر صفو الراحة ومحرم الابناء من التعليم ولهذا فوض الاهالي امرهم الى امراء الجهادية وطلبوا منهم ان يصمموا على طلبهم للمهم ان رجال العسكرية هم القوة الوحيدة فى البلاد وم يدافعون عن حريتهم الآخذة فى النمو وليس فى عزيمهم ابقاء الحال على ماى عليه بل متى تحصلت الامة على حقوقها عدلوا عن السياسة الحاضرة فان امراء الجهادية عازمون على ترك التدخل فى السياسة بعد ان فتح المجلس فهم الآن بصفة حراس على الامة التى لاصلاح لها ولهذا يطلبون زيادة الجند الى ١٨٠٠٠ عكرى ويرجون التفات قلم المراقبة لهذه الزيادة عند تقرير الميزانية .

٥- الحزب الوطنى حزب سياسى لا دين فانه مؤلف من رجال مختلفى العقيدة والمذهب . وجميع النصارى واليهود وكل من يحرث ارض مصر ويتكلم بلغتها منظم اليه لانه لا ينظر لاختلاف المعتقدات ويعلم ان الجميع اخوان وان حقوقهم فى السياسة والشرائع متساوية وهذا مسلم به عند اخص مشايخ الازهر الذين يعضدون هذا الحزب ويعتقدون ان الشريعة المحمدية الملقمة تنهى عن البغضاء وتعشير الناس فى المعاملة سواء . والمصريون لا يكرهون الاوربيين المقيمين بمصر من حيث كونهم اجانئب او نصارى واذا عاشروهم على أنهم مثلهم يخضعون لقوانين البلاد ويدفعون الضرائب كانوا من أحب الناس اليهم

٦ - آمل هذا الحزب مقودة على اصلاح البلاد ماديا وأديا ولا يكون ذلك الا بحفظ الشرائع والقوانين وتوسيع نطاق المعارف واطلاق الحرية السياسية التى يعتبرونها حياة للأمة . وللمصريين اعتقاد فى دول أوروبا التى تمتعت ببركة الحرية والاستقلال ان تتمتعهم بهذه البركة . وم يعلمون انه لم تنل أمة من الأمم حريتها

الا بالمد والكدهم ثابتون على عزهم آملون في قدومهم واتقون بجانب الله تعالى
إذا تخلى عنهم من يساعدهم

١٨ ديسمبر سنة ١٨٨١

رد المستر غلادستون

فصر هلواردن بنشر في ٢٠ يناير سنة ١٨٨٢ — الى ولفريد. من. بلنت المحترم
سيدى العزيز

انك كما أوئل ستقدر الاسباب التي تجعلنى لا أستطيع أن أعرض أي شيء.
يصح أن يكون جواباً مناسباً على خطابك الشائق بشأن المسائل المصرية التي تشغل
جزءاً من التفاني كل يوم

ولكنى أدرك فائدة الحصول على مثل هذا الخطاب ممن كان مثلك مرجعاً في
هذه الشؤون وأشعر بالثقة التامة باننا سنستطيع ان نصل بهذه المسألة الى نهاية
مرضية ، الا ان كان ثمة نقص محزن في الادراك لدى أحد الجانبين او كليهما.
وقد أبديت آرائي الخاصة بشأن مصر في مجلة « القرن التاسع عشر » قل أن
أتولى منصبى بوقت وجيز ولا أرى الآن انى وجدت ما يوجب تغييرها .

المخلص

و. ا. غلادستون

دونج ستريت نمرة ١٠ هوايت هول في ٢١ يناير سنة ١٨٨٢
عزيزى ولفريد

أشعر باني مدين لك باعتذار كبير لاني لم أرسل اليك قبل اليوم نبأ يتسلى
مكتوبك الشائق الدال على المقدرة بشأن الحركة المصرية . وعذرى هو الاستراحة
ولكن غيابي عن دونج ستريت لم يمنعني من تقديم خطابك في سرعة الى المستر
غلادستون وأرفق بهذا مذكرة منه . وهو بأسف لانه تأخر شيئاً ما في ارسالها.
ومن الصعب — ان لم يكن من المستحيل — ان اكتب في الحالة المرحجة
الحاضرة بينا الموقف يتغير من يوم الى آخر .

وقد نحسب أن الصفة الوطنية التي تنسب إلى الحركة لا بد أن نبدي ميزتها للمستمر غلادستون المعروف بعطفه على القوميات الصغيرة التي تتجاهد في سبيل الاستقلال . وأما يظهر أن الصورة الكبرى (وأنا بالطبع أتحدث عن شخصي مع شعوري التام بالجهل) هي كيف نستطيع تأييد مثل هذه الحركة مع رعاية المسؤوليات التي حملناها على عاتقنا ومع المصالح التي نحميها ؟ إن كل حل يراد اختياره يبدو محاطا بعقبات وصعاب لا يمكن تخيلها . ويمكنني فقط أن أقول أنك إذا استطعت أن تعمل شيئا في سبيل الوصول إلى حل تلك الصعاب فأنك تؤدي خدمة جليلة لمصر ولهذا البلاد ولحكومتها الماضية وأنا أعلم أنك كنت بالفعل ذا نفع كبير وأنك بحق لك الكلام في هذا الموضوع عن يقين ومعروفة قبل أي شخص آخر

مع احترامي الخاصة للسيدة آن واعتذاراتي عن هذا الرد الموجز على خطابك

المخلص

١ . و . هاملتون

رد المستر غلادستون

على الخطاب الثاني من المستر بلنت المؤرخ بالقاهرة

في ٧ فبراير سنة ١٨٨٢

دونتج شريت نمرة ١٠ هوايت هول في ٢ مارس سنة ١٨٨٢

عزيزي ولدي

قرأ المستر غلادستون خطابك الثاني باهتمام كبير وهو يشكرك عليه ويؤمل أنك شعرت ، أو ستشعر ، من لذة خطاب العرش — ورافق هذا نسخة منه بناء على رغبته — أن الحكومة البريطانية في الوقت الذي تنوي فيه نية ثابتة على احترام الاتفاقات الدولية تحفظ على رغبة المصريين في انقراض ووسائل الحكومة الطيبة

المخلص

١ . و . هاملتون

فقرة مقتطفة من خطاب الملكة أرسلها المستر هاملتون

« بالاتفاق مع رئيس الجمهورية الفرنسية منحت التفاتنا كبيرا المسائل مصر حيث
الانظمة السائدة قد فرضت على واجبات خاصة. وسأستخدم نفوذى لاحتفظ بالحقوق
التي تأسست من قبل سواء بفرمانات السلاطين أو بالاتفاقات الدولية المختلفة ،
وذلك بروح التعضيد للحكومة الصالحة في البلاد وتقدم انظمتها في تبصر »

الملحق السادس

نص الدستور المصري الصادر في ٧ فبراير سنة ١٨٨٢

خطاب من محمود سامى باشا الى الخديو

عند توليه الوزارة في ٢ فبراير سنة ١٨٨٢

مولاي

صدر أمركم الكريم بأن أشكل وزارة جديدة فصار من أوجب الفروض قضاءاً
على أن أعرض لمعالكم عن المبادئ، التي سأخذها دستوراً لأعمالى ومرشداً لسياسة
الوزارة الجديدة

ان الحوادث التي نالت على مصر من بضع سنين وشغلت الافكار العمومية في
داخلية البلاد وفي البلاد الخارجية على أنواع شتى تنحصر في أمرين الاول تهديداتنا
المالية والثاني اصلاحاتنا الداخلية

ولقد نظم الدين العمومي تنظيمًا نهائياً وصدر في شأنه عدة أوامر سامية ختمت
بقانون التصفية الصادر في ١٩ يوليو سنة ١٨٨٠ وقد عدت هذه الادوار وهذا
القانون كأنها معاهدات دولية ما فتئت حكومة عطمتكم عن اعتبارها ودمراتها
وستعنى الوزارة بافاد أحكامها بالدقة والامانة

وصارت تصفية الدين السائر أمراً واقعياً فددت حسابات الأكثرية من اعترفت الحكومة الى الآن بمحقةتهم وستصرف العناية الى الاستمرار على اتمام تصفية هذا الدين

كذلك الديون المقررة (قوصوليد) المختص بها قلم الدائرة الفنية ومصلة الاملاك المبرية للموضوعتان رهنا لقرض سنة ١٨٧٨ سائرة أمورها من تأدية فائدة واستهلاك في طريق الانتظام .

والادارات التي اشنت لتأكيد انتظام سير الديون المذكورة (وهي قلم المراقبة العمومي وادارة خزينة الدين وقلم المراقبة في الدائرة ومصلة الاملاك الاميرية) يجب على الحكومة ان تحاط عليها وتراعيتها وذلك دأب الحكومة مع هذه الادارات من حين انشائها الى الآن .

فلا يغير شيء مما ذكر عن وضعه وستشهد الوزارة في تأييد تلك الادارات والمصالح ليهون عليها السير في سبيلها لانها تعد حسن سير هذه الادارات العمومية أمراً لازماً لانتظام الاحوال في اشغال الحكومة وعدنا ان الادارة العمومية في البلاد تستفيد من ذلك فوائد جمة لا شك ولا ريب فيها

وقد كان أبداً في خلد عطسكم ان لا بد من مساعدة مجلس شورى الأناء الاصلاحات الداخلية بحكمة ووثوق وبناء على ذلك تشكل مجلس النواب الحاضر والوزارة أبعسا من هذا الرأي وهي متوجهة منها وعائيتها الى اصلاح الحاكم والمجالس وانتظام الادارة واجراء التحسين اللازم في أمر المعارف العمومية مساعدة لبلاد على السير في سبيل المدنية والنجاح .

وستنظر في اتخاذ الوسائل الآيلة الى اتساع دائرة الزراعة والتجارة والصناعة وتصرف عنايتها الى سائر المشروعات الاصلاحية التي كانت موضوع أمانتي عظمتي . ولكننا قبل كل شيء نرى من الواجب أن تعين اختصاصات مجلس النواب لئلا له أن يأتي الحكومة بما تنتظر منه من المساعدة وأن يحقق آمال البلاد المحصورة . ولذلك فأول شيء نشرع فيه الوزارة هو وضع نظام أساسي للمجلس الموحد . ويكون من أحكام هذا النظام احترام جميع الحقوق المتأثرة والعهود الدولية .

التعهدات المتعلقة بالدين العمومي وما توجب هذه التعهدات ادراجه في برنامج الحكومة وتحديد التبعة التي تلتحق الوزارة امام المجلس وكيفية الحجابة والباحثة في أمر القوانين ووضعها وتطبيقها وسيكون هذا النظام الاساسي محتويا على جميع الشروط اللازمة لتأكيد مصالح العموم بعيداً من أن يكون سداً لقلق الببال .

هذه يا مولاي لائحة الوزارة الجديدة وفقاً لآمال الوطن .

وعسدي الرجاء الاكيدة ان الدول العظيمة — ولا سيما الببال العالي الذي وازرنا أبداً بعنايته ومساعدته فيما يتعلق بالحقوق والامتيازات التي منحها لنا — سنستمر على مساعدة حكومة عظمكم مساعدة كانت أبداً ونكون أبداً مفيدة للقطر المصري

كذلك أرجو أن تكون عناية حكومتكم مصروفة في سبل المحافظة على الحقوق العمومية وحفظ النظام ومساعدة الامة في طريق التقدم والعمارة .

وقد وعد جبابكم العالي يوم توليتكم السعيدة ان يفتح لمصر باباً جديداً للنجاح والسعد ونحن الآن تقدم بين يدي عظمكم عزمنا على الاجتهاد في تحقيق ذلك الوعد فاننا نجد في تحصيل الغاية التي يروم جنابكم العالي الوصول اليها وآمالنا كبيرة في المستقبل اذ ان ثقتنا في عظمكم كبيرة أيضاً .

فادراقت لما ليكم هذه اللائحة وهذه المبادئ التي قدمتها فارجو التوقيع على الاوامر التي ارفعها لقمائمكم الكريم منضمة تشكيل الوزارة الجديدة .

وتفضل يا مولاي الخ

خطاب من صاحب السمو الخديو

الى سعادة محمود سامي باشا ١٥ ربيع أول سنة ١٢٩٩ (٤ فبراير سنة ١٨٨٣)

عزيزي محمود باشا سامي

ان أخذكم على عهدكم أمر تشكيل الوزارة الجديدة مع علمكم بأهمية هذا الامر الخطير يعد برهاناً جديداً على اخلاصكم وصحة وطنيتكم

وقد عهدنا اليكم بذلك لما مهد فيكم من الاخلاص وصحة الوطنية فقد تحققت

ذلك فيكم وأبدتوه بالأدلة المديدة في الخدم الصحيحة التي أبدتوها في المصالح التي عهدت اليكم .

وأنا نصادق على لائحتكم والمبادئ التي فصلتموها فان هذه المبادئ هي أساس العدالة ومن شأنها حفظ الراحة وتوطيدها في البلاد وتقديم جميع سكانها ونجاحهم ونوافق على رأيكم المنضم أن يجب على حكومتنا اتخاذ الوسائل اللازمة لأنعام الإصلاحات القضائية والإدارية ونشر قانون أسس لمجلس النواب ينطبق على الآراء التي أبدتوها في لائحتكم .

كذلك يجب على حكومتنا الاهتمام بتوسيع دائرة المعارف العمومية والزراعة والتجارة والصناعة وسندل جهدنا في مساعدتكم على ذلك .
ورجو من الله عز وجل أن يكمل اجتهادنا بالنجاح حبا في خير البلاد وتقديم
الامة (محمد توفيق)

ذكر يتو

نحن خديو مصر

بعد الاطلاع على الذكر يتو الصادر في ١٤ أكتوبر سنة ١٨٨١ (١١ ذى القعدة سنة ١٢٩٨)

وبعد الاطلاع على قرار مجلس النواب

ووفقا لصح مجلس وزرائنا قررنا ما يأتي :

المادة ١ - تعيين أعضاء مجلس النواب يكون بالانتخاب والشروط اللازمة لمن له حق الانتخاب ولن يجوز انتخابه تبين فيما به في لأمة مخصوصة تشمل أيضاً على كيفية الانتخاب .

المادة ٢ - يكون انتخاب أعضاء المجلس لمدة خمس سنوات ويمضى لكل منهم مائة جنيه مصري في السنة متباعدة مصلوغة .

المادة ٣ - النواب مطلوق الحرية في احرار وظائفهم وليسوا مرتبطين بأوامر أو تعليمات تصدر لهم تخل باستقلال آرائهم ولا يبعد او يعيد يحصل اليهم

المادة ٤ - لا يجوز التعرض للنواب بوجه ما وإذا وقعت من أحدهم جناية أو حنحة مدة اجتماع المجلس فلا يجوز التقاضي عليه إلا بمقتضى إذن من المجلس .

المادة ٥ - للمجلس حال انعقاده أن يطلب الإفراج أو توقيف الدعوى مؤقتاً لمدة انعقاد مدة اجتماع المجلس ممن يدعى عليه جنائياً من أعضائه أو يكون مسجوناً في غير مدة انعقاد المجلس للدعوى لم يصدر فيها حكم

المادة ٦ - كل نائب يعتبر وكلاء عن عموم أهالى القطر المصري لا عن الجهة التى انتخبته فقط .

المادة ٧ - مجلس النواب يكون مركزه بمحروسة مصر ويقعد بأمر يصدر من الحضرة الخديوية بموافقة رأى مجلس النظار ويكون اجتماعه سنوياً .

المادة ٨ - تعقد الجلسات الاعتيادية السنوية بمجلس النواب مدة ثلاثة أشهر من أول شهر نوفمبر لثانية يناير وإذا لم تكف هذه المدة لانتهاء الاشغال الموجودة وطلب المجلس أن تزداد مدته من ١٥ يوما الى ٣٠ يوما فيجب الى ذلك بأمر يصدر من الحضرة الخديوية .

المادة ٩ - إذا مست الحاجة الى تكرار اجتماع المجلس في غير مدته المعتادة فيكون ذلك بمقتضى أمر يصدر من الحضرة الخديوية تتقرر فيه مدة ذلك الاجتماع .

المادة ١٠ - تفتتح الحضرة الخديوية أو رئيس المجلس النظار بالنيابة عنها مجلس النواب بحضور باقى النظار .

المادة ١١ - تفتح أول جلسة في كل سنة تلاوة مقالة يقرأها الخديو أو رئيس النظار بالنيابة عنه وتشتمل على بيان المسائل المهمة التى تعرض على المجلس فى أثناء انعقاد جلساته وتنفذ الجلسة بعد تلاوة المقالة المذكورة .

المادة ١٢ - ينتخب المجلس فى أثناء الثلاثة الايام التالية لتلاوة المقالة لجنة لتحضير حواشيها وبعد التصديق عليه من المجلس يصير تقديمه للحضرة الخديوية بمعرفة من يتقدم لهذا الغرض من أعضائه .

المادة ١٣ - لا يشتمل الجواب المذكور على التكلم فى أى مسألة بوجه قطعى ولا على أى رأى حصلت المداولة فيه .

المادة ١٤ - ينتخب المجلس ثلاثة من أعضائه تعرض أسماؤهم على الجانب الخديوي فيعين أحدهم ليتولى رئاسة المجلس مدة الانتخاب أى خمسة أعوام بمقتضى أمر يصدر من حضرته .

المادة ١٥ - ينتخب المجلس وكيلين لرئيسه ويعين بقلم كتاب بشرط أن يكون الوكيلان من أعضائه

المادة ١٦ - تحرر محاضر الجلسات بملاحظة قلم كتابة المجلس الذي يؤلف من الرئيس ومن الوكيلين ومن الكتاب .

المادة ١٧ - أمانة الرسمية التى تستعمل في المجلس هى اللغة العربية وتحرر المحاضر والمختصات يكون بتلك اللغة

المادة ١٨ - ينظر حق الحضور في المجلس وابداء ما يرومون ابداءه فيه ولهم أيضا ان يستنيوا عنهم وكلاء من كبار الموظفين .

المادة ١٩ - اذا قر قرار النواب على ان يستدعي للحضور بمجلسهم أحدا للنظر للاستيضاح منه عن مادة معينة فعلى الناظر ان يذهب الى المجلس بنفسه او يستنيب عنه أحد كبار الموظفين بحسب ما يبال عنه .

المادة ٢٠ - لنواب حق الملاحظة على متوظفي الحكومة جميعاً ولهم في أثناء اجتماع المجلس ان يشعروا بواسطة رئيسه كلا من الناظر بما يرون لزوم الاخبار عنه من تمد او خلل او قصور يقع في أثناء تأدية الوظيفة من أحد متوظفي الحكومة التابعين لسلطته .

المادة ٢١ - الناظر متكفلون في المسؤولية أمام مجلس النواب عن كل أمر يقرر بمجلس الناظر ويترتب عليه اخلال بالقوانين والوائح المرية الاجراء .

المادة ٢٢ - كل من الناظر مسئول على الوجه المذكور بالبند السابق عن اجرائاته المتعلقة بوظيفته .

المادة ٢٣ - اذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس الناظر وأمر كل على رايه بعد تكرار الحارة وبيان الاسباب ولم تستعف النظارة فالحضرة الخديوية ان تأمر بفض مجلس النواب وتجديد الانتخاب على شرط ان لا تتجاوز الفترة ثلاثة

أشهر من تاريخ يوم الانقضاء الى يوم الاحتجاج ويجوز لارباب الانتخاب ان ينتخبوا نفس النواب السابقين أو بعضهم .

المادة ٢٤ - اذا صدق المجلس الثاني علي رأي المجلس الأول الذي ترتب الخلاف عليه ينفذ الرأي المذكور قطعياً .

المادة ٢٥ - مشروعات القوانين والقوانين تعمل بمعرفة الحكومة ويقدمها النظار لمجلس النواب لظرها والبحث فيها واعطاء القرار اللازم عنها ولا يكون المشروع قانوناً معتبراً دستوراً للعمل مالم يتل في مجلس النواب بداً فينبداً ويقرر حكماً حكماً ثم يجرى التصديق عليه من طرف الحضرة الخديوية وكل قانون يتلى ثلاث مرات بين كل مرة وأخرى خمسة عشر يوماً وإذا كان القانون مستعجلاً فيكون ثلاثاً مرة واحدة ويستثنى عن المراتين الأخرى بمقتضى قرار مخصوص يصدر من المجلس وإذا تراءى لمجلس النواب من قانون يطلب ذلك بواسطة رئيسه من مجلس النظار ومن وافقت عليه الحكومة فتعمل مشروعاً وتقدم لمجلس النواب على الوجه المبين بهذا

المادة ٢٦ - - مشروع كل لائحة أو قانون يعرض على المجلس ينظر فيه بمعرفة لجنة من أعضائه تنتخب لذلك ويجوز للجنة المذكورة أن تطلب من الحكومة إحراء بعض تغييرات في المشروع الذي تكلفت نظره وفي هذه الحالة يرسل رئيس مجلس النواب الى رئيس مجلس النظار المشروع والتغييرات المطلوب إحراءها فيه قبل المذاكرة العمومية بمجلس النواب .

المادة ٢٧ - ان لم تطلب اللجنة إحراء تغييرات في المشروع المحال عليها أو طلبت ولم توافقها الحكومة على ذلك فيقدم النص الاصلى من مشروع القانون لمجلس النواب للمداولة فيه اما اذا صدقت الحكومة على تلك التغييرات فيقدم للمجلس النص الاصلى مع التغييرات التي حصلت فيه . للمناقشة فيها وفي حالة ما اذا كانت التغييرات قد صار قبولها من الحكومة فلائحه أن تبين رأيها للمجلس وتقدم له ملحوظاتها

المادة ٢٨ - عند تقديم المشروع للمجلس من طرف اللجنة يجوز للمجلس قوله أو دعه ويؤرخ له أيضاً حالته ثانياً على اللجنة للطرف فيه

المادة ٢٩ — على رئيس مجلس النواب أن يرسل الى رئيس مجلس الطار
القوانين والقوانين التي يصدق المجلس عليها .

المادة ٣٠ — لا يجوز ربط أموال جديدة أو رسوم أو عوائد على منقولات أو
عقارات أو مراكب في الحكومة المصرية الا بمقتضى قانون يصدق عليه من مجلس
النواب وعلى ذلك لا يجوز بأى وجه كان وبأية صفة كانت تحصيل عوائد جديدة
وكل جهة من جهات الحكومة أمرت بتحصيل شيء من ذلك وكل مستخدم حرر
كشوفات أو تعريفات عنها وكل شخص باشر تحصيلها بدون قانون مصدق عليه من
مجلس النواب يحاكم كمتلس ونرد الحقوق لأربابها .

المادة ٣١ — ميزانية مصروفات وإيرادات الحكومة السنوية تقدم لمجلس
نواب سنويا لغاية الخامس من شهر نوفمبر بالاكتر .

المادة ٣٢ — تقدم للمجلس ميزانية عموم الإيرادات مع كشوفات عن كل
نوع من أنواعها

المادة ٣٣ — تنقسم ميزانية المصروفات الى أقسام متعددة يختص كل قسم
منها بنظارة ثم يشتمل كل قسم على أبواب وفصول بقدر عدد جهات الإدارة العمومية
بتلك النظارة .

المادة ٣٤ — لا يجوز للمجلس أن ينظر في دفعيات البركو المقرر للاستانة أو
الدين العمومي أو فيما ألزمت به الحكومة في أمر الدين بقاء على لائحة التصفية أو
المعاهدات التي حصلت بينها وبين الحكومات الأجنبية .

المادة ٣٥ — ترسل الميزانية الى مجلس النواب فينظرها ويبحث فيها (بمراعاة
البند السابق) ويعين لها لجنة من أعضائه مساوية بالعدد والرأى لأعضاء مجلس
النظار ورئيسه ليطرأ جميعا في الميزانية ويقرروا بالاتفاق أو بالاكثرية .

المادة ٣٦ — اذا وقع الخلاف بين لجنة النواب ومجلس النظار وتساوى العدد
فيه فالميزانية تعود الى مجلس النواب فان أيد رأى مجلس النظار وجب تنفيذه وان
أنبت رأى لحته فيكون العمل بمقتضى المادة ٢٣ و ٢٤ من هذه اللائحة وأما ما حصل
فيه الخلاف من الميزانية فاذا كان مقررا في ميزانية السنة السابقة ولم يكن مخصصا

لأعمال جديدة مثل أشغال عمومية وغيرها فينفذ موقتا الى أن يعقد المجلس الثاني
عقته في المادة ٢٣ .

المادة ٣٧ — اذا أبد المجلس الثاني رأي المجلس الاول في أمر الميزانية وجب
تفيد الرأي المذكور قطعيا كما في المادة ٢٣

المادة ٣٨ — كل عهد أو شرط أو التزام يراد عقده بين الحكومة وغيرها
لا يكون نهائيا الا بعد الاقرار عليه من مجلس النواب مالم يكن على أمر مبلغه وارد
في ميزانية عامة مقررته هذا المجلس وأية مقالة عن أشغال عمومية خارجة عن الميزانية
أو مبيع شيء من أملاك الحكومة أو اعطاء أرض بدون مقابل أو امتياز لا حد لا تكون
نهائية الا بعد الاقرار عليها من مجلس النواب أيضا .

المادة ٣٩ — يجوز لكل مصري أن يقدم للمجلس عريضة وبحال النظر في
هذه العريضة على لجنة ينتخبها المجلس وبناء على ما يجاب منها يحكم المجلس بقول
أو رفض العريضة وما يحكم بقوله يحال على الناظر المختص به ذلك .

المادة ٤٠ — كل عرض يختص بحقوق أو صوالمح شخصية يرفض متى كان من
خصائص المحاكم المدنية والإدارية وكان لم يسبق تقديمه لجنة الإدارة المختصة به .

المادة ٤١ — اذا طرأت ضرورة مهمة تستلزم المبادرة الى الاخذ بأسباب
الاحتياط لوقاية الحكومة من خطر أو المحافظة على الأمن العمومي وكان مجلس
النواب غير معقد وكانت الاحتياطات المرغوب اتخاذها داخلية بخصائصه ولم يسع
الوقت اجتماعه جاز لمجلس النظار اجراء ما يلزم اجراؤه على مسؤوليته مع التصديق
على ذلك من الحضرة الحديوية ولدى انعقاد مجلس النواب يقدم الأمر اليه ليرى
رأيه فيه

المادة ٤٢ — لا يجوز لأي شخص أن يعرض لمجلس النواب مسألة ما أو يناقش
فيها أو يشترك في المداولة الا ان كان من اعضائه أو من النظار أو ممن كان حاضرا
معه أو نائبا عنهم .

المادة ٤٣ — يكون اعطاء الآراء في المجلس بواسطة رفع اليد أو النداء بالاسم
أوضح الآراء في صندوق

المادة ٤٤ — لا يجوز اعطاء الآراء بالتدافع بالاسم الا اذا طلب ذلك عشرة من أعضاء المجلس بالاقل وعلى كل حال فالرأي فيما نص عليه المادة السابعة والاربعين يكون دائماً بالتدافع بالاسم .

المادة ٤٥ — انتخاب الثلاثة الاعضاء الذين يعين منهم رئيس المجلس وكذا انتخاب الوكيلين والكتّاب الاول والثاني يكون دائماً بوضع الآراء في صندوق .

المادة ٤٦ — لا تكون المداولات بالمجلس صحيحة الا اذا كان حاضرا فيه ثلثا أعضائه بالاقل والا كانت المداولات لاغية ويكون صدور القرارات بالاغلبية المطلقة .

المادة ٤٧ — كل قرار يترتب عليه مسئولية الطلار لا يجوز صدوره الا بالاغلبية المتوفرة فيها ثلاثة أرباع النواب الحاضرين بالحصة .

المادة ٤٨ — لا يسوغ لاحد من النواب أن يستيب عنه غيره لانداء رأيه

المادة ٤٩ — على مجلس النواب أن يحرر لائحة اجراءاته الداخلية وتكون تلك اللائحة نافذة الحكم بمقتضى أمر يصدر من الحضرة الحديوية

المادة ٥٠ — للمجلس الحق أن يعدل هذه اللائحة الاساسية بالاتفاق مع مجلس
الظفار

المادة ٥١ — اذا أغضض معنى بند أو عبارة من هذه اللائحة فيكون تفسيره بانحداد مجلس النواب مع مجلس الظفار .

المادة ٥٢ — كل احكام القوانين والاورام والقوانين والقرارات المخالفة لهذه اللائحة لا يعمل بها بل تكون لاغية .

المادة ٥٣ — على نظارنا تنفيذ هذه اللائحة كل فيما يخصه .

صدر سراى الاسمعية في ١٨ ربيع الاول سنة ١٢٩٩ و ٧ فبراير سنة ١٨٨٢

الملحق السابع

مكاتبات عرابي مع الكونت فرديناند دي لسبس

في أثناء الحرب

لاسيناد (الهند) في ٢١ أكتوبر سنة ١٨٨٢

— الى المسيو بلنت

سيدي العزيز

أسارع الى الرد على خطابك المؤرخ في ١٧ . لما تقابلنا معا في بداية هذه السنة في مصر حيث كان عرابي وزيرا للحرية ذهب لازورده مرة في ديوانه وفي أثناء زيارتي اياه كان يحيطه كبراء القاهرة بالاحترام وكان في حوش قصر النيل الواسع جمع كبير من الفلاحين وكانت الفرقة السابقة لفرقة مملوءة بالناس ومن ذلك ظهر لي انه محل تقدير الرأي العام وفي المساء نفسه رأيته بالمرشح بجوق الحديو الى جانب سمحه

وقد قال لي في المحادثة التي حررت بيني وبينه هذه الكلمات بنصها :

« اني أعرف بامسيو دي لسبس انك كنت طول حياتك رجل تقدم وحرية ولست أرغب غير ذلك لبلادي » .

ورأيت بعد ذلك مع انورزا . الآخرس في ولجة أقيمت « في نيو أوتيل » لمناسبة الذكرى السنوية لاستقلال امريكا وقد اشترك في شرب نخبة الحديو . وبعد ذلك عدت الى فرنسا ولم أعد الى مصر الا بعد ضرب الاسكندرية ولم تكن بيني وبين عرابي باشا منذ ذلك الى نزول الحيوش الانجليزية في الاسماعيلية سوى العلاقات الموضحة في مكاتباته دون ان تتقابل ولا مرة واحدة .

وهذه المكاتبات العربية التي أرسلت أصولها الى رئيس المجلس الحربي المعقد

ماتقاهرة ، لم يكن لها عرض سوى وقاية القضاة البحرية التي كان عرابي دائما محلصا في وقايتها وسوى حماية أرواح وأملاك الرعايا الاوروبيين المقيمين في مصر . وأرسل اليك الترجمة الرسمية لتلك الوثائق وهي تشرف موكلك الذي توليت الدفاع عنه في كرم نفس .

ويدولى من الصعب ان قائدأ لاحد الجيوش يمكن ان يعرض لعقوبة الاعدام بعد ان سلم سيفه لقائد انجليزى منتصر .

وتقبل ياسيدى تأكيده احترامى الفائق الكونت فرديناند دى لسبس

المرفقات

بورسعيد في ٢٧ يوليو سنة ١٨٨٢ (وصل من المعسكر)

الى السيد دى لسبس يبورسعيد

أشكر سعادتك على الجهود النبيلة التي تفصلت بيذلها لاجل مع الحيوثراتناعة لسفن الدول من الغزول في بورسعيد وكذلك على التشجيع الذي منحته لسكان هذه المدينة والى الاوروبيين لحضهم علي البقاء . وهذا متهمى ما يمكن أن أؤمله .
وتقبلوا أصدق الاحترام لشخصكم الكريم .

وزير الحرية والبحرية

الاسماعيلية في الصباح وصل الساعة ١٢ر٤٥ يوم اول أغسطس سنة ١٨٨٢ آب من كفر الدوار

صاحب السعادة صديق المكرم السيد دى لسبس بالاسماعيلية

استلمت رسالتك المحررة بالفرنسية وناء على ما جاء فيها كتبنا الى مدير بوليس القاهرة لكي يتخذ الاجراءات اللازمة لضمان طمأنينة الاوروبيين الموجودين في المستش الاوربي بالعباسية بالقاهرة ولكي تترك لهم الحرية الكاملة في القاء او الرحيل . وكتبنا أيضا الى مدير الشرقية ليضاعف عانيته بالاوروبيين الذين في الرقادية ويضمن لهم الوقاية الكاملة وانا سعيد بتوطيد علاقات المودة بيننا

وزير الحرية والبحرية والمعسكر

الاسماعيلية في ٤ (٢) اغسطس سنة ١٨٨٢

الى المسيو فرديناند دى ليس بالاسماعيلية

أتشرف بان أخبر سعادتك بان قومندان السفن الانجليزية بالاسماعيلية أرسل الى قائد قوات هذه المدينة منشورات في النية الصاقها على الحيطان وقد علم بهذا الامر اعضاء المجلس العام الموكل اليه أعمال الحكومة فاتخذ هذا القرار الآتي وأرسلت صورة منه الى قائد قوات الاسماعيلية:

قرر المجلس المجتمع اليوم قصر الليل بان المنشورات التي أرسلت اليك من حاسب قومندان السفن الانجليزية لالصاقها على الحيطان في المدينة ، والتي تنص على ان الاهالي يحب عليهم ان يمشوا في بيوتهم ويهطوا أسماءهم ليست لها أية صفة الرامية لان اصدار المنشورات التي من هذا القبيل من حقوق السلطات المحلية وحدها ولا قيمة لها اذا أتت من سلطة أخرى.

ونحن نتقل الى سعادتك هذا الخبر ماء على أمر المجلس واداني احترم جيدة العناية بغاية الدقة خصوصاً وانها أظهر عمل بسجل اسم سعادتك في التاريخ أتشرف بانبلغ سعادتك ان الحكومة المصرية لن تحرق حيدة القناة الا عند الضرورة القصوى وفي حالة قيام الانجليز بعمل عدائي ضد الاسماعيلية او يورسعيد او نقطة أخرى واقعة على القناة وستضطر السلطات المحلية الى اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمنع كل عمل عدائي ولكنها لن تكون مسؤولة عن النتائج التي تنجم فيما بعد كما تدركه سعادتك . وانا واثق ان سعادتك ستتخذ أحسن الوسائل لهذه الغاية من قبل ان يلجأ القوم الى شيء من ذلك.

وتفضل بقبول وافر الاحترام

وزير الحرية والبحرية بكفر النوار

الساعة ٧ والدقيقة ٤٥ (بدون تاريخ)

الى السيد دى لسبس بالاسماعيلية

علمت من تلغراف وارد الى من قائد الجيوش شعبشة بمحسورك مع حرمك وزوج
ابنتك الى المكان الذى عسكرت به الجيوش وأشركك لحسورك الى هذا المكان
للثقة والامان اللذين يعيشهما ذلك بالنسبة للاسماعيلية والقناة كلها ولعل سعادتك تعلم
حق العلم ان كل ما نقشه ونريده هو الامان والاعمال الطيبة . وسنساعد على ذلك
من جانبك بعون الله تعالى وتفضل بقبول وافر الاحترام

قائد الجناح الشرقي بالتل

الاسماعيلية الساعة ٤ والدقيقة ١٥ ما. (بدون تاريخ)

الى السيد فرديناند دى لسبس بالاسماعيلية

أرسل اليك صورة من التلغراف الذى استلمناه من رئيس أركان الحرب للجناح
الشرقي بالتل الكبير والذى يبرهن لسعادتك على ان الانجليز لا ينجحون
حيدة القناة

من يعقوب باشا ياور وزير الحربية بقصر النيل

من رئيس أركان الحرب للجناح الشرقي الى سعادة ياور وزير الحربية بالقاهرة:
نخبر سعادتك انه في يوم الاربعاء الموافق اول شوال سنة ١٢٩٩ غادرنا التل لمتمش
على جميع القنط التي توجد بها أعمال عدائية ولما وصلنا الى جناح الشلوة على
أخبار آجاء بها المستكشفون وقد تأكدنا من صدق هذه الاخبار اذ وجدنا ان
فرقة استطلاع كانت تمر على الشاطئ الشرقي لقناة المياه الحوية فابصرت باقرب
من حمة القشرة بعضاً من جنود الاعداء ولما اقترت جنودنا أطلق العدو النار
ولكنهم قابلوه بشجاعة ففرت فرقة الاعداء الى بركة القنار وقد أسرها رجا -
وقادوها الى جناح الشلوة ووجدوا بها ١٣٣ من دواب الخيل .

وقد حصل ذلك في اليوم المذكور ومنذ ذلك لم يظهر العدو وأخبار المعسكر الشرقي حسنة ولم يعرف عدد الجرحى من الاعداء، وأما من حيثنا فلم يمس أحد .
ووجدنا من اللازم ان نخبر بهذه الواقعة التي استمرت نحو عشر دقائق
(بدون امضاء)

في ٢٠ اغسطس سنة ١٨٨٢ بعد الظهر
من وزير الحرية والبحرية بكفر الدوار الى صاحب السعادة المسيو دي لسبس
بالاسماعيلية

علمنا من تلقاها أرسله قائد الجناح الشرقي ان الانجليز أطلقوا المنافع من
برادهم على جيوشنا التي بحجة الاسماعيلية وهذا العمل العدائي من جانب الانجليز
انتهاك لحومة القناة وقض لحيدتها . ومصر مستعدة لان تزيل القناة من الوجود لكي
تدفع الاعمال الحرية التي يقوم بها الانجليز هناك فما هو رأى سعادتك ؟ نأمل
ان يصل إلينا جوابك في مدة ٢٤ ساعة . لقد بذلت أكبر الجهود ونحن من جانبنا
قد احترمنا حيدة القناة حتى اللحظة التي ارتكب فيها الانجليز هذا العدوان مخالفين
جهودك واحترامنا لحيدة .

الاسماعيلية في ١٥ اغسطس - سنة ١٨٨٢ مساء وارداً من المعسكر الى المسيو
فرديناند دي لسبس

علمنا ان الانجليز يعملون الآن لاقامة حصون بجانب السويس والقناة وان
آلات الحرب والمدافع الخ تم بالقناة باذن من الشركة . وتشيد هذه الحصون
ينقض مبدأ الاحترام الواجب للقناة ووجود سعادتك لا بد منه لتتخذ الاجراءات
اللازمة لمنع هذه الاعمال واحترام حيدة القناة التي لم أسها من جهتي قط حتى اليوم .
وزير الحرية والبحرية بكفر الدوار

الاسماعيلية في ١٩ اغسطس سنة ١٨٨٢

الى الميودى لبس بالاسماعيلية

علنا الآن من تلغراف ان القناة مهددة مع استعمال القوة ضد شخصك وان
التلغراف الفرنسى الخاص بالقناة قطع عند السويس وانه منع مرور سفن الدول عند
بورسعيد والسويس

واذا كانت الامور هكذا فما هي الاحتياطات التى ستخذها؟

وزير الحرية والبحرية بكفر القوار

الى الميودى لبس بالاسماعيلية

(ملحق بالتلغراف نمرة ٧١٧)

اذا كانت الامور هكذا فما هي الاحتياطات التى ستخذها للدفاع عن حيدة القناة؟

وزير الحرية والبحرية

يوم الاربعاء اول شوال سنة ١٢٩٩ قابلت جنود الاستطلاع التابعة لنا الجنود

الانجليز عند قناة المياه الحلوة وحدثت بين الفريقين موقعة وهذا ما يضطرنا الى رد

هذه القناة مع احترام القناة الكبرى فأعلنت بذلك الوزير

أقرار نينيه الذى أقسم عليه

بشأن الحوادث التى وقعت أثناء الحرب

جون نينيه الذى كان فى الاسكندرية والذى يقيم الآن فى لندن يقول ما يأتى مقسماً على صحته :

لى من العمر خمس وستون سنة وأنا سويسرى الاصل وقد عشت فى مصر مدة اثنتين وأربعين سنة قبل شهر أكتوبر سنة ١٨٨٢ وقد ذهبت الى مصر لأول مرة بصفة مدير زراعة القطن الخاصة بمحمد على وصرت بعد ذلك تاجراً . ولكنى اعتزلت التجارة منذ عشرين سنة . وفى أثناء إقامتى بمصر وقفت على أحوال الامة وعادتها وصار لى كثير من الاصدقاء الخصوصيين ومنهم عرابى بك الذى صار فيما بعد عرابى باشا .

وكنت مقياً فى الاسكندرية قبل أن يضرها الاسطول البريطانى وفى اليوم الذى ضربها فيه وفى صباح هذا اليوم رأيت عدداً من القنابل تمر فوق بيتى وقد دميت بعض القنابل الكبرى وعليها اسم « الاسكندرية » فى المنزل المجاور لمزلى . وثلاثة القنابل التى مرت فوق بيتى قتلت احد عشر شخصاً وجوادين بالقرب من باب محرم بك وقد أحرقت قنابل السفن بيوتا ومبانى ودمرتها فى جميع الجهات . وفى صباح اليوم التالى استأنفت البوارج الضرب فاجابها حصن أو حصنان فى ضعف . ورفع علم أبيض فوق الترسانة وأرسل طلبه باشا الى القومندان البريطانى ليسانه لماذا أعيد الضرب مع أن الحصون سكنت .

وكان جواب الاميرال لطلبه باشا كما قرره هذا لاآخرين بحضورى بأنه لوحظ أن بعض الحصون أصلحت فى أثناء الليل وأنه بسبب اطالة الدفاع فى اليوم السابق قرر الاميرال اطلاق النيران على جميع الحصون بما فيها حصن كوم الذكة (دمشق) وحصن كوم الناصورة (نابليون) الا اذا سلت له جميع الحصون والعشلاقات . فأوضح له طلبه باشا أنه لم يخول له تسليم أى حصن أو عشلاق له دون موافقة وزارة

الحديد وأنه من القسوة أن يضرب حصنا كوم المدكة وكوم الناضورة بعد أن قرر عرابي باشا عدم استعمالها وعدم الدفاع عنها لوقوعها داخل المدينة ولأن الطلقات منها قد تسبب دمار المدينة . فكان الجواب أن البريطانيين لا يمكنهم أن يراعوا ذلك وأنه إذا لم تسلح جميع الحصون والقشلاقات لغاية الساعة الثالثة فيعاود الانجليز الضرب ويدمروها فينبط طلبه باشا أنه لا يمكنه أن يتخار مع الحديدو ومجمله بالرمل ويأتيه الجواب في الوقت المناسب وذهب طلبه باشا ولكنه عاد ليسأل عما يفعله البريطانيون إذا لم تسلح الحصون والقشلاقات ولم يبق فيها جنود ليدافعوا عنها فكان الجواب : « سنضربها جميعا وندمرها الا اذا سلت لغاية الساعة الثالثة » . فذهب طلبه الي الرمل وبقي العلم الايض نفسه يخفق فوق الترساة حين عودته ولم يكن يرى أى علم ابيض آخر وقد ساد الخوف والذعر الاهالى حين علموا أن ضرب المدينة سيعود عند الساعة الثالثة وحدثت مهاجرة عامة من جانب الاهالى والمحيش وفي الساعة الثامنة كت في ميدان القاصل وكان مكتظا بالجنود وبكثير من الضباط المتنازين وكانوا سائرين في انجاء باب رشيد وكان سليمان بك سامى — وهو ضابط أعرفه — يقود الجنود الى باب رشيد بقصد اخلاء مدينة الاسكندرية لآء أمر بتدمير جميع الحصون وضرب القشلاقات بالقنابل في الساعة الثالثة .

وكان آلاى من الاهالى البائسين يغادرون المدينة حاملين أمتعتهم الى أمكنهم قتلها وكانت حش الجنود القتلى تنقل بعيدا وقد صاح الجمهور حين رأى قائلا : « اقتلوا هذا الكلب الانجليزى . اقتلوا النصرانى » ولحسن الحظ أنت في ذلك الوقت فرقة من الجنود المشاة قانضمت اليها وحنى ونفك نحيوت وفي الساعة الثالثة تقريبا رأيت عرابي باشا وكان يغادر المدينة مع الاورطنين الاوليين متجهين الى القاة وأرشدني الى الانغماس للاطباء والصليب الاحمر واتاعهم . وقبل ان استطيع الانضمام الى الاطباء سمعت ذئير المدافع من السفن واستمر الضرب نصف ساعة قريبا ولكنه انقطع لان الحصون لم تنجب

وكان البدو من قبيلة أولاد على قد دخلوا المدينة من القنارى او باب عمود الصوارى فشرعوا ينهبون الحوايت وقد رأيت كثيرين منهم قبض عليهم وجلدوا

بامر سليمان بك سامى اذ حاولوا ان يغادروا المدينة حاملين أسلحتهم . وكان عرابي باشا قد أمر قبل تحريره باغلاق باب المدينة لمنع البدو من دخولها او من مغادرتها باسلامهم وأمرت فرقان من الرديف بالبقاء في المدينة لتحرسا الشوارع الرئيسية وتحفظا الأمن والنظام ولكن الامر باغلاق باب المدينة كان سدى لان جميع الجود بذلوا كل ما في استطاعتهم ليخرجوا من المكان وكان طلبه باشا بعد الظهر في الرمل يتباحث مع الحديو وكنت طول هذا الوقت في قاعة الطعام الخاصة بالضباط بالقرب من باب رشيد وكان هناك كثير من الباشوات ومن بينهم محمود سامي البارودي ومحمود فهمي وقد غادرت المدينة معهم ومع عدد من الاطباء والضباط عن طريق باب رشيد لكي تلحق بالجيش . وامت القيلة في بعض القصور بالصواحي وبعد ان تركت المدينة قذفت الريح في أثناء الليل بدخان أزرق من المدينة وانضح من ذلك ان البيران شبت في أمكة مختلفة مسا . ولم يكن في المدينة حريق حين عادرناها ولم يشمل الجود البار فيها بل بذلوا أكر جهدهم لمنع امتداد الحرائق التي سببتها مدافع الاسطول ولحق العرب وغيرهم من السلب ومن المحتمل ان بعض جود الفرقتين اللتين تركتا لحفظ الأمن والنظام انضموا الى البدو في نهب المكان ولكن هذا كان محالفا عاما لاوامر عرابي باشا والضباط الآخرين .

ويمكن ان أقول مؤكداً ان عرابي باشا أو أي ضابط من الضباط الآخرين ما كان يفكر في ان مدينة الاسكندرية قد تشمل فيها النيران بأيدي العرب او غيرهم وأنا أعرف ان عرابي باشا وجميع الضباط الآخرين حزنوا ودهشوا اذ رأوا المدينة تحترق بعد ان تركوها وأبدوا جميعاً أملهم في ان ذو الفقار باشا يحافظ الاسكندرية وصديق الحديو الحليم سيؤدي كل جهدهم مع رجال المطافي لاختاد تلك النيران وحفظ الأمن . وأنا أقول في وضوح ان العلم الابيض الوحيد الذي رفع هو العلم الذي كان فوق الثرسانة حين ذهب طلبه باشا الى الاميرال ولم ينزله طلبه باشا اذ ذهب الى الرمل مؤملا ان يعود بجواب وزارة الحديو ولكن طلبه حمزه الحديو ووزاته بالرمل مع درويش باشا حتى الساعة الخامسة تقريباً ولما عاد الى المدينة كان الجيش قد أحلها فكل من الحال حينئذ انزال العلم . وفي فجر اليوم التالي مشينا

مدة ثلاث ساعات على شاطئ قناة المحمودية ثم ركبنا « لنشاً » بخارياً مع عرابي باشا متجهين نحو كفر الدوار . ووقف بنا عند مكان يسمى عزبة خورشيد باشا حيث عسكر قسم من الجيش وبينما كنا هناك مر قطار به عربات حديدية في طريقه الى الاسكندرية وقال عرابي باشا ان هذا القطار طلب وأمر بإرساله ليقبل الحديو وأسرتهم الى القاهرة وبعد ان ارتقبنا عودة القطار مدة ساعتين جاء تلغراف يقول ان الحديو أدل رأيه ولن يفادر الاسكندرية وقد مكث عرابي باشا تلك الليلة في النش البخارى وبينما كان هالك أنت الانباء عن مذابح وقت في دمنهور وططا فأرسل عرابي في الحال ثلاث فرق من الجنود مع أوامر دقيقة لمديرى تلك الامكنة بأن يرسلوا جميع الاوربين دون أجر الى الاسماعيليه وبورسعيد وبان يحومم والا حكم عليهم بالاعدام . وبينما كنت مع عرابي باشا جاء نياً يقول ان احمد بك المنشاوى أحد سعاة ططا خاطر بحياته وأفسد خمساته من الاوربين المسيحيين واليهود فأرسل عرابي خطاباً خاصاً الى احمد المنشاوى شكره فيه لحمايه الاوربيين . وأصدر عرابي أمرأ ضمن الاوامر اليومية بأن جميع الاجانب أياً كانوا يجب ان يعاملوا بالاسانية في كل مكان وان تحميهم السلطات المدنية والعسكرية ومن يقصر في ذلك يحكم عليه بالاعدام . وقضى عرابي بنقل هذا الامر الى جميع انحاء القطر ونشره بين أفراد الجيش وأرسل أبصاً الى القاهرة مع تعليمات حازمة خاصة الى « الضابط » او مدير بوليس العاصمة ليعنى بتنفيذه . وان نجاة الاوربين في القاهرة وغيرها ليرجع فضله كله الى عرابي وأنا أعرف ان عرابي أمر برمي ستة وثلاثين من البدو بالرصاص لانهم قتلوا أوربين ونهبوا أملاكهم وكذلك أمر بشق عدد من الاهالي في دمنهور وططا لانهم كانوا السبب في مذابح الاوربين وأرسل الاشياء الثمينة التي أخذها من الناهبين الى القاهرة واذكر ان دى شير أخذ أسيراً فعنى به وعومل بالشفقة وقد اعتنيت بشأنه بإرشاد عرابي

وكنت مع عرابي حين تسلم خطاب الحديو الذى رغب فيه اليه ان يذهب الى الاسكندرية فأجاب عرابي على هذا الخطاب باخبار الحديو انه ، أى عرابي ، في كفر الدوار ليؤدى العمل الذى أمر به مجلس الطار الذى اعتقد بالاسكندرية والذى

حضره الخديو ودرويش باشا وأنه عازم على العمل وفق هذا الامر وعلى تنفيذها
بإمالة . وكنت أيضاً مع عرابي حين وصل الخطاب الثاني من الخديو وفيه يفصل
عرابي من منصب وزير الحرية اعتباراً من يوم ٥ رمضان ويعلن أنه معتبر عاصياً .
وقد اجتمع المجلس على أثر ذلك في القاهرة ولم يحضره عرابي ولكن حضره أكثر
من ستمائة من الاعيان أوأخصيصاً لهذا الغرض من أنحاء القطر ، وقرر هذا المجلس
أن عرابي لا يمكن اعتباره عاصياً إلا بأمر السلطان وأن الخديو ليست له هذه السلطة .
وقرر أيضاً مواصلة الدفاع الوطني وفقاً لقرار مجلس النظار الذي اجتمع بالاسكندرية
بمحضور الخديو ودرويش باشا والذي عهد الى عرابي باشا بالدفاع عن الوطن .

وبعد عشرة أيام أي حوالي العشرين من رمضان والخامس من أغسطس عقد
مجلس آخر حين تقرر أن تقطع قناة السويس في أربعة أمكنة هي رأس العش والفتنة
وسنبل وشالوف . وكان عرابي ومحمود فهمي باشا هما المعارضان لاقتراح قطع القناة
وحتى على أن لايفعل ذلك إلا اذا أتى الجيش البريطاني عملاً عدائياً من ذلك الجانب
وقد أعد كل شيء من الرجال والاجهزة لتدمير القناة في ليلة واحدة بأمر المجلس
ولكن اذا التلغراف يأتي من دى لسبس في مساء الثاني والعشرين من أغسطس
وعلى ذلك سحب التبناميت بناء على أوامر عرابي وصار على العالم أن يحمّد لعرابي
أفاده قناة السويس .

وكلمنا طلب أحد من عرابي أن يحمي الاوربيين منحهم كل مساعدة لحاينهم
وتأمينهم . وأما أعرف أنه منح الاوربيين حمايته بناء على طلب دى لسبس والقتل
الفرنسي وقنصل اليونان بالزاقيق وغيرهم وقد صرح هؤلاء القناصل علماً بأنهم
لا ينادرون هذه البلاد التي عاشوا فيها طويلاً ما داموا لا يخافون شيئاً بفضل رجل
متنور كعرابي باشا . وكان تحت رياسته ضباط لعلمهم كانوا يعاملون الاوربيين معاملة
سيئة لولا أن عرابي عارضهم وضمن قدر استطاعته الحرية والوقاية للجميع . وأتذكّر
جيداً أنه قبل أن يرقيات كلبية أرسلت بشركة التلغرافات الشرقية الى أوروبا وأنها
أحدثت صروراً بالنا ولذلك كلن في العزم أن يرسل ضابط الى مكتب التلغراف لينع

ارسل البرقيات الجفرية ولكن عرابي رفض ان يؤيد أي تدخل قاتلا ان طائفة التجار تهمه في هذه الحالة بأنه يضر بمصالح التجارة .

وكانت الخطوات التي اتخذها عرابي للدفاع عن بلاده عند الاسكندرية وكفر الدوار والتل الكبير وغيرها بناء على أمر مجلس النظار الذي عقد في الاسكندرية تحت رئاسة الخديو نفسه وحضره درويش باشا وغيره من رسل السلطان وهذا الامر لم ينته قط . ولما اتخذ عرابي موقفه وانشأ خط الدفاع عند كفر الدوار كان يعمل وفق أمر مجلس النواب وكان الشعب المصري يؤيده ويمطف عليه . وكان الاعيان والتجار ورجال السلطات المدنية والدينية يأتون من أنحاء البلاد الى كفر الدوار يوما بعد يوم وأسبوعا بعد أسبوع ليهنئوا عرابي ويشكروه على وطنيته ويقوضوا اليه أمر الدفاع عن الوطن وكانوا كلهم يأخذون حضا من التراب في أيديهم ثم يرمون بها فوق الخنادق دلالة على اشتراكهم في العمل .

وقد رأيت بين هؤلاء الاعيان الذين زاروا المعسكر وشكروا عرابي في كفر الدوار: فخري باشا واحد نشأت باشا مدير الدائرة وجميع اعضاء المحكمة الاهلية والقضاة الوطنيين ووكيل النائب العمومي بالحكام المختلطة وعثمان فوزي باشا ورؤوف باشا وعرفي باشا ومشارك والعلماء ومفتي الاسكندرية وكثيراً من القريين المتأثرين وكثيراً من الرؤساء وأساقفة الازهر وعددا من افراد أسرة رياض باشا والدمري باشا وحسن العقاد وكثيراً من العمدة وأصحاب الاملاك وعلى الخصوص احد بك المتشاور الذي أشرت اليه آفا . وقد اكتب الجميع بمبالغ لتغطية نفقات حرب الدفاع ودفع البعض مبالغ هائلة وأعرف منهم قليلين دفع كل منهم عشرة آلاف حقه . وكانت الاموال كلها ترسل الى القاهرة ولا يأتي مباحثي الى المعسكر وانما كلن يرد اليه مقادير من الغذاء والقمح والفاكهة وكان كبار الزائرين يشربون عرابي وساقوه . وقد قال له مفتي القاهرة الحرم : « نحن ممثلي أكثر من خمسين ألف من الاعيان ومشايخ البلاد وأصحاب الاملاك الخ نشكرك جميعا لانك توليت يدك أمر الاسلام والامة وأنت في الحقيقة أكبر وطني في وادي النيل » فقال له عرابي ضمن رده : « اننا لا نريد شيئا سوى العدل الشامل وضمان حياتنا وأشخاصنا واملاكنا وحقوقنا .

يريد برلمان مستقلا ينتخب على أساس الحرية ووزارة مسؤولة وتوحد بوابلك ولا يحكم.
يريد الاقتصاد الدقيق في الادارة دون مراعاة سياسة ودون موطنين أجاناب على
رأس الوزارة يالون مرتبات ضخمة . تريد مصر المصريين مع الحرية والامانة
لكل الاجانب اذا خضعوا مثالا للضرائب والرسوم »

وأقول دون تردد ان عرابي لم ينقل قط السلب والمذايح الى أرض مصر وان
الامة المصرية وأعابها هم الذين عهدوا اليه بالدفاع عن البلاد، ولم يكن عرابي السبب
في أن ينهب أو يذبح أي مصري أو أخنبي بل انه على العكس عمل كل ما في وسعه
ليحمي حياة وأملاك المصريين والاجانب على السواء . ولعاقب جميع الذين ارتكبوا
جرائم التهب والمذايح .

وقد كنت مع عرابي من اليوم الذي عادر فيه الاسكندرية الى الرابع والعشرين
من أغسطس اذ سافر ليحلق بالجيش المراتب بالقرب من الاسماعيلية . وقد لحقت
عرابي بالقاهرة في صباح اليوم التالي للوقعة وعقد اجتماع في بيت عرابي بالقاهرة
يوم الخميس للبحث في مسألة تسليم القاهرة ففارت فكرة عرابي التي ترمي الى تسليم
القاهرة دون دفاع وجاء نأ بان الجنود الانجليزية وصلوا الى العباسية فسألني عرابي
وطلبه رأيي فيما يجب ان يفعلاه فصصحت لهما بان يذهبا الى القائد البريطاني وسلمنا
له سيفيهما باعتبارهما أسيري حرب فيحبهما شرف انجلترا . وقد تركاني بمنزل
أولهما وركبنا معا الى العباسية .

جون نيينه

أقسم على ذلك أمامنا في قاعة بلدية وستمنستر بمقاطعة مدلسكس بانجلترا في
هذا اليوم العاشر من شهر نوفمبر سنة ١٨٨٢ .

الامضاءات

وبلى ذلك قصيدة طويطة نظمها المستر دلت في السياسة وشرفها وفي مصر
وانجلترا . وبلغ عدد أبياتها أرمائه تقريبا وقد نشرت في المجلة سنة ١٨٨٣

مقتل اسماعيل صديق باشا

قضت ظروف على قلم الترجمة في « اللامع » ، حينما كانت الترجمة تنشر متوالية أن يترك تعريب ما كتبه مستر بلنت في كتابه هذا عن مقتل اسماعيل صديق باشا الملقب بالعمش ، فاكنتي أن يقول في صفحة ٣٤ : وهنا روى المستر بلنت حكاية وفاة اسماعيل باشا للعمش كما سمعها من السير رفرز ولسن . ولذلك نعود هنا فننشر تعريب ما كتبه في هذا الموضوع وهو :

اذكر جيداً مقاله لي السير رفرز ولسن بشأن أكبر مأساة بين الحرائم الكثيرة التي ارتكها الخديو اسماعيل - وهي قتله اسماعيل صديق العمش وكان هذا خيانة أثرت أكثر من غيرها في ولا. جماعة الارفا. والخدم الذين كانوا يحيطون بالخديو ، ولا أقول في ولا. دعايله المصريين لانه قدده منذ زمن .

ولد اسماعيل صديق في الحزائر وآتي في طفولته الي مصر وارتفع بكفايته في خدمة الخديو وكانت بداية صلته بالباط في عهد عباس وكان يشغل وظيفة رئيس اسطبلاته على ما أظن . ثم شغل مراكز مختلفة في عهدي سعيد واسماعيل حتى صار اداة اسماعيل في انتزاع آخر قرش لدي الفلاحين . ولكنه رغم قسوته الشديدة على الفلاحين وتفوقه في اشكار الوسائل لنهبهم كانت له في القاهرة شهرة حسنة الي حد ما لانه كان يعتبر عربياً يحفظ فضيلة الكرم وكان سخياً اليدي في تبديد الثروة التي يجمعها . وشغل في السنوات القليلة الاخيرة من حياته مركز وزير المالية وقد برهن دائماً لاسماعيل على أنه خادم مخلص أمين . ولكن بالرغم من هذا خان اسماعيل الي حد القتل قبل أن اكتب هذا بيضة أشهر ، وكان ذلك في ظروف تدعو الي الاشمزاز حتى أنها أزعمت الامة المصرية رغم اعتيادها وقوع الجرائم في الدوائر العليا . وكان الدافع للخديو على ذلك دافعا أمالياً وهو متر نفسه بمقل التهمة في بعض حوادث المنش التي ارتكها الي وزيره الذي زاد اخلاصه عن الحد ، ثم ضيان سكونه بقتله والتفصيلات التي ذكرها ولسن كما يلي :

كان اسماعيل في علاقته مع المندوبين الاوربيين الذين كان يدعوهم بين وقت وآخر لفحص شئون المالية ، معتاداً أن يخفي عنهم ما استطاع في الحقيقة في تبذره غير المعتول فقدم أخيراً بمساعدة وزيره اسماعيل صديق يائناً كاذباً عن دهبونه . غير أن الضغط كان شديداً عليه لان بعضهم أوماً الى الاجنة — وأذكر جيداً أنه — رياض باشا — بأن الخديو يخدعها ، فخشي هذا أن تظهر الحقيقة كلها وأن يفضح وزيره بالوقائع اذا ما حققت الاجنة . فعزم على أن يضحي بوزيره ليخلص منه . وتولى هذه المهمة بنفسه . وكانت بينه وبين وزيره صداقة شخصية متينة فكان معتاداً أن يمر عليه أحياناً بعد الظاهر في وزارة المالية ليأخذه معه في عربته الى شبرا أو الى قصر من قصوره . فمر عليه ولم يكن الوزير يرتاب في شيء . فركب معه العربا الى قصر الجزيرة وزلا هناك ودخلا . ثم اتحل اسماعيل بعض الاعذار وركب وحده في إحدى القاعات وأرسل اليه ابنه الاصغر حيناً وحسناً وياوره مصطفى بك فهمي واذا بالاميرين يضربان الوزير الاعزل ويدفعان به الى إحدى البواخر الخديوية الراسية بجانب الرصيف . وهناك قتل هذا الرجل المهرم بعد ان قاوم مقاومة عنيفة »

ومن رأيي ولئن أن الفاعل المباشر لهذه الجريمة هو مصطفى بك مؤتمراً بامر الخديو وقد أخبرني بأن الحقيقة يانت حيناً مرض الباور الشاب بالحمل عقب تلك الفعلة واعترف بها في حديثه . ولكن عندي ما يدعوني الى الاعتقاد بأن روايته فيما يتعلق باشتراك مصطفى بك غير صحيحة وان كانت بقية الوقائع قد ثبتت لي . والذي عرفته هو ان مصطفى بك سلم اسماعيل صديق الى اسحاق بك فلت في يده . ولست متأكداً من انه مات في الحال أو بعد حين . ويقول بعضهم ان اسماعيل صديق رمي مثل كثيرين غيره في النيل بعد ان ربط حجر في قدمه . ويقول آخرون انه قتل حياً الى ما بين وادي حلفا ودقه وخفق هناك . ولكن الذي لا شك فيه هو انه لم ير حياً بعد أن رمي به الى ظهر الباخرة . وبعد أسابيع من سير الباخرة في النيل وأعلن رسمياً ان المقتش ذهب الى الصمد لتشيير الهواء وانه اعتاد الحرق هناك فوات .

ومن المؤكد أيضا ان مصطفى بك — وهو شاب معتدل لم يعتد مناظر العنف — ومن أصل جزائري كالفتش — أخافه الدور الذي أمر بلبه فرض على أمه مرضا خطيرا طال به . وهذه التجربة هي التي دعت الى أن يكون ضد سيده بعد سنة من ذلك ، ثم الى أن ينضم لمرابي في باكورة ثورة سنة ١٨٨١ — ١٨٨٢ . وهو مصطفى فهمي الذي شغل منصب رئيس نظام مصر سنين عديدة .

فهرس الكتاب

- تمهيد بقلم عبد القادر حمزة ١١٠-٣
- نص كتاب التاريخ المصري ٣٤٣-١
- ذيل الكتاب ٤٧٠-٣٤٤
- ١- تاريخ عرابي بقلمه ٣٥٣-٣٤٤
- ٢- تقرير عن بعض حوادث سنة ١٨٨٢ بقلم الشيخ محمد عبده ٤٠٤-٣٥٤
- ٣- تقارير من جون نينيه رفيق عرابي ٤١١-٤٠٤
- ٤- خطابات من عرابي باشا لم تدمج في أصل الكتاب ٤٢٩-٤١٢
- ٥- برنامج الحزب الوطني ٤٤٣-٤٤١
- ٦- خطابات من معتر غلامستون ٤٤٥-٤٤٣
- ٧- للنصير للمصري لسنة ١٨٨٢ م ٤٥٤-٤٤٥
- ٨- مكاتبات عرابي مع الكونت فرديناند دي لسيهس ٤٦٠-٤٥٥
- ٩- قرار نينيه بشأن حوادث الحرب ٤٦٧-٤٦١
- ١٠- مقتل إسماعيل صديق باشا ٤٧٠-٤٦٨

تنويه - وجدنا في الطبعة الأصلية للكتاب (طبعة مطبعة البلاغ) خطأ في ترقيم الصفحات التالية لصفحة ٢٧٢ حيث بدأ الترقيم بـ ٢٦٥ ويتالى الترقيم صحيحا إلى آخر الكتاب؛ فأثرنا تركه كما كان في الأصل وذلك تمهيدا على الباحثين الذين يعتمدون على الطبعة الأولى للكتاب.

من إصدارات مكتبة الأكراب

